

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر-
قسم التاريخ والجغرافيا

العنوان:

دور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة
الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي
(447-600 هـ / 1055-1203م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الوسيط

إشراف الدكتور:

مصطفى مغزاوي

إعداد الطالبة:

عائشة تازي

لجنة المناقشة

د. بن موسى جميلة..... رئيسا
د. مغزاوي مصطفى مقرا
أ. د. بوباية عبد القادر مناقشا
د. ذيب صفية..... مناقشا
د. بن شوش مروان..... مناقشا
د. بوخاوش مريم..... مناقشا

السنة الجامعية: 1436-1437 هـ / 2015-2016 م

كلمة شكر

" اللهم لك الحمد ولك الشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك "

فحمدا لله ذي المن والفضل والإحسان حمدا يليق بجلاله وعظمته، وصل اللهم

على سيدنا وحبيبنا محمد خاتم النبيين والرسل.

فإنه ليسعدني أن أقدم عميق شكري وتقديري للأستاذ المشرف الدكتور مصطفى

مغزاوي، الذي لم يخل عليّ بإرشاداته وتوجيهاته رغم انشغالاته الكثيرة، وكذلك

الأستاذ الدكتور خالد كبير علال الذي أرشدني إلى تصور مبدئي حول الموضوع،

فله مني أسمى عبارات الشكر، دون أن أنسى القائمين على مكتبة مركز الملك

فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض -المملكة العربية السعودية-، الذين

قدموا لي تسهيلات كبيرة في مرحلة جمع المادة العلمية، ولا ننسى أن نتقدم بجزيل

الشكر إلى كل من ساعدنا في إنجاز هذه الرسالة من قريب أو من بعيد.

ولله الحمد والشكر حتى يرضى وله الحمد إذا رضى وله الحمد بعد الرضا.

الإهداء

إلى من ارتبط رضاها برضى رب العالمين.....أمي وأبي
إلى شريكي في الحياة ورفيق دربي في حلوها ومرها زوجي
إلى من آمل أن يحملوا الإسلام فكرا ومنهج حياة ...آدم وعماد الدين
إلى إخوتي وأحبتي الأعزاء رفع الله قدرهم وأعلى من مقامهم في الدنيا والآخرة .
إلى كل محب للعلم الشرعي مقدر للعلماء متتبع سبيلهم الأئمة
إلى كل المدافعين عن الحق، إلى شباب الإسلام
أهدي ثمرة جهدي هذا.

مقدمة

مقدمة:

جاءت الدعوة الإسلامية دعوة عالمية انصهرت في بوتقتها أمم وشعوب كانت مختلفة في دينها ولغتها وثقافتها وحضارتها، لكن الإسلام بما احتواه من نظم ربانية جمع هذه الأمم والشعوب تحت راية واحدة .

وكان المشرق الإسلامي مهد تلك الوحدة، التي ما فتئت أن تعرضت إلى التصدع والضعف والانحلال والتمزق السياسي من خلال ظهور الفرق المناوئة الرامية إلى الإطاحة بالخلافة السنية القائمة، سواء الأموية أو العباسية، وكانت الشيعة من أكبر تلك الفرق بزعم أحقية آل البيت في خلافة المسلمين، فنشب صراع دموي بين الفرق الشيعية والسلطة القائمة منذ العصر الأموي، ونتج عن ذلك الصراع زُكون الشيعة إلى السرية في نشاطهم السياسي، لتنظيم دعوتهم وضم الأتباع والتخطيط لانتزاع منصب الخلافة من أهل السنة، وقد اختصت فرقة الشيعة الإسماعيلية دون غيرها من فرق الشيعة الأخرى بالنشاط الثوري المسلح ضد الخلافة العباسية، فتمخض عن ذلك النشاط السري ظهور كيانات سياسية قائمة بذاتها تتحلل المذهب الشيعي الإسماعيلي، ولعل أخطر تلك الكيانات التي ظهرت مع نهاية القرن الثالث الهجري الموافق للتاسع الميلادي الدولة العبيدية الشيعية في بلاد المغرب التي ما فتئت أن انتقلت إلى المشرق في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي- لمواجهة الخلافة العباسية وتقليص نفوذها وممتلكاتها .

ولا يمكننا أن نحصر نشاط الشيعة في المشرق الإسلامي خلال القرن الرابع هجري العاشر الميلادي على الدولة العبيدية الإسماعيلية، فقد كان البويهيون يسيطرون نفوذهم وسيطرتهم واستبدادهم على الخلافة العباسية وخلفائها في بغداد وهم شيعة زيدية، فجردوا الخليفة من صلاحياته وتولوا شؤون الأمة الإسلامية في تلك المرحلة الحرجة، فتأججت نار الفتنة بين السنة والشيعة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية بسبب الممارسات البويهية

وتأييدها للأقلية الشيعية في بغداد وخاصة إقليم الكرخ الذي كان على مذهب الشيعة الإمامية

ولقد نتج عن سيطرة الشيعة على العالم الإسلامي في تلك الفترة ظهور صراع مذهبي شديد بين السنة والشيعة كانت فيه الغلبة للشيعة في مختلف النواحي السياسية والعسكرية والعلمية والمذهبية وحتى الاقتصادية والاجتماعية، فقد عانى العالم الإسلامي من التجزئة السياسية والانحرافات العقدية والاجتماعية التي روجت لها المؤسسات الدينية والتعليمية للشيعة لفترة طويلة كان من شأنها إحداث خلل في التركيبة الاجتماعية للأمة الإسلامية .

ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأن القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي كان القرن الذهبي للتشيع، فقد سيطر الشيعة على جُل الأقاليم الإسلامية في مصر وبلاد المغرب وبلاد الشام والحجاز وبغداد، وازدادت وطأة الشيعة مع مطلع القرن الخامس الهجري موافق للحادي عشر الميلادي فأضحى الخليفة العباسي بحاجة لدعم جديد ليُحيي مذهب أهل السنة ويعيد صلاحياته كخليفة للمسلمين.

فكان لظهور السلاجقة على الساحة السياسية في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن للحادي عشر الميلادي دور كبير في تدعيم الخلافة السنية والذود عن المذهب السني، ولكن مقاومة الوجود الشيعي على مختلف المستويات والأصعدة كان يستلزم فترة طويلة نسبياً، ومع دخول السلاجقة في دائرة الصراع الداخلي حول السلطنة -الذي حال دون امتدادهم الزمني- انشغلوا وانحرفوا عن هدفهم الأساسي وهو حماية الخلافة العباسية السنية، وفي غضون ذلك الوضع ظهرت الأطماع الصليبية على المشرق الإسلامي التي وجدت القوى الإسلامية مفككة تمزقها الصراعات مما مهد الطريق أمام الصليبيين لاحتلال مقدسات المسلمين.

فكان لزاماً أن تراث قوى ثانية مشروع السلاجقة في هذا المجال، فظهرت جهود الزنكيين بقيادة عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود اللذان سعيا إلى تشكيل جبهة إسلامية

متحدة التي من شأنها مواجهة الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية، خاصة الخطر الشيعي الباطني الذي اتسع نفوذه في بلاد الشام وبلاد فارس-وهم في الأصل جزء لا يتجزأ من الدولة العبيدية الإسماعيلية- بعد أن آلت الدولة العبيدية في مصر للسقوط .

وفي كنف هذه الإنجازات والانتصارات على الشيعة في مصر وبلاد الشام تبنى ونشأ القائد صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالمشروع الجهادي للدولة الزنكية فحرص على استكمالها بعد فتور قوى الزنكيين بسبب الصراع حول السلطة، فسار الأيوبيون بقيادة صلاح الدين على نهج أسلافهم في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي وتمكن في الأخير من تقليص نفوذهم وحصر ممتلكاتهم في بقاع محددة من الدولة الإسلامية.

وعليه جاء عنوان بحثنا كالآتي: دور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي خلال الفترة الممتدة من: (447-600هـ/1055-1203م).

ومصطلح الشيعة معروف في التاريخ على أنه أطلق على أتباع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث يقول ابن خلدون: "إعلم أن الشيعة لغة هم الصاحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من خلف وسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم" (ابن خلدون، المقدمة، ص194). وقد نادى الشيعة بأحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافة المسلمين.

لُقبوا بعدة ألقاب أهمها : الرافضة لرفضهم خلافة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والباطنية لقولهم بالتأويل الباطني للقرآن الكريم ، فجاء استعمالهم لهذه الألقاب في البحث على أساس واحد : شيعة أو رافضة أو باطنية.

انقسمت الشيعة إلى خمسة فرق أساسية: الإمامية، والزيدية، والكيسانية، والإسماعيلية والغلاة، وقد نجحت فرقة الشيعة الإسماعيلية في تشكيل كيانات سياسية في المشرق الإسلامي أهمها الدولة العبيدية التي هددت الخلافة السنية القائمة في القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي.

وقد تعددت ألقاب الإسماعيلية، فورد ذكرها في البحث باسم الباطنية والرافضة وأحيانا الملاحدة، فهي ألقاب متعددة لفرقة واحدة تشترك في الفكر والمبادئ.

أما بالنسبة للكيان السياسي للشيعية بمصر فقد أطلقت عليه الدراسات الحديثة اسم الخلافة الفاطمية أما في ثانيا بحثنا فسميناها الدولة العبيدية لأنه لم يصح عندنا لا نسبها ولا ادعائها بأحقيتها في الخلافة أولا ثم إن لقب العبيديين محل اتفاق بين السنة والشيعية فيما يبقى لقب الفاطميين محل اختلاف.

أهمية البحث :

تكشف الدراسة عن مرحلة من أخطر مراحل التاريخ الإسلامي، عاش فيها المشرق الإسلامي ممزقا بين قوتين متنافستين، هما الخلافة العباسية السنية في بغداد والدولة العبيدية الشيعية في مصر، ويدور في كنف هاتين الدولتين قوى ثانوية تمثلت في السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين في خدمة العباسيين، فيما حقق العبيديون أهم انتصاراتهم على العباسيين في ظل السيطرة البويهية الشيعية على بغداد، واستفحل أمرهم بعد انقسام الدعوة العبيدية إلى المستعلية في مصر والنزارية في ألموت.

كما تكشف الدراسة عن الملابسات والخلفيات التي أدت إلى انحسار المد العبيدي الشيعي في القرن 6هـ/12م، بعد أن اكتسح مناطق واسعة من البلاد الإسلامية ونافس الخلافة السنية القائمة منافسة قوية في القرنين 4-5هـ/10-11م .

كما تبرز أيضا بعض الحقائق التي أدت إلى تمكين القوى المتغلبة وبخاصة الصليبيين على أجزاء مهمة من بلاد المسلمين، في وقت غابت فيه شخصية الخلفاء العباسيين وتبنت قوى أخرى مسؤولية الذود عن الأمة الإسلامية .

الإشكالية:

وأمام موضوع بهذه الأهمية نطرح الإشكالية التالية :

فيم تمثل دور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق

الإسلامي في الفترة الممتدة من : 447-600هـ/1055-1203م ؟

وتتطوي تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات :

لماذا تبنى السلاجقة الدفاع عن الخلافة العباسية السنية ؟ وماهي أهم إنجازاتهم العسكرية والسياسية في سبيل ترسيخ دولة أهل السنة ؟ وهل زاجوا جهودهم السياسية بأخرى علمية ومذهبية لمواجهة المد الشيعي؟ وهل كان للجانب الاقتصادي والاجتماعي نصيب من هذه الجهود ؟ ومن هي أهم الشخصيات البارزة التي كانت لها إسهامات في مقاومة الوجود الشيعي في مختلف النواحي ؟

ثم ما هي الجذور التاريخية للدولة الزنكية؟ وهل اتبعت نهج السلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي؟ وهل كان للعلماء نصيب في مقاومة الوجود الشيعي في كنف الدولة الزنكية ؟

وهل تعتبر الدولة الأيوبية وريثة تلك الجهود؟ وهل سارت على نهج أسلافها السلاجقة والزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي؟ وهل كان لكثرة المدارس التي أنشئت زمن الأيوبيين دور فعلي في مقاومة الوجود الشيعي؟

وبصفة عامة: هل تولدت ردة فعل شيعية مباشرة ضد جهود السلاجقة والزنكيين والأيوبيين الرامية إلى القضاء عليهم؟ وما مدى نجاح جهود السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي؟

هذا إلى جانب بعض التساؤلات الجزئية التي سنحاول الإجابة عنها في طيات هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

يعتبر موضوع الصراع السني الشيعي موضوعا شائكا فيه الكثير من الثغرات التي تتطلب المزيد من البحث والتحليل، فقد شغل حيزا لا يستهان به في تاريخ المشرق الإسلامي، وعليه تعود دوافع اختيارنا للموضوع إلى ما يلي :

الرغبة في دراسة هذا الجانب المهم من جوانب الصراع المذهبي، فهذا البحث يسلط الضوء على فترة مهمة من تاريخ المشرق الإسلامي، تناحرت فيه القوى وتصادمت بسبب الاختلاف المذهبي، فظهرت قوى سنية تبنت الدفاع عن الخلافة العباسية، تمثلت في السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين، فقاوموا الوجود الشيعي على مختلف المستويات والأصعدة. وإن هذا الموضوع حسب علمنا لم يجد الاهتمام المطلوب من جمهور الباحثين والدارسين، فقد انكبت الأبحاث والدراسات على جهود السياسية والعسكرية السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مواجهة القوى الصليبية، فبسبب الظروف العامة للمشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي أهمل جانب مهم من تاريخ وإنجازات هذه القوى، في وقت سعى فيه السلاجقة والزنكيون والأيوبيون إلى مواجهة خطر الوجود الشيعي، ذلك الخطر الذي يمكن القول عنه أنه سبب الانحطاط الذي دخل فيه العالم الإسلامي بسبب ممارساته ضد أهل السنة وتحالفه مع الصليبيين خدمة لمصالحهم غير آبهين للدين الإسلامي .

لكن لا يمكننا أن نهمل بعض الدراسات التي تناولت جزءا من الموضوع أهمه الدور العلمي والمذهبي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي، وهي:

-كتاب التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد لعبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، تطرق الكتاب إلى الجهود السياسية والعلمية لكل من السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي في بغداد والشام ومصر وموقفهم من الخلافة العباسية، فتعتبر هذه الدراسة محورية بالنسبة للبحث، كونها مست كاملة الإطار الزماني والمكاني للموضوع بطريقة علمية موضوعية.

-رسالة الدكتوراه الموسومة ب:الحياة العلمية في العراق زمن السلاجقة، لمرزبن سعيد مرزبن العسيري، تناول فيها الدور العلمي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي خاصة المدارس النظامية.

-رسالة ماجستير بعنوان: المدارس النورية وأثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام، من إعداد: صالح محمد حمدان الغامدي التي تعتبر دراسة نوعية للدور العلمي والمذهبي لنور الدين محمود في مقاومة الوجود الشيعي في بلاد الشام.

- إلى جانب كتاب عبد الرحمان عزام بعنوان: صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، يدرس فيه المؤلف البداية التاريخية لظهور صلاح الدين، ويكشف عن خلفية المسرح السياسي للعالم الإسلامي الذي شهد البدايات الحقيقية لأفول الخلافة العباسية السنية، واشتعال المنازعات بين قسمي العالم الإسلامي، السنة والشيعية، وبزوغ الإحياء السني أو الاتجاه إلى بناء مذهب سني جديد، كان فيه صلاح الدين أحد أهم مرسخيه والداعين إليه، والمثبتين لدعائمه وأركانه، فقد سلط الضوء على الجهود السياسية والعلمية لصلاح الدين الأيوبي في مقاومة الوجود الشيعي في مصر خاصة وبلاد الشام عامة، لكن بأسلوب قصصي أكثر منه تاريخي أكاديمي.

فيما لم نعثر البتة على دراسة تطرقت للدور الاقتصادي والاجتماعي لهذه القوى في مقاومة الوجود الشيعي في القرن الخامس والسادس الهجريين .

والمهم في الأمر أن الدراسات حول السلاجقة كانت سياسية عسكرية بالدرجة الأولى، وكان تقييم كثير من المؤرخين للحقبة السلجوقية أنها كانت سلبية أكثر من إيجابية، فاتهموا السلاجقة بالحجر على الخليفة وتقليص صلاحياته وخدمة مصالحهم وإهمال الوضع العام، خاصة أمام تكالب القوى الصليبية على العالم الإسلامي بسبب دخولهم في دائرة الصراع حول السلطنة، لكن الغوص في إنجازات السلاجقة تجعلنا نرى نظرة مغايرة لما رُوج عنهم، فكان حجزهم على الخليفة وتقليص صلاحياته في خدمة الإسلام والمسلمين، وذلك لافتقار

الخلفاء الخبرة والقابلية لتسيير أمور الدولة ومخافة وقوعهم في أيدي أمراء وقواد من شأنهم تغيير مسار الدولة وخدمة مصالحهم الخاصة .

فيما نلاحظ أن الزنكيين والأيوبيين كان لهم الحظ الأوفر في الدراسات مقارنة مع السلاجقة، ويعود سبب ذلك إلى أن كلا من الزنكيين والأيوبيين أسسوا دولاً بعيدة عن مركز الخلافة العباسية ببغداد، واكتفوا بالتبعية للخليفة العباسي أولاً ثم للسلاجقة ثانياً، فكانوا في منأى عن النقد السياسي، الأمر الذي أتاح لهم تحقيق مشاريعهم في مقاومة الوجود الشيعي والخطر الصليبي على السواء بأريحية أكثر.

لكن رغم ذلك فإن كثير من الدراسات همشت دور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي ، فوجدتُ الرابط بين هذه القوى الثلاثة أنها توالى من الناحية الزمنية، وفي نفس الوقت توارث الجهود والإنجازات خاصة في مقاومة الوجود الشيعي.

وما زاد من إصرارنا على دراسة هذا الموضوع رغم تشعبه، كون أن النشاط الشيعي مشكلة لا تزال قائمة، فهو موضوع متجدد عبر الأزمان، بُعث بقوالب جديدة لكن بأفكار ومعتقدات ومسالك واحدة، فرغم طول الأزمان بين الحقبة المدروسة (ق5-6هـ/11-12م) والوقت الحاضر (ق15هـ-21م) فنجد هؤلاء وأولئك يتشابهون في معتقداتهم المنحرفة وأفكارهم وتصوراتهم الباطلة، الأمر الذي يؤدي بهم إلى مصير واحد، فارتأيت الاستفادة من جهود السابقين في مواجهة الفتن الحاضرة .

منهج البحث:

أثناء معالجتنا للموضوع تعمدنا تكرار بعض الأحداث، فعرضناها في قوالب شتى وأساليب متنوعة، وذلك من أجل تثبيت الفكرة بأكثر من طرح، كما أننا اعتمدنا على الاقتباس المباشر لترسيخ المعلومة بغزارة النقل، فتعددت جوانب المنهج الذي اتبعناه في مذكرتنا كالآتي:

- المنهج الوصفي اعتمدنا عليه بالدرجة الأولى في معرفة أحداث المواجهة وأدوارها، وكذا رد فعل الشيعة والدولة العبيدية أمام الوضع .

• التحليل التاريخي، باعتباره المنهج الذي يعتمد على رصد الأحداث التاريخية، وتحليلها تحليلًا موضوعيًا من أجل الوقوف على أسبابها وفهم العوامل التي أثرت فيها، وبالتالي الخروج بنتائج يمكننا من خلالها إلقاء الضوء على ما يميز مرحلة الدراسة.

• كما اعتمدنا على الاستنتاج من أجل الوصول إلى لب الموضوع، وهو دور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي وأثر ذلك على المشرق الإسلامي.

خطة البحث:

وللإجابة عن الإشكالية والتساؤلات المطروحة ارتأينا تقسيم البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي وباين وخاتمة .

أفردنا **الفصل التمهيدي** لدراسة الصراع السياسي والمذهبي بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وقسمناه إلى قسمين، سلطنا الضوء في القسم الأول على الصراع السياسي في المشرق الإسلامي في تلك الفترة بين الدول السنية والدول الشيعية، وتمثلت الأولى في الخلافة العباسية في بغداد والدولة الغزنوية في بلاد ما وراء النهر والثانية وهي الأوسع تمثلت في الدولة العبيدية في بلاد المغرب ومصر والشام والبويهيين في بغداد وبلاد فارس.

أما القسم الثاني فتتبعنا الصراع المذهبي وركزنا على الجهود الفكرية للشيعة في سبيل ترسيخ مذهبهم وذلك من خلال إنشاء مؤسسات تعليمية تُعنى بذلك، وتشجيع التأليف والشعر خدمة لمصالحها المذهبية الرامية إلى غرس جذور التشيع في الأقاليم التابعة لها، كما توقفنا عند الفتن المذهبية التي نشأت بين السنة والشيعة، خاصة في بغداد، بسبب ممارسات هؤلاء الشيعة المنافية للشرع من سب الصحابة واتخاذ أيام رسمية في السنة للاحتفال بيوم عاشوراء ويوم غدير خم، وما نتج عن ذلك من قتل وتخريب وانتهاك للحرمان من طرف الشيعة في أسواق بغداد بعد أن كانوا يحظون بتأييد البويهيين .

أما الباب الأول جاء بعنوان الدور السياسي العسكري للسلالة والزركيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي خلال (447-600هـ/1055-1203م)، وهذا الباب ينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول بعنوان : الدور السياسي العسكري للسلالة في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي خلال (447-521هـ/1055-1126م)، تحدثنا فيه عن أصل السلالة ودخولهم بغداد ثم عن الدور السياسي والعسكري للسلالة في مقاومة الوجود الشيعي، درسنا فيه دور السلالة في القضاء على الدولة البويهية على إثر دخولهم بغداد، وكيف تمكنوا من إخماد فتنة البساسيري الشيعي الإسماعيلي في بغداد ، ثم كيف زلج السلالة في مشروعهم بين مقاومة الشيعة والبيزنطيين، فتفرغوا إلى استخلاص بلاد الشام من يد الدولة العبيدية مستغلين في ذلك سوء الأوضاع الداخلية للدولة العبيدية بسبب الأزمة الاقتصادية والأوضاع الخارجية المتمثلة في انقطاع علاقاتها بالدولة البيزنطية، وألحق السلالة هزيمة بالبيزنطيين في معركة ملازكرد كان لها الأثر البالغ في إحياء التحالف بين العبيديين والبيزنطيين فيما بعد.

ثم عرجنا على ردة فعل الشيعة الباطنية من جهود السلالة في مقاومتهم، وتمثلت ردة الفعل تلك في ترصد القادة السياسيين والزعماء والعلماء واغتيالهم، وكان الوزير نظام الملك الطوسي أكبر نموذج على ذلك .

وفي آخر الفصل تطرقنا إلى جهود السلالة الأواخر في مقاومة الوجود الشيعي، وقد كانت جهودا محتشمة مقارنة مع جهود السلاطين الأوائل، ومرد ذلك إلى الصراع الداخلي الذي وقع فيه السلالة من أجل الوصول إلى السلطنة، كما حاولنا دراسة الصراع السني الشيعي في أواخر أيام السلالة وأثره في تقدم القوى الصليبية وسيطرتها على مقدسات المسلمين .

أما الفصل الثاني جاء بعنوان الدور السياسي العسكري للزركيين في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي خلال (521-569هـ/1126-1173م)، فقد تناولنا الدور

السياسي والعسكري للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي، فتطرقنا إلى أصل الأسرة الزنكية ، وجهود عماد الدين زنكي في تشكيل الوحدة السياسية التي من شأنها توحيد الجهود لمقاومة الوجود الشيعي، ثم تطرقنا إلى نور الدين محمود ذلك القائد الذي كان له الدور الريادي في القضاء على الكيان السياسي للدولة العبيدية الشيعية في مصر من خلال شن ثلاث حملات متتالية انتهت بالخطبة للخليفة العباسي وتعيين صلاح الدين الأيوبي كوالي على مصر . وفي الأخير أشرنا إلى رد فعل الصليبيين والحشيشية الإسماعيلية من امتداد الجبهة الإسلامية وتحالفهم ضد نور الدين محمود ، ثم توقفنا عند وفاة نور الدين محمود وتفكك عضد الدولة الزنكية .

أما في الفصل الثالث جاء بعنوان الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي خلال (569-600/1176-1203م)، وقد كان ذلك الدور استكمالاً لما قام به نور الدين محمود من جهود في مقاومة الوجود الشيعي في مصر وبلاد الشام، لأن صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية، يُعتبر من كبار القادة السياسيين زمن نور الدين محمود وكانت له ولاية مصر بعد إعلان الخطبة للخليفة العباسي، فكانت له جهود شخصية في مواجهة انتفاضة بقايا الشيعة في مصر على إثر نهاية الدولة العبيدية، ثم برزت جهوده بشكل جلي على إثر وفاة نور الدين محمود، فسارع إلى إعادة تشكيل الجبهة الإسلامية التي تفككت بعد تولي الصالح إسماعيل أملاك الدولة الزنكية وظهرت أطماع الأمراء حوله، وفي خضم هذه الأحداث تأمر الحشيشية الإسماعيلية على صلاح الدين فتعرض إلى محاولتي اغتيال نجا منهما بأعجوبة، فحشد قواه وهاجم معاقلهم في الشام.

وإنه من الإجحاف بمكان أن ندرس الدولة الأيوبية دون أن نعرض على نصر حطين واستعادة بيت المقدس من يد الصليبيين؛ بعد أن نجحوا في السيطرة عليه بتحالف أو تهاون من العبيديين الشيعة، كما تعمداً تحرير هذا العنصر على كتابات المستشرقين الذين اعترفوا بجدارة صلاح الدين في قيادة المسلمين .

وأنهينا الفصل بوفاء صلاح الدين وأثر ذلك على جهود الأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي، بعد أن دخلوا في دائرة صراع داخلية شغلتهم لفترة لا بأس بها عن مقاومة الوجود الشيعي.

فيما عنونا الباب الثاني بالدور العلمي والمذهبي والاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي خلال (447-600هـ/1055-1203م)، فقسمناه إلى أربعة فصول :

الفصل الأول بعنوان الدور العلمي المذهبي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي خلال (447-521هـ/1055-1126م)، ، خصصنا جزءا كبيرا منه للمدارس النظامية التي ترجمة الجهود العلمية والمذهبية للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي، ففصلنا في أسباب بنائها واتساع نطاقها وأهم العلوم المعتمدة للتدريس بها وطريقة الالتحاق بها وأهم مدرسيها ثم خريجها، وصولا إلى دورها في مقاومة الفكر الشيعي من خلال تخريج طلبة أكفاء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي متشبعين بالفكر السني لمقاومة الفكر الشيعي بعد أن تلقوا فنون علم المناظرة، وذلك من شأنه أن يحد من نفوذ الشيعة في أقاليمهم الأصلية.

ولم يقتصر الدور العلمي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي على المدارس النظامية، بل كان للسلطين دور في تنشيط الحركة العلمية من خلال إنشاء الجوامع والمدارس في بغداد وخارجها والتي تعتبر منبر من منابر مقاومة الفكر الشيعي، كما أنهم قربوا العلماء وشجعوهم على التأليف لفضح أفكار الباطنية .

وختمنا الفصل بالإسهامات العلمية للسلاجقة في بلاد اليمن التي كانت بؤرة من بؤر التوسع الشيعي في العالم الإسلامي، فمن خلال الجهود الشخصية للعلماء الذين انتقلوا إلى اليمن ونقلوا معهم مؤلفات علماء السلاجقة التي كانت في أغلبها متشعبة بضرورة فضح الفكر الشيعي، برز دور السلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي في هذا الإقليم الحساس.

أما الفصل الثاني جاء بعنوان الدور العلمي المذهبي للزركيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي خلال (521-569هـ/1126-1173م)، ذلك الدور الذي أقل ما يمكن أن نقول عنه أنه كان مُكملاً لجهود السلاجقة بعد أن ورثوا مشروعهم في مقاومة الوجود الشيعي، فدرسنا في العنصر الأول دور نور الدين محمود في إنشاء مدارس في الشام على غرار النظاميات وعين على مشيختها كبار خريجي النظاميات، ووضحنا في العنصر الثاني كيف أثرت تلك الجهود في تشجيع القادة والنساء في تشييد المدارس والمساهمة في مقاومة الوجود الشيعي .

والعنصر الثالث اختص بدراسة جهود علمية أخرى لنور الدين في مقاومة الوجود الشيعي، فتطرقنا إلى تقريبه العلماء وتشجيعهم على التأليف لدحض الفكر الباطني، وإلى تشجيعه للتصوف السني بعد أن تخوف من تغلغل الفرق الباطنية في صفوف الزهاد والمتصوفة، فأنشأ لهم الأريطة والزوايا وأوقف عليهم الأوقاف، وكل هذه الجهود كانت تحت إشرافه ورقابته، كما أنه أمر ببناء وترميم الجوامع والمساجد والمكتبات التي تعتبر هي الأخرى منبرا لمقاومة الفكر الشيعي من خلال الوعظ والخطبة والتدريس.

وخصصنا مبحثا لمرض نور الدين وأثر ذلك على جهوده العلمية في مقاومة الوجود الشيعي.

والفصل الثالث بعنوان الدور العلمي والمذهبي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي خلال (569-600هـ/1176-1203م)، أبرزنا فيه المذهب الرسمي للدولة وأثره في مقاومة الفكر الشيعي، وسلطنا الضوء على بناء صلاح الدين للمدارس في مصر وبلاد الشام وبيت المقدس لمقاومة الفكر الشيعي الباطني، كما تحدثنا عن دور القادة والأمراء والنساء في مقاومة الوجود الشيعي من خلال إنشائهم للمدارس، وتحدثنا عن جهود صلاح الدين في تقريب الصوفية والعلماء وإصلاح القضاء والتخلص من المنشآت العلمية العبيدية من أجل القضاء على بقايا التنظيمات الشيعية الباطنية.

وختمنا الفصل بالجهود العلمية لخلفاء صلاح الدين في مقاومة الوجود الشيعي .

وأما الفصل الرابع عنونه بالدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي خلال (447-600هـ/1055-1203م)، قسمناه إلى ثلاث أقسام، تناولنا في القسم الأول الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي، فتمثل ذلك الدور في زيادة موارد بيت مال المسلمين من خلال استرجاع معاقل مهمة من الشيعة الباطنية، وتحدثنا عن الإقطاع العسكري زمن نظام الملك وأثره في مقاومة الوجود الشيعي، أما من الناحية الاجتماعية فوضحنا دور السلاجقة في تأييد العامة أثناء الفتن المذهبية بين السنة والشيعة في بغداد، مما اضطر بعدد كبير من الشيعة إلى الهجرة من بغداد والانتقال إلى أوكارهم السرية، وتطرقنا إلى دور السلاجقة في القضاء على الانحلال الخلقي الذي عُرف عن الشيعة، والحد من الاغتيالات التي مارسها الشيعة الباطنية ضد القادة السياسيين والعلماء .

أما القسم الثاني فخصصناه للحديث عن الدور الاقتصادي والاجتماعي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي، وتمثل في إلغاء الضرائب غير الشرعية التي فرضها العبيديون على التجار في بلاد الشام وتطرقنا إلى التوسع الخارجي للدولة النورية وأثره الاقتصادي في مقاومة الوجود الشيعي، أما الجانب الاجتماعي فخصصناه لدراسة الأوقاف وأثرها في مواجهة الخطر الشيعي، ومحاربة بدع وغلو الفرق الباطنية .

أما القسم الثالث فخصصناه للحديث عن الدور الاقتصادي والاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي، فحصرنا الجانب الاقتصادي بالحديث عن إلغاء المكوس عن الحجاج، كما تطرقنا إلى فتح اليمن وأثره الاقتصادي في مقاومة الشيعة. أما الجانب الاجتماعي فتضمن الحديث عن التعليم المجاني وتخصيص الأوقاف للفقراء والأيتام ودوره في الحد من التغلغل الباطني في صفوف العامة، وسلطنا الضوء على أحوال مصر بعد القضاء على الدولة العبيدية وكيف تمكن صلاح الدين من حفظ الأمن هناك رغم التغيير المذهبي، كما وضحنا حرص صلاح الدين على القضاء على نسل العبيديين حتى يقضي على أية محاولة للعودة على الساحة السياسية .

وأنهينا بحثنا بخاتمة تضمنتها لجملة من النتائج المتوصل إليها من البحث، وإجابات
ضمنية لما ورد من تساؤلات في المقدمة.

كما تضمن البحث مجموعة من الملاحق الوظيفية التي من شأنها إثراء الموضوع .

عرض ونقد المصادر والمراجع:

من خلال جمع المادة لم أعثر على بحوث ودراسات خاصة تجمع دور السلاجقة
والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بل كانت دراسات منفردة لكل دولة كان
التركيز فيها على الإنجازات السياسية والعسكرية ضد الحروب الصليبية خاصة والإنجازات
الحضارية بصفة عامة ، فكان عليّ تمحيص وانتقاء المادة العلمية المتعلقة بالموضوع
وجردها.

وتماشيا مع الإطار الزمني للبحث الذي هو أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن،
حاولت تتبع الأحداث سنة بسنة من خلال مصادر التاريخ العام وتصنيف المادة العلمية لكل
دولة على حدة، كما أنني اعتمدت بدرجة كبيرة على المصادر والمراجع الخاصة بكل دولة
لتوثيق المعلومات وتدعيمها، فصنفت المادة العلمية من حيث الأهمية والاعتماد على النحو
التالي:

- المصادر :

-سير الملوك أو ساست نامة لقوام الدين أبي علي الحسين بن علي بن إسحاق بن
العباس الطوسي المعروف بنظام الملك(ت485هـ/1092م)، الكتاب بمثابة مذكرات سياسي
محرك هو الوزير السلجوقي نظام الملك الذي وزر للسلطانين ألب أرسلان وملكشاه ما يزيد
عن ثلاثين سنة، ويعتبر الكتاب عصارة أفكار وتجارب صاحبه في أخريات حياته، حيث
جمع في الكتاب مجموعة من النصائح التي يستند عليها الحكام في تسيير ممالكهم مستدلا
بسنن الملوك السابقين .

ولأن الخطر الشيعي الباطني كان أكبر همّ نظام الملك فقد أفرد عدة فصول في كتابه هذا للتنبيه بخطورة المد الشيعي وتغلّغه في مفاصل الدولة الحساسة، وضرورة استئصال شأفتهم عن طريق التدبير الإداري والعسكري والعلمي وحتى الاقتصادي والاجتماعي، فجاء الكتاب بمثابة دستور لمن يتبعه لمواجهة الخطر الشيعي الباطني، فجاء اعتمادنا عليه في توضيح جهود السلاجقة العظام في مقاومة الوجود الشيعي على مختلف الأصعدة.

-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت597هـ/1200م)، عاصر المؤرخ فترة تميزت بتغيرات سياسية واجتماعية واسعة النطاق، تخللتها أيضا تيارات فكرية مختلفة، إلى جانب أنه عاش في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، كل هذه الأمور أكسبت الكتاب قيمة تاريخية كبيرة خاصة بالنسبة لموضوع البحث ، فقد تتبع ابن الجوزي حيثيات الأحداث ناقلا وناقدا ومحللا ما أمكننا من الاعتماد على الكثير من آرائه حول موقف السلطة من الأوضاع القائمة، خاصة الفتن المذهبية بين السنة والشيعية.

-ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة ابن أسد بن علي بن محمد التميمي ابن القلانسي(ت555هـ/1072م) اشتمل الكتاب على السنوات بين (360-555هـ/970-1159م)، وهي تقريبا ثلثا الإطار الزمني للبحث، استفدت من الكتاب في تتبع أخبار الباطنية في بلاد الشام وتحالفهم مع الصليبيين، كما أفادني في تحرير الجانب السياسي من البحث .

-كتاب راحة الصدور وآية السرور لمحمد بن علي بن سليمان الراوندي(توفي بعد 603هـ/1206م)، يعتبر الكتاب من المصادر الأولى والأصلية لتاريخ الدولة السلجوقية منذ سنة 429-590هـ/1037-1194م، وهو تاريخ قيّم يتناول جميع تاريخ السلاجقة ورسوم سلطنتهم، وما زاد من قيمته مُعاصرة الراوندي للسلاجقة الأواخر، خاصة عهد السلطان طغرلبيك آخر سلاطين سلاجقة العراق .

ونظرا لأسلوب الكاتب في التأريخ للأحداث ، واتباعه التسلسل الزمني حسب تولي كل سلطان شؤون السلاجقة فقد أمكننا الإفادة منه بشكل عام عن تاريخ السلاجقة وإنجازاتهم السياسية والعسكرية والحضارية لمقاومة الوجود الشيعي .

-كتاب زبدة التواريخ أو أخبار الأمراء والملوك السلجوقية لصدر الدين الحسيني(توفي بعد 622هـ/1224م)، جاء هذا الكتاب في جزء واحد ، تناول فيه صاحبه أخبار سلالة السلاجقة ودولتهم منذ بدايتهم إلى نهاية حكمهم، إضافة إلى فصلين موجزين الأول حول ذكر الملوك والسلاطين السلجوقية منذ القيام حتى السقوط ، والثاني حول أحوال بعض مماليك السلاجقة. والكتاب يتطرق إلى سير أعمال السلطين والملوك والأمراء وكبار العمال والوزراء، تبوؤهم السلطة ، حروبهم دسائسهم عزلهم أو قتلهم ... وهو لا يتعرض إلا لماما للتاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، حتى الصراعات الدينية التي كانت إحدى السمات البارزة زمن السلاجقة، فإن صدر الدين الحسيني لم يشر إليها إلا عرضا وخاصة ما يتعلق بالإسماعيلية ومعتزلهم في الموت.

لكن للكتاب أهميته التاريخية في دراسة تاريخ السلاجقة، كون صدر الدين الحسيني كان قريبا من الفترة إن لم نقل أنه عاصر السلاجقة المتأخرين، فاستفدنا منه تقريبا في كل ثنايا البحث خاصة في أصل السلاجقة ودورهم السياسي والعسكري في مقاومة الوجود الشيعي .

- الكامل في التاريخ :لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير(ت630هـ/1232م)، يعتبر الكتاب من أدق ما دُونَ عن الفترة السلجوقية والزنكية والأيوبية، بحكم الكاتب عاصر السلاجقة الأواخر، وعهد الأتابكة، وحتى الأيوبيين، واعتمد على التأريخ بالسنوات الأمر الذي أعطى تفصيلا أكثر للأحداث، فكان اعتمادي عليه في كامل البحث حتى لا يكاد يخلو عنصر من العودة إليه.

-التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير(ت630هـ/ 1232م)، الكتاب خاص بأخبار الدولة الزنكية بالموصل منذ ظهور جدهم الأول قسيم الدولة آق سنقر زمن السلاجقة حتى بعد وفاة الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين محمود، هذه الدولة التي بلغت أوج توسعها زمن السلطان نور الدين محمود فشملت الموصل والجزيرة والشام ومصر واليمن .

-النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين لبهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد(ت632هـ/1234م)، يعتبر الكتاب من أدق ما دُوّن عن سيرة صلاح الدين الأيوبي، لأن ابن شداد عاصر صلاح الدين وكان قاضيا لعسكره قريبا منه في جلّه وترحاله ، ففصّل في سيرته وإنجازاته السياسية والحضارية وجهاده ضد الشيعة والصليبيين، فاستفدت منه تقريبا في كامل الجزء الخاص بالأيوبيين .

-تاريخ دولة آل سلجوق للفتح بن علي بن محمد أبي إبراهيم البنداري الأصفهاني، (ت643هـ/1245م).الكتاب هو اختصار لكتاب نُصرة الفترة وعُصرة الفطرة ، في أخبار الوزراء السلجوقية لعماد الدين الأصفهاني (ت 597هـ/1200م)، وقد اختصر منه البنداري الجزء الخاص بدولة السلاجقة، فذكر سلاطينهم ووزراءهم وإنجازاتهم السياسية والحضارية وعلاقتهم بالخلافة العباسية، إلا أنه مرّ عرضا على الوزير نظام الملك وجهوده في مقاومة الوجود الشيعي، كما جاءت أخبار الإسماعيلية متناثرة، إلا أن الكتاب أفادني في أصل السلاجقة وقيام دولتهم وأثر دخولهم بغداد على الخلافة العباسية السنية.

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لأبي المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله ، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ/1255م) ، الكتاب عبارة عن موسوعة تاريخية، يشمل أحداث فترة زمنية طويلة تمتد من ذكر بدء الخلق - وإن كان ذلك لا يأخذ منه إلا الحيز اليسير - إلى أحداث ووفيات سنة 654هـ، وعليه فهو يشمل كامل الإطار الزمني للبحث، والمؤسف في الأمر أنه لم أتمكن من الحصول على كامل الأجزاء، واستفدت بشكل كبير من الجزء الخاص بتاريخ السلاجقة .

-مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل(ت659هـ/1260م)، يتناول الجزء الأول تاريخ الدولة الزنكية الأتابكية منذ عهد آق سنقر إلى وفاة نور الدين محمود، فيما خُصصت بقية الأجزاء لتاريخ الدولة الأيوبية، وقد تتبع المؤلف الأحداث سنة بسنة مما أعطى تفصيلاً مُهمّاً للأحداث التاريخية، مكننا من التوقف عند جهود الدولتين الزنكية والأيوبية في مقاومة الوجود الشيعي، وقد تخللت الجهود السياسية والعسكرية جهوداً علمية ومذهبية واقتصادية واجتماعية لمقاومة الشيعة، وعليه فقد غطى الكتاب جزءاً كبيراً من الموضوع، على الرغم من أن جهود الدولتين في هذا المجال جاءت مبثوثة في ثنايا الكتاب .

-الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت665هـ/1266م)، يعد هذا الكتاب من أهم المصادر وأشهرها التي أرخت لدولتي نور الدين وصلاح الدين وما تخللها من حروب صليبية، وليس للباحث في هذا المجال غنى عنه لأنه يمتاز بنوع من الموضوعية، كون الكتاب لم يُؤلف لسلطان أو ملك، بل كانت دراسة علمية مستقلة بُغية الاقتداء بسيرة وعصر نور الدين وصلاح الدين اللذين كَمَّل أحدهما الآخر، فقد أمدنا الكتاب بمادة ثمينة عن سياسة السلطانين وعلاقتهم بالخلافة العباسية السنية والفقهاء والعلماء، وجهودهما في مقاومة الوجود الشيعي .

-كتاب الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لعز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد (ت684هـ/1285م)، يتناول الكتاب تاريخ وجغرافية الشام، فكشف المؤلف عن تاريخ الشام ودمشق وحلب والقدس وأمّهات مدن الجزيرة، وتوقف عند المؤسسات التعليمية بها من جوامع ومدارس وأربطة، فاستفدت منه في جرد المدارس والجوامع في تلك الأقاليم زمن الزنكيين والأيوبيين ودورها في مقاومة الوجود الشيعي.

-البداية والنهاية لعماد الدين أبي الفدا إسماعيل ابن كثير (ت774هـ/1372م)، رغم أن ابن كثير متأخر عن فترة الدراسة، إلا أنه أفادنا في كامل ثنايا البحث كونه أولاً أرخ لكل سنة على حدة، فجاء تفصيله للأحداث أكثر فائدة، كما أنه ركز على الصراع المذهبي بين السنة والشيعة وتوقف عند كل الفتن التي حدثت بين الطائفتين خاصة في بغداد، كما استفدنا من تعليقه وتحليله للأحداث، فكان اعتمادنا عليه تقريباً في كامل البحث.

-اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت845هـ/1441م)، يؤرخ الكتاب لتاريخ الدولة العبيدية منذ قيامها في بلاد المغرب حتى سقوطها في مصر، وعليه يعتبر مصدراً مهماً يؤرخ لسيطرة العبيديين على مصر وبلاد الشام وأقاليم مهمة من ممتلكات الخلافة العباسية وجسد ذلك الصراع الذي دار بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في كنف سيطرة العبيديين. وتكمن أهمية المصدر في تفصيله للأوضاع الداخلية للدولة العبيدية وعلاقاتها الخارجية، فقد أولى الجانب السياسي والعسكري والعائدي والاجتماعي عناية كبيرة، فأفادنا تقريباً في كامل البحث.

وقد اعتمدنا على المقرئ في أكثر من عنوان باعتباره مختصاً في تاريخ الدولة العبيدية.

-الكواكب الدرية في السيرة النورية لبدر الدين بن قاضي شهاب (ت874هـ/1469م)، الكتاب عبارة عن تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي منذ ولادته 511هـ/1117م، حتى وفاته 569هـ/1173م، فقد تتبع المؤلف بإيجاز تاريخ الدولة الزنكية سنة سنة حتى تولى نور الدين، ثم فصل في الأحداث من سنة 541-569هـ/1146-1173م، وبين كيف أمضى نور الدين حياته يجاهد في سبيل توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن الشرق الإسلامي

زمن الصليبيين، وكانت له محطات عديدة حول نشاط الشيعة الباطنية في بلاد الشام ورد فعل الزنكيين إزاء ذلك .

فكان اعتمادي على المصدر تقريبا في الجزء الخاص بالدولة الزنكية خاصة الجانب السياسي والعسكري .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/1469م). رغم أن المؤلف بعيد عن فترة الدراسة، إلا أن الكم الهائل من المعلومات التي دونها عن تاريخ مصر من بداية التاريخ لغاية سنة 871هـ/1467م. أكسب الكتاب قيمة علمية كبيرة، كما أهتم ابن تغري بردي بتاريخ الدولة العبيدية وأفرد ترجمة وافية لكل خليفة على حدة، ثم تتبع أخبار مصر سنة بسنة، وتوقف عند أعمال العبيديين واحتفالاتهم وعلاقاتهم الخارجية، كما توسع في الحديث عن السلطان صلاح الدين وإنجازاته في مصر في سبيل ترسيخ مذهب أهل السنة، فاستفدت منه في القسم الخاص بمصر زمن العبيديين والأيوبيين.

-الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي (ت927هـ/1520م)، الكتاب عبارة عن جرد للمؤسسات التعليمية من مدارس ودور قرآن ودور حديث وأرطة وبیمارستانات-دورها التعليمي- في بلاد الشام، وباعتبار أن إنشاء المدارس زمن الزنكيين والأيوبيين كان الغاية منها مقاومة الوجود الشيعي، فقد أفادنا الكتاب في تتبع الجهود العلمية للزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي.

يعتبر الكتاب من المصادر المحورية التي اعتمدنا عليها في التأريخ للدولة الزنكية، خاصة الجانب السياسي والعسكري، إلا أن الفراغ الذي أوجده ابن الأثير في كتابه، بسبب إهماله أخبار الصراع بين الزنكيين خلفاء نور الدين وبين صلاح الدين وخلفائه وكيف انتقلت

السلطة من الزنكيين إلى الأيوبيين، جعلنا نستعين بمصادر أخرى لدراسة هذه المرحلة الانتقالية .

كتب السير والتراجم :

-كتاب الأنساب لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت562هـ/1166م)، هو من بين أهم المصادر التي ترجمت للأعلام حسب أنسابهم وأوطانهم ومذاهبهم وحتى صناعتهم، فكان ذلك عملياً في البحث أكثر من الطبقات أو سنة الوفاة، ونظراً لتاريخ وفاة السمعاني الذي لم يكن بعيداً عن فترة الدراسة، فقد أفادنا بتراجم واسعة شملها موضوع الدراسة

-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن خلكان (ت681هـ/1282م)، يعتبر الكتاب معجماً واسعاً يحتوى على معلومات وافية لسلطين ووزراء وفقهاء وأدباء عاصروا فترة الدراسة ، فكان اعتمادي عليه في كامل ثنايا البحث.

-طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب السبكي (ت771هـ/1369م)، أمدني هذا الكتاب بمعلومات في غاية الأهمية في ترجمة بعض الشخصيات الواردة في المتن، خاصة في الباب الثاني في جزئه المتعلق بالجانب العلمي والمذهبي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين، بحكم أن السلاجقة والأيوبيين كانوا شافعيي المذهب فيما قرب الزنكيون علماء الشافعية من خريجي المدارس النظامية .

سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت784هـ/1374م)، استفدت من تراجمه الكاملة المختصرة ، وإن أسلوب الذهبي القائم على

نقد كل ما هو مشبوه من أحداث أمدني بمعلومات غزيرة حول شخصيات محورية في البحث، خاصة السلاطين والوزراء.

- المصادر الجغرافية:

-رحلة ابن جبير أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي (ت614هـ/1217م)، وهو كتاب في أدب الرحلات، حيث كتب ابن جبير رحلته بشكل مذكرات يومية، مع كل مشهد وكل بلدة مر بها باليوم والشهر، فوصف باهتمام الأحوال السياسية والاجتماعية للأقاليم التي مر بها، خاصة مصر وبلاد الشام، مع اهتمام زائد بالمعاهد الثقافية والمدارس الدينية، فجاء وصفه دقيقا ساعدنا في دراسة الجهود العلمية للزكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي، كما أنه أولى صلاح الدين عناية خاصة فكان يشيد بإنجازاته كلما سمحت له الفرصة، الأمر الذي أفادنا في تتبع جهود هذا الأخير في مقاومة الوجود الشيعي على مختلف المستويات .

-معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(ت626هـ/1228م)، رغم أن الكتاب في الأصل هو جغرافي إلا أنه أمدنا بمعلومات تاريخية مهمة حول بعض الأقاليم والبلدان، فقد كُتب المعجم في الفترة ما بين 616-620هـ / 1220-1224م، وهي حقبة لا تبعد عن الإطار الزمني للبحث، فكان وصفه دقيقا، إلى جانب تسليطه الضوء على الاتجاه المذهبي والفكري للأقاليم المذكورة، فاستفدنا منه تقريبا في كامل المذكرة .

-كتاب آثار البلاد وأخبار العباد لأبي عبد الله بن زكريا بن محمد بن محمود القزويني(ت682هـ/1283م)، كتاب تاريخي مهم، به ثلاث مقدمات : الأولى عن الحاجة

إلى بناء المدن والقرى، الثانية عن خواص البلاد، وتنقسم إلى تأثير البلاد في السكان وتأثير البلاد في النبات والحيوان. الثالثة عن أقاليم الأرض، وبه أخبار الأمم الماضية وتراجم الأولياء والعلماء والسلطين والأدباء وغيرهم. وقد استقدت منه في جزئه الأخير، خاصة في ذكر أخبار العلماء وتحركاتهم وإنجازاتهم السياسية والعلمية في كنف السلاجقة والزنكيين والأيوبيين.

المراجع :

كما وضفت مجموعة من المراجع أهمها:

محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر دولة السلاجقة ، والدكتور محمد سهيل طقوش في سلسلة كتبه حول :تاريخ الفاطميين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين، هذه السلسلة التي أفادنتي في كامل البحث وكان تخريجها مشابها للموضوع لولا تركيز المؤلف على الإنجازات الحضارية لهذه الدول.

إلى جانب كتاب منى محمد بدر أثر الحضارة السلجوقية في شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر، وحامد زيان غانم زيان الصراع السياسي العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، وماجد عرسان الكيلاني هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس.

ولأن الصراع السني الشيعي أثر على الحركة الصليبية، فقد شغل هذا الجانب حيزا من البحث، فكانت أهم المراجع المعتمدة :ويليم الصوري: الحروب الصليبية، محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في الشرق والغرب، أرنست باركر: الحروب الصليبية، سالم محمد الحميدة: الحروب الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور ،الحركة الصليبية.

كما اعتمدنا على مجموعة من المقالات ذات الصلة بالموضوع أهمها:

جهود نظام الملك في تأسيس المدرسة النظامية ببغداد، والمدارس النظامية الأخرى لعبد الكريم حتاملة، ومقال: الوزير السلجوقي نظام الملك وتحليل فكره ونظامه الاقتصادي ومقارنتها بالواقع المعاصر للدكتور محمد سعيد ناحي الغامدي.

كما استعنا بمجموعة من المقالات نُشرت في مجلة المؤرخ المصري احتوت على مادة غزيرة حول اليمن زمن العبيديين والأيوبيين .

كما استفدت من دراسة محمد الرحيل غرايبة حول جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السني في مصر وبلاد الشام 564-589هـ/1169-1172م. تكشف هذه الدراسة عن جهود صلاح الدين الأيوبي في إضعاف المذهب الشيعي، وإحياء المذهب السني فقهاً وعقيدة في مصر وبلاد الشام، عن طريق إنشاء المدارس التي درّست المذهب السني، وجعل القضاء بموجب المذهب الشافعي وعن طريق تقريب الفقهاء والاهتمام بهم، وعن طريق محاربة الفلسفة والمبتدعين في أمور الدين.

هذا إلى جانب مجموعة لا بأس بها من المصادر والمراجع التي عالجت جوانب من الموضوع ، وكانت متفاوتة الأهمية، فمنها ما تناول الموضوع-الصراع السني الشيعي- بطريقة شاملة، ومنها ما درسه بطريقة سطحية، وكل تلك المؤلفات عدناها في قائمة المصادر والمراجع في نهاية البحث.

الصعوبات

وتمثلت الصعوبات التي واجهتني، في أن ميدان هذا البحث متشعب يختص بإقليم الشام والعراق ومصر واليمن، الأمر الذي يصعب معه في الوقت الحاضر الحصول على بعض المخطوطات والمصادر والمراجع المهمة في هذه البلدان، بسبب الحالة السياسية والأمنية فيها، الأمر الذي اضطرني إلى تغيير الوجهة إلى تركيا والسعودية، بحيث استطعت الحصول على مادة علمية كفيلة بتغطية بعض ثغرات البحث .

لقد بذلت ما في وسعي بذله من خلال ما توفر لديّ من مادة علمية لدراسة هذا الموضوع، ولم أدخر جهدا في البحث والتدقيق والترجيح، وأرجو أن أكون قد وفقت في الإلمام بالموضوع من جميع النواحي، وحسبي أنني بذلت غاية جهدي ، وإن كان جهدي دون أُملي.

ونهيّب بكل من يقف على أخطائنا وهفواتنا أن يرشدنا إلى الصواب ويعيننا على تجنب الزلل، ونسأل الله التوفيق والتسديد إنه نعم المولى ونعم النصير، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل التمهيدي: الصراع السياسي والفكري بين السنة والشيعة في المشرق

الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري: 400-

447هـ/1009-1055م

أولا :الصراع السياسي بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م:

1- الدولة العبيدية (297-567هـ/910-1171م).

أ-المرحلة الأولى: العبيديون ببلاد المغرب:297-362هـ/910-972م.

ب-المرحلة الثانية: الدولة العبيدية في مصر:362-567هـ/972-1171م.

2- الدولة البويهية (334-447هـ/945-1055م).

3 - الغزنويون (351 - 582 هـ / 962-1186م).

ثانيا : الصراع الفكري بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي مع مطلع القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م:

1- تعريف الإسماعيلية :

2- مراتب الدعوة الإسماعيلية وتدرج المستجيب .

3: الجهود الفكرية الشيعية والفتن المذهبية بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م.

الفصل التمهيدي : الصراع السياسي والفكري بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري : 400-447هـ/1009- 1055م

تعرض المشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي إلى عدة تحولات سياسية ومذهبية كان لها الأثر الكبير في تاريخه، فقد كان على مسرح الأحداث في هذه المنطقة ثلاث قوى رئيسية متصارعة ومتناحرة : هي الخلافة العباسية السنية في بغداد التي تراخت قبضتها على الأطراف منذ القرن الثالث الهجري، وضعف سلطانها حتى تفككت وحدة الأمة، وظهر إلى جانبها الدولة العبيدية الشيعية في بلاد المغرب ومصر، وفي محيط هاتين القوتين العباسية والعبيدية ظهرت قوى ثالثة تجسدت في الدويلات المستقلة التي كان لها الأثر المباشر في قلب موازين القوى أهمها الغزنويون في خراسان والبويهيون في فارس والعراق.

وقد دار صراع قوي بين تلك القوى اتسم بأنه كان في آن واحد صراعا سياسيا ومذهبيا واقتصاديا وعسكريا .

فماهي أهم الأحداث السياسية التي حركت هذه القوى؟ وماعلاقة هذه الكيانات بعضها ببعض وخاصة مع مركز الخلافة في بغداد ؟

أولا: الصراع السياسي بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف

الأول من القرن الخامس الهجري 400-447هـ/1009-1055م:

1- الدولة العبيدية (297-567هـ/910-1171م):

انشغلت الخلافة العباسية عن إقليم المغرب الذي انفصل عنها منذ قيام دولة الأغالبة سنة 184هـ/799م، والتي كانت تقاسمها الولاء¹، لكن ما فتئت أن قامت الخلافة العبيدية ووضعت حدا لاسم العباسيين في بلاد المغرب.

قامت الخلافة العبيدية في بلاد المغرب بالقيروان في ربيع الثاني 297هـ/910م²، على إثر دعاية شيعية واسعة النطاق تولى تنظيمها مركز الدعوة بسلمية³ انتهت بقيام الدولة على رأسها عبيد الله، الذي تلقب بالمهدي أمير المؤمنين⁴.

¹ -دولة الأغالبة أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي بإفريقية بعد أن عهد له بها الخليفة العباسي هارون الرشيد في جمادى الثانية 184هـ/799م، وقال له: "قد تقدم لكم بإفريقية أمر"، وكان إبراهيم بن الأغلب فقيها أديبا شاعرا خطيبا، ذا رأي ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكايدها، فطاعت له قبائل البربر وتمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها. ينظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983. ج1، ص92. ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق: محمد زينهم، محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1988، ص30-32.

² -تقي الدين علي بن أحمد المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرفاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997، ج2، ص31. ويذكر القاضي النعمان أن الإعلان عن قيام الخلافة العبيدية كان سنة 296هـ/908م، القاضي النعمان المغربي، افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الديوان الوطني للطباعة الجامعية، الجزائر، ط2، 1985. ص227. والتاريخ الأول هو الأصح.

³ -سلمية، قرية من بلاد اليمامة، قرب المؤتكة، فيقال أنه لما نزل بأهل المؤتكة ما نزل من عذاب، رحم الله منهم مائة نفس، فنجاهم، فنزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها فسميت سلم مائة، ثم حرف الناس اسمها فقالوا سلمية، وسلمية أيضا من أعمال قنسرين، بثغور الشام على طرف البادية -وهي ما نقصده في المتن-. ينظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977. ج3، ص240. محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1984، ص320.

⁴ -كان إعلان قيام الدولة على إثر دعاية واسعة النطاق تولى تنظيمها رستم بن حوشب الذي أرسل الداعيين أبا سفيان والحلواني وأمرهما بتهيئة الأوضاع ونشر بذور الفكر الشيعي في أواسط البربر منذ سنة 145هـ/762م، ثم وفد أبو عبد الله الشيعي الداعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ/900م، واندس في صفوف قبائل كتامة وشرع في الدعوة وتنظيم الصفوف=

دامت الدولة العبيدية فترة زمنية امتدت من سنة 297-567 هـ / 909-1171م، وخلال هذه الفترة مرت بمرحلتين:

-المرحلة الأولى:العبيديون ببلاد المغرب:297-362هـ/910-972م¹:

تعاقب في هذه الفترة على حكم العبيديين أربعة خلفاء : عبيد الله المهدي والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله²، وقد تفرغت الدولة في هذه المرحلة لتثبيت دعائم الحكم بالمغرب وتوحيد جميع مناطق المغرب الإسلامي تحت رايتها وضم الأندلس أيضا إلى نفوذها بعد أن قامت فيه الخلافة الأموية(316-422هـ/928-1030م)، وكادت الدولة العبيدية أن تنجح في تحقيق مشروعها لولا ثورات زناتة وحزم بني أمية على المواجهة³، كما عملت على القضاء على العناصر المناهضة لها من المالكيين والخوارج⁴الذين ثاروا عليها، وأهم تلك الثورات ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد⁵ في المغرب الأوسط .

=فأقبل عليه الناس من كل مكان، عند ذلك تحرك عبيد الله المهدي وانتقل إلى المغرب واستقر بسجلماسة بعد أن تفتنت له أعين الخلافة العباسية، وعندما نجح أبو عبد الله الشيعي في القضاء على دولة الأغلبية سنة 296هـ/908م والدولة الرسمية خرج لتخليص إمامه من سجنه، فوصل إلى سجلماسة وأحاط بها واقتتحها، واستتقذ عبيد الله وابنه أبا القاسم ، وتوجه إلى إفريقية فنزل رقادة وأعلن قيام الدولة وأقام بها إلى أن بنى المهديّة. ينظر: تقي الدين المقرئزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ط1، ج1، ص141. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص27. تقي الدين علي بن أحمد المقرئزي، الخطط ، ج2، ص29-31. إدريس عماد الدين القرشي، كتاب عيون الأخبار، السبع الخامس وقسم من السبع السادس، بعنوان: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985، ص84، 88. أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق : التهامي نكرة، وعبد الحليم عويس، دار الصحوة ، القاهرة، 1980، ص40-41.

¹ - تعتبر هذه المرحلة خارج الإطار الزمني للفصل التمهيدي لكن ارتأيت ذكرها للتوضيح وربط الأحداث.

² - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1، ص318.

³ - موسى لقبال، المغرب الإسلامي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص150.

⁴ - محمد الصالح مرمول، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص98.

⁵ - هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي، أحد زعماء الخوارج الإباضية وأئمتهم، قام بثورته على الدولة العبيدية (331هـ - 336هـ/942-947م) والتي عرفت بثورة صاحب الحمار، وقد كبّد الخلافة خسائر فادحة، ولم تتمكن من القضاء عليها إلا بعد جهد كبير. ينظر: بشير غانيه، ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد الفاطميين ونتائجها على المغرب، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط ، المدرسة العليا للأساتذة الجزائر ، 2007-2008، ص21-26.

ب-المرحلة الثانية : الدولة العبيدية في مصر: 362-567هـ/972-1171م.

حرص العبيديون منذ قيام دولتهم ببلاد المغرب على الانتقال إلى مصر والقضاء على الخلافة العباسية بزعم أنهم الأحق بخلافة المسلمين ، فشنت حملات متكررة لذلك، ولم يفلحوا إلا بعد المحاولة الرابعة زمن المعز لدين الله (341-365هـ/953-975م) الذي استغل الأوضاع الداخلية لمصر التي كانت تعاني من الاضطرابات والمجاعات بسبب انخفاض النيل والطاعون¹، وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودي (ت380هـ/990م)².

تمكن المعز لدين الله من الاستيلاء على مصر بقيادة جوهر الصقلي³ والتي كانت تحت حكم الإخشيديين (324-358هـ/935-969م)، "ووردت الأخبار إلى مصر بقدم القائد

¹- ابن عذاري، المصدر السابق ، ج1، ص221. عبد الرحمن زكي ، القاهرة تاريخها وآثارها، الدار المصرية للترجمة والتأليف، القاهرة ، 1966، ص9.

²- هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس اليهودي، من أهل بغداد، كان خبيثاً ذا مكر وحيلة، انتقل إلى الرملة وعمل سمساراً ، ثم هرب إلى مصر ، وتاجر لكافور الإخشيدي فلمس فيه فطنة وذكاء فقال: لو أسلم لصلح للوزارة ، فأسلم يوم الاثنين 18 شعبان 350هـ/961م، فقصدته الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات يوم ذاك، فهرب ابن كلس إلى المغرب ولجأ إلى المعز لدين الله العبيدي، ثم انتقل معهم إلى مصر، وترقى في المناصب إلى أن استوزره العزيز بالله سنة 365هـ/975م، فقربه وأجزل له العطاء حتى بلغ مرتبه السنوي مائة ألف دينار. مات في ذي الحجة سنة 380هـ/990م. وقد حزن عليه العزيز وحضر جنازته وأمر أن تغلق الدواوين أياماً. ينظر: أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان بن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، بيت المقدس، 1923، ص 19-22. جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992. ج4، ص160. أبو يعلى حمزة بن قلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبّي، القاهرة، دت، ص 32. شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي، إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، تحقيق: مهنا محمد مهنا، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1، 1998، ص58-59.

³- جوهر الصقلي، هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب، كان من موالى المعز لدين الله العبيدي ، جهزه إلى الديار المصرية ليأخذها بعد وفاة كافور الإخشيدي، رحل إلى مصر سنة 358هـ/968م، لما استقر له الأمر بنى القاهرة والجامع الأزهر، كما أنه غزا دمشق، تولى دواوين مصر وجباية أموالها على عهد المعز إلى أن عزل سنة 364هـ/974م، توفي سنة 381هـ/991م. ينظر: أبو العباس شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1969، ج2، ص 375، 376.

جوهري، فاضطرب المصريون لذلك اضطراباً شديداً، ووقع اتفاق أرباب الدولة بحضرة الوزير جعفر بن الفضل على مراسلته في الصلح وطلب الأمان، وإقرار ضياعهم وأعمالهم في أيديهم، فراسلوه في ذلك¹، وكان ذلك يوم الثلاثاء 17 شعبان 358هـ/969م²، فقد عمل جوهري الصقلي على الاستيلاء على الإسكندرية ثم الجيزة، ونزل الجيش العبيدي في شمال شرق الفسطاط يحيط به جبل المقطم، وفي هذا المكان تأسست مدينة القاهرة لتكون قاعدة سياسية وعسكرية للخلافة العبيدية، "ودخل القائد جوهري مصر وبين يديه ألف ومائتا صندوق مالا، وأقام عسكره يدخل سبعة أيام، وبعث إلى مولاه المعز لدين الله يبشره بالفتح"³.

وقد بني في القاهرة القصور والدواوين والتكنات، وقد سماها القائد جوهري مدينة المنصورية سنة 358هـ/969م، تيمناً باسم المنصورية التي أسسها الخليفة العبيدي المنصور (334-341هـ/946-953م) سنة 336هـ/947م في صبرة خارج القيروان⁴، وبعد انتقال الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة 362هـ/972م سماها القاهرة: "لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أمرها، وقدروا أن منها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم"⁵.

كما أمر جوهري الصقلي بإيقاف الدعوة لخلفاء بني العباس، التي كانت تُقام لهم بمساجد مصر، وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة العبيدي بدلاً من الخليفة العباسي،

¹ - النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ج 28، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 76.

² - ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص221. ابن جعفر القضاعي، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص163.

³ - النويري، المصدر السابق، ج 28، ص 81.

⁴ - المنصورية أسسها الخليفة العبيدي الثالث إسماعيل المنصور سنة 336هـ/947م بعد انتصاره على ثورة أبي يزيد صاحب الحمار، فأصبحت العاصمة الثانية للعبيديين في بلاد المغرب بعد المهدية، ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص219. سوزي حمود، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2010، ص18.

⁵ - المقرئ، الخطط، ج2، ص20.

وكان على أحد وجهيها : "دعا الإمام المعز بتوحيد الإله الصمد "، وفي السطر الثاني:
"المعز لدين الله أمير المؤمنين"، وفي السطر الثالث: "ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان
 وخمسين وثلاث مئة" وعلى الوجه الآخر : " لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى
 ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون علي أفضل الوصيين وزير خير
 المرسلين"¹.

وبهذا خرجت مصر عن سيطرة العباسيين بعد أن كانت تابعة لهم ولو اسمياً على عهد
 الإخشيديين، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى سعي العبيديين لتقويض ملك
 العباسيين والقضاء عليهم فبدؤوا بالتوسع في ناحية الشام، ثم المناطق المجاورة²، فتوجه
 جعفر بن فلاح (ت360هـ/970م)³ على رأس جيشه إلى بلاد الشام فسيطر على الرملة ثم
 طبرية ودخل دمشق في محرم 359هـ/969م، وقطع الخطبة العباسية وخطب فيها للمعز
 العبيدي⁴.

فالخليفة العبيدي كان يخطب له في مصر وديارها ، والشام والحجاز مع إفريقية كلها
 والمغرب باسمه⁵، "وكان لمذهب الفاطميين دعاة منبثون في كل صقع وناحية"⁶.

¹ - جمال الدين سرور، الخلافة الفاطمية ، دار الفكر العربي، القاهرة ، 1995، ص69.

² - آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة، ج1، ط4، دار الكتاب
 العربي، بيروت، 1967، ص22.

³ - هو جعفر بن فلاح بن مروان ،أبو الفضل الكتامي، نشأ بالمغرب في خدمة المعز لدين الله العبيدي، ولما تجهز جوهر
 لفتح مصر سار معه جعفر بن فلاح ، وكانت له مواجهة مع بقايا الإخشيديين والقرامطة في الرملة ،واستخلصها منهم في
 رجب 359هـ/969م، ثم فتح طبرية وتوجه إلى دمشق فحاصرها وفتحها وخطب للمعز العبيدي، ثم كانت له مواجهة مع
 القرامطة فهزموه و قتلوه في 6ذي القعدة 360هـ/970م .ينظر:تقي الدين المقرئزي، المقفى الكبير، تحقيق:محمد اليعلاوي،
 دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991. ج3، ص 50-58.

⁴ -عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، دت ، ج2، ص109.

⁵ - ابن حماد، المصدر السابق، ص 91.

⁶ - أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق ابن النديم الوراق البغدادي، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من
 القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ، دار المعارف للطباعة، تونس ، 1994، ص269.

وقد دامت سيطرة العبيديين على مصر مدةً قرنين من الزمن، يمكن تقسيمها إلى مرحلتين :

مرحلة قوة الخلفاء (362-487هـ/972-1093م): تفرغوا فيها لتدعيم ملكهم وتوسيع سلطانهم على حساب ممتلكات الخلافة العباسية، وكانت السلطة الفعلية فيها تمارس من قبل الخليفة أولاً يساعده مستشاروه ووزرائه، وقد سيطرت الخلافة العبيدية في عهد قوة الخلفاء على مصر وبلاد الشام، فمن حينئذ صار ببغداد وسائر ممالك الشرق إلى أعمال الفرات وحلب يخطب فيها باسم الخلفاء من بني العباس، ومن حلب إلى بلاد المغرب يخطب فيها باسم الخلفاء العبيديين بما في ذلك الحرمان الشريفان¹ ، ومع ذلك فإن هذه المناطق كانت تتعرض للصراع بين مختلف الدويلات التي ظهرت في ظل الخلافة العباسية.

وقد سعى العبيديون منذ أن دخلوا مصر إلى جعل مصر والشام وحدة واحدة وقاعدة مستقلة للحكام العبيديين، والدليل على تمسكهم بوحدة القطرين توحيد العملة ، وتوحيد نظام القضاء وغيره من نظم الدولة ، وأكثر من ذلك نشر دعوتهم على نطاق واسع².

وكان الخلفاء العبيديون يرمون إلى الإطاحة بالخلافة العباسية، فكانوا يتحينون فرص الفوضى وشغب الجند بالعاصمة بغداد فيبثون دعائهم لنشر دعوتهم بين العامة، وتجلى ذلك في مجموعة من المظاهرات والفتن بين الطرفين، أهمها تلك التي كانت في سنة 398هـ/1007م، حيث ثار شيعة بغداد في إقليم الكرخ³ وطالبوا بإقامة الدعوة للخليفة

¹ - وقد أقيمت الدعوة العبيدية بمكة المكرمة وسائر أعمالها ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم عرفة سنة 365هـ/975م، ينظر : المقرئزي ، اتعاط الحنفاء ، ج1، ص 225. جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1997، ج1، ص270.

² - عبد المنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط4، 1994. ص 112.

³ -الكرخ إقليم في بغداد والأسواق حوله عمره أبو جعفر المنصور بعدما فرغ من بغداد، ثم أصبحت محلة مفردة وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها، فبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة وأهلها كلهم سنة حنابلة، وفي جنوبها المحلة المعروفة بنهر القلائين وأهلها أيضا سنة، وعن يسار قبلتها محلة تعرف بباب المحول وأهلها أيضا سنة، وفي قبلتها نهر =

العبيدي الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1021م)، "وصاحوا: يا حاكم يا منصور"،
فاضطر الخليفة القادر بالله (381-422هـ/991-1031م) إلى أن يحاربهم حتى خمدت
الفتنة¹.

وكانت هذه الفتنة سرعان ما تتأجج نارها بسبب دسائس الشيعة، ففي سنة 401هـ/1010م،
خطب قراؤش بن المقلد صاحب الموصل² للحاكم بأمر الله العبيدي صاحب مصر ودعا له
على المنابر كلها في الموصل والأنبار والمداين والكوفة وغيرها ، فوجه إليه الخليفة العباسي
القادر بالله، جيشا قضى على حركته وأجبره على الاعتذار وقطع خطبة العبيديين وإعادة
الخطبة للقادر بالله العباسي³.

=الصراة وفي شرقيها نصب بغداد ومحال كثيرة ، وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سني ألبتة، ولهم في السوق
العتيقة مسجد يدعى براثا يزعمون أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلى فيه ،وقد نشأ أهل الكرخ على سب
الصحابية، وليس للخلافة عليها أمر "وعدم أمر الخليفة عليهم لميل بني بويه إليهم في الباطن، فإنهم أيضا من كبار
الشيعة، وهم سلاطين بغداد ، وكانوا لا يظهرون ذلك خوفا على الملك". ينظر: ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج4،
ص 448. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، مناقب بغداد، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار
غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، 1998، ص23-24. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص49.

¹ - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر
عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج15 ، ص 59. عماد الدين أبو الفدا
إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: محمد محمد تامر وآخرون، دار البيان العربي ،القاهرة، 2006. ج6،
ص384. عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم بن الأثير الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف
الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ج8 ، ص49.

² - قراؤش بكسر القاف وضم الواو ،ابن مقلد بن المسيب بن رافع ، الأمير، صاحب الموصل أبو المنيع ، معتمد الدولة
ابن صاحب الموصل حسام الدولة أبي حسان العقيلي، تملك بعد موت أبيه سنة 391هـ/1000م فانتسج ملكه، فكانت له
الموصل والكوفة والمداين وسقي الفرات، خطب في بلاده للحاكم العبيدي ثم ألزمه الخليفة العباسي بإعادة الخطبة له،
فغضب الحاكم وجهز جيشا لحربه لكنه استتجد بدبيس الأسدي فاننصر، قُتل على يد ابن أخيه بركة سنة 444هـ/1052م ،
ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرق سوسي ، مؤسسة الرسالة،
بيروت ، ط1، 1982. ج 17، ص 633. ابن خلكان ، المصدر السابق، ج5، ص263-267.

³ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8 ، ص63. المقرئ، اتعاض الحنفا ، ج2، ص88، الذهبي، المصدر السابق، ج17،
ص 633. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج4، ص225. ابن كثير، المصدر السابق ، ج6 ، ص 389. وقد تجرأ على
إعادة الخطبة للعبيديين زمن المستنصر سنة 436هـ/1044م لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك مخافة ردة فعل الخليفة القائم
ينظر: المقرئ، اتعاض الحنفا ، ج2، ص 193.

أدرك الخليفة العباسي أن الدولة العبيدية وراء تلك الحركات، فلجأ -إضافة إلى قوة السلاح- إلى التشهير بسمعة العبيديين والطعن في نسبهم بجميع أنحاء العالم الإسلامي، وأصدر سنة 402 هـ/1011م¹ محضرا رسميا موقعا من كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة مثل نقيب الأشراف أبي عبد الله بن النعمان والشاعر العلوي المشهور الشريف الرضي وأخيه المرتضي².

وقد جاء في المحضر: "إن منصور بن نزار الملقب بالحاكم ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ، فإنه لما صار إلى بلاد المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب،... وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كُفار فُساق فُجار مُلحدون زنادقة مُعطلون ..."³

ورغم ذلك لم يتوان العبيديون في استغلال فرص الفوضى في بغداد لصالحهم، ومن ذلك ما فعله الظاهر لإعزاز دين الله سنة 425 هـ/1033م حين شغب الجند الأتراك واستولوا على الأمر فقُلّت الأموال والرجال، فبث دعائته لنشر دعوته بين الناس⁴.

¹ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 15، ص 82. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 4، ص 229. و قد كُتِبَ محضر آخر سنة 444 هـ/1052م زمن الخليفة القائم بأمر الله بالقدح في نسب خلفاء مصر وأنهم ديصانية خارجون عن الإسلام. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 55. المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج 2، ص 223.

² ومن الذين وقعوا المحضر كذلك: ابن البطحاوي العلوي ، وابن الأزرق الموسوي ، والزكي أبو يعلى عمر بن محمد ، ومن العلماء والقضاة: ابن الأكفاني، وابن الخزري، وأبو العباس الأبيوردي، وأبو حامد الإسفراييني، والكشغلي ، والقُدوري، والصيمري، وأبو عبد الله بن البيضاوي، وأبو الفضل النسوي .ينظر: ابن الأثير ، المصدر السابق، ج 8، ص 73

³ ابن كثير، المصدر السابق ،ج 6، ص 391.أبو الفداء، المصدر السابق، ج 1، ص 143. وإن هذا المحضر ليس إدعاء تُسب إلى العبيديين بل هم من أثبتوا على أنفسهم هذا الأصل بسبب ممارساتهم الدنيئة في حق الإسلام والمسلمين، "فمن رضي من نفسه بالإساءة ، شهد على أصله بالدناءة "ينظر: محمد بن علي بن سليمان الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، عبد النعيم محمد حسنين، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم ،القاهرة، دت ، ص 173.

⁴ - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 181.

مرحلة سيطرة الوزراء من 487-567هـ/1093-1171م¹: كان لتردي الأوضاع الاقتصادية والأمنية في مصر أثر كبير على الحياة السياسية، حيث فشل الخلفاء في تسيير أمور الدولة بسبب ازدياد الفتن، " وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت والأمور قد تغيرت وطوائف العساكر قد تبعثرت وتحزبت وافتن بينهم قد اتصلت وتأكدت ..."².

وكان عهد المستنصر بالله هو خاتمة عصر سيطرة الخلفاء على زمام الأمور، حيث استتجد بالقائد بدر الجمالي لتخليص البلاد والعباد من تلك الأزمات الخانقة التي وقعت فيها مصر، فنجح الوزير بدر الجمالي في تسيير الأمور والعودة بها إلى نصابها الأول، ومقابل ذلك توسعت صلاحياته وتطورت مكانته³.

وقد دخلت مصر في عهد نفوذ الوزراء بشكل فعلي على إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة 487هـ/1093م، وتعين الوزير الأفضل بن بدر الجمالي(487-515هـ/1093-1121م)⁴ لابن المستنصر الأصغر المستعلي بدلا عن نزار⁵، فسيطر الأفضل على شؤون الحكم في البلاد، واستبد بالسلطة دون المستعلي⁶، ومنذ ذلك الوقت زادت صلاحيات الوزير، " وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر

¹ - يندرج هذا العنصر ضمن الفصل الأول ، لكنني ارتأيت أن أخصه قدر الإمكان بما يتماشى واستكمال المعلومات حول الدولة العبيدية.

² - ابن الصيرفي ، المصدر السابق، ص55.

³ - نفسه ، ص 55-56.

⁴ -الوزير الأفضل بن بدر الجمالي المعروف بأمر الجيوش بن شاهين، وزير الخليفة العبيدي المستعلي بالله، بلغ من الوزارة مبلغا عظيما وجمع من الأموال ما لم يجمع لغيره ، قتل بين مصر والقاهرة على يد الباطنية سنة 515هـ/1121م . ينظر: ابن طولون الصالحي ، المصدر السابق ، ص 52-53.

⁵ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج5، ص 140-141.

⁶ -جمال الدين سرور ،المرجع السابق، ص 106.

وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في كافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر
الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية¹.

2- الدولة البويهية (334-447هـ/945-1055م):

يرجع أصل البويهيين إلى رجل فارسي يدعى بويه من إقليم الديلم في جنوب غرب بحر
قزوين، ويُزَجُّ البعضُ نسبَه إلى آل ساسان ملوك الفرس القدماء، بينما يذهب البعض الآخر
إلى أن هذه النسبة الملكية قد انتحلت وأُفْتُعِلَتْ بعد انتقال الملك إلى بني بويه لرفع شأنهم
وتمجيد ذكركم، وكيفما كان الأمر فإن نجم هذه الأسرة بدأ في الظهور حينما التحق بويه هو
وأبناءؤه الثلاثة علي - عماد الدولة -، وحسن - ركن الدولة -، وأحمد - معز الدولة -²،
بخدمة مرداويج بن زياد الديلمي الذي كان قد استقل بمنطقة طبرستان والديلم وتغلب على
نفوذ الزيدية هناك³.

وعلى إثر مقتل مرداويج على يد جنوده سنة 324هـ/935م، سيطر علي على مدينة
شيراز وجعلها مقرا لحكمه الذي كان يمتد على كامل إقليم الكرج بين همذان وأصفهان،
واحتل أخوه الحسن بلاد الجبال⁴ واستقل بها، أما أحمد فقد احتل بلاد كرمان والأهواز -
خوزستان- فأشرف بذلك على العراق، التي كانت في حالة تدهور سياسية واقتصادية بسبب
تنافس وتنازع الأمراء الأتراك على السلطة، بالإضافة إلى عجزهم عن دفع رواتب الجند،

¹ - المقرئزي ، الخطط ، ج 2، ص 233.

² - أطلق عليهم الخليفة المستكفي تلك الألقاب وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدراهم والدنانير .ينظر: ابن الأثير،
المصدر السابق، ج 7، ص 206.

³ -أحمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت.ص 161.

⁴ - إقليم الجبال يشتمل على الكوفة والبصرة وأعمالهما، فحدها الشرقي مفازة خراسان وفارس وأصبهان وشرقي خوزستان،
وحدها الغربي أذربيجان والشمالى بلاد الديلم وقزوين والري وحدها الجنوبي العراق وبعض خوزستان. ينظر: أبو القاسم ابن
حوقل النصيبي، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1992، ص 304.

وحفظ الأمن في البلاد، هذا الأمر جعل العراقيين يتطلعون إلى أحمد بن بويه ليخلصهم من ظلم الأتراك واستبدادهم، فطلبوا إليه المجيء واعدينه بالمؤازرة والتأييد.¹

فاستغل أحمد بن بويه هذه الفرصة وزحف بجيوشه نحو بغداد ودخلها في 11 جمادى الأولى 334هـ/945م²، فاستقبله المستكفي بالله (333-334هـ/944-946م) استقبال الأمراء، ويصف لنا ابن كثير (ت774هـ) ذلك الاستقبال الذي حظي به أحمد بن بويه بقوله: " فلما اقترب من بغداد بعث إليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا والإنزالات، وقال للرسول أخبره أنني مسرور به... وبعث إليه بالخلع والتحف"³.

وعلى إثر مبايعة أحمد بن بويه للخليفة العباسي المستكفي بالله قلده هذا الأخير منصب أمير الأمراء كما لقبه بمعز الدولة⁴، على أن علاقة البويهيين بالخليفة المستكفي لم تلبث أن ساءت بعد شهر واحد فقط بسبب سوء الظن وانعدام الثقة، إذ اتهمه معز الدولة أحمد بن بويه أنه يعمل سرا على إزالته وإعادة الأتراك إلى الحكم⁵، فخلعه وبايع ابن عمه المطيع بالخلافة في 22 جمادى الثانية سنة 334هـ/946م⁶.

وكان من المتوقع أن يعيد البويهيون الأمور إلى نصابها الأولى، وأن تعود السلطة إلى يد الخليفة العباسي، لكن بوصول معز الدولة بن بويه إلى سدة الحكم استأثر بالسلطة لنفسه

¹ - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، بيروت، ط1، 1989، ص152، 153.

² - ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص42. أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تجارب الأمم و تعاقب الهمم، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ج2، ص85.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص255.

⁴ - ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص42. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص106.

⁵ - ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص86. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص162.

⁶ - نفسه، ج2، ص87، ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص256.

وجرد الخليفة العباسي من صلاحياته الذي أضحى رمزا من دون قرار، فاستأثر بنو بويه بالحكم ورفعوا منصب أمير الأمراء¹ إلى الذروة بسبب توسيع دائرة صلاحياته².

استمر بنو بويه في الحكم مدة قرن من الزمن، وكانت عاصمتهم مدينة شيراز ببلاد فارس، وإن كان بعضهم قد استقر أيضا في مدينة بغداد التي أسموها دار المملكة³.

وما زاد الأمور تعقيدا أكثر من سابقتها هو الاختلاف المذهبي بين عامة بغداد السنيين وبني بويه الفرس الشيعة، فأدى ذلك إلى إشعال نار الفتن المذهبية واضطراب الأمور خاصة في العاصمة بغداد .

وثرّج المصادر التاريخية سبب هذا التسلط إلى الاختلاف المذهبي، فالخلافة العباسية كما هو معروف خلافة سنية، بينما كان بنو بويه ومن معهم من الديلم شديدي التشيع، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها، " فلم يكن لهم وازع ديني يحثهم على الطاعة" حسب ابن الأثير (ت630هـ/1232م)⁴ ، وكان البويهيون شيعة على المذهب الزيدي⁵ الذي قُدر له الانتشار في بلاد الديلم بدءا من فرار يحيى بن عبد الله من تلك البلاد

¹ - منصب إمرة الأمراء: هو منصب اقترحه الخليفة الراضي بالله بعدما أحس بعجز الوزراء عن حل الأزمات التي تواجهها الدولة، وتم ذلك بالمشاورة مع ابن رائق . ينظر: حسام الدين السامرائي، المؤسسات الإدارية ، دار الفكر العربي، بغداد ، ط2، دت، ص 77.

² - لكن هذا المنصب لم ينشأ بعهدهم بل وجد قبل مجيئهم بعشر سنين على الأقل في عهد تسلط الأتراك سنة 324هـ/935م، كما اتخذوا لقب ملك أو شاهنشاه. ينظر: صفية سعادة، من تاريخ بغداد الاجتماعي في الفترتين البويهية والسلجوقية، دار أمواج ، لبنان، ط 1، 1988. ص21. أحمد مختار العبادي المرجع السابق ، ص163.

³ - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ، ص166.

⁴ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7، ص208. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6، ص 256.

⁵ -الزيدية: أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان من مذهبهم جواز إمامة المفضل مع وجود الأفضل : " فيقولون كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها"، وبذلك خالفوا فرق الشيعة الأخرى كالإسماعيلية الاثني عشرية التي ترفض إمامة الشيخين. لتفاصيل أكثر ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل ، تحقيق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992. ج1، ص153-154.

بعد فشل ثورة محمد النفس الزكية سنة 145هـ/762م، الذي نجح في تكوين رأي عام شيعي، ثم ارتبط أهل تلك البلاد كذلك في إحدى المراحل بتأثر شيعي في الري وهو الحسن بن زيد العلوي، وكان لذلك الارتباط الأثر الأقوى في نشر الإسلام بصبغته الشيعية في هذه المنطقة من الحركة الأولى، كما كان لدخول الداعية الشيعي الحسن بن علي الملقب بالأطروش (ت304هـ/916م) إلى بلاد الديلم دور كبير في ترسيخ المذهب الشيعي هناك، حيث أقام بها أربع عشرة سنة عمل فيها على الاتصال بجنود بني بويه وقواده¹.

ويتبين من هذا مدى تأثر بني بويه بتلك النشأة الشيعية الثورية، ولا شك في أن دخولهم بغداد بعقيدتهم في عدم أحقية العباسيين بالخلافة سيدفع بهم إلى السعي لنقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي، وقد ذكرت المصادر رواية مفادها أن معز الدولة البويهية (334-356هـ/945-967م) عزم على نقل الخلافة إلى المعز لدين الله العبيدي أو أحد من العلويين، واستشار أصحابه في ذلك، فكلهم أيده في أمره إلا رجلاً منهم² قال له: "لا أرى لك هذا... لأن هذا خليفة ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الإمارة، فمتى أمرت بقتله قتله أصحابك، ولو وليت رجلاً من العلويين لكنت أنت وأصحابك تعتقدون صحة ولايته، فلو أمر بقتلك لقتلك أصحابك، فلما فهم ذلك صرف عن رأيه الأول للدنيا لا لله عز وجل"³.

وقد أعطى الدكتور أحمد مختار العبادي تفسيراً آخر للأمر فقال: إن البويهيين على مذهب الشيعة الزيدية، الذي يعتبر أقرب المذاهب الشيعية إلى أهل السنة، ولعل هذا هو السر الذي جعل البويهيين رغم سيطرتهم يظهرون الولاء للخلافة العباسية السنية حرصاً على

¹- وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1990. ص 63.

²- ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 208. وابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 256.

³- ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 256.

مصلحتهم السياسية، وتماشيا مع مبدأ الزيدية وهو الاعتراف بإمامة المفضول مع وجود
الأفضل¹.

ورأي ابن كثير هو الأقرب إلى الصحة، وهذا ما أثبتته تاريخ البويهيين في بغداد إذ طالما
سعوا إلى طبع الدولة بالمذهب الشيعي من خلال الاحتفالات بمناسبات الشيعة الخاصة كيوم
عاشوراء² وعيد غدير خم³، وقد احتفل بها البويهيون في بغداد احتفالا كبيرا ، فكانت تقام
الزيينات وتفتح الأسواق في الليل وتضرب البوقات وتشعل النيران عند أبواب الأمراء وكبار
رجال الشرطة فرحا بهذا العيد، وقد علق ابن كثير(ت774هـ/1372م) على هذه الاحتفالات
بقوله: "فكان وقتا عجيبا، ويوما مشهودا، وبدعة ظاهرة منكرة"⁴، ولم يتمكن أهل السنة من
فعل أي شيء إزاء الأمر؛ إذ " لم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان
معهم"⁵، وكانت بداية الاحتفال بهذه الأيام زمن معز الدولة البويهي سنة 352هـ/962م⁶،
وقد أصبحت بدعة اتبعتها البويهيون من بعده.

ولأن مثل تلك التبعية للعلويين كانت ستعرض العالم الإسلامي لهزات عنيفة، بالإضافة
إلى زعزعة الحكم البويهي، أحجم الأمير معز الدولة البويهي عن الأمر، كما أن شيعة
العراق الذين حاول معز الدولة استمالتهم إليه، كانوا على مذهب الإمامية، وهذا يدل على أن
تنصيب خليفة زيدي سيكون مماثلا في نظرهم بالمقارنة مع الخليفة العباسي، لهذا أدرك معز

¹ - أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق، ص164.

² - يوم عاشوراء يصادف العاشر من محرم وهو اليوم الذي يظهرون فيه النواح والبكاء على خذلانهم للحسين بن علي
رضي الله عنه في يوم كربلاء.

³ - عيد الغدير أو يوم الغدير يصادف الثامن من ذي الحجة وهو اليوم الذي يعتقد فيه الشيعة أن الرسول صلى الله عليه
وسلم قد أوصى فيه بالخلافة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 289.

⁵ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7، ص279.

⁶ - ابن الأثير، المصدر السابق ، ج7، ص297-280. ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 289. ابن الجوزي،
المنتظم، ج14، ص151.

الدولة بأن البقاء على الخلافة العباسية أجدر متبعا المبدأ الزيدي، وعلى أساس المصلحة السياسية اضطر أن يدين بالولاء لخليفة سني، إلا أنه اتبع سياسة ترمي إلى الحد من سلطة الخليفة العباسي مقابل تقوية نفوذه¹.

والمهم في الأمر أنه بسيطرة البويهيين على بغداد والخلافة العباسية فقد عملوا بشكل أو بآخر على ترسيخ ملكهم وبالتالي ترسيخ المذهب الشيعي، فكان من عضد الدولة البويهي (324-372هـ/ 936-983م) أن عقد قران ابنته على الخليفة العباسي الطائع لله سنة 369هـ/ 979م، وذلك بحضرة الخليفة وبمشهد أعيان الدولة والقضاة²، " وبنى الأمر فيه على أن يرزق ولدا ذكرا منها، فيولى العهد، وتصير الخلافة في بيت بني بويه، ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية "³.

كما حرص البويهيون على توثيق علاقتهم بالدولة العبيدية الشيعية في مصر، حيث عمل عضد الدولة البويهي على توثيق الروابط بينه وبين الخليفة العزيز بالله العبيدي (365-386هـ/ 975-996م) في مصر⁴. وقد أشار ابن تغري بردي (874هـ/ 1469م) إلى الرسائل الودية المتبادلة بينهما في سنة 366هـ/ 976م، وأن الملك البويهي اعترف في خطابه للعزيز بإمامة العبيديين، وبفضائل آل البيت مظهرا له طاعته ومحبته، مخاطبا إياه بالحضرة الشريفة، وذلك في حضرة الخليفة العباسي الطائع لله (363-381هـ) الذي لم يكن له من الأمر شيئا بسبب تسلط بني بويه، ورد العزيز بالله على عضد الدولة برسالة كلها شكر وتقدير للملك البويهي⁵.

¹ - محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة العباسية ، دار النفائس ، بيروت ، ط5 ، 2005. ص 224

² - ابن مسكويه، المصدر السابق ، ج2، ص414. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 342. فيما ذكر ابن الأثير أن الخليفة الطائع لله عقد قرانه على ابنة عز الدولة بختيار سنة 366هـ/ 976م، المصدر السابق ، ج7، ص 375.

³ - ابن مسكويه، المصدر السابق ، ج2، ص414.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 342.

⁵ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص128، 129. جمال الدين علي بن ظاهر الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق: عصام هزايمة و آخرون، دار الكندي للنشر و التوزيع ، الأردن ، ط1 ، 1999. ج2، ص416.

وكان ضعف الدولة البويهية على إثر الخلافات والانقسامات والحروب المتعددة بين أفراد البيت البويهي، الأمر الذي سمح للخلفاء العباسيين بالتدخل في السياسة ومناوئة النفوذ الشيعي البويهي، فمن ذلك أن الخليفة العباسي القادر بالله (381هـ-422هـ/991م-1030م)، أمر في سنة 382هـ/992م، بوقف النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء، كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي بغداد، فاضطر البويهيون إلى الرضوخ، واكتفوا بتعيين قاض خاص للشيعة أسموه النقيب أو نقيب الهاشميين¹.

اضطربت أوضاع البويهيين بعد وفاة بهاء الدولة في 403هـ/1012م، ومرد ذلك يعود لعدة أسباب أهمها تنازع أبنائه حول السلطة بعد تقاسمهم أملاك أبيهم وتطلع كل واحد منهم إلى الاستقلال الذاتي وانتزاع ما بيد أخيه ، حتى دب الخلاف والشقاق داخل الأسرة².

كما أن التمرد العسكري الذي تعرضت له الدولة البويهية بسبب اعتمادها على عنصرين مختلفين في تركيبة جيشها، نقصد بهم الديالمة في بداية الأمر ثم الأتراك، كان من بين أهم أسباب ضعفها ونهاية حكمها³، فاعتماد البويهيين على الأتراك منذ معز الدولة كان يُبنى بالفوضى والضعف⁴، فقد جند الكثير منهم ووصل بعضهم إلى مناصب قيادية، وبالرغم من أن السيادة ظلت بيد البويهيين إلا أن قوة الجند الأتراك ازدادت باستمرار تحت حكم البويهيين المتأخرين بعد عضد الدولة وأضحت قوة لا يمكن الاستغناء عنها، وشكل الأتراك وحدات الفرسان في حين شكل البويهيون المشاة، وكان من الطبيعي في ظل هذا الوضع أن ينشأ التنافس بين الطرفين ، الأمر الذي سبب الكثير من المتاعب للبويهيين، إذ كثيرا ما أدى ذلك إلى اندلاع الثورات والحروب

¹ - إبراهيم أيوب ، المرجع السابق، ص 156.

² - صفية سعادة ، المرجع السابق ، ص 37-39. خالد عزام ، موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العباسي، دار أسامة للنشر، عمان ، 2009. ص 219-221.

³ - خالد عزام ، المرجع السابق، ص 221.

⁴ - ابن مسكويه، المصدر السابق ، ج2، ص 99-100. انقسم جيش البويهيين في تلك المرحلة إلى ديالمة شيعة وأتراك سنة، وهذا بالفرقة والانقسام، وسنلاحظ ذلك أثناء الفتن بين السنة والرافضة في بغداد وكيف تدخل الأتراك لصالح أهل السنة. ينظر: الصفحة 82-85 من البحث .

الأهلية، ولم يتورع الجند الأتراك عن نهب العاصمة أحيانا، كما لم يتورعوا حتى عن نهب قصور أمراءهم، مطالبين بزيادة مرتبهم وبتعويضات إضافية¹.

انكمش البويهيون على أنفسهم ضمن دائرة نفوذهم، وأهملوا في نفس الوقت الاهتمام بما كان يجري من أحداث في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي، فلم يشاركوا فيها، مما أفسح المجال لظهور إمارات أخرى، أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة، أمثال العقيليين² في شمالي العراق وبعض مناطق الجزيرة، والنميريين في حران والرها والرقه، والمروانيين³ في ديار بكر وميافرقين وغيرهم، وقد نتج عن ذلك حدوث صدامات بينهم وبين تلك القوى الناشئة .

أما على الصعيد الخارجي، فإن البويهيين لم يُعيروا اهتماما لتنامي القوى البيزنطية، كما أنهم لم يتطلعوا إلى بلاد الشام التي شهدت في بعض الأحيان نزاعات حادة بين الدويلات المستقلة وبين الخلافة العباسية. وأما في الشرق فإنهم لم يشاركوا السامانيين والغزنويين في الدفاع عن المناطق الحدودية مع الهند والترك والوثنيين. والراجح أن الخلافات الداخلية التي كانت تنشأ داخل الأسرة، منعتهم من الاهتمام بالأمور الخارجية، والحرص على أن يكون لهم دور فعال في العالم الإسلامي⁴، فوجد السلاجقة الأتراك الظروف مهيأة لدخول بغداد والقضاء على التسلط البويهي .

¹ - سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 230.

² - العقيليون: (380-489هـ/990-1096م) في الجزيرة والعراق وشمالي سورية، ينتمي العقيليون إلى ذلك التجمع العشائري البدوي الكبير المعروف بتجمع " عامر بن صعصعة " الذي كان يضم بين بطونه بني خفاجة والمنتكف، وبسقوط دولة الحمدانيين آلت الأمور إلى محمد العقيلي، الذي كان تابعا لبهاء الدولة البويهي، ثم آلت إلى قراوش بن المقلد ثم مسلم بن قريش الذي كان شيعيا مساندا للعبيديين، وهذا ما أدخله في صراع مع قوى السلاجقة السنيين إلى أن انقرضت دولتهم في آخر الأمر وتوحدت المنطقة بيد السلاجقة الأتراك ينظر: كليفورد . أ. بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، (ترجمة: حسن علي اللبودي ، مراجع سليمان إبراهيم العسكري)، ط2، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1995، ص89-90.

³ - المروانيون : (372-478هـ/983-1085م) : يعود نسب المروانيين الذين حكموا في ديار بكر وخلاط وملازكردي إلى أصول كردية، وقد كان باذ مؤسس هذه الأسرة أحد أمراء الأكراد، الذي استطاع الاستيلاء على عدد من القلاع الواقعة على حدود أرمينيا وكردستان، فقد أفاد من تدهور نفوذ البويهيين في هذه المناطق بعد وفاة عضد الدولة عام 372هـ/983م، فاستولى على ديار بكر وحاصر الموصل لبعض الوقت وهدد بغداد، وفي عهد ابن أخته ابن مروان الملقب نصر الدولة وصلت الإمارة المروانية إلى مستوى عال من الثراء والمنعة. وعلى إثر وفاته سقطت في يد القوى السلجوقية سنة 478هـ/1085م. ينظر: أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج2، ص 126. كليفورد . أ. بوزورث، المرجع السابق ، ص87-88.

⁴ - سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص230، 231.

ب- الغزنويون : 351 - 582 هـ / 962-1186م :

عرفت بلاد ما وراء النهر قوى سنية متحمسة يعود لها الفضل في اعتناق الأتراك للإسلام، من بين أهم تلك القوى نجد السامانيين (261هـ-389هـ/874م-998م)¹ ثم الغزنويين، ليلحق بهم بعد ذلك السلاجقة المتحمسون للإسلام أكثر من غيرهم والمتحدين أكثر حول الإسلام.

ويعتبر الغزنويون من بين أهم القوى السياسية في بلاد ما وراء النهر قبل ظهور السلاجقة، ينتسبون إلى غزنة² التي اتخذوها عاصمة لهم، ويرجع الفضل في ظهور هذه الدولة إلى أحد القادة المسلمين المسمى "أبا إسحاق ألبتكين"³، الذي كان صاحباً لجيش

¹ - السامانيون: أسرة فارسية نسبة إلى جدهم سامان أحد أشرف مدينة بلخ، وكان لأسد أربعة أولاد: نوح وأحمد ويحيى وإلياس، تولوا أقاليم مهمة في خراسان زمن الخليفة المأمون (198-218هـ/813-833م)، كان أحمد أطول الإخوة عمراً، فأل إليه حكم سمرقند وفرغانة والشاش وقسم من الصغد، وعندما توفي انتقلت الرئاسة في الأسرة لابنه نصر، وحينما اشتد خطر الصفاريين، أصدر الخليفة العباسي المعتمد على الله (256-279هـ/870-892م)، تقليداً بتولية نصر بن أحمد الساماني ولاية جميع بلاد ما وراء النهر سنة 261هـ/876م، فأتخذ بخارى عاصمة له. دامت الدولة السامانية مدة مائة وعشر سنين، وطوال هذا القرن كان السامانيون على مذهب أهل السنة. ينظر: أبو بكر محمد بن جعفر النرشخي، تاريخ بخارى، ترجمة وتحقيق: أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مېشر الطرازي، دار المعارف، القاهرة، 1965، ط3، ص90-112. ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص253. عباس إقبال أشتياني، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة، 1990، ص162.

² - غَزْنَة: أو غزنيين ويعربها العلماء فيقولون جزنة، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين الهند. ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص201.

³ - أمضى ألبتكين ثلاثاً وخمسين سنة من عمره متقانياً في خدمة الأمراء السامانيين وتوطيد ملكهم، وقد انضوى تحت لوائه جيش ضخم فتح به عدة أقاليم ونشر الإسلام بها، فقد عرف بقوته وشدة بأسه، لكن عندما توفي نوح بن نصر الساماني تولى مقاليد الأمور ابنه منصور وكان صغير السن، فتأثرت مكانة ألبتكين بسبب الدسائس داخل القصر التي ألحقت على منصور بضرورة التخلص من ألبتكين واستعادة أملاكه الواسعة لخزينة الدولة، فعمل جاهداً للقضاء عليه، وعبثاً حاول لما عرف عن ألبتكين من قوة ومكانة لدى جيشه وحتى لدى الأقوام التي فتحها ودعاها للإسلام واستقر في نهاية المطاف في غزنة، وتوفي غازياً ببلاد الهند سنة 355هـ/965م. ينظر: نظام الملك، سير الملوك أو سياسية نامة، ترجمة: يوسف بكار، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، 2012، ص145-153.

خراسان¹ ، فقد اشترى غلماناً أتراكاً من بينهم ناصر الدين سبكتكين، الذي عينه على رأس
الغلمان في سن مبكرة ثم قرّبه حتى أضحى في أعلى المراتب².

لما بلغ ألبتكين في أوائل عام 351هـ/962م مدينة غزنة وغلب أميرها أقام بها، وتولى
ناصر الدين سبكتكين تسيير أعمال خراسان وتلك النواحي "لرأيه الصائب وفكره الصادق"³،
ومن ثم يعتبر ذلك التاريخ بداية تأسيس الدولة الغزنوية⁴، ولو أن استقلال الغزنويين يبدأ من
عام 387هـ/996م بتولي السلطان محمود العرش⁵.

توفي أبو إسحاق ألبتكين، ولم يخلف من أقاربه من يصلح لتولي منصبه، فاجتمع الجيش
لتعيين من يتولى أمرهم فاختلفوا، وفي 20 شعبان 366هـ/976م اتفقوا على سبكتكين
صهر ألبتكين لما عرفوه من عقله ومكانته وجهاده⁶.

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على توسيع رقعة دولته، فمنذ سنة
367هـ/977م رفع راية الجهاد لإعلاء كلمة الإسلام، فسيطر على قُصّدار القرية من غزنة
وعلى خراسان، ثم شرع في غزو أطراف الهند ونشر الإسلام والقضاء على الوثنية والشرك
وسيطر على الكثير من الحصون والمعازل هناك⁷، فالتسعت رقعة دولته، وعُمرت خزانته،
وهابه الناس، وإليه يرجع الفضل في وضع أساس دولة الغزنويين، إذ امتد سلطانه إلى ناحية

¹ - محمد بن خواندشاه المعروف بخواندمير، روضة الصفا في سيرة الملوك والأنبياء والخلفاء، ترجمة: أحمد عبد القادر
الشاذلي، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 1988، ص 129.

² - نظام الملك، المصدر السابق، ص 144-145.

³ - خواندمير، المصدر السابق، ص 129.

⁴ - عباس لقبال آشتياني، المرجع السابق، ص 169.

⁵ - ابن الأثير، المصدر السابق ج7، ص 488.

⁶ - أبو الفدا، المصدر السابق، ص 117، ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص 373.. عباس لقبال آشتياني،
المرجع السابق، ص 170.

⁷ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص 373-374. خواندمير، المصدر السابق، ص 130-132.

الهند، حيث أسس بها حكومة قاعدتها ببشاور، كما اتسع نفوذه في المشرق باستيلائه على إقليم خراسان¹.

لكن سبكتكين اتجه بأعماله نحو الهند، ولم يكن اتجاهه نحو البلاد التي كانت في حوزة السامانيين إلا تلبية لرغبتهم حين استعانوا به على قمع الخارجين عليهم في خراسان، فقد انضم بقواته إلى نوح الثاني بن نصر الساماني (365-386هـ/976-997 م) في قتال الخارجين على حكمه في خراسان وخاصة فائق وأبا علي الجعائي، وفي قتاله للبويعيين الذين رغبوا في الاستيلاء على خراسان من أملاك السامانيين، واستطاع سبكتكين وابنه محمود مع قوات السامانيين الانتصار على هؤلاء الخارجين، كما انتصروا على بني بويه وأعادوا للسامانيين مدينة نيسابور، وبعودة نيسابور إلى السامانيين ولى نوح الساماني محمود بن سبكتكين عليها²، كما لقب الخليفة العباسي الأمير سبكتكين "بناصر الدين" لانتصاراته في الهند³.

وفي عام 385هـ/995م، غزا أبو علي الجعائي وفائق خراسان مرة أخرى⁴، وكان السلطان نوح الساماني قد امتد على جزء من هذه البلاد، غير أن الأمير الساماني لم يستطع الصمود في وجه الحشود التركية الضخمة إلا بطلب المساعدة من سبكتكين الذي كان في غزنة، فعبر إلى بلاد ما وراء النهر بجيش كبير وعسكر بين كش ونسف، وكتب إلى نوح يستعجله في اللحاق به، لكن هذا الأخير أحجم عن اللحاق به بسبب قلة الأعداد التي معه، فأجبر سبكتكين القوات السامانية على اللحاق به بعد أن أرسل إليهم قوات تتكون

¹ ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص 175-176. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص103.

² علي محمد الصلابي، دولة السلاجقة، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2007، ص 25.

³ نظام الملك، المصدر السابق، ص 154.

⁴ ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص 470.

من عشرين ألف جندي¹، واشتبك الطرفان في رحى معركة طاحنة عند طوس في شهر جمادى الثانية من نفس السنة، انتهت بانتصار سبكتكين وتَعَقَّبَ أبا علي حتى خوارزم².

هيمن سبكتكين بعد ذلك على ممتلكات السامانيين، وأضحى الحاكم المطلق على جميع الولايات الواقعة جنوب نهر جيحون، ولم يعد لنوح سلطة في خراسان، حكم سبكتكين حوالي عشرين سنة، "وكان فيه عدل وشجاعة ونبل مع عسف"³، وبعد وفاته في شعبان سنة 387هـ/967م⁴، عهد بالإمارة إلى ابنه إسماعيل، واستطاع ابنه محمود بعد قتال شديد أن ينتزع الإمارة من أخيه الأصغر إسماعيل⁵.

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوي 387هـ-421هـ/998م-1030م، الذي بلغت الدولة أوجها في عهده، إذ أنه قضى على دولة السامانيين وألغى اسمهم من الخطبة⁶، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله (381-422هـ/991-1031م)، الذي أطلق عليه لقب "يمين الدولة وأمين الملة"⁷، وبعدها سعى لتوسيع ممتلكاته، فسيطر على سجستان، كما أسقط السلطة البويهية في الري وبلاد الجبل بعد أن قبض على مجد الدولة آخر الحكام البويهيين فيها، وكتب إلى الخليفة القادر بالله يخبره بالأمر، فأسند له الخليفة ولاية خراسان والجبل والسند والهند⁸.

¹ - محمد سهيل طقوش ، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ، دار النفائس ، بيروت، ط3 ، 2009 ، ص 74.

² - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 7، ص 471.

³ - الذهبي ، المصدر السابق، ج16، ص 500.

⁴ - ابن خلكان، المصدر السابق ، ج5، ص 176، الذهبي ، المصدر السابق ، ج16، ص500.

⁵ - ابن الأثير، المصدر السابق ، ج 7، ص 488، 489..خواندمير ، المصدر السابق ، ص134-135.

⁶ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص370.

⁷ - ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص 175. خواندمير، المصدر السابق، ص136. وكان من ألقابه "نظام الدين"، ينظر: ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص80.

⁸ - خالد عزام ، المرجع السابق، ص 224.

وقد بلغ محمود بن سبكتكين من القوة ما دفع بالعبيديين إلى مراسلته والتودد إليه، ليكون في صفهم¹، ويسمح لدعاتهم ببث دعوتهم، فردّ رُسلهم وأحرق كتبهم وهداياهم، وذلك لتثبته بالمذهب السني وولائه للخلافة العباسية في بغداد²، فقد ثبت عن محمود تتبعه للرافضة والتضييق عليهم وقتلهم في كثير من الأحيان، ففي سنة 408هـ/1017م بعث له الخليفة القادر بالله يأمره ببث السنة بخراسان ففعل ذلك وبالع، حيث قتل جماعة كثيرة من الرافضة والإسماعيلية، وأمر بلعنهم على المنابر³، " وصار ذلك سنة في الإسلام "⁴، وفي سنة 420هـ/1028م بعث إلى دار الخلافة كتابا يوضح فيه أنه أوقع بجماعة من الباطنية بالري وزعيمهم رستم بن علي الديلمي، كانوا قد جاهرُوا بسب الصحابة وأبطنوا الكفر ومذهب الإباحة⁵، وفي هذا دلالة واضحة على جهود محمود في مواجهة الرفض والباطنية في الأقاليم التابعة له. وقد قال محمود بن سبكتكين في خروجه ضد باطنية العراق: " كل هذا

¹ - فقد ثبت عن العبيديين محاولاتهم في استمالة القادة السياسيين في إقليم ما وراء النهر -دون جدوى-، منهم الأمير الساماني نصر بن أحمد الساماني(301هـ - 331هـ / 913م - 942م) الذي دان بعقائد الإسماعيلية، وبسبب ذلك دبر قواده مؤامرة لاغتياله، فلما أدرك الخطر المحدق به تنازل عن الملك لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ط14، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1996، ص 83-84. وقد ذكر المقرئ أن نصرا بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يقول فيه: " أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني، وليس على المهدي لهم كلفة ولا مؤونة، فإن أمرني بالمسير سرت إليه ووقفت بسيقي ومنطقي بين يديه وامتثلت أمره ". وهذا دليل على تشيع نصر بن أحمد الساماني وجاهزيته لدعم الدولة العبيدية. ينظر: تقي الدين المقرئ، كتاب المقفى الكبير - تراجم مشرقية ومغربية من الفترة العبيدية-، (اختيار وتحقيق: محمد اليعلاوي)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص96.

² - فقد راسله الحاكم بأمر الله سنة 403هـ/1012م، ثم من بعده ابنه الظافر سنة 411هـ/1020م، وطلبوا منه أن يخطب لهم على المنابر، لكنه مزق كتبهم وبصق فيها ، ورفض الأمر وتبرأ منهم وأعلن الخطبة للخليفة العباسي القادر بالله. ينظر: ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج15، ص92. ابن تعري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص232 و451. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص426.

³ - ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، (تحقيق : عبد القادر الأرئووط، محمود الأرئووط)، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1989، ص 50.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 405.

⁵ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص 194-195.

لأصفي العراق من أصحاب المذاهب الخبيثة والمعتقدات السيئة في مدة قليلة بعون الله عز وجل ، فالله تعالى خلقنا لهذا، وولانا الخلق لنمحو المفسدين من على وجه المعمورة، ونحمي أهل الصلاح ونملأ الأرض عدلاً وسخاء ورحمة"¹.

كما يؤثر عن السلطان محمود الغزنوي أنه غزا بلاد الهند مرات عديدة مدفوعاً في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الإسلام بين الهنود الوثنيين ، واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه إلى ما وراء كشمير والبنغال وأن يجعل من إقليم البنغال ولاية إسلامية قاعدتها مدينة لاهور ويحكمها ولاية مسلمون يعينون من قبله، وقد ساعده في ذلك جيشه القوي الذي دوخ به البلدان التي فتحها ولم يكن أي جيش آخر يقوى على التصدي له ومقاومته، فكان الملوك يهابونه ويضعون له عصا الطاعة والولاء²، " واتسعت مملكته حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية وامتألت خزائنه من أصناف الأموال والجواهر"³.

توفي محمود سنة 421هـ/1029م، وخلفه ابنه مسعود الغزنوي الذي استكمل مسيرة أبيه في افتتاح الهند وتوسيع ممتلكات أبيه ، " فافتتح جرجان وطبرستان، وغزا الهند، وافتتح بلاداً كثيرة"، وكان يكاتب الخليفة في بغداد عن كل إنجازاته وفتوحاته⁴.

أما عن علاقة الغزنويين بالسلاجقة، فنلاحظ في دراستنا للموضوع أن السلاجقة دولة قامت على حساب الدولة الغزنوية في خراسان وبلاد ماوراء النهر، ففي سنة 430هـ/1038م استولى بنو سلجوق على خراسان وبلاد الجبال بعد أن انشغل مسعود بن محمود بن سبكتكين(421-433هـ/1029-1041م) باللهو والطرب وواصلوا انتزاع أراضيهم⁵، وفي

¹ - نظام الملك ، المصدر السابق ، ص 103.

² - نظام الملك ،المصدر السابق. ص139.

³ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص275.

⁴ - نفسه، ج4، ص275، 283.

⁵ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ، ج5، ص32.

سنة 434هـ/1042م هاجم السلاجقة خوارزم بقيادة طغرل بك واستولوا عليها وغادروها واليها الغزنوي شاه ملك¹ وبذلك دخلت خوارزم في حوزة السلاجقة بعد أن كانت تابعة للدولة الغزنوية .

واصل السلاجقة سياستهم التوسعية على حساب الدولة الغزنوية ، فاستولى إبراهيم ينال أخو طغرل بك على همذان والري سنة 434هـ/1042م².

ولما ولي مودود(433-443هـ/1041-1051م)حكم الدولة الغزنوية حاول بكل ما يستطيع استعادة الأقاليم التي انتزعها السلاجقة من دولته، فسير جندا سنة 435/1043م إلى نواحي خراسان تحرك ألب أرسلان لصدّه، فالتقى الجيشان الغزنوي والسلجوقي في معركة انتصر فيها السلاجقة وعاد الغزنويون أدراجهم خاسرين، غير أن خطر السلاجقة على الغزنويين لم يقف عند هذا الحد بل تجاوز خراسان، واقترب من غزنة، فسير مودود إليهم جيشا هزم السلاجقة، وأبعدهم عن بلاده ، وبذلك أمن السلطان مودود على حدود دولته من ناحية الجنوب الغربي، فيما ظلت بعض البلدان في ولائها لبيت سبكتكين رغم الانتصارات التي حققها السلاجقة، ومن بينها أعمال بادغليس، فظلوا يؤدون الأموال التي عليهم إلى مدينة غزنة³.

ومن خلال تتبعنا للحوادث، وفي خضم تلك الفوضى التي سادت بلاد ما وراء النهر بسبب الصراع بين الغزنويين والسلاجقة، لاحظنا أن الشيعة العبيديين لم يتوانوا في استغلال الوضع لصالحهم، فقد قام المستنصر بالله العبيدي سنة 436هـ/1044م ببيت دعائه سرا إلى بلاد ما وراء النهر يدعون إليه ويستميلون من تصل القدرة على استمالته، فدعوا هنالك بعد أن دعوا بخراسان⁴؛ خدمةً لمصالحهم السياسية والمذهبية، لكن الملك القراخاني⁵ بغراخان ملك ماوراء النهر كان لهم

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق ، ج8، ص256.

² - نفسه ، ج8، ص257

³ - عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص117

⁴ - المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص 191-192.

⁵ - الإمارة القراخانية أو القره خانية (315-607هـ/927-1210م)، عرفت باسم الإيلك خانية أي الأمير أو الحاكم، والقراخانيون هم قبائل تركية اعتنقت الإسلام، وكانوا مستقرين في تركستان، نجحوا في فرض سيطرتهم على معظم مدنها وعلى بلاد ما وراء النهر، وعاصروا الإمارة السامانية والغزنوية والخوارزمية، اتخذوا مدينة كاشغر عاصمة لهم وقد=

بالمرصاد وتفتن لتحركاتهم وأظهر قبول دعوتهم فاستمالهم، "...حتى علم جميع من أجابهم إلى مقالته، فحينئذ قتل من بحضرته منهم، وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، ففعل بهم ما أمر، وسلمت تلك البلاد منهم"¹.

وفي هذا دليل على تفتن الحكام المسلمين لمشاريع العبيديين الشيعة الرامية إلى التغلغل في العالم الإسلامي في مختلف أقاليمه مستغلة الأوضاع العامة من فوضى وصراع، لكن لكل موقف رجال يذبون عن العقيدة الإسلامية ويواجهون الضلال والانحراف.

وقد انتهت الدولة الغزنوية على أيدي قوتين، وهما قوة الأتراك السلاجقة الذين استولوا على ممتلكاتها في خراسان²، وقوة الغوريين الذين قضوا على ملكها في الهند وأقاموا على أنقاضها ثاني دولة إسلامية في الهند وهي **الدولة الغورية**³.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن المشرق الإسلامي في مطلع القرن الخامس الهجري كان يعاني من تجزئة سياسية الغالب عليها السيطرة الشيعية، حيث اشتدت وطأتهم في مصر والشام واليمن باسم العبيديين وفي بغداد وبلاد فارس باسم البويهيين، إلا إذا استثنينا إقليم بلاد ما وراء النهر الذي كان تحت سلطة الغزنويين السنة، الذين أظهروا في العديد من المناسبات ولاءهم للخلافة العباسية السنية في بغداد، ذلك الإقليم الذي مافتئ أن فجر الوضع وصدر قوى جديدة كان لها الفضل في قلب موازين القوى لصالح أهل السنة وقدموا الدعم اللازم للخلافة العباسية من أجل تخليصها من الهيمنة الشيعية.

=استعمل أفراد هذه الأسرة كلمة قره أو قرا -التي تعني الأسود- مضافة إلى أسمائهم، وقد أطلق عليها المستشرقون اسم القراخانية. أسسها صاحب كاشغر عبد الكريم المعروف ببغراخان التركي توفي سنة 344هـ/955م، وهو أول من اعتنق الإسلام. ينظر: سعاد هادي حسن إرجم الطائي، القراخانيون-دراسة في أصولهم التاريخية وعلاقاتهم السياسية-، دار صفحات، دمشق، ط1، 2016، ص462. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص30-33.

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص267.

² - الراوندي، المصدر السابق، ص158-165.

³ - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص157.

ثانيا : الصراع الفكري بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي مع مطلع

القرن الخامس الهجري 400-447هـ/1009-1055م:

كان الصراع المذهبي بين السنة والشيعة السمة الغالبة على القرن الخامس الهجري، وقد أسهبت المصادر في الحديث عن هذا الصراع، سواء بين المذاهب السنية نفسها، أو الصراع بين السنة والشيعة، وسنوجه اهتمامنا في هذا الحيز لدراسة الصراع بين السنة والشيعة خاصة، وسنتعرض في ذلك لنشاط الفرق الشيعية الإسماعيلية، ومراتب دعوتها واستدراج المستجيب، تلك الفرقة التي اتسع نطاقها في المشرق الإسلامي مع مطلع القرن الخامس الهجري، وبذلك نمهد لدراسة دور السلاجقة السنة في مقاومة هذه التيارات الفكرية الباطنية .

1- تعريف الشيعة الإسماعيلية :

جاء في موسوعة أعيان الشيعة¹ : أن الإسماعيلية "هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق"²، ويقول الشهرستاني : "الإسماعيلية قالوا إن الإمام بعد جعفر إسماعيل، نصا عليه باتفاق من أولاده"³، كما يذهب الإسماعيلي المعاصر عارف تامر إلى القول بأنه: "من المعلوم أن الإسماعيلية تنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر، ومن هنا جاء

¹ - محسن الأمين ،موسوعة أعيان الشيعة ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ، د ت ، ج1، ص 316.

² - جعفر الصادق هو: أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولد سنة 80 هـ/700م، يعتبر من عظماء آل البيت ، وهو عند الإمامية من الاثني عشر بزعمهم، عرف بالعلم والفضل ، لقب بالصادق لصدقه في مقالته أخذ عنه جماعة من الأئمة مثل : يحيى بن سعيد الأنصاري ، وأنس بن مالك ، توفي في شوال سنة 148هـ/763م ودفن بالبقيع. ينظر : ابن طولون محمد، الأئمة الاثنا عشر، تحقيق :صلاح الدين النجد، دار صادر، بيروت ، 1958، ص85.أبو الحسن الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة ، تحقيق :السيد هاشم الرسولي ، المطبعة العلمية، قم ، 1960. ج2، ص366.ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج2، ص216.

³ - الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1، ص170.

الاسم، إلا أن بعض علماء الإسماعيلية ذهبوا إلى القول أن اسم الإسماعيلية قديم، وأنه جاء منذ عصر إسماعيل بن إبراهيم الخليل، لكن هذا الرأي لا تؤيده المصادر التاريخية¹.
والمنتبع لتسلسل أئمة الشيعة الإمامية يلاحظ أن الإسماعيلية افتقرت عن الاثني عشرية² منذ وفاة جعفر الصادق (رضي الله عنه)³، إذ أن الشيعة الإمامية متفقون على تسلسل الأئمة من علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم زين العابدين ثم محمد الباقر فجعفر الصادق (رضي الله عنهم)، وهنا وقع الاختلاف في من يتولى الإمامة بعد جعفر الصادق: إسماعيل الابن الأكبر، أم موسى الكاظم؟ فانقسمت الشيعة إلى اثني عشرية وإسماعيلية⁴.

فالاثنا عشرية تختلف عن الإسماعيلية في القول بأحقية إسماعيل بالإمامة بعد أبيه، فإنه في نظر الاثني عشرية لم يكن الرجل الذي يصلح للإمامة، حيث كان مدمنا على شرب الخمر⁵ ولوعا بالنساء، وأنه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي الفاسق الملحد الذي ادعى ألوهية جعفر الصادق، وأنه -أبا الخطاب- كان رسوله، مما جعل جعفر الصادق

¹ - عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، ج1، ط1، رياض الرس للكتب و النشر، لندن، 1991، ص149.

² - سميت الاثني عشرية نسبة إلى تسلسل أئمتهم حتى الإمام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر، وهم: علي بن أبي طالب (ت 40 هـ)، الحسن بن علي (ت 50 هـ)، الحسين بن علي (ت 61 هـ)، علي زين العابدين (ت 94 هـ)، محمد الباقر (ت 113 هـ)، جعفر الصادق (ت 148 هـ)، موسى الكاظم (ت 183 هـ)، علي الرضا (ت 203 هـ)، محمد الجواد (ت 219 هـ)، علي المهدي (ت 254 هـ)، الحسن العسكري (ت 256 هـ)، محمد المهدي اختفى سنة 260 هـ، وهو المهدي المنتظر -حسب زعمهم- .انظر: ابن طولون، الأئمة الاثني عشر، سعيد عبد الحكم زيد، الشيعة الإمامية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2007، ص 65.

³ - عارف تامر، الإمامة في الإسلام، دار الأضواء، لبنان، ط1، 1998، ص 102.

⁴ - انظر جدول تسلسل الأئمة من خلال: ألبير نصري نادر، مدخل إلى الفرق الإسلامية السياسية و الكلامية، دار المشرق، بيروت، ط3، 1989، ص25.

⁵ - Luis Gardet, Dieu et la Destinée de l'homme, Librairie philosophique, Paris, 1967. p:469

يتبرأ منه ولا يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين إسماعيل¹، فحسب الاثني عشرية أن هذا سبب كاف لانتقال الإمامة من نسل إسماعيل إلى نسل موسى الكاظم، وهو ما يُعد خلافا للمعتقد الإمامي في نظر الإسماعيلية، الذي ينص على أن الإمامة تورث لأكبر الأبناء مهما كان أمره²، حتى لو شرب الخمر، فحسب رأيهم أن الإمام وأتباعه لا يخضعون للتكاليف الشرعية³.

وفي سياق آخر يقول مصطفى غالب: "إن الحركة الإسماعيلية نشأت نشأتها الأولى سنة 128هـ/746م، كحركة دينية علمية فلسفية تأويلية باطنية في العراق وفي الكوفة بالذات، خطط لها ونظمها الإمام جعفر الصادق عميد المدارس الفكرية في الإسلام"⁴.

وهذا افتراء على جعفر الصادق، إذ تعتبر الإسماعيلية فرقة باطنية متطرفة ومغالية، والمعروف عن جعفر الصادق أنه قاوم الغلاة والرافضة⁵، يقول الشهرستاني عن موقف جعفر الصادق من إمام الخطابية: "فلما وقف الصادق على غلوه [أي أبي الخطاب] الباطل في حقه، تبرأ منه ولعنه، وأمر أصحابه بالبراءة منه، وشدد القول في ذلك وبالغ في التبري منه واللعن عليه"⁶.

¹ - محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1959، ص13.

² - محمد سالم أقدير، العقائد الفلسفية المشتركة بين الفرق الباطنية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006، ص40.

³ - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ج2، ص366.

⁴ - مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، دار الأندلس، بيروت، دت، ص71.

⁵ - انظر: مناظرة الإمام جعفر الصادق مع الرافضي، وكيف أكد له أحقية الصحابة بالخلافة ومكانتهم في الإسلام، وكيف أن الرافضي اضطر في الأخير إلى طلب التوبة والرجوع عن أقواله. ينظر: مناظرة الإمام جعفر الصادق، (تحقيق: علي بن عبد العزيز)، دار الوطن، الرياض، ط1، 1996.

⁶ - الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص183.

وقد بلغ جعفر الصادق منزلة رفيعة في العلم، واشتهر بالفضل والصدق¹، فكيف ينسب إليه التنظيم والتخطيط لحركة من حركات الغلو؟ ويقول ابن تيمية مبرئاً جعفر الصادق: "أما الكذب والأسرار التي يدعونها عن جعفر الصادق فمن أكبر الأشياء كذباً حتى يقال: ما كُذِبَ على أحد ما كُذِبَ على جعفر رضي الله عنه"² ولو كان جعفر هو المؤسس للإسماعيلية لنسبت إليه فيقال الجعفرية لأن الفرق إنما تأخذ تسميتها في الغالب من مؤسسها، قال سليمان السلومي: "إن تسمية الفرق غالباً ما تشتق من أسماء أصحابها وزعمائها، فالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق"³.

فالإسماعيلية اتفقوا على أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه الأكبر إسماعيل لأن: "الإمامة لدى الشيعة الإسماعيلية لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام، ولا تكون إلا في الأعقاب [الابن الكبر]، فلم يكن لأخوي إسماعيل عبد الله وموسى حق في الإمامة، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين"، حسب ما رواه النوبختي⁴، إلا أنهم اختلفوا في موته في حال حياة أبيه، ويعود ذلك إلى غموض الدعوة وباطنيتها، وينقل لنا مصطفى غالب قول علماء الإسماعيلية في سبب هذا الغموض: "إن لنا كتباً لا يقف على قراءتها غيرنا ولا يطلع على حقائقها سوانا، ولا يعلمها الناس إلا من قبلنا،

¹ - خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2000. ج 2، ص126.

وانظر أيضاً: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط10، 1994، ج6، ص 255، وجمال الدين المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1994، ج5، ص 74-82.

² - ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ترتيب: عبد الرحمن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، المغرب، د ت، ج4، ص 78.

³ - سليمان عبد الله السلومي، أصول الإسماعيلية، دار الفضيلة، السعودية، ط1، 2001. ج1، ص197.

⁴ - النوبختي، فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1992، ص78، 79.

ولا يتعلم فك رموزها ومدلول إشاراتهما إلا من علمناه، ولا يعرف صور حروفها إلا من عرفناه"¹.

فقد تضاربت الآراء التاريخية في حال إمامة إسماعيل، وظهرت عدة روايات في هذا الشأن بين من يقول أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، وترجع الإمامة إلى ابنه محمد، ومن يقول أن جعفر الصادق أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس ، وأنه قد ظهر بالبصرة بعد ذلك.

أما من أقر بموته فقالوا: "إنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة، كما نص موسى على هارون، ثم مات هارون في حياة أخيه، فانتمت الوصاية بعد موت موسى إلى أولاد هارون (عليهم السلام)، فنص عليه [ابنه إسماعيل] لكي تكون لأولاده، فالنص لا يرجع قهقري والقول بالبدا محال"²، على أن أكثر مؤرخي الإسماعيلية يقولون أن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه إنما كانت قصة أراد بها جعفر الصادق التلميح، حيث جاء في زهر المعاني على لسان الداعي الإدريسي، ونقله النشار: "غيب شخصه في حياة أبيه سرا من أعدائه ومحنة لأوليائه"³، إذ خاف جعفر الصادق على ابنه إسماعيل من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (137هـ-158هـ) الذي كان يطارد أئمة الشيعة، فادعى موته، وأتى بشهود كتبوا محضرا بوفاة وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسي الذي أظهر

¹ - مصطفى غالب ، المرجع السابق ، ص 70.

² - الشهرستاني ، المصدر السابق ، ج1، ص200.

³ - سامي النشار ، المرجع السابق ، ص 369.

سرورا وارتياحا لوفاة إسماعيل، الذي كان عائدا إليه أمر إمامة الشيعة¹ ، ودليلهم على أنه أراد التمويه هو أن إسماعيل رئي في سوق البصرة² بعد وفاة أبيه بخمسة أعوام³ .

والأرجح أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، حسبما جاء في كتاب عمدة الطالب في أنساب أبي طالب أن "إسماعيل بن جعفر الصادق توفي في حياة أبيه بالعريض، وأنه دفن بالبقيع سنة ثلاث وثلاثين ومائة"⁴ .

كما يذهب بندلي الجوزي إلى أن إسماعيل توفي سنة 145هـ/763م⁵، أي قبل وفاة أبيه ودفن في المدينة، ويذكر ابن خلدون أيضا أن إسماعيل توفي في حياة أبيه، وهذا ما أدى إلى تضارب الآراء فيما يتعلق بطبيعة الإمامة⁶ .

فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في تاريخ وفاة إسماعيل إلا أنَّ الثابت لدى أكثرهم هو أن وفاته كانت قبل أبيه، ويؤكد لنا هذا الرَّأي أبو الحسن الأربلي فيقول: "مات في حياة أبيه بالعريض، وحمل على رقاب الرجال إلى أبيه بالمدينة حتى دفن بالبقيع ، ورُوي أن أبا عبد الله جزع عليه جزعا شديدا وحزن عليه حزنا عظيما ، وتقدم سريره بدون حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مرارا كثيرة، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه،

¹ - محمد كامل حسين ، المرجع السابق، ص12.

² - البصرة: في العراق، والبصرة في كلام العرب الأرض الغليظة . بنيت في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حيث اختطها عتبة بن غزوان، وبنى مسجدها سنة سبع عشرة، وازدهرت على عهد العباسيين.انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص430 .

³ - مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط14، 2000.ص234.

⁴ - السيد أحمد بن علي الداودي الحسيني ، عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة، بيروت ، د ت . ص190.

⁵ - بندلي الجوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ،(تحقيق :محمود إسماعيل)، دار رؤية للنشر، القاهرة ، ط1، 2006، ص161.

⁶ -عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق : أبو صهيبي الكرمي ، بيت الأفكار الدولية، الأردن، د ت، ص 919.

يريد بذلك تحقيق أمر وفاته عند الضانين خلافة له من بعده وإزالة الشبهة عنهم في حياته¹.

ورغم ما قام به جعفر الصادق لإثبات وفاة ابنه إسماعيل، إلا أن فرقة كبيرة من الشيعة الإسماعيلية ترفض فكرة وفاته في حياة أبيه، وذهب البعض الآخر منهم إلى المغالاة في أمر وفاته.

وقد دخلت الدعوة الإسماعيلية في مرحلة السر، حيث استتر أئمة الإسماعيلية لفترة تناهز قرناً ونصف قرن من الزمن، والسبب في ذلك راجع إلى تخوفهم من الخلافة العباسية، وقد بدأت مرحلة السر منذ وفاة جعفر الصادق سنة 148هـ / 766م، وانتهت بظهور عبيد الله المهدي بالمغرب². فما هي أساليب الدعوة التي انتهجها الإسماعيليون في دور الستر لضم الأتباع تمهيداً لإعلان ظهور المهدي وقيام الدولة العبيدية؟

2- مراتب الدعوة الإسماعيلية وتدرج المستجيب³:

بعد تعريفنا للفرقة الإسماعيلية كان لزاماً علينا أن نُعرج على مراتب دعوتهم وطرق استدراجهم للمستجيب، لما لذلك من علاقة وطيدة بثنايا البحث خاصة الدور العلمي والمذهبي والاجتماعي فهم بسبب أسلوبهم المعتمد على نشر الأفكار الهدامة والانحلال الخلقي قد أحدثوا شخراً اجتماعياً كبيراً وزعزعوا الاستقرار الأمني والسياسي.

هذا وقد اعتمد الإسماعيلية في استدراج المستجيب على التشكيك في العقيدة وإثارة الحيرة في نفوس المدعوين بأساليب جهنمية، حسب تعليق بندلي الجوزي⁴ ومراتب الدعوة عندهم

¹ - الأربلي ، المصدر السابق ، ص392.

² - مصطفى الشكعة ، المرجع السابق ، ص235.

³ - تشترك الإسماعيلية والباطنية والقرامطة في طريقة الدعوة واستدراج المستجيب بحكم أنهم من نفس الشجرة فهم أسماء مختلفة بمعنى وفكر واحد.

⁴ - بندلي الجوزي، المرجع السابق، ص 152.

سبعة؛ لكل منها بلاغ حسب رتبة الفرد في البناء العام للتنظيم¹، لكن الغزالي والبغدادي يعددان مراتب الدعوة لديهم ويجعلانها تسعا²، ونجد محمود إسماعيل يعلل هذا الاختلاف بأن المراحل كانت سبعة فقط جريا على الفلسفة السبعية في التنظيم الذي قامت عليه الدعوة الإسماعيلية، وأن مرحلة التدليس والتلبيس كانتا من وضع خصومهم لتشويه دعوتهم³، وتمثلت المراحل التسع فيما يلي⁴:

أ- **التفرّس** : تعني أن يكون الداعي فطنا، ذكيا، صحيح الحس، صادق الفراسة، متقنا للبواطن بالنظر إلى الشمائل والظواهر، وعليه أن يكون قادرا على ثلاثة أمور⁵:

الأول: وهو الأهم، أن يُحسن اختيار من يطمع في استدراجه، ، ويتجّه إلى من يلاحظ فيه الانفعال والتأثر بما يُلقى إليه من كلام⁶، فمن الوصايا التي ألقوها إلى دعائهم: « لا تتكلموا في بيت فيه سراج-يعنون بالسراج من يعرف علم الكلام ووجوه النظر والمقاييس- ولا

¹ - محمود إسماعيل، الحركات السرية في الإسلام ، سينا للنشر ، القاهرة ، ط5 ، 1997، ص 141.

² - أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، تحقيق : إيهاب كمال، الحرية للنشر، القاهرة ، 2006، ص 35. أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ، تحقيق : إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت، ط2، 1997، ص 263.

³ - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 141.

⁴ - ينظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، القرامطة، تحقيق :محمد الصباغ ، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت ، ط3، 1970، ص 51 وما بعدها. البغدادي المصدر السابق، ص 263. وما بعدها. أبو الفضائل اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة ، ط1، 2006، ص 20 وما بعدها. أبو حامد الغزالي، المصدر السابق، ص 35 وما بعدها.

⁵ - الغزالي، المصدر السابق، ص 35 .

⁶ - سامي العياش ، الإسماعيليون في المرحلة القرمطية ، دار بن خلدون، لبنان، د ت ، ص 197.

تطرحوا بذركم في أرض سبخة، وأرادوا بذلك منع دعائهم من إظهار بدعتهم عند من لا تؤثر
فيهم بدعتهم كما لا يؤثر البذر في الأرض السبخة شيئاً».¹

الثاني: أن يكون مشتعل الحدس، ذكي الخاطر في تعبير الظواهر وردّها إلى البواطن، فهو
يقوم بعكس المفاهيم الشرعية، مؤولاً في ذلك آيات قرآنية².

الثالث: ألا يدعو جميع المستجيبين بمسلك واحد، بل يتبع أساليب تختلف باختلاف معتقدات
وميول وطباع ومذهب كل واحد، فإن رآوه مائلاً إلى الزهد والتقشف مال معه، وإن كان
طبعه مائلاً إلى المجون والخلاعة مال معه، فيما يخدم شهوته ورغبته³. وتمثل له بقول
الشاعر⁴:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ هَمًّا وفَارَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

أما من الناحية المذهبية، فهو يضرب المذاهب بعضها ببعض، فإن كان شيعياً فاتحه
بأن الأمر كله في بغض بني أمية وبني العباس وأشياهم والتبري منهم، وإن كان من
اليهود والمجوس والنصارى حاورهم بما هو موجود في مذهبهم من المعتقدات⁵، ومن رآه من
الرافضة مائلاً إلى الطعن في أخبار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة وبغض بني

¹ - البغدادي، المصدر السابق، ص 263-264.

² - محمد جميل أبو العلاء، الباطنية وموقف الإسلام منهم، دار المعارف، مصر، ط 1، 1989، ص 96.

³ - الغزالي، المصدر السابق، ص 36، 37.

⁴ - البغدادي، المصدر السابق، ص 265.

⁵ - الغزالي، المصدر السابق، ص 36-37.

تيم وبني عدي - بسبب أن أبا بكر من بني تيم، وعمر بن الخطاب من بني عدي-، ويستند
الداعي في ذلك على قول الشاعر الإسماعيلي ابن عباد الذي نقله لنا البغدادي ¹ :

دخول النار في حبّ الوصي * وفي تفضيل أولاد النبي

أحبُّ إليَّ من جنّات عدن * أخلدها بتيم أو عديّ

ورّد عليه البغدادي بقوله²:

أتطمعُ أنت في جنّاتِ عدنٍ * وأنت عدوُّ تيم أو عديّ

وهم تركوك أشقى من ثمودٍ * وهم تركوك أفصح من دعيّ

وفي نار الجحيم غداً ستُصلى * إذا عاداك صديق النبيّ

(ب) - التأنيس : وهو زرع الطمأنينة في نفوس المستجيبين، مع إشباع ميولهم³، وذلك بجملة
من الأساليب تهدف إلى تحبيب المدعو بالداعي بقراءة القرآن قراءة جميلة مؤثرة ثم يتبع ذلك
بمجموعة من المواعظ، كما أنه يذمُّ السلاطين لما يقومون به من مخالفات ومحرمات، ثم
يقول أن الفرّج آت من طرف آل البيت وأئمتهم⁴.

¹ - البغدادي، المصدر السابق ، ص 265.

² - البغدادي، المصدر السابق ، ص 265.

³ - صابر طعيمة، العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها، المكتبة الثقافية، بيروت، ط2، 1991، ص 148.

⁴ - سامي العياش ، المرجع السابق ، ص 198.

ج- **التشكيك** : هو مرحلة تلي التأسيس وهي أن يجتهد الداعي في تغيير اعتقاد المستجيب، بأن يُزلزل عقيدته فيما هو مصمم عليه، فيثير شكوكه في الشرائع وتشابه الآيات مثل أوائل السور: فيقول ما معنى [الر]، و[كهيعص]، و[حم]. وغير ذلك. ويقول إنَّ تعيين الحروف لم يكن عبثاً بدون هدف، كما يشكُّ بالأحكام وأخبار القرآن قائلاً إنَّ تحتها أسراراً، فيشتاق المدعو إلى معرفتها¹.

د- **التعليق** : وهو ترك المستجيب بعد تشكيكه متأرجحاً بين عقيدته التي كان يؤمنُ بها وبين معرفة حقيقة المذهب الإسماعيلي [الباطني]، وبذلك تظهر حقيقة نفسه وتعرف شخصيته²، فإن رآه أعرض عنه واستهان به قطع الطمع عنه، وإن رآه متحمساً أمره بتقديم الصوم والصلاة والتوبة قبله، ويقول له: لا تفعلْ فإنَّ الدينَ أجلُّ من أن يُعبثَ به، وأنَّ يوضع في غير موضعه، ويُكشف لغير أهله، معظماً له في نفس الوقت أسرار الدعوة مؤكّداً على أهمية كتمان السرِّ وضرورة أخذ الميثاق³، ويتلو عليه قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)⁴، وكذا قوله تعالى : (مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ

¹ - الغزالي، المصدر السابق، ص 38.

² - صابر طعيمة، المرجع السابق، ص 148.

³ - الغزالي، المصدر السابق، ص 39-40.

⁴ - سورة الأحزاب، الآية: 07.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا¹ ، وقوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)² .

(هـ) - الربط: هو أن يربط لسان المستجيب بأيمان مغلظة وعهود مؤكدة، لا يتجرأ على مخالفتها بأي حال من الأحوال³، وينقل لنا الغزالي نص العهد المأخوذ على المستجيب إذ يتضمن النقاط التالية :

- التأكيد على ضرورة كتمان السرّ، وهذا تماشياً مع مبدأ التقية⁴ الذي يعتبر المنطلق الأول لنشر مذهبهم وتنظيماتهم، حتى أنهم يُرجعونها إلى جعفر الصادق ، فيقولون أنّه القائل بوجوبها وضرورة العمل بها، إذ يقول - حسب زعمهم - : « التقية من ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له »⁵، مستدلين عليها بقوله تعالى : "لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

¹ - سورة الأحزاب، الآية: 23.

² - سورة النحل ، الآية: 91.

³ - الغزالي، المصدر السابق، ص 41.

⁴ - يُعرّف الخميني التقية فيقول : إنّها من أوضح أحكام العقل، ومعناها: أن يقول الإنسان قولاً مغايراً للواقع، أو يأتي بعمل مناقض لموازين الشريعة وذلك حفظاً لزمته وعرضه أو ماله، مستدلاً في ذلك بقوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النحل، الآية 106]. ينظر: الخميني، كشف الأسرار، ترجمة: محمد البنداري، دار عمار، عمان، 1987 ط1، ص 148. وفي الواقع إنّ هذه الآية نزلت في حق عمّار بن ياسر (ت37هـ/657م) حينما عذبه الكفار وأجبر على سب النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يشكوه أمر الكفار، فقال صلى الله عليه وسلم : كيف تجد قلبك قال: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال : فإن عادوا فعدّ. انظر : عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفوة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ط 1، 1934. ج 1، ص 175-176.

⁵ - الكليني، الكافي في أصول الروضة، شرح: علي أكبر الغفاري، مكتبة الإسلام، طهران، 1961. ج2، ص 217.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ
اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ¹.

- مشايعة المهدي وأصحابه في أي حال من الأحوال.

- الالتزام بتطبيق أوامر الدعاة في أي مكان.

- توضيح عقوبة من يخالف العهد، وتمثلت في : تأديته ثلاثين حجة ماشيا حافيا،
وتحويل كل أملاكه إلى الفقراء، وتحرير كل من يملكهم من عبد أو جارية، وطلاق كل
زوجاته اللاتي في ذمته .

(و)- **التدليس** : بعد اليمين وتأكيد العهد لا يسمح للداعي ببث الأسرار للمستجيب دفعة
واحدة ولكن يتدرج فيه²، وعلى الداعي أن يراعي عدة أمور:

أولاً: يقتصر في البدء على ذكر قواعد المذهب، ويقول بأن أسباب الجهل تحكيم الناس
عقولهم الناقصة، وإعراضهم عن التلقي من أصفياء الله وأئمة الذين هم خلفاء الرسول (صلى
الله عليه وسلم)³ ، فهم يزعمون أن العلم كله مخزون لدى الأئمة . مؤولين قوله تعالى : (هَلْ
يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)⁴ . ويزعمون عن جعفر

¹- سورة آل عمران، الآية: 28.

²- الغزالي، المصدر السابق، ص42.

³- سامي العياش، المرجع السابق، ص199 .

⁴- سورة الزمر، الآية: 09.

الصادق أنه قال عن هذه الآية: «إنما نحن الذين يعلمون والذين لا يعلمون عَدُوْنَا، وَشَيْعَتُنَا أولوا الألباب»¹ وعلى هذا فهم يقولون أن الله أودعهم سره، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، أن النجاة من الضلال تكون بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت، ولا يفصح في هذه المرحلة عن تفصيل ما يقوله الإمام².

ثانياً : العمل على إبطال ظاهر القرآن الكريم.

ثالثاً : عدم إظهار مخالفته الأمة، وذلك بالتستر بحب أهل البيت³.

رابعاً : هو أن يقدم في أول كلامه أن الباطن ظاهر جلي، والحق دقيق بحيث لو سمعه الأكثرون لأنكروه ونفروا عنه، وأن طلاب الحق والقائلين به من بين طلاب الجهل أفراد وآحاد ليهوّن عليه التمييز عن العامة في إنكار نظر العقل وظواهر ما ورد به النقل⁴.

خامساً : إيهام المستجيب بأن فضلاء الناس ينتسبون إلى الدعوة سرا، فيذكر له بعض

الأسماء على أن يكون أصحابها بعيدين حتى لا تكشف الحيلة .

سادساً : إثارة تفاؤل المستجيب بقرب الانتصار.

¹ - الكليني، المصدر السابق، ج1، ص167.

² - الغزالي، المصدر السابق، ص42.

³ - سامي العياش، المرجع السابق، ص199.

⁴ - الغزالي، المصدر السابق، ص 43.

سابعا : ألا يطيل الداعي إقامته في بلد واحد، وأن يتخذ كافة الاحتياطات كي لا يكشف أمره
كتغيير الاسم والشكل¹.

وبعد ممارسة هذه الشروط السبعة يشرع الداعي باطلاع المستجيب تدريجيا على أسرار الدعوة.

(ز) - **التلبيس:** هو جعل المعلومات والأسرار التي لقنها الداعي للمستجيب حقائق ثابتة في
نفسه ومستقرة في ذهنه، يؤمن بها ويقبل عليها².

ح- (ط) - **الخلع والسلخ :** وهما متفقان في المفهوم وإنما يفترقان في أن الخلع يختص
بالعمل، فإذا أفضوا بالمستجيب إلى ترك حدود الشرع وتكاليفه قالوا وصلت إلى درجة الخلع.
أما السلخ فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين، فإذا انتزعوا ذلك من قلبه دعوا ذلك سلخا
وسميت هذه الرتبة البلاغ الأكبر³.

¹ - سامي العياش، المرجع السابق، ص199

² - صابر طعيمة، المرجع السابق، ص 148.

³ - الغزالي ، المصدر السابق، ص44.

3- الجهود الفكرية الشيعية والفتن المذهبية بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي

في النصف الأول من القرن الخامس الهجري 400-447هـ/1009-1055م:

أ- الجهود الفكرية الشيعية:

عمل الشيعة في مصر والعراق في مطلع القرن الخامس الهجري على صبغ العالم الإسلامي بصبغة شيعية محضة من خلال تدعيم الحياة الفكرية بمؤسسات تعليمية تخدم مباشرة أهدافهم المذهبية الشيعية وإحياء احتفالاتهم الخاصة وتعميمها في مختلف الأقاليم .

ذلك أن الشيعة نشطوا في هذه الفترة وما بعدها في الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة،¹ واستعانوا على الترويج لدعوتهم بالسيف والسياسة والعلم والدين جميعا ، فقد اتجهوا منذ بداية أمرهم إلى بناء الجوامع التي كانت تُعتبر في تلك الفترة قبلة لطلبة العلم للاستزادة في العلوم من خلال حلقات العلم والمناظرات التي كانت تُعقد فيها²، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها إنشاءهم لجامع الأزهر سنة 359هـ/ 969م³، الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية

¹ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط2، 1988، ص 176.

² - الصلابي، المرجع السابق ، ص 266

³ - يعتبر أول جامع أسس بالقاهرة، أنشأه جوهر القائد الكاتب الصقلي مولى المعز لدين الله العبيدي لما اختط القاهرة، بدأ بناءه في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة 359هـ/966م، وكمل بناؤه لسبع خلون من رمضان 361هـ/968م، ولما بني الجامع كانت الخطبة تقام فيه، حتى بني الجامع الحاكمي فانتقلت الخطبة إليه، لكن الحاكم جده وعليه أوقافا ، ثم إن المستنصر جدد هذا الجامع أيضا، و جده الحافظ. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1967 ، ج2، ص251. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1965. ص 41-42.

تُعنى بنشر مذهبهم منذ عام 380هـ/ 987م في عهد العزيز بالله (365هـ - 386هـ/ 975م - 996م)¹، وكانت الدولة العبيدية تُعنى منذ قيامها بنشر الفكر الشيعي، وفي سبيل بثه وإذاعته نظمت مجالس الحكمة في القصر وفي الجامع الأزهر².

وبلغ اهتمام الخلفاء العبيديين بالجامع الأزهر أن كان المعز لدين الله العبيدي يؤلف الرسائل والمحاضرات ويبحث بها إلى قاضي القضاة أبي الحنيفة النعمان (ت 363هـ/ 973م)³ كي يلقيها على الناس في الجامع الأزهر المقر الرئيس للدعوة⁴، ثم جدد فيه العزيز بالله عمارة وتنظيماً، فقد كان هو أول خليفة عبيدي خصص الأجور للمدرسين بالجامع الأزهر⁵، وكذا الحاكم بأمر الله الذي أوقف عليه الأوقاف، وجعل فيه تنويرين فضة وسبعة وعشرين

¹ - المقرئزي ، اتعاط الحنفا ، ج2، ص 267.

² - خضر أحمد عطا الله ، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1989، ص110.

³ - هو القاضي أبو الحنيفة النعمان ابن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي ، ويسمى في كتابات العبيديين باسم سيدنا القاضي النعمان ولا يقال له أبو حنيفة خشية الالتباس بأبي الحنيفة النعمان صاحب المذهب السني العراقي المعروف، والقاضي النعمان خدم خلفاء العبيديين منذ عبيد الله المهدي ثم صار قاضي القضاة في عهد المعز وصحبه إلى مصر، صنف كتاب ابتداء الدعوة ، وكتاباً في فقه الشيعة ، وكتباً كثيرة تدل على انسلاخه من الدين، يُبدّل فيها معاني القرآن ويُحرفها، مات بمصر في رجب سنة 363هـ/ 970م . ينظر : القاضي النعمان المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي ، دار المعارف، القاهرة، 1963، ج1، ص 11. المقرئزي، اتعاط الحنفاء، ج12، ص 149. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج4، ص338. ابن خلكان، المصدر السابق، ج5 ، ص 415. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص111.

⁴ - القاضي النعمان بن محمد، المجالس والمسائرات ، تحقيق :حبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر ، بيروت، 1996، ص435 و 546. أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص 278

⁵ - وقد اتسع النشاط التعليمي زمن العزيز بالله فإلى جانب اهتمامه بالجامع الأزهر نجده يخصص بدار الوزير يعقوب بن كلس مجلساً يحضره فقهاء الشيعة ، فكان يُقرأ فيه كتب الفقه الشيعي، وعمل مجلساً آخر بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط لتلقين الفقه الشيعي. المقرئزي ، الخطط، ج3، 447. جمال بدوي ، الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، دار الشروق، القاهرة ، ط1، 2004، ص24.

قنديل فضة ، وكذلك جدد فيه المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي أنشأ مقصورة بجوار الباب الغربي الذي في مقدم الجامع¹ ، وهكذا كان المسجد محل رعاية الأئمة وعنايتهم في العصر العبيدي، فلم يقصروا في تجديده والزيادة فيه.

كما سارع الحاكم بأمر الله منذ بداية عهده إلى تشييد الجوامع ، فبنى الجامع الحاكمي براشدة في صفر سنة 393هـ/1002م² وانتهى من بنائه سنة 403هـ/1012م³ ، وأنشأ الحاكم الجامع بظاهر القاهرة المعزية، وأنشأ عدة مساجد بالقرافة وغيرها من المؤسسات الكثيرة⁴ ، وقد جهروا فيها بشيء من آرائهم وعقائدهم، ثم أذنوا فيها "بحي على خير العمل"، وهو أذان الشيعة وحدهم لا تعرفه فرقة غيرهم، فكان ذلك إيذانا منهم بحرب طاحنة لم يكن بد من وقوعها بين مذهب الشيعة الذي يدعو إليه العبيديون ومذهب السنة الذي كان عليه أهل مصر والخلافة العباسية⁵.

¹ - جلال الدين السيوطي ، المصدر السابق، ص 251، خضر أحمد عطا الله ، المرجع السابق، ص 112.

² - هو الجامع المعروف بالحاكمي فيما بين دير الطين والفسطاط ، وسمي بجامع راشدة نسبة إلى قبيلة راشدة لخم التي بنت جامعا في ذلك المكان زمن فتوح مصر، وقد أمر الحاكم العبيدي ببناء جامع في موقع قريب منه ، وسبب عمارته أن أبا المنصور ابن السائب الكاتب زرع هذا المكان وبنى فيه كنيسة للنصارى فأمر الحاكم بهدمها وأن يُبنى مكانها جامعا فبنى وصلى فيه ثم أمر بالزيادة فيه فخرّب مقابر اليهود والنصارى التي هناك وأضيفت إلى الجامع. ينظر: إبراهيم بن محمد بن أيد مر العلائي ابن دقماق، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج1، ص78. السيوطي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص253.

³ - وقد ذكر أحمد فكري أن العزيز بالله والد الحاكم هو أول من شرع في بناء المسجد سنة 380هـ/990م ، ولكنه توفي قبل أن يفرغ من ذلك، فأتمه الحاكم بأمر الله ، لذلك سمي بالحاكمي نسبة له، ينظر: أحمد فكري، المرجع السابق ، ص63.

⁴ - ابن حماد، المصدر السابق، ص 97. المقرئ ، الخطط، ج3، 447. السيوطي، المصدر السابق. ص253. أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية ، القاهرة، 1914، ج3، ص366.

⁵ - خضر أحمد عطا الله ، المرجع السابق، ص42.

فكانت تلك المؤسسات عبارة عن مراكز لبث سموم الفكر الشيعي في مصر، استغلها الخلفاء العبيديون منذ تأسيسها وحتى سقوط الدولة، وقد اشتدت وطأة العبيديين على أهل السنة حيث أمر الظاهر لإعزاز دين الله (411-427هـ / 1021-1036م) سنة 416هـ/- بنفي من وُجد من الفقهاء المالكية وغيرهم، وأمر الدعاة أن يُحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان (ت363هـ/973م)، وكتاب الوزير يعقوب بن كلس اليهودي المتشيع (ت380هـ/990م) في الفقه على مذهب آل البيت، وأمر الدعاة بالجلوس في الجامع للمناظرة¹.

والأمر نفسه بالنسبة للبويهيين الشيعة الذين لجؤوا إلى إنشاء مؤسسات تعليمية تتولى الترويج لعقائدهم وتعمل على نشرها، فقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب، أحد رجال عضد الدولة، دار كتب في مدينة البصرة، وأخرى في مدينة رام هرمز² جعل فيهما أجرا على من قصدهما للقراءة والنسخ³، كما أسس أبو نصر سابور بن أردشير (ت416هـ/1025م)، وزير بهاء الدولة، دارا للعلم في بغداد عام 381هـ/991م، ونقل إليها كتباً كثيرة، ووقفها على

¹ - المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج2، ص175. على الرغم من أن جوهر الصقلي عاهد أهل السنة في مصر على حرية المذهب في كتاب كتبه لهم بعد غزو مصر جاء فيه: "...وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من آداء الفروض في العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم مساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتاؤهم، وأن يجري الأذان، والصلاة، وما نصه نبيه صلى الله عليه وسلم - في سنته". المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص105.

² - رام هرمز: معنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة، وهي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان تنفرد دون المدن الأخرى بجمع النخل والجوز والأترج. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص17.

³ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1991، ص413. عبد المجيد بدوي، المرجع السابق، ص177.

الفقهاء بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلدا في أصناف العلوم، وأسند النظر في أمرها ومراعاتها إلى رجلين من العلويين بمساعدة أحد القضاة، فبقيت سبعين سنة ثم أُحرقت عند مجيء طغرلبيك إلى بغداد سنة 450هـ/1058م¹.

كما أسّس عضد الدولة البويهى خزانة للكتب في شيراز، علق عليها **المقدسى** بقوله: "وبنى بشيراز دارا لم أر في شرق ولا غرب مثلاً"²، كانت كُتُبها مرتبة داخل خزائن خاصة بها، والدفاتر مُنصّدة على رفوف محددة لها، بالإضافة إلى فهارس تضم أسماء ما فيها من كتب وكانت تخضع لإشراف وكيل يعاونه خازن ومشرف من عدول البلد³.

والى جانب دور العلم هذه، كان كثير من أئمة الشيعة يقومون بالدعوة إلى مذهبهم ونشر عقائدهم في بيوتهم الخاصة، أو في مشاهدهم، وهي المساجد التي دفن فيها أئمتهم والتي عرفت عندهم بالعتبات المقدسة، فقد كان الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان شيخ الإمامية (ت413هـ)⁴ الذي صنف كتباً عديدة لخدمة مذهبه ودافع عن أصحابه في عديد من المناسبات، كان يعقد مجلس نظر بداره يحضره كافة العلماء من سائر الطوائف

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص154. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص416.

² - المقدسى، المصدر السابق، ص449.

³ - أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1991. ص24.

⁴ - الشيخ المفيد، هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن سعيد العكبري، البغدادي الشيعي الإمامي ويُعرف بابن المُعلّم، عالم الرفضية ورئيس مُتكلّمي الشيعة، وصاحب التصانيف حيث أن له أكثر من مائتي مصنف، مات سنة 413هـ/1022م. محمد ابن إسحاق النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تحقيق: رضا تجدد، طهران، 1971، ص226. الذهبي، المصدر السابق، ج17، ص344. إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955، ج2، ص61، 62.

ويدعوهم إلى مذهبه، وكانت له وجهة عند ملوك الأطراف¹، أما أبو جعفر الطوسي (ت460هـ/1067م)² فقد ألف كتباً في الفقه والحديث احتلت مكاناً بارزاً في الدراسات الشيعية الإمامية، كالتهذيب والاستبصار، كما أُملى الطوسي في مشهد النجف على طلبته الكثير من الدروس جمعها في كتاب أسماه المجالس³.

كما لا يمكننا إهمال دور الشعر في خدمة المذهب الشيعي، فقد قرب الخلفاء العبيديون الشعراء وبالعوا في إكرامهم ومنحهم الهدايا العظيمة بين الحين والآخر، وذلك لما لعبوه من دور مهم في توجيه أفكار العامة من خلال مقطوعاتهم الشعرية التي كانت تتضمن فنونا من العقائد الإسماعيلية والحث على اعتناقها، وقد أدى شعر هؤلاء الشعراء مهمته في أثناء

¹ ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص413. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفي، الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد بن محمود، إبراهيم بن سليمان، دار صادر، بيروت، ط3، 1991. ج5، ص116.

² - أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، فقيه الشيعة وصاحب التصانيف، ولد سنة 385هـ/995م، انتقل من خراسان إلى بغداد سنة 408هـ/1017م، واستقر بها أربعين سنة، تفقه أولاً للشافعي ثم أخذ علم الكلام عن الشيخ المفيد (ت413هـ/1022م) رأس الإمامية، فبرع فيه، له تفسير القرآن في عشرين مجلداً وأُملى الأحاديث وحكايات تشتمل على مجلدين، وكان يدرس الفقه في رجة جامع القصر بالكرخ محلّة الرافضة، ثم تحول إلى الكوفة وأقام بالمشهد يفقههم. مات في محرم 460هـ/1067م، وكان رافضياً قوياً للتشيع، له تصانيف كثيرة منها: التبيان في تفسير القرآن، كتاب تهذيب الأحكام، كتاب مختلف الأخبار، وكتاب المفصح في الإمامة... وقد أحرقت كتبه عدة مرات بمحضر من الناس لما فيها من الغلو والبدعة. ينظر: الذهبي، المصدر السابق، ج18، ص334-335. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، دت، ج4، ص126-127. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص83. الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص84، 85.

³ - الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص84. عبد المجيد بدوي، المرجع السابق، ص178. وقد اشتهر لدى الشيعة كتباً كثيرة بعنوان المجالس لأنها عبارة عن دروس كانت تلقى في مجالس الدعوة الشيعية كالمجالس والمسائرات للقاضي النعمان ومجالس المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، والمجالس المستصرية...

حياتهم، كما دام هذا الشعر يؤدي نفس المهمة بعد وفاتهم، إذ ظل شعرهم يُروى ويُدرس من
جيل إلى جيل¹.

وفيما يلي نماذج من شعر ابن هانئ الأندلسي (ت362هـ/972)² شاعر العبيديين :

دانو بأنّ مديحهم لك طاعةً فرَضَ فليسَ لهم عليك جزاء
فاسلم إذا راب البرية حادث واخذ إذا عم النفوس فناء³

وقوله:

أنت معد وارث الأرض كلها فقد حُمّ مقدورٌ قد خُطّ مكتوب
ولله علم ليس يحجب دونكم ولكنه عن سائر الناس محجوب
ألا إنما أسماؤكم حق مثلكم وكل الذي تسمى البرية تلقيب⁴

وقوله:

أبناء فاطمَ هل لنا في حشرنا لجأ سواكم عاصم ومُجار

¹ -أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، 1954 ، ص407-408.

² -هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي، أديب وشاعر من أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة، وهو عندهم كالمنتبي عند أهل المشرق، ولد بإشبيلية ونشأ بها، نال حظاً وافراً من العلم والأدب وذاع صيته لولا غلوه الذي دفع بأهل إشبيلية إلى طرده ، فالتحق بالعبيديين زمن المعز لدين الله ومدحهم فكان من أشهر شعرائهم له ديوان شعر كبير ولولا ما فيه من الغلو في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر لكان أحسن الدواوين، توفي سنة 362هـ/ .وقد جاوز الأربعين سنة.وقد تأسف المعز لدين الله لموته وقال:"هذا الذي كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يُقدر لنا ذلك". ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب-، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ج6، ص 2767. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، 1941، ج1، ص 769.

³ - ابن هانئ الأندلسي ، ديوان ابن هانئ الأندلسي ، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت، 1980، ص 17.

⁴ - نفسه ، ص39.

أنتم أحياء الإله وأله خلفاؤه في أرضه الأبرار
أهل النبوة والرسالة والهدى في البيئات وسادة أطهار
والوحي والتأويل والتحريم والتحليل لا خلف ولا إنكار¹

ب-الفتن المذهبية بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في مطلع القرن الخامس الهجري :

بذل الشيعة جهودا فكرية ومذهبية في سبيل ترسيخ مذهبهم وضرب مذهب أهل السنة²، وإلى جانب ذلك شجع الشيعة ظاهرة الاحتفالات بالمناسبات الدينية مثل ذكرى المولد النبوي وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان، فمثلا كان المصريون قبل الغزو العبيدي، مثل سائر الشعوب الإسلامية لا يقيمون لهذه المناسبات طقوسا واحتفالات، وإذا احتفلوا بها ففي إطار الوقار الذي تفرضه طبيعة المناسبات الدينية مثل تلاوة القرآن أو ترديد الأدعية³، فجعل العبيديون من تلك المناسبات أياما رسمية في الدولة وألزموا الجميع احترام مراسيمها حتى مخالفهم في المذهب، فألزم التجار غلق الحوانيت والأسواق وإظهار الحزن خاصة في

¹-ابن هانيء ، المصدر السابق ، ص150.

²- وإلى جانب المؤسسات التعليمية والشعر لنشر المذهب الشيعي أشار بعض الباحثين إلى وسيلة مهمة استعملها العبيديون في نشر المذهب الشيعي في مختلف الأقاليم؛ وهي السكة أو النقود، فقد عُثر على نقود مصرية بمصر قبل دخول العبيديون بسنوات، ودينار مضروب بزييد سنة 447هـ/1055م وهي تحت إمرة بني نجاح السنية، لذلك سماها الباحثون نقود الدعاية والإعلام وخدمة المذهب الشيعي في تلك الأقاليم واعتبروها حربا نفسية ضد أهل السنة ساهمت بشكل فعال في ضم تلك الأقاليم، إلى ممتلكاتها لاحقا، وهذا ما أثبتته الأحداث بالنسبة لمصر والشام واليمن. ينظر: سهام محمد المهدي، دينار نادر ضرب في زييد عام 447هـ/1055م، مجلة المؤرخ المصري، العدد 2، القاهرة 1988، ص66.

³- جمال بدوي، المرجع السابق، ص7.

مناسبة عاشوراء¹، وأعلنوا الاحتفال والزينة في يوم الغدير، فاستحدثوا أياما احتفالية خاصة بهم مقتصرة على مناصريهم في المذهب، فثارت لذلك فتن بين السنة والشيعة في مختلف الأقاليم خاصة بغداد عاصمة البويهيين ومصر عاصمة العبيديين².

ومن ذلك نجد أن معز الدولة البويعي هو أول من ابتدع الاحتفال بيوم الغدير في بغداد سنة 352هـ/962م وجعله يوما رسميا تُعَلَّق فيه الزينات وتُذبح فيه الذبائح وتُقسم الصدقات، ومن حينئذ اتخذته الشيعة عيداً رسمياً³، فيما أعلن العبيديون بمصر يوم الغدير يوماً رسمياً في 18 ذي الحجة 362هـ/972م، زمن المعز لدين الله (341-365هـ/953-975م)⁴، وكان الناس قد: "تزينوا بأفخر زينهم وطلع المنشدون إلى القصر يدعون و ينشدون"⁵.

ونفس الأمر بالنسبة لعاشوراء فقد كانت سنة 352هـ/962م هي البداية الفعلية للاحتفال بهذا اليوم في بغداد، ف"في عاشر محرم أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا

¹ -المقريزي ، الخطط، ج2، ص348. محمد بن عبد الملك الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان ، بيروت، د ت، ص 397.

² - على أنه لم يمكن العثور على ردة فعل مباشرة لأهل السنة في مصر من الممارسات العبيدية بسبب تسلط الدولة وشدة العقوبة المسلطة على كل من يحاول المعارضة خاصة زمن الحاكم بأمر الله، فقد "كان في مدة أبيه العزيز بالله قد تكشف على أقوام ممن يطعن في الدولة ويسيء المقالة فيها ، فلما صارت له الخلافة انتقم منهم أشد انتقام وعمهم بالعقوبة" ينظر، المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 122 .

³ - المقريزي ، الخطط ، ج2، ص116.

⁴ - المقريزي ، الخطط ، ص117.

⁵ - المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص168.

البيع والشراء وأن يظهروا النياحة... على الحسين بن علي رضي الله عنهما ، ففعل الناس ذلك ، ولم يكن للسنية قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم" ¹ .

كما تجرأ الشيعة العبيديون والبويهيون على حد سواء على سب الصحابة وأمّهات المؤمنين والطعن فيهم، فقد كُتِبَ على أبواب مساجد بغداد لعن الصحابة رضوان الله عليهم علنا، بأمر من المعز البويهّي² ولما محا ذلك أهل السنة أمر المعز بأن يكتب: "لعن الله الظالمين لآل محمد من الأولين والآخرين والتصريح باسم معاوية في اللعن"³، فمن باب تعصبهم للمذهب أظهروا علنا مساندتهم للشيعة، بل وحتى دعمهم لبعض شعائر الشيعة وبدعمهم خاصة في عاصمة الخلافة السنية بغداد، هذا ما أثار ثائرة أهل السنة فنشب بسبب ذلك نزاع دموي بين الطائفتين راح ضحيتها عدد كبير من أهل السنة، لأن ذلك الأمر كان مدعما من السلطة الشيعية القائمة المسيطرة على زمام الأمور.

وفي سب العبيديين للصحابة يقول ابن حماد " وكتبوا ذلك في حيطان الجوامع والقياسير والشوارع والطرقات، كما منعوا الناس من صلاة التراويح، وكان القتل مصير كل إمام خالف ذلك"⁴.

¹ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج7، ص279.

² - نفسه ، ج7، ص275.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 287.

⁴ - ابن حماد، المصدر السابق، ص 97.

وقد اشتدت الفتن بين العامة زمن البويهيين بسبب الممارسات الشيعية، وقد كان للعلماء دور في تهدئة الأوضاع ، بنقدهم لرجال الدولة رغم شدة هيمنة ووطأة سلاطين البويهيين، ومن النماذج على ذلك الفتنة التي وقعت زمن عضد الدولة البويهي (367-373هـ/977-983م)، الذي منع القصاص من التحدث إلى العامة لما أحدثوه من فتن بين السنة والشيعة، ولم يستجب له ابن سمعون (ت387هـ/996م) وواصل وعظه للناس بجامع المنصور، فأخذته الشرطة وأدخلته عليه وهو يتلو قوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) ¹ ثم ابتدره بالنصح والتذكير حتى أبكاه ²، ورغم ذلك لم يؤثر العلماء بشكل كبير على سياسة البويهيين في ممارساتهم المنحرفة، فلطالما قامت الفتن بين العامة لنفس السبب، وبقي تأييد البويهيين للطرف الشيعي على حساب الطرف السني، وتعرضت بغداد للخراب بسبب تواتر الفتن والمحن وأحرقت الدور والمساكن والأسواق: "وقلت المعاش وكثر الجور وفترت الهمم عن طلب العلوم وغيرها" ³، وبقي الحال على ما هو عليه حتى وصول السلاجقة إلى بغداد وتخليص السلطة والعامة من سيطرة البويهيين الشيعة الذين عاثوا فسادا في البلاد والعباد .

وفيما يلي نماذج من تلك الفتن الطائفية بين السنة والشيعة منذ سنة 400هـ /1009م إلى سنة 447هـ/1055م تاريخ دخول السلاجقة إلى بغداد وهو الحيز الزمني للفصل التمهيدي:

¹ - سور يونس، الآية: 14 .

² - خالد كبير علال ، صفحات من تاريخ أهل السنة والجماعة في بغداد ، مطبعة هومة ، الجزائر ، د ت ، ص30.

³ - ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، ص 40.

سنة 402هـ/1011م: في هذه السنة أذن الوزير فخر الملك (ت407هـ/1016م) لأهل الكرخ وباب الطاق في عمل عاشوراء، فأقاموا النياحة في مشاهدهم المزعومة¹، كما أذن لهم بالاحتفال بيوم الغدير في 18 من ذي الحجة فأظهروا فيه البدع².

سنة 406هـ/1015م: في مستهل محرم وقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة، فتدخل الوزير فخر الملك لصالح الشيعة بأن وعدهم بالسماح لهم بإظهار بدعهم يوم عاشوراء³، ولقد كان أهل السنة مغلوب على أمرهم.

سنة 407هـ/1016م: وقعت فتنة بين أهل السنة والرافضة بواسط⁴، وعجز صاحب الشرطة عنهم، فحدث فيها نهب وحرق لدور الشيعة العلويين، فاستنجدوا بعلي بن مزيد صاحب الحلة⁵ واستنصروا به⁶.

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص82.

² - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص390، 392.

³ - نفسه ، ص401. فيما ذكر ابن تغري بردي أن فخر الملك منع الروافض من إظهار بدعهم يوم عاشوراء مخافة الفتن وكان ذلك بأن انشغل أهل الكرخ بوفاة الشريف الرضي يوم 5محرم. ينظر: النجوم الزاهرة ، ج4، ص239.

⁴ - واسط: بلد بين البصرة والكوفة لأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخا(1فرسخ=5كلم)، عمرها الحاجاج بن يوسف الثقفي، لذلك يقول واسط الحاجاج . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5، ص347.

⁵ - هو سند الدولة أبو الحسن علي بن مزيد الأسدي ، أول الأمراء المزيديين أصحاب الحلة، كان تابعا للبويعيين الشيعة، توفي في ذي القعدة سنة 408هـ/1017م. ينظر: ابن الأثير، المصدر السابق ، ج8، ص120. الزركلي ، المرجع السابق. ص22.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص120. ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص114. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص240-241. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص50.

سنة 408هـ/1017م : فيها اشتدت الفتنة وتفاقت في بغداد بين أهل الكرخ من الشيعة وبين غيرهم من أهل السنة¹، وقد حاول صاحب الشرطة أبو مقاتل أن يفض النزاع لكن أهل الكرخ **والعيارين** منعه من الدخول، فأحرق الدكاكين، وقُتل عدد كبير من الناس².

سنة 415هـ/1024م: فيها مُنع الرافضة من النوح في يوم عاشوراء ، ووقع بسبب ذلك فتنة بين السنة والشيعة قُتل فيها خلق كثير، ومُنِعوا كذلك من الاحتفال بعيد الغدير، " فأيد الله أهل السنة " ³.

سنة 421هـ/1029م: في ليلة عاشوراء خرج الرافضة في إقليم الكرخ للنوح والبكاء وعلقوا ⁴ المُسُوح على دكاكينهم، فوقع الفتنة بينهم وبين أهل السنة قُتل فيها جماعة من الفريقين⁵.

سنة 422هـ/1030م: في 22 ربيع الأول تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة واشتدت، وكان سبب ذلك أن شخصا يدعى الخزلجي الصوفي الملقب بالمذكور أظهر العزم على الغزو، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وأعطاه منشورا وعلماء، فخرج الناس للقاءه وترضوا على الصحابة أبي بكر وعمر، فنافرهم أهل الكرخ وقامت الفتنة ونُهب الدور، وفي الغد أقبل

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص122. ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص404.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص125.

³ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص260.

⁴ - هو لباس خشن غليظ مصنوع من القنب أو شعر الماعز ويكون في أغلب الأحيان أسود اللون ، وكان يُلبس على البدن نقشا وقهرا للجسد، وكان يُلبس علامة على الحزن على الموتى، فلذلك تقرر هذه الكلمة غالبا بما يدل على النوح والظلمة.

⁵ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج15، ص204. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص424. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج4، ص274.

أهل السنة ومعهم كثير من الأتراك وقصدوا الكرخ وأحرقوه وهدموا الأسواق وقتل من أهل الكرخ جماعة، كما نهب العامة دور اليهود، لأنهم نسبوا إلى معاونة أهل الكرخ من الروافض، وأنكر الخليفة ذلك لأنهم عارضوا أمره، ولم تخدم الفتنة إلا بعد تدخل الوزير¹.

سنة 423هـ/1031م: في عاشوراء علفت المسوح في الأسواق وأقيم النوح في المشاهد، "وامتلأت بذلك الطرقات والأسواق والأرجاء"²، وتولى ذلك العيارون الذين غلبوا على بغداد³.

سنة 424هـ/1032م: فيها عمل الرافضة المأتم ببغداد في يوم عاشوراء على عادتهم ، فتولى ذلك العيارون الذين كانوا غلبوا على بغداد وعجز الحكام عنهم⁴.

سنة 432هـ/1040م: وقعت في بغداد فتنة عظيمة بين الروافض والسنة من أهل الكرخ وأهل باب البصرة قتل منهم خلق كثير⁵.

سنة 440هـ/1048م: فيها اقتتل السنة والروافض وجرت فتنة عظيمة بينهم يطول ذكرها⁶.

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص214. ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص200. ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص428.

² - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص430.

³ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص222.

⁴ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص280.

⁵ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص446.

⁶ - نفسه، ص454.

سنة 441هـ/1049م: فيها مُنع أهل الكرخ من النوح وممارسة عاداتهم القديمة خوفاً من الفتنة، فوعدوا وأخلفوا، فوقعت الفتنة وقُتل الكثير ولم تخدم الفتنة إلا بعد أن عبر إليهم الأتراك وضربوا خيامهم عندهم¹.

سنة 442هـ/1050م: من العجائب أنه وقع صلح بين أهل السنة والرافضة في إقليم الكرخ، وصارت كلمتهم واحدة، والسبب في ذلك أنهم اتفقوا على قتل أبي محمد النسوي صاحب الشرطة الذي كان فتاكاً ، فأذن بحي على خير العمل وقُرى في الكرخ فضائل الصحابة ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش وعُدَّ ذلك من العجائب²، وقد علق ابن كثير على ذلك بقوله: "وهذا عجيب جداً إلا أن يكون من باب التقية"³.

سنة 443هـ/1051م : في صفر عادت الفتنة بين السنة والرافضة ببغداد ، بسبب كتابة أهل الكرخ على برج باب مسجد شيدوه: " محمد وعلي خير البشر"، وذكر أهل السنة أن المكتوب هو "محمد وعلي خير البشر فمن رضي شكر ومن أبي كفر"، فأنكر أهل الكرخ تلك الزيادة فثار أهل السنة وأبوا إلا أن يمسحوا ذلك، فاقتتل الطرفان ولم يقدر على منعهم

¹ -ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص319. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص 292. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص49.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص325-326. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص51.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص458.

ال خليفة ولا السلطان، فاستجدوا بالعيار فقتل جماعة كثيرة من الطرفين¹، خاصة من الشيعة بعد أن تسلط عليهم العيار الطقيطي الذي كان يتبع رؤوسهم وكبارهم فيقتلهم جهارا وغيلة².

سنة 444هـ/1052م: حدثت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد، وأعاد الشيعة الآذان بحي على خير العمل، وكتبوا على مساجدهم محمد وعلي خير البشر، فاشتدت الفتنة وعظم الشر³.

سنة 445هـ/1053م: استمرت فتنة السنة الماضية إلى هذه السنة، وازدادت اشتعالا في شهر محرم، بعد أن أوغل قواد الأتراك في قتل أهل الكرخ وحرقت أسواقهم، وأنكر الخليفة القائم الأمر، ولم تخمد إلا بعد أن كف الأتراك يدهم عن أهل الكرخ⁴.

والملاحظ أنه لا تكاد تمر سنة على بغداد إلا وقامت فيها فتنة بين السنة والروافض بسبب ممارساتهم المنافية للشرع، تُزهق فيها الأرواح وتُنهب الممتلكات وتُحرق الأسواق، ولأن الخليفة العباسي كان مجردا من صلاحياته فكثيرا ما رُجحت الكفة لصالح الروافض بسبب دعم بني بويه، ولم تكن تلك الفتن تشتعل فقط بسبب احتفال عاشوراء وغدير خم، ولكن في كل مناسبة يحاول فيها الشيعة لعن الصحابة والخط من مكانتهم، والظاهر أن تلك الفتن كان

¹ -ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص329-330. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص302. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج5، ص52.

² - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص458.

³ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص335. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص310.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15، ص340. ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص312.

يصعب إخمادها حتى تتصل بالسنة الجديدة وكثيرا ما كانت تلجأ السلطة إلى القوة والتصفية
من أجل تهدئة الأوضاع.

والظاهر أن تجدد المواجهات بين السنة والشيعة في كل مناسبة يحييها الشيعة دفعت
بطائفة من أهل السنة إلى مجاراتهم بمناسبات مناقضة من أجل استفزازهم، فقد استحدثوا
عيدين أولها يوم الغار عند أهل السنة مقابل يوم الغدير عند الشيعة ، وقد ادعت طائفة من
السنة أن يوم الغار هو اليوم الذي اختبأ فيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع حميه أبي
بكر الصديق رضي الله عنه في الغار، وحددوا تاريخ هذا الحدث ليقع بعد مرور ثمانية أيام
على يوم غدير خم الذي يصادف 18 ذي الحجة¹ ، والعيد الثاني هو يوم عاشوراء الذي
تعمل فيه الشيعة مأتما وتظهر الحزن، فقابلتهم طائفة أخرى تقول أن اليوم الثامن عشر من
محرم هو يوم مقتل مصعب بن الزبير فعملوا له مأتما وزاروا قبره² ، واتخذوهما عيدين
رسميين يحتفلون بهما كل سنة، وقد علق ابن كثير على هذه الممارسات بقوله : " وهذا من
باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها، ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة "³.

كما شجع الخلفاء العباسيون على التأليف لضرب الفكر الشيعي ، فكان أن صنف القاضي أبو
بكر الباقلاني (ت403هـ) كتابا في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية، وكان يلقب "

¹ - المقرئزي ، الخطط ، ج2، ص117. رغم أن المصادر أجمعت على أن يوم الغار كان في أوائل شهر ربيع الأول ،
وكان دخولهما إلى المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول . ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 372.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج15 ، ص 14. أبو الحسين هلال بن المحسن ابن إبراهيم الصابي(ت448هـ) ، تحفة
الأمراء في تاريخ الوزراء ، ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1904. ص 371 .

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 372.

بسياف السنة"¹، كما ألف علي بن سعيد الأسطخري (ت405هـ) كتابا في " الرد على الباطنية " فكافأه الخليفة القادر وأجرى عليه جرامة سنوية له ولبنيه من بعده².

كما تطوَّع بعض العلماء للتأليف في هذا المجال من أجل حماية العامة من مكائدهم، كأبي الفضائل اليماني، صاحب كتاب " كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة"، حيث اندس هذا الأخير في صفوف باطنية اليمن، وألف كتابه هذا لكشف أسرارهم ليُحذَّر المسلمين من صنوف مكائدهم ومن الوقوع في هاويته³.

ويمكن أن نضيف كتب الفرق التي انتشرت في تلك الفترة منها: كتاب أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت429هـ/1037م) " الفرق بين الفرق"⁴، وكتاب أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت548هـ/1153م) " الملل والنحل"⁵، وغيرها كثير، فقد انتشرت المؤلفات التي تضرب الفكر الباطني منذ أن اشتد خطرهم على العالم الإسلامي.

والى جانب ذلك نجد أن للشعراء دور آخر في مواجهة الفكر الشيعي، بأن نظموا قصائد مشهورة مدحوا فيها الصحابة وذموا الرافضة، منهم الشاعر علي بن عيسى بن سليمان بن محمد

¹ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج4، ص 234

² - نفسه ، ص 236.

³ - أبو الفضائل اليماني ، المصدر السابق، ص 19.

⁴ - البغدادي ، المصدر السابق .

⁵ - الشهرستاني ، المصدر السابق.

بن أبان أبو الحسن الفارسي المعروف بالسكري (ت413هـ/1022م) الذي عُرف بشاعر أهل السنة
لأن أكثر شعره في مدح الصحابة وذم الرافضة¹.

توصلنا من خلال ما سبق إلى أن المشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري
الموافق للحادي عشر الميلادي كان يتخبط في مجموعة من الأزمات السياسية، والصراعات
المذهبية، بين مختلف التيارات خاصة بين السنة والشيعة، فغُيب الخلفاء العباسيون وأصبحت
السلطة الفعلية بيد الشيعة بمختلف طوائفهم، فقد شكل الإسماعيلية باسم العبيديين قوة لا
يستهان بها، هددت الخلافة العباسية وقلصت من نفوذها ورقعتها الجغرافية، وحصرت
وجودها في بغداد التي كانت هي الأخرى تحت سيطرة البويهيين - الزيدية - الذين أظهروا في
عديد من المناسبات ولاءهم للعبيديين في مصر، حتى تجرأ بعض الأمراء على محاولة ربط
مصيرهم بمصر، وعليه فقد كان القرن الخامس القرن الذهبي للتشيع، سيطر فيه العبيديون
على مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن فيما سيطر البويهيون على بغداد وإقليم فارس وكانت
فلول القرامطة في البحرين رغم تضائل نشاطها تهدد القوافل والطرق التجارية .

في ظل هذه الأوضاع كلها وقبل وصول الصليبيين إلى الديار الإسلامية ظهرت قوة
جديدة أتت من بلاد الأناضول، أحيت الخلافة السنية في بغداد، وأعطتها دفعة قوية في وجه
العدوان المزدوج الشيعة والصليبيين، تجسدت في قوى السلاجقة ، فمن هم السلاجقة ؟ وكيف
تعاملوا مع الأوضاع السياسية والمذهبية القائمة آنذاك؟

¹-ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص138. ابن كثير ،المصدر السابق، ج6 ، ص413.

الباب الأول: الدور السياسي والعسكري للسلالة والزكيين والأيوبيين
في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي

447-600هـ/1055-1203م:

❖ الفصل الأول : الدور السياسي والعسكري للسلالة في مقاومة الوجود

الشيعي بالشرق الإسلامي (447-521هـ/1055-1126م) .

❖ الفصل الثاني: الدور السياسي والعسكري للزكيين في مقاومة الوجود

الشيعي بالشرق الإسلامي (521-569هـ / 1126-1173م).

❖ الفصل الثالث: الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود

الشيعي (569-600هـ/1173-1203م).

الفصل الأول : الدور السياسي والعسكري للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي

بالمشرق الإسلامي : 447-521هـ/1055-1126م:

أولا : قيام دولة السلاجقة.

أ- أصل السلاجقة وتسميتهم.

ب- بداية ظهور السلاجقة على الساحة السياسية .

ج- دخول السلاجقة إلى بغداد .

د- مصاهرة السلاجقة للخليفة العباسي وتوسيع صلاحياتهم.

ثانيا: النشاط السياسي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي 447-521هـ/1055-1126م :

1 - القضاء على السيطرة البويهية الشيعية: (334هـ-447هـ/945-1055م)

2- فتنة البساسيري الإسماعيلي ودور السلاجقة في القضاء عليها 450-451هـ/1058-1059م.

3- دور الملك ألب أرسلان في مقاومة الوجود الشيعي.

4- الصراع بين السلاجقة والعبديين.

أ- تحرك السلاجقة لاسترداد الشام وبيت المقدس من العبديين.

ب- دور السلاجقة في القضاء على فلول القرامطة.

5- موقف السلاجقة من العلاقات العبيدية البيزنطية.

أ- استغلال السلاجقة للتوتر بين العبديين والبيزنطيين .

ب -موقعة ملازكرد :463هـ/1070م، وأثرها في إحياء التحالف الشيعي -العبدي -البيزنطي ضد أهل السنة.

6- السلطان ملكشاه بن أرسلان واستكمال المشروع الجهادي ضد الشيعة.

7- استرجاع السلاجقة الشام وطرد العبديين.

8- ظهور الفرقة الإسماعيلية النزارية واشتداد المواجهة مع السلاجقة.

9- قتل الإسماعيلية للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي.

أ- التعريف بنظام الملك.

ب- موقفه من الإسماعيلية، ومقتله .

10-موقف خلفاء ملكشاه من الباطنية.

11-ضعف السلاجقة وتفككهم، وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعي.

12- الصراع السني الشيعي، وأثره في الامتداد الصليبي على العالم الإسلامي.

الباب الأول: الدور السياسي والعسكري للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في

مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي (447-600هـ/1055-1203م):

الفصل الأول: الدور السياسي والعسكري للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي (447-521هـ/1055-1126م):

شهد المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي) ظهور عدة دويلات مستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد، منها من كان تابعا اسميا للخليفة ينتحل المذهب السني، ومنها من كان منفصلا عنه تماما؛ بسبب الاختلاف المذهبي، وهم من أقاموا دولا باسم آل البيت ، كالدولة العبيدية في مصر، وهذا الصراع المذهبي الذي تخطب فيه العالم الإسلامي آنذاك كان له انعكاساته على الخليفة العباسي نفسه، فقد سعى الشيعة بكل الوسائل للإطاحة بهيئته والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العباسية، وفي آخر الأمر تمكن البويهيون الشيعة من السيطرة على زمام الأمور في بغداد، وجردوا الخليفة من كل صلاحياته، وأضحت بغداد قلب الخلافة الإسلامية مرتعا لممارسات الشيعة غير أبهين بالمذهب الرسمي للعامة.

وفي هذه الأثناء كان العالم الإسلامي بحاجة لدعم جديد لبعث المذهب السني وإعادةه إلى حضيرة الخلافة، فكان ظهور السلاجقة في بلاد ما وراء النهر صفحة جديدة في انتصار أهل السنة وإعادة موازين القوى إلى سابق عهدها.

فمن هم السلاجقة، وما أصلهم؟ وكيف وصلوا إلى العاصمة بغداد؟ وما هو دورهم السياسي والعسكري في التصدي للوجود الشيعي إعادة هيبة المذهب السني في المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)؟

أولاً: قيام دولة السلالة:

أ- أصل السلالة وتسميتهم:

اختلفت آراء المؤرخين حول أصل السلالة، فمنهم من نسبهم إلى الفرس من سلالة آل أفراسياب¹ الفارسية، على اعتبار أنهم بقية منهم، ومن هؤلاء المؤرخين حمد الله القزويني؛ حيث يقول: "إن سلجوق مؤسس هذه السلالة التركية ينتسب إلى أفراسياب في أربع وأربعين ظهراً"². بينما ذكر بعض المعاصرين: أن كون السلالة من نسل أفراسياب قصة موضوعة ومزعومة لا أساس لها من الصحة³.

والذي يظهر: أن الأمر اشتبه على المؤرخين بسبب مصاهرة السلالة لسلالة أفراسياب، فقد كان طراج -والد ترکان خاتون (ت488هـ/1094م) زوجة ملكشاه- من نسل أفراسياب⁴.

ويلتقي الدواداري مع من يقولون بأن أصل السلالة من الفرس في قوله: إنهم من نسل السامانيين، ويرجع أصلهم إلى الفرس من ملوك العجم⁵.

¹ آل أفراسياب: أفراسياب ملك توران -الترك-. وطبقاً للأساطير الإيرانية ينسب التوران إلى تور الابن الأوسط لأفريدون ملك إيران، وقد جعل له والده أراضي الترك والصين نصيباً، إلا أن تور لم يرض بقسمه وتعاون مع أخيه الأكبر سام أو سلم، وزحف بعسكره نحو إيران وقتل أخاه الأصغر إيرج، ومن هنا بدأ الصراع بين آل تورك الترك وآل إيرج الإيرانيين والعرب. وكانت العاصمة أفراسياب مدينة كاشغر، وكان ينسب إليه تأسيس مدينة بارجوق، وهي مدينة مارال باشي الحالية فيما وراء النهر والتي سجن بها ببشرن البطل الإيراني الذي عشق منيثة ابنة أفراسياب، وحبس في قاع جب فترة طويلة، حتى عثر عليه رستم بن دستان بمعاونة منيثة، فأخرجاه من الجب وأعاداه إلى إيران وفقاً للأساطير الإيرانية. ينظر: بارتلود، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996، ص 103-104. محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، السلالة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2001، ص 27، 28.

² حمد الله أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن نصر القزويني، تاريخ كزیده، تحقيق: أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله منير الطرازي، دار المعارف، مصر، 1995، ص 434.

³ ينظر: حسن حبشي، السلالة عنصر قوة في الإسلام، مجلة الرسالة، السنة 14، العدد 636، القاهرة، 1946، ص 302. بارتلود، المرجع السابق، ص 124.

⁴ ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص 14.

⁵ أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر أو الدرر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972، ج7، ص 21.

في حين يذكر علي بن محمد البنداري، صاحب كتاب تاريخ دولة آل سلجوق: أن أصل السلالة يعود إلى القبائل التركية التي عرفها العرب باسم الغز، والتي استطاعت في القرن السادس الميلادي أن تقيم إمبراطورية ذات طابع بدوي¹. وينسب الحسيني السلالة لأحد فروع قبائل الغز، وتعرف قبيلتهم باسم القنق²، ويرسمها محمود الكاشغري في ديوانه عن الترك قينيق³، وهي إحدى قبائل الغز الأربعة والعشرين⁴، وكانت تعيش في الصحراء الواسعة والسهوب التي تبدأ عند حدود الصين، وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر (بحر قزوين)⁵.

والغز هم أهم المجموعات التركية التي عرفها العرب، فهم عرب الترك، ومما يؤكد أن السلالة بطن من بطون قبائل الغز التركمانية أن رئيس الأسرة الغزية التي حكمت إيران كان يسمى سوباشي، أي: قائد الجيش⁶. بالإضافة إلى ما ذكره ابن فضلان في رحلته إلى ملك البلغار في مهمة أوكلت إليه هناك من طرف الخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م)، وكان ذلك حوالي سنة (309-310هـ/921-923م)،

1- أبو الفتح بن علي بن محمد البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، قراءة وتقديم: يحيى مراد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 6.

2- صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر الحسيني، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، لاهور، 1933، ص 3.

3- الكاشغري: هو محمود بن الحسين بن محمد، صاحب كتاب ديوان لغات الترك، يعتبر من أهم المؤلفين المسلمين المختصين في كتابة تاريخ القبائل التركية، ويذكر فيه: أنه كان هناك عشرون شعباً تركياً منذ الأزل، انقسموا إلى فريقين شماليين وجنوبيين، وقد أنهى الكاشغري ديوانه سنة 466هـ/1073م. ولكون الكاشغري تجول في كل الأقاليم والمقاطعات التركية وجمع في كتابه لغات الأقوام التركية وتواريخهم وخرافاتهم وأساطيرهم وأمثالهم وربما عاداتهم، الأمر الذي أكسب الديوان أهمية بالغة في الكتابة عن تاريخ الأتراك. انظر: يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 30.

4- بارتلود، المرجع السابق، ص 124.

5- محمد مسفر حسن الزهراني، السلالة من أين أتوا، مجلة الحرس الوطني، العدد 11، المملكة العربية السعودية، 1982، ص 62.

6- صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 2.

حيث ذكر أن رئيسهم كان يلقب باسم بيبغو¹، بينما كان قائدهم العسكري يُقال له سوباشي -أي: صاحب الجيش-، وكان لقب معاونه هو ينال². وقد ترددت هذه الألقاب نفسها في العصر السلجوقي، وخاصة في الفترة المبكرة منه، مما يعطي إشارة قوية إلى أن السلاجقة فرع من بطون الغز التركية³.

وقد هاجرت قبائل الغز من أقصى التركستان⁴ في القرن الثاني والثالث والرابع الهجرية، واستقر السلاجقة في صحارى بحيرة خوارزم (أرال) والسواحل الشرقية لبحر الخزر ووديان سيحون وجيحون العليا، واضطر السلاجقة إلى ترك موطنهم في التركستان تحت وطأة الظروف القاسية؛ "بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم"⁵، فهاجروا على شكل جماعات نحو الجنوب الشرقي إلى بلاد ما وراء النهر، وازدادت هذه الهجرات بوجه خاص خلال حكم السامانيين⁶، وكانت منازلهم في الشتاء في نور بخارى، وعندما يحل فصل الصيف يرحلون للإقامة في سمرقند⁷.

¹ - بيبغو: عبارة عن تحريف لكلمة بابغو المذكورة في نقوش أورخون على أنها منصب تركي، وهو لقب السلطان الأعلى عند الترك طبقاً للأساطير الأويغورية، ومعناها الغزال، وهو لقب من بعد الخاقان بدرجتين، وهو متضمن في اللقب التركي بيبغو الذي يعني الشيخ الكبير لدى الغز، كما أشار أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد في رحلته. انظر: رحلة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، 1959، ص 101. بارتلود، المرجع السابق، ص 104.

² - أحمد بن فضلان، المصدر السابق، ص 97-101.

³ - محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 31.

⁴ - تركستان اسم جامع لجميع بلاد الترك، ينظر: الحموي، المصدر السابق، ج 2، ص 23.

⁵ - الراوندي، المصدر السابق، ص 145.

⁶ - محمد مسفر حسن الزهراني، المقال السابق، ص 62.

⁷ - الراوندي، المصدر السابق، ص 145. عبد الحميد حسين حمودة، تاريخ المشرق الإسلامي منذ ظهور السلاجقة حتى الغزو المغولي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط 1، 2012، ص 5، 6.

وحدد الدكتور عبد النعيم محمد حسنين أسباب هجرة السلاجقة من موطنهم إلى بلاد ما وراء النهر في ثلاثة أسباب، هي¹:

أحدها: سوء الحالة الاقتصادية، نتيجة كثرة النسل وجذب الأرض وقلة المياه وضيق المراعي التي لا تفي باحتياجات هؤلاء الأفراد².

السبب الثاني: قسوة الطبيعة، مما جعل موطنهم الأصلي غير صالح لاستمرار حياة القبائل فيها.

السبب الثالث: تغلب قبائل أكثر قوة على السلاجقة وانتزاع أراضيهم، مما دفع بالسلاجقة إلى البحث عن مكان آخر تنزل فيه وتتخذ موطنًا جديدًا لها.

وكانت منازل السلاجقة في بلاد ما وراء النهر تجاور البلاد الخاضعة لنفوذ بلاد السامانيين والخابنيين والغزنويين، وكانوا من المسلمين المؤيدين للمذهب السني الذي تولى زعامته الروحية الخليفة العباسي في بغداد، فأدى جوار السلاجقة لهم إلى اعتناقهم الإسلام، وتعصبهم للمذهب السني قبل أن يُكوّنوا دولة³.

أما عن سبب تسمية السلاجقة بهذا الاسم، فهو نسبة إلى أحد أجدادهم سلجوق بن يقاق⁴، ويقاق هذا، أو تقاق؛ كما يلقبه ابن الأثير: "معناه: القوس الجديد، وكان شهما، ذا رأي وتدبير وكان مقدم الأتراك الغز، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً"⁵، فولد ليقاق

1- عبد النعيم محمد حسنين، سلاجقة إيران والعراق، المكتبة التاريخية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1970، ص17.

2- محمد مسفر حسن الزهراني، المقال السابق، ص 62.

3- عبد الحميد حسين حمودة، المرجع السابق، ص 6.

4- ويقاق باللغة التركية: القوس من الحديد، صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 1. ويلقبه الذهبي ب: دُقاق بضم الدال، ينظر: الذهبي، المصدر السابق، ج18، ص107. بينما يسميه الراوندي ب: سلجوق بن لقمان، ينظر: الراوندي، المصدر السابق، ص 147. وهذا مستبعد.

5- ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 236.

سلجوق الذي تقدم عند ملوك الترك كأبيه، وشعر يوما أن ملك الترك يتآمر عليه¹، فاستنفر سلجوق جماعته ومضى بهم إلى دار الإسلام، وصار مسلما بين المسلمين، وازداد حاله علوا وأمره طاعة، حيث نجح في توحيد أفراد قبيلته من الغز فنُسبوا إليه وسُموا بالسلجقة، واستقر في نواحي جند²؛ "ليكون المسلمون عوناً له وليمكنوه من المراعي والمساكن، وشرع في غزو من قاربه من أصناف الترك"، حسب ابن طباطبا³.

ب- بداية ظهور السلجقة على الساحة السياسية والعسكرية:

كان سلجوق متحمسا للإسلام وغيورا عليه وقد أخذ على عاتقه حماية المسلمين في المناطق المجاورة له من غارات القبائل التركية غير المسلمة، فذاع صيته، وغدا بلاطه ملاذا للمضطهدين من المسلمين، مما أدى إلى زيادة أتباعه، وتزايد قوته تبعا لذلك بشكل ملحوظ ومستمر، وقد تمكن بطموحه وقوة شخصيته من خلق كيان مستقل لقبيلته، فعلا شأنها، وحُسِب لها ألف حساب، خاصة وأن سلجوق بعد استقراره في موطنه الجديد أخذ يشن غارات متتالية على كفار الترك المجاورين له، ونجح في إزالة نفوذ ملوكهم في تلك الديار، ومنع عنهم الخراج الذي كان يدفعه لهم المسلمون فيما مضى⁴.

ويبدو أن السلجقة دخلوا منذ البداية في علاقات ودية مع السامانيين حكام خراسان بعد اعتناقهم الإسلام، أولئك الذين عهدوا إليهم بالدفاع عن أراضيهم من غارات الأتراك غير المسلمين لقاء المراعي التي أعطيت لهم، كما أعان السلجقة السامانيين في صد

¹ - ويذكر لنا صدر الدين الحسيني رواية عن سبب هجرة سلجوق بن يقاق، مفادها: أن سلجوق هذا كان مقربا عند ملك الترك بيغو، الذي فوض إليه إمارة الجيش ولقبه بسوباشي، وكانت امرأة ملك الترك تبغض سلجوق وتحرض ملكها عليه، حتى أنها قالت لزوجها في حضرة سلجوق: "الملك عقيم، ولا يحتمل المشاركة، ولا يصفو لك مشرب الملك إلا بقتل سلجوق، ولا يسفر صباح دولتك إلا بأن تذيقه كأس الحمام، فإنه عن قريب يزعجك عن دار ملكك، ويسعى فيهلكك". ينظر: صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 2.

² - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 236.

³ - ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر بيروت، د ت، ص 261.

⁴ - محمد مسفر حسن الزهراني، المقال السابق، ص 62.

غارات القراخانيين، مما جعل السامانيين يسمحون لهم بالعبور عبر أراضيهم للإقامة على مقربة من شاطئ نهر سيحون، حيث اتخذوا من مدينة جند مقرا لهم¹، الأمر الذي مهد لهم السبل لتكوين إمبراطورية خاصة بهم.

مات سلجوق بجند، بعد أن عُمر مئة سنة وسبع سنين²، استطاع من خلالها أن يوحد أبناء قبيلته، وأن يُكوّن لهم نفوذا سياسيا في بلاد ما وراء النهر، وخاصة حول جند وبخارى وسمرقند، كما يعود إليه الفضل في تثبيت العقيدة الإسلامية بين السلالة. وترك من الأولاد: ميكائيل وموسى وبيغو أرسلان المدعو إسرائيل، كان المقدم بينهم ميكائيل³. وفي سنة 389هـ/998م انهار النفوذ الساماني، واقتسم أملاك السامانيين كل من الخانيين والغزنويين، كما فسح المجال للسلالة لتوطيد نفوذهم أكثر فأكثر في بلاد ما وراء النهر⁴.

ويذكر الراوندي أن ملك الترك أيلك خان حذر السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين من السلالة ولفت نظره إلى كثرتهم وقوة رجالهم، فتخوف هذا الأخير منهم وأخذ يخطط للإيقاع بهم، فراسل أبناء سلجوق وطلب منهم المدد والدعم لاستكمال فتوحاته، وأرسل في طلب أحدهم يتولى عقد هذا الاتفاق معه، فأتاه إسرائيل بدون جيش يحميه بعد أن أقنعه محمود بعدم ضرورة ذلك، تحاور الطرفان حول كيفية وصول المدد في حال الحاجة، فأفضى إسرائيل بما يملك السلالة من قوة في معظم النواحي، تخوف منها محمود فألقى عليه القبض وأرسله معتقلا إلى الهند، حيث بقي أسيرا مدة سبع سنوات باءت فيها محاولات إنقاذه كلها بالفشل، إلى أن توفي⁵.

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 236. يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص38.

² - البنداري، المصدر السابق، ص 7.

³ - صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 2.

⁴ - فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية، السقوط والانهدام، دار الشروق، الأردن، ط1، 1998. ج2، ص161، 162.

⁵ - الراوندي، المصدر السابق، ص 147-151.

تولى ميكائيل قيادة السلاجقة، وسار على نهج والده في استكمال غزو بلاد الأتراك. والظاهر أن السلاجقة لم يجاهرُوا بالعداء للسلطان الغزنوي لما تمتع به من قوة، وأخذوا يعدون العدة للانتقام في الوقت المناسب، والتزموا الحيطة في تعاملهم معه، ثم نجح ميكائيل بن سلجوق في نقل السلاجقة إلى إقليم خراسان بإذن السلطان محمود في حدود سنة 416هـ/1025م، ولأزموا الهدوء طول حياة السلطان¹.

توفي السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين في ربيع الثاني 421هـ²، وهو نادم على إنزال السلاجقة في بلاده، خائف منهم، كاره لمكانتهم³.

ولما استشهد ميكائيل خلفه أولاده: بيغو وطغرل بك محمد وجفري بك داود، فأطاعتهم عشائريهم⁴، فنزلوا بالقرب من بخارى⁵، ودخلوا في صراع مع مسعود بن سبكتكين الغزنوي، انتهى بعقد الصلح؛ لانشغال مسعود بفتوحاته في الهند⁶.

عاد مسعود إلى غزنة، فبلغه ما وصل إليه السلاجقة من قوة لدرجة أنهم استولوا على أكثر بلاد خراسان، فاستجد الصراع بينهما⁷، وانتهى الأمر بتأسيس السلطان طغرل بك دولة في خراسان سنة 431هـ/1039م، على إثر انتصاره على السلطان مسعود الغزنوي في معركة دَنْدَانْقَان⁸، واعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله به سلطاناً في العام التالي، بعد أن كتب له طغرل بك رسالة يوضح له فيها إنجازاته وتوسعاته، وأنه لا يخرج عن طوع أمير المؤمنين، فطلب منه زيارة بغداد فوعده بذلك في الوقت المناسب؛ لانشغاله ببسط نفوذه على أقاليم

¹ - محمد مسفر حسن الزهراني، المقال السابق، ص 62-63.

² - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 427.

³ - صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 3.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 237.

⁵ - بخارى: من بلاد خراسان، افتتحها سعد بن عثمان بن عفان، زمن معاوية، ثم امتنع أهلها حتى افتتحها سليم بن زياد أيام يزيد بن معاوية، ثم امتنعت حتى صار إليها قتبية بن مسلم الباهلي أيام الوليد بن عبد الملك فافتتحها، وبيخارى دار الإمارة على جميع خراسان. ينظر: عبد المنعم الحميري، المصدر السابق، ص 83.

⁶ - الراوندي، المصدر السابق، ص 155-156.

⁷ - خواندمير، المصدر السابق، ص 163.

⁸ - دندانقان: بلدة من نواحي مرو الشاهجان، على بعد عشرة فراسخ منها في الرمل -الفرسخ: ستة كيلومتر-، وهي بين بين سرخس ومرو. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 477. صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 12.

فارس المختلفة¹، فاستولى على خوارزم قزوين وكرمان والديلم، وانتزع همدان من البويهيين سنة 434هـ/1042م². وما إن حل عام 442هـ/1050م حتى سيطر طغرل بك على أصبهان وجعلها عاصمة لدولته³، وبذلك شمل نفوذ السلالة كل خراسان وفارس، وغدت وغدت دولة السلالة هي القوة الأولى في الشرق الإسلامي، وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

ج- دخول السلالة إلى بغداد:

وأمام تنامي قوة السلالة تلك، كان شأن الخلافة العباسية قد اضمحل اضمحلالاً شديداً، وانفصلت عنها أطرافها شرقاً وغرباً، وقامت في تلك الأطراف المنفصلة دويلات مستقلة، كما شهد العالم الإسلامي في تلك الفترة تنامي وانتصار المذهب الشيعي وقيام الدولة العبيدية التي استقلت بالمغرب ومصر استقلالاً تاماً، والتي ضمت إليها بعد ذلك الشام والحجاز واليمن، وكلها من أملاك الخلافة العباسية، وفي بغداد⁴ نفسها عاصمة الخلافة فقد الخليفة كل سلطانه، وانتقل هذا السلطان إلى أيدي بني بويه، وهم أسرة شيعية⁵.

¹ - الراوندي، المصدر السابق، ص 166-169.

² - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 255-257.

³ - نفسه، ص293.

⁴ - بغداد: كلمة فارسية مركبة: "بغ" تعني صنم أو شيطان، و"داد" تعني عطيته فكأنها عطية الصنم أو الشيطان، لذلك لا يقال بغداد بل مدينة السلام، أسسها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين سنة 145هـ، وأتم البناء سنة 146هـ، وسماها مدينة السلام، ينظر: ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص 12-13. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، دت، ج1، ص66.

⁵ - جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص 102.

وأمام هذا الوضع كانت الدولة في حاجة إلى دم جديد غريب عنها، لم تقسده عناصر المدينة، وفي فتوة البداوة وعنفوانها، وكان من حظ الخلافة العباسية أن ظهر هذا العنصر الجديد في الأفق البعيد على حدود الدولة، وكان يمثلته موجة جديدة من موجات الأتراك، وهم الأتراك السلالة بقيادة طغرل بك.

فكان طغرل بك بمثابة منقذ للخلافة السنية في العالم الإسلامي؛ إذ استتجد به الخليفة القائم بأمر الله لتخليصه من سيطرة البويهيين الديالمة¹، فأرسل طغرل بك يستأذنه في دخول بغداد فأذن له، فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العبيدي²، وفي هذا دلالة واضحة على الحماس السني للسلالة ونيتهم في القضاء على كل كيان سياسي مخالف للخلافة العباسية السنية من بويهيين وعبيديين على السواء، فوصل إلى النهروان وخرج الوزير رئيس الرؤساء ابن مسلمة إلى لقائه في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وأعيان الدولة، وصحبه أعيان الأمراء من عسكر الملك الرحيم، فلما علم طغرل بك بقدومهم أرسل إليهم الأمراء ووزيره أبا نصر الكندري³، فلما وصل رئيس الرؤساء إلى السلطان أبلغه رسالة الخليفة فاستخلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد⁴، فقال له طغرل بك: "ما وردت إلا منصرفاً عن الأوامر السامية، وممثلاً للمراسم العالية ومتميزاً عن ملوك خراسان بالدنو

¹ - صدر الدين بن ناصر الحسيني، المصدر السابق، ص 169.

² - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 322.

³ - هو أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الملقب عميد الملك الكندري، أول وزير في دولة السلالة، وزر للسلطان طغرل بك، ونال عنده الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة، كان شديد التعصب على الشافعية، حتى بلغ به أنه لعن مرة الرفضة في منابر خراسان وأتبعهم بالشافعية، فأثار ذلك حفيظة العلماء منهم الجويني والقشيري فرحلا عن خراسان، وقيل: إنه تاب عن ذلك، ولما توفي طغرل بك أقره ألب أرسلان على حاله وزاد في إكرامه، إلى أن قتل على يد غلمان نظام الملك الطوسي بالري يوم الأحد 16 ذي الحجة 456هـ/1063م.، وعمره يزيد عن الأربعين سنة. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ص183-142.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 323.

من هذه الخدمة الشريفة ومنتقما من أعدائها، وسائرا إلى بلاد الشام لفتحها"¹، فكان أن دخل "السلطان ركن الدولة طغرل بك أبو شجاع محمد بن ميكائيل بن سلجوق إلى بغداد في 25 رمضان سنة 447هـ/1055م"².

عندما علم الخليفة العباسي بدخول طغرل بك بغداد أمر أن يُذكر اسمه في الخطبة، وأن يكون لقبه السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين³، على أن يذكر بعده اسم الملك الرحيم البويهى، وهكذا رضيت الدولة البويهية أن تكون تابعة للسلاجقة آملة بذلك أن يتاح لها نوع من البقاء⁴.

وبذلك دخل طغرل بك بغداد دخول الفاتحين، "فعدل في الناس وكان ملكا رحيمًا كريما"⁵. وعمل على توثيق علاقته بالخليفة القائم بأمر الله أكثر، فزوجه من بنت أخيه جغري بك داود أرسلان خاتون -خديجة- سنة 448هـ/1056م، ورُفِّت إليه في هذه السنة⁶.

¹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص 349.

² - البنداري، المصدر السابق، ص 187.

³ - الراوندي، المصدر السابق، ص 169.

⁴ - محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 66.

⁵ - الصفدي، المصدر السابق، ص 103.

⁶ - صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 17-18. ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 327. ابن الجوزي، الجوزي، المنتظم، ج16، ص 4. أبو الفداء، المصدر السابق، ج2، ص 174. وفي رواية لابن قلاسي أن العقد على أرسلان خاتون كان على ذخيرة الدين بن القائم، فتوفي الذخيرة قبل أن يدخل بها، فنقل العقد للخليفة ودخل بها. ينظر: ابن القلاسي، المصدر السابق، ص 86.

والهدف من هذا الزواج هو تدعيم العلاقة بين السلالة والعباسيين، حتى يدوم النفوذ السلجوقي في الدولة الإسلامية. يقول الأصفهاني: "ودخلت سنة 448هـ/1056م، وفي المحرم منها عقد الخليفة على ابنة أخي طغرل بك أرسلان خاتون بنت داوود بن ميكائيل، وقصد بذلك تعظيمه وتبجيله، ولئلا يجد الأعداء بهذه الوسيلة إلى قطع المودة بينهما"¹.

لكن سلطان طغرل بك لم يمكث في بغداد، وإنما اتخذ مدينة الري عاصمة جديدة له يقيم فيها، وبني له بيت في بغداد للإقامة فيه عندما يأتي زائراً إليها، ثم أنشأ السلالة نظاماً يقضي بأن يكون للسلطان نائب في بغداد، حتى يكون حلقة اتصال بين الخليفة والسلطان، يشاركه عدد كبير من التركمان يقيمون عنده بصفة دائمة لحفظ الأمن والنظام².

¹ - البنداري، المصدر السابق، ص 13.

² - ارشيد يوسف، سلالة الشام والجزيرة، المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، 1988، ص 215.

وبهذا نجح السلالة في أن يسيطروا سيطرتهم على دول كثيرة، وكونوا إمبراطورية كبيرة¹، انقسمت فيما بعد إلى عدة أقسام إدارية، هي: السلالة العظام الذين حكموا بلاد فارس والعراق²، وسلالة كرمان³، وسلالة الشام⁴. ويعتبر سلالة الأناضول⁵ أكثر فروع البيت السلجوقي عمرا في التاريخ السياسي والحضاري⁶.

¹ - وقد يكون هذا تفسير الرؤيا التي رآها سلجوق جدهم الأكبر، حيث رأى في منامه ذات ليلة أنه يبول نارا يتلظى شرارها في مشارق الأرض ومغاربها، فقال له المعبر: سيولد من نسلك ملوك يملكون أقاصي الأرض. الحسيني، المصدر السابق، ص 2.

² - بدأ السلالة العظام حكمهم بالسلطان طغرل بك بن سلجوق في شوال 429-455هـ/1037-1062م، وكانت عاصمتهم بلاد فارس، وانتهى حكمهم بالسلطان ركن الدين طغرل الثالث الخوارزم شاه الذي حكم سنة 571-590هـ/1175-1193م. ينظر: كليفورث، أ. بوزورث، المرجع السابق، ص 167.

³ - سلالة كرمان بدأت بحكم عماد الدين قاورد بن داود سنة 433-465هـ/1041-1072م، وانتهت بحكم محمد الثاني بهرامشاه الذي حكم سنة 579-582هـ/1183-1186م. كليفورث، أ. بوزورث، المرجع السابق، ص 168.

⁴ - سلالة الشام بدأت بحكم أبو سعد تاج الدولة تنش بن ألب أرسلان 471-488هـ/1078-1094م، وانتهت بحكم السلطان شاه بن رضوان تحت وصاية الأمير بدر الدين لؤلؤ سنة 508-511هـ/1114-1117م في حلب، وسلالة طغتكين والبوربون في دمشق. كليفورث، أ. بوزورث، المرجع السابق، ص 168.

⁵ - بدأ السلالة العظام غزو بلاد الأناضول على يد السلطان طغرل بك سنة 432هـ/1040م، وأحرزوا عدة انتصارات على القوى البيزنطية، أهمها في معركة ملازكرد 463هـ/1071م. وسلالة الأناضول (الروم): هم سلالة تركية تفرعت عن دولة السلالة الكبرى وحكمت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى وذلك بين عامي 469-707هـ/1077-1308م. أسس هذه الأسرة سليمان بن قتلمش السلجوقي، وتوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية في المنطقة المذكورة، وإليه وإلى خلفائه يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام في هذه المنطقة. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 388. ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، ص 124. للتوسع أكثر حول الموضوع ينظر: ابن بيبى، أخبار سلالة الروم - مختصر سلجوق نامه-، (ترجمة: محمد السعيد جمال الدين)، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 1993.

⁶ - منى محمد بدر محمد بهجت، أثر الحضارة السلجوقية في دول الشرق العالم الإسلامي على الأيوبيين والمماليك بمصر، ج 1، ط 1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002، ص 21.

ثانيا : النشاط السياسي والعسكري للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي : 447-521هـ/1055-1126م:

1 - القضاء على السيطرة البويهية الشيعية : (334هـ-447هـ/945م-1055م)

استتجد العباسيون بالبويهيين الفرس لتخليصهم من سيطرة الأتراك، وقد كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسؤولياتها وتجنب إثارة الفتن المذهبية، إلا أن هذا لم يتحقق، فقد حل البويهيون الفرس محل الأتراك في حكم فارس والعراق، ودخل الخليفة العباسي في مرحلة جديدة من الضعف وعدم السيطرة على مقاليد الحكم وأضحت الخلافة وأمورها في يد البويهيين. ويصف لنا ابن كثير ما آلت إليه الأمور بقوله: "وضعف أمر الخلافة جدا ولم يبق للخليفة أمر ولا نهى ولا وزير أيضا، وإنما يكون له كاتب على أقطاعه فقط، وإنما مورد أمور المملكة ومصدرها راجع إلى معز الدولة"¹.

إن الوضع السياسي في العراق، وتردي أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية في ظل البويهيين، دفعت بالخليفة العباسي إلى اللجوء إلى قوة السلاجقة كمحاولة للخروج من تلك المحن وإعادة قوة الخلافة وهيبتها²، الأمر الذي شجع طغرل بك على دخول بغداد، وهذا ما قام به فعلا في شهر المحرم من سنة 447هـ/1055م، وكان طغرل بك قد أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر، والقضاء على حكم المستنصر بالله العبيدي هناك³، وكان قصده من ذلك عدم إثارة شكوك الملك الرحيم البويهي حتى لا يستعد

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 256.

² - خالد عزام ، المرجع السابق، ص 256.

³ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص 322.

لحربه¹، فسار إلى همدان وأمر أتباعه بإعداد الأتقات والمؤن، وأرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله العباسي(422-467هـ/1031-1075م) يخبره بأنه يدين له بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد وهو في طريقه إلى مكة فأذن له، وأمر الخليفة بأن يخطب باسم طغرلبيك على منابر بغداد، وأن ينقشوا اسمه على السكة وَلَقَّبَهُ بالسلطان ركن الدول أبوطالب طغرلبيك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين².

وقد كان لدخول طغرلبيك بغداد الفضل الكبير في القضاء على نفوذ البويهيين الشيعة. إذ ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد، ونصروا مذهبها السني، بعد أن أوشكت على الانهيار ، وقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماما، فعلى الرغم من العهود التي أعطها طغرلبيك بعدم التعرض للملك الرحيم البويهي ومساندة الخليفة له، إلا أن طغرلبيك لم يرض بأن يكون له منافس في الخطبة والألقاب، فقرر إلقاء القبض عليه مع كبار معاونيه من الجند سنة 447هـ/1055م، وأرسله إلى قلعة طبرك بالري³، وظل هناك حتى توفي سنة 450هـ/1058م⁴، وفي ذلك يقول الذهبي: "وأما بغداد فخطب بها للسلطان طغرلبيك بعد القائم، ثم ذكر بعده الملك الرحيم وذلك بشفاعة القائم فيه إلى السلطان، ثم إن السلطان قبض على الملك الرحيم بعد أيام، وقطعت خطبته في سلخ رمضان، وانقرضت دولة بني بويه، وكانت مدتها مئة وسبعا وعشرين سنة، وقامت دولة بني سلجوق"⁵.

¹ - محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، المرجع السابق ، ص 66.

² - الراوندي، المصدر السابق ، ص169. الصلابي، المرجع السابق، ص46.

³ - نفسه ، ص169. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 120. محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 68.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 348.

⁵ - شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، دت ، ج9، ص 613.

كما تصدى السلاجقة للدولة العبيدية، فبعد سقوط الدولة البويهية تمكن طغرلبيك من القضاء على الفتن وإزالة ما على أبواب المساجد من سب الصحابة ، كما قام بقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب، لغلوه في الرفض¹.

2-فتنة البساسيري الإسماعيلي، ودور السلاجقة في القضاء عليها450-451هـ/1058-1059م²:

كان البساسيري³ في بداية حياته مولى لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، ثم تقلبت به الأحوال إلى أن ملكه الأمير البويهي بهاء الدولة فيروز (379هـ-403هـ/988م-1012م)، حيث بدأ حياته العسكرية كعبد تركي في خدمته، وتدرجت به المناصب حتى أصبح من كبار قواد الجند بمدينة بغداد ، فعظم شأنه واستفحل أمره وقويت شوكته⁴، خاصة بعد ضعف السلطة في بغداد وظهور التفكك والانحلال، بسبب تنافس أمراء بني بويه على السلطة، وتدخل الجند الأتراك في توليتهم وعزلهم، ففي سنة 432هـ/1040م استطاع البساسيري قائد الجيش الأتراك أن يساعد الأمير البويهي جلال الدولة أبا طاهر على توطيد سلطته في الأنبار وغيرها من البلاد، وذلك حينما حارب البساسيري قرواش بن المقلد أمير الأنبار بسبب خروجه عن طاعة البويهيين وإثارة الفتن وتحريض الأتراك ببغداد على الملك⁵.

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص465.الصلابي ، المرجع السابق ، ص 47

² - أبو الفداء، التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1995 ، ص 54.

³ - البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري، نسبة إلى بلدة في فارس يقال لها بسا والعرب تسميها فسا، والنسبة إليها بالعربية فسوي، ويقال لها بالفارسية بساسيري، وكان مولاه رجلا من أهل بسا فنسب أرسلان إليه ، فاشتهر بالبساسيري، ولُقب بالمظفر. ينظر: ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق، ج5، ص222، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج18، ص 132

⁴ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج5، ص 222. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص 170

⁵ - ابن الأثير، المصدر السابق ، ج8، ص246

وفي سنة 444هـ/1052م ساعد البساسيري الملك الرحيم البويهى في الاستيلاء على البصرة، عندما تغلب على الأمير علي بن أبي كاليجار البويهى، وضم البصرة إلى أملاك الملك الرحيم، وفي سنة 445هـ/1054م نكل البساسيري بجماعات من الأعراب والأكراد عاثوا فسادا في العراق¹. وهكذا ازداد نفوذ البساسيري في بغداد، وأصبح يتمتع بمكانة رفيعة لدى الخليفة الذي عينه مقدما للأتراك ببغداد.

فحين شارف السلاجقة العظام على العراق، كان أبو الحارث أرسلان البساسيري القائد التركي المتشيع يسيطر على بغداد وما جاورها، ويتمتع بنفوذ كبير، لدرجة أنه أضحى يخطب له على المنابر في العراق والأهواز، ولم يعد بإمكان أي من الخليفة العباسي أو الملك البويهى اتخاذ أي قرار يتعلق بأمور الدولة إلا بعد موافقته، وقد شكل هذا القائد خطرا حقيقيا على الخلافة العباسية والدولة البويهية².

ولم يكن الملك الرحيم -آخر ملوك البويهيين- من القوة بحيث يستطيع حمايتها من هذا الخطر الجديد، فكان لابد للخليفة العباسي القائم أن يلتمس العون من أية قوة خارجية تستطيع إقالته من عثرته، وكانت القوة الأقرب ما تكون إليه هي قوة الأتراك السلاجقة، فأرسل الخليفة القائم إلى طغرلبيك يستدعيه إلى بغداد، ويتعجله في ذلك بسبب تعاظم خطر البساسيري³.

¹ - نفسه، ج8، ص 309-314.

² - جمال الدين الأزدى، المصدر السابق، ص 427.

³ - الراوندي، المصدر السابق، ص 171، جمال الدين الشيبان، المرجع السابق، ص 105.

كان البساسيري قد تأثر بالدعوة العبيدية عن طريق داعي الدعاة هبة الله الشيرازي (ت470هـ/1077م)¹، فأصبح يكاتب المستنصر بالله العبيدي (427-487هـ/1036-1094م) صاحب مصر²، ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة العبيدية، وتدهورت العلاقة بين الخلافة العباسية والبساسيري حين علم هذا الأخير بالاتصالات السرية التي كانت تجري بين الخليفة القائم بأمر الله والسلاجقة، وخاصة بعد مكاتبة الخليفة لهم بالمسير إلى العراق³، وتدهورت العلاقة أكثر لما علم الخليفة عن طريق الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة أن البساسيري يكاتب العبيديين ويعمل على الإطاحة بالخلافة العباسية، فأمر الخليفة القائم بإبعاده عن بغداد⁴.

وفي الوقت نفسه حرض الوزير ابن مسلمة الأتراك والعامة على الاعتداء على أملاك البساسيري في بغداد، بعد ما ظهرت ميوله الشيعية وظهرت نواياه السيئة للخلافة العباسية وأهل السنة، وانفض أكثر من كان مع البساسيري، وعادوا إلى بغداد ثم أجمعوا على قصد دار البساسيري فأحرقوها وهدموا أبنيتها⁵. وفضلا عن ذلك أخذ ابن المسلمة يؤلب الأتراك

¹ - هو أبو النصر بن عمران - هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي المعروف بالمؤيد في الدين، عرف في تاريخ الأدب العربي برسائله التي ناظر بها أبا العلاء المعري في موضوع أكل اللحم. ولد في شيراز سنة 390هـ/1000م، وتلقى العلوم بها، وفي سنة 438هـ/1046م فر إلى مصر واستقر بها زمن الخليفة العبيدي المستنصر بالله وأصبح داعي دعاة العبيديين. وبعد أن استطاع هبة الله الشيرازي أن يدخل أبا كاليبجار البويه في عقيدته، تمكن بعد اتصاله بالعبيديين من جذب قلوب أمراء العشائر في سورية والعراق، وهي التي كانت تتقلب وتتردد بين العباسيين والعبيديين، كما تمكن من إغراء القائد العباسي البساسيري على الثورة وخلع القائم بأمر الله الخليفة العباسي وتم له ذلك، توفي 470هـ/1077م.

- ينظر: رسالة الدوحة، لهبة الله الشيرازي ضمن كتاب: ثلاث رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص39، 38. مقدمة كتاب: المؤيد في الدين، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تقديم: محمد كامل حسين، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1949.

² - ابن تغريدي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 59

³ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص325. ابن تغريدي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 59.

⁴ - ابن ميسر، المننقى من أخبار مصر، انتقاء: المقريزي، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981، ص20

⁵ - الأزدي، المصدر السابق، ص 428.

البغداديين على قائدهم البساسيري، واتهامه بأنه المتسبب في نقص رواتبهم وسوء أحوالهم، فاستأذنوا الخليفة في نهب ممتلكات البساسيري فأذن لهم، خاصة بعد أن أخبروه عن عزم البساسيري في نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة¹.

في هذه الأثناء راسل الخليفة المستنصر بالله العبيدي الخليفة العباسي القائم بأمر الله، لتخفيف الموقف بينه وبين البساسيري في الظاهر، بينما كان يهدف إلى انتزاع اعتراف غير مباشر بالدولة العبيدية في مصر، إلا أن العباسيين أدركوا هذه الحقيقة، فقبل خطابه بجفوة بالغة، الأمر الذي زاد من حماس العبيديين في تأييد حركة البساسيري².

ومن جهة أخرى نجد أن طغرل بك اضطر للخروج من بغداد سنة 450هـ/1058م، لمحاربة أخيه إبراهيم ينال الذي خلع عليه الطاعة³، بعد أن نجح البساسيري في تحريضه على الانفصال عن أخيه طغرل بك، حيث يقول ابن الأثير: "وفي هذه السنة فارق إبراهيم ينال الموصل نحو بلاد الجبل، فنسب السلطان طغرل بك رحيله إلى العصيان... وكان قد قيل أن المصريين والبساسيري قد استماله وأطمعه في السلطنة والبلاد، فلما عاد إلى همدان سار السلطان في أثره"⁴.

وفي هذا السياق يمكننا القول بأن البساسيري والعبيديين قد خططوا للأمر كخطوة أولى لإخراج طغرل بك من بغداد بهدف دخولها والسيطرة عليها، خاصة بعد أن ضمن البساسيري مساندة المستنصر العبيدي له وكثرة الأتباع في الرحبة القريبة من بغداد، فما كان منهم إلا أن حرضوا إبراهيم ينال على أخيه طغرل بك.

¹ - الصلابي، المرجع السابق، ص 54.

² - محمد سالم بن شديد العوفي، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي، مجلة عالم الكتب، المجلد الثالث، العدد 1، السعودية، 1982، ص 24.

³ - البنداري، المصدر السابق، ص 191. الراوندي، المصدر السابق، ص 171.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 341.

استغل البساسيري الفرصة وقصد بغداد، بعد أن خرج منها طغرل بك، وسار معه قريش بن بدران العقيلي في مائتي فارس، فدخلها في الثامن من ذي القعدة سنة 450هـ/1058م، بالرايات المستنصرية وعليها ألقاب المستنصر العبيدي بمصر¹، وساعده في ذلك أهل باب الكرخ لكونهم من الرافضة، فانضموا إلى البساسيري، "وتشفوا من أهل السنة ببغداد، وشمخت أنوف المنافقين الرافضة، وأعلنوا بالأذان: حي على خير العمل"²، وعاث جمع البساسيري فسادا، وأقام الدعوة بالعراق للمستنصر العبيدي سنةً وفعل القبائح، وانتقم من أعيان أهل بغداد انتقاما عظيما³.

وفي يوم الجمعة 13 ذي القعدة 450هـ/1058م خطب للمستنصر العبيدي في جامع المنصور ببغداد، وقطعت الخطبة للعباسيين، ثم أقيمت الخطبة للعبيديين في جميع مساجد بغداد⁴، وقد كانت بغداد حينها خالية من المقاتلة الذين يدافعون عن الخليفة وحاشيته بعد أن خرج طغرل بك في إثر أخيه إبراهيم، وخرجت الخاتون زوجة طغرل بك في أغلب الجيش إلى همدان لنصرة زوجها المحاصر، فيما خرج الوزير الكندري في بقية الجيش إلى الأهواز⁵، وبعد أن تُهبت دار الخلافة اضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه⁶، بلغ البساسيري ذلك فراسل قريش يعاتبه: "أتذم لهما وقد استقر بيني وبينك ما استحلقتك عليه"، وكانا قد تعاهدا أن لا ينفرد أحدهما بأمر دون الآخر، فاقترح

¹ - عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي، سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج3، ص564.

² - ابن تغريدي، النجوم الزاهرة، ج5، ص7.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص472-473، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص133.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص342، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج9، ص616.

⁵ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص472. العاصمي، المصدر السابق، ج3، ص563.

⁶ - ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص33. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص473.

عليه قريش أن يأخذ هو الخليفة ويكون للبساسيري رئيس الرؤساء ابن المسلمة، فأجابه لذلك¹.

فأرسل قريش بن بدران الخليفة إلى حديثة عانة²، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر³، ولكنه أرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لاحق لبني العباس ولا له-الخليفة القائم- في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظا بدار الدولة العبيدية-حتى استولى صلاح الدين الأيوبي على محتوياته 567هـ/1171م- وأرسل البساسيري إلى الخليفة العبيدي ثوب الخليفة العباسي وعمامته وشباكه⁴. وهذا كله دليل على شدة إخلاص البساسيري للخليفة العبيدي المزعوم.

وبعدما استقر الأمر للبساسيري في بغداد عمل على التخلص من غريمه الوزير أبا القاسم بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء، فلما كان يوم الاثنين 28 ذي الحجة 450هـ، أحضر الوزير، وأمر بصلبه بعد أن نكل به في الأسواق وهو يتلوا قوله تعالى: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ

¹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، ص 33.

² - العانة الجماعة من حمر الوحش، وتجمع على عانات، وحديثة عانة: هي بلدة بين حلب وبغداد، وهي مشهورة ومشرفة على الفرات، ويضرب بما حدث فيها المثل فيقال: "كأنه قد جاء برأس البساسيري، وإذا كره أهلها ظلما قالوا الخليفة إذا في عانة"، الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 72. العاصمي، المصدر السابق، ج 3، ص 565.

³ - طقوش، تاريخ السلاجقة في خراسان و إيران و العراق، ص 80.

⁴ - يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 73.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"¹ وقد سبه أهل الكرخ لتعصبه لأهل السنة²، وكان آخر كلامه: "الحمد لله الذي أحيانني سعيداً أماتني شهيداً"³.

ومن جهة أخرى أرسل البساسيري إلى المستنصر العبيدي يلتزم منه المدد السريع بالمال والخيول والسلاح، لإظهار الدعوة العبيدية في العراق وتدعيمها ببغداد، كما تبادل الرسائل مع الداعي هبة الله الشيرازي الذي كان آنذاك في القاهرة⁴.

أولى المستنصر رسالة البساسيري اهتماماً جدياً، ووافق على التماسه، على الرغم مما كانت تعانيه مصر من غلاء وأزمة اقتصادية حادة، فيما عرف بالشدة المستنصرية(450-466هـ)⁵، وجاء في كتاب النجوم الزاهرة: "إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من مال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف ومن الرماح، والنشاب شيء كثير"⁶.

¹ - سورة آل عمران، الآية: 26.

² - ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 344. البنداري، المصدر السابق، ص 191.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص474.

⁴ - محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في خراسان و إيران و العراق، ص 76.

⁵ - كانت الشدة المستنصرية أزمة شاملة سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية ألّمت بالخلافة العبيدية وتتلخص أسبابها بضعف الخلافة وسوء سياسة أم المستنصر وفساد الإدارة والصراع بين طوائف الجند، وابتداء الفساد واختلت الأحوال من سنة 450هـ واستمر الأمر على ذلك إلى سنة 457هـ/1064م حيث اشتدت الأزمة إلى سنة 466هـ/1073م، فكانت السبع سنوات الممتدة من 457-464هـ أشد سنوات الأزمة، ولم تنته إلا بقدوم أمير الجيوش بدر الجمالي من الشام الذي أحدث تعديلات وإصلاحات جذرية كان من شأنها القضاء على الشدة، وقد أدى ذلك إلى تحول الدولة العبيدية من عصر القوة والإزدهار إلى عصر الضعف والانحيار ومن عصر سيطرة الخليفة على زمام الأمور إلى عصر سيطرة الوزراء العظام. للاطلاع أكثر على الشدة المستنصرية ينظر: ابن ميسر، المصدر السابق، ص58. ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص10-12، تقي الدين المقرئ، إغاثة الأمة بكشف الأمة، تحقيق: بدر الدين السباعي، دون دار النشر والبلد، 1956. أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، بيروت، ط1، 1988. ص53. عيسى العزام، الشدة العظمى وأثارها على الخلافة الفاطمية، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، 2001، ص770-784.

⁶ - ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 13، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص133.

ومن جهة أخرى أرسل الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م) وهو في الأسر رسالة إلى السلطان طغرلبيك يستتجد به¹، وكتب له رسالة جاء فيها: "بحق الله أدرك الإسلام، فقد ساد العدو اللعين، وأخذ ينشر مذهب القرامطة"²، فغضب السلطان لذلك، وقال أن هذه الحركات دليل على دناءة أصله، فمن رضى من نفسه الإساءة شهد على أصله بالدناءة"³.

إلا أن الظروف القاسية التي مرت بها مصر في تلك الآونة بسبب الأزمة الاقتصادية حالت دون توالي الإمدادات والمساعدة من المستنصر بالله (427-487هـ/1036-1094م) إلى البساسيري، الأمر الذي انعكس على ثورته وجعلها تنتهي سريعا⁴، ذلك أن طغرلبيك أسرع إلى نجدة الخليفة بعد أن قضى على تمرد أخيه الذي تغلب عليه بالقرب من الري وقتله سنة 451هـ/1059م⁵، فكاتب كلا من البساسيري وقريش بن بدران يطلب إليهما إعادة الخليفة إلى بغداد، على أن لا يدخل هو بغداد ويكتفي بالخطبة والسكة⁶، وطلب إلى قريش بن بدران أن يكون الخليفة في حمايته⁷ وكان الخليفة عند مهارش بن المجلى أمير حديثة عانة⁸، والذي عزم على المسير بالخليفة إلى بغداد في 11 ذي القعدة 451هـ/1059م⁹ لكن

¹ - البنداري، المصدر السابق، ص 191.

² - الراوندي، المصدر السابق، ص 172.

³ - نفسه، ص 173.

⁴ - إبراهيم أيوب، المرجع السابق، ص 188.

⁵ - الراوندي، المصدر السابق، ص 171.

⁶ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 345.

⁷ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، ص 45.

⁸ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18، ص 133.

⁹ - يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 74.

قريش بن بدران سعى ليحول دون عودة الخليفة القائم إلى بغداد بدون جدوى، ورأى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدي إلى عدول السلطان طغرل بك عن دخول العراق¹.

لكن طغرل بك لما علم بخروج الخليفة من حديثة عانة، أرسل وزيره الكندري لاستقباله وصحبه الأمراء والحجاب، وفي 24 ذي القعدة 451هـ/1059م، وصل الخليفة العباسي إلى نهروان بالقرب من بغداد، فخرج طغرل بك إلى استقباله وقبّل الأرض بين يديه، واعتذر له بسبب تمرد أخيه عليه فشكره الخليفة وقلده سيفاً²، ثم استأذن طغرل بك الخليفة لملاحقة البساسيري ومحاربتهم، فأذن له بعد أن أوصله طغرل بك إلى حدود بغداد³.

بذل البساسيري جهوداً في خدمة الدولة العبيدية لنشر النفوذ العبيدي في بغداد، إلا أنه لم يتلق من المستنصر ما يشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على العراق، ويبدو أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده، كما أن ثقته في هذا الرجل قد تزعزعت بسبب الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي (450-452هـ/)⁴، وكان هذا الوزير قد رحل إلى بغداد وانضم إلى البساسيري، وما لبث أن انقلب عليه، وفر إلى مصر وضم للمستنصر فعله وخوفه من سوء عاقبته⁵، فخشي المستنصر، ولم يجب على رسله التي استجذبت به في دار الخلافة بمصر، ولم يقدّم بأي عمل جدي لنجدة، وعلى الرغم من ذلك حرص البساسيري

¹ - طقوش ، تاريخ السلاجقة في خراسان و ايران و العراق ، ص 81.

² - البنداري ، المصدر السابق، ص 192. ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، ص 5.

³ - يوسف أبو النصر، المرجع السابق ، ص 74.

⁴ - هو الوزير الأجل الكامل الأوحّد أبو الفرج محمد بن جعفر بن علي بن الحسين المغربي ، تولى ديوان الجند ثم تولى الوزارة بعد عزل المستنصر للوزير اليازوري في ربيع الثاني 450هـ/ 1058م وعزل عنها في رمضان 452هـ/1060م، وتولى بعدها ديوان الإنشاء، توفي سنة 478هـ/1085م. ينظر: ابن الصيرفي، المصدر السابق ، ص 47-48. ابن ميسر، المصدر السابق ، ص 18.

⁵ - ابن تغريبردي ، المصدر السابق ، ج 5، ص 13.

على الإخلاص للمستنصر، فتابع غاراته في بلاد العراق فاستولى على واسط والبصرة وأقام فيهما الخطبة للمستنصر¹.

ويلق ابن تغري بردي على اتساع نفوذ العبيديين على يد البساسيري بقوله: "وفي الجملة أن الذي حصل للمستنصر في هذه الواقعة، من الخطبة باسمه في العراق وبغداد لم يحصل ذلك لأحد من أبائه وأجداده، ولولا تخوف المستنصر من البساسيري وتحريضه على ما هو بصدده لكانت دعوته تتم بالعراق زمنا طويلا"² ثم أردف يُعلق على الأمر بقوله: "ولله الحمد على مافعله المستنصر من تقصير في حق البساسيري، وإلا لكانت السنة تذهب بالعراق وتملكها الرافضة بأجمعها"³.

وبعد أن علم البساسيري بوصول طغرل بك إلى بغداد فر إلى حلة دبب بن علي بن مزيد بالكوفة⁴، فسير طغرل بك وراءه جيشا كبيرا لقتاله في 8 ذي الحجة 451هـ/1059م⁵، بقيادة خماتكين الطغراني على رأس ألفي فارس، حيث ضم في طريقه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجي، وسار بنفسه في إثرهم، ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند الكوفة في 15 ذي الحجة 451هـ/1059م، أسفرت عن انتصار السلاجقة ومقتل البساسيري⁶، وقد علق ابن ميسر على فشل ثورة البساسيري بقوله: "وكانت هذه الحادثة آخرة سعادة الدولة المصرية فإن الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل ولم يبق لهم سوى ملك مصر"⁷، فقد تمكن السلاجقة من السيطرة على دمشق والآنزياح في جنوب الشام وشماله فقامت لهذا مع إخفاق

¹ - سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، ص 81.

² - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 13.

³ - نفسه، ج 5، ص 13.

⁴ - البنداري، المصدر السابق، ص 193.

⁵ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 347.

⁶ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18، ص 133. سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، ص 82.

⁷ - ابن ميسر، المصدر السابق، ص 21.

البساسيري ردت فعل كبيرة في القاهرة، حيث تمرد بعض قادة الجند على الخليفة وأرادوا التحكم فيه، وتمكن في سنة 467هـ / 1074م أحد الضباط من أصل أرمني واسمه بدر الجمالي من الاستيلاء على مقاليد الأمور في القاهرة، بعد أن كانت السلطة العليا في يد الخليفة العبيدي¹.

وهكذا أصبح طغرل بك هو سيد الموقف بلا منازع في البلاط العباسي، "إذ كانت له يد عظيمة على القائم في إعادة الخلافة إليه، وقطع خطبة المصريين التي أقامها البساسيري"².

وهذا ما زاد من نفوذ السلاجقة في العراق بعد أن قضوا على أخطر ثورة فكرية وعسكرية هددت الخلافة العباسية، والتي لو قدر لها النجاح لتغير وجه التاريخ الإسلامي كله، ولزالت الخلافة العباسية من الوجود سنة 450هـ / 1058م، قبل زوالها على يد المغول سنة 656هـ / 1258م، وبدأ طغرل بك ييسر سلطانه على العراق، فاستقر جنده ببغداد واستأثر بالسلطة دون الخليفة العباسي حيث أقام نظاماً جديداً للحكم في دار السلام - بغداد - اتبعه فيه معظم السلاطين من بعده، وهو الفصل بين سياسة الخليفة وسلطانه الروحي، وبين السلطات في المدينة، ومنذ هذا العهد استقر الأمر في بغداد على أن الخلفاء هم القادة الروحيون بينما السلاطين السلاجقة هم الحكام الفعليون المدنيون، وصارت هذه الثنائية أمراً معترفاً به³.

وتتجلى أهمية حركة البساسيري وانتصار طغرل بك عليه بالنسبة لموضوعنا عن الشيعة، في أنها تعتبر في حقيقة الأمر أول انتصار وظهور للحضارة السلجوقية والمذهب السني على الحضارة العبيدية والمذهب الشيعي في مصر، وفي أن الحضارة السلجوقية بدأ نجمها

¹ - أمينة البيطار، سهيل زكار، تاريخ الدولة العربية بالشرق، من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ط3، 1999، ص 85.

² - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18، ص 110.

³ - يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 75.

في الصعود حتى على حضارة الخلافة العباسية نفسها التي لم تتمكن من حماية نفسها وسقطت أمام الغزو الشيعي.

وعليه أصبح السلاجقة هم حماة الخلافة العباسية السنية وذلك منذ دخولهم بغداد نجدة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (422هـ - 467هـ / 1030م - 1074م)، لحمايته من أبي الحارث البساسيري الذي حاول إسقاط الخلافة العباسية السنية وإقامة الدعوة على منابر بغداد للخلافة العبيدية الشيعية.

لم يقنع طغرل بك بما نال من سلطة واسعة، وما هو فيه من نعمة يتقلب في مطارفها، بل تآقت نفسه لتوثيق صلاته أكثر بالخليفة العباسي القائم بأمر الله، ففكر في الزواج من ابنته، وتدعى سيدة النساء، فانزعج الخليفة لذلك انزعاجا شديدا، ولم يكن راضيا عن هذا الزواج، ولعله كان يرى في ذلك طمع طغرل بك في أن يكون خليفة من بعده¹، وامتنع عن الموافقة عليه بادئ الأمر، فغضب السلطان طغرل بك لهذا الموقف الرافض، واعتبره إهانة له فقال: "هذا جزائي من الإمام القائم، وقد قتلت أخي في طاعته²، ووهبت عمري لساعته، وأنفقت أموالا في خدمته، وطلبت فقري لثروته، فما باله ما يبالي برد قلبي، وقام بردي وصدّ قصدي"³.

ومن الواضح أن الخليفة أنف لزوج ابنته من السلطان السلجوقي؛ لأنه لم تجر العادات العباسية بذلك⁴، وأوشكت القطيعة أن تقع بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرل بك، إلا

¹ - حسن حبشي، المقال السابق، ص 304.

² - يشير إلى أخيه إبراهيم ينال الذي قتله السلطان عندما عصى عليه سنة 450هـ/1058م. البنداري، المصدر السابق، ص 191. الراوندي، المصدر السابق، ص 171.

³ - البنداري، المصدر السابق، ص 22، 23.

⁴ - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2005، ص 364.

أن الخليفة ضعف فرضخ لطلب السلطان، وزفت ابنته إلى السلطان بتبريز سنة 454هـ، ثم نقلت إليه في الري، لكنه توفي قبل دخوله بها¹.

وقد علّق الذهبي على هذا الزواج في أحداث سنة 454هـ/1061م بقوله: "زوج الخليفة بنته بطغربك، بعد أن دفع بكل ممكن وانزعج واستعفى، ثم لان لذلك برغم منه، وهذا أمر لم ينله أحد من ملوك بني بويه، مع قهرهم للخلفاء وتحكمهم فيهم"².

ويستنتج من تصرفات طغربك أنه كان يرمي من خلال هذه المصاهرة أولاً إلى إضفاء الشرعية التامة على سلطته، بالإضافة إلى توطيد وتدعيم العلاقات مع الخلافة العباسية؛ حتى لا تفقد الأمور بينهم فيما بعد، وحتى يكون لهم مطلق الصلاحيات في التصرف في شؤون الدولة. وقد أثبتت الأحداث أن السلاجقة استعملوا تلك السلطة والصلاحيات لصالح وحدة العالم الإسلامي والقضاء على الفرق المناوئة الرامية إلى إضعاف الخلافة، ومن أهمها الفرق الشيعية.

3- دور الملك ألب أرسلان³ في مقاومة الوجود الشيعي :

هو "السلطان الكبير، الملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع ، ألب أرسلان، محمد بن السلطان جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تغلق التركماني، الغزي، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم"⁴.

¹ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 357. أبو المظفر يوسف بن قُز أُوغلي بن عبد الله سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق : علي سويم ، مطبعة الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة، 1968، ص 102. في حين نجد أبا الفدا يذكر أن طغربك قد دخل بابنة الخليفة قبل وفاته، ينظر: أبو الفداء، المصدر السابق، ج 2، ص 183.

² - شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 10، ص 9.

³ - ومعنى ألب أرسلان: الأسد الظافر. ينظر: الصرفي رزق الله منقريوس، تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، 1907، ج 2، ص 98.

⁴ - الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج 18 ، 414.

مات عمه طغرل بك دون أن يخلف ولدا ذكرا¹ لولاية عهده، فكان ذلك سببا في إثارة التنزع حول عرش السلاجقة، فمن يخلف طغرل بك على العرش؟ وجاءت الوفاة المبكرة لجغريبك الأخ الأكبر لطغرل بك سنة 451هـ/1059م²، سببا آخر من أسباب النزاع حول السلطة، خاصة بعد أن تزوج طغرل بك بأرملة أخيه والتي كان لها ابن منه لم يتجاوز الرابعة هو سليمان، فتمكنت بحسن دهائها أن تجعله وليا للعهد، فعهد طغرل بك بالملك إلى سليمان أخ ألب أرسلان غير الشقيق، فحاربه هذا الأخير وعمه قتلتمش، فتلاشى أمر سليمان وآل ملك السلاجقة إلى السلطان ألب أرسلان³، الذي أبلى البلاء الحسن في مواصلة جهود طغرل بك وتوسيع ممتلكات السلاجقة في ظل الخلافة العباسية طبعاً.

ولم يكد التنزع على العرش السلجوقي ينتهي لصالح السلطان ألب أرسلان واستتباب الأمور له حتى لاحت في الأفق السياسي ملامح بروز مشاكل جديدة كانت أولها التنافس على منصب الوزارة بين عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرل بك ونظام الملك⁴ وزير السلطان ألب أرسلان، وكان عميد الملك الكندري قد تقرب إلى السلطان بالهدايا حين وصوله إلى الري، وأكد ولاءه له، وقد عرف عن الكندري ميل كثير من الجند إليه، بسبب إغداقه المال عليهم، فتخوف السلطان ووزيره من مغبة الأمر، وألقى القبض عليه، وأنفذه إلى نيسابور، حيث حبس في دار عميد خراسان، ثم نقل إلى مرو، حيث اعتقل لسنة ثم قتل سنة

¹ - الصفدي، المصدر السابق، ج 5، ص 104

² - هو السلطان داود بن الأمير ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركماني، السلجوقي، صاحب خراسان، ووالد السلطان ألب أرسلان وأخو صاحب العراق والعجم طغرل بك، وهما أول الملوك السلجوقية، استولوا على الممالك وأبادوا الدولة البويهية، عاش سبعين سنة امتدت أيامه إلى أن توفي بسرخس، في رجب سنة 451هـ/1059م، وقيل سنة 452 هـ /1060م، فنقل ودفن بمرو. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص 106.

³ - نفسه، ج18، ص 414. ابن خلكان، المصدر السابق، ص 69

⁴ - سنتطرق إلى ترجمة الوزير نظام الملك ومكانته السياسية ومقتله على يد الباطنية في الصفحة 145 من هذا البحث.

456هـ/1063م¹ ليخلو المجال أمام الوزير نظام الملك الذي كان له الدور البارز في مقاومة الوجود الشيعي نأتي على ذكره في الدور العلمي المذهبي للسلاجقة.

بعد هذه النزاعات حول السلطة كان على السلطان ألب أرسلان أن يحصل على اعتراف الخليفة حتى يضيف الشرعية على حكمه، فكان منه أن بادر بربط هذه العلاقة بالتقرب من الخليفة، بأن أرسل ابنته، أرملة السلطان طغرلبيك، إلى بغداد وهو على علم أن هذا الزواج تم دون رضا الخليفة، وزودها بخمسة آلاف دينار لنفقة الطريق، فوصلت إلى بغداد عشية يوم الأحد ثالث عشر ربيع الآخر 456هـ/1066م وكان في صحبتها القاضي أبو عمر محمد بن عبد الرحمن، الذي شكر ألب أرسلان ووزيره نظام الملك في مجلس الخليفة، فأتى جواب الخليفة يتضمن شكر ألب أرسلان، والاعتداد بخدمته في تسيير السيدة، وأمر الخطباء بإقامة الدعوة له على المنابر ولقبه بالسلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ألب أرسلان محمد بن داود².

وهكذا حقق السلطان ألب أرسلان ما كان يرمي إليه، وهو إضفاء الشرعية على حكمه، واستقطاب الخليفة العباسي إلى جانبه، والملفت للنظر أنه لم تتح له الفرصة لزيارة العراق ولم يدخل بغداد طيلة فترة حكمه، لكننا نلاحظ استمرار الحال كما كان عليه أيام السلطان طغرلبيك من استئثار السلطان السلجوقي بالسلطة من دون الخليفة، ففي سنة 456هـ/1065م، أخذ الملك ألب أرسلان العهد بالملك من بعده لابنه ملكشاه، وأمر بأن يخطب له في جميع البلاد التابعة له ومنها بغداد حسب ابن كثير³.

¹ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 8، ص 364 . الحسيني ، المصدر السابق، ص 69. أبو الفداء، المختصر، ج2، ص 184.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 86، 87.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ص 490.

ولكن ابن الأثير يذكر أن ألب أرسلان لم يطلب البيعة لملكشاه من الخليفة العباسي إلا سنة 464هـ/1071م¹. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على جرأة السلطان ألب أرسلان على مكانة الخليفة ومدى سطوته ومكانته التي جعلته لا يأخذ برأي الخليفة في ذلك التعيين حتى وقت لاحق .

4- الصراع بين السلاجقة والعبديين :

إن الإدعاءات التي زعمها خلفاء الدولة العبيدية في أنهم من سلالة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم الأحق بخلافة المسلمين، بالإضافة إلى المنكرات التي مارسوها ضد أهل السنة في بلاد المغرب والشرق كانت من بين الأسباب الرئيسية في تشكيل رد فعل حكام السلاجقة السنيين، فبعد أن توطدت أقدام السلاجقة في بغداد جعلوا من مقاومة الوجود الشيعي في العالم الإسلامي أهم مشاريعهم خاصة بعد القضاء على فتنة البساسيري كما وضعنا سابقاً، فتفرغوا للجهاد على جبهتين الجبهة الصليبية والجبهة الشيعية العبيدية التي طالما قوضت أمن الخلافة العباسية السنية في العالم الإسلامي .

لم يتمكن السلطان طغرلبيك من دخول حرب مع العبيديين، لأنه توفي بعد دخوله بغداد بقليل عام 455هـ/1062م، فرأى السلطان ألب أرسلان ضرورة محاربة العبيديين، واسترداد بلاد الشام منهم ، وكان ذلك إيذاناً ببداية الصراع بين السلاجقة والعبديين حول بلاد الشام، والذي انتهى بإضعاف القوتين ومهد فيما بعد الطريق أمام الصليبيين للاستيلاء على كثير من مدنه بدون عناء .

¹ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص391.

أ- جهود السلاجقة لاسترداد الشام وبيت المقدس من العبيديين:

أرسل السلطان ألب أرسلان ابنه ملكشاه على رأس جيشه إلى حلب سنة 1069/462، بعد أن تفرغ هو لمقاومة البيزنطيين، فقبل أنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الإسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان، فكان هو أول زعيم تركي أخضع أراضي غرب آسيا القديمة¹.

كان محمود بن نصر بن صالح بن مرداس العقيلي² واليا على حلب من قبل العبيديين³، ويبدو أن محمودا هذا خشي من قوة السلاجقة خاصة وأنه لم تكن له قوات كبيرة تُمكنه من الصمود في وجههم، بالإضافة إلى أنه أحس بأن الدولة العبيدية تمر بمرحلة ضعف وفقد الأمل في الحصول على مساعدة منها⁴، لذا فضّل أن يعلن انضمامه للسلاجقة، فحذف إسم الخليفة العبيدي من الخطبة ولبس المؤذنون والخطيب السواد، وخطب للإمام القائم العباسي، وبعده للسلطان ألب أرسلان، وبعده لمحمود⁵.

¹ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 69. أرمينيوس فامبري ، تاريخ بخارى ، ترجمة: أحمد محمود الساداتي، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، 1872. ص 136. محمود مقديش، المصدر السابق ، ص 308.

² - صاحب حلب ، الملك عز الدولة محمود بن الملك صالح بن مرداس الكلابي ، تسلم حلب من عمه عطية ، فولبها عشر سنين، وكان شجاعا مهيبا، جوادا يداري الدولتين العبيدية والعباسية، توفي سنة 467هـ، وتملك بعده ابنه الأمير نصر، وأم نصر هي بنت الملك العزيز بن جلال الدولة بن بويه ، وقتل نصر بعد سنة بظاهر حلب. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18، ص 358-359.

³ - Taef kamal EL-Azhari , The *Saljuqs* of Syria During the Crusades 463-549 A.H/1070-1154A.D.Foreword by C.E.Bosworth .klaus schwarz verlag.BERLIN. 1997.p : 25.

⁴ - حامد زيان غانم زيان ، الصراع السياسي العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1989، ص 41، 42.

⁵ - ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق : سهيل زكار ، دار الكتاب العربي، دمشق، ط 1، 1997، ج 1، ص 259.

والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحيتين السياسية والعسكرية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير موقف البيزنطيين من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقات مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيدا عن قواعده الخلفية. وقد اشتدت في هذه الأثناء غارات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان مدينة أرتاح في 461 هـ/1067م¹، بالسيف بعد أن حاصرها خمسة أشهر: "وكان فتح أرتاح فتحا عظيما لأن عملها قريب من أعمال الشام"².

فنهض الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجانس³، ليمنعهم من التوغل أكثر في أراضيه، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام سنة 462 هـ/1069م فهاجم منطقة حلب ونزل على مدينة منبج عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق وأرمينية والأناضول وبلاد الشام، وهزم قوات محمود بن نصر المرداسي وبني كلاب، وابن حسان الطائي ومن معهم من العرب، إلا أن الإمبراطور انسحب من المنطقة وعاد إلى بلاده لنفاذ المؤونة⁴، وأيضا بسبب ورود أخبار عن توغل قوات تركية بقيادة الأفشين في عمق الأراضي البيزنطية، وفتحها مدينة عمورية، وأنها بصدد التوجه نحو القسطنطينية.

وفي زخم هذه الأحداث نجد أن محمود بن نصر أعاد مرة أخرى الخطبة للعبيديين في العام التالي سنة 463 هـ/1070م، مما دفع بالسلطان ألب أرسلان إلى الزحف بنفسه إلى

¹ - Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p :30-31.

² - ابن العديم ، المصدر السابق ، ج1، ص 256.

³ - اسمه الإمبراطور رومانوس الرابع، ولقبه ديوجانس الذي يعني: حامي الثغور أو الحدود. ابن العديم ، المصدر السابق، ج1، ص 257.

⁴ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص 384.

حلب، وفرض عليها الحصار مدة حتى استسلم محمود الذي خرج إلى السلطان ألب أرسلان مع والدته منيعة بنت وثاب النميري يلتزمان الصلح، حيث قالت والدته: "هذا ولدي قد جئتكم به فافعل ماتحب، وقد اعترفنا وعرفنا أن سلامتنا إلا بسلمك لا تستتب ، فعفا السلطان وصفح"¹، ومنذ ذلك الحين دانت حلب والمدن الشمالية للنفوذ السلجوقي².

لم تتوقف جهود ألب أرسلان التوسعية على حساب أملاك الدولة العبيدية عند هذا الحد بل أنه أرسل قائد الترك يوسف بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام، فانترع مدينة الرملة وبيت المقدس وأخذهما من نواب الخليفة المستنصر العبيدي سنة 463هـ/1070م³، ولم يستطع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحي السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس⁴.

وأثناء ذلك سنة 462هـ/1069م ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم إلى السلطان ألب أرسلان، وهو بخراسان، يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم العباسي وللسلطان⁵، وإسقاط خطبة حاكم مصر المستنصر العبيدي وترك الأذان بحي على خير العمل، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار⁶.

¹ - البنداري ، المصدر السابق، ص 206.

² - حامد زيان غانم زيان ، المرجع السابق ، ص 42.

³ - Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p :26.

⁴ - أبو الفدا ، المختصر ، ج2، ص 187.

⁵ - تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط2، 1986، ج1، ص187.

⁶ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 365. ابن كثير، المصدر السابق، ج 6 ، ص 495. ومن هنا نستنتج أن تبعية صاحب مكة للعبيديين كانت مادية محضة، ففي هذه الآونة كانت مصر تعاني من ضائقة اقتصادية تضاعلت معها المداخل التي تصل إلى مكة من مصر، فنقلوا الخطبة إلى الخليفة العباسي والسلاجقة بعد أن أغروهم بالأموال، وقد نقل لنا المقرئزي حادثة تثبت ذلك، حيث: " اجتمع وفد الحجاز باب القصر واستغاثوا، وقالوا : يا قوم لقد جئناكم وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع ، فغن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة فاصرفونا فإننا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم فلم نأخذها، ونريد إنسانا يكلمنا ، فلم يجابوا بشيء". المقرئزي، اتعاض الحنفا ، ج2، ص164-164.

ج- دور السلاجقة في القضاء على فلول القرامطة:

تستوقفنا نقطة مهمة في إطار استرداد السلاجقة لممتلكات الشيعة الباطنية، ونخص بالذكر فئة القرامطة بالبحرين¹، التي هي جزء لا يتجزأ من الدولة العبيدية بحكم الاشتراك في الفكر والمذهب والمصالح السياسية²، فرغم انحصار النشاط السياسي والعسكري للقرامطة، إلا أن نشاطهم الفكري في البحرين وتخوف السلاجقة من ثورتهم مجدداً، وفي إطار مشروعهم الجهادي لمقاومة الشيعة، لأجل ذلك قرروا القضاء على فلولهم المتبقية وضم ممتلكاتهم للخلافة العباسية، ومن المعلوم أن الخطبة للخليفة العباسي في ذلك الإقليم قد قُطعت لفترة زمنية طويلة .

دامت دولة القرامطة أكثر من قرن من الزمن أريكت فيه الخلافة العباسية والعبيدية معاً، لكن دخولها في دائرة الصراع الداخلي حول السلطنة إلى جانب ضعف مواردها المالية وتخلي قبائل البدو عنها، بالإضافة إلى انفصالهم عن العبيديين حلفائهم ورفقائهم في

¹ - القرامطة : فرقة باطنية إسماعيلية، ظهرت في العراق سنة 278هـ/891م على يد حسين الأهوازي وحمدان قرمط، الذي أخذت الفرقة تسميتها منه، لأنه كان قصير القامة قصير الرجلين، وكان خطوه متقارباً فقبل له من ذلك قَرَمَط . والقرامطة أربع فرق: قرامطة العراق، قرامطة الشام وقرامطة اليمن التي لم تكتسب الأهمية الكبيرة، بالإضافة إلى قرامطة البحرين التي تعتبر أقوى فروع القرامطة وأطولها عمراً سقطت على يد السلاجقة . ينظر ابن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3، دت، ج10، ص 23-25. ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق : سهيل زكار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1971، ص107. للتوسع أكثر حول فرق القرامطة ينظر : عائشة تازي ، حركة القرامطة وأثرها على الخلافة العباسية خلال القرن 3-4هـ /9-10م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، المدرسة العليا للأساتذة ، الجزائر ، 2009، ص80-101.

² - ارتبطت القرامطة بالعبيديين منذ عهد عبيد الله، وقد تخلل هذه العلاقة فترات من المواجهة بسبب تصادم المصالح السياسية خاصة بعد انتقال العبيديين إلى مصر، لكن كثيراً ما تحالفوا ضد عدوهم المشترك وهو الخلافة العباسية، والذي يهمننا من ذلك هو علاقة القرامطة بالعبيديين وهم بمصر، فقد كتب المعز فور وصوله إلى مصر كتاباً طويلاً للحسن الأعصم زعيم قرامطة البحرين يدعوه فيه للدخول في طاعته، وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه، وإلى آبائه من قبله. ينظر : ثابت بن سنان ، المصدر السابق ، ص 106. للتوسع أكثر حول علاقة القرامطة بالعبيديين ينظر : عائشة تازي ، المرجع السابق، ص 107-114.

المذهب، بسبب تأرجحهم في الولاء بين بغداد والقاهرة، كل هذا أدى بهم إلى الضعف وانحصر نشاطهم السياسي والعسكري واكتفأهم بالتحصن بالبحرين ، فأصبحوا بذلك فريسة سهلة لقوى السلاجقة بقيادة أرتق بك السلجوقي(ت484هـ)، الذي تحالف مع عبد الله بن علي العيوني(ت500هـ) عليهم سنة 469هـ/1077م، فحاصروا الأحساء وأجبروا القرامطة على الخضوع للخليفة العباسي، ودفع إتاوة سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار، لكن ما إن ذهب السلاجقة، حتى انتقضت القرامطة¹، وعاد إليها عبد الله العيوني، فكانت المعركة النهائية التي قضت تماما على القرامطة وهي معركة الخندق أو باب الأصفر التي قتل فيها ثمانون من زعماء القرامطة وذلك سنة 470هـ/1078².

على أن نهاية دولة القرامطة في البحرين لا تعني نهاية تسلط الشيعة عليها وإنما هو بداية مرحلة جديدة من تاريخ الشيعة في الأحساء بزعمارة عبد الله العيوني مؤسس الدولة العيونية .

5- موقف السلاجقة من العلاقات العبيدية البيزنطية:

اتخذ السلاجقة موقفا محددا من الدولة العبيدية قبل دخول طغرل بك إلى بغداد سنة 447هـ/1055م إذ سعى هذا السلطان إلى عزلهم عن الدولة البيزنطية التي كانت مرتبطة معهم بهدنة عقدها الخليفة العبيدي الظاهر لإعزاز دين الله سنة 418هـ/1025م، مع الإمبراطور قسطنطين الثامن(415-418هـ/1025-1028م)، وكانت فحوى تلك الهدنة أن أفردت الخطبة للخليفة الظاهر ببلاد الروم، وفتحت الجامع الذي بالقسطنطينية، وبالمقابل أمر الظاهر بترميم كنيسة القيامة التي بالقدس والتي أمر الخليفة الحاكم بإحراقها

¹ - سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق، ص 181.

² - عائشة تازي ، المرجع السابق، ص117.

سنة 398هـ/1007م¹، وقد جدد هذه الهدنة المستنصر بالله في عام 437 هـ/ 1045م، بعد أن انتقضت لأربع سنوات خلت²، بادر من خلالها إمبراطور الروم قسطنطين التاسع (433-446هـ/1042-1055م) بإرسال هدايا ثمينة إلى الخليفة المستنصر الذي قابل تلك الهدايا بأخرى أثمن منها³.

أ- استغلال السلاجقة للتوتر بين العبيديين والبيزنطيين لصالح الخلافة العباسية السنية:

حاول السلطان طغرل بك استمالة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع وتأليه ضد الدولة العبيدية، فأرسل إليه في 443 هـ / 1051م، يستأذنه في الزحف على مصر: "فأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر وأنه لا يرخص في أذيته" حسب المقرئ⁴.

كما بعث طغرل بك في عام 444 هـ/ 1052م، إلى قسطنطين يعتب عليه تسليم رسول الخليفة العباسي، الذي كان متوجها إلى المعز بن باديس في بلاد المغرب إلى المستنصر العبيدي، وقال في رسالته عن المستنصر العبيدي: "وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم ضلالة يدعو إلى نفسه ويغتر بمن أغواه من حربه، ويعتقد من الدين ما لا يستجيزه أحد من أهل العلم في الأئمة الأول، وهذا العصر، لا يستحسنه عاقل من أهل الإسلام والكفر"⁵، وقد

¹ - المقرئ، اتعاط الحنفا، ج2، ص 176. محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، السويس، 2000. ص 233.

² - وذلك في أواخر سنة 432 هـ/ 1040م، بسبب تحرش اتباع الدولة العبيدية بإقليم فامية التابع للروم فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى فخرج اليهم الروم وأزالوهم من بلادهم واتبعوهم فتخوف صاحب حلب من الأمر فاستنجد بعسكر المستنصر بقيادة الدزيري فالتقى الجيشان بين مدينة حماة وفامية وانهمز الروم وانزاحوا إلى بلادهم. ينظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 274.

³ - المقرئ، اتعاط الحنفا، ج2، ص 194.

⁴ - نفسه، ص 214.

⁵ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق، ص 117.

طلب رسول طغرل بك من الإمبراطور مقاطعة صاحب مصر، فاعتذر بالهدنة المقطوعة بينهما¹.

كما اغتتم طغرل بك سوء العلاقة بين العبيديين والبيزنطيين على إثر وفاة قسطنطين التاسع عام 446هـ/1055م² وانتهر هذه الفرصة ، وأرسل إلى الإمبراطورة البيزنطية تيودورا الثالثة (446-447هـ/1055-1056م)، يلتمس منها أن تسمح لرسوله بالصلاة في مسجد القسطنطينية : " فأذنت له فصلى وخطب للإمام القائم " ³، وتعتبر هذه خطوة سياسية من قبل السلاجقة لضرب مكانة العبيديين في البلاط البيزنطي، وكان ذلك من أعظم الأسباب في فساد العلاقة بين الروم والعبيديين خاصة وأن محاولة رسول الخلافة العبيدية القاضي القضاعي (ت454هـ/1061م)⁴ قد فشل في تسوية الأمور .

وعندما توفي طغرل بك خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذي وضع نصب عينيه تحقيق هدفين للسلاجقة ، وهما التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية ، وطرد العبيديين من بلاد الشام ،

¹ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، المرجع السابق ، ص 117.

² - السبب الذي أدى إلى سوء العلاقة بين العبيديين والبيزنطيين، هو أن مصر في هذه الفترة كانت تعاني من مجاعة شديدة فسعى الخليفة المستنصر لإنعاش اقتصاده بأن طلب معونة من الإمبراطور قسطنطين التاسع فأظهر هذا الأخير استعداداً ، لكنه توفي قبل تنفيذ ذلك ، فخلفته ابنته تيودورا فاشتترط لتقديم المعونة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا اعتدى على بلادها معتد ، لكن المستنصر رفض ذلك ، فلم ترسل الإمبراطورة القمح إلى مصر، فرد المستنصر على ذلك بإرسال حملة تجولت في أعمال أنطاكية لكنها هزمت أمام جنود الإمبراطورة في عام 447هـ/ 1055م فاضطر المستنصر إلى إرسال القاضي القضاعي إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف ، فلم يلق ترحيباً . ينظر: جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، 246-247.

³ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 10، ص 60.

⁴ - هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيم بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعي نسبة إلى إقليم قضاعة ، وهو فقيه شافعي تولى القضاء في الدولة العبيدية ، وخرج في مهمة إلى دولة الروم لحل بعض الخصومات، له عدة مؤلفات منها: كتاب الشهاب وكتاب مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأخبره وكتاب الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء وخطط مصر ، توفي بمصر ليلة الخميس 16 ذي القعدة 454هـ/1061م. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق ، ج4، ص212.

والحلول مكانهم ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والعبيديين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها ، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة العبيديين¹ .

وسجلت المصادر باعتزاز الموقف التاريخي للسلطان ألب أرسلان من الدولة البيزنطية، إذ أنه استغل ضعف الجيش البيزنطي عند سيطرة الأرستقراطية المدنية بقيادة قسطنطين العاشر دوكاس (450-459هـ/1059-1067م) على حساب الأرستقراطية المدنية بعد وفاة الإمبراطور إسحاق كومنين (448-450هـ/1057-1059م)، كما كان للصراع الداخلي على السلطة دور كبير في إضعاف الإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة ، كل هذا كان يعني أن الطريق أصبح مفتوحا إلى قلب آسيا الصغرى ، لذلك نجح السلطان ألب أرسلان في التوغل داخل أرمينية واستولى على مدينة أني عام 458هـ / 1065م وخرب قليقية ودمر مدينة قيسارية في أعالي الفرات عام 460هـ / 1067².

ب -موقعة ملازكرد :463هـ/1070م وأثرها في إحياء التحالف الشيعي -العبيدي - البيزنطي ضد أهل السنة :

استمرَّ ألب أرسلان في حملته التوسعية على حساب الأملاك البيزنطية حيث حمل راية الجهاد الديني ضد الصليبيين، فاستولى على ملازكرد سنة 463هـ / 1070م، وهي تقع

¹ - الصلابي ، المرجع السابق ، ص 71.

² - زبيدة محمد عطا ، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين ، ط1، دار الأمين ، القاهرة 1994، ص242. وخلال هذه الفترة حلت بالإمبراطورية كوارث كانت سببا في زيادة نشاط المعارضين، وجعلتهم يطالبون بحكومة عسكرية لإنقاذ الإمبراطورية فنودي برومانوس الرابع ديوجينيس (460هـ-464هـ/1067م-1071م) كإمبراطور جديد للدفاع عن بلاده، فبدأ بإصلاح الأوضاع الداخلية في الدولة، ثم أعاد تنظيم الجيش البيزنطي الذي غدت الفرق الأساسية فيه تتألف من جند مرتزقة من النورمان الإيطاليين والتركمان الآسيويين فضلا عن الفرقة الغربيين، وبذلك الجيش غير المتجانس شرع الإمبراطور رومانوس الرابع في استرداد الأناضول حتى الفرات شرقا من جموع السلاجقة. ينظر: سعيد عبد الفتاح عاشور ،الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1971. ج1، ص86.

شمالي بحيرة فان، وكانت من البقايا الأخيرة التي تبقت للدولة البيزنطية في أرمينية، ثم اتبع ذلك بالاستيلاء على ملطية مرة أخرى فأخذها من البيزنطيين، وأخيراً قصد الرها " فحاصرها فلم يظفر منها بطائل"، وبعدها أخضع دولة بني مرداس بحلب التي كانت تابعة للدولة العبيدية¹.

وفي تلك الأثناء شرع رومانوس الرابع في القيام بمحاولة جديدة لاسترداد أرمينية وكان ذلك في ربيع 463هـ/ 1070 م، "في مائتي ألف من الروم والفرنج والغرب والروس والبنجاك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد"²، والخطأ الذي ارتكبه رومانوس هو أنه قام بتقسيم قواته، فأرسل جزءاً من جيشه لمهاجمة مدينة خلاط³، في حين سار هو على رأس بقية الجيش اتجاه ملازكرد، ولم يكد ألب أرسلان يسمع بتلك الأخبار حتى ترك حلب قاصداً أرمينية في خمسة عشر ألف فارس⁴، حيث اتبع السياسة التقليدية للسلاجقة، وهي تجنب الاصطدام بالجيوش البيزنطية، وأرسل إلى الإمبراطور يطلب مهادنته فجاء جوابه: "إني قد أنفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول إلى مثل هذه الحالة، فإذا ظفرت بها فكيف أتركها، هيهات لا هدنة إلا بالري، ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ما فعل ببلاد الروم"⁵، أي أنه يرمي إلى غزو بلاد السلاجقة حتى يصل إلى قلب دولتهم بالري، عندئذ انزعج السلطان ألب أرسلان وأخذته عزة الإسلام وأدرك أنه لم يعد هناك مفر من القتال⁶.

¹ - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 87.

² - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 388.

³ - بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة وهي عاصمة أرمينية الوسطى. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص380-381.

⁴ - ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 388. بينما يحدد ابن الجوزي عدد قوات ألب أرسلان بعشرين ألفاً، ينظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 124.

⁵ - ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص 124.

⁶ - صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص52.

وفي يوم الأربعاء 25 ذي القعدة 463هـ/1070م¹، دارت بين الفريقين المعركة الحاسمة عند ملازكرد، أحرز فيها ألب أرسلان انتصارا هاما، ووقع الامبراطور البيزنطي في الأسر، وفي تفصيل ذلك يقول ابن الأثير: "وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم"²، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة، والتعهد بأن لا يقاتل المسلمين، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين، فضلا عن عقد هدنة لمدة خمسين سنة، غير أنه لما عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية تقرر خلع من العرش، وخلفه في الحكم الإمبراطور ميخائيل السابع (464هـ-472هـ/1071-1079م)³.

وبعد هذا الانتصار كتب الخليفة القائم بأمر الله رسالة إلى ألب أرسلان يهنئه بالفتح، وخاطبه "بالسيد الأجل المؤيد المنصور المظفر السلطان الأعظم مالك العرب والعجم سيد ملوك الأمم ضياء الدين غياث المسلمين ظهير الإمام كهف الأنام عضد الدولة القاهرة تاج الملة الباهرة سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين"⁴.

وتعتبر ملازكرد من أفجع الهزائم في تاريخ بيزنطة، فقد بدت هذه الأخيرة كأنها خسرت في ميدان القتال كل دليل على أنها حامية للنصرانية، وهذه الهزيمة خدمت الحركة الصليبية، وأثبتت أن بيزنطة لا تستطيع حماية الشرق.

ومن نتائج هذه الهزيمة أنها حققت لألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه الذي أخذ يتوغل في بلاد الشام بقيادة ابنه ملكشاه لانتزاعها من العبيديين، وأزال خطر

¹- ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، ص 124

²- ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 389.

³- نفسه، ص 389.

⁴- صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 53.

التقارب بين بيزنطة والعبيديين في نفس الوقت، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث توفي سنة 465هـ/1072م¹.

وتكمن أهمية معركة ملازكرد في دراسة موضوعنا عن الشيعة في أنه لما ارتفع شأن السلاجقة، وامتد سلطانهم من بحر إيجه شرقاً إلى حدود الصين غرباً، ومن بلاد القوقاز شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً، أخذ سلطان العبيديين يتقلص، فاستقل عنهم الساحل الشرقي لبحر الروم-بحر الأبيض المتوسط- بسبب الأزمات الاقتصادية التي حلت بالدولة، وانقطاع العلاقات مع حليفاتها الدولة البيزنطية، وضعف الخلفاء فضلاً عن المنازعات بين العناصر المختلفة بالجيش العبيدي، وبسبب ما تعرضت له كل من الخلافة العبيدية والدولة البيزنطية من خطر من قبل السلاجقة خاصة بعد معركة ملازكرد أدى هذا المصير المشترك لهما إلى إحياء التحالف بينهما لمواجهة تهديد السلاجقة².

6- السلطان ملكشاه بن أرسلان واستكمال المشروع الجهادي ضد الشيعة:

بعد عامين فقط من موقعة ملازكرد، وفي العاشر من ربيع الأول سنة 465هـ/1072م، قُتل السلطان ألب أرسلان على يد الناصر يوسف الخوارزمي، بعد أن قصد السلطان ما وراء النهر يريد محاربة الخارجين عليه على إثر فتنة ظهرت هناك، فاستقرّ في جيحون حيث تمكّن من استرجاع عدّة قلاع³.

وكان يوسف الخوارزمي أحد قادة تلك القلاع المسترجعة، فأُسّر وأوثق بالحبال وجُلِب إلى السلطان فشتمه بأقبح الكلمات فصمّ السلطان على قتله بنفسه، لكن سهمه أخطأه فهجم عليه الأسير فضربه في خصرته بسكين كان يخفيها في ملابسه، ولم يستطع أحد من

¹ - أبو الفدا ، المختصر ، ج2، ص 189.

² - زبيدة محمد عطا ، المرجع السابق ، ص 37.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 8 ، ص 392-393.

الحراس التدخل بسرعة لضرب الأسير وبعدها بأربعة أيام مات السلطان ألب أرسلان¹ ودُفن بمدينة مرو بجوار أبيه وعمه طغرلبيك² بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف العام تقريبا.

كان للسلطان ألب أرسلان ستة أولاد هم: ملكشاه، وإياز، وبوري برس، وتتش، وأرسلان أرغو³، وقد أوصى السلطان ألب أرسلان قبل وفاته بالسلطنة لابنه ملكشاه وكان ذلك حوالي سنة 458هـ/1065م⁴.

وآلت السلطنة السلجوقية إلى ملكشاه بناء على تلك الوصية، وكان في السابعة عشرة من عمره فاتخذ نظام الملك الطوسي وزيرا له، يعاونه في إدارة شؤون الدولة⁵. وأرسل ملكشاه إلى دار الخلافة الكتب يذكر وفاة والده يطلب الخطبة له، فخُطب له على منابرهما⁶، وراسل جماعة من ملوك الأطراف يدعوهم إلى الخطبة له والانقياد إليه، وعاد من بلاد ما وراء النهر إلى نيسابور ومنها إلى الري، فخُطب لملكشاه من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن وراسله الملوك⁷.

وكالمعتاد في تاريخ الدول، نشب الصراع حول الأحقية بالعرش في دولة السلاجقة، فبعد أن تولى ملكشاه أمور الدولة رسميا ظهرت في الأفق القريب مؤامرة قادها

¹ - البنداري ، المصدر السابق ، ج11، ص 211، 212. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 502، 501. يوسف أبو النصر ، المرجع السابق ، ص 89

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 145.

³ - عبد الحميد حسين حمودة ، المرجع السابق ، ص 51.

⁴ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8 ، ص 376

⁵ - يوسف أبو النصر ، المرجع السابق ، ص 90.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 145.

⁷ - ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص 394-395. البنداري، المصدر السابق ، ص 218.

عمه قاورد بن داود¹، ترمي للإطاحة بالسلطان ملكشاه وتولى العرش بدله، بحكم أحقية قاورد أخ ألب أرسلان بالحكم حسب زعمه، لكن ملكشاه صمم على محاربته قائلاً له: "لا ميراث للأخ مع وجود الابن"، فالتقى الجيشان واقتتلا بالقرب من همذان في الرابع من شعبان 465هـ/1072م، فانهزم أصحاب قاورد وأسر، فأمر ملكشاه بقتله وأقر كرمان بيد أولاده².

وعلى إثر ذلك شرع ملكشاه في توطيد أركان ملكه إلى جانب وزيره نظام الملك، فكانت أهم أهدافهما فتح الولايات غير الإسلامية الواقعة في الشمال الغربي لإيران، وفي آسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد ما وراء النهر، ولقد نفذ السلطان ملكشاه هذه السياسة الخارجية التي رسمها وزيره بعد أن أخدم الفتن الداخلية في دولته³.

7- استرجاع ملكشاه الشام وطرد العبيديين :

تمثلت سياسة ملكشاه الخارجية، في إصراره على استكمال مشروع والده في مقاومة الشيعة، فالتفت إلى بلاد الشام في محاولة لضمهما هي ومصر إلى أملاك السلاجقة والقضاء على الدولة العبيدية، فولى أخاه تاج الدولة⁴ تتش⁴ حكم بلاد الشام وما سيفتحه في

¹ - قاورد بن داود : هو عماد الدين قرا أرسلان قاورد كان يلي كرمان، بعد استيلائه عليها سنة 433هـ/1041م، و كان خاضعاً للسلطان ألب أرسلان، وسبق لقاورد العصيان سنة 455هـ/1062م، وسنة 459هـ/1066م، على أخيه ألب أرسلان، وخلع عليه الطاعة، وقطع له الخطبة مطالباً بأحقية في السلطة، ولكن ألب أرسلان أخضعه ثم صالحه، وفوض إليه حكم هذا الإقليم. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 379. يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 91.

² - ابن كثير، المصدر السابق، ص 502. البنداري، المصدر السابق، ص 213.

³ - وقد كان فضل نظام الملك كبيراً على السلطان ملكشاه في توطيد أركان ملكه، حيث كلف السلطان ملكشاه سنة 468هـ/1075م وزيره نظام الملك حق إخماد فتنة الجند فنجح نظام الملك في إخمادها فقرّبه السلطان، وأغدق عليه مكافأة لحسن سياسته وتدبيره وأقطعه الإقطاعات كان من جعلتها مدينة طوس وأهداه الخلع والأموال، ولقبه بعدة ألقاب من جعلتها أتابك ومعناه الأمير الوالد. ينظر: ابن الجوزي، المصدر السابق، ج 16، ص 146. يوسف أبو النصر، المرجع السابق، ص 92.

⁴ - هو تتش بن ألب أرسلان أبي شجاع مجد بن داود بن ميكائيل، أبو سعيد الملك، المعروف بتاج الدولة التركي السلجوقي، حكم دمشق منذ سنة 472هـ/1079م وامتدت ولايته بها إلى أن قتل يوم الأحد 17 صفر سنة 488هـ/1094م بنواحي الري وكان قد توجه إلى خراسان عند موت أخيه ملكشاه لطلب الملك فلقه ابن أخيه بركيارق فقتل في المعركة=

تلك النواحي، وحاصر هذا الأخير مدينة حلب ولم يتمكن من فتحها نتيجة تحالف والي حلب ومسلم بن قريش العقيلي والي الموصل ضده ، فأنهكت قواه وأدرك عدم جدوى الاستمرار في حصار حلب فتوجه نحو دمشق، واستولى على حماة والمعرة وما جاورهما وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب، فأقره على حكمها¹.

وإذا كان التوغل السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تنتش إلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يذكر وقد سنحت له الفرصة ليضع يده على مقدرات بلاد الشام ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها، وكان لذلك علاقة بالمحاولات العبيدية الهادفة إلى استعادة نفوذهم في هذه البلاد، إذ استنجد به أئمز بن أوق صاحب دمشق من القوات العبيدية التي حاصرت دمشق، بعد أن سير أمير الجيوش بدر الجمالي جيشا من مصر قدم عليه القائد نصر الدولة²، فسار تنتش إلى نصرة أئمز، ولما تسامعت أنباء تحرك القوات السلجوقية تراجعت القوات العبيدية منهزمة أمامها إذ لا قبل لها بمواجهة هذا الجيش.

على إثر ذلك قرّر السلطان ملكشاه مع أخيه تنتش بن ألب إرسال فتح مصر عن طريق القائد السلجوقي أئمز ، وبمساعدة القائد العبيدي الدكر، ونجح القائد السلجوقي في الوصول إلى أبواب القاهرة سنة 469هـ / 1076م، بيد أن أمير الجيوش بدر الجمالي تمكن من هزيمته وطرده³.

=وصار الأمر بعده بدمشق لابنه دقاق بن تنتش . ينظر: الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي، تاريخ دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر ، دار الفكر، بيروت، 1995 ، ج11، ص35. الذهبي ، سير أعلام النبلاء،

¹ - الصلابي، المرجع السابق ، ص 88، 89.

² - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص418 .

³ - نفسه ، ص 412، 413. ابن الصرفي ، المصدر السابق، ص 56. منى محمد بدر محمد بهجت، المرجع السابق ، ص31.

والذي يبدو لنا أن هذه الحملة كانت متسعة نوعاً ما، فقرار شن هذه الحملة لم يخطط له من قبل وإنما جاء عفويًا بعد الانتصار الذي حققوه على العبيديين الذين تحرشوا بدمشق، فحرارة الانتصار هي ما دفعت بالسلطان إلى استكمال العمل العسكري وتوجيه ضربة للخلافة العبيدية، لكن المهم في الأمر أن محاولة بهذا الحجم أرعبت العبيديين وأذرتهم بأن زوالهم قريب لا محالة .

عادت القوات السلجوقية إلى دمشق لكن مع تغيير في القيادات فقد دخل تنتش دمشق وملكها سنة 471هـ / 1078م¹ بعد أن حدث سوء تفاهم بينه وبين القائد السلجوقي أئسر انتهى بمقتل هذا الأخير، وذكر ابن عساكر الدمشقي في كتابه تاريخ دمشق أن ملك تنتش لدمشق كان سنة 472هـ / 1079م².

اتسع ملك تنتش على حساب الإمارات المجاورة، وأصبح سيد الموقف في بلاد الشام بأكملها، فخاف السلطان ملكشاه من اتساع نفوذه، إلى جانب تخوفه من إعلان أهل حلب تبعيتهم للعبيديين في مصر بحكم تشيعهم الشديد³، وفي ظل إصرار أهل حلب على عدم تسليمهم مدينتهم إلا للسلطان ملكشاه استغل هذا الأخير الأمر واتجه من عاصمته أصفهان إلى حلب عن طريق الموصل، وأخضع ما صادفه في طريقه من قلاع كانت لا تزال تحت سيطرة الروم، فلما اقترب من حلب أخلاها تنتش ورحل إلى دمشق ودخل السلطان ملكشاه

¹ - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج8، ص418. النويري ، المصدر السابق ، ج23، ص140.

² - ابن عساكر ، المصدر السابق ، ج11، ص35.

³ - Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p :64-69.

حلب وتسلمها من سالم بن مالك بن بدران العقيلي سنة 479هـ/1086م¹، ومنحها لقسيم الدولة آق سنقر²، فعمَّرها وأحسن السيرة فيها³.

والمعروف أن قسيم الدولة هذا هو أصل البيت الزنكي، فهو والد عماد الدين زنكي وجد نور الدين محمود، ويرجع له الفضل في ظهور الأسرة الزنكية على الساحة السياسية فيما بعد وهذا ما سيكون موضوع فصلنا التالي.

وبذلك نجح السلاجقة في السيطرة على مقاليد الأمور في أجزاء مهمة من بلاد الشام وتقليص نفوذ العبيديين، وتمتعت بلاد الشام في ظل السلاجقة باستقرار نسبي سرعان ما اختل بسبب ظهور قوة شيعية جديدة تمثلت في الفرقة الشيعية الإسماعيلية النزارية.

فمن هي الفرقة الإسماعيلية النزارية؟ وكيف ظهرت على الساحة السياسية والفكرية؟

8- ظهور الفرقة الإسماعيلية النزارية واشتداد المواجهة مع السلاجقة:

انتشر المذهب الإسماعيلي في جميع البلاد الإسلامية شرقا وغربا، فنفذ أتباعه إلى بلاد ما وراء النهر وإيران زمن الأمير نصر بن أحمد الساماني، إلا أن أتباع المذهب

¹ - أبو الفدا ، المختصر ، ج 2، 197، 198.

² - آق سنقر كلمة مركبة آق: أبيض ، سنقر: صقر، فمعناها الصقر الأبيض. هو أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله قسيم الدولة بن طرخان المعروف بالحاجب، من قبائل السايو التركمانية ، وهو جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، ووالد عماد الدين زنكي ، تزوجة من مربية السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، فتربى معه في صغره إلى حين كبره، وأصبح من أصحابه وأتباعه فقربه وولاه حلب سنة 479هـ / 1086م، ويشير ابن الأثير ان الذي أشار عليه بحكم حلب هو وزيره نظام الملك ذلك لكي " يتخذ عند قسيم الدولة بدا و ليعده عن خدمة السلطان... فظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده " ، قتله تاج الدولة تنش صاحب دمشق في جمادى الأولى 487هـ/1093م، ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب. ينظر: عز الدين ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، (تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات)، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دت ، ص 4-8 ، ابن خلكان، المصدر السابق ، ج1، ص 441. كمال الدين ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق: سامي الدهان ، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، دت . ج2، ص 103-111. Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p: 66.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص444. ابن العديم ، المصدر السابق ، ج2، ص103-104.

الإسماعيلي لم يستطيعوا تكوين دولة بسبب تولي الترك الغزنويون والسلاجقة، وعاش دعائهم وأشياهم لائذين بالجمال والقلاع المحكمة، وكانوا يبنون تعاليمهم من مخابئهم إلى الناس¹، وهنا وفي هذه المواقع وجد الإسماعيليون الجدد التربة مهيأة لبداية جديدة عُرِفَت بالفرقة النزارية والتي تعتبر جزء من الفرقة الإسماعيلية في مصر، فكيف ذلك ؟

وبالعودة إلى نشاط الإسماعيلية في مصر تحت ظل الدولة العبيدية، حيث توالى الحكام في مصر واضعين نصب أعينهم القضاء على الخلافة العباسية وبسط سيطرتهم على المشرق الإسلامي بدلا منها، لكن الضعف الذي آلت إليه الدولة العبيدية زمن تسلط الوزراء أدخلها في صراع حول السلطة، ثم انقسام في صفوف الإسماعيلية على إثر وفاة المستنصر العبيدي سنة 487هـ/1093م حيث كان من المفترض وحسب التنظيم الإسماعيلي، أن تكون الإمامة للابن الأكبر وهو نزار بن المستنصر لكن تدخل الوزراء حال دون ذلك خاصة الوزير بدر الجمالي وابنه الأفضل، حيث أخذ الأفضل (ت515هـ/1121م) البيعة من كبار رجال الدولة للأخ الأصغر لنزار، أبا القاسم أحمد الذي لقبه بالمستعلي بالله² في 18 ذي الحجة سنة 487هـ/1093م³.

وتكمن الأسباب التي دفعت بالأفضل إلى مثل هذا التصرف حسب المقرئزي إلى الكره الذي كان بين الطرفين بقوله: "وكانت نفرة نزار من الأفضل لأمر منها أنه خرج يوما فإذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب فصاح به نزار: انزل يا أرمني النجس فحقدها

¹ - عبد الحميد حسن حمودة ، المرجع السابق ، ص 62.

² - اسمه أحمد و كنيته أبو القاسم بن المستنصر بالله معد بن الظاهر بالله علي ابن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي عبيد الله ، السادس من خلفاء مصر العبيديين ، والتاسع ممن ولي من أجداده الخلافة بالمغرب ، ببيع بالخلافة بعد وفاة والده المستنصر معد يوم عيد الغدير ، يوم الثامن عشر ذي الحجة 487هـ / 1093م ، ومولده بالقاهرة سنة 467هـ/1074م ، ولما ولي الخلافة آن ذاك كانت سنه عشرون سنة. ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 140

³ - ابن الأثير، الكامل ، ج 8، ص 497 ، المقرئزي، اتعاظ الحنفا ، ج3، ص11.خواندمير، المصدر السابق، ص241.

عليه، وصار كل منهما يكره الآخر، ومنها أن الأفضل كان يعارض نزار في أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بغلمانة فلما مات المستنصر خافه¹

بالإضافة إلى صغر سن المستعلي مقارنة مع سن نزار، فقد كان عمر الأول عشرين عاما وعمر الثاني خمسين عاما، مما يتيح له التحكم به إذا ما ولاه الإمامة، ويصبح له مطلق التصرف في شؤون الدولة².

فهرب نزار إلى الإسكندرية وباعه هناك والي الإسكندرية نصر الدولة بن أفتكين التركي وجمع الناس عليه فبايعوه، وتولى أمره قاضي الإسكندرية جلال الدولة بن عمار، وتلقب بالمصطفى لدين الله، فتوجه إليه الأفضل فقاتله مرارا فهزمهم، وأسر القاضي وأمر بقتله وحبس نزارا حتى مات، واستقر المستعلي في الخلافة وعمره إحدى وعشرون سنة³.

لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد بل تعدته إلى الانقسام في صفوف العامة والدعاة والأمراء، ما بين مؤيد لخلافة المستعلي لنزار وأحقية بالخلافة. فكانت الإسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة العبيدية في مصر، والإسماعيلية النزارية التي نجح دعائها في إقامة دولة لهم في الموت ثم في بلاد الشام، وقد كان لهم دور خطير في التاريخ الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين الموافق للحادي عشر والثاني عشر الميلاديين⁴، أما المعارضة فكانت بقيادة الداعية الحسن بن الصباح، الذي اعتبره الخلفاء العبيديون خارجا عن الإسماعيلية وليس جزءا منها، وقالوا: "لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن

¹ - المقرئزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 194.

² - سهيل طقوش ، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، بيروت، 2007 ط2 ، ص 388، 389.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 539. المقرئزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج 3 ، ص 13 وما بعدها. إحسان الهي ظهير ، الإسماعيلية تاريخ وعقائد ، إدارة ترجمان السنة ، باكستان ، د ت ، ص 735

⁴ - جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط 1 ، 2002. ص 56.

المذهب وضل ووجب قتله"¹ وبهذا فالعداء كان مستحكما بين الطرفين رغم أنهم على نفس الدعوة والمذهب .

والسؤال هنا من هو الحسن بن الصباح؟ وكيف وصل إلى مصر؟ وما هي علاقته بالخليفة المستنصر وابنه نزار؟ ولماذا قاد المعارضة ضد ولاية المستعلي؟ وأين انطلق بدعوته الجديدة؟ وما موقفه من دولة السلاجقة والخلافة العباسية؟

الحسن بن الصباح² هو أحد دعاة الإسماعيلية الشرقيين، ورئيس الطائفة الباطنية، تلقى علومه الأولى بمسقط رأسه بالري وبعد أن استكمل تعليمه جال في أنحاء فارس، فالتقى بداعي دعاة العبيديين عبد الملك بن عطاش فشجعه على زيارة القاهرة³، ولقاء الخليفة المستنصر بالله فاستجاب لطلبه وتسلم منه كتابا إلى الداعي أبي داود المصري يطلب إليه تسهيل مهمته، وفي القاهرة أقام الحسن بن الصباح مدة سنة ونصف السنة لم يتمكن خلالها من مقابلة الخليفة المستنصر العبيدي، إلا أنه قام بمهمة الدعوة للإمام نزار لأن المستنصر بالله كان قد أعلن إمامته أكثر من مرة⁴، وعندما أخذ يؤلب الناس على الأفضل بن بدر الجمالي، أُعْتُقِلَ ورُجِّحَ به في السجن ، لكنه تمكن من الإفلات وعاد إلى بلاد فارس وأقام في

¹ -جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي، نصوص من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة ، 1983. ص 39. وقد امتد ذلك العداء إلى بعد وفاة المستعلي فقد أصدر الأمر بأحكام الله رسالة يبرر فيها أحقية والده المستعلي في الخلافة وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها. ينظر نص تلك الرسالة، جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص 211-229.

² - هو الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن الصباح الحميري من أصل عربي، يتصل نسبه بملوك حمير اليمنيين، ولد سنة 444هـ/1052م في مدينة قُم بمقاطعة الري ببلاد فارس، التي كانت معقلا قويا للشيعنة الاثني عشرية التي ينتمي إليها أبوه، انتقل مع والده إلى الري، وهناك تلقى تعليمه الديني، وكانت الري مركزا للتعليم الشيعي الإسماعيلي، منذ القرن 9م، توفي في الموت سنة 518 هـ/ 1124م، فيكون قد عاش أربعاً وسبعين عاماً قضى منها خمساً وثلاثين عاماً في حكم دولة الموت الإسماعيلية النزارية التي شيدها. قال عنه ابن عماد الحنبلي: "كان داهية، مكرراً، زنديقاً، من شياطين الإنس". ينظر: ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 9. عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، ص 77.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 39.

⁴ - خواندمير ، المصدر السابق ، ص 240.

منطقة قزوين يخطط ويعمل على إقامة دعائم الدولة الإسماعيلية النزارية¹، فتسلط هو وأصحابه على كثير من قلاع أصفهان وأسسوا هناك دولة نزارية مستقلة على الولاء لنزار بن المستنصر والإيمان بإمامته وزعامته².

وكانت قلعة الموت³ التي استولى عليها الحسن بن الصباح سنة 483هـ/1090م⁴، من أملاك الدولة السلجوقية، وكانت تلك القلعة تتمتع بحصانة طبيعية قال عنها القزويني: "قلعة حصينة...على قمة الجبل، حولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا الشباب يبلغها وهي كرسي ملك الإسماعيلية"⁵.

ومما سبق نستنتج أن التخطيط لتولية المستعلي بدل نزار كان مُسبقا وقبل وفاة المستنصر بالله سنة 487هـ/، ولما استشعر الحسن بن الصباح ذلك نظم أمور دعوته منذ سنة 483هـ/، وبقي مترقبا للأوضاع التي سمحت له فيما بعد بتثبيت أركان دولته واستمالة عدد أوسع من الاتباع بحجة أحقية نزار في الإمامة.

¹ - عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، ج4، ص 11-12.

² - إحسان الهي ظهير، المرجع السابق، ص 736.

³ - قلعة الموت: معناها بالفارسية ألوه أموت ومعناها عش العقاب ومعناه بلغة الديلم تعليم العقاب أو النسر لأن كلمة الموت هي نفس كلمة أموخت ومعناها تعليم بلغة أهل الديلم، وقيل أن الذي بناها أحد ملوك الديلم القدامى، فبينما كان خارجا للصيد ذات يوم أطلق نسرا مدريا فاعتلى صخرة وأدرك الملك القيمة الإستراتيجية للموقع وبنى عليه من فوره قلعة أسماها ألوه أموت بمعنى عش النسر أو العقاب، وذكر القزويني أن تسميتها جاءت من تاريخ بنائها لأنها بنيت سنة 446هـ/1054م وهي م و ت بلغة الديلم، وهي قلعة حصينة شمال مدينة قزوين بينها وبحر الخزر ببلاد الديلم، ويقال أن الحسن بن الصباح بعد أن أصبح سيدها لم يغادرها مرة واحدة منذ دخوله سنة 483هـ/1090م، حتى وفاته 518هـ/1124م. كما ذكر ابن الأثير، الكامل، ج10 ص 131. القزويني، المصدر السابق، ص 301. خواندمير، المصدر السابق، ص 242.

⁴ - نفسه، ص 131، ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 549. أبو الفدا، المختصر، ج2، ص 200.

⁵ - القزويني، المصدر السابق، ص 301.

ومن قلعة ألموت بدأ الحسن بن الصباح دعوته وحركته وكون دولته القوية وكثر مريدوه¹، وكون جيشا قويا، وأتباعا مطيعين ومنها أرسل الدعاة إلى الأطراف مما سبب خطرا كبيرا على دولة السلاجقة التي كانت آيلة للضعف بسبب انشغالها بالصراع حول السلطة خاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/، كما يُرجع بعض الباحثين سبب نجاح الدعوة الإسماعيلية واستفحال أمرها إلى أخطاء في سياسة السلاجقة ومنها نظام الإقطاع السلجوقي الذي أوجد فوارق طبقية، وهذا ما استغله النزاریون فيما بعد²، ويذكر البنداري سببا آخر وهو أنه: "لم تكن للدولة أصحاب أخبار"³، أي ديوان بريد يأتي لهم بأخبار الإسماعيلية .

فقد كان في طوع الرؤساء الإسماعيليين وأمراء هذه القلاع جمع من الانتحاريين سموا بالفدائيين فكان الإسماعيلية يستخدمونهم غالبا في قتل أعدائهم من قادة الجيوش والعلماء والأمراء والملوك، وقد ولدت أعمالهم فرعا شديدا في سائر البلاد السلجوقية⁴، ومن هنا أصبح لزاما على السلاجقة مواجهة كتلتين باطنيتين متصارعتين فيما بينهما متحدتين ضد العدو المشترك وهم أهل السنة .

أما عن سياسة ملكشاه تجاه الحسن بن الصباح فكانت تتراوح بين المهادنة والمقاومة، فعندما استولى الحسن بن الصباح على قلعة ألموت وانتشر فدائيوه يغتالون الآمنين، بعث

¹ - الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم إسماعيلية ، ينظر : ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 102.

² - يوسف أبو النصر، المرجع السابق ، ص 104. أوجد نظام الملك نظام الإقطاع كإصلاح اقتصادي وسن له قوانين صارمة كان لها الأثر البالغ في مقاومة الباطنية، لكن بوفاة نظام الملك اختلت الأوضاع واختفت الرقابة وتملص المُقطعون من القانون، وسخروه لخدمة مصالحهم فأضحى نظام الإقطاع معول هدم في دولة السلاجقة بعد أن كان إصلاحا ونماء في مختلف النواحي، نظام الملك ، المصدر السابق ، ص 70. إرشيد يوسف ، المرجع السابق، ص 236. للتوسع ينظر: الفصل الرابع من الباب الثاني الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي .

³ - البنداري ، المصدر السابق ، ص 226. وقد أشار نظام الملك في كتابه سياسة نامة إلى ضرورة اتخاذ صاحب البريد حتى يطلع السلطان على كل شاردة وواردة في مملكته ويصلح أحوال الرعية . ينظر: المصدر السابق ، ص 101.

⁴ - عبد الحميد حسن حمودة ، المرجع السابق ، ص 62.

إليه السلطان ملكشاه يتهده وينهاه عن بعثه الفداوية إلى العلماء والقادة¹، كما أرسل إليه الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان وكان فقيها عالما بالأصول على مذهب أهل السنة لمناظرتهم²، ولكن يبدو أن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذي تطلع إليه ملكشاه من محاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن ثم لجأ إلى العمل المسلح فأرسل الأمير أرسلان طاش سنة 485هـ/1092م فحاصر قلعة ألموت لكنه هُزم³، كما أرسل في العام ذاته أحد قواده فحاصر قلعة ديرة وهي مركز آخر من مراكزهم⁴.

وقد وضعت وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م حدا لهذه المحاولات التي قام بها.

على أنه يلاحظ أن ملكشاه لم يبذل في مقاومتهم جهدا يتناسب مع قوته ومكانته فلم يتوجه بنفسه مثلا لحربهم كما فعل في مناسبات كثيرة عندما كان يتهدد دولته خطر من الأخطار كما أنه صم أذنيه عن نصائح وزيره نظام الملك عندما حذره من أخطار هذه الفئة، ولعل العذر الوحيد الذي يغفر لملكشاه سلوكه هذا أنه لم يمتد به العمر طويلا بعد استيلاء الحسن على القلعة وربما لو أنه مد في أجله لكان من الممكن أن يكون له مواقف أكثر حزما⁵.

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 549-550.

² - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 324.

³ - خواندمير ، المصدر السابق ، 243

⁴ - الصلابي ، المرجع السابق ، ص 105.

⁵ - نفسه، ص 106.

9- قتل الإسماعيلية-النزارية- للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي :

أ- التعريف بنظام الملك :

هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بقوام الدين خواجه بزرگ¹، ولد يوم الجمعة 11 ذو القعدة 408هـ/1017م، بنوقان إحدى مدينتي طوس²، وكان من أولاد الدهاقين الذين يعملون في البساتين، بنواحي طوس، حفظه أبوه القرآن وهو ابن إحدى عشر سنة، وأشغله بالعلم والقراءات والتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وسماع الحديث واللغة والنحو³.

خرج نظام الملك من عند أبيه فقصده غزنه، فخدم في الدواوين بخراسان وغزنة، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان، المعتمد عليه بمدينة بلخ - وزير السلطان ألب أرسلان-

¹ -أهملت المصادر هذا اللقب وذكرت لقب قوام الدين، وخواجه: كلمة فارسية تعني الأستاذ أو العالم أو الحاكم أو الوزير، وكلمة بزرگ معناها العظيم أو الجليل أو الرئيس، ينظر: أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي، سراج الملوك، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1994، ج2، ص 513، كمال الدين بن عمر بن أبي جرادة ابن العديم، بغية الطالب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر العربي، بيروت، 1988، ج5، ص2478. كما لقب نظام الملك بألقاب عديدة منها تاج الحضرتين وذلك لأنه وزر لسلطانين ومنح من دار الخلافة لقب رضي أمير المؤمنين وهو أول لقب يطلق على وزير سلجوقي من قبل الخلفاء العباسيين. ينظر: صدام جاسم محمد البياتي، الوزير نظام الملك وأثره في تقدم الحركة العلمية في المشرق الإسلامي، مجلة ديالي، العدد الثالث والخمسون، العراق، 2011، ص 1.

² - طوس مدينة بخراسان بقرب نيسابور تشتمل على بلدين يقال لإحدهما، الطابران، وللأخرى نوقان، ولهما أكثر من ألف قرية فتحت أيام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، على يد عبد الله بن عامر بن كريز سنة 29 هـ / 651م خرج منها جماعة من العلماء والمحدثين قديما وحديثا. وفي جبالها معادن الفيروزج، وينحت منها القدور البرام وغيرها من الآلات حتى قال بعضهم، قد ألان الله لأهل طوس الحجر كما ألان لداود عليه السلام الحديد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص49-50، أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، تحقيق: محمد عوامة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، 1980، ج8، ص 263. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، دت، ص 411.

³ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص362-364. السبكي، المصدر السابق، ج4، ص 312. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص532.

فلما دنى أجل بن شاذان أوصى ألب أرسلان به، وذكر له محاسنه وكفائه وأمانته وزكاه، فعينه ألب أرسلان في الوزارة محل ابن شاذان ، ثم بعد وفاة ألب أرسلان اتخذ ملكشاه وزيراً له، فحسنت سياسته وتدبير شؤون الدولة السلجوقية¹، وقد شغل منصب الوزارة في السلطنة السلجوقية حوالي تسعة وعشرين سنة دبر فيها الملك على أحسن حال².

قال عنه الذهبي: "الوزير الكبير نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل سائنس، خبير، سعيد متدين، محتشم عامر المجلس بالقراء والفقهاء"³.

ب- موقف نظام الملك من الإسماعيلية، ومقتله :

كان أول من تتبأ بخطر الباطنية النزارية الوزير نظام الملك بحكم معرفته للحسن بن الصباح، فقال ذات مرة بفراسته عما قريب يضل هذا الرجل جمعا من ضعفاء العوام⁴، ويتنبؤ نظام الملك بخطر الشيعة الباطنية وشرهم، أخذ في الإكثار من تحذير السلطان السلجوقي ملكشاه منهم، وتنبيهه إلى ضرورة إعادة ديوان البريد لما لذلك من أهمية في معرفة تحركات هؤلاء الباطنية في الأمصار وتفاذي خطرهم المتنامي، وفي ذلك يقول: "على الملوك أن يتحروا أحوال الرعية والجيش وكل بعيد وقريب، وأن يعرفوا كل كبيرة وصغيرة في المملكة، فإن لم يفعلوا فسيكون ذا عيبا ومأخذا يأخذه الناس عليهم ويحملونه محمل الغفلة والتهاون

¹ - ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج5، ص363

² - ابن الجوزي ، المنتظم، ج 16 ، ص 302. ابن كثير ، المصدر السابق، ج6 ، ص532.

³ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج 19 ، ص94.

⁴ - ابن الأثير ، المصدر السابق، ج 9 ، ص 39. القزويني ، المصدر السابق ، ص301.

والظلم " ¹ وتحرى نظام الملك في صاحب البريد أن يكون صاحب ثقة لدى السلطان، وجاء طلبه هذا بعد أن كان السلطان ألب أرسلان قد ألغى نظام البريد ² .

نتيجة لذلك بذل الوزير نظام الملك غاية جهده في استئصال الفرق الشيعية من جذورها، فسعى إلى تجهيز العساكر والجيش لقمعهم في معاقلهم خاصة ألموت وذلك لما كان يراه من شمائل أحوالهم الفاسدة وخطرهم على المجتمع ³، كما عُرف نظام الملك بمواقفه الحازمة ضد فرق الشيعة خاصة الإسماعيلية ، بعد أن أدرك نجاحهم في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، فبدأ بتأسيس عدد من المؤسسات التعليمية من أجل توعية العامة وتحسينها ضد دعوات الإسماعيلية، وهذه المؤسسات عرفت بالمدارس النظامية، وقد أنشئت في بغداد ونيسابور وأخرى بطوس وغيرها من المدن ⁴.

وسيأتي الحديث عن المدارس النظامية دورها العلمي والمذهبي في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي في الباب الثاني من البحث.

ومع مرور الوقت تأكدت مخاوف نظام الملك في مدى خطورة هذه الفرقة على وحدة العالم الإسلامي ودولة السلاجقة خاصة، وهذا بعد ظهور الفرقة النزارية بقيادة الحسن بن الصباح

¹ - نظام الملك، المصدر السابق ، ص 101.

² - نفسه، ص 108. يوسف إبراهيم الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين ، دار المعالي ، الأردن ، ط1، 1998. ص 124. لم يعود السلاجقة على بعض التنظيمات الإدارية التي كانت سائدة في الدولة الإسلامية، ووجدوا فيها نوعاً من التعقيد فلجأوا إلى إلغائها كنظام البريد، الذي كان من الأهمية بما كان حيث يسمح للسلطة المركزية بالاطلاع على أحوال وأخبار المحافظات البعيدة وبالتالي اجتتاب الكثير من الدسائس -الشيعية خاصة- والتي تعمل على الإطاحة بالسلطان والدولة معا.

Sanallah Mawlawi Fadil, The decline of the Saljuqid Empire, University of Calcutta, INDIA , 1938. p : 37.

³ - الحسيني ، المصدر السابق، ص 66.

⁴ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء، ج 19 ، ص 94. فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص 191.

في قلعة ألموت، والذي تمكن من تشكيل قوة كبيرة من الأتباع استطاعوا تكوين معازل قوية لهم في أقاليم الجبال¹.

اتخذ الإسماعيلية من طريقهم في اغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلطين والعلماء وسيلة لإزالة كل معترضهم، الأمر الذي أثار قلقا شديدا في جميع أنحاء الدولة السلجوقية فعاش الناس في خوف واضطراب يتوجسون خيفة من هؤلاء الفدائيين².

وكان أبرز عمل يُنسب إلى الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه هو قتلهم لوزير نظام الملك في 10 رمضان من عام 485هـ/ 1092م وهو بالسحنة بالقرب من نهاوند فبعد أن فرغ من إفطاره أتاه صبي ديلمي من الباطنية يستغيثه: مظلوم، مظلوم، فقال الوزير: أبصروا ما ظلامته، فقال: معي رقعة أريد أن أسلمها إلى الوزير، فلما دنى منه ضربه بسكين كانت معه فأرداه قتيلا³.

توفي بعد أن وزر للسلطانين ألب أرسلان وملكشاه قرابة الثلاثين سنة.

ويقال في سبب مقتله : إن السلطان قد ضاق بقوة نفوذ نظام الملك، وصور له أعداؤه كثرة ما يخرج من الأموال، فدبر مؤامرة للقضاء عليه، فتم قتله على يد فتى من فتيان الإسماعيلية الفدائيين⁴.

¹ - خواندمير ، المصدر السابق ، 241-243.

² - قتل الفداوية جمعا كبيرا من العلماء والقادة منهم: الخليفة المسترشد والراشد ونظام الملك ويكثر صاحب أرمن والقتل مش صاحب العراق .ينظر: القزويني ، المصدر السابق ، ص 302.

³ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص305. السمعاني، المصدر السابق ، ج12 ، ص 262. الحسيني ، المصدر السابق، ص67. القزويني ، المصدر السابق ، ص 412. ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج5 ، 2496. أبو منصور الثعالبي ، تحفة الوزراء ، تحقيق : سعد أبو دية ، دار البشير ، عمان ، ط1، 1994. ص 34.

Sanallah Mawlawi Fadil, opcit , p : 61.

⁴ - ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص 478، وابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 305، 306. الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج 19 ، ص94

وهذه الحجة فنّدها الحسيني بعد أن أورد لنا نصّ الحوار الذي دار بين السلطان ووزيره ، عن الأموال الجليلة التي ينفقها نظام الملك وأن هذا الأخير أجاب على ذلك بقوله: "...أنا أُجِيشُ لك بهذا المال جيشاً تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله ، فبكا السلطان لذلك وقال له استكثر من هذا الجيش والأموال مبذولة لك والدنيا بين يديك"¹.

ويذكر ابن الجوزي في أمر مقتل نظام الملك: "ودبر ذلك تاج الملك² وتركان خاتون زوجة السلطان، لأنها أرادت من السلطان أن ينص على ولدها محمود فثناه عن رأيه النظام، فخشوا من النظام تشبيطا عن مرادهم"³.

ويذهب في نفس السياق الراوندي الذي أكد أن تاج الملك حرض الباطنية على نظام الملك ليقتلوه وأردف قائلا: "ولم يكن من عداهم- يعني الباطنية- من سائر المسلمين ليُقدّموا على قتله"⁴.

كما أن محبة نظام الملك على الأجناد والعساكر التي نافقت عن العشرين ألفاً⁵، إلى جانب تصرفه في توليه المناصب الحساسة في الدولة إلى من يثق بهم، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأبنائه فقد كان له اثنا عشر ولدا نصّب كل واحد منهم على عمل أو ولاية⁶، كل هذا

¹- الحسيني ، المصدر السابق، ص68.

²- تاج الملك أبي الغنائم المزربان بن خسروفيروز المعروف بابن دارست ، كان عدوا لنظام الملك ، وكان كبير المنزلة عند مخدومه ملكشاه ، فلما قتل رتبته موضعه في الوزارة ، ثم أن غلمان نظام الملك ، وثبوا عليه فقتلوه و قطعوه إربا إربا في ليلة الثلاثاء 12 محرم 486هـ/1092م ، ابن خلكان ، المصدر السابق، ج2 ، ص 131.

³- ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 306 .

⁴- الراوندي ، المصدر السابق ، ص209.

⁵- الحسيني ، المصدر السابق، ص68.

⁶- الراوندي ، المصدر السابق ، ص 206. ويذكر ابن الجوزي أن له من الأولاد خمسة من وزروا للسلطين ، ويعتبر ابنه أبو نصر أحمد وزير الخليفة المسترشد العباسي أكبر نموذج على توسع دائرة صلاحياته ، ابن الجوزي ، المنتظم، ج 16 ، ص305. ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 412. السمعاني ، المصدر السابق، ج12 ، ص 263.

أثار ثائرة أعدائه وسوغوا للسلطان عزله¹، فأصبح ينتظر الفرصة المناسبة للإطاحة به، وقد صح في الكثير من الروايات التاريخية عن بعض المشاهدات بين السلطان ملكشاه ونظام الملك، حول إسرافه في أموال الرعية والتصرف مع الأجناد².

هذا وقد أثار السبكي نقطة مهمة في الخلاف بين نظام الملك والسلطان ملكشاه بعيدة كل البعد عن الإسراف في الأموال والتصرف في شؤون الدولة والرعية، وإن صح ما ذكره -مع استبعادنا لذلك - أمكن أن ننسب قتل نظام الملك إلى ملكشاه، وهذا الخلاف مفاده أن هذا الأخير تغير على نظام الملك لحسن علاقته بالخليفة العباسي، والخليفة آن ذاك هو المقتدي بالله التي كانت تربطه صلات قوية بنظام الملك³، ومن جهة أخرى نجد أن ابن الجوزي ذكر عن ابن عقيل أن السلطان ملكشاه كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنية ثم تتصل من ذلك وراجع الحق بعد أن وعظه ووضح له الأمر⁴، والراجح أنه تأثر بدعوة الحسن بن الصباح الذي تبادل معه المراسلات بشكل لافت⁵، وشكك له في أمور دينه ودينياه، خاصة في صحة إمامة بني العباس، وأحقيتهم في خلافة المسلمين، فعزم السلطان على طرد الخليفة من بغداد⁶، وعرف أن ذلك لا يتم له ونظام الملك في الحياة، فعمل على قتله قبل الوصول إلى بغداد⁷.

¹ - الثعالبي ، المصدر السابق ، 35.

² - انظر نص تلك المشاهدات في الملحق رقم 01 والملحق رقم 02 ص 490-491.

³ - فالمعروف عن نظام الملك أنه كان يعظم أمر الخليفة و يتقرب إليه ،وفي يوم دخل على المقتدي بالله فأذن له في الجلوس و قال له : " يا حسن بن علي رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك " ينظر : السبكي ، المصدر السابق ، ج4، ص 322 .

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 313.

⁵ - أنظر نص تلك الرسالة في الملحق رقم 03، ص 492-495.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 313. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6، ص 535.

⁷ - السبكي ، المصدر السابق، ج4 ، ص 324.

والواقع أن قول ابن الجوزي أن ملكشاه عاد عن ذلك ولعن الباطنية يفند احتمال تورط السلطان في قتل نظام الملك.

كما أورد ابن العديم قصة تبرئ ملكشاه من تورطه في قتل وزيره نظام الملك مفادها أن السلطان ملكشاه جاء يتفقد نظام الملك وهو يفتقده ويتوجع له فقال له نظام الملك: "يا سلطان العالم كبرت في دولة أبيك ودولتك، كنت تمهلت علي فما بقي من عمري إلا القليل، أو صرفتني ولا أمرت أن يفعل بي هكذا، فأخرج السلطان مصحفا في تقليده، وحلف له بما فيه أنه لم يأمر ولم يعلم، ثم قال: وكيف أستجيز هذا وأنت بركة دولتي، وبمنزلة أبي"¹.

كما أن ابن الأثير يؤكد أن نظام الملك قُتل على يد أتباع الحسن بن الصباح بعد أن ذاقوا ذرعا من الحصار الذي فرضه عليهم في قلعة ألموت²، فقد "سد نظام الملك مسالك تلك القلعة بالعساكر، بعدما تأكدت فتنة ابن الصباح وانتشر شررها وكثر ضررها"³.

ومن خلال آراء المؤرخين في مقتل نظام الملك يُستبعد احتمال تورط السلطان ملكشاه في ذلك، فكل تلك الحجج مجتمعة لا تخول للسلطان ولا تدفعه للتفكير في قتل وزيره نظام الملك لما عرف عن السلاجقة العظام من مقاومة الإسماعيلية الباطنية، ولم يشكل نظام الملك الخطر الذي يدعو بالخليفة لاغتياله بالاعتماد على ألد أعدائه، وإنما ثبت عن الباطنية ترصدهم لعلماء أهل السنة وقتلهم عند كل فرصة سانحة لتنشيط نشاطهم، وكان نظام الملك أحد أهدافهم لما بذله من جهود سياسية وعسكرية وعلمية لمواجهةهم والقضاء عليهم.

¹ - ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج 5 ، ص 2497.

² - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 39.

³ - الحسيني ، المصدر السابق ، ص 139.

وقد رثى مقاتل بن عطية المسمى بشبل الدولة أبي الهيجاء الوزير نظام الملك بقوله¹:

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ لُؤْلُؤَةً يَتِيْمَةً صَاغَهَا الرَّحْمَانُ مِنْ شَرَفٍ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الْأَيَّامَ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدَفِ

ثم مات السلطان ملكشاه بعد مقتل الوزير نظام الملك بخمس وثلاثين يوما²، وكانت وفاته ليلة الجمعة منتصف شوال سنة 485 هـ/1092م، واختلف في سبب موته على ثلاثة أقوال: أحدهما أنه خرج للصيد بعد صلاة العيد فأكل من لحم الصيد واقتصد فحم فمات، والثاني: أنه طرقتة حمى حادة فمات. والثالث: أن خردك سممه في خلال هلك به وكان عمره سبعا وثلاثين سنة، ومدة ملكه تسعة عشر سنة وأشهر" حسب ابن الجوزي³.

10- الدور السياسي والعسكري لخلفاء ملكشاه في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي :

بعد وفاة السلطان ملكشاه دبَّ النزاع بين أفراد البيت السلجوقي، وتنافس أبناء ملكشاه وظهر في أفق النزاع أسماء بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر أبناء السلطان ملكشاه، وانتهى الأمر بتولية بركياروق سلطانا للسلاجقة 487 هـ/1093م⁴، وأمام هذا الوضع انتهز النزارية الباطنية فرصة الاضطرابات بين أفراد البيت السلجوقي فحاولوا تحسين علاقتهم

¹- الحسيني ، المصدر السابق ، ص 71. ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 307. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 2، ص 130.

²- ابن الأثير ، الكامل ، ج 8، ص 479، ابن خلكان ، المصدر السابق، ج 2، ص 131.

³- ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 313.

⁴- وكان قد تولى سلطنة السلاجقة محمود بن ملكشاه من سنة 485 هـ/1092م إلى 487 هـ/1093م وهو لا يتجاوز الخمس سنوات بتدعيم من والدته خاتون ووزيرها تاج الملك وباعتراف من الخليفة العباسي المقتدي ولقب بناصر الدنيا والدين، وبعد صراع بين محمود و بركياروق، انتهى الأمر بتولي بركياروق وإعلان الخطبة له على المنابر في بغداد وباقي المناطق السلجوقية. ينظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج 8، ص 484- 493. Taef kamal EL-Azhari -

ببعض الأمراء فتمكنوا من استمالة تاج الدولة تنتش أخي السلطان ملكشاه أمير دمشق، والذي كان يطمع في زعامة البيت السلجوقي¹، ولما قُتل استمالوا ابنه رضوان وحاولوا التدخل بين بركياروق وأخيه محمد عندما دب النزاع بينهم، فنصروا بركياروق على أخيه محمد ودخلوا في جيشه حتى أصبحوا يكونون ريعه².

وفي هذه الأثناء استغل الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي فرصة الصراع بين السلاجقة واستمال رضوان بن تاج الدولة تنتش صاحب حلب ووعدته بالإمدادات المادية والعسكرية ضد أعدائه، مقابل إعلان الدعوة للخليفة العبيدي المستعلي بالله، فتم إعلان الخطبة في المنابر للخليفة العبيدي بحلب يوم الجمعة 17 رمضان سنة 490هـ/1097م، وعلى الرغم من أن الدعوة العبيدية في حلب لم تدم أكثر من أربعة أسابيع³ إلا أن في ذلك دلالة على ترقب الشيعة لنقاط ضعف أهل السنة واستغلالها لصالحهم.

لكن لم يلبث أن تنبه بركياروق إلى خطر الباطنية واستفحال أمرهم خاصة بعد أن أنُهم بالميل إلى مذهبهم فأمر بقتلهم والفتك بهم فأخذوا من خيامهم وأخرجوا إلى ميدان عام فقتلوا فيه ولم يُفلت منهم إلا من لم يعرف⁴، وفي سنة 494هـ/1100م قتل السلطان بركياروق عددا كبيرا من الباطنية بأصفهان ممن تحقق مذهبهم، وقد بلغوا أزيد من ثمانمائة⁵.

وبعد بركياروق، حرص السلطان محمد على استئصال شوكة الباطنية، فخاض معهم حروبا متصلة لمدة سبع سنوات، تمكن فيها من الاستيلاء على الكثير من قلاعهم ولم

¹ - يوسف إبراهيم الشيخ ، المرجع السابق ، ص 127.

² - نفسه ، ص 127.

³ - Taef kamal EL-Azhari, Op.cit , p :88.

⁴ - النويري ، المصدر السابق ، ج 26، ص 354-355..67: p , Sanaulah Mawlawi Fadil, opcit

⁵ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 17، ص 62. ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص 36. ابن كثير، المصدر السابق ، ج 6، ص 549.

يتهاون في التخلص ممن يميل إلى هذه البدعة أو ينتسب إليهم، ولما كانت علاقته بالباطنية عدائية إلى هذا الحد وقد يؤس النزارية من كسب محمد إلى صفهم، استمالوا وزيره "سعد الملك الآبي" وطائفة من العاملين في بلاطه ، فقد حاول سعد الملك قتل السلطان بتدبير من الباطنية في أصفهان الذين اشتد عليهم الحصار لكن السلطان محمد تقطن للأمر وألقى القبض على وزيره وصلبه على باب أصفهان حتى مات هو وأربعة من أعيان أصحابه¹.

وكان في أصفهان شخص يسمى عبد الملك بن عطاش وكان يتشيع في البداية ثم اتهم بعد ذلك بالإلحاد ونهض أئمة أصفهان لطرده وقتله ففر إلى الري والتحق بالحسن بن الصباح ، وكان لابن عطاش هذا ولد اسمه أحمد، أظهر أنه يتبرأ من مذهب أبيه وعقيدته²، لكنه كان يُظن عكس ذلك وقد استطاع أن يسيطر على قلعة "دركوه" بالقرب من أصفهان، وهي القلعة التي أمر السلطان ملكشاه ببنائها وسماها قلعة الملك "شاه دز"³ وكانت تتخذ في غياب السلاطين مستودعا للخرائن والأسلحة ومقرا لغلمان الملك وجواريه، وكان يقوم على حراسة هذه القلعة مجموعة من الديالمة فسعى أحمد بن عبد الملك للتقرب منهم والتودد إليهم حتى تمكن من ضمهم إلى صفوف دعوته ونُصب حاكما للقلعة وقد بلغ عدد أتباعه ثلاثين

¹-الراوندي ، المصدر السابق ، ص244- 245. ابن الأثير ،الكامل، ج 9، ص111.

²- نفسه ، ص238

³- نفسه ، ص239، وسبب بناء ملكشاه لهذه القلعة أنه ورد إليه متقدم الروم وأظهر الإسلام فخرج معه للصيد فهرب منه كلب معروف بجودة العدو إلى الجبل ، فصعد السلطان وراءه فقال له الرومي : لو كان هذا الجبل عندنا لبنيينا عليه قلعة ينتفع بها و يبقى ذكرها ، وعليه بناها ملكشاه و انفق عليها ألف و مائتي ألف دينار، فكان أهل أصفهان لما ابتلوا بآبن عطاش يقولون : أنظروا إلى هذه القلعة كان الدليل على موضعها كلب والمشير ببنائها كافر، وخاتمة أمرها هذا الملحد. ينظر: ابن الجوزي ، المنتظم ، ج17 ، ص 101.

ألف رجل¹، "ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق والخوف الدائم"² حسب بن الأثير .

لما فرغ السلطان محمد بن ملكشاه من مشاكله السلطوية مع أخيه بركياروق عاد إلى أصفهان فوجد أن الباطنية سيطروا على قلعة "دركوه" طيلة اثنتي عشرة سنة³ وقوي شأنهم هناك وحملوا إليها كثيرا من الذخائر والأسلحة، فعزم السلطان محمد على استئصال شأفتهم فقتل صاحبهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش سنة 500هـ/1106م⁴ و يصف لنا ابن الجوزي ذلك فيقول: " فنزل بهذه القلعة فحاصرها سنة فأرسلوا إليه لأن ينفذ إليهم من يناظرهم، فأنفذ فلم يرجعوا، ثم ضاق الأمر بهم فأذعنوا بالطاعة فأخرجهم إلى أماكن التمسوها ونقضها في ذي القعدة من هذه السنة - 500 هـ/1106م- ، وقتل رئيسها ابن عطاش وسلخه، وقتل ابنه وألقت زوجته نفسها من أعلى القلعة ومعها جوهر نفيس فهلكت وما معها"⁵ .

ولم يتوقف نشاط محمد بن ملكشاه في مقاومة الباطنية عند هذا الحد بل واصل استيلاءه على قلاعهم وحصونهم فسير جيشا بقيادة الأمير أنوشتكين شيركير لحصار قلعة ألموت معقل الحسن بن الصباح بعد أن اشتد أذاهم على الناس، فملك شيركير عدة قلاع

¹ - الراوندي ، المصدر السابق ، ص 238-240.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج9، ص 38.

³ - ابن عماد الحنبلي ،المصدر السابق ، ج5 ، ص 424. ويذكر الراوندي أنهم ملكوها سبع سنوات قبل عودة السلطان محمد بن ملكشاه ، ينظر: المصدر السابق، 242. أما الذهبي فيذكر أنهم ملكوها عشر سنوات الذهبي ، سير أعلام النبلاء، ج19، ص 267.

⁴ - ابن عماد الحنبلي ،المصدر السابق ، ج5 ، ص 424.

⁵ - ابن الجوزي ، ج17 ، ص 101، 102. ابن عماد الحنبلي ،المصدر السابق ، ج5 ، ص 424. راجع في حصار القلعة وإلقاء القبض على ابن العطاش وكيفية قتله : الراوندي ، المصدر السابق ، ص 246. ابن الأثير، الكامل ، ج9، ص 107-109.

منها قلعة "كلام" في جمادى الأولى 505 هـ / 1111م¹، وكان مقدمها يعرف بعلي بن موسى، فأمنه ومن معه وسيره إلى الموت، وملك منهم أيضا قلعة ديرة على بعد واحد وعشرين ميلا من قزوين وأمنهم وسيرهم إلى الموت وفرض عليهم حصارا شديدا ضاق بهم فطلبوا الأمان ولم يستجب لهم²، واستمر الحال على ذلك حتى توفي السلطان محمد 511هـ/1118م فقويت نفوسهم وأراد الجنود الرحيل عن القلعة ولكن أنوشتكين شيركير خوفهم من اعتداء الباطنية عليهم وانتزاع أقاتهم وذخائرهم ووافقوا على رأيه ثم عادوا ورحلوا دون مشاورة، وبقي شيركير في قلعة واشتبك مع الباطنية وغنموا ما تخلف عندهم³.

وفي نفس السياق، عُرف عن محمود بن محمد بن ملكشاه كرهه الشديد للشيعية والباطنية وكان يُكنى لهم عداوة شديدة، ولم تذكر المصادر مواجهات عسكرية مباشرة بين الطرفين إلا أنه حرمهم من امتلاك المدارس والخانات وحضور مجالس البحث والمناظرة، غير أن ميله للمتعة قلل من قيمة دوره في هذا الصراع⁴.

هذا وقد حرص السلطان سنجر على مهاجمة الإسماعيلية والحد من نفوذهم، والقضاء على زعيمها الحسن بن الصباح وأرسل جيشا لمحاصرته في قلعة الموت لكنه فشل في تحقيق هدفه، وأرسل إليه الحسن بن الصباح رسالة يهدده بقوله: "أن الذي استطاع أن يغرس هذا الخنجر في الأرض اليابسة، يستطيع أن يغرسه في صدر السلطان"⁵.

كما طارد سنجر الحشيشية في خراسان سنة 497هـ/1104م، فقتل أعدادا منهم وحاصرهم في قلعة طبس وغيرها من القلاع والقرى المجاورة، ومع ذلك فقد أشار عليه أعوانه بأن

¹ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص168.

² - نفسه، ص168.

³ - نفسه، ص169.

⁴ - يوسف إبراهيم الشيخ، المرجع السابق، ص239.

⁵ - عبد الحميد حسن حمودة، المرجع السابق، ص96.

يؤمنهم مقابل ألا يبنوا حصنا ولا يشترون سلاحا، ولا يدعون أحدا إلى مذهبهم ، ويبعدوا أنه عجز عن القضاء عليهم فاستجاب لمشورة أعوانه رغم أن المعروف عن الباطنية تملصهم من العهود والمواثيق¹ .

توفي الحسن بن الصباح في سنة 518 هـ / 1124 م²، فشدد سنجر هجماته للقضاء على الطائفة الإسماعيلية في ألموت، فجهز جيشا لغزو الباطنية وملاحقتهم أينما وجدوا، وبالمقابل لم يقف الباطنية مكتوفي الأيدي ففي سنة 516 هـ / 1122 م، قتلوا الوزير الكمال أبا طالب السميرمي وزير السلطان السلجوقي محمود الثاني³، وفي سنة 518 هـ / 1124 م قتلوا القاضي أبا سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمدان وكان قد أرسله الخليفة العباسي المسترشد بالله إلى السلطان سنجر يخطب له ابنته⁴.

وفي سنة 521 هـ / 1126 م، قتل الباطنية معين الملك أبا نصر أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر وكان لهذا الوزير أثار حسنة في قتالهم فرزقه الله الشهادة⁵، فسار السلطان سنجر على رأس جيش لقتال الباطنية في قلعة ألموت فقتل منهم خلقا كثيرا حوالي اثني عشر ألفا⁶، وقد باشر سنجر هذه الهجمات بنفسه كما ساندته في ذلك أمراؤه الذين خرجوا في حملات متكررة لغزو معاقل الباطنية، ففي سنة 546 هـ / 1151 م خرج الأمير قجق، في

¹ - سهيل طقوش ، تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق ، دار النفائس ، بيروت ، ط1، 2010، ص 169-170.

² - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 95. ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص 231

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 215.

⁴ - ابن قلائسي، المصدر السابق، ص 210.

⁵ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص 244.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 17 ، ص 244. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 226

طائفة من عسكر السلطان سنجر إلى طريثيت بخراسان، وأغار على معاقل الباطنية هناك فخرَّب وأحرق المساكن وقتل الخلق الكثير وعاد سالماً¹.

وعلى الرغم من الضربات المتتالية للباطنية التي وجهها إليهم السلطان سنجر الذي قال عنه ابن الأثير: "وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم إلى أن مات"²، إلا أنها لم تُخمد شوكتهم، ففي ربيع الثاني سنة 549 هـ / 1154م، اجتمع من الإسماعيلية خلق كثير من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف بين راجل وفارس، وزحفوا إلى خراسان منتهزين فرصة انشغال السلطان سنجر بقتال الغز فتصدى لهم محمد بن أنز من أكبر أمراء خراسان وأنزل بهم هزيمة ساحقة وهلك أعيانهم وساداتهم وأسّر كثير منهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع³.

11- ضعف السلاجقة وتفككهم وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعي:

يمكننا القول أنه بنهاية عصر السلاجقة العظام انفرط عقد الدولة السلجوقية وتمزقت وحدتها، وازداد نفوذ الإسماعيلية⁴، ولم تقلح جهود السلاجقة الأواخر في المحافظة على وحدة الدولة إلا وقتاً قليلاً⁵، بسبب الصراع الداخلي الذي عرفته الأسرة، فقد كان مقتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ السلاجقة، إذ انتهى

¹ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 371.

² - نفسه، ج9، ص 316.

³ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 399.

⁴ - ازداد نفوذ الإسماعيلية خاصة في بلاد الشام حيث ظهرت في تلك الأثناء إمارات شيعية تدين بالولاء للخلافة الفاطمية في مصر أهمها: الأسديون في الحلة غرب بغداد (403-529هـ)، إمارة بني عقيل في الموصل وشمال الشام (453-489هـ)، إمارة بني عمار في طرابلس (462-503هـ)، إمارة بني منقذ في شيزر (468-521هـ). ينظر: محمد حامد الناصر، الجهاد والتجديد في القرن السادس هجري، مكتبة الكوثر، الرياض، ط1، 1998، ص 46-50.

⁵ - محمد عبد العظيم يوسف، المرجع السابق، ص 111.

باختفاء السلطان ووزيره من المسرح السياسي عهد القوة والاتحاد، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام، وكان أهم مظهر من مظاهر هذا العهد الجديد هو أن الظفر بمنصب السلطنة أصبح هو غاية في ذاته، فكثر النزاع بين أفراد البيت السلجوقي.

فبعد وفاة ملكشاه تنازع ابنه بركيارق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو اثني عشر سنة إلى أن توفي بركيارق، واستقرت السلطنة لمحمد¹، وفي تلك الأثناء اشتدت شوكة الباطنية الملاحدة خاصة في أصفهان²، ووافق ذلك الصراع خلافة الأمر بأحكام الله العبيدي الذي كان مستهترا بالمملكة، فخلا الجو من قوى فعلية تتبنى الدفاع عن ديار المسلمين، ففي مدة تلك الحروب ظهر الصليبيون بالساحل، وملكوا أنطاكية أولا ثم غيرها من البلاد³ وفي ظل هذا الصراع على السلطنة نجد بعض سلاطين السلاجقة يعتمدون على الإسماعيلية في جيوشهم لمواجهة خصومهم من نفس الأسرة للظفر بالسلطنة لصالحه كما حدث في الصراع القائم بين السلطان سنجر ومحمود ابن أخيه سنة 514هـ/1120م، لما بلغه نبأ وفاة السلطان محمد بن ملكشاه⁴.

فلم تعد الدولة في هذا العهد تخضع لسلطان واحد، بل كان يتنازعها أكثر من سلطان في وقت واحد ولم يعد هم أمراء السلاجقة نصره الإسلام السنة ومحاربة الشيعة وتوسيع أملاك الدولة السلجوقية كما كان الحال في عهد طغرلبيك وألب أرسلان وملكشاه، وإنما كان

¹ - أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي الدمشقي ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق إبراهيم الزبيق، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1997، ج1، ص 101.

² - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج9، ص 37. ابن النظام الحسيني محمد بن محمد بن عبد الله ، العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق: عبد النعيم محمد حسنين، حسن أمين، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1979، ص83.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق، ج1، ص 101. محمد كرد علي، خطط الشام ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص248

⁴ - بدر الدين ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1، 1971، ص 84 . ابن الأثير ، الكامل ، ج9، ص 27.

همهم القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم¹، فنتج عن هذا النزاع الأسري حروب استنزفت المال والرجال، وكانت وراءها تكتلات سياسية فرجال السياسة والوزراء كل يؤيد أميراً سلجوقياً.

وإزداد الأمر سوءاً خاصة بعد صراع السلاجقة مع خلفاء بني العباس²، فالمعلوم أن اعتراف الخليفة العباسي بالسلطان السلجوقي كان أمراً ذا أهمية لتأييد الرعية والجند لحكمه ولذلك كان السلاطين يحرصون كل الحرص على اعتراف الخليفة بسلطانهم وإذا ما حصل خلاف بين الخليفة والسلطان كان الناس عامة يؤيدون الخلافة على أنها رمز روحي وقوة النفوذ بيد الخلفاء³.

وبذلك انفرط عقد السلاجقة فب وفاة ملكشاه دخلوا في دائرة صراع أفقدتهم دورهم المحوري في العالم الإسلامي وهو حماية الخلافة العباسية والقضاء على الأخطار المترصدة بها من شيعة وصليبيين، واختفى دورهم من الساحة السياسية تدريجياً بعد أن فقدوا تأييد العامة والسلطة، وأصبح وجودهم ونفوذهم يعني تفاقم الخطر وتراجع مكانة العالم الإسلامي في وقت تكالبت فيه القوى الصليبية على ممتلكات المسلمين.

12- الصراع السني الشيعي وأثره في الامتداد الصليبي على العالم الإسلامي:

كانت سلطنة السلاجقة هي التي تسيطر على المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، وكان العراق تابعاً لها ومن ضمن ممتلكاتها، وقد امتدت الإمارات السلجوقية باتجاه

¹ - حسن أحمد محمود ، أحمد إبراهيم الشريف ، المرجع السابق، ص 601. خالد عزام ، المرجع السابق، ص 255.

² - خاصة زمن الخليفة العباسي المسترشد بالله الذي ثار ضده السلطان محمود سنة 521هـ/1126م ببغداد ، وقتل من جراء ذلك عدد كبير من المقاتلين ونهبت الأموال والدور، وثارت العامة مع الخليفة ضد السلطان وأخذوا يصيحون: يا باطني تنترك قتال الفرنج وتقاتل الخليفة ؟. للتوسع أكثر حول الصراع ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 17، ص 241. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6، ص 585.

³ - محمد حامد الناصر ، المرجع السابق، ص 56.

الأناضول حتى سيطرت على معظمها، وكان سلطان السلاجقة في هذا الوقت هو السلطان بركياروق الذي حدثت بينه وبين أخيه محمد بن ملكشاه نزاعات داخلية شغلته عن مواجهة الصليبيين، بعد أن كانوا بمثابة جدار صد في وجه القوى الصليبية، فسمحت النزاعات داخل البيت السلجوقي للصليبيين بالتوغل في بلاد الشام وتثبيت أقدامهم بها وتأسيس إماراتهم هناك بعد أن كانت من أملاك السلاجقة¹، على أن الضعف لحق بالعالم الإسلامي ليس فقط بسبب انقسام أملاك السلاجقة، بل كان للشيعية العبيديين يد في ذلك، حيث لم يتوانوا عن استغلال الصراع الذي حدث بين دقاق ورضوان أمراء دمشق وحلب على التوالي، وهاجموا بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس سنة 490هـ/1096م²، في الوقت الذي كانت فيه الأولوية مساعدة الأقاليم التي تلقت الضربة الأولى من الصليبيين، فتركوا بذلك المجال مفتوحاً أمام الصليبيين للتقدم نحو بيت المقدس.

ففي سنة 490هـ/1096م "قدمت الفرنج الملاحين إلى بلاد الشام، وكان ظهورهم من بحر قسطنطينية في جمع عظيم، فعظم الخطب وكثر الهم وكان ذلك في أيام المستعلي بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله، خليفة مصر الفاطمي"³.

ويذكر ابن الأثير: أن من أسباب هجوم الصليبيين على المشرق الإسلامي، هو مراسلة العبيديين للصليبيين وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة⁴ لأن هؤلاء تغلبوا على العبيديين وافتكوا منهم البلاد الشامية، زيادة على الخلافات المذهبية بين أهل السنة والشيعية، والتي كانت على أشدها في تلك الفترة، ولقد كان العبيديون يُعلقون آمالاً كبيرة على مهاجمة

¹ - سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية، عهد الجهاد المبكر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990.
ج2، ص56.

² - أرست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، دار النهضة العربية، لبنان، 1964. ص 32-33.

³ - أحمد بن علي الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين، تحقيق: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، 1981. ص62

⁴ - ابن الأثير الكامل، ج9، ص14.

الصلبيين للقوات السلجوقية، فإذا استطاعوا زحزحة السلاجقة عن مركزهم وأضعفوا من شأنهم فإن هذا يُمكن العبيديين من إرجاع الأراضي التي اغتصبها منهم السلاجقة منذ زمن ليس ببعيد¹.

ويؤكد ويليم الصوري² ذلك بقوله: "وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة إلى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءت الأخبار بضياح نيقية من يد قلج أرسلان، وبهزيمة جيشه فيها، وأتلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية، وعدّ كل خسارة تُصيب الأتراك مكسبا له، ورأى أن المصائب التي تلم بهم تعمل على استقرار أمته وأمن رعاياه"³.

ونقف هنا أمام نقطة مهمة وهي أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومينيوس (473-511هـ/1081-1118م)، قد نصح الصليبيين قبيل زحفهم على بلاد الشام بعقد أوامر الصداقة مع العبيديين الذين كانوا يكرهون الأتراك السلاجقة، ويرغبون في العمل ضدهم⁴، وقد أرسل الوزير العبيدي بدر الجمالي (465-487هـ/1073-1093م)، صاحب النفوذ الفعلي في مصر، أرسل سفارة إلى المعسكر الصليبي وهو محاصر أنطاكية، بعد أن تخوف

¹ - محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص35. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج1، ص248.

² - ويليم الصوري، ولد بببيت المقدس سنة 523هـ/1130م، قضى شطرا طويلا من حياته في تلقي العلوم منتقلا بين بيت المقدس وإيطاليا وفرنسا، منكباً على الدراسات الدينية، وقد تولى ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينية وكان سفيراً لملك عموري إلى بلاط إمانويل امبراطور بيزنطة، إلى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة في سلك الكهنوت المسيحي إذ صار رئيس أساقفة صور و مات سنة 1185م، وهو يتطلع في حسرة إلى ان يكون بطرك بيت المقدس. ويليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ج1، ص10-11.

³ - ويليم الصوري، المصدر السابق، ص304.

⁴ - ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم، الجهود الحربية المشتركة بين السنة والشيعية ضد الصليبيين، قنا، مصر، دت، ص193. جمال بدوي، المرجع السابق، ص139.

من تراجع الصليبيين بسبب طول الحصار، فبعث بسفراءه إلى زعماء الصليبيين يرجوهم الاستمرار في حصار أنطاكية ووعدهم أنه سيدعمهم بالجند والذخيرة¹، كما كانت هذه السفارة تحمل اتفاقية بين مصر وبين الصليبيين، بمقتضاها تكون أنطاكية للصليبيين، وبيت المقدس للعبيديين، على أن يُسمح للصليبيين بزيارة الأراضي المقدسة بشرط أن لا تزيد إقامتهم على شهر واحد²، وهذا دلالة كبيرة على تقاعس العبيديين في حماية ممتلكات المسلمين وإشارة ضمنية حول نوايا العبيديين في التخلص من السلاجقة بأي ثمن، ولو كان ذلك على حساب مقدسات المسلمين.

استغلت القوى الصليبية الصراع بين الخلافة العباسية السنية والدولة العبيدية الشيعية لصالحها³، حتى أكملوا احتلال أهدافهم الأولية التي كانت تنحصر باحتلال مدينة أنطاكية وأقاليمها، فسقطت أنطاكية سنة 491هـ/1097م⁴ وأصبح بوهموند أميراً لها⁵.

وعليه قرر الصليبيون التقدم نحو القدس التي كانت في هذا الوقت تابعة للخلافة العبيدية⁶، وعلى إثر ذلك أصبح موقف الخلافة العبيدية هزيعاً مما أدى إلى سقوط معظم

¹ - وليم الصوري ، المصدر السابق، ج1، ص304-305.

² - ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق، ص193.

³ - أرنست باركر، المرجع السابق، ص 32.

⁴ - نفسه، ج9، 14، 15.

⁵ - كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة ، نبيه أمين فارس ، منير بعلبكي ، دار العلم لملايين، بيروت ، ط2، 1979. ص346.

⁶ - وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك بوادر في زمن السلاجقة الأواخر لتوحيد الجبهة الإسلامية في السنوات الأولى من القرن السادس هجري الموافق للحادي عشر الميلادي، حيث بدأ المسلمون برفع راية الجهاد ضد الصليبيين، وتعد سنة 503 هـ/ 1109م، من السنوات المهمة في هذا الصراع، ففي هذه السنة عهد السلطان محمد بن ملكشاه إلى شرف الدولة مودود أتابك الموصل بالخروج على رأس حملة إلى الرها لجهاد الصليبيين لكن هذه الحملة انهزمت أمام القوى الصليبية بسبب الدعم الذي لقيته من ملك بيت المقدس بلدوين الأول . ينظر: ابن قلائسي ، المصدر السابق ، ص 165 - 166. محمود محمد الحويري ،بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين ، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1992. ص 64، 65.

الموانئ التي كانت تابعة لها على سواحل بلاد الشام بيد الصليبيين ولم يكتف هؤلاء بهذا القدر من النصر بل طمعوا في احتلال مصر نفسها بعد أن اكتشفوا ضعف الخلافة العبيدية.

وقد وصف أحد المؤرخين الصليبيين موقف الخلافة العبيدية خلال هذه الفترة فقال: "أما سلطة مصر ملك الخليفة فمن حيث أنها ضعفت جدا من كثرة الخسائر والكسرات التي ألمت بعساكرها في مواقع عديدة، فالمسيحيون ما عادوا يهابونها كما كانت في السابق مخيفة لهم ولم يعد عندهم الخوف إلا من كثرة عساكر الخليفة في بغداد"¹.

وليس من قبيل الصدف أن تفتقر حركة الجهاد والفتوحات كلما كانت الغلبة في المشرق الإسلامي للشيعية، فلما كان البويهيون في العراق والحمدانيون - وهم شيعة أيضا - في دمشق، والعبيديون في مصر، استحوذ النقفور ملك الأرمن واسمه الدمستق على كثير من السواحل وذلك لتقصير هؤلاء في الدفاع عن الممتلكات الإسلامية، وانشغالهم ببدعهم وقهر أهل السنة بينهم²، ونجد نفس الأمر يتكرر بسيطرة العبيديين على أقاليم هامة في بلاد الشام، الأمر الذي سهل من مهمة توغل الصليبيين في الأراضي الإسلامية بعد أن انشغل العبيديون بالصراع مع السلاجقة وإنهاك القوى السنية في المنطقة.

وازداد الأمر سوءا بترقب الباطنية للقادة المسلمين واغتيالهم ، فقد اغتيل الأمير مودود، هذا القائد السني الذي أخذ على عاتقه توحيد الجبهة الإسلامية ورفع راية الجهاد ضد الصليبيين، اغتيل من قبل النزارية الحشاشين أتباع الحسن بن الصباح، في صحن جامع دمشق بعد فراغه من أداء صلاة الجمعة، حيث وثب عليه باطني فضربه بسكين فجرحه أربع

¹ -سالم محمد الحميدة ، المرجع السابق. ص 56.

² - عبد الباسط الناشي ، موسوعة التشيع ، الدار التونسية للكتاب ، تونس ، ط2، 2012، ص 222-223.

جراحات فمات في 21 ربيع الأول 507هـ / 1113م¹، وجاء على إثر ذلك كتاب من الصليبيين إلى المسلمين فيه: "إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لتحقيق على الله أن يبيدها"².

وقبل هذا التاريخ سنة 495هـ / 1101م، لما جمع جناح الدولة صاحب حمص، جيوشه لمهاجمة صنجيل الصليبيين، وعلم بعزمه على فتح حصن الأكراد وثب عليه باطني وقتله بالجامع، مما مكن صنجيل من الاستيلاء على الحصن³.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مساهمة الشيعة بشكل أو بآخر في تثبيت حركة الجهاد ضد الصليبيين وترك المجال مفتوح أمامهم للتوسع أكثر على حساب الأراضي الإسلامية، فقد تزامن ظهور الباطنية مع بروز السلاجقة كقوة كبيرة هددت الكيان العبيدي، ثم صعد الباطنية من نشاطهم عند مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس هجري الحادي عشر الميلادي، ولم تكن أيديهم تنال سوى الأشخاص الذين أظهروا شجاعة وبأساً ضد العبيديين أو الصليبيين، بينما نجدهم يتساهلون مع الذين تهاونوا مع الصليبيين أو العبيديين فعدّوا المعاهدات معهم، ثم خفت حدتهم كثيراً بعدما استتب الأمر للصليبيين بديار الشام وأسسوا إمارات ثابتة لهم، وهذه الأمور تؤكد أن هدف الباطنية هو عرقلة نشاط السلاجقة وإثارة المشاكل في طريقهم حتى يعجزوا عن الوصول إلى مقر الخلافة العبيدية ولو أدى ذلك إلى التحالف مع الصليبيين⁴.

وعليه مثل السلاجقة الطوق الحامي للعالم الإسلامي في مرحلة حرجة من التاريخ؛ فخلال القرن الخامس هجري كانت فيها الغلبة السياسية والعسكرية للشيعة، الذين سعوا جاهدين إلى إحكام

¹ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 150. ابن قلائسي ، المصدر السابق ، ص 187 ابن خلكان ، المصدر السابق، ج 1، ص 242. بينما يذكر ابن كثير أن وفاته كانت سنة 505هـ / 1111م، المصدر السابق ، ج 6، ص 562.

² - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 564.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 56.

⁴ - إرشيد يوسف، المرجع السابق، ص 235.

سيطرتهم على العالم آنذاك بعد أن سيطروا على أقاليم شاسعة امتدت من بلاد المغرب ومصر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن كما سيطروا على بغداد قلب الخلافة الإسلامية السنية في ظل بني بويه وازداد الأمر سوءا بعد أن أعلن البساسيري ولاءه للدولة العبيدية في مصر، ولكن قوى السلاجقة المتحمسة كانت بمثابة الحد الفاصل لذلك التوسع وتلك السيطرة وبدأ عهد جديد في التاريخ الإسلامي تمثل في عودة انتصار أهل السنة وعودة سيطرتهم السياسية والعسكرية.

لكن جهود السلاجقة تعرضت إلى المتغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي فقد شن الغرب الصليبي هجمات شرسة ترمي إلى السيطرة على المقدسات واستنزاف خيرات المشرق، إلى جانب ذلك تنامت القوى الباطنية بعد أن ظهرت الفرقة الإسماعيلية النزارية في ألموت ببلاد فارس، فكان لزاما على السلاجقة مواجهة كل هذه الأخطار مجتمعة في ظل خطر داخلي فكك أوصالها وشتت جهودها وهو الصراع حول السلطنة .

وكان للصراع السني الشيعي في القرن الخامس هجري أثر بالغ في تقدم الحركة الصليبية وسيطرتهم على مقدسات المسلمين ومرد ذلك إلى تحالف القوى العبيدية الشيعية مع الصليبيين بعد أن فشلت في مواجهة القوى السنية، وذلك خدمة لمصالحها على حساب الإسلام والمسلمين .

ورغم ذلك نجح السلاجقة إلى حد كبير في إعادة الأمور إلى نصابها الأولى وإعادة هبة الخلافة العباسية، فبحكم أن السلاجقة اعتنقوا الدين الإسلامي وتحمسوا للمذهب السني فقد كانوا قوة جارفة ضد الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي وبذلوا جهودا شهد لها التاريخ ، ومهدوا لنهاية الدولة العبيدية في مصر فقد سلكت القوى السنية التي خلفت السلاجقة في المشرق الإسلامي نفس نهجها في المقاومة والمواجهة .

فمن هي تلك القوى؟ وماهي جذورها التاريخية ؟ وما علاقتها بالسلاجقة؟ وكيف ورثوا لواء الجهاد الإسلامي ضد القوى الشيعية ؟

هذا ما سنُجيب عنه في الفصل الثاني من البحث إن شاء الله .

الفصل الثاني: الدور السياسي والعسكري للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي

بالمشرق الإسلامي (521-569هـ / 1126-1173م):

أولا - أصول الأسرة الزنكية .

1-نشأة الدولة الزنكية .

2-عماد الدين زنكي ومشروع توحيد الجبهة الإسلامية.

3-وفاة عماد الدين زنكي .

ثانيا- دور نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في القضاء على الدولة العبيدية.

1-الدولة النورية وامتدادها الجغرافي .

2-أوضاع مصر في أواخر عهد الدولة العبيدية .

3-أسباب الحملات النورية على مصر.

4-الحملة النورية الأولى على مصر: 559هـ/1163م .

5-الحملة النورية الثانية على مصر ودوافعها 562هـ/1166م.

6-الحملة النورية الثالثة على مصر سنة 564هـ/1168 .

7-مقتل شاور وضم مصر إلى الشام .

8-تولي أسد الدين الوزارة للعاضد ووفاته .

9-إعلان الخطبة للخليفة العباسي ونهاية الخلافة العبيدية .

10- الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين وأثره في مقاومة الوجود الشيعي .

11 -مؤامرة الحشيشية والصليبيين ضد نور الدين محمود .

12-وفاة نور الدين محمود ونهاية جهود الزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي .

الفصل الثاني: الدور السياسي والعسكري للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق الإسلامي (521-569هـ / 1126-1173م):

ساهم ظهور السلاجقة على الساحة السياسية في مساعدة الخلافة العباسية المستسلمة للقوى العسكرية الضاربة سواء العبيدية أو الصليبية، وقد اشتد الصراع بين هذه القوى الثلاث على إقليم الشام خاصة لما يتمتع به من مكانة وموقع استراتيجي مهمين، حيث قام السلاجقة بإحياء حركة الجهاد ضد العبيديين والصليبيين في آن واحد، ونجحوا في بث الحماس في نفوس المسلمين بعد انتصارهم في معركة ملازكرد سنة 463هـ/1070م، هذا الانتصار الذي كان له صداه العميق في العالم الإسلامي آنذاك، لكن سرعان ما لبثت قوى السلاجقة أن خبت بعد الصراع الذي آل إليه البيت السلجوقي على إثر وفاة السلطان ملكشاه سنة 485هـ/1092م.

وقد ساعد على رسوخ الإسماعيلية ضعف السلطة السلجوقية الحاكمة، في خراسان وبلاد الشام وتناحرها فيما بينها على كرسي الحكم - خاصة بعد عهد ملكشاه - ، فاستطاعوا بالخدعة والرشوة التغلغل في صفوف السلاجقة بصورة أوقعت فيما بينهم الخلاف أكثر وأكثر، ومهدت لعوامل الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

فظهرت على الساحة السياسية قوة خلفت السلاجقة في حماية العالم الإسلامي من شذوذ الإسماعيلية وهي الدولة الزنكية.

فقيم تمثل الدور السياسي والعسكري للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي ؟

أولا - أصول الأسرة الزنكية :

كان أول اتصال فعلي للسلاجقة ببلاد الشام عبر أتسز بن أوق الخوارزمي¹ حيث عهد إليه السلطان ملكشاه بمهمة استعادة بيت المقدس من العبيديين، فاستولى على الرملة والبيت المقدس سنة 463هـ/1070م، ثم انطلق لمحاصرة دمشق وأميرها آنذاك هو المعلى بن حيدرة، ولكن هذه المدينة قاومت الحصار السلجوقي خمس سنوات حتى سنة 468هـ/1075م، حيث هرب واليها العبيدي تحت ضغط الحملات المتكررة، وكان سبب هربه أنه أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم، فثار عليه العسكر والعامّة بسبب سياسته الظالمة، فدخل أتسز دمشق في ذي القعدة وخطب بها للمقتدي بأمر الله (467-487هـ/1075-1094م) الخليفة العباسي وبذلك عادت دمشق إلى فلك الخلافة العباسية السنية².

وفي سنة 471هـ/1078م أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تنتش، الذي قطع حصاره لحلب وتوجه نحو دمشق لتخليصها من هجوم العبيديين بناء على طلب واليها "أتسز"، ويبدو أنه كانت له أطماع في المنطقة، فعمد إلى قتل واليها بحجة تلكئه في لقائه خارج أسوار المدينة، ودخل دمشق بعد انسحاب الحملة العبيدية، فباتت له السيطرة على البلاد الشامية، لكن حلب ظلت عقدة أمام هذه السيطرة التامة، فقد نافسه عليها سليمان بن قتلمش صاحب حلب وأنطاكية، فنشبت معركة بين الطرفين انتهت لمصلحة تنتش، فدخل حلب بعد مقتل واليها سنة 479هـ/1086³. ونظرا لتخوف السلطان

¹ - أو "أفسييس الخوارزمي" كما ورد لدى ابن الأثير والنويري : وهو صاحب دمشق، من كبار ملوك الظلم حسب الذهبي، حاصر دمشق وغلت الأسعار على إثر ذلك ثم تملكها صلحا، فخطب للمقتدي بالله العباسي وقطع الدعوة للعبيديين وذلك سنة ثمان وستين. ينظر : الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 18، ص 431. ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 410. النويري، المصدر السابق، ج 23، ص 139.

² - ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 410. أبو الفداء، المختصر، ج 2، ص 192.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 523.

ملكشاه من اتساع نفوذ أخيه قرر توجيه ضربة إليه، فلم يرد تنتش مواجهة أخيه فقال: " لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله فإنه يعود بالوهن علي أولاً"¹، وما لبث أن تراجع إلى دمشق، في الوقت الذي آلت السيطرة على حلب إلى السلطان ملكشاه، يحكمها باسمه صديقه قسيم الدولة آق سنقر سنة 480هـ/1087م².

فمن هو آق سنقر وما علاقته بالأسرة الزنكية ؟

تنسب الدولة الزنكية إلى عماد الدين زنكي³ وهو عماد الدين بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان ينتمي إلى قبائل السبايو التركمانية، وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر الملقب بقسيم الدولة والمعروف بالحاجب⁴ باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه⁵، إذ قال أبو شامة: "فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه يعني - ملكشاه-وممن ربي معه في صغره واستمر في صحبته إلى حين كبره، فلما أفضت

¹ - ابن الأثير ،الكامل، ج 8، ص 444.

² - نفسه ، ص 452. إبراهيم بيضون ، تاريخ بلاد الشام ، دار المنتخب العربي، بيروت ، 1995. ص 295، 296.

³ - لا يزال سبب تسميتهم بزكني غير واضحة ، وهناك قولان في ذلك : الأول مفاده أن ترجمة كلمة زنكي أو زنجي تعني الإفريقي الأسود، ونظرا لأن الزنكيين كانت تغلب عليهم السمرة فقد فُسر لقبهم على أساس ذلك ،وهذا مستبعد لكون أن عماد الدين فقط هو من لقب بذلك دون جده آق سنقر وابنه نور الدين الذي لقب بالشهيد . أما القول الثاني فيعود إلى أسطورة تركية تقول أن لقب زنكي يطلقه الآباء على أبنائهم لحمايتهم من الأرواح الشريرة وأن تصيبهم اللعنة أو الموت، و بما أن عماد الدين كان هو الابن الوحيد لقسيم الدولة آق سنقر فهذا مرجح لأننا نجد عند ابن الأثير شخصية تسمى زنكي بن برسق صاحب همذان ، ولا تربطه أية قرابة بعماد الدين ، فزنكي لقب قديم نسب إلى أشخاص معينين دون أن تربطهم صلة القرابة وقد برز منهم عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية . ابن الاثير ، الباهر ، 19.

Coskun ALPTEKIN , The reign of zangi (521-541/1127-1146A.D) ,Atatürk University Press -ERZURUM-, 1978 , p :19.

⁴ - ابن خلكان، المصدر السابق ، ج1، ص 241. قتيبة الشهابي، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدولة الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا، 1995، ص 15، 16

⁵ - محمد علي الصلابي ، الدولة الزنكية ، دار ابن الجوزي ، القاهرة، ط1، 2007. ص23.

السلطنة إليه بعد أبيه جعله من أعيان أمرائه ومن أخص أوليائه واعتمد عليه في مهماته وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نظام الملك وزيراً¹.

وقد حظي آق سنقر بمكانة رفيعة لدى سلاطين السلاجقة لما قام به من أدوار عسكرية وسياسية في سبيل دعم دولتهم ، ففي عام 477هـ/1084م ساعد ملكشاه في الاستيلاء على الموصل²، كذلك عمل على استعادة حلب من قبضة نوابهم، ومكافأة له أمر السلطان له بحلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية³ وقد قام بدور فعال في توطيد الحكم السلجوقي بها وعمل على نشر الأمن هناك، على نحو ضمن ازدهاراً اقتصادياً لا سيما على الصعيد التجاري⁴، إلا أنه قُتل عام 487هـ/1093م⁵ "على يد السلطان تاج الدولة تنش صاحب دمشق، وذلك أنه استعان به وبصاحب حران والرها على قتال ابن أخيه بركياروق بن ملكشاه ففرا عنه وتركاه، فهرب إلى دمشق فلما تمكن قاتلها بباب حلب فقتلها وأخذ بلادها"⁶.

وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة آق سنقر الداخلية والأمنية وأجمعوا على مدحه حيث يقول ابن القلانسي: "وأحسن السيرة فيها -حلب - وبسط العدل في أهلها، وحمل السابلة للمتتردين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين، فأبادهم وقصد أهل الشر فأبعدهم، وحصل له بذلك من الصيت، وحسن الذكر، وتضاعف الثناء

¹ - أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص93.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص 434.

³ - وكان ذلك بطلب من الوزير نظام الملك الذي قرر إبعاد آق سنقر عن خدمة البلاط لتخوفه من مكانته بعد أن أصبح الساعد الأيمن للسلطان. ينظر: ابن الأثير، الباهر، ص4-8.

⁴ - محمد مؤنس أحمد عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي -السياسة الخارجية للدولة النورية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، القاهرة ، ط1، 1998. ص 30، 31.

⁵ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج6. ص 539. ابن الأثير، الكامل ، ج 8، ص 494.

⁶ - نفسه، ج6. ص 539.

والشكر... فعمرت السابلة بالمتريدين من الأسفار، وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار"¹.

وقال عنه ابن الأثير في كتابه الباهر: "وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته، وحفظا لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع... فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رجالهم وناموا آمين"².

كما أثنى عليه ابن كثير بأنه: "كان من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة وكانت الرعية معه في أمن ورخص وعدل"³.

1-نشأة الدولة الزنكية :

تأسست مملكة بيت المقدس وإمارة الرها وأنطاكية وكونتية طرابلس، وسط انقسام الأمراء المسلمين بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والدولة العبيدية الشيعية في القاهرة، واستمرت الكيانات الصليبية رغم قلة مواردها من الرجال والمال بسبب اختلاف الأمراء المسلمين حول السلطة والنفوذ، لكن المشرق الإسلامي ما لبث أن أخرج اثنتان من كبار القادة، وهم عماد الدين زنكي الذي أسس الدولة الزنكية واسترجع الرها سنة 539هـ/ 1144م⁴، وابنه نور الدين محمود الذي بدأ مسيرة الوحدة بين مصر وبلاد الشام وتحول الاثنان إلى رمز الجهاد وهما من الأتابكة الملوك⁵.

والأتابك لقب تركي مؤلف من (أطا أو أتا) بمعنى الأب أو الشيخ المحترم، و(بك) بمعنى الأمير، والمعنى الإجمالي الأمير الوالد، وقد أطلق أصلا على ممالك السلاجقة

¹ -ابن القلانسي ، المصدر السابق، ص 119.

² - ابن الأثير ، الباهر ، ص15

³ - ابن كثير المصدر السابق ،ج6، ص 539.

⁴ - ابن الأثير ، الكامل، ج 9، ص 331.

⁵ - سوزي حمود ، المرجع السابق، ص 39.

الذين أسندت إليهم مهام الدفاع عن البلاد وتربية فتيان السلاجقة، والنيابة في الحكم عن أمرائهم، إلى جانب خدمة أسيادهم، ثم أصبحوا أنفسهم الحكام¹.

ويرجع السبب في ظهور الأتابكيات إلى وجود بعض الأمراء صغار السن من السلاجقة الذين أسندت إليهم إمارة الدويلات السلجوقية في أواخر عصرها، وكان من الطبيعي أن يكون مع كل أمير من هؤلاء أتابكا يرعى شؤونه، لأنهم كانوا بمثابة الأوصياء أو المشرفين على مصالح هؤلاء الأمراء، وانتهاز هؤلاء الأتابكة فرصة ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستبدوا بحكم هذه الدويلات وكونوا لأنفسهم جيوشا لحماية أتابكيتهم، واستعانوا بالقبائل، فلما أخذت هذه الأتابكيات صفة الدوام استقلوا بها، فتكونت أتابكيات كثيرة بداية مع أواخر القرن الخامس وخلال القرن السادس هجريين².

واستطاع بعض هؤلاء الأتابك من الوصول إلى مناصب رفيعة وتأسيس دول خاصة بهم بعد أن حل الضعف في سلطنة السلاجقة التي تجزأت بعد وفاة السلطان ملكشاه، فقد تمكن طغتكين من تأسيس أتابكية دمشق التي ما لبثت أن حملت اسم ابنه تاج الملوك بوري (الدولة البورية) 497هـ - 549هـ / 1103م - 1154م³.

¹ - وكان الوزير نظام الملك أول من حصل على لقب أتابك من السلطان السلجوقي ملكشاه. ينظر: قتيبة الشهابي، المرجع السابق، ص 15، 16.

² - أحمد الشامي، صلاح الدين والصليبيون، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1991. ص34.

³ - وكان لبوري بن طغتكين مواقف مع الباطنية، فبعد وفاة والده طغتكين أقر وزيره أبا علي طاهر بن سعد المزدغاني على وزارته، وكان هذا الأخير يرى رأي الرافضة الإسماعيلية وكانوا كثيرين بدمشق فقوي بهم وتحكم في البلد، وجاء الخبر إلى بوري بأن وزيره والإسماعيلية قد راسلوا الصليبيين بأن يملكوهم دمشق فقتل المزدغاني وأمر بقتل الإسماعيلية حيثما وجدوا، وفي سنة 425هـ / 1033م ثار الإسماعيلية على بوري وطعنوه فأصابته جراح وشفي منها ثم أعادوا الكرة في رجب 526هـ / 1034م فتوفي منها لأربع سنين ونصف من ولايته. ينظر: رزق الله الصرفي، المصدر السابق، ص129. سوزي حمود، المرجع السابق، ص39، 40.

ومن الأتابكيات المهمة كذلك أتابكية فارس¹، وأتابكية خوارزم²، وأتابكية أرمينية³.

في حين أسس عماد الدين زنكي أتابكية الموصل التي توسعت في عهده 521هـ- 541هـ/1126م- 1146م، لتحمل اسم الدولة الزنكية⁴.

كان ميلاد عماد الدين زنكي سنة 477هـ/1084م، ولما قتل قسيم الدولة آق سنقر سنة 487هـ/1093م⁵، لم يخلف من الأولاد غير عماد الدين زنكي الذي كان حينئذ صبيا في العاشرة من عمره⁶، وكانت تبدو عليه علامات النجابة والشجاعة، كما التف حوله مماليك أبيه وكانوا عددا كبيرا وفيهم الأمير زين الدين علي كوجك بن تكتكين⁷.

ولا ريب أن الدور الكبير الذي لعبه والده آق سنقر في الشؤون السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية، في الفترة ما بين 465هـ-487هـ/1072م-1093م، ساعد إلى حد كبير

¹ - أتابكية فارس: تنسب إلى سلفر قائد إحدى قبائل التركمان التي هاجرت إلى خراسان ، وانضمت إلى طغرل بك ، فعين سلفر في بلاطه ثم استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة 453هـ /1060م فوسع بلاده ومد نفوذه إلى كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة له ، وقد خضعت هذه الأتابكة إلى جينكيزخان ثم لهولاكو عندما اجتاحت المغول الأراضي الإسلامية .انظر هامش :أحمد الشامي، المرجع السابق، 36

² - أتابكية خوارزم تنسب إلى محمد خوارزم شاه بن أنوشكين ، الذي كان ساقيا في بلاط السلطان ملكشاه، ثم تدرج في مناصب الدولة و كان ابنه محمد علام الدين قد اكتسب شهرة واسعة في الأدب و العلوم فعينه السلطان بركياروق حاكما على إقليم خوارزم و منحه لقب شاه - ملك - ، وقد اتسعت هذه الأتابكية وشملت العراق الفارسي بعد هزيمة طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة 590هـ /1193م، و زاد اتساعها في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه، فشملت بلاد ما وراء النهر و سيطرت على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي ، ثم على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد الاستيلاء على غزنة سنة 612هـ /1215م، و قد سقطت هذه الأتابكية في يد المغول بعد أن قتل جلال الدين منكبرتي سنة 628هـ /1231م، بجنال كردستان. ينظر: الذهبي، تاريخ الاسلام، ج2، ص 101. ابن الأثير، الكامل، ج10 : أحمد الشامي، المرجع السابق، 36

³ - أتابكية أرمينية: أسسها سقمان القطبي ، مملوك قطب الدين أسماعيل الحاكم السلجوقي في مدينة مرثد إحدى مدن أذربيجان ، ثم استولى سقمان على خلاط في سنة 493هـ/1099م. أحمد الشامي، المرجع السابق، 36.

⁴ -ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2، ص328. سوزي حمود ، المرجع السابق ، ص 39، 40.

⁵ - ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج5، ص 372.

⁶ -أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 103.

⁷ - هو زين الدين علي بن بكتكين صاحب إربل ووالده مظفر الدين كوكبوري ، توفي سنة 563هـ/1167م . انظر أبو أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 103. ابن الأثير ، الباهر ، ص 15.

في ظهور عماد الدين زنكي، وعندما سيطر القائد السلجوقي كربوغا على الموصل سنة 489هـ/1095م باسم السلطان بركياروق، أبدى اهتماما خاصا بعماد الدين زنكي، كونه ابن أخيه بالإضافة إلى صفاته المبكرة الدالة على النجابة والذكاء والشجاعة فقال: "إنه ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته"¹.

وظل عماد الدين زنكي ملازما لكربوغا بعد أن صارت له مكانة كبيرة في الحاشية حتى وفاة كربوغا 495هـ/1101م²، ولما تولى شمس الدين جكرمش حاكم الموصل خلفا لكربوغا 495هـ-500هـ/1101م-1106م، عمل على إقامة علاقات طيبة مع عماد الدين زنكي للاستفادة منه، ومن قوة مماليكه، ثم توثقت العلاقة بينهما فقربه واتخذه ولدا³.

ولما تولى جاولي سقاوة (500هـ-502هـ/1106م-1108م) الولاية على الموصل كانت علاقة عماد الدين زنكي مع هذا لوالي الجديد طيبة، غير أن عصيان جاولي سقاوة للسلطان محمد سنة 502هـ/1108م دفع عماد الدين زنكي إلى الانصراف عنه⁴، وفي نفس الوقت انضم عماد الدين إلى والي الموصل الجديد الأمير مودود بن التونتكين (502-507هـ/1108م-1113م)، واشترك معه في جميع المعارك التي خاضها ضد الصليبيين في الجزيرة والشام، وعلى أسوار الرها وbacher ومعرة النعمان، وأبدى عماد الدين زنكي خلال تلك المعارك شجاعة ومقدرة على القتال كذلك نال شهرة واسعة عند المسلمين وظل مخلصا لمودود حتى مقتله سنة 507هـ/1113م⁵.

¹ - ابن الأثير ، الباهر ، ص 16.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص 54.

³ - محمد فتحي الشاعر ، الأكراد في عهد عماد الدين زنكي ، دار المعارف ، بور سعيد ، 1990 ، ص 30.

⁴ - ابن الأثير ، الباهر ، المصدر السابق ، ص 17.

⁵ - قتل مودود وهو خارج من المسجد بعد أداء صلاة الجمعة ، وقيل أن مقتله كان على يد الباطنية بالشام ، وجاء في كتاب الروضتين أن ملك الفرنج كتب إلى طغتكين على إثر مقتله : " إن أمة قتلت عيدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ". ينظر : أبو شامة، المصدر السابق، ج 1، ص 106. محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق ، ص 30.

وفي سنة 515هـ / 1121م، أقطع السلطان محمود السلجوقي الموصل وأعمالها قسيم الدولة آق سنقر البرسقي¹ وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه، والوقوف عند إشارته، لما كان عند عماد الدين زنكي من العقل والشجاعة وحسن التدبير².

وعندما أقطع السلطان محمود آق سنقر البرسقي مدينة واسط وشحنكيه البصرة سنة 516هـ / 1122م، أرسل إليها عماد الدين زنكي، وظهرت كفاءته، وحسن إدارته في القضاء على الثورات وقدرته على توطيد الأمور التي عجز عنها غيره³.

وفي 10 ربيع الثاني 520هـ / 1125م، تولى عماد الدين زنكي العراق بناء على منشور أصدره السلطان محمود بعد استشارة الأمراء الذين أشادوا بعماد الدين زنكي بقولهم: "لا تقدر على رفع هذا الخرق وإعادة ناموس هذه الولاية ولا تقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي"⁴، غير أن عماد الدين زنكي لم يستمر في ذلك المنصب سوى أربعة أشهر ثم وُلِّيَ بعدها إمارة الموصل بإشارة من الوزير أنوشروان " لحاجة الناس إلى من يقوم بازاء الفرنج لعنهم الله "⁵، إذ عُيِّن خلفا لعز الدين مسعود بن البرسقي والي الموصل الذي توفي سنة 521هـ / 1126م⁶.

¹ - هو أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي، الملقب قسيم الدولة سيف الدين صاحب الموصل والرحبة ، عينه عليها السلطان محمد بن ملكشاه بعد استشهاد مودود سنة 507هـ، وقد كان قبل ذلك شحنة بغداد منذ سنة 498هـ . قتله الباطنية في جامع الموصل يوم الجمعة 9 ذي القعدة 520هـ ، ينظر : ابن خلكان، المصدر السابق ، ج1، ص 242.

² - ابن الأثير ، الباهر ، ص 24.

³ - نفسه ، ص 24.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 241.

⁵ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 11 ، ص 341.

⁶ - ابن الأثير، الكامل ، ج 9، ص 242. ابن ثغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 226. محمد فتحي الشاعر، الشاعر، المرجع السابق ، ص 31.

ففي ربيع الثاني سنة 521هـ/1126م عهد السلطان محمود إمارة الموصل وحلب إلى عماد الدين زنكي بن آق سنقر¹ علاوة على عمله كحاكم للعراق، فسار إلى الموصل واستقر فيها، ثم بلغه اختلاف أهل حلب ومهاجمة الصليبيين إياها، فعجل بالمسير إليها واستولى في طريقه على منبج وبزاعة ثم دخل حلب وثبت أقدامه فيها فاطمأن البلد من جديد².

وتمثل أتابكية عماد الدين زنكي مرحلة مهمة في التاريخ السياسي لبلاد الشام والجزيرة في مواجهة الوجود الصليبي والانتشار الباطني الشيعي الذي أضحى قوة موازية مع الصليبيين للقضاء على الخلافة السنية القائمة .

فأمام ضعف الخلافة في بغداد والصراع الدامي على السلطنة السلجوقية، جعلت من عماد الدين يفكر في بناء: "أمة إسلامية جديدة، بدل الاستمرار في ترميم أمة لفظت أنفاسها وأخذت تتحلل أعضاؤها " ³، فكانت هذه الأمة الجديدة هي الدولة الزنكية التي بدأ عماد الدين في توطيد أركانها وتوسيع رقعتها بعد عودته من بغداد على إثر فتنة عام 521 هـ /1126م ⁴.

¹ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص242. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2، ص328. الصرفي، المصدر السابق، ج2، ص 180.

² - حسين مؤنس ، نور الدين زنكي، فجر الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط2، 1984. ص145
³ - ماجد عرسان الكيلاني ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين و هكذا عادت القدس ، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، ط3، 2002، ص 254.

⁴ - نقصد بها الفتنة التي كانت بين الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود سنة 521هـ/1126م ببغداد، حيث قتل فيها عدد كبير من المقاتلين ونهبت الأموال والدور ، وثارت العامة مع الخليفة ضد السلطان وأخذوا يصيحون : يا باطني تترك قتال الفرنج و تقاثل الخليفة ؟ وأمام هذا الوضع الممزق كان عماد الدين زنكي من القوة ما يسمح له بإدارة ظهوره لهذا الصراع، وذلك بعد أن استدعي من قبل السلطان محمود وولاه شحنة بغداد -صاحب الشرطة - فلما استقرت الأوضاع هناك عاد إلى الموصل وأخذ يعمل على مشروعه الجهادي بعيدا عن مسرح الصراع ذاك. للتوسع أكثر حول هذه الفتنة ، ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج17، ص241. ابن الأثير، الباهر، ص 29-30. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 585. الأزدي ، المصدر السابق ، ص 440-442.

فاهتم بالجيش الذي مثل عصب دولته فصارت لديه قوة عسكرية كبيرة، تتألف من عناصر من الخراسانيين والحليين والتركمان، بالإضافة إلى عناصر غير نظامية مثل الفقهاء والمتصوفة وغيرهم، وقد حرص زنكي على الحصول على مورد بشري ثابت لجيشه فعمل على فرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق، كذلك احتوى جيشه على نظام الاستخبارات على نحو مكنه من معرفة الدقائق العسكرية لأعدائه¹.

كما اهتم عماد الدين زنكي بضبط إمارته، وكانت النظم التي سار عليها امتدادا طبيعيا للنظم السلجوقية، وتحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة (489هـ-521هـ/1095م-1126م) إلى عهد الأتابكة، لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرّة على المنطقة بحكم أنها "فرع من فروع الدولة السلجوقية"²، بل إن معظم هذه المؤسسات ظل موجودا في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات، واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية والعسكرية الجديدة، وأقام زنكي تنظيماته الإدارية بمساعدة مجموعة من الموظفين، منحهم نوعا من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية، لكن تحت إشرافه التام ومراقبته الدقيقة³.

وقد كان من أعظم فضائل عماد الدين وأقوى أسباب توفيقه أنه كان نقادا للرجال يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته، وقد انتفع زنكي وابنه نور الدين بهم وبأولادهم أحسن انتفاع، نذكر منهم صلاح الدين الياغسياني والقاضي بهاء الدين أبا الحسن علي الشهرزوري، ونصير الدين جقر، فجعل الأول أمير حاجب، وهو أشبه

¹ - محمد مؤنس أحمد عوض ، المرجع السابق ، ص31.

² - ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص 180.

³ - الصلابي ، الدولة الزنكية، ص53.

بوزير، والثاني قاضي قضاة بلاده، والثالث حافظا لقلعة الموصل، وفوض إليه أمر هذه الولاية كلها¹.

وفي دراستنا للأوضاع العامة لأحوال البلاد الإسلامية زمن أتابكية عماد الدين نجد أن المشرق الإسلامي كان بين فكي قوتين فتاكتين تسعى كل منهما إلى تفكيك الوحدة الإسلامية، الأولى هي القوى الصليبية المتنامية الأطراف، والثانية هي القوى الشيعية الباطنية ونخص بالذكر الشيعة الإسماعيلية النزارية التي تعتبر من فلول الدولة العبيدية المتناهية إلى السقوط في مصر، فكان لتوسع نشاط هاتين الأخيرتين الأثر البالغ في سرعة تحرك عماد الدين من أجل تقويضها والقضاء عليها قبل تحقيق مخططاتها الرامية إلى القضاء على الدولة الإسلامية السنية، إذ يعتبر عهد عماد الدين من أقوى الفترات نشاطا ضد هذين العدوين اللذين ما فتئا أن اتحدا في أكثر من مناسبة ضد القوه السنية من أجل تحقيق توسع أو الحفاظ على مناصب خاصة من قبل وزراء الدولة العبيدية الآيلة للسقوط .

2- عماد الدين زنكي ومشروع توحيد الجبهة الإسلامية :

عاشت بلاد الشام في فوضى شاملة منذ أن وطئت أقدام الصليبيين أرضها، وأخذ التمزق والتنافس طريقه بين حكامها، واستمر هذا الوضع قائما إلى أن تولى عماد الدين زنكي حكم الموصل والجزيرة وحلب، ومنذ البداية كان عماد الدين زنكي يؤمن بفكرة إقامة جبهة إسلامية موحدة ، وبهذه الفكرة بدأ حكمه لتلك البلاد، وكان من المتوقع أن يصطدم زنكي عند تنفيذه هذه الفكرة بأمراء الشام والجزيرة الراغبين في العمل منفردين والرافضين لفكرة الوحدة .

¹ - حسين مؤنس، نور الدين زنكي، فجر الحروب الصليبية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1984، ص 149، 150.

والعامل المهم الذي جعل زنكي يعمل على مشروع مزدوج في آن واحد بين تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، هو السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف في وجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان فيه على زنكي أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة في جبهة إسلامية موحدة تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين¹، خاصة أمام تنامي قوة الإسماعيلية الذين سيطروا على مناصب مهمة في ظل تلك الإمارات كما كان الأمر بالنسبة لوزير تاج الملوك بوري بن طغتكين² صاحب دمشق أبي علي طاهر بن سعد المزدقاني³ الذي تحالف سرا مع الباطنية في حصن بانياس⁴، وأضحوا خطرا يهدد الإسلام باستنجاد هؤلاء بالقوى الصليبية للحفاظ على مكتسباتهم على حساب المسلمين.

وكان الباطنية قد سيطروا على حصن بانياس جنوب بلاد الشام عام 520هـ/1125م، نتيجة علاقة المودة التي كانت بين ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق (ت522هـ/1127م) مع أحد زعماء الباطنية الوافدين حديثا من فارس وهو بهرام (ت522هـ/1127م)⁵، وقد كان هذا

¹ - الصلابي ، الدولة الزنكية ، ص 151.

² - صاحب دمشق ، تاج الملوك بوري بن صاحب دمشق الأتابك طغتكين، مولى السلطان نتش السلجوقي، ولد في سنة 478هـ/1085م، تملك بعد أبيه في صفر سنة 522هـ/1127م ، وكان ذا حلم وكرم ، له أثر كبير في قتل وزيره والإسماعيلية .ولما علم ابن صباح صاحب الموت بما جرى على أشياعه الإسماعيلية بدمشق ، تتمر ، وندب طائفة لقتل تاج الملوك ، فعين اثنين في زي الجند ، ثم قدما ، فاجتمعا بناس منهم أجناد ، وتحبلا على أن صارا من حرسه الخاص ، وضمناهما ، ثم وثبا عليه فقتلاه في رجب سنة 526هـ/1131م وحلفوا بعده لولده شمس الملوك إسماعيل .ينظر: الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج19، ص573-574.

³ - كما أن الوزير المزدقاني سيطر على الأمور ، وراسل الصليبيين ليسلم مدينة دمشق و يسلموا إليه مدينة صور واستقر الأمر بينهم على ذلك في سنة 523 هـ/1128م و اتفق المزدقاني في ذلك مع الإسماعيلية ، ولكن الخبر بلغ تاج الملوك قبل الواقعة واستدعاه فضرب عنقه .أنظر ابن الأثير الكامل ، ج9، ص 250.

⁴ - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص95.

⁵ - حامد زيان غانم زيان ، المرجع السابق ، ص 96. Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p :232.

الأخير متخفيا في حلب ثم انتقل ضيفا عند طغتكين بدمشق من طرف إيلغازي، حيث أظهر دعوته وكثر أتباعه لكنه تخوف من أهل دمشق فطلب من طغتكين حصنا يأويه فسلم له بانياس بإشارة من وزيره أبي علي طاهر المازدقاني، فسلمه إليه في ذي القعدة سنة 520هـ/1125م¹، لكن المؤرخ ابن القلانسي يقول عن طغتكين أنه كان مُرغما في ذلك خشية من غدر الباطنية بقوله: "أكرم- بهرام- لاتقاء شره وشر جماعته وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية"².

لكن لو كان المسلمون يدا واحدة ضد العدوان المزدوج لما آلت الأمور إلى ما آلت إليه ولما اضطر ملك عظيم كطغتكين للانحناء إلى هؤلاء الغوغاء وهو مجاهد وقائد كبير ضد القوى الصليبية التي أضحت على مشارف القدس لكن خدمة الحكام المسلمين لمصالحهم الذاتية أدت إلى كل هذا.

مهما كان الحال فقد ترتبت نتائج وخيمة تمثلت في استفحال أمر الباطنية بدمشق واتخاذهم حصونا منيعة ملاذ لهم مثل حصن بانياس، وحصن مصياف، الذي بقي في أيديهم إلى دولة الملك الظاهر بيبرس³.

تدارك تاج الملوك بوري بن طغتكين الأمر وأيقن تأمر الباطنية فحمل عليهم حملة قوية بقصد القضاء عليهم، ونادى في البلد بقتلهم فقتل منهم جماعة كبيرة حتى "امتلاأت الطرق والأسواق بجيفهم"⁴، ولما تسامع خبر إبادة الباطنية في دمشق⁵ وما آلت إليه أمورهم تسارع

¹ - المقرئزي ، المقفى الكبير ، ج2، ص517-518.

² - ابن قلانسي ، المصدر السابق ، ص 222.

³ - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 113.

⁴ - نفسه ، ص 95.

⁵ - فقد ضربت عنق الوزير المزدقاني في 17 رمضان 523هـ/1128م لما تسامع العامة بشنيع أعماله وخديعته ومكره، وتحالفه مع الباطنية. كما كان هذا نفس مصير الباطنية المتواجدين بدمشق" الذين تتبعوهم في أماكنهم واستخرجوهم من مكانهم و أفنؤهم جميعا تقطيعا بالسيوف وذبحا بالخناجر وجعلوا مصرعين على المزابيل كالجيف الملقاة والميتة المجتواة "فقتل بدمشق ممن كان يرمي بمذهب الباطنية ستة آلاف نفس ،ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 222-223. ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 95.

الداعي الإسماعيلي الباطني بهرام المقيم بحصن بانياس إلى الاستتجاد بالصليبيين وتسليمهم الحصن¹، والذي يعتبر ثغرا مهما من ثغور المسلمين لمواجهة القوى الصليبية.

وكان الصليبيون هم أكبر مستفيد من هذا التفكك الذي أصاب الدولة الإسلامية، فالواقع أن حصن بانياس بوقوعه في يد الصليبيين لعب دورا خطيرا في تلك الفترة، إذ ترتب عن ذلك أن قويت نفوسهم على قصد دمشق فقاموا بالإغارة عليها منتهزين فرصة اضطراب الأحوال بها، وضمت هذه الحملة الصليبية كل من بلدوين الثاني وفولك الأنجوي وانزلا أضرارا بالغة بدمشق².

أما بالنسبة لحصن بانياس فقد ظل في أيديهم حتى استرده شمس الملوك بوري بن تاج الملوك عام 527هـ/ 1132م. وقد عبر أحد المؤرخين على ذلك بأنه كان فتحا عظيما لم ير أهل دمشق مثله، وقد اعتبر نفس المؤلف أن تسليمه للإسماعيلية من قبل كان سيئة من أكبر سيئات طغتكين بحيث تغطي حسناته³.

وفي حديثنا عن الحروب الصليبية يتجلى لنا دور عماد الدين زنكي في مقاومة الشيعة في بلاد الشام فكلا القوتين مرتبطتان بمصير الأمة الإسلامية، فعلى الرغم أننا لا نجد في طيات الكتب عن مواجهة مباشرة بين عماد الدين والباطنية، إلا أن المتصفح لحلقات الحروب الصليبية زمن عماد الدين يستنتج أنه بضربه ومواجهته للصليبيين كان في الوقت نفسه يُضَعِف ويُشَتَّت شمل الشيعة في المنطقة، ونحن نعلم أنه من أسباب الحملات الصليبية على العالم الإسلامي استتجاد العبيديين بهم لتخليصهم من سيطرة السلاجقة السنة عليهم⁴.

¹ - ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 224. ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ص 95.

² - حامد زيان غانم زيان، المرجع السابق، ص 97.

³ - عثمان عبد الحميد عشري، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية، المكتبة التاريخية، القاهرة، 1983، ص 151.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 14. ويليم الصوري، المصدر السابق، ص 304.

وقد كانت الأحداث المتوالية أكبر دليل على نوايا العبيديين، فبدل من أن يوجهوا قواهم ضد الصليبيين استغلوا فرصة انشغال السلاجقة بعد سقوط أنطاكية ومعرة النعمان وغيرهما من العواصم، فوجدوا الفرصة مواتية لإدراك ثأرهم من السلاجقة وكان هؤلاء قد سلبوا منهم فلسطين وولوها لسقمان بن أرتق وأخيه إلغازي، وقد استقروا في القدس، في هذه الأثناء بعث الأفضل بن بدر الجمالي (487-515هـ) -وزير الخليفة المستعلي العبيدي-، بجيش إلى فلسطين ليستعيدها، فحاصر القدس بآلات حصار كانت تكفي للقضاء على الصليبيين لو وُجِعت إليهم، لكن سوء النية جعلت هذا الوزير يوجهها لفتح بلد إسلامي، ولقد اشتدت المنجنقات في رمي أسوار القدس بالحجارة حتى هدمتها، وسيطروا على القدس وفلسطين، فمهدوا بذلك لسقوطها في أيدي الصليبيين¹.

وعلى الرغم من ذلك فقد ساهم عماد الدين زنكي على إثر توحيد الجبهة الإسلامية بدور فعال ضد التواجد الصليبي في الجزيرة، حيث تمكن جيشه من إسقاط إمارة الرها عام 539هـ/ 1144م²، فسقطت بذلك أولى الإمارات الصليبية وكان ذلك إيذاناً بتهوي البناء الصليبي بأسره فيما بعد.

3- وفاة عماد الدين زنكي :

توفي عماد الدين زنكي بن آق سنقر في 5 ربيع الثاني 541هـ/ 1146م³ وهو يحاصر قلعة جعبر⁴، التي رغب في ضمها بسبب تداخلها مع أملاكه، ولموقعها العسكري المهم إضافة إلى

¹ - حسين مؤنس ، المرجع السابق، ص 96.

² - ابن الأثير، الباهر، ص 66. ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 115. ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، (تحقيق : أنطون صالحاني اليسوعي) ، ط3، دار الرائد اللبناني، لبنان ، 1994 ، ص 358. وقد ورد في تاريخ دول الإسلام أن عماد الدين استولى على الرها من ملكها جوسلين سنة 537هـ: ينظر الصرفي، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 185.

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 2، ص 328.

⁴ - قلعة جعبر: على الفرات بين بالس والرقّة قرب صفين، وكانت قديماً تسمى دوسر، وسميت جعبر نسبة إلى رجل ملكها من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك، ولما هاجم ملكشاه ديار ربيعة ومضر انتزع القلعة منه وقتله ونفى بني قشير بسبب تحويلهم لها إلى مأوى لقطاع الطرق وسلمها للعقيليين الذين توارثوها : ينظر: الحموي ، معجم البلدان، ج 2، ص 142.

تحولها إلى مأوى لقطاع الطرق وصيرورتها مصدرا لحصول المتاعب لحكمه¹، لكنه قُتل وهو يحاصرها حيث غدر به صبي من غلمانه اسمه برنقش وجماعة من مماليكه ليلا فقتلوه وهربوا إلى القلعة، وصاحوا على شرفات القلعة وأخبروا بقتله العسكر، فدخل أصحابه إليه وبه رمق، وتوفي على إثر ذلك مباشرة².

ولما توفي الأتابك عماد الدين زنكي أخذ ولده نور الدين محمود خاتمه من يده وسار إلى حلب وملكها، وكان أخوه سيف الدين غازي بمدينة شهرزور وهي إقطاعه، فأرسل إليه زين الدين على كوجك نائب أبيه عماد الدين زنكي بالموصل يستدعيه إلى الموصل فحضر واستقر ملك سيف الدين غازي على البلاد وبقي نور الدين محمود بحلب³.

ثانيا- دور نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي⁴ في القضاء على الدولة العبيدية :

1- الدولة النورية وامتدادها الجغرافي :

انقسم أتباع عماد الدين زنكي على إثر وفاته وأصبح هناك فرعان للدولة الزنكية، يفصل بينهما نهر خابور، الأولى في الموصل وما يتبعها من أقاليم شرقية بقيادة سيف

¹ - ابن الأثير، الباهر، ص 73. سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2010، ص 353. ولم يفرض الزنكيون سيطرتهم على هذه القلعة إلا في وقت لاحق سنة 564هـ/ زمن نور الدين محمود الذي تحالف مع بني كلاب وألقوا القبض على صاحبها شهاب الدين مالك سنة 563هـ/ وسلموه لنور الدين الذي أكرمه وفأوضه على تسليمها ودة سنة كاملة ولم يحصل عليها إلا بعد استعمال الشدة في فتحها و تعويض صاحبها بإقطاعات هامة خارجها وفي هذا دلالة كبيرة على حصانة القلعة و أهميتها الاستراتيجية .ينظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 325.

² - جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة 1953. ج 1 ، ص 99. ابن الأثير، الكامل، ج 9 ، 339. ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 119.

³ - ابن الأثير، الباهر ، ص81. الصرفي ، المصدر السابق ، ج2، ص 185.

⁴ - هو نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي ولد يوم الأحد 17 شوال 511هـ / 1117م بحلب ، نشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، تولى أمور مملكة والده بحلب سنة 541هـ، توفي يوم الأربعاء 11 شوال 569هـ/ 1173م، دفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة قرب مدرسته التي بناها للحنفية. ينظر: ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق، ص15. أبو شامة ، المصدر السابق، ج2، ص 313.

الدين غازي الأول وقد وانشغل هذا القسم بمشاكله المحلية والشرقية¹، والثانية في حلب بقيادة نور الدين محمود²، و كان لهذا الأخير الدور الريادي في مواجهة القوى الصليبية في المنطقة بالإضافة إلى القضاء على الكيان السياسي للشيعية المتمثل في الدولة العبيدية في مصر .

وقبل الحديث عن الدور الجهادي للدولة النورية يجدر بنا دراسة إطارها الجغرافي وأثر ذلك في فرض مكانتها في المشرق الإسلامي آنذاك، إذ أن الامتداد الجغرافي للدولة النورية يكشف لنا عن اتساع نطاق سيادتها السياسية وتعدد الأقاليم التي سيطرت عليها، فقد خضعت لها مناطق في بلاد الشام والجزيرة ومصر، وفي الجزيرة والشام ضمت لها مدن حلب ودمشق والموصل وحماة وحمص ومعرة النعمان وشيزر وكفر طاب ومنبج والرقعة والباب وبزاغة وبانياس وحوارن وغيرها³، وتاخمتها غربا إمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين ومملكة بيت المقدس، وفي الشمال جاورتها سلطنة سلاجقة الروم، أما في الشرق فقد وجد النفوذ العباسي والسلجوقي وامتدت إلى النوبة جنوبا وجبل نفوسة غربا⁴.

وقد أثر هذا الامتداد الجغرافي على سياستها الخارجية بصورة كبيرة إذ أن المجال الحيوي لتوسعها صار في اتجاه الغرب حيث الوجود الصليبي سواء في أنطاكية أو طرابلس، ومملكة بيت المقدس، وكذلك في الجنوب الغربي نحو مصر العبيدية، ونجد أن الاتجاهين المذكورين قد شكلا جانبا كبيرا من طاقتها العسكرية وهو موضوع دراستنا.

¹ - سالم محمد الحميدة ، المرجع السابق ، ص 218.

² - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 81. أبو شامة ، المصدر السابق، ج1، ص 107.

³ - محمد مؤنس أحمد عوض ، المرجع السابق ، ص 25.

⁴ - نفسه ، ص 25.

أما عن الخطوط العريضة لسياسة الدولة النورية فقد اشتملت على أمور ستة، تمثلت في¹:

- 1- إعداد الشعب إعدادا إسلاميا وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية، المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات العبيدية للعبادات والشعائر .
- 2- صبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وشيوع العدل والتكافل الاجتماعي .
- 3- نبذ الخصومات المذهبية وتعبئة القوى الإسلامية وتنسيق جهودها ضمن منهاج عمل موحد وقيادة متكاملة متعاونة .
- 4- ازدهار الحياة الاقتصادية وإقامة المنشآت والمرافق العامة .
- 5- بناء القوة العسكرية والعناية بالصناعات الحربية .
- 6- القضاء على الدويلات المتناثرة في بلاد الشام وتحقيق الوحدة الإسلامية بين الشام ومصر والجزيرة .

2- أوضاع مصر في أواخر عهد الدولة العبيدية :

عانت الدولة العبيدية في أواخر أيامها صراعا مريرا بين الوزراء والخلفاء، وأصبحت الدولة تعاني كثيرا من مظاهر الانحلال والفساد، حتى أصبح من الأمور الشائعة أن يصبح الوزير أو الخليفة مقتولا ، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده في اختيار من يشاءون،

¹ - ماجد عرسان الكيلاني ، المرجع السابق ، ص 255، 256.

وأصبح الخلفاء كالمحجور عليهم¹، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد كانت قاعدتهم " أن من قوّي منهم على صاحبه جُز رقبته "².

وقد أصبح منصب الوزير في أعلى هرم السلطة وأضحت الوزارة وزارة سيف بدل وزارة قلم، وكانت الأمور كلها مردودة إليه ومنه إلى الخليفة مباشرة، ونعت الوزير بالسيد الأجل أمير الجيوش³.

وقد دخلت مصر في عهد نفوذ الوزراء على إثر وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة 487هـ/1093م، وتعين وزيره الأفضل بن بدر الجمالي لابنه الأصغر المستعلى بدلاً عن نزار⁴، فسيطر الأفضل على شؤون الحكم في البلاد، واستبد بالسلطة دون المستعلي⁵، ومنذ ذلك الوقت زادت صلاحيات الوزير " وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية "⁶.

ولم تسلم الدولة العبيدية من التغيرات المذهبية بعد إقصائها للفئة النزارية خارج مصر، بل دخلت في انقسام سياسي ومذهبي جديد على إثر وفاة الخليفة الأمر بأحكام الله (488-524هـ/1096-1130)، هذا الإمام الذي مات دون أن يُخلف ولداً من نسله ليلي الإمامة من بعده ، فانقسمت الإسماعيلية العبيدية للمرة الثانية إلى فرقتين: الحافظية نسبة للخليفة الحافظ لدين الله والطيبية نسبة إلى ابن الأمر بأحكام الله الذي تقول بعض

¹ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 323.

² - بهاء الدين ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق : جمال الدين الشيبان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط1، 1964، ص 40.

³ - المقرئزي، الخطط ، ج 2، ص 233.

⁴ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 140-141.

⁵ - ابن الصرقي ، المصدر السابق، ص 57-60، جمال الدين سرور ، الخلافة الفاطمية ، ص 106.

⁶ - المقرئزي، الخطط ، ج 2، ص 233.

المصادر أنه قد ولد له ولد قبل موته بشهور سماه " الطيب " واحتفل بمولده وأعلنه وليا للعهد¹.

كما ظهر وزراء على الساحة السياسية يسعون إلى التغيير المذهبي، لا من الشيعة إلى السنة، ولكن من الشيعة الإسماعيلية إلى الشيعة الإمامية وهذا ما بادر به الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل (ت526هـ) الذي كان إمامي المذهب، لهذا شرع على إثر توليته الوزارة باتخاذ إجراءات غايتها إظهار مذهب الإمامية وإضعاف مذهب الإسماعيلية، فأمر بإسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة²، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم³، وبالدعاء لمحمد المنتظر - الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية-، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر نقش عليها " الله الصمد الإمام محمد"⁴، بالإضافة إلى تغييرات أدت في مجملها إلى إضعاف المذهب الإسماعيلي في مصر العبيدية.

كذلك أمعن الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل في إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عيّن سنة 525 هـ/1130م أربعة قضاة: واحد للشافعية وثنان للمالكية وثالث للإسماعيلية ورابع للإمامية، وسمح لهم بأن يحكم كل قاض بمذهبه، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد⁵.

¹ -وقد سكنت المصادر المعاصرة للدولة العبيدية عن الحديث عن ابن الأمر ماعدا ابن الطوير الذي أشار إلى أن الأمر ترك زوجة حامل وتنبأ بإنجابها لولد ذكر يتولى شؤون الدولة من بعده . أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن ابن طوير القيسراني ، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، دار صادر ،بيروت، ط1، 1992، ص27. جمال الدين الشيال ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص 88، 87.

² - ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 116.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص261.

⁴ - جمال الدين سرور ، الخلافة الفاطمية ، ص 108-109

⁵ - ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 115.

ومن خلال هذه الأحداث والتغيرات المذهبية في قلب الدولة العبيدية نلمس مدى تضعُّع الدولة، وتراجع مكانة المذهب الشيعي الإسماعيلي، واضمحلال شخصية الخليفة، في وقت كانت فيه الدولة الزنكية في أوج قوتها وحماسها الديني لضم مصر لممتلكاتها فوجدت بذلك الظروف مواتية .

وفي زخم تلك المتغيرات التي تخبَّطت فيها مصر العبيدية من جراء سيطرة الوزراء ظهر على الساحة السياسية وزير يدعى العادل ابن سَلَّار (544-548هـ/1149-1153م)، هذا الأخير الذي كان سني المذهب¹، تحدث الذهبي عنه فقال : " وكان بطلا شجاعا مقداما مهيبا شافعيًا سنيا، ليس على دين العبيدية، لكنه فيه ظلم وعسف وجبروت"².

كان لابن سَلَّار الأثر البالغ في إضعاف المذهب الشيعي في مصر، بالإضافة إلى الأسبقية من بين الوزراء في مواجهة الخطر الداهم من قبل الصليبيين فقد جهز في ربيع الأول من سنة 546هـ/1151م أسطولاً ضخماً أنفق عليه ستة آلاف دينار لمواجهة الصليبيين بعسقلان³، فهاجم به مدينة يافا الساحلية ثم توجهوا إلى ثغر عكا، ومنه ساروا إلى صيدا وبيروت وطرابلس فأبلوا بلاء حسناً، ولما تسامعت أنباؤه إلى نور الدين محمود

¹ - هو سيف الدين أبو الحسن علي بن سَلَّار، كردي الأصل ، تولى البحيرة والإسكندرية وكان سني المذهب فالتف حوله العديد من الناس، تولى الوزارة للظافر سنة 543هـ/1148م بعد ابن مصال، ولقب بالعدل سيف الدين ناصر الحق، انتعش المذهب السني في عهده، وأحيى الفكر الجهادي ضد الصليبيين فكان ذا إقدام وشجاعة وحزم، قُتل على يد غلمان الظافر الذي سئم تسلطه في يوم الخميس 06 محرم 548هـ/1153م .ينظر: ابن طوير، المصدر السابق، ص 58-64.

² - الذهبي، سير أعلام، ج20، ص 282.

³ - Nikita Elisséeff, NUR AD-DIN un grand prince musulman de syrie au temps des croisades, tome2, institut francais de Damas, Damas, 1967, p :690.

همَّ بقصد الصليبيين برا، فيكون هو في البر والأسطول المصري في البحر، لكن انشغاله بإخضاع دمشق حال دون ذلك¹.

ومن هنا نجد أن انشغال القادة بمصالحهم الشخصية هو ما مكَّن الصليبيين من ممتلكات المسلمين في بيت المقدس وبلاد الشام، ولو اجتهد وزراء الدولة العبيدية كما فعل ابن سلا، لتقلص نفوذ الصليبيين ولوجد أمراء الأقاليم فرصة للتحالف والمُضي قُدماً ضد هذا العدو الجائر.

لكن مشهد الإصلاح بمصر سرعان ما اختفى عن الساحة وبرزت أطماع الوزراء من جديد في بسط سيطرتهم، وصلت إلى حد الطمع في جعل الخلافة العبيدية في عقبه كما فعل ذلك الوزير الصالح بن زريك²، فعندما توفي الفائز بنصر الله في رجب 555هـ/1159م، دون أن يترك وريثاً، أقام مكانه في الخلافة الأمير عبد الله حفيد الحافظ، وهو أصغر الأقارب ولقبه بالعاضد لدين الله، وزوجه ابنته عسى أن تُرزق منه ولداً فيجتمع لبني زريك الخلافة والملك³، كما "أنه تحكم في الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد"⁴، كل هذا أثار الحاشية عليه خاصة حرم القصر بعد أن زوج ابنته بالخليفة فخطط

¹ - ابن الطوير، المصدر السابق، ص 60-61. ابن ميسر، المصدر السابق، ص 145. المقرئزي، اتعاض الحنفاء، المصدر السابق، ج 3، ص 202، 201.

² - أبو الغارات طلائع بن زُرَيْك الملقب الملك الصالح وزير مصر ولد سنة 495هـ/1101م، كان والياً على الصعيد زمن الظافر العبيدي، ولما قتل هذا الأخير دخل القاهرة، تولى الوزارة في أيام الفائز العبيدي في 19 ربيع الأول 549هـ/1154م، واستقل بالأمور وتبدير أحوال الدولة إلى زمن العاضد حيث علا شأنه ونفر منه العاضد لتسلطه فأرسل من قتله سنة 556هـ. له ديوان شعر في مجلدين. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج 2، ص 526-528. اسماعيل باشا البغدادي، المصدر السابق، ص 432. العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، مكتبة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج 1، 2005. مج 14، ص 173-174.

³ - ابن الأثير، الكامل، الصدر السابق، ج 9، ص 438.

⁴ - نفسه، ص 449.

لقتله، إذ دبرت ست القصور إحدى عمات الخليفة أمر قتله¹، فقتله الخدم في دهليز القصر في رمضان 556 هـ / 1160م².

وفي وقت لاحق، تولى الوزارة في مصر العبيدية في عام واحد ثلاثة وزراء :
العادل بن رزيك (556-558 هـ / 1160-1162م)³،

وشاور⁴، وضرغام، فضعت الدولة وسادت الفوضى في البلاد⁵، وقد تطور هذا التنافس على الوزارة إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها، فقد انفرد شاور الذي كان واليا على الصعيد بالسلطة، بعد تخلصه من الوزير العادل بن الصالح بن رزيك في المحرم من سنة 558 هـ / 1162م⁶، وقد كان الصالح بن رزيك قد أنشأ فرقة من الجند يقال لهم البرقية،

¹ - سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص 218.

² - ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 450، الأصفهاني، المصدر السابق، مج 14، ج 1، ص 174. وينكر ابن تغري بردي أن الخليفة العاضد هو من قتله بنفسه. النجوم الزاهرة، ج 5، ص 429.

³ - هو العادل محي الدين رزيك كنيته أبو شجاع تولى الوزارة بعد مقتل والده مباشرة سنة 556 هـ / 1160م ولقب بالعادل الناصر، قتله شاور بعد صراع حول منصب الوزارة، ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج 2، ص 528.

⁴ - اسمه الكامل: أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس السعدي، وكان ابتداء أمره أن الصالح بن رزيك ولاء الصعيد وهي أكبر الأعمال بعد الوزارة، لكن بن رزيك قبل وفاته كان قد أوصى ابنه العادل أن لا يتعرض لشاور ولا يغيره من منصبه لاستمالاته الرعية والكثير من العرب بقوله: "...وقد ندمت على استعماله، ولم يمكن عزله، فلا تغيروا ما به، فيكون لكم منه ما تكرهون" لكن العادل ونتيجة لخوفه من مكانته أرسل إليه بالعزل، فجمع شاور جموعا كثيرة وسار إلى القاهرة وقتل العادل بن رزيك واحتل مكانه يوم الأحد 22 محرم 558 هـ / 1162م. استمر في منصب الوزارة إلى غاية مقتله في 17 ربيع الثاني 564 هـ / 1168م على يد جنود أسد الدين شيركوه. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 460. ابن خلكان، المصدر السابق، ج 2، ص 439-440. ابن واصل، المصدر السابق، ص 137.

⁵ - ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 460.

⁶ - نجم الدين أبي محمد غمارة اليمني، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، مراجعة: هرتويغ درنبرغ، مطبعة مطبعة مرسو، باريس، 1897، ص 66.

نسبة إلى برقة¹ الواقعة غربي مصر، وعين ضرغام بن عامر قائدا عليها، ولم يكن هذا الأخير بأقل طمعا بالوزارة من غيره، فخرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة، وجرى قتال بين الطرفين انتهى بانتصار ضرغام وتقلده الوزارة².

اضطر شاور إلى الاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، وفي 6 ربيع الأول 558هـ / 1162م وصل شاور إلى نور الدين ووعده أنه إن سير معه العسكر ليقوى بهم على خصمه ضرغام، وينتزع الوزارة منه، أن يكون لنور الدين حصة من البلاد وقال له: "أكون نائبك بها، وأقنع بما تعين لي من الضياع والباقي لك"³، فتردد نور الدين بادئ الأمر في إجابة طلبه، ثم ما لبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته لتوسيع الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر⁴.

فقد كان في استنجاد شاور بنور الدين فرصة ذهبية فتحت المجال لنور الدين بعد أن تهيأت له الظروف لاستكمال الوحدة والقضاء على دولة الكفر والإلحاد.

ومن جهة أخرى كان ضرغام قد اتصل بملك بيت المقدس عموري الأول ليدافع عنه ضد أي هجوم قد يقوم به شاور، وعرض عليه دفع مبلغ كبير من المال⁵، وهكذا أخذت الصراعات الداخلية في مصر بعدا إقليميا خارجيا، وجاءت مؤشرا على نهاية الدولة

¹ - برقة : إقليم بين الإسكندرية وإفريقية، واسم عاصمته أنطابلس وتفسيره الخمس مدن، يوجد بين برقة و الإسكندرية مسيرة شهر، فتحت صلحا على يد عمرو بن العاص سنة 21هـ/641 م . ينظر: الحموي ، المعجم البلدان ، ج1، ص389.

² - عمارة اليميني، المصدر السابق، ص73. "وكانت عادة المصريين أنه اذا غلب شخص صاحب المنصب، وعجز صاحب المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاء منهم، ورتبوه و مكنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو ملقب عندهم بالسلطان...وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال "ينظر: بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 36. سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص 320.

³ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص330

⁴ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص 137، 138. جمال الدين سرور، المرجع السابق .ص115

⁵ - سهيل طقوش ،تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، المرجع السابق ، ص 320. أبو شامة، المصدر السابق، السابق، ج1، ص 418.

العبيدية، فقد كشفت لنور الدين محمود والصليبيين بعد ذلك مواطن ضعف الدولة وأغرثهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها .

3- أسباب الحملات النورية على مصر :

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين محمود، فقد تمكن من إسقاط الدولة العبيدية الشيعية التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي، والخلل العقائدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين¹، والأمر من ذلك الانقسام الذي حدث في صفوف دعوتها الإسماعيلية فظهرت فرقة أخرى وهي النزارية في قلعة الموت، التي أرهقت القوى الإسلامية وشتتت قواها عوض أن تتفرغ لمواجهة الحملات الصليبية التي تحينت فرصة الفوضى وشتت حملات على مصر المرة تلو المرة، عندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم وإعادة الوحدة في صفوف المسلمين .

ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت بنور الدين إلى غزو مصر في يأتي:

1- بعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بطاقتها الهائلة ومواردها الكبيرة والجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب، فتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من الفوضى وكي يُدخل عليها الروح الجديدة التي حلت بالشام، وحتى يستخدم موارد مصر، ويزج طاقاتها في المعركة بدلا من التبعثر والهدر والضياع².

¹ - الصلابي ، الدولة الزنكية ، ص 527.

² - أحمد بن علي الحريري، المصدر السابق، ص 50.

2- مطامع الصليبيين شجعت نور الدين على التفكير جديا بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، فقد أدرك نور الدين محمود أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، وأنه لكي يؤمن المكاسب السياسية والعسكرية التي حققها باستيلائه على دمشق، فإن السبيل إلى ذلك منع القوى الصليبية من ضم مصر، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام 549هـ/1154م، شدَّ من عزمته لإنجاز هذا الأمر¹، خاصة بعد تمادي الإسماعيلية في اغتيال الأمراء والوزراء والفقهاء بل تعدوا ذلك إلى اغتيال الخلفاء أنفسهم².

3- ومن أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الدولة العبيدية السبب العقائدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد إسماعيلية المذهب، فرقت وحدة المسلمين، وتآمرت مرارا مع أعداء الإسلام، فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها تضم إلى الخلافة العباسية مصر وبلاد الشام.

4- الحملة النورية الأولى على مصر : 559هـ/1163م

إزاء الوضع السابق في مصر بحث شاور عن حليف قوي، فلم يجد سوى نور الدين محمود في بلاد الشام المجاورة فقدم إليه في 6 ربيع الأول 558هـ/ 1162م³، مستجدا به على من أخذ منه الوزارة مرغبا إياه في التدخل العسكري في مصر لإعادته إلى منصبه وقدم له عرضا سخيا احتوى على تعهده بتكاليف تجهيز جيش الحملة⁴ وأن يقدم لنور

¹ - الصلابي، الدولة الزنكية، ص 528.

² - فقد أقدموا على اغتيال الخليفة المسترشد بالله في ذي القعدة 529هـ/1134م، ثم ألحقوا به ابنه الراشد بالله في 27 رمضان 532هـ/1137م. ينظر: ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 594-599. ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 101-104. عثمان عبد الحميد العشري، المرجع السابق، ص 125.

³ - أبو شامة، المصدر السابق، ج 1، ص 406.

⁴ - ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 164، النويري، المصدر السابق، ج 28، ص 219.

الدين ثلث دخل مصر¹ في صورة إتاة سنوية وأن يحكم نيابة عنه مصر ووفق مشيئته، وأن يجعل بمصر حامية عسكرية من جيش نور الدين، وكان ذلك يعني أن تصبح مصر ولاية تابعة للدولة النورية².

جهز نور الدين جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه³ وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب⁴ وسار العسكر يوم الاثنين 15 جمادى الأولى 559هـ/1163م⁵ "وقد أقر نور الدين شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن ثار عليه"⁶.

عندما بلغ شيركوه وجنده مدينة بلبيس⁷ اصطدم مع ناصر الدين الذي كان أخا لضرغام ومعه الجنود المصريون وألحق به الهزيمة فعاد أدراجه إلى القاهرة مهزوما، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الأولى 559هـ/1163م إلى العاصمة المصرية القاهرة⁸، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة، وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة، اتسمت المعركة بالعنف وانتهت

¹ - الصرفي ، المصدر السابق ، ج2، ص 187.

² - ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج5، ص330. محمد مؤنس أحمد عوض ، المرجع السابق ، ص88.

³ - هو أسد الدين شيركوه بن شادي عم صلاح الدين يوسف بن أيوب كان مقدما عند السلطان نور الدين الشهيد ، ثم عند ابن أخيه السلطان صلاح الدين ، فتح مصر وخلصها من أيدي الصليبيين في ربيع الأول سنة 564هـ/1168م. تولى بمصر الوزارة بعد قتله للوزير العبيدي شاور ثم توفي فجأة 28 في ربيع الثاني سنة 564هـ/ .بالقاهرة و دفن بها ثم نقل جثمانه إلى المدينة المنورة سنة 576هـ / 1180م بوصية منه .أنظر : محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ،المطبعة العلمية ،حلب ، ط1،1925، ص258.

⁴ - هو الذي صار إليه ملك مصر فيما بعد وستكون لنا وقفة مع هذا البطل المجاهد في القسم الخاص بالدولة الأيوبية. ينظر: ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 311.

⁵ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 465، المقرئزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج3، ص266. ابن قاضي شهباء، المصدر السابق ، ص 164.

⁶ - المقرئزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج 3، ص266.

⁷ - بلبيس - بكسر الباءين- ، هي مدينة تبعد عن مصر بعشرة فراسخ ، على طريق الشام فتحت سنة 18 أو 19هجرية على يد عمر بن العاص .ينظر ، الحموي ، معجم البلدان ، ج1، ص479.

⁸ - ابن واصل، المصدر السابق ، ج1، ص 139. كمال الدين ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج2، ص89.

بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلى الجيش والخليفة والناس عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة المزعوم في شهر رجب 559هـ/1163م، كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصرا وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها¹.

وبعد نجاح شيركوه في المهمة التي أوكلت إليه وأعادته شاور إلى منصبه في الوزارة، عاد هذا الأخير إلى طبيعته الأولى من المكر والخداع وغدر بشيركوه وأخلف العهد الذي قطعه لنور الدين محمود، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام، فغضب لذلك شيركوه وأمر جنوده بالاستيلاء على مدينة بلبس²، وهنا بدأت مرحلة جديدة من الصراع على مصر بين القوى الإسلامية والصليبية، إذ أن سيطرة شيركوه على بلبس جعلت غدر شاور يتفاقم فقد استتجد بأعداء الإسلام في بيت المقدس وخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر، فسارعوا إلى تلبية دعوته ليس حبا فيه وإنما طمعا في ملك الديار المصرية³، "وكان قد بذل لهم على نصرته أربعمئة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين"⁴.

ومن هنا يظهر خطر العبيديين الشيعة على المشرق الإسلامي في تلك الفترة فعوض أن تتكثل القوى الإسلامية ضد العدو المشترك، سعى العبيديون في مصر بكل قواهم إلى تشتيت شملهم وإضعاف وحدتهم لا شيء إلا لخدمة مصالحهم، ولكن لم تنجح المؤامرة الباطنية على المسلمين وظهر على الساحة السياسية رجال أكفاء، رفعوا راية الجهاد المزدوج، الجهاد الصليبي والشيوعي في نفس الوقت لإدراكهم مدى خطورة الوضع إن سمحت الفرصة بتكتلهم معا ضد الإسلام.

¹ -النويري، المصدر السابق، ج 28، ص 219، الصلابي، الدولة الزنكية، ص 529.

² - ابن واصل، المصدر السابق، ج 1، ص 139، ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 317.

³ - أبو شامة، المصدر السابق، ج 1، ص 411. ابن الأثير، الكامل، ج 9، ص 466.

⁴ - النويري، المصدر السابق، ج 28، ص 220.

وصلت أنباء شاور إلى نور الدين محمود فكتب إلى أسد الدين شيركوه يخبره بمؤامرة شاور والصليبيين، ويأمره بالخروج عن الديار المصرية، فأبى ذلك وتوجه إلى بلبيس وتحصن بها، فحاصرت القوات المشتركة الصليبية والعبيدية مدة ثلاثة أشهر، لم يتمكنوا خلالها من إلحاق أية خسائر بجنود شيركوه، وبينما هم كذلك تغير موقف ملك الصليبيين وقرر إبرام الصلح مع شيركوه¹ مفاده الجلاء المزدوج للقوات الصليبية والنورية من الأراضي المصرية، وتسليمها للمصريين².

فما سبب هذا التغير المفاجئ في خطط الملك عموري وتخليه عن عزمه في السيطرة على مصر ؟

إذا تتبعنا الأحداث في الضفة الأخرى نجد أن قوات نور الدين محمود أخذت في التحرك لإنقاذ موقف أسد الدين شيركوه بأن زحفوا على أملاك الصليبيين لكسر شوكتهم في بلاد الشام فأسر صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس³ وسيطروا على مدينة حارم⁴ وسار إلى بانياس، هنا تغير موقف الصليبيين ورجعوا في الصلح للعودة إلى بلادهم للدفاع عنها، فقبل شركوه الصلح لتنفيذ أقواته وذخائره فضلا عن تفوق القوات الصليبية العبيدية في العدد⁵.

وَقَعَ الطرفين الصلح، وتم الجلاء عن الأراضي المصرية في ذي الحجة سنة 559هـ/1163م، ولم يكن شيركوه يعلم بما فعله نور الدين بأمالك الصليبيين في الشام⁶

¹ - النويري ، المصدر السابق ، ج 28 ، ص 220. أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 1، ص 411

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9، ص 466. ابن قاضي شهاب ، المصدر السابق ، ص 166

³ - ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 6، ص 311. ابن العديم ، زبدة الحلب، ج 2، ص 318-319.

⁴ - حارم بكسر الراء ، حصن حصين و كورة تجاه أنطاكية ، وهي من أعمال حلب .ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج 2، ص 205.

⁵ - النويري ، المصدر السابق، ج 28 ، ص 220. أبو شامة، المصدر السابق ، ج 1، ص 412. ابن الأثير، الكامل ، ج 9، ص 466.

⁶ - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج 2، ص 322.

ولو علم ذلك لما أبرم ذلك الصلح، في كل الأحوال خرج شيركوه شبه منتصر إذ استطاع درء خطر الصليبيين في السيطرة على مصر، فدخل شاور القاهرة في 6 ذي الحجة 559هـ/1163م¹ واستمر في مصر من غير منازع إلى سنة اثنتين وستين وخمسائة¹.

ومن هنا نجد أن صراع الوزراء، وصغر سن الخليفة، إلى جانب الأطماع الصليبية كان سبب هلاك بني عبيد، ولولا التحرك السريع الذي قام به نور الدين في ضم مصر لأملكه لصارت فريسة سهلة للصليبيين، فالوزراء الذين تسلطوا على الحكم لم يكونوا ليستطيعوا الوقوف أمام أي خطر خارجي حتى ولو استعملوا المكر والخديعة، بل إننا نجد أن سياستهم تلك هي ما حمّست أسد الدين وجعلته يُصر على العودة إلى مصر للانتقام من شاور الذي قال عنه ابن تغريدي "استوزر العاضد شاور وكان هو سبب خراب دياره"².

5- الحملة النورية الثانية على مصر ودوافعها 562هـ/1166م:

استمر التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول³ حول مصر، وخاصة أن أيا منهما لم يحقق أهدافه وهو يعلم بأن فوزه بهذا البلد يعني انتصاره الحاسم على خصمه، ويُلاحظ أن نور الدين محمود كان مدفوعا بالعوامل نفسها التي جعلته يرسل حملته الأولى، مع دخول كل من الخليفة العباسي والخليفة العبيدي على الخط السياسي هذه المرة، فيُحتمل أن تكون قد دارت مباحثات بين نور الدين محمود وبين أسد الدين شيركوه من جهة و جرت اتصالات بين الخليفة العباسي المستجد بالله من جهة أخرى، عهد على

¹ - النويري ، المصدر السابق ، ج28 ، ص 220

² - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج5، ص323.

³ - أو مري كما يسميه ابن تغري بردي وابن واصل ، ملك الإفرنج بالشام ، ويعرف في المؤلفات العربية باسم أموري أو عموري ، تولى مملكة القدس الصليبية سنة 557هـ/1161م بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث الذي لم يعقب أولادا ، حكمها حتى توفي سنة 569هـ/1173م ، ويقال له أيضا أمريك الأول Amaury I ملك أورشليم .هامش: ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص532. ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1، ص156.

إثرها نور الدين إلى قائده شيركوه بمهمة غزو مصر للمرة الثانية¹، كما كان للخليفة العبيدي العاضد دور في تشجيعه على الاهتمام بمصر بعدما غلب عليه شاور حيث كتب إلى نور الدين يستجده على شاور وأنه قد استبد بالأمر وظلم الناس وسفك الدماء². وفي ربيع الأول من سنة 562 هـ/1166م سيّر نور الدين محمود أسد الدين شيركوه إلى مصر ليملكها، علما أن نور الدين كان حاقدا على شاور لغدره بشيركوه في الحملة الأولى واستجاده بالصلبيين، فسير معه جمعا من الأمراء بلغ عددهم ألفي فارس، وسار معه نور الدين إلى أطراف البلاد خوفا من الصليبيين³.

وكان صلاح الدين ابن المظفر يوسف نجم الدين أيوب بن شاذي مع عمه أسد الدين في هذه السفرة⁴، ولما اجتمع العسكر مع أسد الدين ساروا إلى مصر على البر، في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم في الكرك والشوبك قد ينقضون عليهم وينكلون بهم وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، فكان عليهم أن يغيروا طريق سيرهم للتخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم

¹ - سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين ، ص 341.

² - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 331.

³ - ابن واصل، المصدر السابق، ج 1، ص 148. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 331. لكن ابن الأثير يوضح أن أسد الدين شيركوه هو الذي عزم على العودة إلى مصر للانتقام من شاور وليس نور الدين محمود من سيره إليها: "وكان عنده - أسد الدين شيركوه - من الحرص على ذلك كثير، فلما كان هذه السنة - 562 هـ/1166م، تجهز، وسار في ربيع الآخر، في جيش قوي، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارها لذلك ، ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير، لم يمكنه إلا أن يسير معه جمعا ، خوفا من حادث يتجدد عليهم ، فيضعف الإسلام " ينظر : ابن الأثير ، الكامل، ج 10 ، ص 3.

⁴ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1، ص 149. وقد ذكر بهاء الدين ابن شداد أن انضمام صلاح الدين إلى هذه الحملة كان على كراهية منه ، إذ ينقل لنا قوله : " كنت اكراه الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري". المصدر السابق ، ص 37، 39.

إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر¹.

ولما بلغ شاور مجيء أسد الدين إليهم، أرسل إلى الصليبيين يستجدهم، فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملك مصر²، فقد أدركوا أنه بات من المحال بالنسبة لهم التوسع في بلاد الشام، وأنه ليس أمامهم في المستقبل القريب غير مصر أو البحر³، وكذلك الخوف من تملك العساكر النورية لها، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين واستضافها إلى بلاده الشامية لم يبق لهم ببيت المقدس والشام مقام، وأنه سيستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده⁴، فأتوا مصر "والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم"⁵.

معركة البابين 562هـ/1166م:

على الرغم من أن جيش أسد الدين قد تعرض لعاصفة رملية أعاققت تقدمه، وكادت تقضي على أفرادها، فإنه وصل سالما إلى برزخ السويس في شهر ربيع الثاني سنة 562هـ/1166م⁶، وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشا صليبيا شرع في الزحف باتجاه مصر، عندها اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين فعبروا النيل عند أطفيح⁷، ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف في البلاد وأقام بها "نيفا وخمسين يوما"⁸. في هذه الأثناء خرج عموري الأول من بيت المقدس في ربيع الأول 562هـ/1166م، متوجها إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى

¹ - سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين ، ص342.

² - ابن الأثير، الكامل، ج 10 ، ص3.

³ - أحمد بن علي الحريري ، المصدر السابق ، ص50.

⁴ - ابن واصل ، ، المصدر السابق ، ج1، ص 149

⁵ - ابن الأثير، الكامل، ج 10 ، ص3. أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص11.

⁶ - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص169.

⁷ - أطفيح من البلاد المصرية القديمة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل ولذلك يقال لها الشرقية .ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2، ص 322.

⁸ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ص 149. ابن الأثير ، الكامل، ج10 ، ص3.

العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبس، وتخوف شاور من ظهوره المفاجئ، وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى أطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة¹.

والراجح أن عموري الأول وقف على نزعات شاور المتقلبة، فأراد أن يقيده ليضمن الحصول على المغنم، قبل أن يقوم بمحاربة أسد الدين شيركوه، فأجرى معه محادثات تعهد خلالها شاور بأن يدفع أربعمئة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، و اشترط أن يقسم عموري الأول على ذلك².

ولدعم هذه الاتفاقية وإعطائها صفة رسمية، أرسل عموري الأول كل من هيو سيد قيسارية، وجفري مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة العبيدي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستقبل الرسولان استقبالا حافلا في القصر العبيدي وتم التصديق على المعاهدة، وكان من الطبيعي أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة العبيدية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد³.

وصل الصليبيون إلى مصر وعبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، فلحقت بهم القوى الصليبية

¹ - ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 170-171. سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص344.

² - سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ، ص 344

³ -وليم الصوري، المصدر السابق ، ج2، ص 899-902.، سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، الشام، ص 344.

العبيدية المشتركة وأدركوهم في 25 جمادى الثانية 562هـ/1166م¹، فأرسل إليهم أسد الدين الجواسيس للاطلاع على عددهم وعتادهم، فوجده من الكثرة ما زاد من عزيمته على لقائهم وقتالهم .

استشار أسد الدين أصحابه، فوجد في نفوسهم تخوفا من الوضع وخشية من تفوق العدو في العدد، وأشاروا عليه بالعودة إلى بلاد الشام، فلما قالوا ذلك قام أمير من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش، وكان شجاعا وقال: "من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحا أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة بلاء تُعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار؟"²، وكان هذا ما عزم عليه أسد الدين فقال: هذا رأيي وبه أعمل، ووافقهما صلاح الدين، ثم كثر الموافقون على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء³ .

والجدير بالذكر أنه على مثل هؤلاء يعول لمواجهة الأعداء بهذه الروح العالية والشجاعة التي تمتع بها هذا الأمير تمكن من تجهيز النفوس وتحريضها على استكمال الجهاد رغم عدم تكافؤ القوى، "وما النصر إلا من عند الله ."

وهنا برزت عقلية أسد الدين وخبرته العسكرية، فقد جعل الأثقال في القلب لأنه لم يمكنه أن يتركها في مكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم أنه جعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب⁴ وقال له ولمن معه: "إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا

¹ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص 150. ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 3

² - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 12. ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 4، ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص 150.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 12. ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 170.

⁴ - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2، ص 323. لكن ابن تغري بردي يقول أن أسد الدين رتب عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة و في الميسرة الأكراد ، وأسد الدين في القلب ، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 332.

حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا أنفسكم، واندفعوا من بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم¹.

فلما تقابلت الطائفتان فعل الصليبيون ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه، فقاتله من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الصليبيين الذين حملوا على القلب فهزمهم ووضع السيف فيهم فأتخن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون²، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ: "أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل"³، فقتلوا منهم ألوفاً وأسروا مائة وسبعين فارساً، ففر المنهزمون إلى القاهرة، ولو شاء أسد الدين لساار خلفهم وملك القاهرة عنهم⁴، لكنه عدل إلى الإسكندرية وجبى ما في طريقه من القرى، ووصل إلى الإسكندرية فسلمها أهلها إليه "لميلهم إلى مذهب السنة وكراحتهم لرأي المصريين"⁵، فولى عليها صلاح الدين وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله، وأقام به حتى صام شهر رمضان⁶.

أما الصليبيون فقد عادوا إلى القاهرة وأصلحوا جيشهم ثم ساروا إلى الإسكندرية وحاصروا صلاح الدين، فاشتد عليه الحصار وقلت الأقوات، فصبر أهلها على ذلك، ولما بلغ ذلك لأسد الدين سار من الصعيد إليهم، عندها طلب الصليبيون إلى شريكوه الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن الصليبيين لا يقيمون في البلاد، ولا يملكون منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد أسد الدين شريكوه إلى الشام⁷.

¹ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 150، 151.

² - الصلابي، الدولة الزنكية، ص 534.

³ - أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص13

⁴ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 332.

⁵ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص151.

⁶ - ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص4،5.

⁷ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص152

وعلى إثر ذلك تسلم المصريون الإسكندرية وعاد أسد الدين إلى دمشق في ذي القعدة 562هـ/1166م واتفق الصليبيون مع شاور على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها مع فرسانهم وبأيديهم لتمكن نور الدين من إنفاذ عسكره إليهم، و يدفع لهم كل سنة مائة ألف دينار، ثم عادوا إلى بلادهم وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم¹.

6- الحملة النورية الثالثة على مصر سنة 564هـ/1168م:

ترصد الصليبيون أحوال مصر ووقفوا عند نقاط ضعفها خاصة بعدما استتجد بهم شاور في المرتين السابقتين، ولكن العهد الذي عقده مع أسد الدين جعلهم يعودون إلى ديارهم وكلهم عزم على العودة إلى مصر والاستقرار بها خاصة بعد أن تركوا حامية عسكرية على أبوابها كانت بمثابة جواسيس تتطلع على أحوال مصر وتتحين فرصة الانقضاض عليها، وكان لهم ذلك بعد أن قصدهم بعض أعيان مصر الذين كانت بينهم وبين شاور عداوة، وهم ابن الخياط² وابن قرجلة وأمثالهما³، كما أنه تملك عساكرهم أمور أمور المسلمين وأكثروا البطش فيهم، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم كتبوا إلى ملكهم يستدعونه لتملكها وأعلموه خلوها من الموانع، وهونوا أمرها عليه، فسار الملك عموري الأول إليها على كره بعد أن استشار أصحابه فأشاروا عليه بالمسير، وكان قد رأى أن يكتفوا بالأموال التي تساق لهم وتخوف من العامة من أن يثوروا ويسلموها إلى نور الدين بدلا منهم⁴.

¹ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص152. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص333.

² - يحيى بن الخياط الذي خرج سنة 563 هـ / 1167م على شاور من قوص طالبا الوزارة ، ولكن لم يظفر بشيء فراح إلى الصليبيين مع علم الملك بن النحاس وابن قرجلة ، ينظر : ، أبو شامة ، المصدر السابق، ج1 ، ص46.

³ - على البنداري ، سنا البرق الشامي ، - مختصر البرق الشامي في سيرة السلطان صلاح الدين للعماد الأصفهاني، الأصفهاني، تحقيق : رمضان ششن ، مركز الأبحاث التاريخية والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، 2004 ، ص20.

⁴ - ابن واصل ، المصدر السابق، ج1، ص156. أبو شامة ، المصدر السابق، ج2، ص47.

فلما سمع نور الدين بتحريك الصليبيين شرع بجمع عساكره ، وأمرهم بالقدوم عليه، وجَد الصليبيون في السير إلى مصر، وأظهروا أنهم يقصدون حمص، فخرجوا من عسقلان في النصف من محرم سنة 564هـ/1168م ووصلوا إلى بلبس أول صفر، فاستولوا عليها وأكثروا فيها القتل والأسر وأقاموا بها خمسة أيام¹، ثم ساروا إلى مصر فنزلوا بالقاهرة في 10 صفر وحاصروها، فامتتع بها الناس ودافعوا عنها خوفا من أن يفعل بهم كما فعل بأهل بلبس، وكان شاور قد أمر بإحراق مدينة مصر قبل يوم من وصول الصليبيين في 9 صفر خوفا من أن يملكوها، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما²، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه على أحوال المسلمين وعن عجزهم عن رد الصليبيين عن أملاكهم، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: " هذه شعور نسائي من قصري ، يستغنن بك لتتقذهن من الفرنج"³.

في هذه الأثناء أدرك شاور أنه لا يستطيع مواجهة الصليبيين فأخذ يستميلهم ويهادنهم، فأرسل إلى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، ويذكر له تخوفه من نور الدين والعاضد، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم إليه ، ويشير عليه بالصلح وأخذ المال لئلا تُسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على ألف ألف دينار مصرية، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار وماطله في الباقي، وسأله الرحيل عن البلد ليجمع له المال، فرحلوا قريبا⁴.

¹ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 20.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 12، 13. أبو شامة ، المصدر السابق، ج 2، ص 48.

³ - نفسه ، ج 10 ، ص 12، 13.

⁴ - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 176. البنداري ، سنا البرق الشامي، ص 21.

لما تسامعت إلي الخليفة العبيدي العاضد أنباء مصالحة شاور للصليبيين، عاود مراسلة نور الدين وإعلامه بما لحق بالمسلمين، "وبذل له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث لنور الدين"¹. شجعت دعوة الاستغاثة تلك نور الدين على الإسراع في تجهيز قوة عسكرية لإرسالها إلى مصر، والراجح أنه تطلع إلى إعادة المذهب السني إليها، فشرع في تجهيز الجيوش وإعدادها إعدادا قويا، وأعطى قائد الحملة شيركوه مائتي ألف دينار عدا الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن يأخذ حاجته، فاختر من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين دينار معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش وصلاح الدين يوسف بن أيوب وغيرهم².

سار هذا الجيش مجددا إلى مصر والذي بلغ تعدادهم سبعين ألف فارس وراجل³، وذلك في منتصف ربيع الأول من سنة 564هـ/1168م⁴، فلما تواصل أنباء قريبهم من مصر رحل الصليبيون عنها إلى بلادهم خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسرّه ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، فإنه كان فتحا جديدا لمصر، ولما وصل أسد الدين القاهرة في 4 ربيع الثاني من نفس السنة، دخلها واجتمع بالعاضد الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة⁵.

¹ - أبو شامة، الروضتين، المصدر السابق، ج2، ص49.

² - نفسه، ج2، ص51، 50. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص14.

³ - ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص177.

⁴ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص22.

⁵ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص160، 161.

7- مقتل شاور وضم مصر إلى الشام :

كان شاور قد وعد نور الدين ببذل الأموال إن هو أسرع في إنقاذ البلاد من الصليبيين، ولكن بمجرد خروج الصليبيين وعودتهم إلى ديارهم أخذ شاور يتماطل في إقرار الأموال إلى نور الدين، حتى أنه عقد العزم على الغدر بشيركوه وأمرائه بعد دعوتهم إلى وليمة في القصر، لكن ابنه العادل نهاه عن ذلك وهدده بإخبار شيركوه¹ فعدل عن الأمر، فحاول أن يتودد إلى شيركوه لكن صلاح الدين عزم على قتله لما ثبت عنه من الغدر في المرات السابقة، وقال: " هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، ولا استيلاء مع استيلاء شاور لا سيما إذا راوغ وغادر"².

وعليه اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص منه، فأسروه وشيركوه غائب عن المعسكر، فسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، فأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في 17 ربيع الثاني 564هـ/1168م³.

8- تولي أسد الدين الوزارة للعاضد ووفاته :

ولى العاضد لدين الله العبيدي أسد الدين على الوزارة، فسار ودخل القصر، وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش، ولقب الملك المنصور سلطان الجيوش⁴، وقصد دار الوزارة فزلها واستقر في الأمر في 17 ربيع الثاني 564هـ ودام أمرا ناهيا⁵.

¹ - وهذا بعد أن ثبت عن الكامل شجاع بن شاور أنه قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي إليه محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن عن نفسه انه يجمع بمصر الكلمة على طاعته ، فأجابه إلى ذلك ، وكان ذلك على اثر خروج شيركوه من مصر في المرة الثانية 562هـ/ ، ينظر: ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص152.

² - البنداري ، سنا البرق الشامي، ص 23.

³ -أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص56، 57. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص15. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص161، 162. البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 23.

⁴ - ابن قاضي شهبة الكواكب الدرية في السيرة النورية ، المصدر السابق ، ص179.

⁵ - بهاد الدين ابن شداد ،المصدر السابق، ص40.ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2، ص480.

وبتولي أسد الدين الوزارة في مصر، أصبح اسم نور الدين يذكر في الخطبة بعد الخليفة العاضد، فتحقق لنور الدين ما كان يصبوا إليه من تحقيق وحدة إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل، فأمكنه ذلك من التفرغ إلى الجهاد ضد الجبهة الصليبية بعد أن أوكل مهمة تسيير مصر إلى قادة أكفاء كأسد الدين وصلاح الدين .

ولما انتظمت الأمور لأسد الدين بمصر أقطع البلاد للعساكر التي قدمت معه، وعين صلاح الدين لمباشرة أمور الجيش¹، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين من اعتلائه الوزارة، توفي يوم الأحد 22 جمادى الثانية 564هـ/1168م فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام²، قال عنه ابن عماد الحنبلي: "كان أحد الأبطال، يُضرب بشجاعته المثل، وكان الفرنج يهابونه"³.

فكان من أمراء شيركوه أن اجتمعت كلمتهم على تولية صلاح الدين في منصبه بالوزارة لجدارته لهذا المنصب ولقربته من أسد الدين⁴، وجاء في بعض المصادر أن أسد الدين لما احتضر أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب⁵.

لكن حسب رواية ابن الأثير أن العاضد هو من أحضره عنده وخلع عليه بعد أن أشار عليه أصحابه بذلك وقالوا: "ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف، والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه"⁶، وهذا جهلا منهم بقدرات صلاح

¹ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص163-165.

² - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 25، ابن واصل ، ج 1 ، المصدر السابق ، ص168. بهاد الدين بن شداد، المصدر السابق ، ص40. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2، ص480، أما ابن الأثير فيقول أنه توفي يوم السبت 2 جمادى الثانية 564هـ/1168م " . الكامل ، ج10، ص 16.

³ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج 6 ، ص350.

⁴ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 25.

⁵ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 336. أبو شامة ، المصدر السابق، ج2، ص68، 69.

⁶ - ابن الأثير ،الكامل، المصدر السابق، ج 10 ، ص17.

الدين الذي تربى في كنف والده نجم الدين أيوب والقائد نور الدين محمود على حسن السياسة والتسيير وأنه قادر على تسيير أمة بأكملها، وهذا ما أثبتته إنجازات صلاح الدين فيما بعد.

تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد، وقد وكانت جماعة من أمراء نور الدين قد طلبوا تولي هذا المنصب، فرأى أن يُعين صلاح الدين¹، فكتب له العاضد من القصر منشور الوزارة ولقبه بالملك الناصر²، ولم يكن العاضد يرى أن نهاية دولة أجداده ستكون على يد هذا الشاب المحنك الذي رأى فيه ضعفا في بداية أمره فولاه الوزارة.

تولى صلاح الدين الوزارة في مصر ورسخ له الملك، ومع ذلك كانت الخطبة على المنابر تقام للخليفة العاضد، ومن بعده الملك العادل نور الدين، فلم يكن صلاح الدين يبيت في شؤون مصر دون تلقي الأمر من نور الدين³، فحسب ابن واصل: "... لا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره - أي نور الدين -، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين بالأمير الأسفهلار⁴، ويكتب

¹ -منهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن ثليل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني، الذي كان صاحب إربل، ومنه سيف الدين علي بن أحمد الهيكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين. ينظر: أبو شامة، الروضتين، المصدر السابق، ج2، ص 69-70. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، المصدر السابق، ص180. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تصحيح: أنطوان صالحاني اليسوعي، ط2، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1983، ص 370.

² -البنداري، سنا البرق الشامي، المصدر السابق، ص 25.

³ -ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص155.

⁴ -أسفهلار: هو من ألقاب أصحاب السيوف والكلمة مركبة من لفظين: فارسي وتركي، الأول فارسي وهو أسفه ومعناه المقدم، والثاني تركي وهو سلار ومعناه العسكر، فمعناها "مقدم العسكر"، وقد استعمل هذا المصطلح في مصر في العهد العبيدي، وكان صاحبه صاحب وظيفة تلي صاحب الباب، ثم أصبح هذا اللقب في العصر المملوكي مما يختص به أمراء الطبلخانة أو من هم في مرتبتهم ويذكر القلقشندي أن الأمراء في زمانه تركوا استعمال هذا اللقب لأن العامة اعتادوا أن يقولوا لبعض لمن يقف بباب السلطان من الأعوان اسباسلار فكره الأمراء مشاركة بعض الأعوان فيه فأضربوا عنه لذلك، أو لم يفهموا معناه فتركوه. القلقشندي، المصدر السابق ج6، ص 7، 8. وج3 ص 483. ينظر: ابن واصل، المصدر السابق، ص 2.

نور الدين اسمه قبل علامته¹ تعظيما لنفسه، ولا يفرده بالمكاتبة بل يكتب إليه: الأمير الأسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا².

واستمال صلاح الدين الناس وبذل لهم الأموال فمالوا إليه وأحبوه وضعف أمر العاضد، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين محمود أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه سنة 565هـ/1169م وشرط عليهم طاعته³.

وفي هذه الأثناء، وبعد ستة أشهر من توليه الوزارة، واجه صلاح الدين مؤامرة من داخل قصر الخليفة العبيدي، كمحاولة لقلب النظام، كان مُدبرها خصي من القصر، هو مؤتمن الخلافة ويدعى جوهر⁴، والظاهر أنه كان من الطامعين في خلافة شاور ولما لم يفلح راح يخطط للإطاحة بصلاح الدين، فأجمع هو وأهل القصر على مكاتبة الصليبيين للقدوم إلى مصر والتحالف معهم ضد صلاح الدين، واعتقد مؤتمن الخلافة أنه ما إن تصل أخبار اقتراب الصليبيين إلى صلاح الدين فلن يكون له خيار سوى ملاقاتهم، حينها يثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين والسودانيين الذين حقدوا على صلاح الدين بعد أن بدأ بالتخلص منهم تدريجيا واستبدلهم بأمرائه الشاميين الأكراد⁵، علم صلاح الدين بالمؤامرة فأرسل إلى مؤتمن الخلافة جماعة مسلحة فأخذه وقتلوه وأتوا برأسه وذلك يوم الأربعاء 25 ذي القعدة 564هـ/1168م⁶.

¹ - جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته . ينظر: المقرئ، الخطط، ج3، ص 59.

² - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص173.

³ - ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج2، ص329. ابن العبري، المصدر السابق، ص 371.

⁴ - المقرئ، الخطط، ج3، ص 2.

⁵ - وقد اشتهرت الفرق السودانية بالوحشية، وذكر أنهم إذا ما ثاروا ضد أحد الوزراء فلا بد أن يقتلوه، وكانوا يقطعون الطرقات و يستولون على أموال المسافرين أو يسفكون دمائهم. ينظر: عبد الرحمان عزام، صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السني، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط2، دار بلومزبري، قطر، 2013، ص107.

⁶ - للتوسع أكثر حول تفاصيل هذه المؤامرة ينظر: ابن الأثير الكامل، ج10، ص19. البنداري، سنا البرق الشامي، الصدر السابق، ص 26. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص174. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 640-641، محمود شلبي، حياة صلاح الدين، دار الجيل بيروت، ط3، 1989، ص 50-51. عبد الرحمان عزام، المرجع السابق، ص107.

وعلى إثر ذلك قام صلاح الدين بحملة تطهير واسعة في قصر الخلافة حيث عزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع **بهاء الدين قراقوش** وهو خصي أبيض، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور كبيرها وصغيرها¹.

غضب السودانيون لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية، ولأنه كان يتعصب لهم، فحشدوا وجمعوا فانضم إليهم كل من كان يُخفي عداوته لصلاح الدين، سواء من الأمراء المصريين أو العامة فزادت عدتهم على خمسين ألفاً²، فلما ثاروا سير إليهم صلاح الدين جيشاً بقيادة أخيه تورانشاه وأبي الهيجاء السمين، ووقعت حرب حامية بينهم انتهت بهزيمة السودانيون، وفروا إلى الجيزة بعد أن قُتل معظمهم، ولحق بهم شمس الدولة تورانشاه أخ صلاح الدين وأبادهم بالسيف³.

9- إعلان الخطبة للخليفة العباسي ونهاية الخلافة العبيدية 567هـ/1171م :

ضعفت الدولة العبيدية بسبب صراع الوزراء وتسلطهم على الخليفة، واستطاع صلاح الدين بذكائه وحنكته السياسية وعزمه على إرساء قواعد المذهب السني بمصر من إعلان الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله (566-575هـ/1170-1180م)، بعد أن وصله كتاب من الملك نور الدين محمود الذي تحقق له ضعف الدولة المصرية، يأمره فيه بأن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بني العباس⁴.

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 641. ابن الأثير الكامل، ج10، ص19.

² - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص19. عبد الرحمان عزام، المرجع السابق، ص108، محمود شلبي، المرجع السابق، ص51.

³ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 76. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص176-177.

⁴ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص200.

وقد كان صلاح الدين في بداية الأمر قد تخوف من ثورة أهل مصر لظنه أنهم يميلون للعبيديين فتردد في تنفيذ الأمر، فألزمه نور الدين بذلك¹، وصاحب ذلك مرض العاضد آخر الخلفاء العبيديين، فاستشار صلاح الدين الأمراء والعلماء في قطع الخطبة له، وكيف يكون ابتداء الخطبة العباسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها²، ومنهم من خاف على الإقدام على ذلك، وفي هذه الأثناء قال رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم: "أنا أبتدئ بها"، فلما كانت أول جمعة من محرم 567هـ/ 1171م، صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء العباسي ففعلوا ذلك، ولم ينكر أحد عليه، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء، ولم يخالفه أحد وانتظم الأمر، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي العاضد يوم عاشوراء من نفس السنة³.

¹ - ويذكر ابن العديم أن صلاح الدين كان يؤثر أن لا يقطع الخطبة للعبيديين في ذلك الوقت خوفا من نور الدين أن يدخل إلى الديار المصرية ويأخذها منه . لكن لم أجد هذا الرأي صائبا كون أنه لا يوجد أي عائق أمام نور الدين لفعل ذلك إن رغب في الأمر ولكن انشغاله بالصليبيين وثقته الكبير بصلاح الدين هي ما صرفته عن دخول مصر. ينظر: ابن العديم، زبدة الحلب ، ج2، ص333.

² - ومن بين من أشار على صلاح الدين بضرورة إلغاء الخطبة للعبيديين الفقيه نجم الدين الخويشاني، هو نجم الدين محمد أبو البركات ابن أبي المطهر الخويشاني التبريزي الصوفي الشافعي، ولد بخوشان في نيسابور في 23 رجب 510هـ/ 1116م تفقه بنيسابور على محمد بن يحيى، وكان يقول أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عبيد الكذابين، قدم مصر سنة 565هـ/ قربه صلاح الدين وأكرمه بعد أن كان له السبق في أمر الخطباء بقطع الخطبة للعبيديين بأمر من صلاح الدين، أشار على السلطان بعمارة مدرسة بجوار قبر الامام الشافعي فشيد لها وجعله مدرسا بها إلى أن توفي يوم الأربعاء 22 ذي القعدة 587هـ/ 1190م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص204، المقرئ، المقفى الكبير، المصدر السابق ، ج7، ص 225-226.

³ - ابن الأثير الكامل، ج10، ص 34. ابن واصل، ج1، المصدر السابق، ص201، 200. البنداري، سنا البرق الشامي، ص47. أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص189.

وذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين لما قطع خطبة العاضد، دخل عليه وقبض عليه واعتقله، فلما رأى العاضد ذلك مص فص خاتمه كان به سم فمات لوقته، فندم صلاح الدين لما فعله به وكان أجله قد قرب¹.

تواصلت أنباء إلغاء الخطبة العبيدية من مصر وإعلانها للخليفة العباسي المستضيء إلى بغداد²، وفرح المسلمون فرحا شديدا وكان يوما مشهودا، وكانت الخطبة قد قطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي، حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمي باني القاهرة إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين " حسب ابن كثير³ .

أما أولاد العاضد وعائلته فكان لها شأن آخر مع صلاح الدين، إذ لما مات العاضد غسله ابنه داود وصلى عليه، وجلس على الشدة⁴، واستدعى صلاح الدين لبيايه، فامتنع، وبعث إليه: " أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوص بأباك ولي عهده"⁵، وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في 6 شعبان 569هـ / 1173م ونقلهم إلى دار المظفر⁶ من حارة برجوان في العشر الأخير من شهر رمضان، ووكّل عليهم وعلى

¹ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج5، ص 320. النويري ، المصدر السابق، ج 28، ص 228.

² - محمد بن علي ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية ، مطبعة مرسو، باريس ، 1894. ص429. أنظر جزء من نص الرسالة التي أرسلها نور الدين محمود للخليفة المستضيء يبشره بعودة مصر إلى حضيرة أهل السنة في الملحق رقم 06، ص 501.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 647.

⁴ - ولقبوه الحامد لله، وقد توفي في زمن العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في الحبس، فقيل أنها صارت من بعده لابنه سليمان بن داود بن العاضد، وكانت أمه قد ولدته بالصعيد حتى لا يقع في أيدي الأيوبيين، فعلم الملك الكامل بن العادل بخبره فظفر به وحبسه بقلعة الجبل، وتوفي بها سنة 645هـ / 1248م. أيام الصالح نجم الدين بن الكامل. ينظر: ابن واصل ، المصدر السابق، ج1 ، ص210.

⁵ - المقرئزي ، اتعاط الحنفاء، ج3 ، ص 347.

⁶ - وهي الدار التي أنشأها بدر الجمالي لتكون سكنا له ومقرا لوزارته ، فلما جاء من بعده ابنه الأفضل أنشأ دارا جديدة عرفت بدار الوزارة وظلت المقر الرسمي للوزارة إلى أواخر عهد العبيديين .

جميع ذخائر القصر وفرق بين النساء والرجال حتى لا يحصل منهم نسل، وصودرت أملاكهم وفرقت على أمراء صلاح الدين ليسكنوها¹.

وكانت نهاية الدولة العبيدية بسبب سوء سياستها، وانحرافها الواضح عن النهج الصحيح ف: "إن التدبير إذا بُنيَّ على أصول خارجة عن الصواب وإن خُفيَّ في الابتداء ظهر على طول الزمان، ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادة الطرق انحرافاً يسيراً² ولا يظهر انحرافه في المبدأ حتى إذا طال به المسير بُعد عن السمت وكلما ازداد إمعاناً في السير زاد بعده عن الجادة وظهر خطأه وتفاوت أمره"³.

10- الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين وأثره في مقاومة الوجود الشيعي:

عمل نور الدين محمود جاهداً على استعادة مصر إلى حضيرة الخلافة العباسية السنية، ونجح في ذلك على إثر الحملات المتتالية التي أرسلها إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، كما وضعنا سابقاً، وفي نفس الوقت لم يهمل التحركات الصليبية في بيت المقدس وبلاد الشام فقد عمل على التضيق عليهم وعدم السماح لهم بالتوسع أكثر على حساب الممتلكات الإسلامية⁴، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وحصن قلاعها منها دمشق وحمص وحملة وحلب وبارين وشيزر ومنبج، وأنفق الأموال الجلييلة في ذلك⁵، وأحكم قبضته عليها بعد أن قضى على التواجد العبيدي الذي كثيراً ما سعى ولاتها إلى مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على عدة مدن وحصون مهمة في بلاد الشام.

¹ - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج3 ، ص 347.

² - لا نقصد بالانحراف هنا الانحراف العقائدي لأن ذلك لم يكن انحرافاً يسيراً، ولكن نقصد به سوء السياسة والتدبير والاحتماء بالصليبيين ضد المسلمين خدمة لمصالحهم الأمر الذي أدى بهم إلى الزوال الحتمي.

³ - ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص97.

⁴ - أبو شامة، المصدر السابق، ص225، 224.

⁵ - ابن القاضي شهية ، المصدر السابق ، ص 35.

لكن انشغال نور الدين بأمر الصليبيين لم يجعله يتناسى أمر مصر وصلاح الدين، فقد كان على إطلاع دائم بأحوال مصر، حتى أنه كان يأمر صلاح الدين بتجهيز قواته والخروج لمواجهة الصليبيين، وقد حدث سوء تفاهم بين الطرفين بعد أن أمر نور الدين صلاح الدين بالخروج إلى الكرك للاستيلاء عليها، ففي بداية الأمر أظهر صلاح الدين أنه ينوي الخروج لتدعيم الحملات النورية ضد الصليبيين، وخرج فعلا من مصر في 22 محرم 567 هـ / 1171م وكتب إلى نور الدين أنه لن يتأخر¹، ولكن صلاح الدين اضطر للعودة إلى القاهرة في منتصف ربيع الأول وكتب إلى نور الدين كتابا يعتذر فيه عن الوصول إليه بسبب اختلال أحوال البلاد، فلم يقبل نور الدين عذره².

وقد ذكر ابن الأثير أن صلاح الدين خرج من مصر لغزو الصليبيين، فحاصر حصن الشوبك³، وضيق على من به من الفرنج، فطلبوا الأمان فأجابهم إلى ذلك فلما سمع نور الدين بذلك سار من دمشق وحاصر الصليبيين من الجهة الأخرى، وهنا تخوف أصحاب صلاح الدين من غلبة نور الدين وسيطرته على بلاد الصليبيين وهم على هذا الضعف، فأشاروا على صلاح الدين بالعودة إلى مصر مخافة أن يتفرغ نور الدين من أمر الصليبيين ويعود لنزع ملك مصر من صلاح الدين، فرحل عن الشوبك عائدا إلى مصر، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية، فغضب نور الدين لذلك وعزم على دخول مصر وإخراج صلاح الدين منها⁴.

¹ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1، ص 221. ابن الأثير ، الباهر، ص 158-159.

² - نفسه ، ج 1، ص 221. البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 52.

³ - الشوبك ، قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان و أيلة و القلزم قرب الكرك. ينظر: الحموي ، معجم البلدان ، ج 3، ص 370.

⁴ - ابن الأثير الكامل، ج 10 ، ص 35-36.

ويبدو لنا أن رواية ابن الأثير أقرب للصواب، لأننا نجد أن صلاح الدين لما تسامعت إليه أنباء عزم نور الدين على قصد مصر وإخراجه عنها، جمع أهله وفيهم نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء¹ - الذين أشاروا عليه بالعودة إلى مصر وأوقعوه في هذه الورطة - وأعلمهم بما قد عزم عليه نور الدين، ولولا ذلك لما أعاد إلى استشارة أمرائه² واكتفى بمشورة والده فقد كان " ذا رأي ومكر وكيد وعقل" كما وصفه أبو شامة³، لكن ابن الأثير يبالغ هنا باتهام صلاح الدين أنه كان حريصا على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين نور الدين محمود، وكان يعتقد أنه متى زال الصليبيون من طريقه أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم .

كما أن مؤرخ الدولة النورية العماد الأصفهاني سكت عن ذكر جميع هذه الأحداث واكتفى بالقول: " فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقدر للاتفاق قدر موافق"⁴، وأرخ لهذه الحادثة بأربعة أسطر لا غير، ففي هذا الأمر شبهة ومحاولة للتستر عن ما حدث من خلاف بين الملك نور الدين والأمير صلاح الدين .

¹ - ابن الأثير الكامل، ج10 ، ص36 . ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص222. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص651.

² - ذلك أن نفرا من قواد صلاح الدين خافوا لقاء نور الدين ، وكانت قد بدرت منهم عبارات في حقه تدل على خسة ونكران للجميل وتستوجب العقاب فخافوا لقاءه، بل ذهب بعضهم إلى حد تحريض صلاح الدين على الخروج على نور الدين ، ثم إن أقارب صلاح الدين كانوا كثيرين حوله، وكانوا جماعة من الطامعين لا ينظرون إلا إلى الإفادة من هذه الفرصة التي أتاحت لهم، إذ حفزهم الخوف على أنفسهم وعلى ما في أيديهم على الإسراع بالعودة إلى مصر تجنباً للقاء نور الدين. حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 346.

³ - أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص228.

⁴ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 52.

ولكن هذا الأمر لا يعني البتة أن صلاح الدين لم يكن وفيا للملك نور الدين، بل إن ما حدث بينهما هو سوء تفاهم نتج عن المشورة السيئة لأمرائه، فقد ثبت عن صلاح الدين في عدة مواقف تبعيته وولائه للملك نور الدين فقد كان يخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي، وقررت السكة باسم المستضيء بأمر الله وبسم الملك العادل نور الدين، فنقش اسم كل منهما في وجهه¹، كما أن صلاح الدين: "لم يخرج عن طاعته وأمره، وما فارق قبول رأيه وإشارته"².

والمهم في الأمر أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين رد على كل من حاول أن يشير على صلاح الدين بمقاتلة نور الدين إن هو دخل مصر وعزم على عزله عنها، وقال لهم: "لو كتب إلي أن أبعثك إليه مع نجاب لفعلت" دلالة منه على طاعته لأمر نور الدين³، ثم أخرج الحضور وأنّب ابنه صلاح الدين لما فعل وقال: "أما تعلم أن نور الدين إذا علم عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى عليه، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له، تركنا واشتغل بغيرنا"⁴.

وكان الأمر كذلك إذ ترك نور الدين قصد مصر بعد أن وصله ما فعل نجم الدين، كما أذعن صلاح الدين لنصيحة والده، وأرسل أعدارا إلى نور الدين محمود وهدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة، والمصنوعات والعطر، فقبلها وانشغل عنها بما هو أهم عنده، جهاد الصليبيين، وكان ذلك أحسن الأراء وأجودها⁵.

¹ - المقرئزي، السلوك، ج1، ص45. الصلابي، الدولة الزنكية، ص570.

² - ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص181.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص651، ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص163-164. وفي موضع آخر قال: "لو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا". ينظر: أبو شامة، الروضتين، المصدر السابق، ج2، ص228.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص36. لمزيد من التفاصيل حول الحوار الذي دار بين نجم الدين أيوب وابنه صلاح الدين ينظر: أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص228. ابن واصل، ج1، المصدر السابق، ص222-223.

⁵ - ابن الأثير، الباهر، ص159.

وعليه كاد ذلك الخلاف أن يُثبط الجهود اللاحقة لصالح الدين في مقاومة الوجود الشيعي، إن هو عُزل من منصبه ، فشاء الله أن يزول سوء التفاهم ويستكمل صلاح الدين مشوار نور الدين في المواجهة والمقاومة، فكان خير خلف لخير سلف.

11 - مؤامرة الحشيشية والصليبيين ضد نور الدين محمود:

لم يقف عموري الأول ملك بيت المقدس مكتوف الأيدي أمام تنامي الجبهة الإسلامية التي جمعت بين مصر والشام، والتي أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية وطوقتها من الشمال والجنوب، فاستغل أمر ارتداد نور الدين محمود عن حصن الكرك وتوجهه نحو الشمال بعيدا عن ممتلكاته¹، وتجدد الأمل لديه بالتخلص من الخطر المحدق به من جانب المسلمين عندما تناهى إلى مسامعه خبر وقوع الجفاء بين نور الدين وصلاح الدين، واتيحت له فرصة الاتصال بفرقة الحشيشية الإسماعيلية في بلاد الشام، وقد جمع الطرفين المصلحة المشتركة وهي العداء لنور الدين محمود².

¹ - في سنة 568 هـ/1172م قرر نور الدين أن يهاجم أنطاكية، وكتب إلى عز الدين قلع أرسلان سلطان سلاجقة أسيا، الصغرى يطلب إليه التعاون معه، فوجد منه تراخيا، فأوغل في بلاده وملك منها مرعش وبهسنا ومزريان وسيواس، فخاف قلع أرسلان وأرسل إليه يستعطفه ويسأله الصلح، فتوقف نور الدين أملا في صلاح حاله، ثم بلغه أن الصليبيين يستعدون لانتهاز الفرصة والغارة على بلاده، فرضى بمصالحته وقبل أن يرد إليه ما فتح من بلاده، وشرط على قلع أرسلان أن ينجده بعساكر للغزاة، وقال له: " أنت مجاور للروم ولا تغزوهم؟ وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معي". فأجابه إلى ذلك .ينظر: حسين مؤنس، المرجع السابق ، ص 344.

² - سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين، المرجع السابق، ص 404. وقد أثبتت الرسائل المتبادل بين نور الدين وراشد الدين سنان ذلك العداء المستحكم بين الطرفين ، ينظر: نص لرسالة رد فيها ثابت بن سنان الباطني على تهديدات نور الدين محمود الملحق رقم 04 ص 496-497.

اتصل عموري الأول بزعيم إسماعيلية الشام راشد الدين سنان¹، الذي اعتبر نفسه الوارث الشرعي لإسماعيلية مصر، وعقدا إتفاقا مشتركا ضد نور الدين فحواه أن يتوسط عموري لرفع الإتاوة التي فرضها فرسان الداوية² على بعض الحصون والقرى الإسماعيلية المتفرقة في الجبال التي سيطر عليها الإسماعيليون، مثل حصن القدموس والعليقة والكهف ومصيف³ وغيرها، ولا غرابة في أن يوافق عموري على ذلك لكسب صديق سلم قوي ضد نور الدين، وقد اتهم راشد الدين سنان في هذا الصدد بأنه عرض على عموري قبول اعتناقه المسيحية مقابل ذلك، الأمر الذي كان له أطيّب الوقع في نفس عموري مما جعله يستمر في تأييدهم في طلبهم هذا⁴.

وهذا أمر مشكوك فيه ليس ذلك تنزيها لشخص راشد الدين سنان، وإنما بالعودة إلى جذور الدعوة الحشيشية أو الإسماعيلية نجد أن الدعاة الذين يصلون إلى مرتبة الزعامة والقيادة يكونون متبحرين في فكرهم متشبتين بمبادئهم، وقد عُين هذا الأخير من قبل مركز

¹ - هو أبو الحسن سنان بن سلمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية، وكان يلقب بالشيخ أو شيخ الجبل، ومعنى الشيخ هنا السيد أو الرئيس وليس الرجل الممن، وقد عرفت فرقته بالحشيشية نسبة لأن أتباعه كانوا يتعاطون الحشيش. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص 185. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، هامش ص 249.

² - الداوية هم هيئة فرسان المعبد أسسها هيودي باين الذي طاف بانجلترا واسكتلندا وفرنسا وعاد إلى بلاد الشام ومعه المئات من خيرة فرسان الغرب الأوروبي وشكل فرقة دينية عسكرية تشترك في حرب المسلمين ثم حدث تحول في تاريخ تلك الجماعة بعد أن انضافت إليهم جماعات أخرى. ونقصد هنا فرقنا الاسبتارية والهيكلين: وهما فرقان رهبانيتان عسكريتان تأسستا سنتي 507هـ-513هـ / 1113م-1119م، على التوالي، عملتا كقوتين مستقلتين ذاتيا تتبعان البابوية مباشرة وحسب يوفرون المساعدات العسكرية للصليبيين في الدويلات الإفرنجية، ويحرسون طرق الحجاج إلى الأرض المقدسة، وصارت هاتان الفرقان تمتلكان عدة وعتادا وقوات مقاتلة كبيرة حسنة التنظيم كانت تحت تصرفها، إلى جانب العديد من القلاع في المنطقة، في جوار الحصون التي حصل عليها النزاريون في ما بعد، وكان لفرسان هاتين الفرقتين اشتباكات امتدت زمنا طويلا مع الإسماعيليين النزاريين بالشام إبان القرن 5هـ/12م. وكثيرا ما نجحوا في انتزاع الإتاوات منهم... ينظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 189، 190. فرهاد دفتري، خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين، ترجمة: سيف الدين القصير، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1996. ص 86-87.

³ - مصيف: حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص 144.

⁴ - عثمان عبد الحميد عشري، المرجع السابق. ص 161. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 350.

الدعوة في ألموت بفارس، اللهم إلا إذا كان الأمر خدعة دبرتها الزعامة من أجل تحقيق مصالحها وهذا ليس ببعيد عن الإسماعيلية .

على إثر ذلك كتب عموري إلى الداوية يأمرهم بقبول العرض، وإعفاء طائفة الحشيشية من الضريبة المفروضة على أعضائها، ولكن العداء القديم بين الداوية والحشيشية، وغضب الطائفة الأولى لحرمانها من الضريبة التي اعتادت على جبايتها، دفعت أفرادها إلى الإجهاز على سفارة راشد الدين أثناء اجتيازها أراضي إمارة طرابلس، إذ أرسل رئيس الداوية فارسا من طرفه يدعى والترمينيل ، فانقض عليهم وقتلهم جميعا¹ .

وهكذا حال الداوية دون تحالف القوتين الصليبية والحشيشية لمناوئة نور الدين محمود، وكان طبيعيا أن يغضب عموري الأول، إذ تعرضت سياسته للدمار، وأثار نزاعا بينه وبين مقدم الداوية أودو سانت أماند، استوجب رفعه إلى البابا للفصل فيه² .

12- وفاة نور الدين محمود ونهاية جهود الزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي:

تُجمع المصادر التاريخية على أن نور الدين في سنة 569هـ / 1173م، أخذ في التأهب للسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين فإنه رأى منه فتورا في غزو الصليبيين من ناحيته³، وقد أورد بهاء الدين ابن شداد الأمر دون أن يذكر سبب المسير⁴ .

فبعث نور الدين يطلب العساكر من الموصل والجزيرة الفراتية وديار بكر لتركها مع ابن أخيه سيف الدين في الشام لحمايته من الصليبيين ليسيروا هو بعساكره إلى

¹ - سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين ، ص 405. عثمان عبد الحميد عشري ، المرجع السابق . ص 162-163.

² - نفسه ، ص 405.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج 6، ص 654. ابن الأثير الكامل ، ج 10، ص 56. ابن واصل، المصدر السابق،

ج 1، ص 258. ابن الأثير ، الباهر ، ص 161 ، أبو الفدا ، المختصر ، ج 3، ص 72.

⁴ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق ، ص 47.

مصدر¹، ولكن أتاحه أمر الله الذي لا مرد له، فتوفي يوم الأربعاء 11 شوال 569هـ/1173م، بعلبة الخوانيق بقلعة دمشق²، وكان قد ختن ولده الملك الصالح إسماعيل بدمشق في الخامس من شوال وأخرج صدقات كثيرة للأيتام الذين ختنهم معه³.

توفي وهو في التاسعة والخمسين من عمره بدأ أنشط ما يكون وأكثر انصرافاً إلى الجهاد مما كان عليه أيام شبابه، "فكان أجل ملوك زمانه وأعدلهم وأدينهم وأكثرهم جهاداً وأسعدهم في دنياه وآخرته"⁴، فقد حنكته السنون، وصهرته التجارب، وعلت هيئته، وامتد سلطانه، حتى خطب له في الموصل والجزيرة وديار بكر، وملك الشام والديار المصرية واليمن والحجاز كما خطب له بالحرمين مكة والمدينة⁵، وأصبح بذلك أوسع رجال زمانه سلطاناً في الشرق والغرب، وكان قاب قوسين أو أدنى من القضاء على ما بقي للصليبيين في الشام⁶.

وكان نور الدين قبل وفاته قد عهد بأمر الدولة إلى ابنه الصالح إسماعيل وكان صبياً لم يتجاوز الحادية عشر من عمره⁷، فتولى شمس الدين محمد بن المقدم الوصاية عليه وآلت أمور الدولة له، مع جماعة من كبار الأمراء هم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، والطواشي جمال الدولة ربحان وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن

¹ - ابن الأثير، الباهر، ص 161.

² - ابن الجوزي، المنتظم، ج 18، ص 210. ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص 228. أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 72.

³ - ابن العديم، زبدة الحلب، ج 2، ص 340.

⁴ - شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج 3، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص 58.

⁵ - ابن الأثير، الباهر، ص 162. الحريري، المصدر السابق، ص 79. الفاسي، محمد بن أحمد بن علي تقي الدين أبو الطيب المكي الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلاد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 2، 1986، ج 1، ص 188.

⁶ - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 353.

⁷ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 539. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 382.

العجمي أمين الأعمال والشيخ إسماعيل خازن بيت المال¹، وتحالف هؤلاء على أن تكون أمور الدولة بينهم وتناسوا مكانة صلاح الدين الأيوبي والي مصر، إلا القاضي الشهرزوري الذي نبههم إلى ضرورة انتظار رأي صلاح الدين في الأمر، فضربوا برأيه عرض الحائط².

فما كان من صلاح الدين إذ سمع بموت مولاه إلا أن ثاب إلى الشام على الفور، فإن إسماعيل بن نور الدين - وقد ورث أباه - لم يزل طفلا ابن أحد عشر عاما، فلا هو قادر على كبح جماح العدو الطامع من الداخل، ولا هو قادر على دفع العدو المغير من الخارج، وهو طفل لين رخص في يد أمراء أبيه، وأول تجربة فيه أنهم سيجعلونه ترسا يرمون به صلاح الدين من ورائه³.

وبذلك كانت وفاة نور الدين وغيابه عن الساحة السياسية إيذانا ببداية عصر جديد تفككت فيه أوصال الدولة الزنكية فأصبح المسلمون بحاجة لقيادة فذة من شأنها استكمال مشروع الزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي، فكان صلاح الدين خير وريث لذلك المشروع.

استكمل الزنكيون بقيادة عماد الدين زنكي بن آق سنقر سنة 521هـ/1126م جهود السلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بعد ضعفهم وتفككهم وانحصار ملكهم واقتصاره على آسيا الصغرى، فتبنى الزنكيون مقاومة القوى الصليبية الضاربة في بيت المقدس والتواجد

¹ - البنداري، سنا البرق الشامي ، ص 79.

² - حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 357.

³ - ابن قاضي شهبه ، المصدر السابق ، ص 229، عبد العزيز السيد الأهل ، أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، 1964. ص 76.

الشيعي الباطني في مصر وبلاد الشام ، وشكلوا قوى عسكرية لمواجهة العدو وإحياء مجد الخلافة العباسية السنية .

وقد أدرك عماد الدين ضرورة تشكيل جبهة إسلامية متحدة تضم مصر والشام لضرب الشيعة من جهة والصليبيين من جهة أخرى، وقد حمل ابنه الملك العادل نور الدين محمود لواء الجهاد من بعده سنة 541هـ/1146م، واستكمل مشروع الوحدة وتمكن من السيطرة على الشام وضم مصر إلى حضيرة الخلافة السنية والدعوة على منابرها للخليفة العباسي بدلا من الخليفة العبيدي الشيعي سنة 567هـ/1171م، وبذلك كان من أعظم الإنجازات السياسية للدولة الزنكية هو القضاء على الدولة العبيدية الشيعية بمصر وتشكيل جبهة إسلامية متحدة قوية .

وهكذا تبين لنا مدى خطورة المد الباطني الشيعي من خلال تكرار محاولاته في التحالف مع العدو الصليبي على أساس المصلحة الذاتية البحتة دون النظر إلى أي اعتبار آخر ، فكيف نرجو خيرا من قوى فككت عضد العالم الإسلامي واستغلت الصراع المذهبي لخدمة الغرب الصليبي.

توفي نور الدين دون أن يخلف ولدا بالغاً يستكمل مشروعة السني، فكان لزاماً أن تتولى موازين القوى إلى أسرة أخرى كان لها الشرف في استكمال مسيرة الشهيد نور الدين وهي الأسرة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي والي مصر .

فما هو رد فعل صلاح الدين إزاء الوضع؟ وكيف كانت ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في ظل سيطرت الأمراء؟ وهل كانت وفاة نور الدين محمود نهاية للدولة الزنكية وبداية للدولة الأيوبية؟ .

الفصل الثالث: الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود

الشيعة بالمشرق الإسلامي 569-600هـ/1173-1203م:

أولاً: قيام الدولة الأيوبية .

1- صلاح الدين الأيوبي ،أصله نشأته وحياته .

2- بداية صلاح الدين في مصر .

ثانياً : النشاط السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعة 569-600هـ/1173-

1203م.

1-القضاء على محاولات إحياء الدولة العبيدية .

2- فتح صلاح الدين لليمن والقضاء على البقايا الشيعية 569هـ/1173م.

3-خروج صلاح الدين إلى الشام لتوحيد الجبهة الإسلامية 570هـ/1174م.

4- مؤامرة الحشيشية لاغتيال صلاح الدين.

5- الهجوم على معاقل الحشيشية .

6-الانتقال إلى مصر وتحصين القاهرة .

7- صلاح الدين وبناء الوحدة الإسلامية لاستكمال الجهاد ضد الشيعة والصليبيين.

8- صلاح الدين وتحرير المقدسات وسد الطريق أمام تحالفهم مع الشيعة الباطنية.

9-نصر حطين وزلزلة الصليبيين.

10-ظهور طائفة من الشيعة بمصر .

11-وفاة صلاح الدين وتفكك عضد الدولة الأيوبية وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعة.

الفصل الثالث: الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 569-600هـ/1173-1203م:

سار الأيوبيون على نفس خطى أسلافهم السلاجقة والزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي، حيث ركزوا جهودهم في القضاء على الدولة العبيدية بمصر أول الأمر ثم راحوا ينتبعون فلولهم في جميع أنحاء العالم الإسلامي لا سيما بلاد الشام.

فمن هم الأيوبيون ؟ ومتى قامت دولتهم ؟ وفيما تمثل دورهم السياسي والعسكري في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي ؟

أولاً: قيام الدولة الأيوبية:

قبل أن ننقل في دراستنا إلى قيام الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام ينبغي أن نلقي نظرة سريعة وبايجاز على نشأة وحياة وصفات صلاح الدين الأيوبي، مؤسس هذه الدولة، لنقف على مدى تأثيره بالمحيطين به في تكوين شخصيته، ومدى ما تمتع به من صفات دفعته وأهله إلى مركز الزعامة والقيادة، وإنشاء دولته التي كان لها الفضل الكبير في وضع حد للوجود الشيعي في المشرق بنهاية الدولة العبيدية بمصر .

1- صلاح الدين الأيوبي، أصله نشأته وحياته :

هو أبو المظفر يوسف بن أبي سعيد أيوب بن شاذي بن مروان¹، موطن أسرته بلدة دوين²، وترجع أصولهم إلى الأكراد الراودية أحد بطون الهذيانية، وهي قبيلة كردية كبيرة³،

¹ - النويري ، المصدر السابق ، ج 28، ص 232.

² - دُوَيْن: بضم الدال المهملة، وكسر الواو وسكون الياء المثناة تحت وبعدها نون بلدة من نواحي أران وبلاد الكرج، آخر حدود أذربيجان، فيها ولد نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وعمه أسد الدين، وهم من رواد بطن من الأكراد، ينظر: محمد مقديش، نزعة الأنتظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق : علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1، 1988، ص 392 : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2، ص 491، ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص 139.

³ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 4-5، المقريزي ، السلوك ، ج 1، ص 148. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص139. الدواداري ، المصدر السابق، ص5.

وحسب ابن الأثير (ت630هـ) فهم أشرف الأكراد¹، كما أن والد صلاح الدين نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه عندما قدما إلى العراق وبلاد الشام لم يكونا من الرعاة وإنما كانا على درجة عالية من الخبرة في الشؤون السياسية والإدارية². ورغم أن معظم المصادر أجمعت على أن أصل الأيوبيين من الأكراد ، إلا أننا وقفنا على خلاف ذلك فيما ألفه الملك الأمجد الأيوبي في نسب الأيوبيين³، هذا الأخير الذي ينفي نسبهم إلى الأكراد ويذكر أنهم نزلوا عند الأكراد فنسبوا إليهم، بقوله: إن نسبهم إلى الأكراد "تجري على السنة كثير من الناس، ولم أر أحدا ممن أدركته من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب لكنهم لا ينكرون أن نجم الدين كان بدوياً"⁴.

ويضيف قائلا "أن جدهم نزل على الأكراد وتزوج منهم فصارت بيننا بينهم خوؤة لا غير، كما بيننا وبين الأتراك، فإن أمهات جماعة من أسلافنا تركيات"⁵ ويميل الملك الأمجد إلى إيصال نسبهم بعلي بن أحمد المري المعروف بالخراساني ممدوح أبي طيب المتنبّي، وبذلك فهو ينسبهم للعرب⁶.

¹ - ابن الأثير ، الباهر ، ص119.

² - الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ط1، المكتبة العصرية ، بيروت، 2008. ص 217.

³ - وهو مقتبس من كتاب " الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية " وهو ديوان رسائل السلطان الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل بن أيوب المتوفى سنة 656هـ ، وقد جمع هذا الديوان ولده الملك الأمجد الحسن بن داود وصدره بمقدمة قسمها إلى قسمين الأول في نسب بني أيوب والثاني في مآثر أبيه الملك الناصر، ويعتبر القسم الأول أول نسب كتبه أحد الأيوبيين عن بني أيوب . الملك الأمجد الحسن بن الملك الناصر، نسب الأيوبيين ، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1978.

⁴ - نفسه، ص43- 44.

⁵ - نفسه ص 44.

⁶ - ذكره عن حسن بن غريب بن عمران الحرشي الذي قدم شجرة النسب تلك إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل وولده الملك الناصر صلاح الدين سنة 619هـ ولم ينكر ذلك "ينظر: نفسه ص 48-49.

فيما ادعى الملك المعز فتح الدين أبو الفدا إسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبو الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن لما ملكه بعد أبيه ، ادعى أنهم من بني أمية من أولاد مروان بن محمد آخر خلفائهم، وسمى نفسه المعز لدين الله وخطب لنفسه بالخلافة¹ ، وقد أنكر الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ذلك وقال: " لقد كذب إسماعيل مانحن من بني أمية أصلا "².

لكن في هذا القول نوع من التفاخر بالنسب، ومحاولة إبعادهم عن الأكراد ونسبتهم إلى العرب، ولو كان الأمر غير ذلك فلماذا سكنت المصادر المعاصرة لصالح الدين كأصفهاني وابن شداد ومن بعدهم أبو شامة وابن الأثير وابن واصل وابن العديم عن هذا الأمر بل أجمعت على الأصل الكردي لصالح الدين الأيوبي .

وكان شادي جد صلاح الدين قد قدم بأسرته إلى بغداد في خلافة المسترشد بالله(512-529هـ)³، ودخل ولداه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه في خدمة مجاهد الدين بهروز⁴ الخادم شحنة⁵ بغداد، فلما رأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة ولاه

¹ - الملك الأمجد ، المصدر السابق ، ص47. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص141، المقرئزي، السلوك، ج1، ص148-149.

² - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص4.

³ - المسترشد بالله: هو أبو منصور الفضل أبي الخليفة المستظهر بالله أحمد الملقب بالخليفة أمير المؤمنين المسترشد بالله، ولد سنة 485هـ/ 1092م، بويغ بالخلافة في ربيع الثاني 512هـ/ 1118م، توفي سنة 529 هـ/ 1134م ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج 5، ص 250.

⁴ - بهروز كلمة أعجمية مكونة من لفظين " به " و معناه جيد ، " روز " ومعناها اليوم ، فالمعنى يوم جيد ، أو طيب، طيب، واسمه الكامل مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي ، و كان خادما روميا أبيض البشرة ، تولى شحنة بالعراق من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي،" كان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعمارة البلاد " كانت تكريت إقطاعا له، توفي يوم الأربعاء 23 رجب سنة 540هـ/ 1145م، ينظر: ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص141-142.

⁵ - شحنة: ومعناها رئيس الشرطة أو مدير الأمن المشرف على حراسة المدينة وكان الناس يطلقون هذا الاسم بمعنى الأمير في العصور الوسطى. المقرئزي، السلوك ج1، ص 35.

دزدارا¹ على قلعة تكريت² التي أعطيت له من قبل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي (528-547هـ/1133-1152م)³، وكانت تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي سامراء، تتحكم في أغلب الطرق الرئيسية المارة بين العراق وبلاد الشام، وكان أغلب سكانها من الأكراد، وقد انتقل إليها شادي مع ابنه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، وتدرج في المناصب الإدارية فيها حتى وُلِّيَ وظيفة الشحنة، ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين⁴، وكذلك يذكر أبو شامة (ت665هـ/1266م) أن أسد الدين شيركوه كان من الأمراء المقدمين عند السلاجقة الذين أقطعوه إقطاعاً كبيراً في تكريت وما حولها حتى أن إقطاعه كانت تقدر قيمته بحوالي تسعمائة دينار سنوياً⁵.

أقام نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه في تكريت مدة من الزمن إلى أن وقع صدام بين مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي والخليفة العباسي المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1135م) في يوم الخميس 12 ربيع الثاني 526 هـ / 1131م شارك فيه عماد الدين زنكي إلى جانب السلطان السلجوقي⁶، وأصيب عماد الدين زنكي بالهزيمة على يد قراجه الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان كان الخليفة المسترشد قد استتجد به⁷ فانسحب إلى تكريت، فأقام له نجم الدين أيوب المعابر وقدم له السفن التي عبر بها

¹ - دُزْدَار، كلمة أعجمية مركبة من دزه وهي القلعة ودار الحافظ فمعناها حافظ القلعة وهو الوالي. ينظر ، ابن خلكان، المصدر السابق ، ج7، ص142.

² - تكريت: بفتح التاء بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ولها قلعة حصينة تطل على غربي دجلة .ينظر: الحموي ، معجم البلدان ، ج2. ص38 .

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص142.

⁴ - الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص 217.

⁵ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2، ص 257.

⁶ - راجع تفاصيل هذا الصدام: ابن الجوزي المنتظم ، ج 17، ص270، 271. وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص 265، ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص142

⁷ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص142

نهر دجلة مع جنوده ، كما قدم له المساعدات وبالح في إكرامه ¹، وخدمه هو والسلطان السلجوقي أحسن خدمة، وتقربا إليه، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما ثم سار إلى الموصل، وحفظ عماد الدين هذا الصنيع لنجم الدين أيوب ².

ساعت العلاقة بين بهروز ونجم الدين بسبب إكرامه لعماد الدين وقال له: "كيف ظفرت بعدونا فأحسننت إليه وأطلقتة" ³، كما استاء بهروز من مقتل كاتبه قوارص النصراني النصراني على يد أسد الدين أخ نجم الدين أيوب، فكتب إليه ينكر عليه ذلك وعزله ⁴، وإنما فعل ذلك بتحريض من بطانته التي نفّست على نجم الدين وأسد الدين مكانتهما وحرصته من مغبة استمالتهما للرعية وعاقبة ذلك.

وفي هذا اليوم من سنة 532هـ/1137م ولد صلاح الدين الأيوبي، بقلعة تكريت ⁵، وشاءت الأقدار أن يصادف يوم مولده يوم خروج والده وعمه من قلعة تكريت وكان نجم الدين قد ألف القلعة وصارت له كالموطن وثقل عليه الخروج منها والتحول إلى غيرها فاغتم لذلك، وقد تشاءم نجم الدين بهذا المولود وتطير به لذلك ⁶.

ويذكر أبو شامة (ت665هـ/1266م) أن كاتبنا نصرانيا لاحظ الأمر على نجم الدين فقال له: "يا مولاي، قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئا؟، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكا عظيم

¹ - النويري ، المصدر السابق ، ج 28، ص 235. أحمد الشامي، المرجع السابق، ص76.

² - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2، ص 253، 254.

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص143.

⁴ - نفسه، ص143.

⁵ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 1، ص126. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص144.

⁶ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2، ص 256.

الصيت، جليل المقدار"¹ وكان لكلام هذا النصراني أثره في نفس نجم الدين فعطف على ابنه .

سار نجم الدين وأخوه شيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل فلما وصلا إليه سر بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجلييلة، وشهدا معه عدة حروب، ولما ملك زنكي قلعة بعلبك سنة 534هـ/1109م جعل نجم الدين حاكما عليها، فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ/1146م².

فاتصل أخوه أسد الدين شيركوه بخدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، فقربه نور الدين وأقطعته الإقطاعات لما رأى منه من شجاعة وجرأة في القتال، فصارت له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره، أما نجم الدين وابنه صلاح الدين فقد لازما نور الدين عندما ملك دمشق، وهنا تتبأ نور الدين بمكانة صلاح الدين فكان يقربه، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد³.

2- بداية صلاح الدين في مصر :

كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد جهز صلاح الدين صحبة عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر " فاستصحب صلاح الدين على كراهية منه " ⁴، حين استغاث به به أهلها في زمن العاضد العبيدي(555-567هـ/1160-1171م)، لمَّا غلب الصليبيون عليهم وعاثوا فسادا في البلاد كما ذكرنا سابقا.

¹ - نفسه، ج 2، ص 256-257.

² - النويري ، المصدر السابق ، ج 28، ص 235. ابن خلكان ، المصدر السابق، ج7، ص143.

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج7، ص145. محمود مقديش ، المصدر السابق، ص 393.

⁴ - عبد الله بن إبراهيم الحجاري وآخرون، النجوم الزاهرة في حُلَى حُضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حُلَى المغرب، تحقيق : حسين نصار، مطبعة دار الكتب ، مصر ، 1970. ص 138.

وقد قال صلاح الدين في هذا الخروج: "كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة، وما خرجت مع عمي باختياري"¹، كما أثار ابن الأثير (ت630هـ/1232م) هذه النقطة ووضح أن صلاح الدين خرج على كره منه وعلّق على ذلك بقوله: "أحب نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته ومملكه"².

وانتهى الأمر إلى تمكن شيركوه من دخول مصر وطرد الصليبيين عنها ودخول القاهرة سنة 564هـ/1168م، عندها وثب السلطان صلاح الدين على شاور وزير الخليفة العاضد فقتله لأنه حاول التملص من الوعود التي أقطعها للملك نور الدين حين استتجد به مرة ثانية كما أنه هو الذي أطمع الصليبيين في ملك المسلمين، فتقلد عمه أسد الدين شيركوه الوزارة للعاضد بدلا عن شاور 564هـ/1168م، فأقام فيها مدة شهرين ثم مات³، ففوض العاضد صلاح الدين الوزارة مكانه، فاستقل بالسلطنة بمصر وأصبح رئيسا للوزارة المصرية سنة 565هـ/1169م، وهو في الثانية والثلاثين من عمره⁴، وبقي في الوزارة حتى ضعف العاضد فقطع صلاح الدين الخطبة له، وخطب للخليفة المستضيء العباسي (566-575هـ) ببغداد بأمر الملك نور الدين صاحب الشام، ثم مات العاضد في نفس السنة 567هـ/1171م⁵، فاستولى صلاح الدين على قصر العبيديين بخزائنه الذي وجد فيها من الأموال مالا يحصى، وشرع في نصرة أهل السنة وتوهمين أهل البدع والانتقام من الروافض، وعزل قضاة مصر كلهم لأنهم كانوا شيعة وقطع الآذان بحي على

¹ - بهاء الدين ابن شداد،، المصدر السابق، ص 39. محمود مقديش، المصدر السابق، ص 395.

² - ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 14.

³ - بهاء الدين ابن شداد،، المصدر السابق، ص 39-40.

⁴ - محمود شلبي، المرجع السابق، ص 50.

⁵ - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق، عبد القادر زكار، ج 4، منشورات دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983. ص 145-146. الأزدي، المصدر السابق، ص 456.

خير العمل في أول جمعة من محرم سنة 567هـ/1171م¹، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يوطد مركزه في مصر، ويعمل على تأسيس دولة تحل محل الدولة العبيدية المنحلة وقوي جأشه وثبتت في الدولة قدمه واستمال قلوب الناس وبذل لهم الأموال فمالوا إليه وأحبوه².

توفي نور الدين محمود في 14 شوال 569هـ/1173م³، ولم يُظهر صلاح الدين أية بادرة للتطلع للملك بعده، فقد أظهر الدعوة لولي عهده الملك الصالح إسماعيل، وخطب له على المنابر كما ضرب السكة باسمه⁴، لكن موقف صلاح الدين تغير وأخذ يرمي إلى استكمال المشروع الجهادي للزكيين⁵ خاصة بعد تناحر أمراء نور الدين على الوصاية على ولي عهده الملك الصالح إسماعيل⁶، بغية السيطرة على سدة الحكم وتقاسم أملاك نور الدين في بلاد الشام، فهذا التطاحن على السلطة جعل من صلاح الدين المنفذ الوحيد للوضع الذي تأزم أكثر بتطلع والي الموصل سيف الدين غازي وأمير حلب ابن الداية إلى السيطرة على الأمور.

وعليه فإن هناك ارتيابا حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة للخليفة العبيدي العاضد لدين الله سنة 564هـ/1168م⁷،

¹ - عبد الله الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلطين، تحقيق: رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي القاهرة، 1996. ص 92.

² - محمود شلبي، المرجع السابق، ص 50.

³ - الأزدي، المصدر السابق، ج2، ص 457.

⁴ - أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص 317-318.

⁵ - استكمل صلاح الدين ما أسس له نور الدين محمود من جهاد الشيعة والصليبيين على السواء وقد وصف أبو شامة ذلك بقوله: "فإنه بنى صلاح الدين - على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها". المصدر السابق، ج2، ص 310-311.

⁶ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 20، ص 539. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص 382.

⁷ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 171. العاصمي، المصدر السابق، ج4، ص 3، مجير الدين الحنبلي العلمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد أبو تيانة، مكتبة دنديس، الأردن، ط1، 1999، ج1، ص 453.

والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله الله ووفاة الخليفة العاضد سنة 567هـ / 1171م¹، لكن في الواقع أنه في الحالتين السابقتين كان صلاح الدين لا يزال تابعا لسلطة نور الدين محمود، لكن بوفاة هذا الأخير سنة 569هـ / 1173م، وتنازع أمرائه على حضانة ولي عهده برزت طموحات صلاح الدين على الأفق وشرع في ضم الشام إلى مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية، ومن هنا يعد تاريخ وفاة نور الدين محمود تاريخ قيام الدولة الأيوبية في حين تعد فترة الخمس سنوات التي سبقت الوفاة بمثابة فترة إنشاء هذه الدولة، لأن صلاح الدين كان خلالها لا يزال من الناحية الشرعية تابعا لسلطة نور الدين²، ولم يعترف الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بالدولة الأيوبية إلا بعد وفاة نور الدين واحتدام الصراع بين أمراء دمشق الذين تولوا أمور الملك الصالح إسماعيل، عندها كتب صلاح الدين رسالة للخليفة العباسي المستضيء يوضح له فيها خطورة الوضع ويطلب منه تقليدا جامعا بمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه من الأقاليم، وهذا التقليد يكون له ولكل من يقيم بعده من أخ أو ولد³.

¹ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 63. بيبرس المنصوري ، مختار الأخبار الأيوبية، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط1، 1993. ص 3.

² - سوزي حمود ، المرجع السابق ، ص 52. الصلابي، صلاح الدين الأيوبي ، ص 223.

³ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 25-29.

ثانيا : النشاط السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي 569- 600هـ/1173-1203م:

1-القضاء على محاولات إحياء الدولة العبيدية:

في الوقت الذي تهيأ فيه صلاح الدين للانتقال إلى بلاد الشام واستكمال الوحدة الإسلامية، واجهه خطرا من الشمال وآخر من الجنوب يرميان إلى إحياء الدولة العبيدية الشيعية .

فالخطر الأول تمثل في مؤامرة عمارة اليمني¹، الذي تزعم أكبر محاولة لإحياء الدولة العبيدية في القاهرة في أواخر شهر شوال 569هـ/ 1173م، واستطاع أن يستقطب إلى حركته كثيرا ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية، ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها، منهم عبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله بن كامل، وداعي الدعاة ابن عبد القوي ، وغيرهم من الجند والأعيان والحاشية ، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح

¹ - هو الفقيه القاضي عمارة بن علي بن زيدان أبو محمد الحكمي المذحجي التميمي، من قحطان أبو محمد الملقب بنجم الدين اليمني الشاعر ، موطنه من تهامة من اليمن ،أرسله صاحب مكة محمد ابن فليته رسولا إلى الخليفة العبيدي الفائز بن الظافر سنة 550هـ ثم 551هـ واستقر على إثر ذلك هناك، وقد كان مواليا للخلافة العبيدية وطالما مدح العبيديين و أيامهم ، ولم يكن شيعيا وإنما كان فقيها على مذهب الإمام الشافعي حسب ابن خلكان -وهذا مستبعد-، وعز عليه نهاية حكم العبيديين الشيعة بمصر وإحياء الخلافة السنية، فكانت منه هذه المؤامرة الرامية لإحياء الخلافة العبيدية ، ولم يكن وحيدا في هذا الأمر بل النف حوله عدد من أكبر الأمراء نذكر منهم : عبد الصمد الكاتب ، والقاضي الأعز المعروف بالعوريس ، والقاضي ضياء الدين نصر بن عبد الله بن كامل ، وداعي الدعاة هبة الله بن كامل المصري التنوخي وغيرهم ، وانتهى أمره بالصلب هو وأتباعه يوم السبت 2 رمضان سنة 569هـ/1173م. ينظر: عمارة اليمني، المصدر السابق، ص 32-42. ابن كثير ، المصدر السابق ،ج6، ص 656.ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 251.شمس الدين الذهبي ، العبر في خبر من غير ،ص. 58 .النويري، المصدر السابق، ج28، ص 244. ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص 54. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج3، ص431-436.

الدين، واتخذ هؤلاء جميعاً المذهب الشيعي وفكرة إحياء الدولة العبيدية، ستاراً لتحقيق طموحات سياسية ومادية¹.

وكان مخطط عمارة اليمني يرمي إلى الانقضاض على الدولة الأيوبية أثناء غياب صلاح الدين بالكر، ومكاتبه الصليبيين ليعينوه على إحياء الدولة العبيدية²، لكن لم تكتمل خيوط المؤامرة حتى عاد صلاح الدين من الغزو، فحرّض عمارة اليمني شمس الدولة تورانشاه³ على المسير إلى اليمن، ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الصليبيين إذا قدموا لنصرة بقايا العبيديين⁴، وحتى لا يحل محل أخيه في الحكم في حال اغتياله حيث قال: "وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً من أن يسد مسده، وتجتمع الكلمة عليه بعده"⁵.

وتعتبر هذه المؤامرة من أخطر المؤامرات، لأنها لم تكن أحادية الجانب بل التف حولها ثلاث أطراف اجتمعت مصالحهم في القضاء على الدولة الأيوبية واشتركت مصالحهم السياسية والاقتصادية، تمثلت هذه القوى في⁶:

¹ - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج39، ص54. سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس، بيروت، ط2، 2008، ص42.

² - الأصفهاني، المصدر السابق، ج13، ص103.

³ - الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين، وهو أخ السلطان صلاح الدين، وكان أكبر منه، أرسله صلاح الدين إلى فتح اليمن وتخليصها من المهدي سنة 569هـ/1173م، ففتحها وأخضعها لسلطانه، ثم عاد إلى دمشق سنة 571هـ/1175م، انتقل إلى مصر حيث توفي هناك بالإسكندرية سنة 576هـ. ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته بالمدرسة التي أنشأتها، هناك. ينظر: ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص306-307.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص656. ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ص225. تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج1، ص161. العاصمي، المصدر السابق، ج3، ص578.

⁵ - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج39، ص54. النويري، المصدر السابق، ج28، ص244.

⁶ - سهيل طقوش، الدولة الأيوبية، ص43.

- القوة الاسماعيلية الباطنية أو الحشيشية التي تشكل القوة الشيعية الرئيسة في بلاد الشام، وأبدى زعيمهم راشد الدين سنان (ت588هـ/1192م) استعداداه بإرسال جماعة من الفدائيين لاغتيال صلاح الدين¹.

- قوة الصليبيين في بيت المقدس، وقد أبدى عموري الأول استعداداه لإرسال قوة عسكرية إلى مصر، بهدف الانتقام من النوريين بعامة ومن صلاح الدين بخاصة ، الذي حال دون تحقيق أطماعه في مصر².

- قوة النورمان في صقلية³ حيث كان ويليم الثاني يتلهف لتأمين موطئ قدم للنورمان في الشرق⁴.

وتقرر تقسيم المهام، فتقوم القوات الصليبية بقيادة عموري الأول بالهجوم على دمياط فيما يقوم الأسطول الصقلي بقيادة ويليم الثاني بالهجوم على ميناء الإسكندرية فينهض صلاح الدين للتصدي لهذه الهجمات بتقسيم قواته إلى قسمين⁵، فيُشعل المتآمرون بقيادة بقيادة عمارة اليمني الثورة في الداخل، ويُحدثون الانقلاب بعد أن خلا لهم الجو فيقضون بذلك على الحكم الأيوبي⁶.

¹ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص249.

² - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص 244. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج10، ص 54.

³ - صِقلِيَّة من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية ، مثلثة الشكل، وهي مدينة في البر الشمالي الشرقي الذي عليه مدينة القسطنطينية ،تعتبر جزيرة خصيبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار، بها ثلاثة وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصنا ومن الضياع ما لا يعرف. فُتحت على يد القاضي أسد بن فرات في أيام بني الأغلب سنة 212هـ ، وبقيت بأيدي المسلمين مدة وصار أكثر أهلها مسلمين وبنوا بها الجوامع والمساجد ثم غلبهم الكفار فملكوها .بنظر، الحموي ، معجم البلدان، ج3، ص 416-418.

⁴ - سهيل طقوش ، الدولة الأيوبية، ص 43.

⁵ - Nikita Elisséeff, opcit, p :690.

⁶ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج39 ، ص 54، سهيل طقوش، الدولة الأيوبية ، ص 43.

أما على الصعيد الداخلي فقد أجمع المتآمرون على تعيين داود بن العاضد كخليفة لهم¹، وتقاسموا المناصب السياسية والإدارية بينهم، غير أنه وقع اختلاف بين بني رزيك وبني شاور حول منصب الوزارة²، وفي هذه الأثناء وهم في غفلة من أمرهم كان بين صفوفهم الفقيه زين الدين علي بن النجا(ت583هـ/1187م)، الذي طالما نبههم لسوء أعمالهم لكنهم لم يتعظوا، فتوجه هذا الأخير إلى صلاح الدين وأعلمه بسوء الحال وبالمكيدة المدبرة من هؤلاء³، فجاء رد فعل صلاح الدين سريعا خاصة بعد تقطنه لرسول الصليبيين الذي أتاه بهدية ورسالة، وهو في الظاهر إليه وفي الباطن إلى أولئك الجماعة⁴، كإشارة لوضع الترتيبات النهائية للعملية، فيما أعد ويليم الثاني، أسطولا ضخما ضخما مكونا من مائتين واثنين وثمانين سفينة تحمل ثلاثين ألف مقاتل للمشاركة في المؤامرة⁵.

¹ - داود ابن العاضد ولي عهد أبيه لقب بالحامد لله، اعتقله صلاح الدين وجميع إخوته وهم: أبو الأمانة جبريل وأبو الفتوح وابنه القاسم و سليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد و إسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبو الطاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبي الفتوح بن جبريل بن الحافظ، وبقية أهل بيته في رمضان 569هـ/ينظر: المقرئزي، اتعاضد الحنفا، ج3، ص 347، المقرئزي، الخطط، ج2، ص 107 الأصفهاني، المصدر السابق، ج13، ص 103.

² - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 54. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 249.

³ - النويري، المصدر السابق، ج28، ص 244، ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 656. غير أن الأصفهاني يذكر أن الجماعة المتآمرة أدخلت معها رجلا من الأجناد ليس من أهل مصر فدخل على صلاح الدين وأخبره بالمؤامرة فأكتشف الأمر وأجهضت محاولة إحياء الدولة العبيدية. ينظر: الأصفهاني، المصدر السابق، ج13، ص 103-104. فيما يذكر الذهبي أن ابن الكاتب كان يلقي القاضي الفاضل بخضوع زائد، وفي يوم لم يلتفت إليه فارتاب القاضي الفاضل وقال: "ما هذا إلا لسبب"، فحقق في الأمر إلى أن أخبره ابن النجا بالحال فطلب منه أن يكشف الأمر لصلاح الدين. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج39، ص 55.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 54.

⁵ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 49.

بادر صلاح الدين على الفور على الضرب على أيدي زعماء المؤامرة وشنقهم في رمضان 569هـ¹، وعلى رأسهم عمارة اليميني، الذي قال في سبب صلبه أحد الشعراء²:

عُمارة في الإسلام أبدى خيانةً وبأيع فيها بيعاً وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى، إن عجمته تجد منه عُوداً في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله ويُسقى صديدا في لظى وصليبا

فيما نفى كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر إلى أقصى الصعيد، بحيث لم يبق من العساكر العبيدية أحد، وأُفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار "فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد"³. ولم يكد عموري الأول يعلم بفشل المؤامرة حتى توفي كمدا، وزال بوفاته خطر الغزو برا⁴.

أما الأسطول الصقيلي فقد كان آنذاك على مقربة من الشواطئ المصرية، دون علم وليم الثاني بفشل مؤامرة الشيعة ولا بوفاة عموري الأول، وظهر فجأة أمام الاسكندرية في شهر ذي الحجة 569هـ / 1173م، حيث كان وصولهم إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين وانهزامهم مستهل محرم سنة سبعين⁵. إذ هجموا على السواحل المصرية في عدة وعده لم يُسمع بمثها، فقد كانت عدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وكان معهم مائتا سفينة حربية وست سفن كبار لآلات الحرب وأربعون

¹ - الأصفهاني، المصدر السابق، ج13، ص103. البنداري، سنا البرق الشامي، ص 74-76. العاصمي، المصدر السابق، ج3، ص579.

² - الأصفهاني، المصدر السابق، ج13، ص105.

³ - ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ص225.

⁴ - سهيل طقوش، الدولة الأيوبية، ص44.

⁵ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص91.

مركبا للمؤونة¹، ونصبوا المنجنيقان والدبابات، فاقتتل الطرفان قتالا شديدا دام عدة أيام وخلف عدة قتلى من الفريقين، إلى أن اتفق المسلمون على حرق المنجنيقات، فأضعف ذلك صفوف الصليبيين وتهافت قواتهم وانهزموا، ففروا إلى بلادهم مخلفين غنائم كثيرة².

ومن خلال هذه المؤامرة التي قادها عمارة اليمني نلاحظ شدة ولاء أتباع العبيديين، فعلى الرغم من أن عمارة لم يكن شيعيا³ إلا أن تبعيته وولاءه كان سياسيا بالدرجة الأولى فتحمس لإحياء مجد العبيديين الزائل من فترة قصير، ويمكن أن نرجع ذلك إلى المكانة التي حظي بها هذا الأخير في البلاط العبيدي بعد أن تولى عن موطنه الأصلي اليمن، فكان يربو ويطمح من خلال المؤامرة إلى استرجاع مكانته وحظوته في البلاط لكن كان ذلك دون جدوى.

أما الخطر الثاني فكان من بلاد السودان، تمثل في الحركة التي تزعمها كنز الدولة، أو الكنز⁴، وهو أحد ملوك السودان في أسوان⁵، وهو مصري صعيدي وأحد القادة العبيديين، نزح إلى الصعيد بعد إخماد حركة مؤتمن الخلافة سنة 564هـ/1168م،

¹ - ابن قاضي شهبه ، المصدر السابق ، ص 227. وقد ضاعف ابن خلدون عدد الجيوش فذكر أنهم خمسون ألف رجل و لفان وخمسمائة فارس وثلاثون مركبا للخيول .ينظر: العبر، المصدر السابق ، ص 1403.

² - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 39 ، ص 57. ابن كثير، المصدر السابق ، ج 6، ص 668.

³ - وكان الصالح بن رزك قد رغب عمارة اليمني في التشيع إلا أنه أبى ،لكنه في الأخير تعصب للقوم وحاول إعادة دولتهم .ينظر، الأصفهاني ، المصدر السابق ، ج 13، ص 140-141.

⁴ - بنو الكنز : أصلهم من ربيعة بن نزار بن مضر كانوا ينزلون اليمامة ، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين ، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد ، استقرت حول أسوان و في بلاد النوبة ، منح الحاكم العبيدي شيخهم أبا المكارم هبة الله بن أبي عبد الله محمد لقب كنز الدولة، عندما ظفر بالتأثير الأموي أبي ركو، ثم توارث شيوخهم هذا اللقب، إلى أن قتل صلاح الدين آخرهم هذا، واكتسبت القبيلة اسمها من لقب شيخها ، واستمرت تعيش في هذه المنطقة، بعد أن اختلطت بالنوبيين وتزوجت منهم . ينظر هامش: عبد الله بن إبراهيم الحجاري وآخرون، المصدر السابق ، ص 143. أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2، ص 338. وابن واصل، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 16.

⁵ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 21. محمود محمد الحويري ، المرجع السابق، ص 168.

واشترك معه في هذه الثورة عباس بن شادي والي قوص¹، وقد جمع حوله عددا كبيرا من أهل الصعيد والجنود المصريين والسودانيين الذين كان صلاح الدين قد نفاهم من قبل²، وأوهمهم أنه بوسعه إعادة الدولة العبيدية، فأنفق على أصحابه أموالا كثيرة، وانضم إليهم جماعة ممن وافقه على إحياء الدولة العبيدية، وبادر بالتوجه شمالا نحو قوص، فاستطاع قتل بعضا من أمراء السلطان³، وعندما علم صلاح الدين بما أقدم عليه كنز الدولة، أرسل أخاه الملك العادل ساعده الأيمن على رأس جيش ضخم، وبصحبه الأمير عز الدين موسك والأمير حسام الدين أبو الهيجاء مع جماعة من الأمراء⁴، فالتقوا بالثائر في قرية طود⁵ - بالقرب من الأقصر - التي صارت مركز تجمع قواته، ووقعت معركة ضارية انتهت بمصرع كنز الدولة في 7 صفر 570هـ / 1174م⁶، وبذلك قضى على آخر محاولة محاولة قام بها بقايا العبيديين .

2- فتح صلاح الدين لليمن والقضاء على البقايا الشيعية 569هـ/1173م:

عمل العبيديون منذ دخولهم مصر على التوسع على حساب ممتلكات الخلافة العباسية، والبحث عن حلفاء جدد من شأنهم زيادة نفوذهم ودعم فكرهم ومذهبهم، وكانت اليمن من بين الأقاليم المستهدفة، باعتبارها أول مراكز الدعوة الإسماعيلية بصفة خاصة⁷، فسارع الوزير

¹ - قوص بالضم ثم السكون ، وهي قبطية : مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، وهي محط التجار القادمين من عدن . الحموي ، معجم البلدان ، ج4، ص 413.

² - سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص45.

³ - المقرئزي ، السلوك ، ج1، ص 167.

⁴ - الدواداري ، المصدر السابق، ج7، ص 58.

⁵ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص96.

⁶ - أبو شامة ، المصدر السابق، ج 2، ص 338. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 21. المقرئزي، السلوك ، ج1، ص 167.

⁷ - القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، لبنان، 2005، ص 6-16.

أبو محمد اليازوري إلى تأييد علي بن محمد الصليحي¹ النائر باليمن وساعده على إقامة دعوة سياسية للعبيديين هناك سنة 443هـ/1051م²، فكثُر جمعه ومؤيدوه واستولى على البلاد وألغى الخطبة للقائم بأمر الله العباسي(422-467هـ/1031-1075م) وكان علي بن محمد الصليحي قد أعلن ولاءه للمستنصر العبيدي(427-487هـ/1036-1094م) منذ سنة 429هـ/1037م³، ومنذ ذلك الحين واليمن تخضع مذهبيا وسياسيا واقتصاديا للخلافة العبيدية في مصر⁴.

ولما تفرغ صلاح الدين لمواجهة العبيديين على مختلف الأصعدة وجه انتباهه إلى اليمن التي كانت تخضع لسيطرة الشيعة التابعين للدولة العبيدية، فقد كان الصليحيون

¹ - هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الملقب بالصليحي كان أبوه قاضيا باليمن و كان سنيا، نشأ الصليحي وتعلم علوما كثيرة وكان شيعيا على مذهب القرامطة ، سيطر على اليمن سنة 455هـ و خطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر ، قتل وهو في طريقه إلى الحج على يد سعيد بن نجاح سنة 473هـ .ينظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص515.

² - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا، ج2، ص222. لم يكن دعم العبيديين للصليحيين عسكريا و سياسيا فقط بل عملوا على شن حرب نفسية ضد أهل السنة باليمن بأن نشروا نقودا عبيدية على أساس أنها ضربت هناك ، لكنها في الأصل ضربت خارج اليمن وقد سمى الباحثين تلك النقود بنقود الدعاية والدعوة كان لها دور في ترجيح كفة الشيعة باليمن ثم أوقفوا ذلك بدعم عسكري ومادي سمح للصليحيين بإقامة دولتهم التابعة للعبيديين بمصر .ينظر:سهام محمد المهدي ، المقال السابق ، ص65-66.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص325-326.المقرئزي ، اتعاظ الحنفا، ج2، ص187.أبو عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد بن مخزومة، تاريخ ثغر عدن و تراجم علمائها ، تحقيق : علي حسن علي عبد الحميد ، ط2، دار الجيل، بيروت ، 1987. ص 191-193

⁴ -ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة، ج5، ص59. وقد أثبتت المراسلات المتبادلة بين حكام مصر وولاية اليمن هذه العلاقة حتى قبل قيام الدولة الصليحية ، فقد كتب الحاكم بأمر الله سجلا للداعي هارون بن محمد سنة 391هـ/1000م يتحدث فيه عن وصول الأموال التي جمعها له هارون من الأتباع في اليمن ، كما كتب الحافظ لدين الله سجلا لأهل اليمن سنة 539هـ/1144م. ينظر: إدريس القرشي، المصدر السابق، ص301، 302.ابن ميسر، المصدر السابق، ص135.

بصنعاء¹ وآل زريع² في عدن، وكانوا على استعداد لاستقبال اللاجئين العبيديين المهتمين بأخذ الثأر، وهذا التعارض كان فتح جبهة أخرى للصراع كان الأيوبيين في غنى عنها لانشغالاتهم في بلاد الشام، وفي نفس الوقت ظهر باليمن رجل يدعى عبد النبي بن

¹ - الصليحيون ، سلالة حكمت اليمن بين عامي : 429-531 هـ / 1037-1137م، عاصمتها صنعاء وكانت تابعة للخلافة العبيدية، أسسها أبو الحسن علي بن محمد بن علي الصليحي، الذي تمكن من توسيع حدود دولته واستولى على كافة قطر اليمن من مكة إلى حضرموت سهله و جبله ، و اشتهر بين ملوكها الحرة و اسمها أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحي زوجة المكرم بن الصليحي، التي حكمت اليمن سنة 484هـ/1092م، وتمتعت بحكمة سياسية قريتها من خلفاء مصر العبيديين ، كاتبها الخليفة الأمر بأحكام الله و لقبها بعدة ألقاب كالسيدة الرضية وسيدة ملوك اليمن ، ولية أمير المؤمنين ... ينظر: تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، ط2، دار الكلمة، صنعاء، 1985، ص52-59. المقريري، اتعاض الحنفا، ج3، ص103. ابن ميسر ، المصدر السابق، ص110. ابن مخزومة ، المصدر السابق ، ص 191-194.

² -نسبة إلى سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم الهمداني ومعتقدهم إسماعيلية واليههم يرجع الفضل في دعم الدولة الصليحية ضد بنو نجاح الأحبوش. وقد جعلهم الملك علي بن محمد الصليحي وابنه المكرم ولادة على عدن ولحج والشحر وحضرموت منذ 467هـ/1074م وعندما ضعفت الدولة الصليحية استقلوا بالمنطقة الجنوبية من اليمن وجعلوا عدن عاصمة لهم .ويعتبر محمد بن سبأ من أكبر حكامهم .دامت دولتهم بعدن من 533-569هـ/1138-1173م .ينظر: .: تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، المصدر السابق ، ص 62-64. حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1939، ص 27-28. عبد الغني محمد عبد العاطي، عوامل الصراع السياسي المذهبي الإقطاعي القبلي في اليمن قبل الثورة، مجلة الإكليل، العدد الثاني السنة الخامسة ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء، 1987، ص 80.

المهدي¹ من أصحاب العبيديين، قطع الدعوة للخليفة العباسي، و"كان بن المهدي هذا ظالما فتاكا باطنيا من دعاة المصريين"².

إلى جانب ذلك اعتبر صلاح الدين اليمن نقطة توسع مهمة لنشر الدعوة الشيعية في الهند والسند والأقاليم المجاورة³، فكتب لنور الدين محمود يستأذنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي كان يتطلع لفتحها⁴.

وقد ذكر ابن مخرمة في سبب فتح اليمن أن ابن المهدي هذا تعدى على الأشراف في اليمن فاستصرخوا الخليفة العباسي، الذي كتب إلى صلاح الدين الأيوبي يأمره بالخروج إلى اليمن ومقاتلة ابن المهدي⁵.

¹ - هو دولة بني المهدي في زبيد أسسها أبو الحسن علي بن المهدي سنة 554هـ/1158م وسيطرت على أقاليم عدة في اليمن، من حكامها عبد النبي بن علي بن المهدي تولى الحكم 558هـ/1162م، واشتهر آل مهدي بعدائهم واضطهادهم لأهل السنة. ظلت دولتهم قائمة إلى أن تغلب عليها توران شاه سنة 569هـ/1173م وألقي القبض على عبد النبي آخر حكامها لما فتح تورانشاه زبيد، وقيل توفي في نفس السنة أو في السنة التي بعدها أي سنة 570هـ/1174م، دامت دولته في اليمن 15 سنة وشهرين وأربعة وعشرون يوما. ابن مخرمة، المصدر السابق، ص 159-160. حسين بن أحمد العرشي، المصدر السابق، ص 70-76. حسين بن فيض الله الهمداني ومحمود الجهني، حسن سليمان محمود، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط3، 1986، ص239.

² - الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص57.

³ - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص15. حسين بن فيض الله الهمداني، حسن سليمان محمود، المرجع السابق، ص225-227.

⁴ - بهاء الدين بن شداد، المصدر السابق، ص46. المقرئ، السلوك، ج1، ص161. ابن خلدون، المصدر السابق، ص1402.

⁵ - ابن مخرمة، المصدر السابق، ص159-160. لكن الدواداري يذكر أن سبب فتح صلاح الدين وأخاه المعظم لليمن كان لتخوفهما من الملك نور الدين، فاتفقا أن يفتحا اليمن فتكون لهم معقلا وحصنا إن قوي عليهما نور الدين. ينظر: المصدر السابق، ص42.

ومهما كان الأمر فإن خروج صلاح الدين إلى اليمن كان بوازع ديني يرمي إلى تقويض أملاك الدولة العبيدية، وإقرار الأمن هناك الذي كان سينعكس على مختلف الجوانب خاصة الاقتصادية منها .

دخل تورانشاه اليمن في مستهل رجب 569هـ/1173م¹ وحاصر ابن المهدي في قصره بزييد مدة، حتى طلب الأمان فأمنه، فلما نزل إليه عذبه واستخلص منه أموالاً كثيرة، ثم قتله، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن، ويقال أنه فتح ثمانين حصناً ومدينة واستولى على أموالها وذخائرها²، واستتاب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي³، وبزييد سيف الدولة حطان بن كامل بن منقذ الكناني⁴.

وقد تزامن فتح اليمن مع المؤامرة التي قادها عمارة اليمني بمصر⁵، وهي مكيدة دبرها عمارة اليمني الذي زين لتورانشاه ملك اليمن ووصف له ثراءها، وفي نفس الوقت كاتب رجل من أهل اليمن يقال له الشريف هاشم بن غانم كان ابن المهدي قد تعدى عليه وأطمعه عمارة بأن تورانشاه تحرك نحو اليمن لمساعدته للأخذ بالثأر⁶، كل هذا التخطيط كان لإبعاد تورانشاه عن مصر وإضعاف قوة صلاح الدين لإنجاح مؤامرتة بإحياء الدولة

¹ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 69.

² - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 23. عبد الغني محمد عبد العاطي، المقال السابق، ص 70.

³ - أبو عمر عثمان بن علي الزنجيلي نسبة إلى زنجيلة قرية من قرى دمشق ، الملقب بعز الدين ، كان أميراً كبيراً قدم من مصر مع تورانشاه و لما رجع هذا الأخير من اليمن سنة 571هـ/1175م استتاب الزنجيلي على عدن ، أثار الفتن هناك ثم فر إلى دمشق لما تسامعت إليه الأنباء بتحريك سيف الإسلام طغتكين ، وتوفي هناك سنة 583هـ/1187م، ينظر :ابن مخرمة، المصدر السابق ، ص 163-164.

⁴ - القلقشندي ، المصدر السابق، ج 5، ص 29. ابن خلدون ، المصدر السابق، ص 1402، 1403. الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 39 ، ص 51.

⁵ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص 1403.

⁶ - ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص 222.

العبيدية، ولكن صلاح الدين كان له من القوة ما سمحت له بوأد خطر عمارة اليمني وابن المهدي في نفس الوقت .

أما عن اليمن فقد بسط تورانشاه سيطرته هناك، واختط مدينة تعز واتخذها مقرا لحكمه، ولما سكنت الأمور ترك من ينوب عنه هناك وعاد إلى الشام سنة 572هـ/1176م فولاه صلاح الدين على دمشق ثم ولاه بعد ذلك مدينة الإسكندرية¹، وبعد وفاته في القاهرة سنة 576هـ/1180م²، أظهر نوابه العصيان وسادت الاضطرابات والفتن بين الأمير عز الدين عثمان بن زنجيلي والي عدن والأمير حطان بن منقذ الكناني والي زبيد³، وخشي صلاح الدين أن تخرج اليمن عن طاعته فأرسل أخاه سيف الإسلام طغتكين لتولي اليمن وضبط الأمور بها وإعادة سلطة الأيوبيين عليها وذلك سنة 577هـ/1181م⁴.

خرج سيف الإسلام طغتكين على رأس جيشه إلى اليمن وفي طريقه مر بمكة المكرمة، فطاف حول الكعبة وأدى الصلاة، فلما علم أمير مكة عيسى بن فليته (ت 587هـ/1190م)⁵ بقدومه خشي على نفسه منه، فتحصن بقلعته⁶، ولعله ظن أن الأيوبيين السنيين الذين أسقطوا

¹ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 27. ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص 1407.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 7، ص 14.

³ - محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، مضممار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، دار عالم الكتب ، القاهرة ، 1968. ص 66. وسبب هذه الفتنة أن النواب كانوا يحملون الخراج إلى تورانشاه بالشام ، فلما طالت غيبته وتوفي قطعوا الإتاوة و ضرب كل منهما سكة باسمه، ومنع التداول بغيرها ، ثم حاول عثمان التوسع بحدود ولايته على حساب زبيد فغزى وقتل خلقا كثيرا . ينظر : ابن مخرمة ، المصدر السابق، ص 163.

⁴ - عماد الدين الأصفهاني ، البرق الشامي-سيرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب-، تحقيق: رمضان ششن، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، د ت ، ج 5 ، ص 26-27. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 7، ص 18. ابن خلدون ، المصدر السابق، ص 1407-1408.

⁵ - هو أبو هاشم محمد بن جعفر الحسيني مؤسس أسرة الهواشم بمكة، هو أول من قطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر و أعلنها للخليفة العباسي القائم سنة 462هـ، بعد أن قطعت ما يربو عن مائة سنة ، لكن موقفه كان يتغير بحسب حجم الهدايا التي تصله من الطرفين فصار يخطب تارة للعباسيين وتارة للعبيديين. ينظر : الفاسي، المصدر السابق ، ج 1، ص 440-447.

⁶ - أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الكناني ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، د ت ، ص 124.

أسقطوا دولة العبيديين الشيعة جاءوا لإسقاطه، وبخاصة وأنه يعتنق المذهب الشيعي الزيدي، لكن طغتكين طمأنه وأقره في منصبه وتوجه إلى اليمن¹.

وصل سيف الإسلام إلى اليمن سنة 578هـ/1182م، فلما علم به حطان خاف وتحصن منه، ثم طلب منه الإذن بالرحيل إلى الشام بعد أن جمع أمواله وذخائره، فأذن له ثم ترصد تحركاته وألقى عليه القبض وحجر على أملاكه ثم قتله²، أما نائب عدن عز الدين عثمان الزنجيلي فإنه خرج من اليمن قبل قدوم سيف الإسلام³.

3- خروج صلاح الدين إلى الشام لتوحيد الجبهة الإسلامية 570هـ/1174م:

رأى صلاح الدين أن مملكة نور الدين حديثة التكوين والتوحيد، وإسماعيل أصغر من أن يجمع الكلمة ويلم الشمل ويبني الدولة، فخرج إلى الشام بحجة أنه الأحق بالوصاية على الملك إسماعيل من كل أمير، لأنه كان ثقة عند أبيه، والمقاتل في مصر بأمره، والمقر له منه بوزارته للعاضد، والنائب عنه في مصر والنوبة واليمن⁴، فهو أحق بتربية الطفل الوريث ورعايته، حتى ينضج وبصير أهلاً لحماية ملك أبيه⁵.

¹ - رغم أن أشراف مكة كانوا شيعة إلا أن صلاح الدين لم يوجه حملات عسكرية للقضاء عليهم بل اكتفى بتحقيق الأمن والعدالة لسكان مكة والحجاج القادمين إليها كإلغاء المكوس والقضاء على الفتن والمنازعات، وذلك حرصاً منه على أمن البلد الحرام خاصة وأن أمراء مكة لم يترددوا في إعلان الخطبة للخليفة العباسي ونور الدين محمود. ينظر: الفاسي، المصدر السابق، ج1، ص188. صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، د ت، ص 147-149.

² - عماد الدين الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص 26-27. تقي الدين بن شاهنشاه، المصدر السابق، ص66.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 18.

⁴ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 46. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 1402، 1403. عبد الله بن إبراهيم الحجاري وآخرون، المصدر السابق، ص 142. ابن قاضي شهبه، المصدر السابق، ص222.

⁵ - عبد العزيز سيد الأهل، المرجع السابق، ص77.

وكان سبب خروج صلاح الدين بالدرجة الأولى هو السعي إلى تقوية الفرصة على الشيعة في إثارة الفتن والبلبة في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين الذي كانت له الريادة في تصفية هؤلاء من الساحة السياسية والدينية ، فبعد وفاة نور الدين " تجدد بحلب اختلاف بين السنة والرافضة ، فقتل من الطائفتين خلق، ونهب ظاهر البلد " ¹.

إلى جانب ذلك نجد أن صلاح الدين تخوف من الاضطرابات التي وقعت في الشام بسبب اتساع دائرة الطامعين في وراثة ملك نور الدين والصراع الجاري بينهم لدرجة التخاذل أمام القوى الصليبية التي استغلت الوضع وحاولت السيطرة على قلعة بانياس ²، وكانت أقطاب المتصارعين تتمثل في: الأمير شمس الدين علي بن محمد بن الداية أمير حلب، والأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، والقاضي أبي الفضل بن الخشاب بدمشق، وقيام الفتنة بينهم انحاز الشيعة إلى ابن الداية في حين وقف السنة إلى جوار القاضي ابن الخشاب، ثم ظهر منافس آخر وهو سيف الدين غازي بن قطب الدين ابن عم نور الدين محمود أتابك الموصل الذي أضاف إلى أملاكه نصيبين وكل إقليم الجزيرة والرها، وقد وصل الحد بالمتنافسين إلى أن نقل ابن الداية الملك الصالح إسماعيل معه إلى حلب بدلا من دمشق حتى يكون تحت يده من جهة وحتى يتقوى به للاستيلاء على السلطة من جهة أخرى ³.

وبهذا توزع الجزء الشامي العراقي من دولة نور الدين إلى ثلاث دويلات تركز كل منها حول واحدة من المدن الرئيسة: الموصل وحلب ودمشق، وبقيت مصر بحكم هذا

¹ -الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 39، ص50.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 60. ابن قاضي شهاب ، المصدر السابق ، ص229.

³ - حامد زيان غامد زيان ، المرجع السابق ، ص77. محمود محمد الحويري، المرجع السابق ، ص165.

الوضع معزولة عن بلاد الشام، وبعبارة أخرى تحولت الجبهة الموحدة إلى أقسام منفصلة يحذر كل منها الآخر ويتربص به¹.

وفي هذه الأثناء كان صلاح الدين يرتب أموره السياسية، وكانت أبرز تحركاته في هذه المرحلة الحرجة هو السعي إلى إضفاء الشرعية على كيانه السياسي، وكان قد بعث إلى الخليفة العباسي المستضيء في بغداد يعدد فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين وإعادته الخطبة للخليفة العباسي في مصر، واستيلائه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وطلب من الخليفة "تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا..."².

وقد إلتمز صلاح الدين طريق الحكمة والروية حتى يحقق غرضه، خاصة بعد انتقال الصالح إسماعيل إلى حلب³، فاستخلف أخاه الملك العادل نائباً عنه بمصر وخرج إلى الشام على رأس جيش كثيف سعياً وراء هدفه، وتمكن من دخول دمشق من غير قتال في محرم 570هـ/ أكتوبر 1174م⁴، بعد أن استتجد به أمراؤها، وعلى رأسهم ابن المقدم الذي تخوف من مكانة ابن الداية ومغبة استيلائه على دمشق بعد وصايته على الملك الصالح⁵.

¹ - سهيل طقوش ، الدولة الأيوبية ، ص 53.

² - ينظر نص الرسالة كاملة : أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 357-366. المقريزي ، السلوك ، ج 1 ، ص 59-60. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 327.

³ - ابن قاضي شعبة ، المصدر السابق ، ص 230.

⁴ - بيبرس المنصوري ، المصدر السابق ، ص 03. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 668-669.

⁵ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 10 ، ص 65. عبد الله بن إبراهيم الحجاري وآخرون ، المصدر السابق ، ص 144 ، 145.

وهناك أُنْتُقِل بحفاوة وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه إياها دون مقاومة ونزل صلاح الدين بدار والده بدمشق¹، ولا شك أن استيلاء صلاح الدين على دمشق، كان الخطوة الأولى في تطويق الإمارات الصليبية، ذلك أن سياسة الصليبيين القديمة ضد خصومها في مصر وشمال الشام قد ارتكزت على التحالف مع دمشق والوقوف إلى جانبها، هذه السياسة قد أحبطتهم إلى حد بعيد، ومما زاد من حرج الصليبيين أن صلاح الدين بدأ يتخذ من دمشق نقطة انطلاق إلى الشمال ضد حلب التي تعتبر مفتاح سوريا الشمالية².

وقد أبطل صلاح الدين كل المكوس التي تم استحداثها بعد نور الدين في دمشق، ثم أظهر أنه جاء لتربية الملك الصالح، حفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه " حسب البنداري (ت643هـ/1245م)³.

ولما ثَبَّت أقدامه بدمشق سار في طلب حلب، واستتاب على دمشق أخاه طغتكين بن أيوب الملقب بسيف الإسلام⁴، وفي طريقه مر على حمص، فلما وصلها في 10 جمادى الأولى 570هـ/ 1174م، امتنع أهلها من تسليم المدينة له فقاتلهم حتى تملكها، وأمن أهلها، ولكن القلعة امتنعت عليه فتركها مؤقتاً وعين على المدينة-حمص- من يحفظها ويراقب الأمن فيها⁵، ويقول ابن كثير (ت774هـ/1372م) في هذا الشأن: " فاجتاز بـحمص بـحمص وأخذ روضها - نواحيها - دون قلعتها لعلمه بحصولها "⁶.

¹ - ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص 17، 18. النويري، نهاية الأرب، المصدر السابق، ج28، ص249-250.

² - محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص169.

³ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 175، 176.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص669.

⁵ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 67. أحمد الشامي، المرجع السابق، ص 108-109.

⁶ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص669.

ثم سار إلى حماة وهو في جميع الأحوال لا يُظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين، فتسلمها من صاحبها عز الدين جرديك في مستهل جمادى الثانية 570هـ/1174م¹.

ثم حاصر حلب في 03 جمادى الثانية 570هـ/1174م، واتخذ من عز الدين جرديك أمير حماة سفيراً يتوسط بينه وبين الحلبيين²، الذي حذرهم ونصحهم بالصلح مع صلاح الدين لكنه اتهم بالخيانة وسُجن جراء ذلك، ولما أبطأ السفير على صلاح الدين، كتب إليهم يلومهم على ما هم فيه من اختلاف وأخذ يذكرهم بما قام به هو وأبوه وعمه من خدمات لنور الدين محمود، ولكن الأمراء القائمين على أمر الصالح إسماعيل كتبوا لصلاح الدين أن السيف يفصل بينهم³.

ونتيجة لذلك قرر صلاح الدين البقاء على الحصار، أما داخل أسوار المدينة فقد كان الحشد يزداد خاصة بعد أن خاطب الملك الصالح أهل حلب قائلاً: "قد عرفتم إحسان أبي إليكم، ومحبته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه، يأخذ بلادي، ولا يراقب الله والخلق"⁴، فاستجاب له أهالي حلب السنيون، أما الشيعة فقد اشترطوا عليه أن يُعاد الآذان بحي على خير العمل، وأن يذكر في الأسواق، وأن يكون لهم في الجامع الجانب الشرقي، وأن يذكر أسماء الأئمة الإثني عشر بين يدي الجنائز وأن يكبروا على الجنازة خمسا، وأن تكون عقود زواجهم إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، فأجابهم إلى ذلك كله⁵.

¹ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص 67

² - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص250

³ - أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص 346، 347.

⁴ - ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص 23.

⁵ - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 669.

4- مؤامرة الحشيشية لاغتيال صلاح الدين:

تمكن الملك الصالح وهو صبي عمره اثنتا عشر سنة، من التأثير على نفوس العامة في حلب، فحلفوا له على بذل النفوس والأموال، وقاتلوا أشد قتال، في الوقت الذي راسل فيه سعد الدين كمشتكين (ت573هـ/1177م) الإسماعيلية والصليبيين في نفس الوقت، ليعينوه على صلاح الدين¹.

وهذه من بين الأخطاء الفادحة التي وقع فيها قادة المسلمين حفاظا على مصالحهم، وهم بهذا يزيدون من أطماع أعدائهم في أملاكهم ويهيئون لهم الفرص في زيادة نفوذهم على حساب أراضي المسلمين، لكن خططهم فشلت أمام تقطن صلاح الدين وقادته لجميع هذه المؤامرات .

أما بالنسبة للإسماعيلية، فقد استتجد كمشتكين براشد الدين سنان شيخ الجبل ومقدم الإسماعيلية، ودفع له مالا كثيرا ليرسل جماعة من أتباعه لاغتيال صلاح الدين²، وتمت المؤامرة فعلا، ولم ينج صلاح الدين من الاغتيال إلا بأعجوبة فقد حال بين جسمه والسيف لباسه الحديدي، فظفر صلاح الدين بهم وقتلهم جميعا³، فأوضحت هذه الحادثة لصلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين، وأنه يجب عليه أن يحذرهم .

وبقي صلاح الدين محاصرا لحلب، ولكنه رحل عنها في مستهل شهر رجب سنة 570هـ/1174م⁴، والسبب في ذلك أنه اضطر إلى التوجه إلى حمص، بعد أن راسل

¹ - ابن واصل، المصدر السابق ، ج2، ص 24. ابن الأثير، الكامل ، ج10 ، ص 68

² - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج2، ص 24.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 68. محمد العروسي المطوي ، المرجع السابق 1982. ص 82 - 83 .

⁴ - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص 250.

صاحب حلب الصليبيين يطلب منهم قصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم¹ -أي يفك الحصار عن حلب -.

فسار الكونت ريموند الثالث- صاحب طرابلس-² إلى حمص ليستولي عليها ويقطع الطريق على صلاح الدين فلا يتمكن من العودة إلى جنوب الشام، ولم يكن خروج الصليبيين مساعدة لأهل حلب³، فوليم السوري يقول: "أن كل ازدياد في قوة صلاح الدين يثير فينا الرعب والخوف...ومن الخير أن نبذل المساعدة للطفل إسماعيل لا مراعاة لصالحه، بل باعتباره عدوا لصلاح الدين"⁴، فرأى ريموند الثالث أنه من واجبه أن يوقف نمو قوة صلاح الدين، وإذ لم يستطع الصليبيون منع الوحدة بين دمشق والقاهرة، فإنهم تطلعوا على إبقاء حلب منفصلة، وعلى أية حال فإن ريموند ظهر بجيشه أمام حمص في شعبان 570 هـ / 1174م، فلما سمع صلاح الدين بذلك أسرع بالخروج لكي يمنع سقوط حمص في يد ريموند الثالث، فعاد هذا الأخير إلى أراضيه، لكنه حقق الغرض المنشود من حركته، لأن صلاح الدين رفع الحصار عن حلب، واعترافا بجميل الصليبيين، أطلق كمشتكين -حاكم حلب الفعلي-، سراح رينالد دي شاتيون- أرنات- وجوسلين دي كورتناي وكل أسرى الصليبيين بحلب آنذاك⁵.

¹ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 68.

² - وكان هذا الأخير قد أسره نور الدين محمود في حارم سنة 559هـ/1202م، وبقي معتقلا عنده مدة عشر سنين، ثم افتدى نفسه بمائة ألف دينار وألف أسير من أسارى المسلمين، فكان لا ينساها لنور الدين رحمه الله، ووجد الفرصة مواتية للانتقام. خاصة وقد أتفق وأن عموري ملك الصليبيين قد مات في هذه السنة، 570هـ/1174م وخلف ابنا صغيرا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك، فكان صورة لا معنى لها فيما تقلد ريموند الأمور نيابة عنه. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص 24. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 68. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 670.

³ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 49.

⁴ - وليم السوري، المصدر السابق، ج2، ص 21.

⁵ - قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2001، ص 41.

وفي غضون ذلك كان أمراء آل زنكي في حلب قد أرسلوا بطلب النجدة من أتابك الموصل سيف الدين غازي الثاني (565-576هـ/1180-1169م) لمساعدة ابن عمه الملك الصالح إسماعيل لاسترداد أملاكه، فأرسل غازي جيشا كبيرا بقيادة أخيه عز الدين مسعود، وقد تمكن صلاح الدين ومعه ستة آلاف من العساكر من أن يُنزل الهزيمة بآل زنكي جميعا، وكان عددهم عشرين ألفا¹.

بعد هذه الأحداث حصل صلاح الدين على الشرعية من الخليفة العباسي، ففي شوال 570هـ/1174م جاءتته رسل الخليفة العباسي المستضيء (566-575هـ/1170-1180م) في حماة ببلاد الشام بالتشريف والأعلام السود والتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها²، وعندما حصل صلاح الدين على الشرعية السياسية، بادر بإعلان خروجه على طاعة البيت الزنكي ممثلا في الصالح إسماعيل، وأعلن نفسه سلطانا على مصر والشام، بينما حكم الصالح إسماعيل حلب قرابة تسع سنين إلى أن مات بالقولنج سنة 577هـ/1181م وله عشرون سنة³.

4- هجوم صلاح الدين على معاقل الحشيشية :

نقم الحشيشية على صلاح الدين لأنه أسقط الدولة العبيدية، وتقدم إلى بلاد الشام لتوحيده، وضمه إلى مصر وذلك ما يشكل تهديدا لكيانهم، فتعاون راشد الدين سنان مع كل من الصليبيين والزنكيين للقضاء عليه .

¹ - سوزي حمود ، المرجع السابق ، ص 52 ، 53.

² - المقرزي ، السلوك ، ج 1، ص 59-60. ابن الأثير، الكامل ، ج 10 ، ص 570. قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين ، المرجع السابق، ص 41.

³ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج 20 ، ص 539. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 382

فكانت المحاولة الأولى لاغتيال صلاح الدين سنة 570 هـ/1174م أثناء حصاره لحلب، وتمكن صلاح الدين من النجاة منها، كما وضحنا سابقاً، فدفع فشل المحاولة رشيد الدين سنان إلى التخطيط مجدداً لاغتيال صلاح الدين، وكانت أشد تصميمًا على بلوغ الهدف، وكالمرة السابقة كان تحرك راشد الدين سنان بتحريض من أمراء حلب¹، ورغم ذلك فإن كل تحركات الحشيشية كانت مصلحية وليست دعماً للطرف الآخر، فإدراكهم لحجم الخطر الذي يشكله صلاح الدين إن هو سيطر على المنطقة جعلهم يتحركون بشكل أو بآخر، حتى دون انتظار الدعم أو التحريض من أي طرف .

فأرسل زعيم الحشيشية في 11 ذي الحجة 571 هـ/1175م²، جماعة من أتباعه بزي الجنود، ودخلوا بين العسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب معهم، حتى اختلطوا بهم انتظارا لفرصة مواتية يجهزون عليه، فبينما صلاح الدين يوما في خيمة أحد أمرائه يقال له جاولي الأسدي، قريبة من المنجنوقات، كان السلطان يحضر فيها كل يوم يتفقد الرجال ويحثهم على القتال، حتى وثب عليه باطني وضربه بسكين على رأسه، إلا أن صلاح الدين كان محتزرا لا ينتزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه³، ويبدو أن الرجل أحس بصفائح الحديد، فضرب صلاح الدين على خده، فجرحه⁴، فأمسكه صلاح الدين بيده وحال بينه وبين ضربه بقوة، ولم يتمكن من إيقافه من الضرب حتى أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثان على صلاح الدين، فتصدى له داوود بن منكلاان وقتله، غير أنه أصيب بجروح أدت إلى وفاته بعد عدة أيام، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 411. ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 673.

² - البنداري ، سنا البرق الشامي، ص 121. بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق، ص52.

³ - نفسه، ص 121، ابن الأثير، الكامل، ج10، المصدر السابق، ص 76.

⁴ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج6، ص76.

بن شيركوه وقتله، وخرج رابع من الخيمة منهزما فطارده الجند وقتلوه¹، وقد علق محمود شلبي على الحادثتين وقال: "حاولوا اغتياله مرارا ، فأبى القدر ... لأن الله يريد أن يبقى ... أن يؤدي الدور الموكول إليه"².

اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب، الذي يدل على دقة تنظيم الحشيشية وسرية حركيتها وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال الماكرة، فكان منه أن استعرض جنده فمن أنكره أبعدته ومن عرفه أقره، وأخذ بعد ذلك بالاحتراز الشديد، حتى أنه ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب، أسماه البنداري "الخرakah"³، كما كان للحادث أثر بالغ في نفوس الجند الذين اضطربوا وتوقفوا عن القتال أمام قلعة عزاز، واضطرب أمر الناس أيضاً حين شاع في البلاد أن صلاح الدين قد قتل، فاضطر صلاح الدين عندئذ إلى الطواف بين جنده ليشاهده الناس .

كما أرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل، أخ صلاح الدين يطمئنه فيه، ويروي له حقيقة الحادث، جاء فيها: "السلامة شاملة ، والراحة للجسم الشريف الناصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها، والركوب على رسمه، والحصار لإعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدرا، و لا ما يشغل سرا"⁴.

¹ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 122، ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 673. سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين ، ص98.

² - محمود شلبي، المرجع السابق ، ص 161.

³ - الخركاه : لفظ فارسي ، وهو نوع من الخيمة يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة وتغطيها قطع من اللبد ، ويقال له أيضا قبة تركية .البنداري ، سنا البرق الشامي، ص 122.

⁴ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 410.

ورغم كل ذلك فإن صلاح الدين لازم حصن عزاز، وحاصره ثمانية وثلاثين يوما، كل يوم أشد قتالا مما قبله، فاستسلم من بالقلعة لكثرة الخسائر، وسلموها لصلاح الدين في 11 ذي الحجة سنة 570هـ / 1174م¹، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب²، فيما تفرغ هو للزحف على حلب لأن حكامها تأمروا مع الحشاشين، وفرض عليها حصارا شديدا استمر حتى نهاية سنة 570 وبداية 572 هـ / 1176م، وجرت مناوشات عسكرية بين القوات الحلبية وبين صلاح الدين انتهت باتفاق يقضي بأن تكون حلب وأعمالها للصلاح إسماعيل³.

ثم استدار صلاح الدين على طائفة الإسماعيلية، وقرر أن يضع حدا لهذه الحركة التي وضح خطرها في بلاد الشام، وباتت تهدد حياته، فجهز حملة عسكرية يوم "الجمعة لعشر بقين من محرم 572هـ / 1176م"⁴، وهاجم حصونهم وتمكن جنده من حصار بعضها، وضربها بالمنجنيق، ثم دخلوها وقتلوا من بداخلها وخربوها⁵، كما دخل جبال النصيرية وضرب حصارا استمر عدة أيام على مصياف⁶ معقل زعيم الطائفة الحشيشية⁷.

ومن غير سابق إنذار اتفق الطرفان على إحلال الصلح بينهما، وقد اختلف الروايات حول سبب عقد هذا الصلح، فذكر أنه عقد بعدما وصلت صلاح الدين رسالة من

¹ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 76.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 673.

³ - قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص 43.

⁴ - البنداري ، سنا البرق الشامي، ص 127.

⁵ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 81.

⁶ - مصيَّات أو مصيات ، حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي بالقرب من طرابلس. الحموي ، معجم البلدان، ج5، ص 144.

⁷ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 47-48.

الإسماعيلية يهددونه فيها بذبح خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وقتل جميع أهله¹، فقبل صلاح الدين الصلح، وهذا مستبعد لما عرف عن صلاح الدين من صلابته في هذه المواقف، والراجح أن الصلح لم يعقد خوفاً من الحشيشية وإنما بعد مراجعة صلاح الدين أموره وأمور جنده الذين أرهقهم الحصار، واكتفوا بما نالوا من غنائم من الحصون الأخرى²، بالإضافة إلى طول أمد بقائهم بهذا البلد، والرغبة في العودة إلى مصر لإعادة تنظيم الصفوف، وتوحيد الجهود لمواجهة الصليبيين³، الذين أغاروا على البقاع من أعمال بعلبك، فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولي بعلبك، فحاربهم وقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم إلى السلطان وهو محاصر مصياف، فجدد شوقه لغزو الصليبيين، وكان هذا من دواعي المصالحة مع راشد الدين سنان، هذه الأمور مجتمعة هي التي دفعت بصلاح الدين إلى توقيع الصلح مع الإسماعيلية⁴.

وبينما كانت هذه الأمور تقع بينهم وبين صلاح الدين على أرض الشام، كانت جماعة أخرى قد ثارت في مصر أيضاً، وكأنما كانوا على اتفاق حيث ثار رجل يدعى أبا شجاع الزجاجي، من بلدة تدعى الزجاجية بين قوص وفقط بصعيد مصر، واستتر وراء رجل يدعى عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي داعي الدعاة الذي قتل إثر معركة السود وخلع العاضد، ومنصب داعي الدعاة كان المنصب الأول للباطنية، مدعيًا هذا الرجل إنه هو داود بن العاضد فله ميراث مصر، واشترك معهم فقيه من فقهاءهم يدعى يوسف بن إسماعيل الشيباني، وجماعة من أتباعه، وكان الملك العادل أبو بكر أخو

¹ - عبد الرحمن عزلم، المرجع السابق، ص 140.

² - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 127.

³ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 81، 82.

⁴ - سيد علي الحريري، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط3، 1985، ص 176.

صلاح الدين نائباً عن أخيه على مصر فسار إليهم من فوره وأخذهم أخذاً وببلاً ، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف¹.

وبذلك انتقم صلاح الدين من الحشيشية، ولم يحصل ذكر لهذه الطائفة بعدها في المصادر التاريخية إلا ابن الأثير الذي انفرد برواية مفادها أن صلاح الدين طلب من راشد الدين سنان سنة 588هـ/1191م، قتل ريتشارد قلب الأسد، وكونرات مونتهفيرات صاحب صور، ووعدته بدفع عشرة آلاف دينار مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للحشيشية ويقضي عليهم، لذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد².

لكنه من المستبعد أن يكون صلاح الدين هو من طلب من الحشيشية قتل صاحب صور، لأن العماد الأصفهاني يروي رواية أخرى مفادها أن الفدائيين قتلوا كونرات مونتهفيرات بتحريض من ملك الإنجليز ريتشارد قلب الأسد لما كان بينهما من ضغينة³. وفي رواية أخرى نجد أن الحشيشية أقدموا على قتل صاحب صور عندما اعترض رجاله سفينة إسماعيلية كانت تحمل تجارة لشيخ الجبل راشد الدين سنان، ولما فشل سنان في مفاوضاته في شأن إعادة سفينته مع إطلاق الأسرى ورَد المال، قرر قتله على يد فدائيته⁴، وتلتقي الروايتان الأخيرتان في التقاء مصلحة الطرفين: شيخ الجبل وملك الإنجليز، لتصفية صاحب صور، فكان ذلك أقرب للصحة من الرواية الأولى لما كان معروفاً من خلاف بين السنة والشيعية في تلك المرحلة.

¹ - عبد العزيز السيد الأهل ، المرجع السابق ، ص 84.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص 213.

³ - العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، أو حروب صلاح الدين ، دار المنار ، ط1، 2004. ص307.

⁴ - عثمان عبد الحميد عشري ، المرجع السابق ، ص167.

والجدير بالذكر أن نجاح صلاح الدين في توحيد الجبهة الإسلامية أدى إلى تخوف كلا من الصليبيين والباطنية، فحاول الصليبيون التقرب من الباطنية بدافع العدو المشترك لهما ، ومما يؤكد ذلك تلك الزيارة التي قام بها هنري دوق شامبني لحصون ومعقل الباطنية عام 589هـ / 1192م، وما تبع ذلك من تبادل الهدايا بين الجانبين طمعا في التحالف، لكن الملاحظ من سير الأحداث أن الصليبيين أنفسهم لم يسلموا من عدوان الباطنية، ففي عام 546هـ / 1151م، اغتال الباطنية ريموند الثاني صاحب طرابلس، ويقال أن زوجته هي التي أوعزت إلى الباطنية بقتله، وفي عام 588هـ / 1191م اغتالوا كونرات منتفقات كما ذكرنا سابق، كذلك في عام 610 هـ / 1213م، اغتالوا ريموند بن بوهيموند الرابع بتحريض من بعض الأمراء الصليبيين¹.

استمر الباطنية يؤدون دورهم الهدام إلى أن تم القضاء على معقلهم في خراسان والعراق على يد المغول² سنة 654هـ / 1257م، حيث استولى المغول على قلعة ألموت وقبضوا على زعيمهم وقتلوه ، وبذلك انتهى دورهم في العراق ، أما فريق الباطنية بالشام فقد استمر يمارس نشاطه التخريبي حتى كان عهد المماليك حيث قضى الظاهر بيبرس على نشاطهم ونفوذهم تماما واستولى على معقلهم. وبذلك انتهى دور الباطنية الذين لعبوا دورا هداما في تاريخ المشرق الإسلامي في عصر الحروب الصليبية³.

5- انتقال صلاح الدين إلى مصر وتحصين القاهرة :

تمكن السلطان صلاح الدين من تسوية الأمور في بلاد الشام بعد أن أقر حلب وأعمالها للملك الصالح إسماعيل، كما ثبت نشاط الحشيشية والصليبيين في المنطقة ،

¹ - ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 220. حامد زيان غانم زيان ، المرجع السابق ، ص 99، 100.

² - ابن طباطبا ،المصدر السابق، ط 1894. ص 404.

³ - حامد زيان غانم زيان ، المرجع السابق ، ص 100.

فترك أخاه تورانشاه على رأس جيش قوي ببلاد الشام وعاد إلى القاهرة¹، بعد مدة تقارب السنتين، فدخل القاهرة في أواخر شهر ربيع الأول 572هـ / 1176م²، بعد أن تزوج من أرملة نور الدين محمود³، وكانت السنة الجديدة سنة راحة نسبية كانت جميع الأطراف بحاجة إليها، فقد كرس صلاح الدين وقتاً طويلاً لتنظيم الأمور في مصر، على حين كان الصليبيون في مملكة بيت المقدس يواجهون مشكلاتهم الداخلية⁴.

وأثناء تواجده بمصر أمر صلاح الدين ببناء سور على مصر والقاهرة⁵ معاً، بدل أن يكون لكل واحدة سور منفرد لحاجته إلى الجند لحمايتها وذلك سنة 572هـ / 1176م⁶، وكان السور: "دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين"⁷.

كما أمر ببناء قلعة على جبل المقطم⁸، وذلك بعد أن توالى مؤامرات أنصار الدولة العبيدية ضده، فرأى أن يبني له معقلاً حصيناً يحتمي به، ويكون آمناً فيه على نفسه، من

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 425.

² - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص254.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 431.

⁴ - قاسم عبده قاسم ، علي السيد علي ، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ، عين للدراسات والبحوث الإسلامية ، القاهرة ، 1995، ص 43.

⁵ - ونقصد هنا القاهرة والفسطاط التي عرفت في مصطلح ذلك الحين باسم مصر و عندما انضمت القاهرة إلى عواصم مصر الإسلامية : الفسطاط و القطائع والعسكر، صارت كلها عاصمة تعرف باسم مصر والقاهرة . ينظر ، قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص 43.

⁶ - عماد الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 400، بيبيرس المنصوري ، المصدر السابق، ص 3 .

⁷ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10 ، ص 81.

⁸ - المقطم بضم أوله و فتح ثانيه و تشديد الطاء المهملة و فتحها - جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم، وجبل المقطم أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط ويمر على البلاد إلى أن يصل مصر فيمر على جانبي النيل إلى النوبة، ويعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب إلى أرض مغاوة ، ويمضي مغرباً إلى سجماسة ، ومنها إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر .المقرئزي ، الخطط ، ج1، ص351. أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 446.

شيعة العبيديين وغيرهم، كما أن صلاح الدين أثناء وجوده بالشام قد شاهد القلاع والحصون والتحصينات المنتشرة في أرجائه، لا سيما استحکامات الصليبيين، وقد علمته التجربة أن المدينة كثيرا ما تسقط، في حين تظل القلعة صامدة فتشكل ملاذا للأهالي وقاعدة للمقاومة يمكن من خلالها استعادة المدينة مرة أخرى، وقد كان اختيار جبل المقطم لبناء القلعة مناسبا من الناحية العسكرية، ذلك أن لما كان صلاح الدين عازما على إحاطة مصر والقاهرة بسور واحد، كانت تلزمه نقطة يشيد عليها قلعة يسيطر منها على المدينة ويسهل عليه الدفاع عنها، وتكون على بعد كاف من المدينة وفي نفس الوقت كان الهدف من القلعة التي تسيطر على القاهرة من علو مائتي وخمسين قدما أن تكون مقرا يليق بالأسرة الجديدة، -الأسرة الأيوبية- ولم ينزل صلاح الدين منذ سقوط الدولة العبيدية قط في قصورها حتى بعد إخلائها من ساكنيها¹.

وقد شاهدهم الرحالة ابن جبير وهم يبنون القلعة. عندما قدم إلى القاهرة عام 578هـ/1182م، وقال: "وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين القلعة، يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة"².

وفي شهر شعبان سنة 572هـ/1176م، خرج صلاح الدين من القاهرة لكي يتفقد أحوال ميناء دمياط وميناء الإسكندرية، وكان في صحبته ولداه: الأفضل علي، والعزیز عثمان، وكاتبه العماد الأصفهاني، وأمضى في دمياط يومين شاهد أثناءهما الأسطول³،

¹ - محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 176.

² - ابن جبير، المصدر السابق، ص 25. محمود محمد الحويري، المرجع السابق، ص 176.

³ - جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2000، ص 18.

وقد حدد العماد الأصفهاني الغرض من هذه الزيارة بقوله: "ورأى - صلاح الدين - في الحضور بالشعر المذكور ومشاهدته الاحتياط"¹.

وفي نفس السنة - 572هـ/1176م ، واصل سيره إلى مدينة الإسكندرية حيث شاهد السور الذي أمر ببنائه حولها، وأمر ببناء سفن جديدة بالأسطول، ولأنه أدرك أهمية الأسطول "...أفرد له إقطاعا مخصوصا، وديوانا مفردا..."²، كانت هذه الإجراءات على المستوى العسكري ضرورية لتأمين الحدود البرية والبحرية لمصر من وجهة نظر صلاح الدين، حيث أكسبته المعارك التي شارك فيها خبرة عسكرية كبيرة وجعلته يرتب أموره الداخلية قبل أن يسعى لتحقيق البرنامج الذي كان نور الدين محمود قد أعلنه منذ سنة 566هـ/1170م، لتحرير المسجد الأقصى³.

6- صلاح الدين وبناء الوحدة الإسلامية لاستكمال الجهاد ضد الشيعة والصليبيين:

لقد ورث صلاح الدين معظم أنحاء دولة نور الدين محمود وورث دوره السياسي كما ورث برنامجه الذي جعل تحرير بيت المقدس الهدف الأسمى لتحركاته العسكرية السياسية والمدنية. ورغم الانتصارات الكبيرة التي حققها صلاح الدين ضد الصليبيين في بلاد الشام، إلا أنه أدرك حاجته إلى المزيد من القوات لمواصلة صراعه المستمر، وتأكد أن حلب والموصل لابد أن تنضم إلى الجبهة الإسلامية حتى يضمن له النصر، لأنه لا يستطيع حشد كافة القوات المصرية والشامية لقتال الصليبيين وهو يخشى هجوم أعدائه

¹ - العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص

² - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 449.

³ - قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص 44.

الانفصاليين في حلب وفي الموصل ففي هذه الحالة سيكون عرضة لخطر الهجوم على جناحيه أو مؤخرته من الموصل أو حلب¹.

فحتمت الظروف التاريخية على صلاح الدين أن يضم الموصل وحلب إلى دولته، ويحول مواردها في خدمة حركة الجهاد ضد الصليبيين والشيعية معا، ولا شك أنه قد أدرك أن تحقيق هذه الوحدة لا يتم دون نزاع مسلح، ولكنه تردد في حمل السلاح ضد أولئك الذين سوف يصبحون حلفاء في المستقبل، فالإقناع والدبلوماسية يعودان بنتائج أفضل من الغزو²، كما أن تشكيل الوحدة الإسلامية كان سيحرم الفرق الباطنية من استغلال أي نزاع بين الأمراء لخدمة مصالحها أو الاتفاق مع أمير ضد الآخر، وسيضمن لصلاح الدين عدم إمكانية إعادة تشكيل كيان سياسي شيعي مناهض للخلافة العباسية السنية بعد القضاء على الدولة العبيدية، فعمل جاهدا طيلة فترة حكمه على تحقيق هذا المشروع.

بدأ صلاح الدين بالموصل سنة 578هـ / 1182م، و ذلك عندما بلغه مراسلة أمراء الموصل للصليبيين، ورغبتهم في الثغور الإسلامية بغية إشغال السلطان عن قصدهم ولكنه ألح في القتال وحاصر الموصل فترة غير وجيزة إلا أن عز الدين مسعود (576-589هـ-1180-1193م) صاحب الموصل ، كان قد أعد العدة للحصار وحشد المقاتل ووفر كميات كافية من الطعام والسلاح والذخيرة³.

ويبدو أن صلاح الدين قد استاء من فشله في السيطرة على الموصل، فحاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (575-622هـ/1180-

¹ - قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص 44-45.

² - نفسه ، ص 45.

³ - سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية، القاهرة ، ط 2 ، 1996 . ص 46، 47.

1225م)، فأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين¹، فلم يكن رد الخليفة واضحاً وإنما اكتفى بمحاولة الصلح بين صلاح الدين والزنكيين، ولما اشتدت غارات الصليبيين على بصرى ودمشق وحران اضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن الموصل وعاد إلى شمال الشام في صيف 578هـ / 1182م².

وفي 16 محرم 579هـ / 1183م اتجه إلى حلب لحصارها، فقاتلهم قتال شديداً، فعلم عماد الدين زنكي الثاني، أتابك حلب أنه لا يد له في مواجهة قوى صلاح الدين فكاتبه سرا يعرض عليه أن يسلمه حلب ويأخذ عوضها بلد سنجار والخابور ونصيبين والرقبة وسروج³، واتفق الطرفان دون أن يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر، فتسلم صلاح الدين حلب في 17 صفر 579هـ / 1183، واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة⁴.

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل، فعاد إلى حصارها للمرة الثانية سنة 581هـ / 1185م، ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتاً ليستولي على ميفارقين، وعندما عاد صلاح الدين لمنازلة الموصل للمرة الثالثة اعتراه المرض، ويقال أن أهل الموصل انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين، فسعوا إلى الصلح، وتم الصلح فعلاً بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج3، ص 117.

² - سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص48.

³ - الأصفهاني ، البرق الشامي، ج5، ص111، 112. ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص 121.

⁴ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج3، ص 158. الأثير ، الكامل، ج10، ص 122. ابن شداد، المصدر السابق ،

الموصل سنة 582هـ / 1186م، وبمقتضى ذلك الصلح رضي صاحب الموصل أن يكون تابعا لصلاح الدين وبأن يخطب باسمه على المنابر، ويضرب السكة باسمه¹.

وبذلك تم رأب الصدع الذي أصاب الوحدة الإسلامية بعد وفاة نور الدين محمود، وعادت البلاد من الفرات إلى النيل تخضع لسلطة عليا واحدة تتمثل في شخص صلاح الدين.

7- صلاح الدين وتحرير المقدسات وسد الطريق أمام تحالف الصليبيين مع الشيعة الباطنية:

في حقبة قصيرة، وحد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من الشام وبلاد ما بين النهرين، ففي سنة 570هـ / 1174م استولى على دمشق وحماة وحمص وغيرها من المدن، وفي سنة 578هـ / 1182م فتح حلب²، وفي سنة 582هـ / 1186م اعتبر حاكم الموصل زنكي الثاني نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذي صار أقوى حاكم في العالم الإسلامي، ومن حيث الجوهر، وقع الشرق الصليبي في طوق دولة صلاح الدين، فقد وجه جميع موارد الدولة إلى النضال ضد الصليبيين، وتعهد بشن الجهاد على أعداء الإسلام³.

ومن الملاحظ أن ذلك السلطان الأيوبي، مثّل طاقة متجددة للجهاد، وحركة دائبة، فلم يركن إلى حياة الدعة والترف التي عاشها العبيديون من قبل، بل ارتبط بالجهاد ارتباطا وثيقا واستحق عبارة بهاء الدين بن شداد (ت632هـ / 1234م) الذي قال فيه: "ما كان له حديث إلا فيه - يعني الجهاد - ولا نظر إلا في آله، ولا كان له اهتمام إلا

¹ - ابن واصل، المصدر السابق، ج2، 172.

² - الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص111.

³ - ميخائيل زابروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار النقدم، موسكو، 1980. ص189.

برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه، وقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب فيها الرياح يمينه ويساره¹.

وكان أكبر نصر حققه صلاح الدين في تحركاته ضد الصليبيين ذلك النصر في حطين الذي ترتب عنه فتح بيت المقدس، سنة 583هـ / 1187م، فكما كان نصر السلاجقة في ملازكرد 463هـ / 1070م، بمثابة كسب ورقة تفويض من الشعوب الإسلامية لحمايتها من الغزو الأجنبي، كان كذلك نصر حطين، رغم المكانة التي تمتع بها صلاح الدين إلا أن ذلك النصر قد أضفى عليه شرعية أوسع في حماية الأراضي الإسلامية من العدوان الصليبي.

وقبل الحديث عن معركة حطين ينبغي إلقاء نظرة موجزة على أوضاع المماليك الصليبية في تلك الفترة والإشارة لأهم المواجهات مع القوى الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي والتي انتهت بهزيمة حطين .

أما عن الأوضاع الداخلية للصليبيين فقد أدت وفاة عموري الأول سنة 570هـ / 1174م، إلى إيجاد فراغ سياسي صعب أن يُشغل بملك صليبي آخر على نفس إمكاناته، فيلاحظ أنه من بعده تولى ابنه بلدوين الرابع 570-581هـ / 1174-1185م، الذي كان بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وقد تولى الوصاية عليه الكونت ريموند الثالث صاحب طرابلس، وبعد قرابة العشر سنوات أصيب بلدوين الرابع بالجذام على نحو أرهق صحته، وفي نهاية المطاف تولى عن السلطة وتولى من بعده بلدوين الخامس ابن سيبلا وهي الأخت الكبرى للملك الصليبي، وقد تزوجت من ويليم مونتفرات عام 572هـ / 1176م،

¹ - بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق، ص 21. محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ط1، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، 2000. ص 210.

وأنجبت له بلدوين الخامس، الذي تولى الحكم سنة 581هـ/1185م وفي نفس الوقت تولى ريموند الثالث الوصاية عليه لمدة عشرة أعوام¹. ولا مرأى أن ذلك كله عكس انشقاق الصليبيين على أنفسهم .

8- نصر حطين وزلزلة الصليبيين²:

لم يغفل صلاح الدين أمر قتال الصليبيين في فترة التكوين والإعداد، ولكنه لم يشن عليهم حرباً شاملة بل اكتفى بتوجيه ضربات مؤلمة في قواتهم، وبذلك أوقف إلى حد ما اعتداءاتهم المتكررة على المدن الإسلامية، ولكن بمجرد أن أتم الاستعدادات وأقام التحصينات أخذ يستتفر المسلمين للجهاد في مستهل سنة 583هـ/1187م³، وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضر والبدو" حسب العماد الأصفهاني⁴. فأدرك الصليبيون أن صلاح الدين لا بد وأنه متخذ الخطوة الحاسمة لمواجهتهم، وتوجيه ضربة قاسية لهم .

لقد كانت الغارات اللصوصية التي شنّها أحد بارونات الصليبيين البارزين، رينالد دي شاتيون، المعروف بأرناط⁵، الذريعة المباشرة لهجوم المسلمين: "فإن رينالد هذا كان

¹ - محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية ، ص 206 ، 207.

² - تعتمد في هذا العنصر الاعتماد على كتابات المستشرقين أكثر من المصادر الإسلامية ، ليتجلى من ذلك مدى قوة صلاح الدين وأهمية إنجازاته حتى في أعين مخالفيه في السياسة والدين، وهذا اعتراف صريح بانتصاراته الكبيرة خاصة استرجاع القدس .

³ - بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 75. ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص143.

⁴ - الأصفهاني، الفتح القسي ، ص 42 .

⁵ - أرناط : حاكم الكرك اقليم يقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت، كان نور الدين محمود قد أسره، وظل في الأسر من سنة 554هـ - 572هـ/1158م-1176م، وقد تزوج من أرملة الحاكم السابق لحصن الكرك وتدعى كونستانس، وقد اشتهر أرناط بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود والوعود وكان يميل إلى إشعال نار الحرب ضد المسلمين .أرنست باركر، المرجع السابق ، ص 81، أحمد الشامي، المرجع السابق ، ص 123.

مُغامرا وقحا، كسب شهرة مخزية بمآثره اللصوصية¹، وقد تناسى أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وملك بيت المقدس²، بأن فرض الإتاوة على القوافل التجارية التي تجتاز الكرك وذلك في سنة 577هـ/1181م، فتوترت العلاقات بين المسلمين والصليبيين، وأكثر من هذا أنه حاول مهاجمة مكة والمدينة، وسار فعلا إلى الحجاز حتى صار قرب واحة تيماء، ولم يرجعه عن قصده إلا ما قام به فروخ شاه نائب صلاح الدين على دمشق، من الإغارة على الكرك ونهب أراضيه³.

وما زال أرناط يتحين الفرص للانقضاض على مقدسات المسلمين، فكان منه أن أنزل أسطولا في البحر الأحمر للإغارة على الأساطيل البحرية الإسلامية التي تقصد الحجاز، ويهاجم مكة والمدينة، فهاجم أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة، واستولى عليها وحاصر جزيرة جاري القريبة منها، وانطلقت سفنه لتغير على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، فهاجمت عيذاب وهي ميناء كبير للنوبة، واستولى على سفن تجارية محملة بالبضائع قادمة من عدن، ثم اجتاز البحر الأحمر إلى ساحل الحجاز، فاحرق السفن الراسية بالحوراء وينبع، وأوغلت حتى بلغت راغب من موانئ مكة، واعترضت بالقرب منها سفينة حجاج متجه إلى جدة⁴.

وما كاد يصل الخبر إلى مصر، حتى أمر الملك العادل نائب صلاح الدين، بأن يُعَدَّ الحاجب حسام الدين لؤلؤ السفن في خليج السويس ويشحنها بالرجال، ثم سار إلى

¹ -مikhail زابوروف، المرجع السابق، ص 190.

² - أجبر الصليبيين بقيادة ريموند الثالث على عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها خمس سنوات: 576هـ - 581هـ/1180م - 1185م، بعد نجاح صلاح الدين في تقويض أمن الصليبيين في طرابلس وناطكية ينظر: محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، ص 212. الحويري، المرجع السابق، ص 185.

³ - السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون، دار النهضة العربية، بيروت، 1967، ص 74.

⁴ - محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص 136. أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995، ص 51.

أيلة فظفر بالمركب الصليبي فأحرقه وأسر من فيه، ثم توجه إلى عيذاب فاكتشف المراكب الصليبية فأخذ يطاردها حتى أوقع بها وأطلق سراح الأسورين من التجار، ثم صعد البر فوجد هناك عربا، فركب خيلهم وتعقب المنهزمين من الصليبيين فحصرهم في شعب لا ماء فيه فأسرهم جميعا، وأرسلهم إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن حيث تم استعراضهم في شوارعها قبل أن تضرب رقابهم بناء على أمر العادل¹، وما حدث من نقض الهدنة على هذا الشكل جعل الحرب أمرا لا مفر منه .

ثارت أطماع أرناط صاحب الكرك مجددا على إثر سماعه بتحريك قافلة تجارية من مصر إلى دمشق تحمل كل غال ونفيس، فاستولى عليها سنة 582هـ / 1186م، رغم الهدنة المبرمة بينه وبين صلاح الدين، وحاول صلاح الدين أن يسترد الأموال والأسرى بالمفاوضات لكنه لم ينجح، عندها أقسم بأن ينتقم منه وأن يقتله بيده، ثم أعلن التعبئة العامة للهجوم على الصليبيين².

وفي سنة 583هـ / 1187م، خرج صلاح الدين من دمشق على رأس جيش كبير متوجها نحو الجنوب ونزل بأرض بصرى من حوران لحماية الحجاج³، ثم سار وهاجم حصن الكرك وضرب حوله حصارا، وكذلك فعل بحصن الشوبك⁴، وهكذا أصبح أرناط محصورا داخل حصن الكرك في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يتمتع بحرية الحركة، عندها استتجد أرناط ببني جلدته من الصليبيين وهاجموا قوات المسلمين المتوجهة إلى عكا فما كان من صلاح الدين إلا أن رد على ذلك بالهجوم على طبرية التابعة لأشيفا

¹ - السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص 75. محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص 137. وقد وصف الرحالة ابن جبير وان في مصر آنذاك، موكب الأسرى الذين أرسلوا إلى القاهرة، ينظر : ابن جبير ، المصدر السابق، ص 34، 35.

² - أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص 52.

³ - الحريري، المصدر السابق ، ص 81.

⁴ - الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 42.

زوجة أرناط وكان ذلك في أوائل 583هـ / 1187م، وقد اقتحم المسلمون المدينة وأحرقوها ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على قلعتها¹.

عندها اجتمع الصليبيون بصفورية عند عكا، وقرروا مواجهة صلاح الدين رغم تحذير ريموند الثالث أمير طرابلس من خطورة ذلك، وفي يوم الجمعة 14 ربيع الثاني 583هـ/1187م، سار الصليبيون إلى طبرية، عندها قال صلاح الدين: " قد حصل المطلوب وكمل المخطوب وجاءنا ما نريد"²، حيث استدرجهم إلى حطين³، وفي هذا السياق عند طبرية سارت قواتان من الفرسان الداوية والاستتارية قبالة فرسان صلاح الدين، وفي حطين حلت الهزيمة بجيش المملكة اللاتينية بأسره البالغ نحو ثمانين ألف ما بين فارس وراجل، وكان المسلمون في اثني عشر ألف فارس غير الرجالة⁴.

فأسر صلاح الدين كبار قادة الصليبيين من بينهم أرناط الذي قتله بيده⁵، وأخذ منهم صليب الصليبوت، وكانت الوقعة يوم السبت، ولم يسلم من الصليبيين إلا قلة، وعلى أثرها فتح عكا ومجدل، ويافا والناصرية، وصفورية وقيسارية، ونابلس، وغنم من الأموال مالا يحصى، ثم فتح بيروت وصيدا، وبنين وجبيل، وعسقلان بالأمان، وسار إلى بيت المقدس ودخله يوم الأحد 16 ربيع الثاني 583هـ/1187م، وكان فيه ستون ألف مقاتل، فتسلمه

¹ - أسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص 35، 36.

² - الأصفهاني، الفتح القسي، ص 45.

³ - تابع تفاصيل خطة صلاح الدين في استدراج الصليبيين إلى هضبة حطين وإحلال الهزيمة بهم من خلال: ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 146 وما بعدها، الأصفهاني، الفتح القسي، ص 45 وما بعدها.

⁴ - الحريري، المصدر السابق، ص 81، بينما يقدر أرنست باركر عدد القوات الصليبية بعشرين ألف فقط، ينظر: أرنست باركر، المرجع السابق، ص 83.

⁵ - عبد الرحمن عزام، المرجع السابق، ص 209.

بالأمان بعد أن قرر على الصليبيين كل رجل عشرة دنانير، وكل امرأة خمسة، وكل صغير وصغيرة دينارين¹.

وقد سمحت هذه المعركة لصالح الدين بدخول القدس، فبانتهازه لاضطراب الصليبيين وتشتت شملهم ونقص عددهم تم له في بضع أسابيع احتلال أغلب قلاعهم الكبيرة من الداخل وحتى الموانئ مما جعله يقطع استمرارية خطوطهم الساحلية، ومما لا شك فيه أن الانقسامات داخل المعسكر الصليبي قد ساعدت على حدوث الهزيمة وتعاضل نتائجها، ويظهر من الأحداث في السنوات التالية أن موازين القوى جعلت من المستحيل على الصليبيين منذ تلك الفترة أن يحافظوا على المملكة والإمارات الأخرى في الظروف السابقة نفسها، آنذاك أعاد صلاح الدين تعمير القدس وسمح للمسيحيين ذوي الطقوس اليونانية واليهودية بالإقامة بها².

ولم تنته سنة 585هـ/1189م، حتى لم يبق للصليبيين في مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ولم يكن للصليبيين في شمال المملكة سوى أنطاكية وطرابلس وحصن المرقب التابع للاستتارية، وبذلك ارتدت عقارب الساعة إلى الوراء، وعادت الأمور من جديد إلى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى، ولابد للغرب أن يتجهز لحملة صليبية أخرى لاستعادة بيت المقدس، غير أنه لابد أن يواجه الآن العالم الإسلامي متحداً، بينما لم يواجهه في سنة 493هـ / 1099م، إلا بعد أن حلت به النزاعات السياسية والدينية، ولا بد للغرب أن يعاني بعد أن فقد الحافز الديني القوي³.

¹ -بييرس المنصوري، المصدر السابق، ص 3-4.

² - كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995. ص 191.

³ - ارنست باركر، المرجع السابق، ص 83.

ولقد اعترف المؤرخون الغربيون بقوة صلاح الدين وعدله وتسامحه بل وأكثر من ذلك لقد اعترفوا بأنه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية بأجمعه، ولا شك أن هذه شهادة حق إذا كانت صادرة من أعدائه (والفضل بما شهدت به الأعداء) .

وأهمية انتصار حطين في دراستنا يكمن في أن صلاح الدين تمكن من استرجاع بيت المقدس الذي وقع تحت سيطرة الصليبيين في وقت كان تابعا للدولة العبيدية الشيعية ، فبعد أن قضى على كيانه السياسي عاد وكأنه يُصلح أخطاء تلك الدولة التي تهاونت في الحفاظ على مقدسات المسلمين وتحالفت في فترة من الفترات مع القوى الصليبية ضد القوى السنية آنذاك ونقصد بهم السلاجقة، فكان صلاح الدين بمثابة المنتقم من عيث الشيعة في وقت كانت لهم الغلبة على الساحة السياسية.

9-ظهور طائفة من الشيعة بمصر :

في سنة 584هـ/ 1188م، ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا، وصلاح الدين محاصر لمدينة صفد¹ ببلاد الشام، ونادوا بشعار العلويين "يالَ علي يالَ علي"، وسلخوا الدروب ينادون ظنا أن رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم، وكان صلاح الدين قد تآزر نصره وكمل أمره، فصم الناس عنهم أذانهم ولم يلتفت أحد منهم إليهم ولا أعارهم سمعه، فنفرقوا في ظلام الليل خائفين².

ورغم ذلك فقد تأثر صلاح الدين لما حدث وهو بعيد عن الديار، فرأى أن الشر لا ينام وبغي بني آدم لا ينتهي، لكن وزيره القاضي الفاضل سكن خاطره بقوله: " يجب أن

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج4، ص 60.

² - ابن الأثير ، الكامل ج10، ص 177

تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد ؟ ولم يكن وراءهم مدد؟ فطب نفسا، وزد بمنزلتك عند الله أنسا " ¹.

وقد زاد هذا الأمر من تخوُّف صلاح الدين من هذه الطائفة، وتأكَّد له ضرورة ابقائها تحت المراقبة الدائمة، وأن يُخضع جميع أملاكها في الشام لسيطرته، ليدراً خطرهما المفاجئ، فتعقبهم في البلدان وأقفل مدرستهم بالقاهرة، وظل يحذِّرهم إلى آخر أيامه، حتى كان من شروطه في صلح الرملة ²، الذي كان بينه وبين ملك الانجليز ريتشارد، سنة 588هـ/1191م، أن تدخل بلاد الاسماعيلية فيه ³.

10- وفاة صلاح الدين وتفكك عضد الدولة الأيوبية وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعي:

تمكن صلاح الدين من توحيد المسلمين تحت رايته، والتضييق على الشيعة والصليبيين والحد من توسعاتهم في بلاد المسلمين، لكن لم تدم فرحته بانتصاراته طويلاً إذ داهمه المرض واشتد عليه الأمر حتى توفي يوم الأربعاء 27 صفر 589هـ/1192م، وهي الليلة الثانية عشر من مرضه ⁴، عن عمر يقرب من سبعة وخمسين عاماً ⁵.

حزن الناس لوفاة حزنا شديدا جعلت ابن شداد يقول في ذلك: "وكان يوما لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج4، ص61.

² - كان من بنود صلح الرملة أن يستقر بيد الصليبيين يافا وقيسارية وحيفا وعكا وكل عمالات تلك البلاد، وأن يدخل صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وبلاد الإسماعيلية والولايات الإسلامية في عقد الصلح، وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما، أما عسقلان فتبقى خرابا، وتدوم الهدنة ثلاثة سنين تبدأ من يوم الأربعاء 22 شعبان 588هـ/1191م. ينظر: أبو شامة ، المصدر السابق ، ج4، ص325، ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص218.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج4، ص325 . عبد العزيز السيد الأهل ، المرجع السابق ، ص84.

⁴ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص246. أبو شامة ، المصدر السابق ، ج4، ص364.

⁵ - عبد العزيز السيد الأهل ، المرجع السابق ، ص228.

مالا يعلمها إلا الله ، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وماسمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجاوز والترخص إلا ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِل "الفدا" لفُدي بالنفس" ¹.

على أنه ما كاد صلاح الدين يختفي من مسرح الأحداث، حتى دب الانقسام والاختلاف بين أفراد البيت الأيوبي، فقد أنجب صلاح الدين سبعة عشر ولدا ذكرا وترك ابنة صغيرة ²، وكان من الطبيعي أن يختص صلاح الدين أبناءه بحكم الأجزاء الرئيسية في دولته، وقد إخوته الذين كان أهم شخصية فيهم أخوه العادل الأجزاء الثانوية ³، علما أن صلاح الدين قد اعتمد في الأدوار الأولى من تاريخه على إخوته وأبناء عمومته في توطيد سلطانه، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية في دولته ⁴.

وسواء كان دافع صلاح الدين إلى ذلك عاطفة الأبوة الطبيعية التي جعلته يفضل أبناءه على إخوته، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه وازدياد نفوذ إخوته، فالمهم أننا نجد الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين قد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بني أيوب، فملك أبنة الأكبر الأفضل دمشق والساحل وبيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها، مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك ⁵،

¹ - بهاء الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 246.

² - الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 327 .

³ - أسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص 58.

⁴ - سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت ، 1972، ص 61.

ذلك¹، وكان الملك العادل أخو صلاح الدين يحكم الكرك والأردن بالإضافة إلى الجزيرة وديار بكر².

وقد كانت السلطة العليا في الدولة الأيوبية للابن الأكبر الأفضل، الذي لم يكن أهلاً لهذه المسؤولية، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه انغمس في اللهو والملذات³، ويبدو أن اعتماده على وزيره ضياء الدين ابن الأثير في تسيير الأمور، أثار حفيظة أغلب وزرائه وأمراءه، مما أدى بهم إلى الانتقال إلى مصر والاستتجاد بالملك العزيز عثمان، وحرصوه على أخيه الملك الأفضل وانتزاع السلطة منه، وقد استمع الملك العزيز لنداء هؤلاء الأمراء، وخرج من مصر عام 590هـ/1193م متجهاً إلى دمشق وفرض عليها حصاراً⁴.

وعلى هذا النحو بدأ الصراع بين أولاد صلاح الدين الأيوبي حول السلطة، غير أن هذا الدور من الصراع انتهى باتفاق أبناء صلاح الدين على أن يعود السلطان العزيز إلى مصر ويأخذ بيت المقدس، وما يتبعها من أعمال، في حين يحتفظ الأفضل بدمشق⁵.

وبسبب هذا الصراع لم يمكننا الوقوف على جهودهم في مقاومة الوجود الشيعي لأن هذا الأمر يستلزم نوعاً من الاستقرار السياسي.

الخاتمة:

استطاع صلاح الدين الأيوبي بفضل كفاءته وشجاعته الإطاحة بالعباسيين في مصر ومحو أثار الباطنية، كما تولى زمام الأمور في بلاد الشام، ورافق ذلك بجهاد الصليبيين

¹ - ابن الأثير الكامل ، ج 10 ، ص 225.

² - ابن واصل ، المصدر السابق ، ص 379.

³ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج 6 ، ص 120.

⁴ - ابن الأثير الكامل ، ج 10 ، ص 243.

⁵ - حامد زيان غانم زيان، المرجع السابق ، ص 104.

الذين اشتد أذاهم على الناس والمقدسات، وفي ظل ذلك عمل جاهدا على تشكيل جبهة إسلامية موحدة بين مصر والشام حتى تقف عائقا وسدا منيعا ضد أي تحالف يمكن أن يقع بين الباطنية والصليبيين .

وكان لانتصار حطين وقع كبير في نفوس المسلمين والأعداء على حد سواء، فأعطت دفعا قويا للمسلمين وتكتلوا في سبيل استرجاع المقدسات، فيما تغير موقف الباطنية والغرب الصليبي وأعادوا دراسة تحركاتهم بعدما رأوه من حماس ديني ورباطة جأش لدى أهل السنة المسلمين .

كما كان للنشاط الدؤوب الذي مارسه صلاح الدين على مستوى مصر وبلاد الشام واليمن لإعادة إحياء المذهب السني ومقاومة الوجود الشيعي علاقة وأثر مباشر على بغداد عاصمة العباسيين، فبالرغم من استقلال صلاح الدين بالشام والجزيرة ومصر واليمن إلا أنه بقي على ولائه وإخلاصه الشديد للخليفة العباسي، فنفخ فيها بذلك روحا جديدة، وأكسبها نشاطا وقوة لم تألفها منذ فترة طويلة، فبعد أن غابت شخصية الخليفة عن الساحة، عادت هيبة مرة أخرى .

ولم يبق بذلك مع نهاية القرن السادس هجري الموافق للثاني عشر الميلادي كيان سياسي قائم للشيعية الباطنية إلا إذا استثنينا فلول الحشيشية في بلاد فارس والتي بقيت حجرة عثرة أمام جهود الأيوبيين المتأخرين لاستكمال الوحدة السياسية للشرق الإسلامي.

ولم تكن جهود صلاح الدين السياسية والعسكرية قائمة على مصلحة شخصية قط، وقد إتهمه بعض المؤرخين أنه يطمع في ملك مصر منفردا دون نور الدين وأنه أخذ في استمالة الرعية بالأموال وتوسيع ممتلكاته بإخضاع الأقاليم المجاورة كاليمن لتكون له سندا وحصنا من نور الدين إن هو قرر استعادة ممتلكاته، وفي هذا اعتداء كبير على شخصيات حملت في قلوبها الغيرة والحمية على الدين الإسلامي وبذلت النفس والنفيس في سبيل ترسيخ مذهب أهل السنة في هذه الأقاليم، وإن كان وقع شيء من ذلك في مرة من المرات تحت ضغط قاداته المتخوفين من سلطة نور الدين فهذا لا يعني أن نفسر أي تحرك أو أي إنجاز على أنه خطوة نحو الانفصال عن نور الدين وخدمة لمصالحه الشخصية .

الباب الثاني: الدور العلمي المذهبي والاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة

والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي:

447هـ - 600هـ / 1055م - 1203م.

❖ الفصل الأول: الدور العلمي والمذهبي للسلاجقة في مقاومة الوجود

الشيعي بالمشرق الإسلامي 447-521هـ / 1055-1126م.

❖ الفصل الثاني: الدور العلمي والمذهبي للزنكيين في مقاومة الوجود

الشيعي بالمشرق الإسلامي 521-569هـ / 1126-1173م.

❖ الفصل الثالث: الدور العلمي المذهبي للأيوبيين في مقاومة الوجود

الشيعي بالمشرق الإسلامي 569-600هـ / 1173-1203م.

❖ الفصل الرابع : الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين

والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي

447-600هـ / 1055-1203م.

الفصل الأول: الدور العلمي والمذهبي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق

الإسلامي 447-521هـ / 1055-1126م:

أولاً- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الرافضي في القرن الخامس هجري.

1: أسباب بناء المدارس النظامية .

2: أهم المدارس النظامية .

3: التنظيم والتعليم في المدارس النظامية .

أ- شكل المدرسة.

ب-خزانة الكتب بالنظاميات.

ج- الالتحاق بالمدرسة .

د- المذهب المعتمد للتدريس بالنظاميات.

هـ- المواد المعتمدة للتدريس في النظاميات .

و- تعيين المدرسين بالنظاميات.

ز- طريقة التدريس بالنظاميات.

ح- منح الإجازة في النظاميات.

ط- أهم مُدرّسي وخريجي المدارس النظامية.

4: دور المدارس النظامية في مقاومة الفكر الشيعي في القرن 5-6هـ/ 11-12م.

5: المد الحضاري للمدارس النظامية في العالم الإسلامي.

أ- الإمام أبو حامد الغزالي.

ب-أبو بكر الطرطوشي.

ج- شرف الدين ابن العجمي.

ثانياً- نظام الملك وإسهامه العلمي خارج المدارس النظامية في مقاومة الفكر الشيعي.

ثالثاً- مدارس أخرى في العصر السلجوقي عُيّنت بمقاومة الفكر الباطني.

رابعاً- دور المساجد في مقاومة الفكر الشيعي.

خامساً- التكامل السياسي الفكري بين السلطة السلجوقية والعلماء لمقاومة الوجود الشيعي.

أ-عناية السلاطين السلاجقة بالعلم وتقريب العلماء لتدعيم المذهب السني .

ب- تدعيم السلاجقة للمناظرات العلمية بين العلماء السنة ودعاة الشيعة .

ج -تشجيع السلاجقة للعلماء على التأليف لضرب الفكر الشيعي .

سادساً-الإسهامات العلمية للسلاجقة في بلاد اليمن وأثرها في مقاومة الوجود الشيعي.

الباب الثاني: الدور العلمي المذهبي والاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة

والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 447هـ -

600هـ / 1055م - 1203م

الفصل الأول: الدور العلمي المذهبي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق

الإسلامي 447-521هـ / 1055-1126م:

دخل السلاجقة العراق وهي تغلي سخطا على الممارسات البويهية، خاصة الممارسات المذهبية بحكم أن البويهيين كانوا متشيعين وأظهروا احتفالاتهم الدينية علنا في أوساط بغداد والعراق، وكان الشيعة العبيديين في باقي بلاد الشام قد عاثوا فسادا بتصرفاتهم ومعتقداتهم المنحرفة، فثار الخلاف بين الطائفتين: السنية بقيادة السلاجقة والخلفاء العباسيين والشيعة بقيادة بقايا البويهيين والعبيديين في مصر .

عمل السلاجقة جاهدين على محو آثار التشيع في العراق وبلاد الشام على مختلف الأصعدة، خاصة الصعيد العلمي والمذهبي، وكان أول عمل قام به السلطان طغرل بك السلجوقي لمواجهة الشيعة أن أمر بقتل أبي عبد الله الجلاب شيخ الروافض سنة 448هـ/1056م¹، وأحرقوا المكتبة الكبرى للشيعة في بغداد، وهاجموا بيت عالمهم الكبير أبي جعفر الطوسي(ت460هـ/1067م)²، وأحرقوا كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس،

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص465.

² - أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، فقيه الشيعة وصاحب التصانيف ، ولد سنة 385هـ/995م، انتقل من خراسان إلى بغداد سنة 408هـ/1017م ، واستقر بها أربعين سنة ، تفقه أولا للشافعي ثم أخذ علم الكلام عن الشيخ المفيد (ت 413هـ) رأس الإمامية، فبرع فيه ، له عشرين مجلد في تفسير القرآن وأملى الأحاديث وحكايات تشتمل على مجلدين، وكان يدرس الفقه في رحبة جامع القصر بالكرخ محلّة الرافضة، ثم تحول إلى الكوفة وأقام بالمشهد يفقههم. مات في محرم 460هـ/1067م، وكان رافضيا قوي التشيع، له تصانيف كثيرة منها :التبيان في تفسير القرآن في عشرين مجلدا، كتاب تهذيب الأحكام ، كتاب مختلف الأخبار ، و كتاب المفصح في الإمامة ... ، وقد أحرق كتبه=

وكتبه التي كان يستعملها في ضلالتة وبدعته، مما اضطره للهجرة من بغداد وإغلاق مدرسته فيها¹.

وما زاد الفتنة اشتعالا بين الطائفتين السنية والشيعية هو أن الشيعة الإسماعيلية في حد ذاتها انقسمت إلى فرقتين، المستعلية في مصر، والنزارية بقيادة الحسن بن الصباح في قلعة الموت²، و" الذي حدث منه من البلاء بالخلق ما لا يوصف"³، فكان على السلاجقة المواجهة على الجبهتين فجنّدوا كل جهودهم لهذا الغرض .

أولاً: المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الرافضي في القرن الخامس هجري :

1-أسباب بناء المدارس النظامية :

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء المدارس النظامية لمقاومة الوجود الشيعي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة، فقد استوزر هذا السلطان رجلا قديرا وسنيا متحمسا هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك(ت485هـ/1092م)، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة سياسيا لن يُكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية بمقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة نشطوا في هذه الفترة وما

=عدة مرات بمحضر من الناس لما فيها من الغلو والبدعة .الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص334،335. السبكي، المصدر السابق، ج4، ص126،127. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 83.

الزركلي ، المرجع السابق، ج6، ص 84، 85.

¹ - البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 53.ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص465. عبد الباسط الناشي، المرجع السابق، ص 225.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 539.المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص12 وما بعدها. إحسان الهي ظهير، المرجع السابق ، ص 735،عارف تامر، الإسماعيلية، ج4، ص 11-12.

³ - المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 323.

قبلها في الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة¹، واستعانوا على الترويج لدعوتهم بالسيف والسياسة والعلم والدين جميعا، فقد اتجهوا منذ بداية أمرهم إلى بناء الجوامع التي كانت تُعتبر في تلك الفترة قِبلة لطلبة العلم للاستزادة في العلوم من خلال حلقات العلم والمناظرات التي كانت تُعقد فيها²، فرأى الوزير السلجوقي نظام الملك أنه يجب مقاومة هذا النشاط الفكري الشيعي بنشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان، وأن يقرنه بالمقاومة السياسية، فجاءت فكرة بناء المدارس النظامية لهذا الغرض.

على أن نظام الملك تحمس لبناء المدارس وقرر تعميمها في مختلف الجهات على إثر ما حدث له أثناء زيارته لنيسابور مع السلطان ألب أرسلان، وينقل لنا القزويني (ت 682هـ/1285م) ذلك بقوله: "أن السلطان ألب أرسلان دخل مدينة نيسابور، فاجتاز على باب مسجد فرأى جمعا من الفقهاء على باب ذلك المسجد في ثياب رثة، لا خدموا السلطان ولا دعوا له، فسأل نظام الملك عنهم فقال: هؤلاء طلبة العلم وهم أشرف الناس نفسا، ولا حظّ لهم من الدنيا، ويشهد زيهم على فقرهم، فأحسّ بأن قلب السلطان لان لهم، فعند ذلك قال: لو أذن السلطان بنيت لهم موصعا وأجريت لهم رزقا ليشغلوا بطلب العلم والدعاء لدولة السلطان، فأذن له"³.

وبما أن القزويني لم يذكر تاريخا واضحا لهذه الحادثة واكتفى بالإشارة إلى أنها وقعت بنيسابور، وكان بناء نظامية بغداد هو الأسبق من الناحية الزمنية، يمكننا القول بأن فكرة تعميم النظاميات في العالم الإسلامي جاءت بعد هذه الحادثة.

¹ - أبو الفتح بدوي، المرجع السابق، ص 176.

² - الصلابي، دولة السلاجقة، ص 266.

³ - القزويني، المصدر السابق، ص 412.

على أنه لا يمكننا إهمال سبب آخر لبناء المدارس النظامية، وهو رغبة نظام الملك في نشر المذهب الشافعي والدفاع عن عقيدة الأشاعرة في ظل التعصب المذهبي¹ السائد في ذلك العصر، وقد اهتم نظام الملك كثيرا بهذا الهدف ودافع عنه بحماس بالغ وذلك لأنه تفقه على المذهب الشافعي وكان في الأصول على المذهب الأشعري²، وقد رجّح بعضهم احتمال أن تركيز نظام الملك على المذهب الشافعي لكون صاحب هذا المذهب من النسب النبوي، ونظام الملك كان يرمي من خلال مدارس تلك ضرب المذهب الشيعي الباطني الذي تبنته الدولة العبيدية التي ادعت النسب إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم³.

والمعروف عن نظام الملك تعصبه للمذهب الشافعي، إذ يقول ابن العديم (ت660هـ/1261م): "وكان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيرا، فكان يولي الحنفية القضاء، ويولي الشافعية المدارس، ويقصد بذلك أن يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه، فيكثر الفقهاء منهم، ويشغل الحنفية بالقضاء فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون"⁴.

ويعلل الدكتور عبد المجيد بدوي سبب حرص نظام الملك على التدريس وفق المذهب الشافعي على العقيدة الأشعرية، كون المالكية أو الحنابلة أو الحنفية غير قادرين

¹ - التعصب : من العصبية وهي أن يدعو الرجل إلى نصرته عَصَبَتَهُ و التآلب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، وهي المحاماة والمدافعة و النصره . ينظر : ابن منظور الإفرقي، لسان العرب ، ج1 ، دار صادر، بيروت، ص 606.

² - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص362-364. السبكي ، المصدر السابق ، ج4، ص 312. ابن كثير ،المصدر السابق ،ج6، ص 532. عبد الكريم حتاملة، جهود نظام الملك في تأسيس المدرسة النظامية في بغداد والمدارس النظامية الأخرى، مجلة أبحاث اليرموك : سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 1، العراق، 2003، ص130.

³ - مصطفى مغزاوي، البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، ص67.

⁴ - ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، ص 2494.

على التصدي لمواجهة الشيعة فكريا وهم الذين تسلحوا بدراسة الفلسفة، واستخدموا البراهين العقلية في الدفاع عن عقائدهم، وأخذوا عن المعتزلة معظم أصولهم فأصبحت تشكل لبنات هامة في منهجهم الكلامي، وفي هذه الحالة كان الأشاعرة وحدهم القادرين على النضال في هذا الميدان الفكري، وعليه فإن نظام الملك وفق تماما في اختيار المنهج الملائم لتحقيق الهدف الذي سعى إليه¹، ويضيف بدوي قائلا أنه في نفس الوقت كان من سلبات المدارس النظامية التمكين للمذهب الشافعي الذي زاد من حدة الصراع المذهبي وأوشك أن يُخرج المدارس النظامية عن الهدف المرسوم لها وهو مقاومة الفكر الشيعي².

لكن في قول بدوي بأن الأشاعرة هم الأفضل والأقدر على المواجهة إجحاف كبير في حق المذاهب الأخرى، حيث لا يمكننا إهمال دورها في مواجهة الفرق الضالة دون الخوض في الفلسفة وعلم الكلام، وقد اكتفوا بالاستناد إلى القرآن والسنة وألفوا المصنفات الضخمة في هذا المجال زخرت بها المكتبات الإسلامية³ خُصصت للرد على الشيعة والرافضة والمعتزلة والمشبهة والجهمية والزنادقة واليهود والنصارى وغيرهم من أعداء الإسلام، وكانت تلك الردود تحمل قوة في ذاتها، تولّاها أهل الحديث الذين عُرف عنهم العداء الشديد لعلم الكلام⁴، وحققت كثيرا من أهدافها ولم يكن حينها للأشعرية اسم يُذكر⁵.

¹ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، المرجع السابق ، ص 185.

² - نفسه ، ص 202.

³ - وأكبر من ألف في هذا المجال الإمام ابن الجوزي والإمام ابن تيمية... وغيرهم كثير.

⁴ - وقد انتقد الشيخ ابن تيمية علم الكلام واحتج بأن الصحابة رضوان الله عليهم ماتوا وما عرفوا علم الكلام فإن كانت طريقة المتكلمين أجود من طريقة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما فيئس الاعتقاد والرأي. أبو العباس نقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، درء التعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم ، إدارة الثقافة والنشر لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، السعودية ، ط2، 1991، ج8، ص47-52.

⁵ - مصطفى مغزاوي، المرجع السابق ، ص68.

والحق أنه على الرغم من أن ظاهرة التعصب المذهبي كانت سائدة في القرن الخامس هجري¹ فإنه من سلبيات المدارس النظامية تعصبها للمذهب الشافعي، والظاهر أن نظام الملك حاول تدارك الأمر من خلال رده على أبي إسحاق الشيرازي (ت476هـ/1083م) في الفتنة التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة سنة470هـ/1077م، وفيه: "ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة..."²، فقد كان يدرك أن العالم الإسلامي بحاجة ماسة إلى تلاحم جهود كل المذاهب لصد المد الشيعي الضارب بأطنابه في مشارق الأرض ومغاربها.

ومهما يكن الأمر فإن الفضل في إنشاء المدارس النظامية في بغداد والمدن الإسلامية قاطبة يعود إلى الوزير نظام الملك الطوسي، الذي قال عنه شمس الدين

¹ - وقد وقعت فتن عديدة بين الشافعية والحنابلة في بغداد خاصة بسبب التعصب المذهبي منها ما حدث سنة 469هـ/1076م بين أبي نصر بن أبي قاسم القشيري لما جلس للوعظ في النظامية وجرى له مع الحنابلة فتن لأنه كلم على المذهب الأشعري ونصره ، وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم. تابع تفاصيل الحادثة من خلال: ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 509. السبكي، المصدر السابق، ج7 ، ص159 وما بعدها . البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 216. السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص 367. النويري، المصدر السابق، ج23، ص 140.

وقد أفادنا الدكتور خالد كبير علال بدراسة وافية عن التعصب المذهبي ومظاهره في العصر الإسلامي بين الطوائف السنية وغير السنية من خوارج وشيعة ، وحذر من مغبة الوقوع في شباكها لما تشكله من خطر على الأمة الإسلامية، وختم كتابه بمجموعة من التوصيات أو الحلول المقترحة للخروج من دائرة التعصب. ينظر : التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، دار المحتسب، الجزائر، 2008.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16، ص 190.

الذهبي(ت784هـ/1374م):"كعبة المجد، ومنبع الجود، وكان مجلسه عامرا بالقرءاء والفقهاء، أمر ببناء المدارس في الأمصار، ورغب في العلم كل أحد"¹.

نال من الشهرة ما هو جدير بها، قال عنه السبكي(ت771هـ/1369م):" وزير غالى الملوك في سمعتها، وغالب الضراغم، وكانت له النصرة مع شدة منعته، وضاهى الخلفاء في عطائها، وباهى الفراقد فكان فوق سمائها، ملك طائفة الفقهاء بإحسانه، وسلك في سبيل البر معهم سبيلا "².

وليس هذا منه مبالغة في مدحه وسرد فضائله وإنما هو إيفاء لحقه وجهوده المصنفة في وضع اللبنة الأولى للمدارس الرسمية التابعة للدولة مباشرة في التاريخ الإسلامي³، لدرجة أن بعض المؤرخين نسبوا لنظام الملك الأسبقية في تشييد المدارس في ديار الإسلام⁴، والأصح أنه قد أنشأت مدارس قبل النظاميات⁵، فلقد كانت المدرسة التي شيدها أبو بكر بن فورك (ت406هـ/1015م)⁶، والمدرسة البيهقية التي شيدها أبو بكر البيهقي(ت458هـ/1065م) بعد أن صار مدرسا في نيسابور سنة 441هـ/1049م⁷، والمدرسة السعدية بنيسابور التي شيدها الأمير نصر بن سبكتكين أخ محمود الغزنوي

¹ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 10، ص 541.

² - السبكي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 309.

³ - عبد الكريم حتاملة ، المقال السابق، ص 128.

⁴ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج10، ص543.

⁵ - السبكي ، المصدر السابق ، ج4، ص314.

⁶ - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فُوركُ الأصفهاني الأشعري، صاحب التصانيف الكثيرة حيث بلغت أزيد من مائة مؤلف في الفقه و التفسير وأصول الدين، تَرس ببغداد مدة ثم توجه إلى الري، وكان شديدا على الكرامية فسعو ضده فراسله أهل نيسابور وبنو له مدرسة ودارا ، مات مسموما بقرب بُست ودفن بنيسابور سنة 406هـ/1015م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص 214-216.الصفدي، المصدر السابق، ج 2 ، ص 344.القرزويني، المصدر السابق، ص297.

⁷ - السبكي، المصدر السابق، ج4 ، ص 314.

(ت412هـ/1021م)¹، ومدرسة أخرى للصوفية بناها إسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي (ت448هـ/1056م) للشافعية²، إلى جانب مدرسة بنيت للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني (ت418هـ/1027م)³.

كما يذكر لنا الرحالة ناصر خسرو⁴ مدرسة أخرى شاهد بناءها أثناء رحلته إلى نيسابور في شوال سنة 437هـ/1045م، بقرب سوق السراجين، أمر ببنائها السلطان السلجوقي طغرل بك⁵، كما كانت له مدرسة أخرى بناها في همذان وقد درس بها الشيخ سعد الرازي، وتفقّه عليه كثيرون⁶.

¹ - السبكي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 314. ابن الطباخ الحلبي ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، (تحقيق: محمد كمال) ج4، ط2، منشورات دار القلم العربي ، حلب ، 1988 ، ص 254.

² - هو الواعظ الصوفي أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي الشافعي، ولد بإسفرايين سنة 375هـ/985م، بنى مدرسة للشافعية بنيسابور، رَوَى عن أبيه و عن علي بن الحسن بن حيوية، ورَوَى عنه أحمد بن أبي جعفر القاضي وأبو بكر الخطيب البغدادي، ذكر السبكي أنه توفي سنة 440هـ/1048م إلا أن الخطيب البغدادي يذكر أنه سمع عنه في بيت المقدس سنة 446هـ/1054م وذكر أنه توفي في بيت المقدس في محرم سنة 448هـ/1056م وهذا هو الأرجح. ينظر: السبكي، المصدر السابق ، ج4، ص 293-294. الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج6، ص 315-316.

³ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني الشافعي الملقب بركن الدين، ارتحل في الحديث، وحدث عنه أبو بكر البيهقي وأبو القاسم القشيري وغيرهم، له عدة مصنفات منها: جامع الخلي في أصول الدين والرد على الملحدين، بنيت له بنيسابور مدرسة مشهورة، توفي بنيسابور يوم عاشوراء 418هـ. ينظر: الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج2، ص 234. السبكي، المصدر السابق، ج4 ، ص 314. ابن الطباخ الحلبي، المصدر السابق ، ج4، ص 255.

⁴ - هو الشاعر الفارسي المتفلسف المتشيع ناصر خسرو صاحب كتاب الرحلة المعروفة بسفرنامه، وهي رحلة تقع حوادثها بين سنة 437هـ - 444هـ/1045م - 1052م ، يجول صاحبها في بلاد إيران مبتدئاً من مرو في خراسان ماراً بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق، ثم يعود إلى بلخ في خراسان. ينظر: ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة : يحيى الخشاب، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1993 ، ص 9، 8.

⁵ - نفسه، ص 45.

⁶ - محمود قمبر، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، دار الثقافة، قطر، 1985، ص 22.

إلى جانب مدرسة الإمام أبي الحنيفة التي أنشئت بجوار مشهد أبي حنيفة، وأسسها أبو سعد محمد بن منصور المستوفي(ت494هـ/1101م)¹ في جمادى الثانية 459هـ/1163م، حيث تم افتتاحها قبل افتتاح المدرسة النظامية بخمسة أشهر².

ومن خلال ما سبق نجد أن المدارس النظامية لم تكن أول المدارس في الإسلام ، بل سبقتها مدارس أخرى انتشرت بشكل واسع في إقليم نيسابور مقارنة مع الأقاليم الأخرى، والفرق بين هذه المدارس، هو أن المدارس النظامية امتازت بدفع الأجور للعاملين بها من أساتذة وموظفين والوافدين إليها من الطلبة على مدار السنة وكانت تابعة للدولة من خلال تحديد مقرراتها ونظمها وأساتذتها وأهدافها .

وبناء على ذلك فقد أجمع المؤرخون على أن الازدهار الحقيقي لإنشاء المدارس في التاريخ الإسلامي كان على عهد الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، الذي أنشأ عدة مدارس في مختلف أقطار المشرق الإسلامي والتي عرفت بالمدارس النظامية .

2-أهم المدارس النظامية :

نظرا لأهمية المدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك فقد ذكرها كثير من المؤرخين في مؤلفاتهم، بحيث أنها لم تقتصر على بغداد بل حرص على بنائها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة

¹ - هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفي شرف الملك الخوارزمي الحنفي، كان متعصبا للحنفية فوقف لهم مدرسة بمرو ووقف عليها كتبا كثيرة وبنى مدرسة ببغداد عند باب الطاق وبنى القبة على قبر أبي الحنيفة، وبنى أريطة وعمل خيرا كثيرا، توفي سنة 494هـ / ينظر: ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص551.

² - سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 134.

بالموصل، ويقال أن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وله بيمارستان ورباط ببغداد¹.

وقد علق المؤرخ أبو شامة(ت665هـ/1268م) على اتساع نطاق هذه المدارس بقوله: "ومدارسه في العالم مشهورة، لم يخل بلد منها حتى جزيرة ابن عمر² التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها، بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين"³.

يتضح من خلال المواقع الجغرافية التي أنشئت فيها المدارس النظامية في المشرق الإسلامي، أن توزيعها لم يكن اعتباطاً ، فمعظمها أنشئ إما في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه الفكري، كبغداد وأصفهان، حيث كانت الأولى عاصمة للخلافة العباسية السنية، ويتركز فيها عدد كبير من المفكرين السنيين أيضاً، والثانية كانت عاصمة للسلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملكشاه أو عصر نظام الملك، وإما أنشئ في بعض المناطق التي كانت مركزاً للنشاط الشيعي الباطني الإسماعيلي في تلك الفترة كالبصرة والكوفة ونيسابور وطبرستان وخوزستان⁴.

إن هذا التوزيع الجغرافي يدل بوضوح على أن وضع المدارس النظامية في تلك المواقع الجغرافية السابقة لم يأت صدفة، وإنما كان أمراً مقصوداً ومدرّساً حتى تقوم

¹-الذهبي ، سير أعلام النبلاء، ج19، ص 94. السبكي ، المصدر السابق، ج4 ، ص 313-314.

² -جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما مسير ثلاثة أيام ، أول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطاب فسميت كذلك نسبة إليه ، وهذه البلدة يحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة ، فعُمل هناك خندق أُجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع جوانبها .ينظر: الحموي ، معجم البلدان، ج2، ص138.

³- أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 98.

⁴- صدام جاسم البياتي ، المقال السابق، ص12. عمر فلاح عبد الجبار، الوزير السلجوقي نظام الملك إصلاحاتها الإدارية وإسهاماته الفكرية، مجلة الجامعة العراقية، العدد 28 ، العراق، د ت، ص 354.

بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق، وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني¹.

ومن أعظم المدارس النظامية، نظامية بغداد الذائعة الصيت، التي تُعدُّ من أهم مدارس أهل السنة في عصر السلاجقة، فمقارنة بالنظاميات الأخرى اهتم المؤرخون بنظامية بغداد فسجلوا أخبارها ورصدوا أحوالها وتتبعوا نشاطها وذلك بسبب وجودها في عاصمة الخلافة، إضافة إلى ما توفر لها من إمكانيات مادية وبشرية، في حين أهملوا النظاميات الأخرى فأوردوا أخبارها موجزة مختصرة².

وقد ذكر الطُّرُوشِيّ مقالة مفادها أن نظامية بغداد بالذات، جاءت فكرة إنشائها من طرف رجل يقال له أبو سعيد الصوفي³، حيث قصد هذا الأخير نظام الملك وأشار عليه أن يبني له مدرسة في بغداد يخلد بها اسمه، ولا يكون في معمر الأرض مثلاً، فأذن له وأطلق له الأموال لذلك⁴، فشرع في بنائها في ذي الحجة سنة 457هـ/ 1064م⁵، ونُقِضَ لأجل بنيانها بقية الدور التي كانت للناس بمشرعة الزوايا، والفريضة وباب الشعير ودرج الزعفراني، وانتهى العمل من المدرسة النظامية في ذي القعدة سنة 459هـ/ 1066م، وتقرر التدريس بها يوم السبت 10 ذي القعدة، وعين لذلك الشيخ أبو إسحاق الشيرازي (ت 476هـ- 1083م) فلم يحضر⁶، فتولى

¹ - عبد المجيد بدوي ، المرجع السابق ، ص 180.

² - نفسه ص 189.

³ - أبو سعيد أحمد بن محمد بن دوست دادا النيسابوري نزيل بغداد ، حج عدة مرات وكان نظام الملك يحترمه ويعظمه، باع أملاكه بنيسابور وبنى رباطاً توفي سنة 479هـ/ 1086م، ينظر: الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 18، ص 490-491. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 5، ص 344.

⁴ - الطرطوشي، المصدر السابق، ج 2، ص 516.

⁵ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج 10، ص 12. سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص 124.

⁶ - وعن سبب امتناع الشيرازي التدريس في المدرسة في بادئ الأمر أنه قال: "إني لم أطب نفساً بالجلوس في هذه المدرسة لما بلغني أن أبا سعد القاشي غصب أكثر آلاتها ونقض قطعة من البلد لأجلها". ينظر: ابن الجوزي ، المنتظم، ج 16، ص 103.

التدريس بها أبو نصر بن الصباغ(ت477هـ/1084م) مدة عشرين يوما، ثم جلس الشيخ أبو إسحاق بعد ذلك للتدريس¹.

وقد خصَّصَ نظام الملك راتبه الذي يُقدَّرُ بعُشر مال السلطان لبناء المدارس²، فقد أنفق على بناء المدرسة النظامية ببغداد وحدها ستين ألف دينار، وبنى حولها أسواقا لتكون مصدر دخل ثابت لها، كما ابتاع ضياعا وحمامات ومخازن ودكاكين وجعلها وقفا عليها³، لتكوّن نظاما ثابتا لنفقاتها .

والمدرسة النظامية كانت تقع على الجانب الشرقي من بغداد على شاطئ دجلة فوق دار الخلافة العباسية بينها وبين المستنصرية⁴.

3- التنظيم والتعليم في المدارس النظامية:

أسس نظام الملك المدارس التي حملت اسمه في مدن الدولة السلجوقية، وتعدُّ هذه المدارس من أوائل المدارس المنظَّمة ظهورا في تاريخ الإسلام، وكان نظام الملك يُشرف

¹-ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 91-103. ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 489-492. ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص 375-380. الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج10، ص13. سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص135.

² - القزويني ، المصدر السابق ، ص412.

³- الطرطوشي ، المصدر السابق ، ج2، ص516.

⁴-بنيت المدرسة المستنصرية بعد النظاميات في عهد الخليفة المستنصر بالله أبي جعفر العباسي سنة631هـ/1233م، كمحاولة منه للتخفيف من حدة التعصب المذهبي يدرس فيها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس، وجلس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار ، لابسا ثياب السواد، على يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة. ابن بطوطة، المصدر السابق، ج1، ص167. بدوي ، المرجع السابق ، ص 202.

بنفسه على هذه المدارس كلما سمح له الوقت بذلك، فيختار لها المدرسين وينفق عليها، وكان مجمل ما يُنفق عليها يُقدَّر بستة مائة ألف دينار سنوياً¹.

ويمكننا القول أن المدارس النظامية شملت نطاقاً واسعاً من العالم الإسلامي في تلك الفترة كلها تحت رعاية نظام الملك حيث كان ينفق عليها ويخصص لها الجرايات رغم اتساع نطاقها، وقد علق الطرطوشي على ذلك بقوله: "وعم بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى، وديار بكر والعراق وخراسان بأقطارها، إلى سمرقند من وراء نهر جيحون، مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد في زاويته إلا وكرامته شاملة له وسابغة عليه"².

وكانت المدرستين النظاميتين في كل من بغداد ونيسابور المدرستين الرئيسيتين من بين المدارس الأخرى، وقد درّس بهما وتخرّج منهما خيرة علماء ذلك العصر، والعصور الموالية حتى سقوط الخلافة العباسية، وأمدتا المدارس الأخرى بالمدرّسين³.

أ- شكل المدرسة⁴:

لقد اتخذت المدرسة في بنائها شكلاً مستطيلاً تحيط به قاعات لها قباب، وفي الجانب المواجه للقبلة يوجد المصلى، وكانت تشتمل على طابقين من البناء، وفي الأروقة الملحقة بالمبنى كانت توجد أماكن لنوم المدرسين والدارسين وكان عدد الغرف فيها ثلاثمائة وخمسا

¹ - الطرطوشي ، المصدر السابق ، ج2، ص514.

² - نفسه، ص 514.

³ - عبد الرحمن السنيدي، نظام الملك ودوره في الازدهار الحضاري للدولة السلجوقية، مجلة عالم الكتب، ج7، العدد4، السعودية، 1986، ص 521. حول أهم مُدرّسي النظامية ينظر : الملحق رقم 5 ، ص498.

⁴ - ذكرت المصادر التاريخية التي أمكنني الوصول إليها المدارس النظامية وعددها، وذكرت فضلها ودورها التعليمي، لكنها للأسف لم تُفصل في شكل بنائها وملحقاتها، فوجدت نفسي مضطراً للاعتماد على المراجع التي يمكن أن تكون قد اعتمدت على الظن والتخمين في ذكر هذه الملحقات التي أهملتها المصادر.

وستين غرفة عدا قاعات التدريس¹، وألحق بها دورات مياه ومطبخ وحمامات ودار للوضوء، وكانت المدرسة مرفوعة الجدران مشيدة الأركان وقد فرشت ساحاتها بالمرمر، وقد سكن غالبية فقهاء ومدرسي وطلاب النظاميات فيها خاصة وأن أكثرهم قصدوها من أماكن بعيدة للتفقه فيها²، والانتفاع من امتيازاتها المالية³ فقد خصص لهم نظام الملك "وظائف مرتبة وإنعامات مقرر⁴".

ب-خزانة الكتب بالنظاميات:

ومن ملحقات المدارس في العصر الوسيط نجد خزائن الكتب، التي كانت عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب والمعلمون، وكانت الكتب مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مجهزة لتسهيل الوصول إليها، وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها فضلا عن خدمة المترددين عليها من طلاب العلم⁵.

وحرصا من نظام الملك على تهيئة المناخ العلمي الذي يساعد الطلبة على الدراسة والبحث، اهتم اهتماما كبيرا بتوفير المراجع العلمية داخل هذه المدارس، فابتاع الكتب بأوفر الأثمان وألحقها بخزائن الكتب التي حوت أصنافا من العناوين في مختلف التخصصات⁶، فكان في كل مدرسة مكتبة عامرة يتولى أمرها قوام على شؤونها يدعى الخازن، فاختار لهذا المنصب من برع في الفقه والأدب والشعر⁷ كأبي يوسف يعقوب بن سليمان

¹ - رفيدة إسماعيل عطا ، بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية 132-656هـ،

أطروحة ماجستير في التاريخ ، جامعة الخرطوم ، 2009، ص 114.

² - عمر فلاح عبد الجبار ، المقال السابق، ص 352.

³ - كان نظام الملك أول من خصص مرتبات للطلبة على غرار الأساتذة. السبكي، المصدر السابق ، ج4، ص314.

⁴ - ابن النظام الحسيني، المصدر السابق، ص57-58.

⁵ - أمينة البيطار، سهيل زكار ، المرجع السابق ، ص 278-279.

⁶ - ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج 5، 2483.

⁷ - عمر فلاح عبد الجبار ، المقال السابق ، ص353.

الاسفراييني(ت498هـ/1104م) وأبي زكريا التبريزي(ت502هـ/1108م)¹، وقد أجرى نظام الملك للخازن راتباً خاصاً على غرار الطلبة والمعلمين².

وبالإضافة إلى وظيفة الخازن كان هناك المشرف على المكتبة وكان حضوره من يوم إلى آخر لوقت قصير، ومرتبته أقل من راتب الخازن، حيث يتقاضى الخازن سبعة دنائير والمشرف ثلاثة دنائير في الشهر³، ومن بين من تولى مهنة المشرف في النظامية أبو جعفر عمر بن أبي عبيد الله الدباس، وقد مكث بنظامية بغداد إلى غاية وفاته سنة 610هـ/1213م⁴.

وفي هذا السياق نخص بالذكر خزانة المدرسة النظامية في بغداد التي تنوعت مصادر الكتب بها، فقد حفلت بأصناف المؤلفات التي كانت ترد إليها بالشراء والإهداء والوقف، وقد أوقف نظام الملك على هذه المدرسة كتباً كثيرة، و لذلك فقد حوت الخزانة كل طريف ونفيس من أمهات الكتب وأعلاق المخطوطات، ومن المؤكد أنها حوت على مجلدات كثيرة لضرب الفكر الشيعي بحكم أن الغاية من بناء هذه المدارس هو مواجهة الفكر الشيعي، ولكن من المؤسف أن هذه الخزانة الحافلة التي ازدانت بها المدرسة النظامية

¹ - هو أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي نسبة إلى تبريز وهي من أشهر بلدان أذربيجان، وهو أحد أئمة اللغة وكانت له معرفة واسعة بالأدب والنحو، أخذ عن أبي العلاء المعري، ارتحل إلى دمشق ثم بغداد ثم مصر للاستزادة في العلوم وسماع الحديث، وُلِّيَ تدريس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب بها وانتهت إليه الرياسة في اللغة والأدب، توفي في جمادى الأولى 502هـ/1108م وله من العمر إحدى وثمانون سنة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص2823-2824. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص269-271، السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص21.

² - السبكي، المصدر السابق، ج4، ص319.

³ - أحمد عقل الساري السالم، تمويل مدارس بغداد في العصر العباسي 132-656هـ/750-1258م، مذكرة ماجستير في أصول التربية، الأردن، 1993، ص46.

⁴ - عبد الكريم حتاملة، المقال السابق، ص143.

تشنت شملها وتبعثرت كتبها بتوالي الأحداث عليها، فلسنا نجد اليوم في خزائن الكتب المفهرسة شيئاً من بقايا كتب هذه الخزنة المندثرة¹.

ج . الالتحاق بالمدرسة :

التحق الطلبة بالمدارس النظامية دون سن محددة للقبول، فقد يكون من طلبتها ابن الثلاثين أو أكثر، إلا أنه لا يقل عن العشرين، بحكم أنه مرّ في تكوينه بالكتاب ثم المسجد فإذا انتمى لإحدى النظاميات انتظم في سلك طلبتها وتلقي دروسها ، وليس هناك وقت محدد للمادة التي يستغرقها الدرس أو عدد الدروس اليومية²، وقد أشار ابن الجوزي في حوادث سنة 528هـ/1133م إلى أن أربع سنوات هي أقل مدة يمكن للطالب من خلالها أن يصل إلى مرحلة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن الجلوس بين يدي أستاذه³

د - المذهب المعتمد للتدريس بالنظاميات:

كانت المدارس التي أسست في القرن الخامس الهجري مدارس أحادية المذهب تقرّدت بتدريس مذهب واحد، ذلك أن التنافس المذهبي الذي كانت تعيشه بغداد حاضرة الخلافة العباسية قد امتدّ إلى بلاد ما وراء النهر⁴.

فقد حرص نظام الملك كل الحرص على أن يكون المدرسون بالنظاميات على المذهب الشافعي، يقول ابن الجوزي: " وفي كتاب شرطها أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً و فرعاً، وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن يكون على أصحاب

¹ - محمد على الجندي ، خزانة المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة الفيصل ، العدد 212، السعودية ، 1994، ص 116.

² - الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص 277.

³ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 17 ، ص 285.

⁴ - على محمد الصلابي، دولة السلاجقة، ص 337، 338.

الشافعي أصلاً وفرعاً ، وكذلك شرط في المدرس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب¹، واستناداً إلى ذلك كان من بين الأهداف الأساسية لبناء النظاميات أن نظام الملك كان يسعى لنصرة المذهب الشافعي على حساب المذاهب الأخرى².

هـ - المواد المعتمدة للتدريس في النظاميات :

عُنيت النظاميات بتدريس العلوم الدينية على وجه الخصوص، وقد كان هذا الاتجاه استجابة لروح العصر الذي أنشئت فيه هذه المدارس، فإن العراق وبلاد الشام ومصر كانت قبل إنشاء المدارس يحكمها البويهيون والعبيديون، وكلا الأسرتين ذات مذهب شيعي، بل إنهما بذلتا وسعهما لنشر المذهب الشيعي، فقام السلاجقة السنة على أنقاض الدولة البويهية وأنشؤوا المدارس لمحو ما غرسه الشيعة في نفوس الناس من عقائد زائفة وباطلة، ونشروا عقائد أهل السنة³.

وعليه، فإن المواد التي كانت تُدرّس في هذه المدارس قد اقتصرت على العلوم الشرعية بمختلف تخصصاتها وكذا النحو والأدب العربي، أما العلوم الأخرى كالحساب والطب والمنطق فلم تكن تُدرّس في هذه المدارس، إلا أننا نجد أن الأستاذ عمر فلاح عبد الجبار يذكر في مقالته أنه وجد بعض ذوي الاختصاصات العلمية الذين تردّدوا على المدرسة للتفقه فيها وإلقاء المحاضرات في اختصاصاتهم، فمنهم من اشتهر بصناعة الطب ومنهم من اشتهر بعلم الحساب والفرائض⁴، لكننا لم نعثر على ما يدل على أن المدرسة خصصت قسماً بهذه العلوم، وعليه يمكن القول أن التعليم فيها كان على عدة

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص304.

² - خالد كبير علّال، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرن 5-6 هـ، ط1، دار الإمام مالك ، الجزائر ، 2005. ص 133.

³ - أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 98.

⁴ - عمر فلاح عبد الجبار، المقال السابق ، ص 355.

أقسام خاصة بالعلوم الشرعية، فكان هناك قسم للقراء ودراسة القرآن، وقسم لتعليم الفقه والأصول، وآخر لتدريس الحديث والوعظ ، وفرع لتدريس اللغة العربية وآدابها، فقد شرط نظام الملك أن يكون في النظامية مقرئ القرآن ، ونحوي يدرس العربية¹.

و- تعيين المدرسين بالنظاميات:

كان المدرسون في المدرسة النظامية يُعينون بمراسيم خاصة، والظاهر أنّ هذا النوع من المراسيم لم تظهر إلا بعد إنشاء المدارس في هذا العصر، وبعد أن خصصت المرتبات للمدرسين، وكان الخلفاء أو السلاطين السلاجقة أو الوزراء هم من يعينون الأساتذة في المدرسة النظامية²، فنجد نظام الملك يختار الأساتذة بعناية تامة، فكان لا يُجيز تعيين الفقيه إلا بعد أن يستمع إليه ويرى فيه غزارة علم وقوة منطق، أو صاحب حُجة في الجدل والمناظرة، فيوجهه إلى المسلك الذي يراه أهلاً له، كما كان الخليفة المقتدي (467-487هـ/1075-1094م) يزور المدرسة ويقوم أحياناً بتعيين الأساتذة فيها بنفسه، ولثقتَه بمدرسي النظامية فقد اتخذ بعضاً منهم رُسلًا له إلى ملوك الآفاق في الأمور المهمة التي تتعلق بشؤون البلاد³.

وكان إذا صدر الأمر بالتعيين سار المُدرس إلى الجهة التي أُختير لها ، فإذا كان في بغداد توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يُوافق على التعيين ثم يُخلع عليه طَرحَة زرقاء وبعد ذلك يُحتفل به في المدرسة حيث يُقدم لأول مرة ويحضر درسه كبار رجال

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16 ، ص 304.

² - مريزن سعيد مريزن عسيري ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، 1985، ص 263.

³ - عمر فلاح عبد الجبار ، المقال السابق، ص 354.

الدولة والأساتذة والشعراء وحين ينتهي من درسه تُلقى الخطب والقصائد في الترحيب به والثناء عليه¹.

وكان المُدرّسون على درجات مختلفة، فمنهم من يُعتبر المُدرّس الأول في المدرسة ويقوم بإدارة المدرسة، إضافة إلى إلقاء الدروس وذلك بعد أن يبلغ مرحلة عالية من الشهرة في الاطلاع والتأليف، وهناك مُدرّسون يقتصر دورهم على إلقاء الدروس، كما أن هناك مُعيدين ووعاظا ومشرفين على خزائن الكتب التي ألحقت بالمدارس النظامية²، وقد خُصص لكل هؤلاء رواتب شهرية دائمة³، فنظام الملك هو أول من سنَّ هذه السُنَّة الحسنة.

ولم يكتف نظام الملك بتعيين الأساتذة الدائمين، بل إنَّه لأول مرة أوجد نظام الأساتذة الزائرين، فكان يُرسل إلى نظامية بغداد بعض العلماء في المذهب الأشعري كأبي نصر بن أبي القاسم القشيري(ت514هـ/1072م) والشريف أبي القاسم البكري المغربي (ت467هـ/1083م)، فيقومون بالوعظ وإلقاء الخطب والمحاضرات فيها⁴.

كما لم يقتصر اهتمام نظام الملك على تعيين العلماء والمدرسين بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بزي المدرس حيث اختار له زيا رسميا فكانت السراويل الفارسية الواسعة

¹ - صدام جاسم البياتي ، المقال السابق. ص 13 .

² - حسين أمين، الوظائف التدريسية والإدارية في المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد 1، بغداد ، 1970.ص 5.

³ - القزويني ، المصدر السابق ، ص 412.

⁴ -وكثيرا ما كانت تحدث فتن بين هؤلاء العلماء الشافعية والحنابلة بسبب التعصب المذهبي. ينظر:ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج8، ص413 و 428،الذهبي، تاريخ الإسلام ، ج32، ص14، نادية بنت عبد الصمد بن عبد الكريم، دور العلماء في الحياة العامة في العراق خلال العصر السلجوقي، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة أم القرى، السعودية، 2014،ص 135.

والقميص، وكان معه القفطان والجبة أو العباءة المغطاة بالطيلسان والعمامة السوداء هي الزي الرسمي والضروري للمدرسين والفقهاء¹.

ز- طريقة التدريس بالانظاميات:

أما عن كيفية إلقاء الدروس بالانظاميات فلقد نقل لنا ابن جبير (ت614هـ/1217م) تفاصيل حلقات العلم التي حضرها بالانظاميات أثناء زيارته بغداد في صفر 580هـ/1184م، وكانت طرقها تتشابه رغم اختلاف الأستاذ المحاضر²، وكان أول مجلس حضره للشيخ الإمام رضي الدين القزويني الشافعي يوم الجمعة 5 صفر 580هـ/1184م، فيقول: "فصعد المنبر - أي الشيخ رضي الدين -، وأخذ القراءة أمامه في القراءة كراسي موضوعة ،... ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم على معانيه، ثم رشقته شأبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر، ودُفعت إليه عدت رقاع منها، فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجمع".³

فكان الشيخ يعتلي المنبر ويتلو آيات من الذكر الحكيم ثم يلقي درسه في التفسير والحديث مستدلاً بالقرآن والسنة ومستشهداً بآراء السلف الصالح وكبار العلماء، ثم يفتح المجال للسؤال الشفهي فيجيب عن أسئلة الحضور وبعدها ينتقل إلى الإجابة على الأسئلة

¹ - أحمد عقل الساري السالم ، المرجع السابق ص45.

² - ابن جبير، المصدر السابق ، ص 196-200

³ - نفسه ، 195.

التي وصلته في قصاصات إلى أن ينتهي منها، وأحياناً يختم درسه بالوعظ والتذكير وهكذا ينتهي الدرس.

والظاهر أن قاعات الدرس كانت على شكل مراقي - درج - حيث يُكْرَرُ المعيد الدرس في كل مرقى لإيصال المعلومات للطلبة¹.

ولقد كان تولّي التدريس بالمدرسة النظامية بأي فرع من فروعها منصبا مرموقاً، يطمح إليه الكثير من العلماء، وقد استغل الشافعية ذلك الأمر إذ دعوا من العلماء من لمسوا فيهم الخبرة والمكانة إلى التدريس بها على شرط التخلي عن مذهبهم².

وقد لاحظنا أن بعضهم كان يُغيّر مذهبه إلى مذهب الإمام الشافعي ليحظى بمنصب التدريس بالنظامية، كما حصل لأبي منصور الجواليقي (466-540هـ / 1073م-1145م) الذي كان من أتباع المذهب الحنفي، ومن المحتمل أنه وافق على أن ينتقل إلى تبعية مذهب الإمام الشافعي بحكم أنه كان مدرسا للعربية في المدرسة النظامية في بغداد الموقوفة على أصحاب المذهب الشافعي³.

ومن أجل ذلك انتقى نظام الملك خيرة العلماء والفقهاء للتدريس في مدارس خاصة نظامية ببغداد، بحيث كانوا أعلام عصرهم في علوم الشريعة، ويشير البنداري (ت643هـ/1245م) إلى دقة نظام الملك في هذه الناحية فيقول عنه: "ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان نافذا بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم... فمن

¹ - عمر فلاح عبد الجبار ، المقال السابق ، ص 354.

² - مثل : أبي البقاء بن أبي عبد الله بن أبي البقاء العُكْبَرِي (538-616هـ/1143م-1219م): الذي قال : " جاء إليّ جماعة من الشافعية فقالوا : انتقل إلى مذهبنا و نعطيك تدريس النحو و اللغة بالنظامية ، فأقسمت وقلت : لو أقمتوني وصيبتم عليّ الذهب حتى أتواري، ما رجعت عن مذهبي. ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، تحقيق : عبد الرحمن بن سليمان بن عثيمين ، ج3 ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 1424 ، ص 232.

³ - ابن رجب ، المصدر السابق ، ج2 ، ص3.

تقرّس فيه صلاحية الولاية ولآه... ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتّب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره، وربما سيّره إلى إقليم خالٍ من العلم ليُحلّي به عاطله، ويحيي به حقه، ويميت به باطله"¹.

ح - منح الإجازة في النظاميات:

أما بالنسبة للإجازة²، فقد يُمنح الطالب عدة إجازات من شيوخ متعددين، والحصول عليها في العادة يكون بناء على طلب يتقدم به لمدرسه بعد أن يُنهي دراسته، وقد أصبحت هذه ضرورة بعد تأسيس النظاميات وانتشار المدارس، فإذا نال إجازته فقد أصبح مهياً لأن يشغل أحد مناصب القضاء أو الإفتاء أو التدريس أو المناظرة، وقد يحظى بأكثر من واحدة منها فيكون قاضياً ومفتياً ومدرساً في آن واحد، أو أن يكون حراً، فيعمل لأن يكون محدثاً أو متكلماً أو واعظاً أو خطيباً في أحد المساجد³.

وهذا ما كان يهدف إليه نظام الملك، تكوين طلبة أكفاء قادرين على تولي المناصب الحساسة في الدولة، المناصب التي من شأنها أن تدعم جهود الدولة في مواجهة الأخطار المحدقة بها خاصة الفرق المناوئة كالشيعة .

¹ - البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 219.

² - الإجازة لغة : مصدر أجاز، إعطاء الإذن ، وأجاز له أذن له، والإجازة في الاصطلاح: إذن و تسويق للطالب أو العالم بالتدريس أو التحديث، وهو اصطلاح اتخذه علماء فن مصطلح الحديث وعلماء الفقه والنحو والأصول، وخاصة علم القراءات-، وذلك أن يأذن ثقة من الثقات لغيره بأن يروي عنه حديثاً أو كتاباً " سواء كان ذلك الكتاب من تصنيفه أم كان يرويه عن شيوخه بالإسناد إلى مؤلفه، " ويشترط لصحة الإجازة أن يكون الفرع معارضاً بالأصل حتى كأنه هو، وأن يكون المجيز عالماً بما يجيز به، ثقة في دينه وروايته، معروفاً بالعلم ، وأن يكون المستجيز من أهل العلم، متسماً بسمته حتى لا يوضع العلم إلا عند أهل . ينظر: ابن منظور، المصدر السابق، ج 5 ، ص 326 . أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 250. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، القاموس المحيط، ج 2، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص168.

³ - الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص 277.

وقد نقد أحد الباحثين المعاصرين طرق تسيير النظامية بعد أن أكد تقدم نظم التدريس وتطور أهدافها وأساليبها، لكنها كما يقول: " لا تخلوا من بعض السلبيات والتي من أهمها: منح الأجور للمعلمين والطلبة مما أدى إلى الابتعاد عن مثوبة الله وإرضائه، بالإضافة إلى التركيز في التعليم على نمط خاص من الدراسات في العقائد والعلوم على مذهب الشافعي في الفروع والأشعري في الأصول، وهو طريق لا يمكن للمعارف فيه أن تتسع وللفكر أن ينمو، ما لم تعش في جو حر ونقد نزيه"¹.

ويبدو أن نقده لم يكن في محله، خاصة من ناحية الأجور، فقد أجاز العلماء كفل المعلم من الناحية المادية " لئلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء فإن منعوا الإجازة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم"²، وقد كان لهذه السياسة دور كبير في جلب خيرة العلماء وتخرج خيرة الطلبة، الذين أستخدم بهم في تسيير أمور البلاد والعباد، أما بالنسبة لاقتصار المدرسة على تدريس المذهب الشافعي فقد كانت هناك مدارس أخرى لبقية المذاهب منتشرة في بغداد وخارج بغداد تُغطي هذا النقص، وإن لم تكن بنفس حجم النظاميات وهذا دليل أن المدارس في تلك المرحلة كانت بمثابة معاهد متخصصة، لكن الجانب السلبي في ذلك أنها زادت من حدة التعصب المذهبي الذي كان على أشده في تلك المرحلة.

ط- أهم مُدرّسي المدارس النظامية وخريجها³: التحق أكبر المدرسين بالمدارس النظامية، فتولوا مهمة التدريس بها وخاصة نظامية بغداد، فتخرج على أيديهم خيرة الطلبة الذين كان لهم دور كبير في إنعاش الحياة الفكرية في العالم الإسلامي.

¹ - عبد الكريم حتاملة، المقال السابق، ص 129.

² - الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب، (إشراف: محمد حجي وآخرون)، ج8، وزارة الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، المغرب الأقصى، 1981، ص236.

³ - أنظر جدول بأسماء مُدرّسي النظاميات الملحق رقم 05 ، ص498.

كان أول من تولى التدريس في نظامية بغداد هو أبو نصر بن محمد بن الصباغ (ت477هـ/1084م) وبع توليه بعشرين يوما تولى التدريس بها الفقيه الشافعي أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي (ت476هـ/1083م)، وقد بنيت المدرسة النظامية تحت رعايته، وكان كبير القدر معظما محترما، وله مؤلفات كثيرة أهمها: التنبيه والتبصرة وطبقات الفقهاء¹، وبعد وفاة هذا الأخير عاد أبو نصر للتدريس وهو صاحب كتاب الشامل والكامل وكفاية المسائل².

كذلك تولى منصب التدريس بالنظامية أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون (ت478هـ/1085م)، عينه مؤيد الملك بن نظام الملك³، وبعد ذلك تولى الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) سنة 484هـ/1091م، وكان الغزالي من أشهر الأساتذة الذين درسوا في نظامية بغداد في عهد نظام الملك⁴. وسنتطرق بالتفصيل للإنتاج العلمي للغزالي وعلاقته بالشيعة في العنصر الخاص بالمد الحضاري للمدارس النظامية ممن حضر عنده أبو الخطاب وابن عقيل وهما من كبار الحنابلة، فتعجبوا من فصاحته.

كما تولى شيخ الشافعية إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت478هـ-1085م)⁵ صاحب التصانيف نظامية نيسابور، وبقي ثلاثين سنة فيها بدون مزاحم، سلم له المحراب

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم، ج16، ص228-229. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص432. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 518-519.

² - ابن الأثير، الكامل، ج8، ص437، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص237.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6 ، ص 521.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج17، ص135. عبد الكريم حتاملة، المقال السابق ، ص 129.

⁵ -نسبة إلى جوين احدى قرى نيسابور، الملقب بإمام الحرمين لمجاورته مكة أربع سنين و لد سنة 419هـ/1027م ، من مؤلفاته : نهاية المطلب في دراية المذهب، البرهان في أصول الفقه،...توفي في 25 ربيع الثاني 478هـ/1085م. ابن كثير المصدر السابق ، ج6 ، ص 521. السمعاني ، المصدر السابق ، ج3، ص 386.

والمنبر للخطابة والوعظ والتدريس، وكان يقعد بين يديه كل يوم ثلاثة مئة فقيه¹، تخرّج على يده طلبة نجباء وأصبحوا علماء أجلاء يشهد لهم العصر بتقنهم في العلم والتأليف أمثال: الخوافي وأبي حامد الغزالي (ت505هـ) والكنيا أبي الحسن هراسي (ت504هـ) والحاكم عمر النوقاني رحمهم الله².

إلى جانب أبي النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي الشافعي (ت563هـ/1167م) العالم المعروف الذي ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بلغ درجة من العلم حتى لقب بمفتي العراقيين، وقد استدعي للتدريس بالمدرسة النظامية، فدرس بها مدة سنتين، واشتغل بالوعظ والتذكير والدعاء إلى الله تعالى والتحذير، وبنى ببغداد رباطاً ومدرسة³.

ومنهم بهاء الدين يوسف بن شداد (ت632هـ/1235م)⁴، وهو فقيه من فقهاء النظامية، اشتغل فيها في مرتبة معيد مدة أربع سنوات⁵، له كتاب شهير اسمه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية وهو من أدق ما دون عن صلاح الدين الأيوبي بحكم مراقفته له.

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 521، 522.

² - السمعاني، المصدر السابق، ج 3، ص 386.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 638، ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 346.

⁴ - هو بهاء الدين أبو العز يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الحلبي الشافعي، ولد بالموصل سنة 539هـ/1144م، قرأ القراءات والعربية بالموصل، سمع الحديث من جماعات كثيرة ببغداد وغيرها، فبرع في الفقه والعلوم، وأعاد بالنظامية في حدود سنة سبعين وخمسائة، زار الشام واتصل بصلاح الدين فحظي عنده وولاه قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس، وصنف له كتاباً في فضل الجهاد، ولما توفي اتصل بابنه الظاهر فولاه المناصب وأجزل له العطاء. بنى مدرسة وإلى جانبها دار حديث وقصده الطلبة للدين والدنيا. توفي بحلب في 4 صفر 632هـ/1234م من مؤلفاته: "دلائل الأحكام"، و"الموجز الباهر" في الفقه، وكتاب "ملجأ الحُكام" و"سيرة صلاح الدين". ينظر: ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 7، ص 276-277.

⁵ - ابن خلكان، المصدر السابق، ج 7، ص 87.

وعلى يد هؤلاء العلماء الأفذاذ تخرج خيرة الطلبة ونجباؤهم م ليحققوا الأهداف التي رسمها نظام الملك لهذه المدارس، فعادوا إلى أقاليمهم الأصلية وشرعوا في محاربة الشيعة الباطنية عن طريق التعليم والفتوى والخطابة والوعظ، وينقل السبكي(771هـ/1369م) عن أبي إسحاق الشيرازي-أول مدرس بنظامية بغداد- قوله : " خرجت إلى خراسان ، فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيهما أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي " ¹.

وقد كان لخريجي المدارس النظامية أثر كبير في توجيه الحياة الفكرية والسياسية في ديار الإسلام، نذكر منهم على سبيل المثال :

أبو المظفر السمعاني(ت489هـ/1095م)، الذي كان في البداية حنفيا كوالده وتلقى العلم عليه، ثم رحل إلى بغداد حيث انتقل إلى مذهب الشافعي بعد أن درس في المدرسة النظامية على يد أبي اسحاق الشيرازي وابن الصباغ ، وبسبب تحوله عن مذهبه تعرض لمضايقات فرحل إلى طوس ثم نيسابور واستقبله نظام الملك وسمح له بالوعظ والتذكير في مدرسته، فمكث بها فترة ثم عاد إلى مرو وصلح حاله ودرّس بها في مدرسة الشافعية التي أوقفها عليه محمد بن منصور القشيري(ت494هـ/1100م)، وكان إماما في شتى أنواع العلوم الإسلامية والعربية². وكان شوكا في أعين المخالفين ، وحجة لأهل السنة³.

ابن عساكر مؤرخ الشام (ت571هـ/1175م)⁴ عندما سمع بنظامية بغداد سارع إليها طلبا للعلم، وسمع الدروس بها وبعد رجوعه إلى بلاده ألف كتابه المشهور تاريخ

¹ - السبكي ، المصدر السابق ، ج3، ص89.

² - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص544.

³ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج19، ص 116.

⁴ - هو علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الشافعي، ولد سنة 499هـ/1105م، رحل إلى بلاد كثيرة وسمع الكثير من نحو ألف وثلاثمائة شيخ وثمانين امرأة، وتفقه بدمشق وبغداد، أعرض عن المناصب والأمرء، كان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توفي في رجب 571هـ/1175م،=

دمشق¹، وقد عاصر ابن عساكر الشهيد نور الدين محمود وكان له خير السند في تهيئة النفوس للجهاد ضد الشيعة والصليبيين - وتعبئة الصفوف².

ومنهم العماد الكاتب الأصفهاني (ت597هـ/1200م)، والذي أصبح عالما فاضلا، ذكره ابن كثير بقوله: "ولد بأصبهان سنة تسع عشر وخمسمائة، وقدم بغداد، فاشتغل بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع الحديث، ثم رحل إلى الشام فحظي عند الملك نور الدين محمود بن زنكي"³.

وكذلك الشيخ أبي الحسن إدريس بن حمزة بن علي الشامي الرملي (ت504هـ/1110م) تفقه على أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، ثم ببغداد على أبي إسحاق الشيرازي، ودخل إلى خراسان ثم استقر بسمرقند حيث أسند إليه التدريس بها إلى أن توفي، وكان من فحول المناظرين⁴.

وكان منهم أيضا أبي الحجاج يوسف عبد العزيز اللخمي الميورقي (من ميورقة شرقي الأندلس)، تفقه في نظامية بغداد على أبي الحسن الطبري المعروف بالكيالهراسي، ثم رحل إلى الإسكندرية أقام بها ودرّس بها الفقه الشافعي وعلم الحديث حتى توفي بها سنة 523هـ/1128م⁵.

=خلف العديد من المصنفات أهمها : تاريخ دمشق في ثمانين مجلد ،الموافقات ، الأطراف للسنن الأربعة ، معجم شيوخه، مناقب الشبان ، فضل أصحاب الحديث ، تبیین كذب المفتری علی الشيخ أبي الحسن الأشعري .ينظر: ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العلم خان ،ج2، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الهند، 1979. ص 13-15، ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج6، ص395-397.

¹ - حاجي خليفة ، المرجع السابق ، ص187.

² - صدام جاسم محمد البياتي، المقال السابق، ص12، 11.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، 85.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم، ج17، ص 121.

⁵ - عبد المجيد بدوي، المرجع السابق، ص 190.

كما لا يمكننا أن نُهمل شخصية محمد بن عبد الله بن تومرت الموحد المعروف بالمهدي (ت 541هـ / 1147م)، الذي تخرج من نظامية بغداد بعد أن تتلمذ على يد كبار مدرسيها مثل الكيا أبي الحسن الهراسي والغزالي والطُّرُوشِي وغيرهم¹، ثم رجع إلى بلاده وأقام دولته بها².

4- دور المدارس النظامية في مواجهة الفكر الشيعي في القرن 5-6هـ / 11-12م:

حرص نظام الملك من خلال إنشائه للنظاميات على ترسيخ المذهب السني في بغداد وغيرها من البلدان التي خضعت للدولة السلجوقية، وذلك بطريقة هادئة تؤدي لتصحيح الاتجاه الفكري لدى عامة الناس وخاصتهم، إذ أن التعليم والقضاء والخطابة تعد الركيزة الأولى في توجيه الحياة الفكرية لأي مجتمع من المجتمعات³، فإلى أي مدى ساهمت المدارس النظامية في مقاومة الوجود الشيعي ؟

تعتبر مقاومة الفكر الشيعي من أهم أهداف المدارس النظامية، وذلك من خلال تخريج طلبة ومعلمين متمكنين ومتشبعين بالفكر السني، ومن ثمَّ ينتقلون إلى أقاليم أخرى من العالم الإسلامي لنشر رسالة النظاميات في مواجهة الفكر الشيعي الباطني، خاصة مصر وبلاد فارس، بحكم أن الأولى كانت معقل الدولة العبيدية الإسماعيلية، والثانية كانت معقل الشيعة النزارية ومركزها قلعة ألموت بقيادة الحسن بن الصباح .

¹ - ابن خلكان ، المصدر السابق، ج5، ص46-55 ، السبكي ، المصدر السابق، ج6، ص109-117.

² - لكنه انحرف عن نهج النظاميات وأهدافها في محاربة البدع و فقد "كان لهجا بعلم الكلام ، خائضا في مزال الأقدام ، ألف عقيدة لقبها بالمرشدة ، فيها توحيد وخير بانحراف فحمل عليها أتباعه، وسماهم الموحدين، ونيز من خالف المرشدة بالتجسيم ، وأباح دمه ، نعوذ بالله من الغي والهوى"، الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج19، ص540-541. وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية الشيعة ، ابن خلدون، المصدر السابق، ص 1668.

³ - نادية بنت عبد الصمد ، المرجع السابق، ص 134.

وقد لاحظنا في العنصر السابق كيف نجح خريجو المدارس النظامية في تجسيد أهدافها بعد عودتهم إلى أقاليمهم الأصلية من خلال التدريس والمناظرة والوعظ والتأليف.

أما الدور الرئيس للمدارس النظامية في مواجهة الفكر الشيعي، فقد تمثل في المناظرات¹ والجدل العلمي التي عقدت بها، وتخرج طلبة متمكنين في علم المناظرة والجدل، فإنه علم مستقل بذاته، يساهم في مواجهة الخصوم خاصة من الشيعة الذين برعوا في هذا المجال .

ولأن نشاط الشيعة قد تراجع أو تقلص في بغداد مقارنة مع الفترة البويهية، فإنه لم تصلنا معلومات حول مناظرات بين السنة والشيعة في نظامية بغداد في القرن الخامس هجري، بل جُل المناظرات كانت بين الشافعية والحنبلية بحكم التعصب المذهبي السائد، وقد كانت هذه ظاهرة سلبية أثرت على إمكانية توحيد الجهود والأفكار لمواجهة الشيعة وزادت من حدة الصراع، لكن الجانب الإيجابي في الأمر أنه من بين العلوم المعتمدة للتدريس في النظاميات علم الجدل والمناظرة ، وذلك من أجل الحرص على تلقين الطلبة هذا العلم للتسلح به في مواجهة الشيعة أثناء عودهم إلى أقاليمهم الأصلية وهناك تبدأ مهمتهم في تحقيق أهداف النظاميات.

¹ - المناظرات: جمع مناظرة ، وهي لغة المقابلة بين اثنين كل منهما ينظر إلى الآخر، أو كل منهما ينظر بمعنى يفكر، والفكر هو المؤدي إلى علم أو غلبة الظن. واصطلاحا هي : المحاوره في الكلام بين شخصين أو فريقين مختلفين يقصد كل واحد منها تصحيح قوله وإبطال قول الآخر ، معتمدين على شتى الوسائل العلمية، والمنطقية وباستخدام الأدلة والبراهين على تنوعها، محاولا كل طرف تقنيد رأي الطرف الآخر، وبيان الحجج الداعية للمحافظة عليها أو عدم قبولها. محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة ، تحقيق: سعود بن عبد العزيز العريفي، ط1، دار علم الفوائد ، مكة المكرمة ، 1426هـ ، ص 139.

فعلى الرغم من أن ظاهرة المناظرات عُرِفَت قبل السلاجقة¹، لكنها بفضل إنشاء المدارس النظامية كانت أكثر انتشاراً في هذا العصر لعدة أسباب منها :

كان لحرص نظام الملك في استقطاب العلماء المتمكنين من علم الجدل والمناظرة للتدريس في تلك المدارس دور كبير في اتساع نطاق المناظرات زمن السلاجقة، فقد كان يدرك أهمية هذا العلم في مواجهة الفكر الشيعي .

فعندما أُعجب نظام الملك بتفوق الغزالي مثلاً على مناظريه، عهد إليه بالتدريس في النظامية، بحيث صارت المناظرات العلمية من المواد الدراسية المهمة ضمن مناهج التدريس في نظاميات السلاجقة²، وكذلك الأمر بالنسبة للإمام الجويني،(ت478هـ/1085م) فقد ذكر ابن خلكان (ت681هـ) أن نظام الملك عهد إليه بنظامية نيسابور ليجلس للخطابة بها وللوعظ والمناظرة³ .

وكان نظام الملك قد اعتاد على السماع والمناقشة، فكان إذا وفد عليه أحد رجال العلم اغتتم فرصة وجوده، فعقد مجلساً للمناظرة بين هذا العالم الوافد وبين أقرانه من علماء عصره، وربما ترأس الجلسة بنفسه أسهم في المناظرة⁴، ومثل هذا حصل في المناظرة التي

¹ - أشهر المناظرات في العصر العباسي كانت في عصر الخليفة المأمون الذي خصص لها يومين في الأسبوع يجلس فيهما لمناظرة العلماء و الفقهاء ، وكان يجلس عنده الفقهاء والمناظرون والعلماء والمتكلمون. ينظر: أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصائح الملوك ، ضبط و تصحيح :أحمد شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1988، ص 116.

² - منى محمد بدر ، المرجع السابق، ص 135.

³ -ابن خلكان، المصدر السابق ج6، ص521.

⁴ - مريزن سعيد، المرجع السابق، ص 196.

جرت بين الإمام أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) وبين عدد من العلماء في مجلس نظام الملك¹.

ومن أسباب انتشار المناظرات العلمية في عصر السلاجقة أيضا كثرة المدارس التي شُيّدت للمذاهب الأربعة، وكان علماء هذه المذاهب يناظرون بعضهم البعض إلى حد حدوث الفتن والاضطرابات²، وهذا ما زاد من حدة التعصب المذهبي الذي شهده العالم الإسلامي في القرن الخامس والسادس هجريين، وقد كان من المفروض أن تُوجّه هذه الجهود لضرب الفكر الشيعي وتخليص العالم الإسلامي من برائثه، بدل الدخول في صراع مذهبي من شأنه أن يضعف وحدة المسلمين ويفكك جهودهم أمام الأخطار المحدقة بهم.

5- المد الحضاري للمدارس النظامية في العالم الإسلامي :

سبق وأن أشرنا إلى أن بناء المدارس في العالم الإسلامي كان قبل إنشاء المدارس النظامية، إلا أن الميزة التي تميزت بها النظاميات هي أنها تكفلت بجميع المصاريف المتعلقة بالمدرسة من مدرسين ودارسين وموظفين، فخصصت لكل منهم أجورا ومسكنا دائما طيلة فترة التكوين، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يعتبرون المدارس النظامية هي أول المدارس التي ظهرت في تاريخ الإسلام³.

الذي يهمننا في الأمر أن سياسة تسيير المدارس النظامية انتشرت في العالم الإسلامي وحذا حذوها كل من أنشأ مدرسة بعدها، فأصبحت معظم المدارس تتكفل بوقف

¹ -ابن خلكان ، المصدر السابق، ج4 ، ص 217. الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج19، ص 323. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج6 ، ص 20.

² -منى محمد بدر ، المرجع السابق..، ص 135.

³ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج10، ص543.

الأوقاف لتوفير مصدر دخل دائم للمدرسة، ونذكر على سبيل المثال المدارس التي ظهرت في بغداد في القرن السادس هجري على اختلاف مذاهبها، فقد ذكرها ابن جببر (ت614هـ/1217م) الذي زار بغداد سنة 580هـ/1184م بقوله: " والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما فيها مدرسة إلا وهي يقصُر القصرُ البديع عنها...ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات مُحَبَّسَة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويُجَرُون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستان شرف عظيم وفخر مخلص¹."

ومن جهة أخرى تُعتبر الرحلة في طلب العلم مرحلة أساسية للاستزادة في العلوم وتحصيل الإجازات من المدارس المشهورة في العالم الإسلامي آنذاك، ونالت المدارس النظامية من الشهرة ما جعلتها قبلة لمعظم العلماء والطلبة من أنحاء مختلفة، وقد توافد هؤلاء من بلاد الشام عامة ومن حلب خاصة إلى نظامية بغداد، لما عُرف عنها من التحاق كبار الفقهاء والمدرسين بها، وقد تأثر الطلبة بتسيير وتنظيم هذه المدرسة بل وحتى بمشروعها الرامي إلى مقاومة الوجود الشيعي المتنامي في المنطقة جراء توسع الدولة العبيدية على حساب أملاك الخلافة العباسية، ولهذا نجد أن خريجي هذه المدارس حملوا في أنفسهم عظمة هذه المدارس وقيمتها وحاولوا تجسيدها في مؤلفاتهم وبلدانهم.

وكانت مصر وبلاد الشام وجهة للعلماء في عصر السلاجقة، بحكم أنها كانت تحت الحكم العبيدي الشيعي الذي أخذ كيانه في التضعع، ودب الخلاف في صفوفه بسبب تنافس الوزراء على الحكم وتجريد الخليفة من صلاحياته، هذا الوضع سمح بنوع من حرية التمثيل والاعتقاد بعد أن كان المذهب الشيعي الإسماعيلي هو الغالب، فقد انفسح المجال نسبياً أمام أهل السنة لنشر الفكر السني، فتولى سنيون الوزارة للخلفاء العبيديين

¹ - ابن جببر ،المصدر السابق ، ص 205.

وأعلنوا تبعيتهم للسلطين السلاجقة وولائهم للمذهب السني، وأكبر نموذج على ذلك الوزير العبيدي أبو الحسن اليازوري (ت450هـ/1058م) -وزير الخليفة المستنصر بالله (427-487هـ/1036-1094م) - الذي كاتَّبَ طغرل بك السلجوقي وحسن إليه المجيء إلى مصر، كما ساهم بطريقة غير مباشرة في إحباط حركة البساسيري عندما أشار على الخليفة المستنصر بخطورة السماح له بالقدوم إلى مصر للاتفاق على الثورة¹، وكان الوزير المغربي أبو الفرج محمد في أواخر سنة 450هـ/1058م مؤيدا للعباسيين في السر، لذلك لم يرسل الأموال والخلع إلى البساسيري بعد قيام حركته في العراق².

وقد تمخض عن المدارس النظامية ظهور مجموعة من العلماء الذين حاولوا تجسيد مشروعها الرامي إلى مقاومة الفكر الشيعي، سواء من خلال الرحلة العلمية أو التأليف أو ردود فعل مباشرة من سياسة العبيديين، وحتى الإسهام في تشييد مدارس على نمط النظاميات في أقاليمهم الأصلية، ونذكر هنا على سبيل المثال جهود كل من الغزالي والطُّرُوشِي وابن العجمي في تجسيد تلك الأهداف :

أ- الإمام أبو حامد الغزالي(450-505هـ/1058-1111م) :

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي³، ولد سنة 450هـ/1058م، وتفقّه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور، فبرع في الفقه وتمكّن من علم الكلام والجدل والمناظرة، ثم

¹ - وكان الوزير اليازوري قد نقل إلى الخليفة المستنصر مخاوفه من قدوم البساسيري إلى مصر بعد أن طرده الخليفة العباسي من بغداد ، بأنه كان كثير الحاشية و له إقطاعات واسعة في بغداد لا يمكن أن تكون له مثلها في مصر ،فرد الخليفة على البساسيري بالرفض، واكتفى بإرسال الإمدادات إليه. ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 16-19. ابن الأثير، الكامل ، ج8، ص 338-339.

² - منى محمد بدر ، المرجع السابق ، ص29.

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج4، ص 216.

شرح في التصنيف، قال عنه القزويني (ت682هـ): "لم تر العيون مثله لسانا وبيانا وخاطرا وذكاء وعلماء وعملا"¹، قَدَم من أصبهان إلى بغداد في جمادى الأولى سنة 484هـ/1091م للتدريس بالنظامية²، ودرس بها و"اشتغل بمناظرة أصحاب ابن الصباح"³ وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب، وتعجبوا من كلامه، ونقلوا كلامه في مصنفاتهم ، ثم إنه ترك التدريس سنة 488هـ/1094م، ولبس الخام الغليظ ولازم الصوم وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ، وحج وعاد إلى بغداد ثم رحل إلى بلاد الشام، وأقام ببيت المقدس ودمشق مدة⁴، ثم قصد مصر العبيدية وأقام بالإسكندرية مدة⁵، توفي يوم الاثنين 14 جمادى الثانية 505هـ/1111م ببلدته طوس⁶.

وقد خلف الغزالي العديد من المؤلفات ذكر ابن قاضي شهبة أهمها وهي : كتاب إحياء علوم الدين، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، وبداية الهداية في التصوف، وجواهر القرآن، ومشكاة الأنوار، والمنقذ من الضلال وغيرها كثير⁷.

وكان من الأعلام الذين أشهروا السلاح لمواجهة الفكر الشيعي عن طريق التدريس والتأليف، ففي تفنيده للباطنية ركز الغزالي على المفاهيم الأساسية التي قام عليها بناؤهم الفكري، فأظهر للملأ كيف وضعوا قاموسا لغويا للمصطلحات الإسلامية يُخرج هذه

¹ - القزويني ، المصدر السابق ، ص 413.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص292. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج16 ، ص323.

³ - المقرئزي، المقفى الكبير ، ج3، ص 330.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج17، ص125. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج4، ص 217.

⁵ - ذُكر أنه لم يكن ينوى الانتقال إلى مصر وإنما كان عازما على الخروج إلى بلاد المغرب ولقاء الأمير يوسف بن تاشفين، صاحب مراكش ، وبينما هو كذلك وصله نبأ وفاة الأمير المرابطي فصرف عزمه عن ذلك. ابن خلكان ، المصدر السابق، ج4، ص 217. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج16 ، ص334.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج17، ص125. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج4، ص 218، ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 19.

⁷ - ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ص 327-328.

المصطلحات عن مضامينها السليمة ويضعها في خدمة أهدافهم، وساق الأمثلة الكثيرة البينة على ذلك، وأضاف أن الباطنية عمدوا إلى صرف ألفاظ الشرع عن معانيها الظاهرة إلى أمور باطنة بغير دليل من القرآن والسنة، لتبطل الثقة بالألفاظ وتُسقط منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، لأن الباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى حسب مقتضى الأهواء والغايات، وذكر الغزالي أن الهدف الرئيسي للباطنية هو هدم الشريعة بتأويل ظواهرها وتحريفها لتلائم مقاصدهم¹.

وهو صاحب كتاب **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، فقد كان الداعي الأول إلى تأليف هذا الكتاب هو استفحال أمر الباطنية ووعي الغزالي بخطرهم على الإسلام ولهذا كان الهجوم عليهم عنيفا مخلصا متحمسا، بالإضافة إلى طلب الخليفة العباسي المستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118م) من الإمام الغزالي تصنيف كتاب في الرد على الباطنية مشتمل على الكشف عن بدعهم وضلالاتهم²، كما خصص قسما من الكتاب لمدح الخليفة المستظهر بالله العباسي.

ب- أبو بكر الطرطوشي (451-520هـ/1059-1125م) :

هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب، الشيخ الإمام الفقيه الصوفي المالكي أبو بكر الطرطوشي الأندلسي، المولود بطرطوشة في الشرق الأعلى من الأندلس سنة 451هـ/1059م ونشأ بها، وفي الخامسة والعشرين من عمره هاجر إلى المشرق سنة 476هـ/1083م، وأدى فريضة الحج وأخذ يرحل في البلاد فدخل البصرة وتعلم لعلمائها، ودخل بغداد وأقام بها فترة متعلما لشيوخ المدرسة النظامية، ثم تحول إلى دمشق ودرّس بها للطلاب، ثم تركها واستقر بالإسكندرية حيث اتسعت شهرته، ولم يكن

¹ - ماجد عرسان الكيلاني ، المرجع السابق ، ص164.

² - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية، ص 20-21

توجهه إلى دمشق ومصر عبثاً وإنما كان يرمي من ورائه إلى إحداث تغيير ولو كان بسيطاً على مستوى العامة، بنشر فكر أهل السنة ومحاولة ترسيخ مبادئه في ظل التواجد الشيعي العبيدي.

توفي الطرطوشي بالإسكندرية سنة 520هـ/1125م بعد أن قضى جُلَّ وقته في التدريس والوعظ ومحاولة التغيير والإصلاح¹.

والمعروف عن الطرطوشي قوله الحق الذي لا يخشى فيه لومة لائم ، وكان عالماً زاهدا ورعا ديناً متواضعاً متقشفاً من الدنيا راضياً باليسير، ومن مواقفه الخالدة ضد الدولة العبيدية أنه واجه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (487-515هـ/1094-1121م) لما طغى في الظلم ووعظه حتى أبكاه، لكنه عزله إلى الفسطاط بعيداً عن طلابه خشية إفسادهم على الدولة، فبقي بها إلى أن توفي الأفضل سنة 515هـ/1121م فأكرمه الوزير الجديد المأمون البطائحي(ت519هـ/1125م) وأعادته إلى الإسكندرية لدروسه وطلابه² وبعد محنته تلك، قرر أن يؤلف للوزير المأمون البطائحي كتاباً في وعظ الملوك والحكام وضرورة الالتزام بأحكام أهل السنة في تسيير الدول، المعروف بكتاب "سراج الملوك"³.

¹ -ابن فرحون المالكي ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق : مأمون بن محي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1996، ص371-372. السمعاني ، المصدر السابق، ج8 ، ص 235. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص 225. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج4، ص 264. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق، ج6 ، ص 102-104. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج1، ص 452. الزركلي ، المرجع السابق، ص 133-134.

² -ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص372. الطرطوشي ، المصدر السابق ، ج1، ص 23-26. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج1، ص 452

³ -ومن كتبه "التعليقة" في الخلافيات في خمسة أجزاء ، وكتاب كبير عارض به إحياء علوم الدين للغزالي ، وبر الوالدين و الفتن والحوادث و البدع ومختصر تفسير الثعلبي والمجالس، ورغم مؤلفاته الكثيرة فلم نعثر له على عناوين خاصة بمواجهة الفكر الشيعي وإنما اكتفى في مواجهته لهم بالتدريس والوعظ . ينظر :الطرطوشي ، المصدر السابق، ج1، ص26، ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص372، الزركلي ، المرجع السابق ، ج7، ص 134.

كما تمكن الطُّرطوشي من مناقشة المأمون البطائحي حول بعض الممارسات المنافية للشرع، خاصة النظم المتبعة في الميراث، فقد كان القضاة في مصر يتبعون المذهب الشيعي الذي يقضي بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة ويحرم العصبة من المشاركة في الميراث، وكانت النظم المتبعة أيضا تقضي بأن يأخذ المشرفون على شؤون الميراث ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة، وكان الطُّرطوشي يرى في ذلك مخالفة للشرع وظلما فاحشا، فوافقه الوزير في ذلك وأصدر أمر للقضاة بأن يُتبع في الميراث مذهب الميت، فإن كان سنيا اتُّبع المذهب السني وإن كان شيعيا اتُّبع المذهب الشيعي¹.

أما بالنسبة لأموال الأيتام فقد رأى فيه إجحافا حقيقيا بأموال اليتامى وحقوقهم ونهى عن ذلك بسجل رسمي موقع عليه من الخليفة الأمر والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة وأرسل إلى القضاة في جميع أنحاء الدولة للعمل به²، وفي هذا دلالة واضحة على تأثر الطُّرطوشي بأهداف النظاميات والتي كانت ترمي في مجملها لمقاومة الشيعة كدولة وفكر، فكانت له لمسة خاصة في هذا المجال.

وإلى جانب مؤلفاته نجد أن أبا بكر الطُّرطوشي تنسب إليه أولى المدارس في مصر في العهد العبيدي، فأتثناء تواجده بالاسكندرية تزوج امرأة ميسورة الحال، وهبته دارها فجعل جزءها العلوي سكنا له ولزوجته، أما الطابق السفلي فقد خصصه للطلبة وجعل منه مدرسة لازم التدريس بها³.

¹ - الطرطوشي ، المصدر السابق ، ج1، ص27.

² - نفسه ، ج1، ص27.

³ - ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص372

فقد كان لأبي بكر الطرطوشي دور ملحوظ في تغيير المنكر الذي كرسه الخلفاء العبيديون ووزرائهم، بقتلهم لعلماء أهل السنة وتعطيل العلم، فأقام بها ودرس وألف حتى مع معارضة العبيديين لذلك، وكان يقول: "إن سألني الله تعالى عن المقام بالاسكندرية - لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم - أقول له : وجدت قوما ضلّالا، فكنت سبب هدايتهم"¹.

ج- شرف الدين بن العجمي(480-561هـ/1165-1087هـ):

أما بالنسبة لتشديد خريجي النظاميات للمدارس، نذكر على سبيل المثال لا الحصر مساهمة شرف الدين ابن العجمي(ت561هـ/1087م)² في تشييد مدرسة للشافعية بحلب عرفت بالزجاجية³، بعد أن أشار على والي حلب بذلك، وهي أول مدرسة بنيت بحلب سنة 516هـ/1121م بعد أن عاد ابن العجمي من بغداد الذي تفقه بها على يد أبي بكر الشاشي(ت507هـ/1113م)⁴ وأبي الفتح أسعد بن أبي نصر الميهني(ت523هـ/1128م)، كلاهما من مدرسي المدرسة النظامية ببغداد، ولما شاهد ابن العجمي تلك المدرسة العظيمة ورقي العلم في بغداد في ذلك العصر أثر ذلك في نفسه، ولما عاد إلى حلب أشار على صاحبها بدر الدولة أبي الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق بناء مثلها،

¹ - ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص373.

² - هو أبو طالب شرف الدين عبد الرحمان بن الحسن بن عبد الرحمن الحلبي و يعرف بابن العجمي ، ولد بحلب سنة 480هـ/1087م ، تفقه ببغداد على الشاشي، وأسعد الميهني، له بحلب مدرسة كبيرة عاش إحدى وثمانين سنة توفي في حلب في شعبان 561هـ/1165م .ابن الطباخ الحلبي، المصدر السابق، ج4، ص 250.ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج6، ص330.

³ - لم أتمكن من الوصول إلى معلومات حول سبب تسميتها بالزجاجية ، لكن أرجح قولين :الأول أنها بنيت بالقرب من سوق أو دكاكين صناعة الزجاج فأخذت تسميتها منها على غرار المدرسة السيوفية في مصر . والثاني بسبب ما تعرضت له المدرسة من تخريب قبل استكمال بنائها ومن شددت حرص القائمين عليها وحمايتها من التخريب كأنها صُنعت من زجاج ، فسميت بالزجاجية . والله أعلم.

⁴ - واسمه محمد ابن أحمد المعروف بالمستظهري الملقب فخر الإسلام ولد 427هـ/1035م درس بنظامية بغداد، توفي 507هـ/1113م .ينظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 563.

فشرعا في ذلك ونسبت إليهما، وأقبل الناس بعد ذلك على تشييد المدارس والخوانق، فانتشر العلم وتقدم تقدما عظيما، والفضل في ذلك يعود إلى ابن العجمي¹.

أما عن مساهمة ابن العجمي في مواجهة الشيعة فيما أنه دَرَسَ بنظامية بغداد، التي كانت ترمي إلى تكوين طلبة متشبعين بالفكر السني متسلحين بكل الوسائل لمواجهة الفكر الشيعي، فمن المؤكد أنه كان من بين أولئك الطلبة الذين حملوا هذا المشروع وحاولوا تطبيقه في بلدانهم عن طريق التدريس والوعظ خاصة وأن حلب في تلك الفترة كان الغالب على أهلها التشيع².

ومن هنا نجد أن المدارس النظامية كان لها دور كبير في تصدير فكر ومشاريع دولة السلاجقة إلى الأقاليم الأخرى، فكان من الطبيعي أن تَرث القوى الجديدة التي ظهرت على الساحة السياسة في بلاد الشام مشروعها الجهادي ضد الشيعة والصليبيين في نفس الوقت.

ثانيا: نظام الملك وإسهامه العلمي في مواجهة الفكر الشيعي خارج المدارس النظامية:

رغم تولي نظام الملك منصب الوزارة للدولة السلجوقية وتحمله مسؤوليات كثيرة، إلا أنه قد أسهم في نشر السنة النبوية من خلال رواية الحديث³، فقد سمع الحديث بأصبعان من أبي مسلم محمد بن علي بن مهزيُرد النحوي وأبي منصور شجاع بن علي، وبنيسابور

¹ -ابن الطباخ الحلبي، المصدر السابق، ج4، ص 254. وينسب ابن شداد المدرسة إلى صاحب حلب سليمان بن عبد الجبار ويذكر أن ابن العجمي كان أول المدرسين بها. عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، ج1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1991، ص241.

² - وأكبر دليل على ذلك ما تعرضت له المدرسة الزجاجة من تخريب أثناء تشييدها، فكان كلما بُني فيها شيء بالنهار خربوه ليلا ، بسبب تشيعهم ، ولم تسلم من ذلك إلا بعد أن أٌستجد بالعلوي الشريف زهرة بن علي الحسيني الذي أشرف على بنائها حتى فُرج منها .ينظر، عز الدين ابن شداد، المصدر السابق ، ص241.

³ -الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج10، ص 541، 542.

من الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشَيْرِي¹، وبغداد من أبي الخطاب بن البطر وغيره ، كما أُملى ببغداد مجلسين : أحدهما بجامع المهدي بالرصافة والآخر بمدرسته² ، وكان يقول: "مذهبي في علو الحديث غير مذهب أصحابنا، إنهم يذهبون إلى أن الحديث العالي ما قلَّ رُؤَاثه، وعندني : إن الحديث العالي ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن بلغت رواته المائة"³، أما عن روايته للحديث فيقول: "إني أعلم أنني لست أهلاً للرواية، ولكنني أريد أن أربط نفسي على قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁴.

كما ساهم بالدروس التي كان يلقيها في مجالسه في عدد من المدن السلجوقية⁵، فكان مجلسه عامراً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين، حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة دون أن يزعجه ذلك⁶.

كما أن نظام الملك كان يناظر العلماء في كثير من المسائل الفقهية الغامضة، فإنه قد اشتغل بالفقه مدة قبل توليه المهام السياسية للدولة السلجوقية⁷، وهو إن لم يكن فقيها بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنه برع في بعض مسائل الفقه. وقد دفع به حبه للتفقه إلى

¹ -وقد ذكر ابن العديم غيرهم من المحدثين الكثير. ينظر: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج 5 ، ص 2478. السمعاني، المصدر السابق ، ج12، ص 262.

² - السبكي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 318.

³ - ابن العديم ، بغية الطلب ، ج5 ، ص 2486.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص304. ونفس النص نجده لدى السبكي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 318.

⁵ - عبد الرحمن السنيدي ، المقال السابق، ص 520.

⁶ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص303.

⁷ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 98.

دراسة اللغة والأدب والتاريخ والتفسير والحديث وبعض العلوم كعلمي الحساب والإنشاء حتى برع فيهما¹.

فالرجل -كما قال فيه أبو شامة : " كان عالما فقيها دينا خيرا"²، وإنما اتجه إلى السياسة ليتخذ منها وسيلة لنشر أداب الدين والعمل بأحكامه³.

كما كانت له مؤلفات تخدم مشاريعه الرامية إلى دحر الفكر الباطني، أهمها كتابه سياست نامه، أو سير الملوك⁴، ألفه باللغة الفارسية سنة 469هـ/1076م ليساعد السلطان السلطان ملكشاه في إدارة الحكم فأسدى به من النصائح العلمية مع الملاحظات العميقة في طبيعة الدولة لضمان الأسس القويمية التي تركز عليها الدولة في استقرارها آنذاك، بل وحتى الدول في الوقت الحاضر، وجعله في تسع وثلاثين فصلا ثم جعله اليميني إحدى وخمسين فصلا، وأورد فيها من أخبار وحكايات العظماء، بأسلوب لا يبعث على الملل. وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية والإنجليزية وطبع عدة مرات، لأهميته⁵.

وقد تحدّث في الكثير من أجزائه عن الروافض وخطرهم على الأمة الإسلامية من جميع النواحي، كما خصص فيه فصلا كاملا لمهاجمة الباطنية وبيان فساد مذهبهم⁶. فيكون بذلك قد أضاف جهدا إلى جانب العلماء السُّنة.

¹ - السبكي ، المصدر السابق ، ج4 ، ص 313.

² - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 98.

³ - صدام جاسم محمد البياتي ، المقال السابق، ص7.

⁴ - نظام الملك ، المصدر السابق.

⁵ -حاجي خليفة، المرجع السابق، ص1014. عمر فلاح عبد الجبار، المقال السابق، ص 351.

⁶ - نظام الملك ،المصدر السابق، ص 247 - 272.

ثالثاً- مدارس أخرى في العصر السلجوقي عُتيت بمقاومة الفكر الباطني :

لم يقتصر اهتمام السلاجقة في الجانب العلمي بإنشاء المدارس النظامية في بغداد وباقي أرجاء العالم الإسلامي فحسب، وإنما سعوا كذلك إلى خدمة أغراض المجتمع الإسلامي وعقيدته، التي تعرّضت منذ الفترة السابقة لكثير من المخاطر، فنجحوا في تأسيس مؤسسات تُعنى بمختلف المذاهب، وذلك لتوعية أكبر قدر ممكن من العامة بمختلف اتجاهاتهم المذهبية بخطورة انتشار الفكر الشيعي وخُبط سياسة الدعاة في استدراج المستجيب، حيث كان العامة هم الفريسة الأولى التي يتوجه إليها دعاة الباطنية.

وقد أشار ابن جبير (ت614هـ/1217م) إلى حوالي ثلاثين مدرسة متنوعة نشأت في بغداد¹، والمؤكد أنها لم تقتصر على تدريس المذهب الشافعي فقط، فبعضها يمثل اتجاهات مذهبياً مفرداً، في حين أن كثيراً منها كانت تدرس على أساس نظام المذهبين أو حتى المذاهب الأربعة، ويمكن التمييز في هذا المجال بين مختلف المدارس بعدد الأيوانات التي تحتويها كل منها، ذلك أن الأيوان الواحد يمثل المكان المخصص لمذهب معين².

فقد وُجد في عصر السلاجقة إلى جانب المدارس النظامية عشرات المدارس التي يؤمها أفضل العلماء وأعظمهم، وكانت خراسان وبغداد لعظمتها آنذاك تحظيان بعدد كبير من المدارس³، وقد كانت تلك المدارس في معظمها مدارس خاصة أنشأها المحسنون رغبة في الأجر واحتساباً لله أو تحقيقاً لأهداف سياسية أو دينية يهدفون إليها، وكان تمويلها على حساب مؤسسيها، عكس المدارس النظامية التي كانت تابعة للدولة، والإنفاق عليها كان من بيت مال المسلمين بالدرجة الأولى وبالتالي كانت المدارس

¹ - ابن جبير، المصدر السابق ، ص 205.

² - مريزن سعيد ، المرجع السابق ، ص 283.

³ - أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1975، ص 375.

الخاصة أقل أهمية من المدارس النظامية، لكن الظاهر أن القاسم المشترك بينهما تمثل في تبني مقاومة الفكر الشيعي الباطني، من خلال التدريس والوعظ والتأليف، حيث لعب ذلك دورا كبيرا في نشر المذهب السني وتأصيله في نفوس الناس، وتحذيرهم من الانزلاق في التيارات الفكرية المنحرفة التي تستهدفهم عن طريق أصحاب البدع والأهواء.

ويمكننا الإشارة بشكل مختصر لأهم المدارس ببغداد وغيرها التي عُنيَت بمقاومة الفكر الشيعي الباطني وعاصرت الوجود السلجوقي منها :

مدرسة للحنفية، بناها أبو سعد محمد بن منصور بن محمد المستوفي الملقب شرف الملك (ت494هـ/1100م)¹ بجوار مشهد الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في 459هـ/1066م²، وأوقف عليها ضيعة، والتي افتتحت قبل النظامية بخمسة أشهر، وتعد بذلك أول مدرسة أنشئت بالعراق ، ولما انتهت دخلها الشاعر ابن البياضي فقال ³:

ألم تر أن العلم كان مبددا فجمعه هذا المؤسّد في المهد

كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشروها جود العميد أبي سعد

كما شرع السلطان ملكشاه في تشييد مدرسة بالقرب من جامع السلطان ببغداد سنة 485هـ/1092م للحنفية، إلا أنه توفي قبل إتمامها، فتولى ذلك الإمام بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض الغياثي (ت 540هـ/1145م)⁴.

¹ - هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفي، شرف الملك الخوارزمي ، جليل القدر ، وكان متعصبا لأصحاب أبي الحنيفة ووقف لهم مدرسة بمرور ووقف فيها كتباً كثيرة ، وبنى هذه المدرسة ببغداد عند باب الطاق ، وبنى أربطة في المفاوز وعمل خيراً كثيراً . توفي سنة 494هـ / 1100م. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 551.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 100. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 491. البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 202.

³ - سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق، ص 134. ابن الأثير، الكامل ، ج 8 ، ص 380.

⁴ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16 ، ص 309.

إلى جانب ذلك نجد مدرسة ترکان خاتون (ت487هـ/1093م) زوجة السلطان ملكشاه التي أسستها بالجانب الشرقي من بغداد عند دار السلطنة السلجوقية بالمخرم وأوقفتها على الحنابلة¹.

وتُعتبر المدرسة التاجية بباب أبرز التي أنشأها المرزيان بن خسرو تاج الملك الوزير أبو الغنائم (ت485هـ/1092م) من بين منابر الشافعية في بغداد التي واجهت الفكر الشيعي الباطني، بُنيت سنة 482هـ/1089م وكان أبو بكر الشاشي (ت507هـ/1113م) أول من درس بها².

بالإضافة إلى مدرسة محمد بن منصور القشيري المعروف بعميد خراسان (ت494هـ/1100م) بمرور أوقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني (ت489هـ/1095م) وذريته، وبنى مدرسة أخرى بنيسابور³، كما بنى أبو سعد المخرمي (ت513هـ/1119م) مدرسة للحنفية بباب الأنج ببغداد⁴.

فوجد عديد من المدارس التي أسسها سلاطين السلاجقة أو الخلفاء العباسيين أو العلماء والفقهاء تدرس المذهب الشافعي أو الحنفي خاصة دون المذاهب الأخرى، وهذه النقطة تستدرجنا للحديث عن التعصب المذهبي السائد آنذاك خاصة في بغداد والذي أشرنا إليه سابقاً، فقد انفردت كل مدرسة بمذهب شافعي أو حنفي، وهذا يعني زيادة التوتر بين المذهبيين واشتداد الصراع بينهما، ولم تخف وطأة الصراع المذهبي إلا زمن الخليفة العباسي المستنصر (623-640هـ) الذي عمد إلى إنشاء مدرسة سنة 631هـ/1233م

¹ - أحمد عقل الساري سالم ، المرجع السابق ، ص 60.

² - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص281. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 527 ، ص535

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 551.

⁴ - نفسه ، ج6 ، ص 573.

عُنيت بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة¹، وأحدث بذلك نوع من التوازن والتقارب بين المذاهب .

رابعاً- دور المساجد في مقاومة الفكر الشيعي :

إذا تحدثنا عن التعليم فلم تكن المدرسة هي المنبر الوحيد في هذا المجال فقد سبقتها المساجد والربط² التي تعتبر أقدم مؤسسة تعليمية في التاريخ الإسلامي، وكان المسجد يشبه جامعة علمية، أساتذتها هم علماء العصر، وكانت حلقات الدروس تعقد في أركان المسجد، فيختص كل أستاذ بركن من الأركان تعرف بالزاوية حيث يتوجه الدارسون إلى الشيخ الذي يرغبون في الدراسة على يديه، وكان بعض الشيخ يقيم أكثر من حلقة³.

وحرص سلاطين السلاجقة على بناء المساجد ورعايتها في خراسان ومرو وهراة وبلخ ونيسابور، ومن أهم تلك المساجد جامع نيسابور العتيق، ومسجد المطرز الذي يعرف بالمسجد الكبير، بناه أبو بكر محمد بن يحيى بن سهل النيسابوري⁴، ومسجد حسان بن سعيد المنيعي(ت463هـ/1096م) بنيسابور أنشئ زمن السلطان ألب أرسلان، وقد ارتاد العلماء هذه المساجد فدرسوا فيها وألقوا بها خطبهم ووعظوا العامة، نذكر منهم :عبد الله

¹ - سميت بالمستنصرية ،تقع على شط دجلة من الجانب الشرقي لدار الخلافة، "لم يبين على وجه الأرض مدرسة أحسن منها و لا أكثر وقفا ، وجعل فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة ...ورتب في المدرسة دار كتب فيها من الكتب النفيسة في سائر أنواع العلوم شيئي كثير جدا " ينظر: ابن واصل، المصدر السابق، ج5، ص316. السيوطي، تاريخ الخلفاء ، ص396-397.

² - الرباط و المراقبة : ملازمة ثغر العدو وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطا، والرباط : المواظبة على الأمر ، وهو اسم لموضع يربط فيه الخيل وعرف بالغزاة لأنهم إذا نزلوا في ثغر وأقاموا في وجه العدو دفعا لكيدهم وفنكتهم بالمسلمين يقال لذلك الموضع رباطا قال الله تعالى: " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " (سورة الأنفال :الآية 60).وعليه الرباط في الأصل لزوم الثغر للحراسة لكن لما اطمأن الثغر اتخذ منه المرباطون مكانا للذكر والعلم فالمراد بالرباط هنا ما يرادف الزوايا .ينظر: ابن منظور، المصدر السابق ، ج7 ، ص301، 302 السمعاني ، المصدر السابق ، ج6، ص 70.

³ - عبد الحميد حسين حمودة ، المرجع السابق ، ص 167.

⁴ - نفسه، ص 167.

بن محمد بن علي بن جعفر أبا إسماعيل الأنصاري الهروي (ت481هـ/1088م) الذي حدّث وصنّف كثيرا وكان شديدا على أهل البدع ، قويا في نصرته السنة¹.

ومع مرور الوقت انتقل التعليم من المسجد إلى المدرسة، وهذا الانتقال فرضته الظروف، بحكم أن المسجد لم يعد يتّسع لحلقات العلم المتنوعة التي كانت تُعقد فيه، والتي تسببت في إحداث ضجيج بمنع الصلاة والعبادة أن تُؤدّى على وجهها، بالإضافة إلى أن العلوم تطورت واتسعت المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثيرا من الحوار والنقاش كعلم الكلام والجدل والمناظرة وهذه المواد تتنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب أن يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال².

وعليه فقد كان التعليم في المدارس امتداد لحركة التعليم في المساجد، واستمرت المساجد في أداء وظيفتها التعليمية إلى جانب المدارس في العصر السلجوقي³ وألحقت معظمها بخزائن الكتب التي أوقفها مُحَبّوا العلم لتحقيق المنفعة للناس⁴.

أما بالنسبة للربط ودورها العلمي فقد كانت مكان عبادة وزهد، رغم أنها في الأصل بُنيت بغاية المراقبة والجهاد، وتعتبر الأربطة والخوانق بيت الصوفية ومدرستهم بالدرجة الأولى، وكان تعليم الصوفية على قسمين: إجباري، غالبا ما يتعلق بالأمور الدينية واللغة

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج16، ص278. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج5، ص 349.

² - أحمد شلبي، المرجع السابق ، ص 96.

³ - والأمثلة على ذلك كثيرة منها: أن الخطيب البغدادي ت 463 هـ/1070م خطب بجامع بغداد وجامع دمشق أيام العبيديين وحدّث بتاريخه بجامع المنصور، والفقير رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز أبو محمد التميمي (ت488هـ/1094م) كان له مجلس للوعظ وحلقة للفتوى بجامع المنصور ثم بجامع القصر. والقاضي أبو بكر الشامي (ت488 هـ /1094م) لازم مسجده خمسا وخمسين سنة يقرئ الناس ويفقههم .والشيخ عبد الباقي بن يوسف بن علي بن صالح، أبو تراب المراغي (ت 493هـ/1099م) ، أقام بنيسابور ودرس بمسجدها الحديث وكان يحفظ شيئا كثيرا من مسائل الخلاف وفضل التدريس بالمسجد على تولى مهمة القضاء ينظر: ابن كثير، المصدر السابق، ج 6 ، ص489 و541 و542 و548.

⁴ -أحمد كمال الدين حلمي، المرجع السابق ، ص 376.

العربية ، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها، ويلزم بحضور دروسها ، وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابليته واستعداده¹.

ولم تقتصر الأريطة على التعليم بل أصبحت مواضع للتأليف والتصنيف والإقراء والإجازة والمحاضرات، والعصر السلجوقي اشتهر بكثرة الربط، والتي أصبحت بحق دور علم أدت خدمات جليلة في نشر العلوم الإسلامية، فالربط كانت مجمعا للزهاد والمتصوفة والمنقطعين لعبادة الله وكان في كل رباط مكتبة عامرة، يرتادها المتصوفة الساكنون في الرباط والوافدين إليه، يدرسون ويتدارسون، ولتوفر الكتب والعلماء في الأريطة فقد أضحت تلك الأمكنة صالحة لقراءة الكتب وسماعها².

ومن خلال ما سبق نجد أن المساجد والأريطة كانتا مؤسستين تعليميتين كان لهما دور كبير في مواكبة ومعالجة قضايا العصر من خلال التدريس والوعظ والإرشاد، وبحكم الظروف العامة وانتشار الفكر الشيعي وتبني السلاجقة والعباسيين مقاومة هذا الخطر فالغالب أن المساجد والأريطة جاءت مُكملة للمؤسسات التعليمية التي تولت ذلك، فاعتبرا منبرين من منابر مقاومة الفكر الشيعي الباطني في بغداد والشرق الإسلامي عامة .

خامسا-التكامل السياسي الفكري بين السلطة السلجوقية والعلماء لمقاومة الوجود الشيعي:

أ-عناية السلاطين السلاجقة بالعلم وتقريبهم العلماء لتدعيم المذهب السني :

أدرك سلاطين السلاجقة بأن العلم هو سياج الدولة وعمادها، وأن العلماء هم مشعل الحضارة ورواد الأمة، فعملوا على تشجيع العلوم، وبنوا المدارس والخوانق والربط لطلاب

¹ - أمينة البيطار ، سهيل زكار، المرجع السابق، ص281.

² - عبد الحميد حسين حمودة ، المرجع السابق ، ص 169.

العلم، وأكرموا العلماء، وأحسنوا وفادتهم، فأجزلوا لهم العطاء، كما أدركوا أن خير ما يضمن لهم بقاء دولتهم ورقبها أن يشحنوا مراكزها المختلفة بالعلماء ورجال الدين، للدفاع عن بيضة الإسلام، ولهذا فقد كانت قصور السلاطين ومجالسهم عامرة بعلماء الدين والشعراء والأدباء ورواد العلم والمعرفة، ابتداء من عهد ألب أرسلان إلى كل من جاء بعده، حيث كان للأدب والعلم ازدهار واسع¹..

حتى عُرف عن ألب أرسلان ميله إلى صحبة العلماء وسماع الأخبار منهم ، فقد كان يُكرمهم ويُعقد عليهم الأموال²، فشيّد مدرسة ببغداد وأنفق عليها الأموال الكثيرة³، كما نصر ألب أرسلان العلماء في محنهم، ويعتبر ما تعرض له أبو القاسم القشيري (ت465هـ/1072م)⁴ من مضايقات ومحن سنة 445هـ/1053م نموذجاً على ذلك، فقد

¹ -مريزن سعيد ، المرجع السابق، ص 163-164.

² - الصرفي ، المصدر السابق، ج 2 ، ص 100.

³ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 5، ص70.

⁴ - هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة القشيري ولد سنة 376هـ/986م ، يعرف عنه ذوده عن المذهب الأشعري وذلك في كتاباته ومواقفه الجريئة أمام سلطان السلاجقة، فلا يمكن ذكر الفتنة التي تعرض لها الأشاعرة في تلك الفترة دون ذكر اسمه واسم الجويني، بعد أن سيطر السلاجقة على نيسابور استطاع الوزير الكندري أن يؤلب ضد الأشاعرة _ الشافعية السلطان طغرلبيك ، فأمر بلعنهم على المنابر، كتب القشيري رسالة وجيزة سماها شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة دفاعاً عن أبي الحسن الأشعري ومذهبه سنة 445هـ/1053م، وبعد محاولة يائسة لإقناع السلطان السلجوقي وتنفيذ ادعاءات الكندري رمي به في السجن بضعة أيام، لكن أنصاره أخرجوه بالقوة ولم يجد بدا من الهجرة إلى بغداد ليبقى بها عشر سنوات، وفي منفاه أكرمه الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وعقد مجلساً للوعظ والحديث. ثم استطاع الوزير نظام الملك، أن يعيد توازن القوى بين الأشاعرة والأحناف وخاصة بعد قتل الكندري. عاد القشيري إلى نيسابور عام 456هـ/1063م وعاش فيها إلى أن توفي يوم الأحد 16 ربيع الثاني 465هـ/1072م. ينظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج18، ص232، 231. السبكي، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 153-160. ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 460. ص503.

غاب بسبب هذه المحنة عن نيسابور عشر سنوات إلى سنة 456هـ/1063م، حيث تولى السلطان ألب أرسلان السلطنة وأعادته إلى بلاده معززا مكرما¹.

كما زاد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان من اهتمامه بالعلم حتى نقل عنه أنه صنف رسالة في وصف مملكته وأخبارها²، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يهتم بالمراكز العلمية فشيّد المساجد والمدارس وأكثر من المستشفيات وقرب العلماء وأهل الأدب وأكثر لهم من الصلات³، كما حرص على إنشاء خزائن الكتب، فقد كانت له خزانة خاصة ذكرها نظام الملك في كتابه سياسية نامة عندما طلب منه السلطان ملكشاه تأليف الكتاب⁴.

وكان السلطان أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه(ت525هـ/1130م) واحدا ممن برعوا في علوم متنوعة، فكانت له معرفة بالشعر والنحو والتاريخ ، وكان قوي المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال عارفا بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير⁵.

وخير مثال على اهتمام السلاطين السلاجقة بالعلم، نشاط وزيرهم نظام الملك الطوسي، الذي ذاع صيت انجازاته العلمية، خاصة منها المدارس النظامية، قال عنه السمعاني(ت562هـ/1166م): "صاحب المدارس والخيرات من المساجد والرباطات...

¹ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج18، ص 231، 232

² -مريزن سعيد ، المرجع السابق ، ص 163.

³ - وكان لملكشاه اهتمام بعلم الفلك ، ففي سنة 467هـ عمل الرصد وأنفق عليه الأموال الكثيرة ، واجتمع العارفون بالحساب والفلك وألفوا التقويم الإسلامي المشهور بالجلالية نسبة إلى جلال الدين لقب السلطان ملكشاه. الصرفي، المصدر السابق ، ص 103. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق، ج5، ص 285. ابن الأثير، الكامل، ج8، ص409.

⁴ - نظام الملك ، المصدر السابق ، ص 47-48. وكان كاتبه على هذه الخزانة أمين الدين علي المستوفي .ينظر : البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 202.

⁵ - ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 5، ص182. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق، ج6، ص126،

صارت أيامه تاريخاً للمكارم وأيام الخير"¹، وقد أظهر ألب أرسلان وملكشاه ارتياحهما الكبير لذلك النشاط العلمي الذي سهر على تسييره وإنجاحه نظام الملك، ولو كان ذلك خارج إرادة السلاطين لما قُدر له النجاح ولما وصل إلى ما وصل إليه من رقي وازدهار ، فقد ثبت عن ألب أرسلان أنه أمر نظام الملك ببناء المدارس في جميع مملكة السلطان².

أما بالنسبة للعلماء، فقد قَرَّب السلاجقة العلماء وكان مجلسهم عامراً بالفقهاء، بغية اتباع النصيحة والوعظ لتسيير أمور الرعية والدولة، كما أنهم ولَّوا من يثقون بعلمه مناصب حساسة في الدولة حتى يتسنى لهم التسيير الآمن للدولة، والحاكم العادل هو من يسعى إلى إيجاد البطانة الصالحة التي يصلح بها أمر دولته، ولم يجد السلاجقة أفضل من العلماء ليكونوا عوناً لهم على تسيير وحكم البلاد، وقبول نصحتهم والأخذ بمشورتهم، ولم يتردد العلماء من جهتهم في نصح السلاطين ووعظهم ، في أي مناسبة كانت ولم يخشوا في ذلك لومة لائم، وكانت لهم مهابة لدى السلطان، والأمثلة على ذلك كثيرة، أهمها :

نصائح نظام ملك في تسيير أمور الدولة التي أفرد لها كتاباً أسماه سياست نامه، فنجده ينبه السلطان إلى نقاط الضعف في التسيير ويقترح عليه الحلول، من ذلك نصيحته بضرورة إعادة صاحب البريد، لما له من دور في إبلاغ السلطان بأخبار الأقاليم وسياسة الولاة فيها³، ومن ذلك أيضاً تنبيهه السلطان إلى خطورة تغلغل الباطنية ومن على شاكلتهم في مناصب الدولة وتوليهم مراتب حساسة قائلاً: "إنه يُسمح لليهودي والزرادشتي⁴ والرافضي بتولي الكتابة

¹ - السمعاني ، المصدر السابق ، ج12 ، ص 262.

² - القزويني ، المصدر السابق ، ص 412.

³ - نظام الملك، المصدر السابق ، ص 101-108.

⁴ - الزرادشتية ، ديانة فارسية قديمة نسبة إلى زرادشت المولود قبل ميلاد عيسى عليه السلام بحوالي 660 سنة بأذربيجان بفارس؛ حيث يعتقد الزرادشتيون بوجود إله للخير يسمونه "أهورامزدا" ربّ الخير، ويقولون: إنه إله النور. وفي عقيدتهم أيضاً يوجد مصدر للشرّ يسمونه "أهرمان"، ومعناه الخبيث أو القوى الخبيثة، وهو إله الظلمة. ينظر: سامي النشار ، المرجع السابق، ج1، ص 191-193.

لأترك وإدارة شؤونهم، لقد استولت عليهم- أي مولي الأعمال- الغفلة، فليست فيهم حمية على الدين ولا شفقة على المال ولا رحمة بالرعية...¹.

وإلى جانب نظام الملك، نجد الغزالي الذي ألف كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك وهو عبارة عن نصائح وتوجيهات للسلطان ملكشاه مما جاء فيه: "السلطان العادل من عدل بين العباد، وحذر من الجور والفساد، والسلطان الظالم شؤم لا يبقي ملكه ولا يدوم"²، وقال: "فلا تظلم ليرفع عنك الظلم"³.

من خلال ما سبق نجد أن المكانة التي حظي بها العلماء لدى سلاطين السلاجقة أدت إلى نشوء علاقة وطيدة بين الطرفين قائمة على الدعم والنصرة والتأييد والاستشارة، وقد انعكست هذه العلاقة على المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي، فوقف الطرفان بقوة ضد التيارات الفكرية المنحرفة وممارسات الشيعة الباطنية، فحاصروا نشاطها وأضعفوا نفوذها من خلال الدرس والوعظ والتأليف.

ب- تدعيم السلاجقة للمناظرات العلمية بين العلماء السنة ودعاة الشيعة :

اتسمت العلاقة بين السلاجقة والشيعة في بداية الأمر بالعداء المطلق خاصة بعد استيلاء النزارية على قلعة ألموت سنة 483هـ/1090م بقيادة زعيمهم الحسن بن الصباح(ت518هـ/1124م)، فكان تصدي السلاجقة لهم تغلب عليه القوة العسكرية أكثر من الجانب العلمي، لكن بجهود نظام الملك العلمية تفتن السلاجقة إلى أهمية المواجهة العلمية، فنرى السلطان السلجوقي ملكشاه يرسل إلى الحسن بن الصباح وشيعته

¹ - نظام الملك، المصدر السابق ، ص 196.

² - الغزالي ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ص44.

³ - نفسه ، 47.

الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان الخازن (ت488هـ/1084م)¹، وكان فقيها عارفا بالأصول على مذهب أبي الحسن الأشعري، لمناظرتهم، فناظرهم وأجاب عن مسائلهم، لكن على ما يبدو فإن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذي تطلع إليه السلطان ملكشاه من محاولته إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة فلجأ إلى الاستمرار في العمل المسلح ضدهم، واجتهد في استرجاع قلعة ألموت، إلا أن المرض أعياه وحال دون حصول ذلك².

ونلمس الجهود العلمية للسلطان محمد بن ملكشاه أثناء حصاره لقلعة أصبهان "شاهدر" معقل الباطنية، حاصرها في 6 شعبان سنة 500هـ/1006م³، واستمر الحصار قرابة أربعة أشهر، انتهى بسقوط القلعة، وأثناء هذه الفترة حدثت مناظرات علمية بين فقهاء السنة ودعاة الشيعة، كان الغرض منها المماثلة من قبل الباطنية وتأخير سقوط القلعة لا غير، ففي بداية الأمر طلبوا فتوى من علماء السنة في جواز قتال من يؤمن بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ولكن يخالف في الإمام، فجمع الفقهاء للمناظرة في المسألة، وانتصر فيها الفقيه الشافعي أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمينجاني (ت552هـ/1157م) الذي أفتى بوجوب قتالهم وسفك دمائهم، ولما فشلت خطتهم الأولى طلبوا من السلطان محمد بن ملكشاه أن يرسل إليهم من يناظرهم فأرسل إليهم القاضي أبو العلا صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصفهان (ت572هـ/1176م) وغيره من العلماء فصعدوا إلى قلعة شاهدر ودخلوا مع الباطنية في مناظرات مطولة لم يتمكنوا من خلالها من إقناعهم وإلزامهم بضرورة العودة إلى الحق وتسليم القلعة⁴.

¹ - وهو صاحب الكتاب المسمى بالمستظهري أو حلية العلماء وهو كتاب في الإمامة وشرائط الخلافة وبعض السير العادلة. ينظر : حاجي خليفة ، المرجع السابق ، ج2، ص1674.

² - منى محمد بدر ، المرجع السابق ، ص 136-137 المقرئزي ، اتعاط الحنفا ، ج2، ص 324.

³ - ابن الأثير ، الكامل، ج9، ص 107.

⁴ - نفسه ، ج9، ص 107، 109.

والغرض من إدراجنا هذه الفكرة في البحث هو توضيح أن السلاجقة في مقاومتهم للوجود الشيعي قد زاوجوا بين الجهود العلمية والعسكرية، وقد أكدوا من خلال هذا الموقف، خاصة الفتوى التي أصدرها فقهاء السنة، بوجوب قتل الباطنية، وأن هؤلاء ضالون منحرفون عن العقيدة الصحيحة وذلك مما يُوجب استئصال شأفتهم .

ج -تشجيع السلاجقة للعلماء على التأليف لضرب الفكر الشيعي:

انتج الصراع الدائم بين السنة والشيعة، وما انجر عنه من الحروب والفتن تدهورا سياسيا واقتصاديا وعسكريا، وعلى العكس من ذلك ،ازدهر الميدان الفكري والعلمي فكان هناك تنافس كبير وتسابق بين الطائفتين في التدريس والتأليف والمناظرة كل لنصرة مذهبه وفكره وعقيدته، فأنعش ذلك الحياة الفكرية والعلمية.

فقد تهيأ للسلاجقة أن يحكموا العراق في أعقاب نشاط فكري متصل عاشه العراق منذ بداية القرن الثاني وحتى القرن الرابع هجري، فعاشوا نهضة علمية شاملة، حيث أن العلوم الإسلامية قد آتت أكلها فيه ضعفين نتيجة نضوج الفكر الإسلامي، مما هيأ الظروف لظهور تلك الموسوعات العلمية المتعددة في مختلف العلوم والفنون¹.

ونجد أن غالب مُدرسي النظاميات كانت لهم مؤلفات تخدم المذهب السني بحكم أن ومؤلفاتهم كانت تُعتمد للتدريس، وتُعتبر المرجع الأساسي للطلبة²، فكان المدرس إذا

¹ - مريزن سعيد ، المرجع السابق ، ص 171.

² - انظر الملحق رقم 05 ص498، الخاص بمدرسي النظاميات من خلال ابن كثير، فهو يوضح أن جل مدرسي النظاميات كانت لهم مؤلفات تخدم المذهب السني، وللتوسع أكثر ينظر : الذهبي، سير أعلام النبلاء ،ج20، ص477، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 16، 17 .

انتهى من تأليف كتابه وإلقائه أقيم حفل الختام وأُجيزت روايته، وانتشرت نسخه في الأمصار¹، منها كتب الإمام الشيرازي والإمام أبو بكر الشاشي والإمام الغزالي وغيرهم.

أما بالنسبة للإنتاج العلمي ضد الفكر الشيعي، فرغم مقاومة السنيين عامة وحكام السلاجقة خاصة، فإن التشيع لم يتوقف عن الانتشار، فقد كان للشيعة في البلاد الإسلامية وفي المدن الكبرى مئات المنابر والمساجد والمدارس ... يقررون فيها مذهبهم ويروجون له بصورة علنية، كما اشتهرت مكاتباتهم، وكانت لهم مجالس للفقهاء والشرعية يديرونها بأنفسهم، وقد اشتهر عدد كبير من علمائهم²، وتمكنوا من الوصول بأعداد كبيرة إلى بلاط الخلفاء والسلطين³.

ومن جانب أهل السنة عقدت حلقات العلم والتدريس ونشطت المناظرات العلمية، وامتألت دور الكتب بالمؤلفات التي تضرب الفكر الشيعي، وهذا كله من أجل توعية العامة ونشر العقيدة الصحيحة أولاً، ولضرب فرق الشيعة ثانياً .

¹ - نادية بنت عبد الصمد ، المرجع السابق ، ص 136.

² - أحمد كمال الدين حلمي ، المرجع السابق ، ص 220. نورة بنت إبراهيم بن صالح الطويهر ، آثار النفوذ البويهي على الخلافة العباسية - 334 - 447 هـ / 945 - 1055 م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، كلية التربية للبنات ببريد، المملكة العربية السعودية ، 2001. ص 422.

³ - وأكبر مثال على ذلك الحسن بن الصباح الذي خدم في بلاط السلطان ملكشاه قبل إظهار دعوته رغم تنبه نظام الملك لتوجهاته الفكرية والمذهبية بحكم أنهما درسا معا لدى الأستاذ الخواجة ذلك العالم الذي اشتهر في العصر السلجوقي والذي قدم أبا منصور الكندري لطغرلبيك ليتخذه وزيراً والذي اشتهر بأن تلاميذه يشغلون مناصب الوزارة أو ما شابهها من المناصب العالية في الدولة، وقد تتلمذ عليه الحسن الصباح ونظام الملك فكان ابن الصباح موفقاً للمواجهة في مذهب. وكذلك وزير طغرلبيك ، عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندري، الذي قال عنه السبكي أنه كان رافضياً خبيث العقيدة، كما ذكره ابن كثير وهو يدافع عن أهل الكرخ الرافضة في بغداد. ينظر: خواندمير، المصدر السابق، ص 235-239. ناصر خسرو، المصدر السابق. ص 26-27، السبكي، المصدر السابق، ج 3، ص 390. ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 464، عباس اقبال، المرجع السابق. ص 257.

سادسا-الإسهامات العلمية للسلاجقة في بلاد اليمن وأثرها في مقاومة الوجود الشيعي:

سيطر الصليحيون الشيعة على اليمن منذ سنة 429هـ / 1037م وأعلنوا ولاءهم للدولة العبيدية في مصر¹، ولم يتسن للسلاجقة مواجهتهم عسكريا، فواجهوهم علميا، ولو أن ذلك كان بطريقة غير رسمية، وأن الجهود العلمية للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي لم تكن من مهمة السلاطين والوزراء فقط، بل تبنى العلماء هذا المشروع، وعملوا جاهدين على نشر مذهب أهل السنة في مختلف الأصقاع، وكانت اليمن بحكم حدودها الجغرافية مع مكة من أهم الجهات التي توجه إليها العلماء الأتراك بعد أدائهم فريضة الحج.

وعليه فإن قدوم جماعات الأتراك إلى اليمن لم يتم بصورة رسمية تشرف عليه جهة مسئولة ممثلة بالدولة السلجوقية في ذلك الوقت، بل على العكس من ذلك فقد كان قدومهم يتم بشكل جماعات من العلماء وأسرهم، استغلت ما كانت تعانيه اليمن من فتن داخلية لتصل إليها وتستقر فيها، ويكون لها مكانة علمية بحكم قدراتها الفكرية المختلفة، وبسبب هذه الجماعات بدأت التأثيرات السلجوقية تنتقل إلى اليمن بوسائل اتصال مختلفة ربطت فيما بينهما، وكان لوصول مؤلفات علماء السلاجقة إلى اليمن دور كبير في تحديد منهج التعليم والاعتماد عليهم في التدريس²، منها كتب الإمام الشيرازي والإمام أبي بكر الشاشي والإمام الغزالي وغيرهم³.

¹ - ابن عبد المجيد اليماني، المصدر السابق، ص52.

² - حسين عوض هديل ، إسهامات الأتراك السلاجقة في حركة التأليف وإنشاء المكتبات في اليمن ، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثاني للحضارة والثقافة السلجوقية تحت عنوان " العلم و الفكر في العصر السلجوقي "، تركيا، 2001، ص3.

³ - وكان الفقيه زيد بن عبد الله هو أول من ادخل كتب الشيرازي لليمن واعتمد التدريس عليها. ينظر: الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، (تحقيق: محمد بن الأكرم الحوالي)، ج1، ط1، مكتبة الإرشاد ، صنعاء، 1993، ص268-282.

والمعروف عن هؤلاء العلماء أنهم درّسوا في النظاميات التي عُيّنت لمواجهة ومقاومة الفكر الشيعي فكانت مؤلفاتهم تُعنى بمختلف العلوم بما فيها مواجهة الأفكار الهدامة للباطنية، وبما أن اليمن ظلت لفترة غير قصيرة في يد الشيعة فهناك علاقة وطيدة بين انتشار مؤلفات علماء النظاميات ومقاومة الشيعة في اليمن.

أيقن السلاجقة بضرورة الاستعانة بالعلم والعلماء لمقاومة الفكر الشيعي، فقد كان هو الأقدر على المواجهة أكثر من أي سلاح آخر، فنجح السلاجقة في التصدي للفكر الشيعي بإنشاء مؤسسات تعليمية عُيّنت بذلك، وكانت المدارس النظامية أكبر تلك المؤسسات من الناحية التنظيمية والتكوينية واتساع رقعتها الجغرافية واستقطابها للعلماء، على الرغم من أن تلك المدارس شكلت في مرحلة من المراحل نقطة توتر بسبب التعصب المذهبي السائد في العالم الإسلامي آنذاك إلا أنها نجحت إلى حد كبير في صد المد الشيعي الذي اجتاح العالم الإسلامي بشكل واسع.

وإذا كان عصر السلاجقة العظام قد تميز بردة فعل قوية وملموسة ضد نشاط الشيعة في المشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري، فإنه مع فتور قوى السلاجقة، بسبب دخولهم في دائرة الصراع الداخلي حول منصب السلطنة، خبت معه جهودهم العلمية والفكرية في مقاومة الوجود الشيعي، وفي هذه المرحلة برز الزنكيون في الحياة السياسية والفكرية وحلّوا محل السلاجقة في هذين المجالين.

فإلى أي مدى بلغ الدور الفكري والعلمي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي؟

الفصل الثاني: الدور العلمي والمذهبي للزكّيين في مقاومة الوجود الشيعي

بالمشرق الإسلامي 521-569هـ/1126-1173م:

أولاً- نور الدين محمود بن عماد الدين زكي وجهوده العلمية والمذهبية لمواجهة الفكر الشيعي .

- بناء نور الدين محمود للمدارس.

- 1-دار الحديث النورية.
- 2- المدرسة النورية الكبرى .
- 3- المدرسة النورية الصغرى.
- 4-المدرسة العسرونية .
- 5- المدرسة الحلاوية .
- 6- المدرسة النفرية النورية .
- 7- المدرسة الكلاّسة .
- 8- المدرسة الشعبية .
- 9- المدرسة العمادية .
- 10-المدرسة العادلية الكبرى بدمشق .
- 11-مدارس حرّان .

ثانيا :دور العلماء والقادة والمرأة في مقاومة الوجود الشيعي.

- 1-تشبيد العلماء للمدارس لمقاومة الفكر الشيعي.
- أ-المدرسة الحنبلية الشريفة .
- ب-المدرسة العمرية الشيخية .
- ج-المدرسة المسمارية.
- د-المدرسة البلخية.
- 2-تنافس القادة في بناء المدارس لمقاومة الفكر الشيعي.
- 3-الإسهام العلمي للمرأة في مقاومة الفكر الباطني.

ثالثاً- جهود علمية أخرى لنور الدين في مقاومة الفكر الشيعي .

- 1-تقريب نور الدين للعلماء لمقاومة الفكر الباطني
- 2-بناء خزائن الكتب وأثرها في مقاومة الفكر الباطني.
- 3-تشجيع التصوف السني ضد الفكر الشيعي الباطني .
- 4- بناء المساجد والجوامع ودورها في مقاومة الفكر الشيعي.
- 5- مرض نور الدين محمود وأثره على جهوده في مقاومة الشيعة.

الفصل الثاني: الدور العلمي المذهبي للزركيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق**الإسلامي 521-569هـ/1126-1173م :**

ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى، فكانت أرضاً للعلماء والفقهاء، لكنها ما لبثت بعد ذلك أن خيم عليها ركود مؤقت في أواخر القرن الخامس هجري الموافق للحادي عشر الميلادي، مرده التغلغل الباطني والسيطرة العبيدية على أجزاء كبيرة منه، أمام عجز الخلافة العباسية عن إعادة الأمور إلى نصابها، لكن لم يدم هذا الركود طويلاً إذ ما لبث أن ظهرت قوى جديدة في القرن السادس هجري أحدثت نهضة علمية شاملة على الرغم من الصراع الدامي مع الغرب الصليبي، تزعمتها أسرة آل زنكي الذين اهتموا بالعلم، وسارعوا في جلب العلماء وفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الفترة زيادة تُلَفَّت النظر.

وعلى الرغم من التغلغل الشديد لفرق الشيعة في بلاد الشام آنذاك، فقد وازى ذلك النشاط نشاط مذهبي وعلمي سني واسع من قبل الزركيين¹، وهذا دليل على اهتمام الزركيين عامة بالحياة العلمية التي سُخِرَتْ لها كل الجهود لضرب الفكر الشيعي الباطني، وليس من المستبعد أن يكون الزركيين قد تأثروا بطرق تسيير النظاميات في توفير سبل المعيشة لطلاب العلم من مختلف المناطق حتى يستقطبوا أكبر عدد ممكن من العلماء والطلبة الذين سيتكفلون فيما بعد بنقل علومهم ومعارفهم إلى أقاليمهم الأصلية وبذلك يكون التأثير أوسع وأشمل .

¹ - وإنما نجد ابن جبير الذي زار بلاد الشام في أواخر القرن السادس هجري سنة 580هـ/1184م يشكو من كثرة الفرق الشيعية، ولكنه في المقابل يشيد بنهضتها العلمية وسُرَّ لكثرة المدارس والمساجد فيها، فلم يمر بمدينة شامية إلا وجد بها المدارس والمساجد ودور الحديث العامرة بالعلماء والطلبة، وقد أشاد بفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة، ونصح نشأة المغرب بالتغريب في طلب العلم، والدخول إلى بلاد الشام للنهل من علومها ومعارفها، ينظر: ابن جبير، المصدر السابق، ص 258.

وعليه فقد كان بناء المدارس في العهد الزنكي ثم الأيوبي ضمن إطار حركة الإحياء السني، فقد اهتم الزنكيون بنشر المذهب السني عامة والحنفي خاصة ، فيما انتصر الأيوبيون للمذهب الشافعي خاصة، فعملوا على التوالي على دحض الفكر الشيعي في مصر وبلاد الشام.

فما هي الأساليب العلمية والمذهبية التي انتهجها الزنكيون في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي ؟

أولاً : نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وجهوده العلمية والمذهبية في مقاومة الفكر الشيعي :

استفحل أمر الباطنية بالدولة الإسلامية واشتد خطرهم، بسبب عمليات القتل التي قاموا بها ضد مختلف فئات المجتمع فقد طالت أيديهم الوزراء والقضاة والعلماء، خاصة بعد سيطرتهم على حصون منيعة يحتمون بها، ويصف لنا ابن قاضي شهبة (ت874هـ/1469م) الأمر بعد سيطرة الباطنية على بانياس بقوله : "...فعظمت البلية به -أي بهرام- وبهم ، وتآلم العلماء وأهل الدين، وأحجموا عن الكلام فيهم والتعرض لهم خوفاً من شرهم، لأنهم قتلوا جماعة من الأعيان وصاروا بحيث لا ينكر عليهم ملك ولا وزير"¹.

فالوضع الديني والفكري في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كان صراعاً بين العقائد المختلفة، فالشيعية الباطنية يتضاعف عددهم ونشاطهم أمام انحصار نشاط أهل السنة، وذلك بعد أن عجز السلاجقة أو بالأحرى انشغلوا بالصراعات الداخلية عن الذود عن حمى المسلمين في بلاد الشام وبيت المقدس، خاصة بعد أن بسط العبيديون سيطرتهم على المنطقة، وهؤلاء أيضاً لم يتمتعوا بالقوة الكافية لحماية مقدسات المسلمين لما طمع فيها الصليبيون، إن لم نقل أنهم تحالفوا مع الصليبيين ضد أهل السنة عامة والسلاجقة خاصة، فأضحت المنطقة مسرحاً دامياً للصراع بين القوى الثلاثة .

¹- ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية ، ص 91.

في هذه الأثناء ظهر على الساحة السياسية عماد الدين زنكي، الذي حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين والباطنية على مختلف الأصعدة: سياسية وعسكرية وعلمية، فاستطاع تطهير معظم البلاد المحتلة من الصليبيين، وأعاد الاعتبار للمذاهب السنية الأربعة بعد أن كادت أن تضمحل في ظل سيطرة العبيديين، وأولى عناية خاصة بالمذهب الحنفي حيث اعتمده كمذهب رسمي للدولة، فكانت بطانته من العلماء يفتون الناس على المذهب الحنفي¹.

وفي دراستنا للدور العلمي لعماد الدين زنكي في مقاومة الوجود الشيعي وجدنا المعلومات نادرة، إن لم نقل منعدمة، ومرد ذلك أن حياة عماد الدين زنكي كرسها في مواجهة الخطر الصليبي بالدرجة الأولى، لأنه كان يرى في القضاء على هذا الخطر قضاء على النفوذ الشيعي العبيدي في المنطقة بعد أن تيقن من نية العبيديين في التحالف مع الصليبيين ضد قوى السلاجقة لما أن عجزوا عن مواجهتهم².

وليس أدل على هذا الأمر من محاولة العبيديين استرداد بيت المقدس من القوى الإسلامية بدلا من تسخير جهودهم للقضاء على الصليبيين، الذين كانوا آنذاك على أبواب بيت المقدس بعدما سيطروا على أنطاكية والمعرة سنة 491هـ/1097م وغيرها³، فساهم

¹ - وقد أورد لنا ابن واصل رواية تدل على أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي مفادها أنه لما استرد عماد الدين معرة النعمان من الصليبيين سنة 531هـ/1136م جاءه سكان المنطقة مطالبين باسترداد أملاكهم التي اغتصبها المحتل، فاستفتى عماد الدين الفقهاء الحنفية في الأمر فأجابوه: "بأن الكفار إذا استولوا على بلد و فيه أملاك للمسلمين خرجت تلك الأملاك عن ملك أصحابها لصيرورة البلد دار حرب ، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال فجاء رده بضرورة إرجاع الأملاك إلى أصحابها أن كل من أتى بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها، وإلا فأى فرق بينهم وبين الصليبيين الذين اغتصبوا أملاك هؤلاء وفي هذا الأمر دالتان: الأولى مفادها اعتماد الدولة الزنكية على المذهب الحنفي كمذهب رسمي للدولة ، والثانية مفادها أن عماد الدين زنكي كان حنفيا غير متعصب، إذ اجتهد في الفتوى مع ما يخدم المصالح العامة هذا إلى جانب عدله وجوده كرمه. ينظر: ابن واصل ، المصدر السابق، ج1، ص 74-75، ابن الأثير، الكامل ، ج 9 ، ص 299.

² - ابن الأثير، الكامل ، ج9، ص 14.

³ - نفسه، ج9، ص 14-16.

العبيديون بذلك في إضعاف بيت المقدس وجعله فريسة سهلة أمام الصليبيين، وهذه ما يعد من بين المآخذ الكبرى التي تلام عليها الدولة العبيدية في حق الإسلام والمسلمين¹.

أما عن خلفاء عماد الدين زنكي، ونختص بالذكر نور الدين محمود، فقد تركز نشاطه بشكل كبير في الناحية العلمية، وقد تمخض عن جهوده إنشاء عدد كبير من المدارس في بلاد الشام بغية التقليص من أثر الفكر الشيعي الذي انتشر في ربوع المنطقة بسبب تغلغل العقيدة الباطنية في بلاد الشام.

لفقد عمل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي على إقامة دولة على أصول أهل السنة، والقضاء على البدعة والفكر الشيعي المنتشر في العالم الإسلامي في تلك الفترة، فقد قال عنه بن كثير: "أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولة أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً"²، كما أبعد نور الدين عن حلب بعض رؤوس الشيعة ونفاهم عنها على رأسهم والد المؤرخ ابن أبي طي³.

وكان نور الدين محمود يتحرى السنة في أموره كلها، ومن أعظم إنجازات دولته هو القضاء على الدولة العبيدية بمصر، فبفضل حملاته المتوالية التي أرسلها إلى مصر خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعية مصر إلى الخلافة العباسية السنية سنة 567هـ/1171م⁴، وكان رأي نور الدين في الخلافة العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة، يقول فيها: "وطالما بقيت مصر - مائتين وثمانون سنة ممنوعة بدعوة المبطلين، مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها

¹ - للتوسع أكثر ينظر الصراع السني الشيعي وأثره في الامتداد الصليبي على العالم الإسلامي: الصفحة 87 من الفصل الأول من البحث.

² - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص 660.

³ - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق، ص 208.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص33.

بالانفراج ... واجتمع فيها داءان: الكفر والبدعة، فمَلَكْنَا الله تلك البلاد ومَكَّنَ لنا في الأرض وأقَدَرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض ومن إقامة الفرض"¹.

١- بناء نور الدين محمود للمدارس:

لم تقتصر مهمة نور الدين على الجانب السياسي والعسكري وإنما تعدته إلى الجانب العلمي، " حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفي زمنه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية " حسب ابن قاضي شهبة²، فحرص على بناء المدارس بدمشق وحمص وحماة وحلب وبلبك ومنبج والرحبة والموصل وغيرها للحنفية والشافعية³، حيث " كان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده فيه تعصب"⁴، كما قرب العلماء وأهل الدين فكانوا عنده في أعلى المنازل وأعظمها وقصدوه من البلاد الشاسعة⁵، وكان ذلك تدعيما للحركة الفكرية في دولته وسيفا قويا ضاربا ضد المد الشيعي في المشرق الإسلامي في القرن السادس هجري الموافق للثاني عشر الميلادي .

وتعتبر الشام عامة ودمشق خاصة المسرح الأول للجهود العلمية لنور الدين محمود في مقاومة الوجود الشيعي، وذلك لعدة اعتبارات أهمها موقعها الهام الذي يتوسط بؤر التوتر في العالم الإسلامي آنذاك، الصليبيون في الشمال والباطنية النزارية في الشرق، والدولة العبيدية الشيعية في الغرب، كل ذلك في ظل خلافة عباسية متقهرة وآيله للزوال، ففرضت هذه الظروف على نور الدين محمود أن يزاوج جهوده السياسية والعسكرية بأخرى علمية ومذهبية تُمكنه من ترميم ما فسد جراء سيطرت هذه القوى على العالم الإسلامي، وكان بناء المدارس أبرز هذه الجهود العلمية .

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج2، ص 204.

² - ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية ، ص 35.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 45. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج5، ص 185.

⁴ - أبو الفدا ، المختصر ، ج3، ص 72.

⁵ - ابن الأثير ، الباهر ، ص 171.

والذي ينبغي الإشارة إليه أنه وجد بدمشق مدارس أخرى قبل قيام الدولة الزنكية يمكن أن تكون قد تبنت شعار مواجهة الباطنية في بلاد الشام بحكم أنها عاصرت المدارس النظامية في بغداد والتي سرعان ما انتشرت في مختلف أقطاب العالم الإسلامي، فعندما دخل نور الدين دمشق اكتشف وجود إحدى عشر مؤسسة دينية، كانت كلها من أوقاف خاصة، أي نتائج تصرفات دينية ولم تكن سياسة دولة¹، نذكر منها المدرسة الصادرية ، وهي أول مدرسة أنشئت بدمشق سنة 491هـ/1097م، وهي وقف على الحنفية، تقع داخل دمشق بباب البريد على باب الجامع الأموي الغربي، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، وأول من درس بها الإمام العالم علي بن زكي الكاشاني².

أما الزنكيون فقد حرصوا على نشر المذهب السني من خلال تكوين الطلبة على العقيدة الصحيحة، ومن أجل ذلك قامت الدولة الزنكية بدور كبير في مجال التعليم، حيث أقيمت المدارس في جميع أنحاء الشام، وقد تنوعت تخصصاتها ونشاطاتها، كما وضعت لها المناهج وفق الشريعة الإسلامية واستقدم لها مشاهير العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، ونتيجة لهذه الجهود التي بذلتها الدولة أصبحت بلاد الشام مركز هجرة الكثير من العلماء وطلاب العلم، الذين وفدوا من شتى أنحاء العالم الإسلامي، واحتلت مركز الصدارة في حركة المد السني في ذلك العصر.

وكان للمؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس ومكتبات ودور حديث، التي أنشأها نور الدين محمود دور كبير في مقاومة الوجود الشيعي في بلاد الشام، وقد أوجز ذلك بقوله: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين"³، فالمعروف عن نور الدين زكي أنه حارب الفرق الضالة والبدع وكان يبالي في ذلك

¹ - عبد الرحمان عزام، المرجع السابق، ص 58.

² - عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1990. ج1، ص 413.

³ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 61.

ويقول: "نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل" ¹.

فجاءت مدارس مجهزة بكل وسائل العلم والمعرفة، ولم يقتصر نشاطه العلمي في إقامة المدارس على مدينة بعينها أو مذهب بعينه، بل أقام المدارس في شتى بقاع الشام خاصة: بحلب وحماة ودمشق وغيرها، ولم يهمل الأقاليم الأخرى التي كانت تابعة له، فقد نالت هي الأخرى نفس الاهتمام العلمي²، فبلغت المدارس بدمشق في عهد نور الدين محمود اثنين وعشرين مدرسة فازدادت ضعف ما سبق، على حين أن حلب -حيث بقي النفوذ الشيعي قويا -كان بها ثماني مدارس³، وكما لم يهمل نور الدين مذهب على حساب الآخر فقد أوقف عدة مدارس على الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأجرى الجرايات على أئمتها ومدرسيها وفقهائها⁴.

ولم يكن بناء هذه المدارس بالأمر الهين ليس من الناحية المادية وإنما من الناحية المذهبية، فكما نعلم أن هذه المدارس وُجّهت للقضاء على الفكر الشيعي الباطني بالموازاة مع العمل السياسي، وكانت بلاد الشام في بداية أمرها تغلي سخطا وفتنا وثورات ضد الأمراء السنيين من سلاجقة وزنكيين الذين حاولوا بكل الطرق مقاومة الوجود الشيعي، وكثفوا جهودهم على جميع الأصعدة في سبيل ذلك، فقد لاقى بناء هذه المدارس في بداية الأمر نوعا من العقبات والاعتراضات من قبل الشيعة نذكر منها :

¹- نفسه ، ج1، ص 49.

²- ابن الأثير ، الباهر، ص 170.

³- عبد الرحمن عزام ، المرجع السابق، ص 58.

⁴- أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 71.

المدرسة الزجاجية أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب وهي أول مدرسة شافعية بنيت بحلب شرع في بنائها سنة 516هـ/1122م¹ "ولما أراد بنائها لم يُمْكِنهُ الحلبيون إذ كان الغالب عليهم التشيع ، فكان كلما بنى فيها بالنهار خربوه ليلا إلى أن أعياه ذلك"²، وقد اضطر في الأخير إلى إسناد أمر بنائها إلى أحد الأشراف العلويين من ذوي النفوذ في قومه ليمنعهم عن تخريبها وهو الشريف زهرة بن علي بن محمد بن أبي إبراهيم الإسحاقي الحسيني³ الذي لازمها حتى فرغ منها.

ولكن الوضع تغير مع تولي نور الدين محمود لأمر الدولة الزنكية، فقد عقد عزمه على تطهير البلاد من براثن الشيعة، واشتدت وطأته على هؤلاء المبتدعة بأن ألغى جميع ممارساتهم الدينية، في الأذان وسب الصحابة، وأنكر ذلك إنكارا شديدا، وقد ساعده على ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة، ولم يكتثر لبقايا طائفة الإسماعيلية والإمامية في حلب والشام الذين عظم عليهم الأمر لكنهم سكتوا وأحجموا عن ردة الفعل خوفا من قوة وهيبة نور الدين⁴.

ولم يقتصر دور المدارس على التعليم ونشر الوعي في صفوف الطلاب والعامّة وإنما كانت المدارس بمثابة معاهد يتخرج منها الفقهاء والقضاة والمعلمون والإداريون والقادة العسكريون، هؤلاء الذين تميزوا بالتزامهم العقائدي في جميع نشاطاتهم وممارساتهم، أوكل إليهم تسيير أمور الدولة بعد أن تشبعوا بالروح الإسلامية في المدارس الزنكية .

¹ - كامل بن حسين بن محمد البالي الحلبي المشهور بالغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، المطبعة المارونية ، حلب ، 1342هـ/1923، ج2، ص 84-85.

² - عز الدين ابن شداد ،المصدر السابق ، ص 241.

³ - وكان هذا الشريف من أكابر الأشراف و ذوي الرأي والأصالة والوجاهة مقدما في بلده ، يرجع إليه الناس في أمره ونهيه وكان معظم القدر عند الملوك . عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 241.

⁴ - ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ص 130.

II- أهم المدارس زمن نور الدين محمود:

وقد تنوعت هذه المدارس، فكان منها معاهد لتدريس الحديث ومعاهد لتدريس الفقه ومدارس خاصة بالطب¹ وغير ذلك، وقد ركزنا في دراستنا على المؤسسات التعليمية التي تكفلت بمقاومة الفكر الشيعي.

1- دار الحديث النورية²:

هي أول دار للحديث بنيت في الإسلام³، بناها السلطان نور الدين محمود بدمشق ووقف عليها وعلى من بها من العلماء والمحدثين وقوفا كثيرة⁴، وقد تخرج منها عدد كبير من المحدثين والمؤرخين، وتولى التدريس فيها طائفة من الشيوخ والمدرسين، لم تحظ بهم مدرسة من المدارس بدمشق⁵، وقد تولى مشيختها في عصر السلطان نور الدين محمود الشيخ "أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله" المعروف ب: "ابن عساكر (ت571هـ/1175م)"⁶، لما عرف عن هذا الأخير من علم وورع وزهد .

¹ - على أن الطب في تلك المرحلة لم تخصص له مدارس وإنما ألحق بالبيمارستانات قاعات خاصة بإلقاء المحاضرات والظاهر أن سبب ذلك حتى يكون الطلبة بالقرب من المرضى حتى يتسنى لهم تطبيق الجانب النظري .

² - من المؤسسات التعليمية التي عرفت عند المسلمين ب " دور الحديث "، وإن لفظ دار الذي أطلق على بعض هذه المؤسسات لا يختلف في قاموس الاستعمال اللغوي عن المدرسة ، فهي المدارس المختصة بدراسة علم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلم الحديث ليس مقصورا على رواية الأحاديث فحسب ، بل لهذا العلم اتصال وثيق بالثقافة العامة له قواعد قيمة لها قيمتها العلمية في أصول البحث و الدراسة .و كان نور الدين محمود أول من أنشأ دارا للحديث بدمشق وأوقف عليها الأوقاف. ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية ،أو دور الحديث والقرآن كمدارس ثنائية .محمود قمبر ، المرجع السابق ، ص 27.

³ - النعيمي ،المصدر السابق ،ج1، ص 74.

⁴ - ابن الأثير ، الباهر ، ، ص 172 .أبو شامة ، المصدر السابق ،ج1، ص 47.

⁵ -صالح محمد حمدان الغامدي ، المدارس النورية و أثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام ، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ،1416هـ ، ص 78.

⁶ - هو العلامة الحافظ الكبير المجوّد ، محدث الشام ، ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر، ولد سنة 499هـ/1105م ، سمع الكثير من الأحاديث ، " وعدة شيوخه ألف و ثلاثمئة شيخ ومن النساء بضع وثمانون امرأة " ، رحل إلى عدة بلدان و أقاليم للاستماع ورواية الحديث والاستزادة في العلوم ،فقد لازم الدرس والتفقه=

وفي حديثنا عن تولى ابن عساكر دار الحديث النورية نجد أنه قبل ذلك كان قد درس وتفقه بالمدارس النظامية¹، أي هناك تأثر بالمد الحضاري للنظاميات زمن الزركيين، وعليه هناك قاسم مشترك بين الجهود العلمية السلجوقية والزركية في إنشائهم للمدارس، والأكيد أيضا أن ابن عساكر تأثر بطرق التدريس وتسيير النظاميات وحاول تطبيق الأمر في دمشق بعد توليه دار الحديث النورية.

وبما أن هذه الدار هي أول دار حديث بنيت في الإسلام، فإنه من الطبيعي أن تتخذ نموذجا لبناء دور الحديث التي بنيت بعدها، كدار الحديث الأشرفية وغيرها من الدور التي تأثرت عمارتها بالفن الإسلامي، وأهم ما يميز هذه الدور والمدارس "الإيوان" وهو الاسم الذي يرادف "قاعة المحاضرات" في التعبير المعاصر، فما كانت دار علم أو مدرسة تخلوا منه، فهو أبرز مرافقها وأهمها، كما كان من خصوصيات دور العلم والمدارس آنذاك وجود المساكن المجهزة التي يعيش فيها المدرسون والطلاب الذين ينتسبون إليها، وقد حفلت أغلب المدارس النورية بهذه المساكن وبما يتبعها من المرافق كالمطابخ وحجرات الطعام وغيرها من المرافق².

2- المدرسة النورية الكبرى 563هـ/1167م:

أنشأها الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي بدمشق بخط الخواصين سنة 563هـ/1167م³، ويقال إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل (ت577هـ/1181م)، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها، وهي بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان

=نظامية بغداد، وكان شيخا جليلا خيرا متعبدا، اعتنى بعلم الحديث سماعا وجمعا وتصنيفا، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد فله العديد من المؤلفات أشهرها تاريخ دمشق في ثمانين مجلدا أو أكثر، وتوفي الاثنين 11 رجب سنة 571هـ/1175م، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير ينظر: السبكي، المصدر السابق، ج7، ص215-223. ابن الجوزي، المنتظم، ج18، ص224. ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص310، ابن الأثير، الكامل، ج10، ص79. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص554-570، ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص674-675. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص74.

¹ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص558.

² - صالح محمد حمدان الغامدي، المرجع السابق، ص79.

³ - ابن الأثير، الكامل، ج10، ص56. ابن قاضي شعبة، الكواكب الدرية، ص229. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص282.

(105-125هـ/723-742م)¹ والخبر الأول هو الأصح²، وتصنف هذه المدرسة مع المدارس الحنفية بدمشق³، لأن نور الدين محمود كان عارفاً على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، ويراعي مذهب الشافعي ومالك رضي الله تعالى عنهم⁴.

تقع هذه المدرسة بخط الخواصين، وهو الحي الذي يسميه أهل دمشق في الوقت الحاضر "الخطاطين" وهي في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي، وتبعد عنه بما يقرب من نصف ميل، وقد تعددت مرافقها فاحتوت على الإيوان الذي خصص لعقد حلقات الدرس، والمسجد الذي لم يكن خاصاً بالطلاب فقط وإنما كان مفتوحاً للعامة، إلى جانب قاعة استراحة المدرس، ومساكن الطلاب المخصصة لطلاب القسم الداخلي، والمراحيض، ومسكن خادم المدرسة بالإضافة إلى مطبخ وقاعات الطعام ومخزن المدرسة الذي تحفظ فيه مواد الطعام المختلف مع الأدوات الزائدة عن الحاجة في المدرسة⁵.

كانت المدرسة النورية الكبرى مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وعلى هذا خصص للتدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الحنفية وكان أول من درس بها: بهاء الدين بن العقادة وكان شيخاً فاضلاً مشهوراً درس بها إلى أن توفي سنة

¹ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص466.

² - فقد أورد لنا أحمد شلبي الذي زار المدرسة في سبتمبر 1950، نص الوقفية التي كتبت في العتبة العليا للمدرسة وكان مستهلها: "أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ضاعف الله ثوابه ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه..." ينظر: المرجع السابق، ص 114، 108.

³ - عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، 1959م، ص212.

⁴ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص56.

⁵ - وقد تأسف أحمد شلبي الذي زار المدرسة حوالي سنة 1950 ، على النقائص التي لحقت بها، وكيف نزح السكان على حساب المدرسة فاقتطعوا جزءاً كبيراً منها، فما هو حال هذه المدرسة الآن -مطلع القرن الواحد والعشرين- بعد الحرب والفوضى التي سادت دمشق الحاضرة الثقافية للعالم الإسلامي وأكبر مركز إشعاع حضاري في العصر الوسيط؟ . ينظر: أحمد شلبي ، المرجع السابق ، ص 111-113.

596هـ/1199م، ثم درس بعده برهان الدين مسعود الدمشقي وكان شيخا عالما مشهورا فاضلا، درس بها إلى أن توفي سنة 599 هـ/1202¹.

وقد أوقف عليها وعلى الفقهاء بها جميع حمام المستجد بسوق القمح، والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة لهما، والوراقة بعونية الحمى، وجسر الوزير، وثلاثة أرباع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى وعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نص وشرط، فكتب الوقف رغبة في الآخرة والثواب، وتقدمة بين يديه يوم الحساب، قال الله تعالى: "فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم"² وذلك في مدة آخرها شعبان 567هـ/1171م³.

وقد زار ابن جبير (ت614هـ/1217م) المدرسة النورية بعد افتتاحها بسنوات معدودة، فوصفها وصفا دقيقا يدل على روعتها ومكانتها، فقال: "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، رحمه الله، وبها قبره نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيفة ... فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله"⁴.

3- المدرسة النورية الصغرى:

تنسب إلى نور الدين محمود بن زنكي، بناها بجامع قلعة دمشق للحنفية⁵، ولم يُعلم من درّس بها من زمن نور الدين إلى زمن الملك الأشرف ابن العادل ابن أيوب (ت635هـ/1237م) سوى بهاء الدين عياك، وكان رجلا فاضلا وخطيبا بالجامع⁶.

¹ - النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 475. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 113.

² - سورة البقرة، الآية: 181.

³ - أي في أجل أقصاه هذا التاريخ. عبد القادر بدران، المرجع السابق، ص 213.

⁴ - ابن جبير، المصدر السابق، ص 256.

⁵ - محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص 95.

⁶ - النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 499.

والظاهر أن آثار هذه المدرسة قد اختفت لظروف ما، وهذا ما أكدته الدكتور بدران الذي وقف على جميع المعالم العمرانية التي وصفها في كتابه، وقال عن المدرسة النورية الصغرى: " فلم أر لمكانها أثر، فإن كانت في جامع القلعة، فلعلها كانت حلقة أو هي مقام الصحابي الجليل أبي الدرداء، وإن كانت تجاه القلعة، فإما أن يعني بها ¹ مدرسة دار الحديث النورية المتقدم ذكرها وإما أن تكون أدخلت في الجامع المسمى الآن بسيدي خليل، لأن بناءه يدل على أنه مدرسة، وأما أن تكون أيدي الزمان تلاعبت بها كما تلاعبت بغيرها، فجعلتها داراً أو دكاناً أو غير ذلك والله أعلم " ². وهذه الظاهرة تعرضت لها العديد من المدارس التي بدمشق أهمها المدرسة النورية الكبرى ³.

4-المدرسة العسرونية :

أنشأها نور الدين محمود سنة 550هـ/1155م للإمام شرف الدين بن أبي عسرون (585هـ/1189م) ⁴ الذي كان من أعيان فقهاء عصره في المذهب الشافعي، وكان أول من

¹ - يقصد العلمي الذي نقل عنه وكان قد عاين مكان هذه المدرسة.

² - عبد القادر بدران، المرجع السابق ، ص 222.

³ - عبد القادر بدران ، المرجع السابق ، ص 58.

⁴ - هو الإمام شرف الدين أبا سعد عبد الله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عسرون بن التميمي، الموصلية ثم الدمشقي ، الشافعي المذهب ، ولد في ربيع الأول 492هـ/1098م ، تفقه أولاً على يد القاضي المرتضي أبي محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وعلى أبي عبد الله الحسين بن خميس الموصلية ، ثم على أسعد المهيمني ببغداد، شغل منصب التدريس بالموصل ثم بسنجار ثم حلب ثم انتقل إلى دمشق سنة 549هـ/1154م لما فتحها نور الدين محمود ودرس بالغزالية وولي نظر الأوقاف ثم ارتحل إلى حلب ثم ولي قضاء سنجان وحران وديار ربيعة، وعظم شأنه لدى نور الدين، ثم عاد إلى دمشق سنة 570 هـ/1174م وولاه صلاح الدين الأيوبي قضائها سنة 573هـ/1177م. ثم عمي في آخر عمره قبل موته بعشر سنين، وابنه محي الدين محمد ينوب عنه وهو باق على القضاء، وصنف جزءاً لطيفاً في جواز قضاء الأعمى على خلاف المذهب الشافعي. توفي بدمشق في 11 رمضان 585هـ/1189م ودفن بالمدرسة التي أنشأها قبالة داره. خلف عدة مؤلفات منها : صفوة المذهب من نهاية المطلب ، كتاب الانتصار، كتاب المرشد، الذريعة في معرفة الشريعة، وكتاب الإرشاد المغرب في نصرته المذهب ... ينظر: السبكي، المصدر السابق، ج7، ص 132-133. ابن خلكان، المصدر السابق ، ج3، ص 53-54. أبو شامة، المصدر السابق، ج4 ، ص 108-109. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2 ، ص 294. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج21 ، ص 125-127، الغزي ، المرجع السابق ، ص 141.

درّس بها لذلك عرفت باسمه، وكانت هذه المدرسة في الأصل داراً لأبي الحسن علي بن أبي الثريا وزير بني مرداس¹.

وقد حظي ابن أبي عصرون بمكانة رفيعة عند نور الدين محمود حتى بنى له مدرسة بمنبج ومدرسة بحماة ومدرسة بحمص ومدرسة ببعلبك ومدرسة بدمشق وفوض إليه أن يولي التدريس فيها من يشاء²، وقد أطلق على مجموع هذه المدارس اسم المدارس العسرونية نسبة إليه، كما أضاف إليها شرف الدين نفسه فبنى مدرسة بحلب وأخرى بدمشق³.

وقد لازم شرف الدين المدرسة العسرونية مدرسا وناظرا بأوقافها إلى أن خرج إلى دمشق سنة 570هـ/1174م⁴، فاستخلف فيها ولده نجم الدين ولم يزل بها إلى أن ولي قضاء حماة، فاستتاب فيها ابن أخيه عبد السلام فدرّس بها إلى سنة 598هـ/1201م حيث تولى التدريس بعده قاضي القضاة نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن ابن شرف الدين أبي عصرون⁵.

5- المدرسة الحلاوية⁶:

كانت هذه المدرسة في الأصل كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين وجعلها القاضي أبو الحسن بن الخشاب مسجداً، وكانت تعرف بمسجد السراجين، ولما ملك نور الدين محمود

¹- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 244. ابن طباطبا الحلبي، المصدر السابق، ج 4، ص 266.

²- ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 42.

³- صالح محمد حمدان الغامدي، المرجع السابق، ص 82.

⁴- ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 42. أبو الفضل محمد ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب،

تقديم: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا، 1984، ص 111.

⁵- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 246.

⁶- قيل في سبب تسميتها بالحلاوية قولان الأول: أن نور الدين محمود كان يحشوا القطايف للفقهاء و يملأ جرنًا بالحلوى والقطايف فيجتمع الفقهاء عليه و يأكلونها، وذلك في مناسبتين كل سنة الأولى في السابع و العشرين من رمضان والثانية ليلة النصف من شعبان من كل سنة، والقول الثاني إنما سميت كذلك لحلاويين كانوا بجوارها. ينظر: ابن الطباخ الحلبي، المصدر السابق، ج 2، ص 63. عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص 264-265.

حلب جعلها مدرسة للحنفية سنة 543هـ/1148م، وخصص بها مساكن للفقهاء، كما خصص لها الأوقاف الكثيرة فتوافد عليها الطلبة بكثرة فعلا شأنها وذاع صيتها¹.

وكان أول من درس بها من العلماء الفقيه الإمام برهان الدين أبا الحسن علي بن الحسن بن محمد بن أبي جعفر البلخي (ت 548هـ/1153م)²، استدعاه نور الدين من دمشق إلى حلب، كما استدعى الفقيه برهان الدين أبا العباس أحمد بن علي الأصولي (ت 576هـ/1182م) من دمشق ليجعله نائبا عنه³.

6- المدرسة النورية النورية :

أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بحلب سنة 544هـ/1149م وهي وقف على الشافعية⁴، وأول من تولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الطرثيثي (578هـ/1182م)⁵ مصنف كتاب الهادي في الفقه، وقد سبق لقطب الدين أن

¹ - ابن الشحنة ،المصدر السابق ،ص 115.

² - برهان الدين علي بن محمد البلخي (ت 546هـ/1151م) شيخ الحنفية بدمشق ،تفقه ببخارى على لامام عبد العزيز بن عمر بن مازة وعدة شيوخ حتى برع في الفقه ، وسمع الحديث بما وراء النهر، درّس في مدارس بحلب :بالحلاوية، وبالطرخانية ، وبمسجد خاتون وبالصادرية والامينية ، وهو أول من درس بهم .برهان الدين أحد من نشر العلم ببلاد الإسلام ، كان عالما عاملا ورعا زاهدا، وهو أول إمام ألغى الأذان بحي على خير العمل من حلب.ينظر: محي الدين بن أبو الوفا القرشي ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر ، مصر، ط2، 1993. ج2، ص560. ابن كثير، المصدر السابق، ج6 ، ص 615.أبو شامة ، المصدر السابق، ج1، ص 292-293.ابن فلانسي ، المصدر السابق، ج323.الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج20 ، ص 276.

³ - عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص265-266. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2 ، ص293.

⁴ - ابن الشحنة ، المصدر السابق ، ص 111.

⁵ - هو العلامة قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، تفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي ، قدم دمشق ودرس بالغزالية و المجاهدية ، ودرس بحلب في المدرسة النورية ومدرسة أسد الدين ، ثم بهمذان ، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالغزالية، وانتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي، توفي بدمشق يوم عيد الفطر سنة 578هـ/1182م عن عمر يناهز ثلاث و تسعين سنة . ينظر : ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 21. ابن العديم ، زبدة الحلب، ج2،

ص 294. ابن طباطبا الحلبي ،المصدر السابق ، ج4 ، ص 255

اشتغل بمرور وسمع الحديث من عدة شيوخ ، كما أنه درّس بالمدرسة النظامية بنيسابور نيابة عن ابن الجويني (ت478هـ / 1085م)¹.

ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فقد عرف عنه تبحره في علم الكلام، ومعنى هذا أن نور الدين كان يقصد من وراء هذا الاختيار إلى نفس الهدف الذي كان ينشده نظام الملك عندما قصر مدارسه على أئمة الشافعية وفقهائهم باعتبارهم الفئة التي كانت مهياً للدفاع عن عقيدة أهل السنة، بعد أن تسلح معظمهم بدراسة عقيدة الأشعري ونذروا أنفسهم للدفاع عنها، فكان نور الدين بحاجة إلى هذا الإمام وأمثاله في بيئة حلب التي يشكل الإمامية والإسماعيلية معظم سكانها، وكلا الفريقين كان مسلحا بالفلسفة للدفاع عن عقيدته².

وبعد وفاة قطب الدين النيسابوري تولى التدريس بالمدرسة النفرية مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهيل (ت597هـ/1200م) الذي بقي ملازماً لها إلى أن نقل إلى القدس الشريف³.

والملاحظ هنا أن هناك احتكاك واضح بين مدرّسي النظاميات والعلماء الذين تولوا التدريس في المدارس النورية وهذا دليل على محاولة نور الدين استكمال رسالة النظاميات التي كانت تسعى إلى دحض البدع والفرق الضالة والقضاء على الفكر الشيعي من خلال التعليم في المدارس .

7- المدرسة الكلاسة :

عمرها نور الدين محمود سنة 555هـ / 1159م، وسُميت كذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع الأموي، احترقت في المحرم سنة 570هـ/1174م، وفي 19 ربيع

¹ - عز الدين ابن شداد ،المصدر السابق، ص248.

² - عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق ،ص 209.

³ - عز الدين ابن شداد ،المصدر السابق ، ص249.

الأول من نفس السنة، ملك صلاح الدين الأيوبي دمشق، وأمر بتجديد عمارة الكلاسة سنة 575هـ/1179م، على يد الحاجب أبي الفتح عرف بابن العميد، وأول من صلى ودرس بها أبو جعفر القرطبي (ت598هـ/1201م)¹، وقد كانت وقفا على الشافعية .

8- المدرسة الشعبية :

كانت في الأصل مسجدا عتيقا اختطه المسلمون أول ما فتحوا حلب ويعرف بالغضائري²، ولما ملك نور الدين محمود حلب وأنشأ المدارس وفد إلى حلب الشيخ الفقيه شعيب بن أبي الحسن بن الحسين بن أحمد الفقيه الأندلسي الشافعي، فصير له هذا المسجد مدرسة فعرفت به³، وقد لازم الشيخ شعيب التدريس بالمدرسة إلى أن توفي سنة 596هـ/1199م، ثم وليها بعده الشيخ شمس الدين محمد بن موسى الجزولي وبقي بها إلى أن توفي سنة 633هـ/1236م⁴.

9- المدرسة العمادية :

المدرسة العمادية الصلاحية بالشام ذكر عز الدين ابن شداد (ت684هـ/1285م) أن بانيها الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، والواقف عليها صلاح الدين، أول من درّس بها عماد الدين الكاتب ثم من بعده ولده عز الدين، إلا أن النعيمي (ت978هـ/1570م) يقول: "إنما بناها نور الدين محمود ابن زكي الشهيد رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الله الحارثي، وهو أول من درّس بها"⁵، والقول الثاني هو الأصح، فابن كثير (ت774هـ/1372م) يذكر أن نور الدين محمود هو من بناها فسمّاها المدرسة

¹-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص304-305. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص340-341. محمد كرد علي، المرجع السابق، ج6، ص86، 87.

²- ابن طباخ الحلبي، المصدر السابق، ج2، ص67.

³- ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص294.

⁴- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص257. ابن الشحنة، المصدر السابق، ص112.

⁵-النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص308.

النورية الشافعية، وسُميت بالعمادية نسبة إلى عماد الدين الكاتب الذي قدم إلى دمشق في شعبان سنة 562هـ/1166م، ليس لأنه أول من درّس بها ولكن لكثرة إقامته بها وتدرّسه فيها¹، فقد ولاه نور الدين محمود التدريس بها في رجب سنة 567هـ/1171م²، وتقع هذه المدرسة داخل باب الفرج والفراديس قرب الدماغية من قِبَلِه، وقد تحولت إلى كُتّاب للصبيان في زقاق الخندق³.

10- المدرسة العادلية الكبرى بدمشق :

تقع شمالي الجامع بغرب وشرقي خانقاه الشهابية ومقابل الجاروخية تجاه باب الظاهرية، يفصل بينهما الطريق المؤدي إلى باب البريد، بدأ بإنشائها نور الدين محمود للإمام قطب الدين النيسابوري (ت578هـ/1182م) ولم يُتَمَّها، فقد عاجل الأجل الباني والمبني له قبل إتمامها، فعمل فيها الملك العادل سيف الدين ولم تتم، ثم ولده الملك المعظم ووقف عليها أوقافا كثيرة ونسبها لوالده الذي دفن فيها⁴. وقد وصفها ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) بأنها أعظم مدارس الشافعية بدمشق⁵.

11- مدارس حرّان :

ساد المذهب الحنبلي في المؤسسات التعليمية المنتشرة بحرّان، كما كانت هذه البلدة مقرا "للصالحين المتزهدين، ومثابا للسائحين المتبتلين... أما عبّادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم أكثر من أن يقيدهم الإحصاء... ولهذه البلدة مدرسة ومارستان " حسب ابن جبير⁶، وتلك المدرسة هي التي أمر نور الدين محمود بإنشائها للشيخ "حامد بن محمود الحراني" الذي

¹ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج 6، ص 636-637.

² - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2، ص 17. البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص 53.

³ - محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج 6 ، ص 85.

⁴ - محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 81.

⁵ - ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 69.

⁶ - ابن جبير، المصدر السابق ، ص 220، 221.

كان ورعا وثقة"، توفي سنة 570هـ / 1174م، وقد أخذ عنه العلم جماعة من أهل حران منهم فخر الدين بن تيمية الذي أنشأ مدرسة خاصة به لتدريس الفقه على المذهب الحنبلي¹.

إلى جانب كل هذه المدارس فقد ذكر ابن واصل (ت 697هـ / 1297م) أن لنور الدين محمود مدارس أخرى، مدرستان بحماة ومدرستان بحمص إحداها للحنفية والأخرى للشافعية²، ولكنه اقتصر على ذلك دون التفصيل في ذكر تاريخ بنائها ولا أول من درس بها، كما نسب عز الدين ابن شداد (ت 684هـ / 1285م) زاويتين لنور الدين محمود بجامع حلب الأولى للمالكية والثانية للحنابلة دون ذكر تاريخ انشائهما³.

ومن خلال ما سبق نجد أن المدارس في عهد الدولة الزنكية لم تقتصر على مذهب واحد وإنما اعتنت بكافة المذاهب خاصة الحنفي والشافعي، فالحنفي لأن نور الدين كان حنفياً دون تعصب أو انحياز، والشافعي لأن نور الدين اعتمد على خريجي المدارس النظامية في الكثير من المهمات فنجد أن جُل المدارس الشافعية زمن الدولة الزنكي كان المُدرس بها على المذهب الشافعي ومن خريجي المدارس النظامية فالراجح أن نور الدين قد تأثر بنهج النظاميات في مقاومة الوجود الشيعي وحاول أن يُوظف ثمرات خريجها في هذا المجال.

ونستنتج كذلك أن جهود الدولة الزنكية والأيوبية كانت متكاملة فإما تُبنى المدرسة في عهد الأولى ليتم ترميمها في عهد الثانية أو أنه يُشرع في بناء المدرسة في عهد الأولى ويتم استكمالها في عهد الثانية .

¹ - صالح محمد حمدان الغامدي ، المرجع السابق ، ص 87.

² - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 282.

³ - عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 286.

ثانيا : دور العلماء والقادة والمرأة في مقاومة الوجود الشيعي.

1-تشبيد العلماء للمدارس لمقاومة الفكر الشيعي:

أ-المدرسة الحنبلية الشريفة :

أوقفها الشيخ شرف الإسلام عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الحنبلي عبد الواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي ، ثم الدمشقي الفقيه الواعظ شيخ الحنابلة بالشام بعد والده¹ .

ب-المدرسة العمرية الشيخية :

تقع هذه المدرسة وقت بنائها في أفضل أماكن النزهة في دمشق فكانت على سفح جبل قاسيون في وسط دير الحنابلة على نهر يزيد الذي يمر في طرفها القبلي²، أوقفها وبنائها الشيخ أبو عمر الكبير (ت607هـ/1210م)³ على الحنابلة، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، وكان من الأولياء المشهورين⁴، ولكنها لم تبقى حكرا على الحنابلة فقد دُرِس بها للحنفية والشافعية⁵.

¹ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج2، ص50.

² - صالح محمد حمدان الغامدي ، المرجع السابق ، ص 92.

³ - هو محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة ، الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي و لد سنة 528هـ/1133م بجماعيل في جبل نابلس من أرض فلسطين ،وهو أخو الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ،هاجر به والده و بأخيه وأهلهم إلى دمشق لاستيلاء الفرنج على القدس ، فنزلوا بمسجد أبي صالح ، ثم انتقلوا إلى جبل قاسيون، كان الشيخ أبو عمر كثير العبادة والتهدد يصوم الدهر ،حفظ القرآن والفقه والحديث، كتب تفسير البغوي والجلية لأبي نعيم، والإبانة لابن بطة وكتب مصاحف كثيرة للناس ولأهله بلا أجرة ، خرج إلى جانب صلاح الدين الأيوبي في غزواته ضد الفرنج، وشهد فتح بيت المقدس وغيرها ، خطب بجامع جبل قاسيون إلى أن توفي في 29 ربيع الأول 607هـ/1210م . انظر :الذهبي، العبر في خبر من عبر ، ج3 ، ص147، ابن كثير ، المصدر السابق، ج7 ، ص113، 115. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج7 ، ص 50، 56.

⁴ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج2، ص77.

⁵ - محمد بن طولون الصالحي، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، تحقيق : محمد أحمد دهمان، ج1، ط2، مجمع اللغة العربية ، دمشق، ، ج1 ، 1980. ص 248.

وتعتبر هذه المدرسة من أعظم المدارس بالشام، وقد بنى بها الشيخ أبو عمر المسجد وعشر حجرات لطلبة العلم، لكن ما لبثت أن تضاعفت هذه الحجرات كما تزايد الوقف عليها، فوقفها لا يمكن حصره، حتى شملت على خيرات كثيرة¹، وبهذه المدرسة عدة خزائن للكتب الموقوفة من الناس، أعظمها كتب السيد الحسيني، وكتب الشيخ قوام الدين الحنفي، وكتب الشيخ البانياسي، وكتب المحدث جمال الدين بن عبد الهادي ومنها كتب شهاب الدين بن منصور، وفي هذه الكتب مصحف بخط الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه².

ج-المدرسة المسمارية :

واقفها الشيخ الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرئ التاجر (ت546هـ/1151م)، تقع قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق، وقد قرأ الشيخ مسمار بالروايات وسمع الحديث ورحل إلى بغداد، ثم إلى دمشق حيث كان يصلي بحلقة الحنابلة صلاة التراويح³.

د-المدرسة البلخية:

كانت تعرف قديما بخربة الكنيسة، وتعرف أيضا بدار أبي الدرداء رضي الله عنه، وهي مدرسة للحنفية، أنشأها الأمير كز الدقاقي سنة 548هـ /1153م للشيخ برهان الدين أبي الحسن البلخي علي بن الحسن الحنفي، كان واعظا وزاهدا معرضا عن الدنيا وهو الذي قام بإبطال " حي على خير العمل " من حلب في عهد نور الدين محمود⁴.

¹ - عبد القادر بدران ، المرجع السابق ، ص 244.

² - محمد بن طولون الصالح، تاريخ الصالحية ، ج 1 ، ص 248.

³ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج 2، ص 89.

⁴ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج 20 ، ص 276. النعيمي ، المصدر السابق ، ج 1، ص 368.

كما أنشأ القاضي الشهرزوري (ت586هـ/1190م) مدرستين للشافعية الأولى بالموصل والثانية بنصيبين وأوقف عليهما الأوقاف¹.

2- تنافس القادة في بناء المدارس لمقاومة الفكر الشيعي :

وبما أن مشروع مقاومة الوجود الشيعي هو مشروع دولة، وسلطين الدولة تبني بناء المدارس لهذا الغرض، فإننا نجد أن هذه الجهود لم تقتصر على سلاطين الدولة الزنكية فحسب بل تعدته إلى الأمراء والقادة العسكريين كذلك.

وأهم نموذج عن ذلك جهود أسد الدين شيركوه (ت564هـ/1168م) في إنشاء المدارس والسهر على تمويلها، فقد أنشأ المدرسة الأسدية بدمشق وهي على الطائفتين الشافعية والحنفية²، وأول من درس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري³.

ولشيركوه بدمشق مدرستان: المدرسة الأسدية البرانية والجوانية، وقد أوقف عليهما قريتي برزة وضمير، وكان من أبرز المدرسين بها في زمن عزها : العز القرشي أبو الخطاب، والركن البجلي، وصلاح الدين العلاني، وشرف الدين الأذري وغيرهم ، ولكن المصادر لم تحدد تاريخ انشاء هتين المدرستين⁴.

¹ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج18، ص 233. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج21، ص 59. ابن كثير ، المصدر السابق، ج7 ، ص 5.

² - النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص114. ابن الشحنة ، المصدر السابق ، ج112.

³ عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 253.

⁴ - عبد القادر بدران ، المرجع السابق ، ص 79.

بالإضافة إلى أمين الدولة كمشتكين (ت541هـ/1146م)، أتابك العساكر بدمشق ونائب قلعة صرخد وقلعة بصرى، الذي وقف المدرسة الأمينية¹، وقيل أنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية².

وقد بنى الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يامين بن علي بن محمد الجلاي الكردي³ أحد مقدمي الجيش النوري بالشام المدرسة المجاهدية الجوانية، تقع قبالة باب دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين، وكان أول من درّس بها قاضي القضاة منتخب الدين أبو المعالي محمد ابن قاضي القضاة أبي الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز القرشي⁴، كما أنشأ مدرسة ثانية وهي المدرسة المجاهدية البرانية للشافعية، وهي جنب باب الفراديس المجدد، وممن تأكد أنهم ولوا التدريس بها: شمس الدين عبد الكافي، ومن بعده تاج الدين أبو بكر الشحروري⁵.

ولم يكن بناء المدارس للفقهاء الشافعية فقط بل تنوعت المدارس كل حسب مذهبه فقد أنشأ الأمير التاشي الدقاقي مدرسة للحنفية بدمشق سنة 550هـ/1155م، وقد كانت جامعاً قبل ذلك تعرف بمسجد التاشي، ثم عُرفت بعد ذلك بالمدرسة التاشية وأول من درس بها القاضي عز الدين أبو عبد الله محمد الحنفي⁶.

¹ - الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج37، ص 57. وأول من درس بها برهان الدين البلخي ينظر: محي الدين بن أبي الوفا القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط2، 1993، ج2، ص561

² - النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص132-133.

³ - من ذوي الوجهة في الدولة موصوف بالشجاعة و البسالة و السماحة مثابر على بث الصلاة والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء ، توفي في صفر 555هـ/1159م، ودفن بالمدرسة المجاهدية البرانية المنسوبة إليه .ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص627. أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص 387.ابن قلائسي، المصدر السابق، ص359.

⁴ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص343-345. أبو شامة ،المصدر السابق ، ج1 ، ص 387.محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 87.

⁵ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص347. أبو شامة، المصدر السابق ، ج1، ص 388. محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 87.

⁶ - النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص373.

المدرسة الطومانية نسبة إلى طومان النوري¹، بناها للحنفية بحلب في عهد نور الدين محمود.

وهناك مدرسة أخرى بدمشق خارج باب توما للحنفية تسمى المدرسة الزنجارية، أنشأها نائب عدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي، وأول من درّس بها حميد الدين السمرقندي، وهي من أحسن المدارس حسب النعيمي².

بالإضافة إلى المدرسة المُعِينِيَّة بحصن الثقيفين بدمشق، أنشأها معين الدين أنر، وهي مدرسة للحنفية أنشئت سنة 555هـ/1155م³.

5-الإسهام العلمي للمرأة في مقاومة الفكر الباطني:

لم تستقطب السياسية التعليمية النورية الرامية إلى مقاومة الفكر الشيعي الفقهاء من الرجال فقط، بل تعدته إلى النساء العالمات الفقيّهات، فنلن حظهن من التقدير والإكرام، وقد وصلت المرأة إلى أسمى درجات العلم والفقّه، فكان من النساء الفقيّهة " فاطمة(ت581هـ/1185م) " بنت الفقيه " محمد بن أحمد السمرقندي(ت538هـ/1144م)، والتي زوجها والدها من تلميذه " علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني(ت587هـ/1190م)"⁴، وقد كانت على قدر كبير من العلم والتقوى والصلاح، تفقّحت على أبيها وحفظت مصنفه " التحفة " وكانت تتقل الفتوى نقلا جيدا، وكانت تمارس

¹ - وهو طومان بن ملاعب بن عبد الله الأنصاري الخزرجي النوري حسام الدين نجم الدولة الأمير الفضل صاحب الرقة كان شجاعا جوادا ، محبا للخير كثير الصدقات ، مائلا إلى العلماء و الفقهاء ، كان السلطان يحبه ويعتمد عليه وكان من شجعان المسلمين وأكبر أمراء نور الدين محمود ، توفي مع السلطان صلاح الدين الأيوبي في النصف من شعبان سنة 585هـ/1189م ، وقد جاوز سنه المائة . ينظر: النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص417.

² - النعيمي، المصدر السابق ، ج1، ص404، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 18.

³ - نفسه ، ج1، ص451.

⁴ - أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني ، الملقب بعلاء الدين (ت 587هـ/1190م) : قال عنه عز الدين ابن شداد : "كان من ذوي التحصيل والتفريغ والتأصيل، صنف التصانيف البديعة في أحكام الشريعة ، والكتب التي سار في الآفاق ذكرها ، واستوى في شياها خَبرها وخَبرها، ينظر: عز الدين ابن شداد، المصدر السابق ، ص 269.

الافتاء، وهي التي سنت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب واستمر ذلك بعد وفاتها¹.

وقد كانت المرأة عنصراً فعالاً في الدولة الزنكية خاصة في الجانب العلمي فقد سمعت الحديث وحفظت القرآن الكريم²، واجتهدت في بناء المدارس ودور التعليم للفقهاء والعلماء، والراجح أنها حاولت من خلال ذلك المساهمة في مقاومة الفكر الشيعي الباطني في زمن اشتد فيه خطر هؤلاء على المجتمع الإسلامي وكأمثلة على ذلك نجد :

أ- **المدرسة الخاتونية البرانية** : عند قرية صنعاء الشام بكان يقال له تل الثعالب بدمشق، وهذه المدرسة نسبة إلى الست خاتون³ أم شمس الملوك أخت الملك دقاق بن تتش لأمه وابنة الأمير جاولي، أوقفها على الشيخ برهان الدين على بن محمد البلخي الحنفي (548هـ/1151م)⁴.

ب- **المدرسة الخاتونية الجوانية**: أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين⁵، بمحلة حجر الذهب بدمشق، وأوقفها للحنفية¹، كما أنشأت دار للحديث في الخانقاه التي بنتها بباطن حلب².

¹ - صالح محمد حمدان الغامدي ، المرجع السابق ، ص 117.

² - فالظاهر أن دور المرأة في العهد الزنكي ، لم يقتصر على تشييد المراكز التعليمية بل تعداه الى التدريس و سماع ورواية الحديث ، وقد ذكر الدكتور عرسان الكيلاني نماذج كثيرة لأولئك النسوة اللات كرسن حياتهن للمشاركة في حركة الجهاد لاسترجاع المقدسات و الدفاع عن الحرمات ، ولولا ضيق حيز الدراسة لكنا أردنا جهودهن في هذا المجال : ينظر، ماجد عرسان الكيلاني ، المرجع السابق ، ص 314 وما بعدها .

³ - كانت زوجة الملك بوري بن طغتكين ، وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل و محمود ، قرأت القرآن ، وسمعت الحديث ، وكانت حنفية المذهب تحب العلماء و الصالحين ، وقد تزوجها الأتابكي زنكي صاحب حلب سنة 532هـ ، عادت إلى دمشق بعد وفاته وقد دخلت بغداد و سارت من هناك إلى الحجاز و مكنت بمكة سنة ثم أقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت بها سنة 557هـ/1161م .ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 630. ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية، ص 108.

⁴ - محي الدين بن أبي الوفا ، المصدر السابق ، ج2، ص 561 ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 630، النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 384.

⁵ - هي الست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، كانت زوجة الملك نور الدين محمود ، وبعد وفاته تزوجها صلاح الدين سنة 572هـ/1176م، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر وهي من أعف النساء=

وفي الأخير يمكننا القول أن الغاية من جرد هذه المدارس ليس عدد المنشآت العلمية بل الوقوف عند جهودها في مقاومة الوجود الشيعي فالمعلوم عن نور الدين تحمسه للعلم وتشجيعه للعلماء ووقفه الأموال الطائلة لتحقيق مشروعه الرامي إلى القضاء على مخلفات الفكر الباطني في بلاد الشام، وقد نجحت هذه المدارس إلى حد كبير من تقليص النشاط العلمي للشيعية خاصة في دمشق وحلب من خلال التدريس وتكوين طلبة يمكن الاعتماد عليهم في المهام الحساسة في الدولة كالتعليم والخطابة والوعظ التي من شأنها القضاء على الفكر الباطني .

ثالثاً- جهود علمية أخرى لنور الدين في مقاومة الفكر الشيعي .

1- تقريب نور الدين للعلماء لمواجهة الفكر الباطني :

كان نور الدين محمود حنفي المذهب يُحب العلماء والفقهاء ويكرمهم ويحترمهم، فقربهم إلى مجلسه وأحاطهم بهالة من التوقير والاحترام³، ولم يكن يقطع في أي أمر من أمور الدولة إلا استشارهم وجمعهم للنظر والفصل فيه، هذه المعاملة المتميزة التي انتهجها نور الدين محمود جعلته مقصد العلماء والفقهاء من مختلف أرجاء البلاد الإسلامية من خراسان وغيرها، فكان أهل الدين عنده في أعلى المراتب وأعظمها⁴، ولم تقف جهود نور الدين عند حد العناية بالعلماء الحنفية والشافعية، بل كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة، لذلك نجده

=وأعصمهم وأجلهم في الصيانة ، متمسكة بالدين، ولها أمر نافذ ومعروف وصدقات ورواتب للفقراء وإدارات ، توفيت في ذي القعدة 581 هـ/1185م. ينظر: ابن كثير، المصدر السابق ، ج7، ص4، أبو شامة ،المصدر السابق، ج 3، ص243.

¹- النعيمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 388.

²- عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 287.

³- ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 660.

⁴- أبو شامة ، المصدر السابق ، ج1، ص 47.

يعتني بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، ونجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة لمقاومة الفكر الشيعي¹.

وإن الميزة التي تميز بها عهد نور الدين محمود أنه استكمل جهوده السياسية بأخرى فكرية في مواجهة الأخطار الخارجية خاصة الشيعة، فاستعان بالعلماء في تسيير أمور الدولة واتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بالأمة الإسلامية، فقد ثبت أنه كان لنور الدين محمود مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه يجمعهم للبحث والنظر²، وقد أورد لنا بعض المؤرخين أن القادة العسكريين نَفَّسوا على العلماء هذه المكانة بأن حاولوا الحط من مكانتهم لدى نور الدين فصاروا يغتابون العلماء في مجلسه، فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: "ومن المعصوم وإنما الكامل من تعد ذنوبه"³، وقد حدث أن اغتاب أمير الفقيه قطب الدين النيسابوري (578هـ/1182م)، فدافع نور الدين عنه وقال للقائد: "يا مسكين، لو نظرت في عيب نفسك لشغلك عن عيوب غيرك، ولو صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، والله لئن عدت إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤذنيك"⁴.

كما حرص نور الدين محمود طيلة فترة حكمه على تقريب العلماء والفقهاء والإنفاق عليهم، وقد أثار ذلك حفيظة بعض الحاسدين المفسدين، الذين أشاروا على نور الدين محمود بقطع أرزاق أولئك لما ازداد الضغط على بيت مال المسلمين، جراء ازدياد النفقات لتجهيز الجيوش لمواجهة الصليبيين، وقد غضب لذلك وقال: "والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنما ترزقون وتتصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على

¹ - الصلابي، الدولة الزنكية، ص 581.

² - ابن الأثير، الباهر، ص 171. ابن واصل، المصدر السابق، ج 1، ص 283. ماجد عرسان الكيلاني، المرجع السابق، ص 264.

³ - ابن الأثير، الباهر، ص 171. أبو شامة، المصدر السابق، ج 1، ص 47.

⁴ - ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص 37.

فراشي بسهام لا تخطئ ... وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم" ¹.

وفي نفس السياق نجد أن نور الدين محمود اهتم اهتماما بالغا بالعلماء والمدرسين، فوفر لهم الرعاية والتشجيع، كما وفر لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره، ومن شدة اهتمام نور الدين بالعلم كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه، ويستقدمهم من أماكن بعيدة، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم، وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة ليقوم بالتدريس فيها، فقد بنى نور الدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون (ت585هـ/1189م) في دمشق، وفوض إليه التدريس فيها، وسمح له أن يوليها من يشاء، وبنى لقطب الدين النيسابوري (ت578هـ/1182م) مدرسة لم يتمها، وكانت الغاية من بناء المدارس تكوين وتخريج أساتذة وموظفين متعمقين في المذهب السني، كي يتولوا وظائف في السلطة ويواجهوا الفكر الشيعي ².

والميزة التي اختص بها العلماء الذين استقطبهم نور الدين أنهم متحمسين للمذهب السني مناهضين للفكر الشيعي، فبذلوا جهدهم في إحداث التغيير وإقصاء الفكر الشيعي من المؤسسات والمدارس والمجتمع، فوجد نور الدين محمود ضالته في هؤلاء العلماء، فتوافد إليه العلماء من المشرق والمغرب مثل: الإمام الفقيه محمد بن أبي القاسم البلخي من بلخ وفد إلى دمشق في شوال 552هـ/1157م ³، ومن الأندلس جاء الفقيه "علي بن سليمان بن أحمد أبو الحسن الأندلسي القرطبي (ت552هـ/1175م)" إلى دمشق بعد أن تفقه في بغداد وخراسان على كبار العلماء، فندبه نور الدين للتدريس في حماة، فمضى إليها ثم انتقل إلى

¹- ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 463. نفس النص لدى ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص314.

²- أمينة البيطار، سهيل زكار، المرجع السابق، ص276.

³- ابن قلاسي، المصدر السابق، ص 347.

حلب ودرس بها بمدرسة ابن العجمي، وكان ثبًا صلبًا في السنة وقد اجتهد كثيرا في مناهضة الفكر الشيعي وإظهار المذهب السني¹.

كما كانت غاية نور الدين من استقدامه للعلماء هو أن يجعلهم بطانة أمره، ويوظفهم في المناصب الحساسة في هذه المرحلة الحرجة، إلى جانب قيامهم بالتدريس، فإن اتباع الدولة النورية لسياسة توسعية سواءا بالنسبة للقوى الشيعية أو الصليبية المجاورة لها جعلتها في أشد الحاجة إلى من يدافع عن وجهة نظرها يبرر تلك السياسة بكافة الوسائل وأفضل من يقدر على ذلك العلماء والمؤرخون الرسميون الذين عملوا في مناصب إدارية وعلمية² وعبروا عن وجهة نظر الدولة الرسمية³.

كما أنه وظف العلماء في مناصب حساسة كالقضاء والسفارة، فعين الإمام كمال الدين بن الشهرزوري قاضيا على مدينة دمشق سنة 555هـ/1159م⁴، فقد كان مشهورا: "بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة عن الاشفاف وتجنب الهوى والظلم"⁵.

وإلى جانب ذلك اتخذ من العلماء كسفراء يمكن أن يثق بهم في علاقاته الخارجية خاصة مع الخلافة العباسية الذي كان تابعا لها، فنجده ينفذ القاضي الشهرزوري (ت572هـ/1177م) رسولا إلى المقتفي (530-555هـ/1135-1159م)، وقد سبق وأن اتخذ والده عماد الدين لنفس الغرض⁶، وكلف العماد الكاتب (597هـ/1200م) بالتوجه إلى بغداد لإعلام الخليفة العباسي عن تحركاته وإنجازاته ضد الصليبيين⁷، كما أنه أوفد شرف

¹ - صالح محمد حمدان الغامدي، المرجع السابق، ص 122-123.

² - ويعتبر ابن عساكر ابن الأثير والعماد الكاتب من أبرز العلماء الذين عاصروا الدولة الزنكية وأرخوا لها.

³ - محمد مؤنس أحمد عوض، المرجع السابق، ص 278.

⁴ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 403.

⁵ - ابن قلاتسي، المصدر السابق، ص 359-360.

⁶ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 21، ص 59. ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 5.

⁷ - أبو شامة، المصدر السابق، ج 2، ص 169.

الدين ابن أبي عسرون (585هـ/1189م) إلى بغداد نائباً عنه لمبايعة الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566-575هـ/1170-1179م)¹، كما أرسل شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عسرون إلى بغداد لنقل بشرى إسقاط الخلافة العبيدية والدعوة للخليفة العباسي على المنابر بمصر².

وكان لاحتكاك نور الدين بالعلماء أثره في تكوين شخصيته، حيث تشبع بالعلوم والمعارف التي أخذها عن الشيوخ والعلماء، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية، يعقد المجالس العلمية ويوجه الأسئلة إلى الفقهاء مستفسراً عن المسائل الغامضة³، حتى بلغ مكانة في العلم سمحت له بتأليف كتاب في الجهاد⁴، كما حصل على إجازة لرواية الحديث، فقد حدث بحلب بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له، منهم: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري، كما روى عنه جماعة من الشيوخ مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي⁵، فكان له بذلك دور في الناحية العلمية بالتأليف وروايته للحديث إضافة إلى جهوده جهوده الأخرى.

¹ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 179.

² - نفسه ، ج 2 ، ص 203.

³ - ابن قاضي شهابية ، الكواكب الدرية ، ص 17-18. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 660.

⁴ - محمد مؤنس أحمد عوض ، ، المرجع السابق ، ص 277.

⁵ - أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 57.

2- بناء خزائن الكتب وأثرها في مقاومة الفكر الباطني:

انعكست الجهود العلمية للدولة الزنكية بشكل إيجابي على حركة التأليف، فنتيجة لاستقطاب نور الدين محمود لعدد كبير من خيرة العلماء وتدعيمهم ماديا ومعنويا بإقامة المدارس وتقريبهم، تفرغ هؤلاء للتأليف خاصة في العلوم الشرعية والحديث واللغة، خدمة لمشاريع الدولة الرامية إلى نشر الوعي والعلم ومحو الأمية التي من شأنها أن تهدم الأمة من الداخل إن هي وقعت فريسة لدى الفرق الضالة خاصة الباطنية، فقد واجه الزنكيون الكفر والبدعة في زمن تعرض فيه العالم الإسلامي لهجمات صليبية وباطنية على السواء.

ولقد انعكس ذلك إيجابا على تدعيم خزائن الكتب التي حظيت في العهد الزنكي بنفس الإهتمام الذي لاقته المدارس، فلا نكاد نجد مدرسة في بلاد الشام تخلو من خزانة للكتب، تحوى عناوين عديدة ومؤلفات مشهورة تضرب في مجملها الفكر الشيعي الباطني، وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين أهمهم : الخازن والنساخ والمجلدون والمناولون، كما كان لكل مدرسة خزانة كتب وقف خاص بها، يصرف على الناظر والمدرسين والفقهاء والطلاب وغيرهم، وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص لخزانة الكتب موقوفا من قبل واقف المدرسة بعينه، فقد يوقف الأوقاف لمدرسة من المدارس أشخاص غير الذين بنوها فإذا كان لها وقف سابق توسع وقفها، وإذا لم يكن لها يصبح لها أوقاف تساعد على بقاء نشاطها التعليمي واستمراره¹.

ومن بين خزائن الكتب في العهد الزنكي تلك التي كانت بحلب، حيث تذكر المصادر التاريخية أن التاريخ التقريبي للفترة التي وجدت فيها هذه المكتبة هو أوائل القرن السادس الهجري أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، الذي اشتهر بحب العلم ووقف الكتب، وقد حوت هذه المكتبة العديد من الكتب في مختلف أصناف المعرفة، وإن غلب

¹ - أمينة البيطار ، سهيل زكار ، المرجع السابق ، ص 279.

عليها كثرة المؤلفات الموجهة ضد الشيعة الإسماعيلية، ويرجح المؤرخون أن إحراق هذه الخزانة التي كان فيها نحو عشرة آلاف مجلد، كان بسبب المؤلفات التي تكشف عوار الإسماعيلية¹.

والأكيد أن بقية المدارس التي أنشأت في بلاد الشام لم تخلوا من المكتبة، نذكر منها المدرسة العمرية الشيعية كانت بها خزانة كتب لا نظير لها، تعد من أهم مكتبات دمشق وغيرها من مكتبات البلاد الإسلامية في ذلك الحين².

فلا شك أن استقطاب العلماء وكثرت التآليف والمصنفات انعكس إيجاباً على إنشاء وتعدد خزائن الكتب التي تعتبر هي الأخرى مظهراً من مظاهر النهضة العلمية والفكرية ومقاومة الفكر الشيعي الباطني.

3-تشجيع التصوف السني ضد الفكر الشيعي الباطني :

عملت الدولة النورية في أعقاب توسعها في بلاد الشام ومصر على دعم التصوف السني المذهب، وذلك تنفيذاً لسياستها الدينية الرامية إلى ترسيخ مذهب أهل السنة والجماعة ، إلى جانب الرغبة في تحقيق هدف سياسي تمثل في محاربة الدولة العبيدية بتدعيم التصوف السني³.

فاهتم نور الدين بالصوفية وقربهم لمجالسه، فبنى لهم الربط والخانقاهات في مختلف الأقاليم، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، وخصص لهم الرواتب والمنح، وكان مجلسه عامراً بمشايعهم فقربهم منه وتواضع لهم⁴.

¹ - محمد علي الجندي ، المقال السابق، ص 116.

² - عبد القادر بدران ، المرجع السابق ، ص 244

³ - محمد مؤنس أحمد عوض ، المرجع السابق ، ص 285.. Nikita Elisséeff, opcit, p430

⁴ - ابن الأثير، الباهر ، ص 169. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 663.

ومن جهة أخرى نجد أن العبيديين عملوا على تدعيم التصوف الشيعي وقد ساعدتهم على ذلك أن هناك صلة وثيقة بين التصوف والتشيع¹، فهناك أمور مشتركة بين كلتا الطائفتين، تتمثل في التركيز على حب آل البيت على وجه فيه غلو انحراف، والاهتمام بالمقامات والأضرحة المنسوبة لآل البيت، وادعاء الكثيرين أنهم من نسل النبي صلى الله عليه وسلم².

وهذا لا يعني أن كل صوفي هو شيعي، وإنما الشيعة بتقنياتهم وبتأويلهم الباطن استقطبوا بعض مريدي الطرق الصوفية من خلال التموه في القواسم المشتركة بينهم.

وقد ظهر زمن الدولة الزنكية ثلة من العلماء تكفلوا بإصلاح التصوف ومفهوم الزهد، وذلك بعد إطلاعهم على الانحرافات التي وقع فيها المريدون، ويأتي عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1165م)³ في صدارة أولئك العلماء حيث أن التصوف في السابق كان

¹ - ظهر التصوف ونشأ في صفوف الزهاد والعباد، وقد عرف المسلمون الزهد والتعبد في تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته العلمية، ثم في تعاليم الصحابة وسيرتهم وكذا من تبعهم، وكان الزهد بسيطاً لا يخرج عن خلاصة التعاليم الإسلامية والأخلاق السامية التي يدعوا إليها، فاندس المنحرفون في صفوف أهل الزهد والعباد، لبث ونشر انحرافاتهم لما رأوا من ميل الناس إلى الزهاد والعباد و تقديرهم و محاولة الاقتداء بهم ، خاصة بعد ابتعاد الولاة والناس عن حياة السلف الصالح بسبب الانغماس في ملذات الدنيا، لذلك اندس في صفوف الزهاد، الرافضة المنحرفون، بعد حياة حافلة بالعنف والثورات والخروج على الحكام لإقامة دولة لهم، ولما رأوا فشلهم ويطش الحكام بهم لجأوا إلى الزهد واندسوا في صفوف الزهاد لبث سموهم ورفضهم بين العامة. للتوسع أكثر في الموضوع : فلاح بن إسماعيل بن أحمد، العلاقة بين التشيع والتصوف، رسالة دكتوراه في أصول الدين، المملكة العربية السعودية، 1990، ص 113. كامل مصطفى الشبيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، مصر ، ط2 ، د ت .

² - علي إمام عبيد، حقيقة الفكر الشيعي وعوامل انتشاره ، الدار الإسلامية للطباعة و النشر ، مصر ، ط1، 2008، ص16.

³ - هو محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله ابن جنكي دوست بن أبي عبد الله بن عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله ابن موسى الحوزي بن عبد الله المحصن بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الجيلي الحنبلي، ولد بجيلان، وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها كيل و كيلان والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلائي، ولد سنة 471هـ/1078م، دخل بغداد صغير السن وسمع الحديث وتفقه على يد كبار العلماء، وكان أبو سعد المخرمي قد بنى مدرسة بباب الأزج وفوض إلى عبد القادر التدريس بها، فوعظ الناس فانلقوا به انتقاعاً كثيراً، وظهر

يقوم على أساس فردي لا أثر للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي تزامن نشاطه والدولة النورية، فجاءت جهودهما مشتركة ومكملة لبعضها البعض، فقد كان من جوانب الإصلاح التي أحدثها عبد القادر الجيلاني على التصوف أن حارب المبتدعة في الدين والفرق الضالة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي والتيارات الفكرية المنحرفة¹.

كما عمل عبد القادر الجيلاني بتتقية التصوف مما طرأ عليه من الانحرافات في الفكر والممارسة، ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربية، هدفها الأساسي غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح، ويمثل كتابه: "الغنية لطالبي طريق الحق" و"فتح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال²، ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى "كتاب السلوك" وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة³.

له صيت في الزهد، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، كان من سادات المشايخ الكبار، وهو شيخ الطريقة القادرية وإمام الحنابلة في وقته. توفي ليلة السبت 8 ربيع الثاني 561هـ/1165م، عن عمر يناهز التسعين سنة. ينظر: ابن الجوزي، =المنتظم، ج18، ص173. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص439. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص635. ابن رجب، المصدر السابق، ص187. ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص330-331. السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص414.

¹ - الصلابي، الدولة الزنكية، ص587. للتوسع أكثر حول انجازات عبد القادر الجيلاني ينظر: سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني وأراءه الاعتقادية و الصوفية، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض، 1997. ص24. عبد الرزاق الكيلاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ط1، دار القلم، بيروت، 1994، ص209-210.

² - ماجد عرسان الكيلاني، المرجع السابق، ص208. لكن المؤسف في الأمر أن جهود عبد القادر الجيلاني في القضاء على الانحرافات في العقيدة والزهد اختفت مع مرور الزمن و اخذ أتباعه في تعظيمه وتقديسه، ونسبة الكرامات له والخرافات التي لا يمكن بأي حال قبولها وتستحيل نسبتها إلى الشيخ لما عرف عنه من زهد وورع وتقوى، فانحرفوا بذلك عن نهجه وأسلوبه الأصلي. ينظر كتاب: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص450-451. إحسان الهي ظهير، دراسات في التصوف، ط2، دار الإمام المجدد، مصر، 2005. ص265.

³ - أحمد بن محمد بناني، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط3، 2005، ص120.

4- بناء المساجد والجوامع ودورها في مقاومة الفكر الشيعي:

لم يقتصر التعليم في هذا العصر على المدارس، فقد كان يتم أيضا في المساجد تعليم العلوم الدينية والعربية غالبا، والاجتماعية والعقلية نادرا، وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج¹.

وقد اهتم السلاطين والأمراء الزنكيون بإنشاء المساجد وتجهيزها بصفاتها مؤسسة تعليمية ذات أهمية كبيرة في المجتمع، ولما لها من دور في توعية الناس من أخطار الفكر الشيعي المنتشر في ربوع العالم الإسلامي، وذلك باعتبار المسجد مكان عبادة وتعلم وتوجيه وإرشاد وملتقى الوجوه من الناس ومقر ندواتهم، فحرص الزنكيون على تجهيزها وإصلاحها حتى تؤدي مهمتها على أكمل وجه، فاهتموا بإنارتها وفرشها، كما حرصوا على أن يدرس بها أكبر العلماء والفقهاء، فاكنت بالطلبة في الفنون العلمية المتعددة، وأصبح تشييد المساجد سنة حميدة يتنافس فيها الأمراء والقادة على إنشاء هذه المؤسسات التعليمية في بلاد الشام وما حولها، حتى بلغت في حلب وحدها ما يربو عن مائتان وأربعة مساجد حسب ابن شداد².

وبذلك لم يقتصر التعليم على المدارس وإنما حافظ المسجد الجامع على وظيفته الأولى التي جمعت بين العبادة والتعليم، فقد أولى نور الدين محمود عناية بالغة ببناء المساجد وتعميرها وترميم ما هُجر أو خُرب منها، كما أوقف عليها الأوقاف الجليلة³، إذ يقول عنه ابن الأثير: "وبنى الجوامع في جميع البلاد"⁴، وهذا حرصا منه على إبقائها منبرا من منابر العلم في الدولة الإسلامية، فقد كانت المساجد مراكز تعليمية ركزت على بث الروح

¹- أمينة البيطار، سهيل زكار، المرجع السابق، ص280.

²- عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ص181.

³- البنداري، سنا ابرق الشامي، ص72.

⁴- ابن الأثير، الباهر، ص170.

الإسلامية من جديد، وركزت على تجفيف التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت أثارا عميقة في عقائد الناس وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية¹.

ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

المسجد الذي أنشأه نور الدين محمود في درب مدرسة بني عصفرون ب حلب²، وكان جامع الموصل من بين الجوامع التي أشرف نور الدين على بنائها وأنفق عليه ستين ألف دينار³، وقد كان في غاية الحسن والإتقان⁴، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوض أمر عمارته والخراج عليه إلى الشيخ عمر الملا، وهو رجل من الصالحين⁵، ولما فرغ من بنائه أوقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه خطيبا ومؤذنين⁶، وعين الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي، مدرسا في ذلك الجامع⁷.

وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها⁸. وإن دل هذا على شيء فهو يدل على حرص نور الدين الشديد على نشر الدين الإسلامي بصبغته السنية في كامل بلاد الشام بعد أن عانت من الممارسات الشيعية لفترة طويلة.

¹ - ماجد عرسان الكيلاني ، المرجع السابق ، ص 258.

² - عز الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 182.

³ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج 18 ، ص 209-210.

⁴ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 282.

⁵ - ابن الأثير ، الباهر ، ص 170.

⁶ - ابن قاضي شهاب ، الكواكب الدرية ، ص 36.

⁷ - أبو شامة، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 172.

⁸ - ابن الأثير ، الباهر ، ص 170. ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 283.

كما رمم نور الدين مسجد حلب¹ الذي أحرقتة الإسماعيلية في 27 شوال 564هـ/1168م²، و أحرقت الأسواق التي كانت حوله والظاهر أنها كانت موقوفة عليه ، فاجتهد نور الدين في إعادة عمارته، كما أنه سعى إلى توسيعه على حساب السوق المجاورة له والتي كانت موقوفة عليه، واستفتى الفقهاء في الأمر فجوزوا له ذلك، فحسن البناء واتسع، كما أوقف عليه أوقاف جديدة كثيرة³.

ولم يقتصر بناء المساجد على نور الدين محمود فقد تعداه إلى بعض قاداته إلى جانب العلماء وأهل البر، هذا الأمر الذي ينطبق على المدارس كذلك كما ذكرنا سابقا، فقد أنشا أسد الدين شيركوه بن شادي جامعا بالحاضر السليمانى بظاهر حلب⁴.

ومن مناقب نور الدين محمود في المجال المذهبي أنه أوقف الأوقاف الجليلة على زاويتين الأولى زاوية بجامع حلب لتدريس المذهب المالكي وأخرى لتدريس المذهب الحنبلي⁵.

5- مرض نور الدين محمود وأثره على جهوده في مقاومة الشيعة :

عُرف نور الدين بنشاطه العلمي الدؤوب وبعمله المتواصل لدحر الفكر الشيعي في العالم الإسلامي عامة وفي الموصل ودمشق وحلب خاصة، وكان يشرف بنفسه على مشاريعه التعليمية وعلى تثبيط نشاط الشيعة في المنطقة، لكن المرض الذي ألم به بحلب

¹ - ذلك الجامع الذي بناه سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فتأنق في بنائه وزخرفته وزينه بالرخام والفسيفساء ، وكان ينوي من ذلك أن يضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك . ينظر : ابن الشحنة ، المصدر السابق ، ص 62.

² - ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج2، ص330.

³ - ابن الشحنة ،المصدر السابق ، ص63-64.

⁴ - ابن الشحنة ،المصدر السابق ، ص71.

⁵ - عز الدين ابن شداد،المصدر السابق ، ص 386.ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 257.

سنة 554هـ/1158م وشارف على الموت من جرائه¹، خلط الأوراق وأظهر الأطماع وثارت الفتن بين السنة الشيعية بسبب غياب نور الدين عن الساحة السياسية .

وكان نور الدين محمود يتمتع بالحنكة السياسية ما أهله للتقطن لأطماع المحيطين به، فقد كان من جملة ما أوصى به خواص أصحابه أثناء مرضه أن يتولى أمور المسلمين من بعده أخوه قطب الدين مودود والي الموصل واستبعاد نصره الدين أمير أميران والي حلب لما كان يرى فيه من سوء أفعاله وأنه لا يصلح لذلك².

وقد حدث ما تخوف منه نور الدين محمود، فقد كان بحلب أخوه الأصغر نصره الدين أمير أميران محمد بن زنكي، الذي استمال الحلبيين وملك المدينة دون القلعة، فأذن للشيعية أن يزيدوا في الآذان "حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر" على عاداتهم من قبل، وكان يرمي من وراء ذلك كسب نصرتهم وتدعيمهم لمنصبه الجديد بدلا من نور الدين محمود، فعاث الشيعية فسادا في المنطقة، وكان أبرز عمل قاموا به في هذه المرحلة الحرجة أن أثاروا فتنة تصادموا فيها مع أهل السنة، كما نهب الشيعية مدرسة ابن أبي عصرون وغيرها من مدارس أهل السنة³.

لكن سرعان ما تماثل نور الدين محمود للشفاء وأعاد الأمور إلى نصابها بعد أن فر أخوه نصره الدين إلى حرّان⁴، فقد سير نور الدين إلى قاضي حلب، أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة، وكان يلي بها القضاء والخطابة والإمامة، وقال له: "تمضي إلى الجامع، وتصلي بالناس، ويعاد الآذان إلى ما كان عليه"⁵، وقد ثار الشيعية لذلك، لكن لما تسامع العامة بعافية نور الدين تراجعوا وامتثلوا للأمر.

¹ - ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص308. ابن الأثير، الكامل، ج9، ص435. ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص130.

² - ابن قلائسي، المصدر السابق، ص355.

³ - ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص309.

⁴ - ابن الأثير، الكامل، ج9، ص435.

⁵ - ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص310.

وهذه دلالة خطيرة تدل على تحين الشيعة للفرص من أجل الانتفاض على أهل السنة بمجرد وجود فراغ سياسي، وأن العالم الإسلامي كان بحاجة ماسة لقادة أكفاء يتبنون رسالة الدولة الزنكية من أجل حمل راية الجهاد ضد الشيعة، ولهذا فإن صلاح الدين الأيوبي لم يأت من العدم فقد كان يحمل نفس رسالة نور الدين محمود رغم أن هذا الأخير لم يوصي به كخلف له أثناء مرضه، إلا أن الله شاء أن يكون هو وريثه في السلطة والجهاد وهذا ما سنتبينه في القسم الخاص بالجهود العلمية للأيوبيين في مقاومة الفكر الشيعي .

فلم تتوقف جهود نور الدين العلمية ولم تثبطها الظروف السياسية المحيطة بها من الصراع مع الصليبيين من جهة ومن تسيير أمور دولته الشاسعة النطاق من جهة أخرى، بل استمر نور الدين على نفس الوتيرة والنهج في تقريب العلماء وصرف الجرايات عليهم وإنشاء الجوامع والمدارس وقد أدركه أجله وهو بصدد إنشاء عدة مدارس في الشام وغيرها ، منها أنه شرع سنة 568هـ/1172م في بناء مدرسة للشافعية بالقرب من الجاروخية، داخل دمشق شمالي الجامع وهي المدرسة التي عرفت فيما بعد بالعادلية، لأن نور الدين توفي وقد وضع المحراب وبعض البنيان فقط ولم يتم بنائها إلى أن جاء العادل أبو بكر بن أيوب¹ فسميت كذلك نسبة إليه لكنه توفي ولم تتم أيضا فتممها ولده الملك المعظم وأوقف عليها الأوقاف² .

وفي مناسبة أخرى أظهر نور الدين نيته في إنشاء مدرسة ببغداد على حافة الدجلة ويقف عليها قريتي هارون وصريفين من أعمال العراق، التي حصل عليهما من الخليفة العباسي المستضيء (566-575هـ/) على إثر البشارة بإزالة الخطبة للخليفة العبيدي في مصر وإعلان الدعوة للخليفة العباسي، لكنه توفي قبل ذلك³ رحمه الله وجعلها في ميزان حسناته.

¹ - ابن قاضي شهبة ،الكواكب الدرية ، ص 218. النعمي ،المصدر السابق ، ج1، ص 271.

² - النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 271.

³ - ابن قاضي شهبة ،الكواكب الدرية ، ص 220.

ومن هذا نلاحظ الجهود المتواصلة التي بذلها أمراء الدولة الزنكية في إحياء المذهب السني والقضاء على الوجود الشيعي من خلال المؤسسات التعليمية التي اجتهدوا في بنائها وتشبيدها وجلب أكبر عدد ممكن من العلماء والفقهاء إليها لتلقي العلوم والمعارف الصحيحة.

وصفوة القول إن نور الدين محمود سعى إلى إزالة جميع براثن الدولة العبيدية من بلاد الإسلام، فبعد أن تمكن من القضاء على كيانه السياسي بحملاته المتكررة ، أخذ يمحوا أثارها الباطنية التي خلفتها في مصر والشام خاصة، إذ ترك أمر مصر لصالح الدين الأيوبي الذي تكفل بتطهيرها من بقايا الممارسات الشيعية.

فلم تقتصر مهمة نور الدين على الجانب السياسي والعسكري إنما تعدته إلى الجانب العلمي فحرص على بناء المدارس بدمشق وحمص وحماة وحلب والموصل وغيرها للشافعية والحنفية، كما قرب العلماء وأهل الدين فكانوا عنده في أعلى المنازل وأعظمها وقصدوه من مختلف الأنحاء، وكان ذلك تدعيماً للحركة الفكرية في دولته وسيفاً قوياً ضارباً ضد الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي في القرن السادس هجري الموافق للحادي عشر الميلادي .

الفصل الثالث :الدور العلمي المذهبي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي

بالمشرق الاسلامي :569-600هـ/1173-1203م.

- أولا : ترسيم المذهب السني في الدولة .
- ثانيا : بناء صلاح الدين للمدارس لمواجهة الفكر الشيعي
- 1- المدارس في مصر
- أ- المدرسة الناصرية أو الشريفة
- ب- المدرسة القمحية
- ج-المدرسة الصلاحية أو الناصرية
- د- المدرسة السيوفية
- هـ- مدرسة المشهد الحسيني
- 2-المدارس في بلاد الشام
- أ-الزاوية المالكية
- ب-المدرسة الصلاحية
- 3- المدارس في بيت المقدس
- المدرسة الصلاحية أو الناصرية
- ثالثا: بناء الأمراء والقادة للمدارس وأثره في مقاومة الفكر الشيعي.
- 1-المدرسة التقوية
- 2-المدرسة القطبية
- 3- المدرسة الأركشية
- 4-المدرسة الغزالية
- 5-المدرسة الريحانية
- 6-المدرسة المقدمة الجوانية
- 7-المدرسة المقدمة البرانية
- 8-المدرسة الأكزية
- 9-المدرسة الجهاركسية
- 10-المدرسة القايمازية
- 11- المدرسة الفاضلية
- 12- المدرسة الإقبالية
- رابعا: دور المرأة في الحياة العلمية ومقاومة الفكر الشيعي
- 1-المدرسة العاشورية
- 2-المدرسة الصاحبة
- 3-المدرسة الشامية البرانية و الشامية الجوانية
- 4-المدرسة العذراوية
- 5-المدرسة القصاعية
- 6- المدرسة العالمة
- 7- المدرسة الفروخشاهية
- خامسا: تقريب الصوفية ودوره في مقاومة الباطنية.
- سادسا- إصلاح القضاء في مصر وبلاد الشام
- سابعا-تقريب العلماء وتدعيمهم لمقاومة الشيعة
- 1-القاضي الفاضل(529-596هـ/1134-1199م)
- 2-العماد الأصفهاني (519-597هـ/1125-1200م)
- 3-بهاء الدين ابن شداد (539-632هـ/1144-1234م)
- ثامنا- التخلص من المنشآت العلمية العبيدية
- تاسعا :اتساع جهود صلاح الدين وأثرها في مقاومة الشيعة ببغداد عاشرا : خلفاء صلاح الدين وجهودهم العلمية في مقاومة الوجود الشيعي

الدور المذهبي العلمي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالشرق

الإسلامي: 569-600هـ/1173-1203م.

خلفت الدولة الأيوبية السنية الدولة العبيدية الشيعية، ولما أصبحت البلاد تحت سيطرة صلاح الدين الأيوبي حاول جاهدا القضاء على المذهب الشيعي وإقامة المذهب السني، ولجأ في ذلك إلى أساليب سياسية وعسكرية، كما لجأ أيضا إلى الأساليب السلمية والعلمية وإنشاء المدارس، وقد مر بنا كيف أن الشيعة بمصر لم يستسلموا لذلك وقاموا بعدة ثورات وفتن، واستعانوا بالقوى الخارجية لمساعدتهم، غير أن صلاح الدين نجح في القضاء على هذه الفتن وعلى أتباع المذهب الشيعي .

فماهي أساليب صلاح الدين المذهبية العلمية التي انتهجها في القضاء على بقايا الفكر الشيعي ؟ وهل اتبع أبناء صلاح الدين نفس سياسته في ذلك ؟

أولا : ترسيم المذهب السني في الدولة :

المعروف عن صلاح الدين أنه شافعي المذهب، وقد تبنى كل الأيوبيين من بعده المذهب الشافعي¹، ولهذا فقد كان المذهب الشافعي هو المذهب الرسمي للدولة .

وكان أول عمل قام به صلاح الدين الأيوبي لترسيم المذهب السني في دولته، هو تطهير البلاد من طوائف الشيعة العبيدية والقضاء على البدع والعقائد الفاسدة وإظهار عقائد أهل السنة²، خاصة بعد المؤامرة التي حيكّت ضده سنة 569هـ/1173م، فقد قتل

¹ - إلا إذا استثنينا الملك العظيم عيسى بن العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب (ت624هـ/1226م) فقد كان حنفيا تفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه واعتنى به كثيرا . ينظر: المرتضى الزبيدي ، ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين منجد، دار الكتاب الجديد ، بيروت، ط2، 1983. ص 58.

² - وقد كان في صلاح الدين نوع من التعصب المذهبي حيث ركز على نشر مذهب الشافعي على العقيدة الأشعرية. وهذا نابع من تكوينه العلمي في صباه الذي تلقاه من كبار الشافعية كابن عساكر والقطب النيسابوري. عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن)، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1997، ج1، ص 25. عبد الرحمن عزام ، المرجع السابق، ص 64-65.

صلاح الدين القاضي العويرس والقاضي عبد الله بن هبة الله وغيرهما من العبيديين الشيعة، ثم رتب بعد ذلك قضاة شافعية¹، "فاختفى مذهب الشيعة الإمامية الإسماعيلية، وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره"².

ومن جهة أخرى لا يمكننا إهمال الإهتمام الشخصي لصلاح الدين بالمذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية التي لُقن قواعدها منذ صباه على يد قطب الدين النيسابوري (ت587هـ/1191م) وأبي طاهر بن عوف (ت581هـ/1185م) والحافظ أبي طاهر السلفي (ت576هـ/1181م)³، ونتيجة لذلك نجده يعتني بالعقيدة الأشعرية وأمر بتدريسها والإعلان بها في المساجد⁴، ولكنه لم يحمل الناس على ذلك ولم يُلزمهم بها، فقرب العلماء على اختلاف مذاهبهم فقد كان من مستشاريه ابن النجا الحنبلي (ت583هـ/1187م)⁵، وكان عبد الماجد الإسكندراني المالكي المعروف باسم كمال الدين، كان رئيس ديوان مصر العليا زمن صلاح الدين، وكان أبو القاسم المخزومي المعروف باسم الأشرف رئيساً للجهز الإداري⁶، وغيرهم الكثير.

فاهتم صلاح الدين بالعلم والعلماء منذ أن تولى الوزارة بمصر وكان يسعى إلى ترسيم مذهب أهل السنة وإلى غرس العلم والفقه والدين والتصوف السني في أهل البلاد، فالمعروف عنه أنه كان سنياً متديناً، يستغل أوقات فراغه في السماع للحديث ومطالعة

¹ - وقد تميز القاضي الشافعي بمميزات خاصة ، فكان يلبس طرحة تستر عمامته وتتسدل على ظهره في الموكب الرسمية والدينية، كما أنه كان القاضي الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان. ينظر: ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج 2 ، ص 265. القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص 42. عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام زمن الزنكيين والأيوبيين و المماليك ، المكتبة العباسية ، دمشق، ط2، 1972. ص 79.

² - المقرئزي ، اتعاض الحنفا ، ج 3 ، ص 320.

³ - السبكي ، المصدر السابق ، ج 7، ص 340. بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 7.

⁴ - والراجح أنه اعتنى بالمذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية لأنه كان يرى في المذهب الأشعري الكلامي القدرة على مناظرة الشيعة بأساليبهم الكلامية ، على غرار نظام الملك .

⁵ - مصطفى مغزاوي ، المرجع السابق ، ص 53-58.

⁶ - عبد الرحمن عزام ، المرجع السابق ، ص 115.

الكتب أوحضور مجلس علم مع شيوخ وفقهاء لينهل العلم منهم¹، وقد ذكر بهاء الدين ابن شداد (ت632هـ/1234م) شيئاً من ذلك بقوله: "ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أوشياً من الفقه، ولقد قرأ علي كتاباً مختصراً لسليمان الرازي يشتمل على الأربع الأربعة في الفقه"².

وكانت مجالسه منزهة عن اللغو والهزل كثير الذكر محافظاً على الصلوات في الجماعة، كما أنه حرص كل الحرص على تكوين أبنائه وتنشئتهم نشأة دينية، فرحل بولديه العزيز والأفضل لسماع الحديث من السلفي بالإسكندرية³، فلم يكن لصالح الدين اهتمامات سياسية وعسكرية فحسب بل كان يزواج بين عديد المهام التي كانت تصب مباشرة في صالح مشروعه الأول الرامي إلى القضاء على الدولة الشيعية وترسيخ المذهب السني وتوحيد الجبهة الإسلامية.

ثانياً : بناء صلاح الدين للمدارس⁴ لمقاومة الفكر الشيعي :

استحدث السلاجقة نظام المدارس، والتي كانت بمثابة منشآت علمية سنية، الغاية منها محاربة المذهب الإسماعيلي الشيعي وتهئية العقول لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وسار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكي في الشام، ثم صلاح الدين الأيوبي في مصر للقضاء على الدعوة العبيدية.

¹ - وقد أشار بهاء الدين ابن شداد في أكثر من مناسبة إلى حرصه الشديد على سماع الحديث ومطالعة الكتب، المصدر السابق، ص20، 19، 21، 41.

² - نفسه، ص 28.

³ - عبد الله الشرقاوي، المصدر السابق، ص 92.

⁴ - ركزنا في دراستنا للجهود العلمية للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي على ذكر المدارس دون المؤسسات التعليمية الأخرى كالجوامع والزوايا والربط، وذلك للدور الكبير الذي لعبته المدارس في مجال مواجهة المد الشيعي مقارنة مع المؤسسات الأخرى.

والمعروف عن العبيديين أنهم لم يشجعوا بناء المدارس، لأن التدريس يكون فيها علنياً، ومذهبهم الديني يتميز بالسرية، وإنما كانت تُلقى دروس من بعض علماء الشيعة في الجامع الأزهر وفي جامع عمرو بن العاص¹، وفي "دار العلم"² التي كانت بجوار القصر، والتي كان داعي الشيعة يجلس فيها ويجتمع إليه الطلبة فيتكلم في العلوم المتعلقة بالمذهب الشيعي³، وقد حظيت هذه الدار بعناية الخلفاء العبيديين حيث خصص لها الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1021م) مثلاً جزءاً من أوقافه التي أوقفها على الجامع الأزهر⁴، كما أعاد تهيئتها الأمر بأحكام الله (495-524هـ/1101-1130م) وأمر بتدريس العلوم الشرعية بها⁵.

وقد عرفت الإسكندرية نظام المدارس السنية في أواخر أيام العبيديين قبل مجيء صلاح الدين، فأول مدرسة أنشئت فيها هي مدرسة أبو بكر الطرطوشي (ت525هـ/1130م)، حيث جعل من مسكنه الخاص مدرسة لتعليم المذهب المالكي⁶، إلى المالكي⁶، إلى جانب المدرسة الحافضية التي أسسها رضوان بن

¹ - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص256، المقرئ، الخطط، ج3، ص437، القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص366. سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص212.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص366. وقد أكد السيوطي في حديثه عن دار العلم تلك أن الحاكم بأمر الله العبيدي هو من أمر ببنائها، وكانت في الأصل لأهل لسنة ونقل إليها كتبهم، وأجلس فيها الفقهاء والمحدثين وأطلق قراءة فضائل الصحابة، وأطلق صلاة الضحى والتراويح، وأبطل من الأذان عبارة حي على خير العمل، وبعد ثلاث سنوات ألغى كل ذلك وعاد إلى سابق عهده من الغلو والكفر. وهذا ما هو معروف عن شخصية الحاكم المتذبذبة فتارة يصدر قرارات ثم يتراجع عنها بدون سابق إنذار. ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص282.

³ - ولم تقتصر الجهود الفكرية للعبيديين على مصر، بل اجتهدوا في تدعيم دعوتهم في بلاد الشام كذلك، حيث شيدوا "دار الحكمة" في طرابلس، وقد أشار إليها ابن الأثير في أحداث سنة 503هـ/1109 بعد دخول الصليبيين إلى طرابلس وتخريب دور العلم بها ونهب كتبها، ولأن العبيديين لم يشيدوا المدارس التي تتنافى وطبيعة دعوتهم القائمة على السرية، شجعوا حلقات العلم بالمساجد خاصة المسجد الأموي، حيث يجلس الداعي وحوله الطلبة يلقتهم أصول ومبادئ الفكر الشيعي. ينظر: ابن الأثير،

الكامل، ج9، ص312-315. Taef kamal EL-Azhari, Op.cit.p

⁴ - القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص366. محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدولة الفاطمية، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1983. ص155.

⁵ - ابن المأمون البطائحي، المصدر السابق، ص45.

⁶ - ابن فرحون، المصدر السابق، ص372.

ولخشي(ت542هـ/1147م)¹ وزير الخليفة الحافظ العبيدي سنة532هـ/1137م بالإسكندرية، وأُسند التدريس فيها إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف (ت581هـ/1185م)، الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي، وعُرفت هذه المدرسة بالعوفية نسبة إليه²، كما عرفت بالحافظية نسبة إلى الخليفة العبيدي الحافظ لدين الله(526-544هـ/1131-1149م) الذي أصدر سجلا بإنشاء هذه المدرسة وتعيين ابن عوف مدرسا بها³.

وفي سنة 546هـ/1151م، بنى العادل بن سَلار السني(544-548هـ/1149-1153م) وزير الخليفة الظافر بالله العبيدي(544-549هـ/1149-1154م) الشيعي مدرسة سنية أخرى بالإسكندرية⁴ وسميت بالسَلَفِيَّة بعد أن أُسند التدريس بها إلى الفقيه الشافعي أبي الطاهر أحمد السَلَفِي(ت576هـ/1180م)⁵،

¹ - الوزير رضوان بن ولخشي أمير الجيوش وزير الحافظ ومدير ممالكة بديار مصر وغيرها، ولد سنة 489هـ/1095م، تولى في بداية عهده قوص وأخمين سنة 528هـ/1133م، ولما تولى الوزارة سنة 532هـ/1137م استولى على مصر وحجر على الخليفة الحافظ، حتى دس عليه الحافظ السودان فوثبوا عليه وقتلوه سنة 542هـ/1147م، وكان وزيرا سنيا حسن الاعتقاد شجاعا شديد البأس. ينظر :ابن ميسر، المصدر السابق، ص 138. المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 184. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 272.

² - هو أبو الطاهر بن عوف إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهري الإسكندراني المالكي ولد سنة 485هـ/1091م وتوفي في شعبان 581هـ/1185م، برع في المذهب المالكي، وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه الموطأ في شوال سنة 577هـ/1181م، ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص 441. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص 452-453. المقرئزي، السلوك، ج1، ص 187.

³ - ويعود الفضل في إصدار ذلك القرار إلى الوزير رضوان الذي كان يسيطر على زمام الخلافة العبيدية، ينظر نص السجل: القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص 458-459.

⁴ - ابن الطوير، المصدر السابق، ص 59. المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 198.

⁵ - هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السَلَفِي، الأصبهاني الشافعي، الملقب صدر الدين، ولد سنة 478هـ، انتقل من بلده سنة 493هـ إلى بغداد فتلقى العلم على يد كبار علماء النظامية مثل الكيا هراسي و الخطيب زكريا التبريزي، ثم انتقل إلى البصرة ودمشق ثم نزل الإسكندرية سنة 511هـ/1117م حيث تزوج بامرأة ميسورة الحال فسلمته أموالها، فأصبحت له ثروة وصار ذو وجهة بنى له العادل بن سَلار وزير الظافر مدرسة وفوض أمرها إليها. توفي يوم الجمعة 5 ربيع الثاني 576هـ. وكان " ثقة ورعا متقنا ثبتا حافظا فهما له حظ من العربية كثير الحديث حسن الفهم والبصيرة فيه". ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص5، ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 16. السبكي، المصدر السابق، ج6، ص 32-44. ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص 105-107. المقرئزي، المقفى الكبير، ج1، ص 706-710.

الذي قال عنه السبكي: "كان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة مع مخالفته لهم في المذهب"¹.

غير أن انتشار المذهب السني في ذلك الوقت كان في حدود ضيقة وقاصرا على مدينة الإسكندرية دون بقية المدن المصرية وذلك بحكم وضعها الجغرافي واتصالها الشديد بالمغرب السني²، في حين لم تعد مصر بصفة نهائية إلى حظيرة أهل السنة إلا بعد القضاء على الدولة العبيدية وقيام الدولة الأيوبية .

والظاهر أن المدارس السنية زمن الدولة العبيدية كانت في الأصل نتاج جهود شخصية لعلماء أو وزراء تبنا مشروع نشر الفكر السني في دولة تعتنق المذهب الشيعي، فيما يعتبر صلاح الدين الأيوبي أول السلاطين الذين أدخلوا التصميم المعماري المعروف بالمدرسة إلى مصر³، فوقف عليها الأوقاف وعين لها المدرسين فاستقطب بذلك الطلبة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد كان اهتمام صلاح الدين الأيوبي ببناء المدارس يدخل في إطار مشروعه العام الرامي إلى القضاء على بقايا الفكر الشيعي في مصر خاصة ، من خلال تخريج قضاة سنة يمكنهم تولي الشؤون الإدارية⁴.

ولم يكن اهتمام صلاح الدين ببناء المدارس يقتصر فقط على إعادة هيكلة المذهب السني في العالم الاسلامي، بل تعداه إلى رغبته في بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين ضد الباطنية من جهة والصليبيين من جهة ثانية، فسعى إلى تهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التي أنشأها في مصر وبلاد الشام⁵.

¹ - السبكي ، المصدر السابق ، ج6، ص37.

² - أيمن شاهين سلام، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، جامعة طنطا ، القاهرة ، 1999. ص 52.

³ - عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، ص 63.

⁴ - عبد الرحمن عزام ، المرجع السابق ، ص115.

⁵ - اسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص 131.

وعلاوة على ذلك أمدَّ الأيوبيون كل المذاهب بما يلزمها من مدارس وأوقاف، ورغم أنهم جعلوا المذهب الشافعي في مركز الصدارة، إلا أنهم أفسحوا من جديد مجالاً للمذهب الحنفي وأعانوا المالكيين، بل وسمحوا للحنابلة أيضاً بممارسة نشاطهم، فالمعروف عن صلاح الدين الأيوبي أنه بنى بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعي، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسيني بالقاهرة، وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه¹، وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية، وهي المعروفة بالسيوفية، وبنى المدرسة التي بمصر المعروفة بابن زين التجار للشافعي (ت591هـ/1194م)، وتُعرف بالشريفية، وبنى بمصر مدرسة أخرى للمالكية بالقرب من دار العدل وهي المعروفة بالقمحية².

ولقد كانت المدارس في العصر الأيوبي على درجة عالية من التنظيم وحسن الإدارة والتخطيط، وقد أعطتنا المصادر معلومات عن عدد المدرسين ورواتبهم، والتنظيم الإداري لهذه المدارس، فقد كان لكل مدرسة شيخ وفيها عدد كبير من المدرسين والمعידين والخدم، وسيأتي في ما يلي ترتيبنا للمدارس حسب الأقاليم بداية من مصر الأيوبية ولن تقتصر على جهود السلطان صلاح الدين الأيوبي فحسب بل نتعدها إلى الجهود العلمية للقادة العسكريين والمرأة كذلك .

1- المدارس في مصر :

عندما انتقل الحكم في مصر من العبيدين الشيعة إلى الأيوبيين السنة، كان أول ما عهد إليه صلاح الدين وخلفاؤه هو إغلاق معاهد الدعوة الشيعية ومذاهبها، وتأسيس

¹ - الخانقاه: وجمعها خوانق، وكذلك الرباطات والزوايا ، معاهد دينية إسلامية للنساء والرجال، أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهد والعبادة ، ولفظ الرباط والزوايا عربيان أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت، وهي حديثة في الإسلام في حدود الأربعمئة وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصوف. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 256 من الهامش.

² - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج2، ص 256. ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص 194.

المدارس السننية لنشر التعليم الديني السنني للقضاء على مذهب الشيعة، ولذلك نراه ينشئ المدارس الواحدة تلو الأخرى في خطة منظمة مرسومة، فأنشأ صلاح الدين المدارس على غرار مدارس حلب ودمشق في القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الكبرى .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان شافعي المذهب، فقد حرص على أن يكون لكل مذهب مدارس وقضاته، وبقيت هذه العادة من بعده، وقد ساعدت هذه المدارس على التخلص من كل آثار الشيعة، وحلت محل الأزهر الذي لم يشترك في نشر التراث السنني إلا بعد فترة¹.

أ- المدرسة الناصرية أو الشريفة :

هي أول مدرسة أنشأها صلاح الدين الأيوبي، في محرم سنة 566هـ/1170م، وقد كان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العبيدي العاضد (555-567هـ/1160-1171)²، كان موضعها حبس المعونة³، بجانب الجامع العتيق بمصر في شرقيه، أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي ببنائها وأوقفها على الشافعية، ولما كملت أوقف عليها الصاغة

¹-ذلك أن صلاح الدين أمر بأن تبطل فيه صلاة الجمعة ، واكتفى بإقامتها في الجامع الحاكمي ، وأهمل جامع الأزهر إلى زمن الظاهر بيبرس سنة 665هـ/1266م، الذي أمر بتجديد بنائه وإصلاح سقوفه وإعادة فرشته، وأعاد إليه خطبة الجمعة " وتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا ". القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج3، ص 364، محمود الحويري، مصر في العصور الوسطى ، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1996، ص220.

²-اجتمع المؤرخون على تسميتها بالشريفة ماعدا المقريري الذي سماها بالناصرية ، ينظر: المقريري ، الخطط ، ج3، ص 438.

³- دار المعونة كانت في الفسطاط قبلي جامع عمرو بن العاص، سميت بدار المعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين بنزلها ولاتهم، ثم عرفت بدار الفلفل، ثم صارت دارا للشرطة سنة 213هـ/828م ثم جعلها يانس العزيزي صاحب الشرطة في عهد العزيز بالله العبيدي حبسا يعرف بالمعونة سنة 381هـ/991م و بقيت سجنا حتى أعادها صلاح الدين مدرسة. المقريري ، الخطط ، ج2، ص463، أبو شامة ، المصدر السابق، ج2 ، ص180. النويري، المصدر السابق، ج28، ص 241.

بجوارها وأوقف عليها أيضا قرية، درس بها ابن زين التجار¹ فعرفت به، وقد عرفت قبل ذلك بالمدرسة الناصرية، ودرس بعده ابن قطيطة الوزان وبعده كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ، وبعده الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد، قاضي العسكر الأرموي فعرفت به².

ب- المدرسة القمحية :

كانت هذه المدرسة تُعرف بدار الغزل، وهي قيسارية يباع بها الغزل، جعلها السلطان صلاح الدين الأيوبي مدرسة للمالكية في النصف من محرم سنة 566هـ/1170م، وجعلها أربعة زوايا، وخصص لها الأوقاف للتكفل بمصاريف المدرسين والطلبة، فوقف عليها القيسارية التي بمصر بسوق الوراقين، وضبعة من بلاد الفيوم تعرف بالحنوشية³، وقد درس بها كبار الصلحاء وتخرج فيها جماعة من الأفاضل⁴.

ج- المدرسة الصلاحية أو الناصرية⁵:

وصفها السيوطي(ت911هـ/1505م) بأنها" تاج المدارس وأعظم مدارس الدنيا على الإطلاق"⁶، بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 572هـ/1176م للشافعية على قبر

¹- هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التجار أحد أعيان الشافعية، درس بهذه المدرسة مدة طويلة، وبه عرفت هذه المدرسة، توفي في 10 ذي القعدة 591هـ/1194م. ينظر: المقرئ، المقفى الكبير، ج1، ص 664. النويري، المصدر السابق، ج28، ص 241.

²- السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 256، ابن دقماق، المصدر السابق، ج1، ص 93، المقرئ، الخطط، ج3، ص 438.

³- كان يجمع من هذه الضبعة القمح الكثير ويوزع على فقهاء المدرسة، ومن ثمة عرفت بالمدرسة القمحية. ينظر: أبوشامة، المصدر السابق، ج2، ص 181.

⁴- وقد سكتت المصادر عن ذكر أسماء المدرسين والطلبة بهذه المدارس، ينظر: ابن دقماق، المصدر السابق، ج1، ص 95. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص 365. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 256.

⁵- سماها السيوطي الصلاحية وسماها المقرئ الناصرية بالقرافة. ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 257. المقرئ، الخطط، ج3، ص 533.

⁶- السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 257.

الإمام الشافعي¹، وجعل التدريس والنظر بها للشيخ نجم الدين الخبوشاني الشافعي إلى أن توفي سنة (ت587هـ/1190م)²، فتولاها الشيخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه الجويني في حياة صلاح الدين، فلما مات هذا الأخير عُزل عنها واستمرت في أيدي بني السلطان واحد بعد واحد، ثم عاد إليها الفقهاء والمدرسون³، وكان من جملة ما أوقف عليها حماما كان بجوارها، وفرنا مقابلها وحوانيتها بظاهرها والجزيرة التي يقال لها جزيرة الفيل بواد النيل خارج القاهرة⁴.

وقد زار الرحالة ابن جبير (614هـ/1217م) المدرسة الصلاحية، ووصفها قائلا: "وبنى بازائه- يعني قبر الإمام الشافعي- مدرسة لم يُعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع ولا أحفل بناء، يُخيل لمن يطوف عليها أنها بلاد مستقل بذاته ... والنفقة عليها لا تحصى"⁵.
د- المدرسة السيوفية⁶ :

كانت في الأصل دار الوزير المأمون البطائحي العبيدي (ت519هـ/1190م)⁷، أوقفها أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الحنفية في 29 شعبان 572هـ/1176م، وعين

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص4. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص79.

² - هو نجم الدين محمد أبو البركات ابن أبي المطهر الخبوشاني النبريزي الصوفي الشافعي، ولد بخبوشان في نيسابور في 23 رجب 510هـ/1116م تفقه بنيسابور على محمد بن يحيى، وكان يقول أصد إلى مصر وأزيل ملك بني عُبيد الكذابين، قدم مصر سنة 565هـ/1169م قربه صلاح الدين وأكرمه بعد أن كان له السبق في أمر الخطباء بقطع الخطبة للعبيديين بأمر من صلاح الدين، أشار على السلطان بعمارة مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعي فشيدها له وجعله مدرسا بها إلى أن توفي يوم الأربعاء 22 ذي القعدة 587هـ/1190م. ينظر: المقرئ، المقفى الكبير، ج7، ص225-226.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص54، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص258. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص79.

⁴ - المقرئ، الخطط، ج3، ص533.

⁵ - ابن جبير، المصدر السابق، ص22.

⁶ - عرفت بالمدرسة السيوفية لأن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها. المقرئ، الخطط، ج3، ص443.

⁷ - هو أبو عبد الله بن البطائحي الملقب بالمأمون، عمل في بداية أمره حمالا في السوق، ومرة رآه الأفضل أمير الجيوش فأعجب بخفته ونشاطه فقره حتى تقدم عنده وعلت منزلته فصارا وزيرا، كان كريما واسع الصدر قتالا سفاكا للدماء، صلبه الأمر بأحكام الله العبيدي بعد أن اكتشف مؤامراته في محاولة قتله في رمضان سنة 519هـ/1125م ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج9، ص234.

الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي للتدريس بها وللنظر في أوقافها، ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً¹.

هـ- مدرسة المشهد الحسيني:

تُنسب إلى صلاح الدين الأيوبي، تقع بجوار مشهد الحسين رضي الله عنه بالقاهرة، وقد جعل عليها أوقافاً كثيرة²، ولكن من خلال المصادر التي تحدثت عن هذه المدرسة نجد أن صلاح الدين لما ملك مصر جعل بالمشهد الحسيني حلقة تدريس وفقهاء، ووقف عليها الأوقاف، وفوضها للفقهاء البهاء الدمشقي الذي كان يجلس للتدريس عند المحراب الذي من خلفه الضريح، وعليه فإن صلاح الدين لم يختط مدرسة بالمعنى الفعلي في المشهد، وإنما الباني لهذه المدرسة هو معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ بن حمويه الشافعي (ت 617هـ/1220م)، الذي عاد إليه أمر هذا المشهد بعد إخوته فجمع من أوقافه ما بنى به إيوان التدريس وبيوت الفقهاء العلوية³.

2- المدارس في بلاد الشام:

أفاد الأيوبيون من قوة الدفع العلمية التي أكتسبتها بلاد الشام في عهد الزنكيين، فاستكملوا تلك النهضة العلمية بأن عُنوا عناية عظيمة بها من جميع النواحي، فازدهرت ازدهاراً كبيراً، كما أكرموا مع وزرائهم وقادتهم العلماء والأدباء والشعراء، وفتحوا لهم مجالسهم ومكتباتهم وخزائن أموالهم، لأنهم كانوا على قدر عال من الدين والثقافة والعلم والأدب، فأتاهم العلماء والأدباء من مشارق العالم الإسلامي ومغاريه، فحرص السلاطين

¹ - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص256. المقرئ، الخطط، ج3، ص443.

² - ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص206. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص55.

³ - المقرئ، الخطط، ج2، ص205. أبو الحسن نور الدين علي بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود السخاوي، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، مراجعة: محمود ربيع و حسن قاسم، ط1، مطبعة العلوم والآداب القاهرة، 1937، ص95.

الأيوبيون وعلى رأسهم صلاح الدين على إنشاء وتشبيد المدارس والمساجد لهؤلاء العلماء على مختلف مذاهبهم.

أ-الزاوية المالكية :

اجتهد صلاح الدين الأيوبي في بناء المدارس على جميع المذاهب ولم يقتصر على المذهب الشافعي فقط، فقد أوقف الزاوية المالكية بدمشق وقد كانت ملاصقة للمقصورة الحنفية من غربي الجامع الأموي بدمشق، وقد درس بها الشيخ جمال الدين أبو عمر عثمان بن الحاجب، ثم بعده الشيخ زين الدين الزواوي، ثم بعده جمال الدين أبو يعقوب يوسف الزواوي¹.

ب-المدرسة الصلاحية :

أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي للمالكية بدمشق، بالقرب من البيمارستان² النوري، ومن بين مدرسيها الشيخ جمال الدين عثمان بن الحاجب³.

هذا وقد ذكر أحد المؤرخين مدرستين للشافعية بدمشق نسبهما إلى صلاح الدين الأيوبي، وهما الناصرية الجوانية ، والمقدمية الجوانية، لكنه لم يفصل في تاريخ إنشائهما

¹- النعيمي ، المصدر السابق ، ج2، ص3. كرد علي ، المرجع السابق ، ص 96.

²- البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: بيمار: بمعنى المريض أو العليل أو المصاب، ستان: بمعنى مكان أو دار فهي إذا دار المريض، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة، تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية. والبيمارستانات نوعان: ثابت ونقالة، وكانت بدورها تنقسم إلى قسمين: جناح للرجال وآخر للنساء. ينظر: عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، ط5، 2000، ص 41. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1981م، ص 10-11.

³- النعيمي ، المصدر السابق ، ج2، ص8. ، كرد علي ، المرجع السابق ، ج6، ص 96.

ومن درس بهما من الشيوخ والعلماء واكتفى بالإشارة إلى أنه درس بهما بعض المشهورين من العلماء¹.

3- المدارس في بيت المقدس :

المدرسة الصلاحية أو الناصرية:

بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ/1187م في القدس الشريف على إثر فتحه، حيث فاوض جلساءه من العلماء في بناء مدرسة للشافعية ورباطا للصوفية²، وكان موضعها كنيسة على جسد حنة، أي قبر حنة أم مريم عليها السلام، وأوقف عليها الأوقاف الحسنة³، ويُقال أن نور الدين محمود بن زنكي (ت569هـ/1173م) هو الذي بناها بالقرب من البيمارستان النوري ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين⁴، والأصح أن الباني لها هو صلاح الدين لأن نور الدين توفي 569هـ قبل فتح بيت المقدس رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن كثير (ت774هـ/1372م) أن نور الدين محمود أوقف على بناء مدرسة وطمع أن يحضر فتح بيت المقدس حتى أنه أعد منبرا عظيما لبيت المقدس إذا فتحه الله على يده⁵.

¹ - كرد على ، المرجع السابق ، ج6، ص 87.

² - الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 82.

³ - ابن الأثير، الكامل ، ج 10 ، ص 159، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 35، عبد الله الشرقاوي ، المصدر السابق، ص 92، العلمي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 485

⁴ - النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 251-252.

⁵ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 35. وقد ذكر ابن واصل ذلك المنبر الذي أمر نور الدين محمود بصانعه قبل عشرين سنة وأنه كان ينوئ إقامته في المسجد الأقصى، فلما فتح صلاح الدين بيت المقدس أمر بحمل المنبر ونصبه في المسجد تحقيقا لأمنية سيده نور الدين محمود ، لذلك حدث هذا اللبس في نسب هذه المدرسة إلى صلاح الدين . ابن واصل ، المصدر السابق، ج2، ص 228-229.

ومن الذين درسوا بالمدرسة الصلاحية عماد الدين بن أبي زهران الموصلية (ت682هـ/1283م) ثم من بعده محي الدين خطيب الجامع¹.

ولم يكن بيت المقدس هو الوحيد الذي استفاد من الإصلاحات العلمية لصالح الدين فقد شهدت المناطق المجاورة له اهتماما في هذا المجال، نذكر منها إقليم عكا الذي رتب أحواله وأموره قبل فتح الكرك، بأن أوقف نصف دار الإسماعيلية رباطا للمتصوفة ونصفها مدرسة للفقهاء².

وعليه، إذا اعتبرنا أن تاريخ قيام الدولة الأيوبية كان بعد وفاة نور الدين محمود سنة 569هـ/1173م، نجد أن بناء المدارس كان قبل هذا التاريخ، وفي هذا دلالتين: الأولى مفادها أن صلاح الدين الأيوبي قد تشبع بالمذهب السني وأبغض المذهب الشيعي، فكانت جهوده واضحة في كنف الدولة الزنكية، والدلالة الثانية هي أن صلاح الدين قد ورث المشروع الجهادي الذي تبنته الدولة الزنكية لمقاومة الوجود الشيعي فسعى صلاح الدين جاهدا لاستكمال هذا المشروع.

فنجد تسلسلا رائعا في تبني هذا المشروع الجهادي، وهذا هو الأصل، فالدولة مبنية على منهج وخطط سير على المدى البعيد، لا تبني على أشخاص ومشاريع فردية إذا زال الفرد زال الهدف، وهنا نجد أن جهود السلاجقة أثبتت زمن الزنكيين بالقضاء على الكيان السياسي للدولة الشيعية فيما استكمل الأيوبيون محو آثار التغلغل الباطني من مؤسسات الدولة والمجتمع الإسلامي.

وأما بالنسبة لتسيير المدارس، فعلى غرار المدارس النظامية، حرص صلاح الدين الأيوبي على أن يخصص للمعلمين رواتب وأجور دائمة ليضمن بقاءهم في مناصبهم وتلقينهم مختلف العلوم للطلبة والعامة، ومن ذلك نجد أنه شرط للشيخ نجم الدين الخبوشاني (ت587هـ/1191م) مُدرس وناظر المدرسة الصلاحية في كل شهر أربعين دينارا، وجعل له للنظر في أوقاف

¹ - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص 252.

² - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص 494.

المدرسة عشر دنانير، ورتب له من الخبز في كل يوم ستين رطلا بالمصري وراويتين من ماء النيل¹.

كما استحدث صلاح الدين نظاما جديدا لتسيير المدارس السنية في مصر وبلاد الشام، وهو أنه عين مسؤولا واحدا لمجموعة من المدارس له صلاحية تعيين المدرسين والمعيدين وعزلهم والإشراف على أوقاف المدارس، ومن ذلك تعيينه للإمام علاء الدين أبي بكر مسعود بن محمد الكاساني الحنفي (ت 587هـ/1190م)² مشرفا على المدارس الحنفية بحلب والرقّة، وكتب له منشورا بذلك وضح له أسماء المدارس وهي: المدرسة النورية غربي الجامع، ومدرسة الحدادين، ومدرسة جاولي سقاوة، وخزانة الكتب بالجامع والمدرسة النورية بالرقّة³، والظاهر أن صلاح الدين لم يستثن بقية الأقاليم من هذا التنظيم الذي من شأنه أن يساعد السلطان في الإشراف على تلك المؤسسات التعليمية، ويجعلها في مأمن إن انشغل عنها السلطان بالجهاد في جبهات أخرى، وهذا يعود إلى حسن التدبير والحرص على تحمل المسؤولية من صلاح الدين .

ومن جهة أخرى فقد ساهمت المدارس الإسلامية بمصر في العصر الأيوبي بصورة فعالة في فك العزلة الثقافية التي كان العبيديون قد فرضوها على المصريين وإعادة فتح الباب أمامهم للاتصال بالعالم السني وذلك عن طريق استقطابها لكثير من علماء البلدان الإسلامية الأخرى، نذكر منهم:

¹ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج1، ص 257.

² - أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني ، الملقب بعلاء الدين (ت 587هـ/1190م) : قال عنه عز الدين ابن شداد: " كان من ذوي التحصيل والتفريغ والتأصيل، صنف التصانيف البديعة في أحكام الشريعة ، والكتب التي سار في الآفاق ذكرها ، واستوى في شياها خبرها وخبرها" . ينظر، المصدر السابق ، ص 269.

³ - الأصفهاني ، البرق الشامي ، ج5، 129-130.

- شهاب الدين الطوسي (ت596هـ/1199م)¹ الذي قدم بغداد، وتفقه على جماعة من أصحاب الغزالي منهم محمد بن يحيى وعظم قدره بها ثم حج، ودخل مصر سنة579هـ/1183م²، ودرس بالمدرسة المنسوبة إلى تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب التي يقال لها منازل العز³ وتخرج به أئمة وكان جامعاً للفنون والعلوم، كان شيخ الفقهاء في عصره وكان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن توفي سنة 596هـ/1199م⁴.

- ومنهم شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحموي المعروف بابن الجاموس، كان من كبار الشافعية، تفقه بحمّة، وقدم الديار المصرية، فولى الخطابة بالجامع العتيق والتدريس بالمشهد الحسيني، توفي سنة 619هـ/1222م⁵.

- وكان أمين الدين مظفر بن محمد بن إسماعيل التبريزي⁶ (558-621هـ/1262-1219م) من أجل مشايخ العلم في مصر، تفقه ببغداد على أبي القاسم بن فضلان، وأعاد بالمدرسة النظامية، وأفتى وناظر وسمع الحديث من أبي الفرج بن كليب وأبي أحمد بن سكينه⁷، وقدم

¹ - هو شيخ الشافعية ، شهاب الدين أبو الفتح محمد بن محمود بن محمد الخراساني الطوسي، ولد في 19 ذي الحجة 522هـ/1127م ، قدم ببغداد سنة567هـ/1171م ودرس على كبار الشيوخ، وصاهر قاضي القضاة أبا البركات بن الثقفي، ثم حج وانتقل إلى مصر، فنشر بها العلم ووعظ وذكر وانتفع به الناس. توفي في مصر سنة ذي القعدة 596هـ/1199م عن أربع وسبعين سنة وحمل أبناء السلطان نعشه على رقابهم . ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص387. السبكي، المصدر السابق، ج6، ص396. السيوطي، حسن المحاضرة ، ج1، ص407، ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج6، ص534. المقرئ، المقفى الكبير ، ج7، ص141.

² - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج21 ، ص387.

³ - أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تعليق: إبراهيم شمس الدين ، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 2002، ص29. المقرئ، المقفى الكبير ، ج7، ص141.

⁴ - أبو شامة، الروضتين، ج4، ص468. ابن كثير المصدر السابق، ج7، ص79. السيوطي، حسن المحاضرة، ج1، ص407.

⁵ - السبكي ، المصدر السابق ، ج8، ص45. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج1، ص410.

⁶ - نسبة إلى تبريز وهي من بلاد أذربيجان وهي أشهر بلدة بها . ينظر: السمعاني ، المصدر السابق ، ج3، ص21.

⁷ - السبكي ، المصدر السابق ، ج8، ص373.

مصر فأعاد بالمدرسة الشريفة واختصر المحصول في أصول الفقه، وصنف كتابا في الفقه في ثلاث مجلدات، سماه سماط سمط الفوائد¹.

ومنهم ضياء الدين القاسم بن تاج الدين الشهرزوري (ت 599هـ/1202م)²، انتقل إلى مصر زمن صلاح الدين، فأكرمه وأحسن وفادته، وقلده الوظائف، وهو ابن أخ القاضي كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق (ت 572هـ/1176م)³، فلما أحس هذا الأخير بدنو أجله أراد أن يُبقي القضاء في ذويه، فأوصى بالقضاء لضياء الدين فأقره صلاح الدين لما عرف عنه من علم وحزم⁴.

وما هؤلاء إلا قلة من العلماء الذين وفدوا إلى مصر زمن الأيوبيين، وقد كان لهم دور كبير في محو آثار الفكر الشيعي الباطني من مصر بعد أن ساهموا في الحياة العلمية بها من خلال التدريس والوعظ والتأليف، فشكّلوا بذلك قوة داعمة للدولة في مشروعها لمقاومة الفكر الشيعي.

ثالثا: بناء الأمراء والقادة للمدارس⁵ وأثره في مقاومة الفكر الشيعي:

1- المدرسة التقوية :

حرص قادة الدولة الزنكية على تدعيم المسار العلمي للدولة، فاجتهدوا في إنشاء المدارس ودور التعليم، وسار على نهجهم القادة الأيوبيين ففي شعبان 566هـ/1170م

¹ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج1، ص 410.

² - نسبة الشهرزوري وهي بلدة بين الموصل وزنجان ، السمعاني ، المصدر السابق ، ج6، ص 556 .

³ - كان كمال الدين الشهرزوري جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول، توفي في محرم 572هـ/1176م، ابن الأثير، الكامل ، ج10 ص 84. ابن كثير ، المصدر السابق، ج7 ، ص 5 .

⁴ - البنداري، سنا البرق الشامي، ص 130-131. أبو شامة ، الروضتين ، ج2، ص 426-427. ابن عماد الحنبلي، الحنبلي، المصدر السابق ، ج6، ص 534.

⁵ - للأسف لم أتمكن من الوقوف على تاريخ تأسيس أغلب المدارس حيث اكتفت المصادر بذكر اسمها واسم مؤسسها مؤسسها وموقعها دون تحديد تاريخ واضح لكل ذلك ، فحرصت على ذكر تاريخ وفاة مؤسس المدرسة حتى تُقرب تاريخ إنشائها.

اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب ابن أخ صلاح الدين (ت587هـ/1190م)¹، الدار المعروفة بمنازل العز بمصر²، بناها للشافعية³، للعلامة الشيخ شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي (ت596هـ)⁴، وكانت في الأصل داراً للأمير ناصر الدولة بن حمدان أيام المستنصر بالله العبيدي⁵، واشترى تقي الدين لهذه المدرسة الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك وأوقفها عليها⁶.

درّس بالمدرسة التقوية قاضي القضاة عماد الدين ابن السكري ثم درّس فيها ولده القاضي فخر الدين، وبقيت هذه المدرسة برسم أبناء ابن السكري إلى أيام الملك الصالح نجم الدين (ت647هـ/1249م) فوقع بها لقاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن السنجاري، ثم رجع التدريس بها إلى أولاد السكري⁷.

وإلى جانب المدرسة التقوية بمصر أنشأ مدرسة أخرى داخل باب الفراديس بدمشق، سنة 574هـ/1178م أخذت نفس التسمية نسبة إليه، وهي من أجل المدارس هناك حسب

¹ - المظفر تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، كان عزيزاً عليه فاستنابه بمصر وغيرها من البلاد ثم أقطعه حماة ومدناً كثيرة معها توفي يوم الجمعة 19 رمضان 587هـ/1190م وكان بطلاً شجاعاً له مواقف مشهورة مع الصليبيين. ينظر: ابن كثير، المصدر السابق ، ج7، ص 53.

² - نسبة إلى المعز لدين الله العبيدي ، الذي أمر ببناء هذا المنتزه لأخته لما قدمت من المغرب و لم يكن بمصر منتزه أحسن منه و لم يكن أمامه من جهة البحر ما يحجبها عن نظر النيل ، ثم تداولها الخلفاء من بعدها نزهة لهم إلى زمن العاضد فكانت معدة لنزهته وخلوته .ينظر : ابن دقماق، المصدر السابق، ج1، ص93.وقد ذكر المقرئ أن السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، هي التي أمرت ببنائها، وكانت حسنة البناء مظة على النيل، وكانت معدة لتزده الخلفاء وكان بجوارها حمام ، ثم أصبحت مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية نسبة إلى مؤسسها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادي .المقرئ، الخطط ، ج3، ص 440.

³ -المقرئ، الخطط ، المصدر السابق، ج3، ص440. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص32.

⁴ - النعمي، المصدر السابق ، ج1، ص163 ، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 79.

⁵ - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص 241.

⁶ - أبو شامة، الروضتين ، ج2، ص182.

⁷ - ابن دقماق، المصدر السابق ، ج1 ، ص94. المقرئ ، الخطط ، ج3، ص440.

النعمي¹، ويذكر ابن كثير (ت774هـ/1372م) أن لتقي الدين عمر بن شاهنشاه مدرسة أخرى للشافعية بحماة².

2-المدرسة القطبية :

هذه المدرسة بالقاهرة بداخل درب الحريري، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدباني سنة 570هـ/1174م، وهو أحد أمراء السلطان صلاح الدين، وجعلها وقفا على الشافعية³.

3- المدرسة الأزكشية :

تقع بسوق الغزل بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي (ت599هـ/1202م) مملوك أسد الدين شيركوه وأحد أمراء السلطان صلاح الدين، بناها سنة (592هـ/1195م) وجعلها وقفا على الحنفية⁴، وأسند التدريس بها للفقهاء أبي الطاهر محمد بن الحسين الأنصاري خطيب مصر، وبعد وفاته تولى التدريس بها الفقيه ظهير الدين جعفر ابن يحيى القرشي⁵.

4-المدرسة الغزالية :

المدرسة الغزالية في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموي ، تُعرف بالشيخ نصر المقدسي⁶ وهو أول من دَرَس بها، وممن دَرَس بها من المشهورين، الدلوعي

¹ - النعمي، المصدر السابق ، ص 163. محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ج6، ص 77.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 53.

³ - المقرئزي ، الخطط ، ج3 ، ص443.

⁴ - نفسه ، ج3 ، ص 448.

⁵ - ابن دقماق ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 95.

⁶ - هو أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم ابن داود النابلسي المقدسي الفقيه الشافعي، ولد قبل سنة 410هـ/1019م، دَرَس بببيت المقدس وصور رغم كثرة المخالفين له من الرافضة، وقدم إلى دمشق سنة 480هـ/1087م، ونزل في الزاوية الغربية من مسجد دمشق، وكان الشيخ نصر متقشفا متجنباً لولاية الأمور قانعا=

وابن عبد السلام والقطب النيسابوري، وأبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م)¹، وهي تنسب إلى الغزالي رحمه الله، وتعرف بزاوية الدلوعي وبزاوية قطب الدين النيسابوري² وهي مدرسة للشافعية، أنشئت قبل عهد صلاح الدين الأيوبي لكنها لم تحظ بالاهتمام وقتئذ، فأوقف هو عليها قرية حزم باللوي سنة 572هـ/1176م، وأنفق على من يشتغل بها بالعلوم الشرعية وكل ما يحتاج إليه وجعل قطب الدين النيسابوري مدرسا بها³.

5- المدرسة الريحانية :

المدرسة الريحانية بجوار المدرسة النورية، أنشأها خواجا ريحان الطواشي خادم نور الدين محمود، والي القلعة والسجن بدمشق، استماله صلاح الدين على إثر فتحه دمشق، وأنشأ هذه المدرسة بدمشق للحنفية سنة 575هـ/1179م، وتولى التدريس بها مجموعة من العلماء نذكر منهم على التوالي: تاج الدين محمد الحواري، ثم من بعده نجم الدين ابن خليل قاضي العساكر العادلية ثم استمر بها ابنه شمس الدين علي إلى حين توفي، وبقيت مدة معطلة في الأيام الناصرية⁴، وكانت أوقافها كثيرة⁵.

١- البليسير من غلة أرض كانت له بنابلس، يأتيه منها ما يفتاته ، ولا يقبل من أحد شيئاً توفي في 09 محرم 490هـ/1097م ودفن في مقبر الباب الصغير، من مؤلفاته: الانتخاب الدمشقي، الحجة على تارك المحجة، التهذيب، المقصود ... وأملى خمسة مجالس. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص 136-142. السبكي، المصدر السابق، ج5، ص 351، 353.

٢- محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 85. ونسبتها إلى الغزالي كونه دخل إلى دمشق سنة 489هـ/ وقصد خانقاه السيمساطية ليدخل إليها، فمنعه الصوفية من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها، وأقام بهذه الزاوية من الجامع الأموي، إلى أن عُلم مكانه وعُرفت منزلته، فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، ثم أدخلوه الخانقاه السيمساطية فعرفت الزاوية به. ينظر: النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص313.

٣- ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 177.

٤- أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 430.

٥- النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص401.

٦- وقد كتب على عتبة بابها ما أوقفه عليها: "... ووقف عليها جميع البستان الخراجي المعروف بأرض الحواري، والأرض المعروفة بدف العناب، والقرماوي بدف القاطيع، والجوريتين البرانية والجوانية بأرض الخامس، والنصف الثلث من الريحانية و من الإسطبل المعروف بعمارية ببستان بقر الوحش و ذلك معروف مشهور فمن بدله الآية ... " النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص401.

6-المدرسة المُقَدِّمِيَّة الجَوَانِيَّة:

وفي سنة 583هـ/1187م أنشأ الأمير شمس الدين محمد بن مُقَدِّم¹ المدرسة المُقَدِّمِيَّة الجَوَانِيَّة للحنفية²، وقد تداول التدريس بها شيوخ الحنفية بداية بالشيخ فخر الدين القاري الحنفي، ثم من بعده ولده نجم الدين محمد بن فخر الدين القاري، ثم من بعده عماد الدين أخوه...³ ونلمس من هذ أنها كادت تكون إرثا في أسرة فخر الدين القاري لما عرفوا من تفقهم في المذهب الحنفي .

7-المدرسة المُقَدِّمِيَّة البرَّانِيَّة :

كما أنشأ فخر الدين ابن الأمير شمس الدين بن مقدم (ت 597هـ/1200م) المدرسة المُقَدِّمِيَّة البرَّانِيَّة للحنفية بحارة الركنية بسفح قاسيون شرقي الصالحية، وكان أول من درس بها نجم الدين بن الفخر القاري، ثم تغلب عليها أولاد ابن المقدم، وتعطلت عن ذكر الدرس بسبب ذلك مدة⁴.

8-المدرسة الأكزية :

كان أسد الدين أكر حاجبا لنور الدين محمود⁵، أنشأ مدرسة للشافعية بدمشق في عهد صلاح الدين الأيوبي أخذت تسميتها نسبة إليه، وقد رسم على عتبة بابها بعد البسملة ما صورته:" وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام أبي عبد الله محمد بن

¹ - هو شمس الدين محمد بن عبد الملك بن مقدم، كان من أعيان أمراء الدولتين النورية والصلاحية فيما بعد، كان بطلا شجاعا محتشما عاقلا شهد فتح بيت المقدس مع صلاح الدين ، حج إلى مكة في نفس السنة وهناك بعرفة رفع ألوية صلاح الدين وأظهر عز السلطان فغضب طاشتكين أمير الحاج من جهة الخليفة، فنهاء عن ذلك فلم يسمع منه، ثم اقتتلا فجرح ابن مقدم ومات في اليوم التالي بمنى في ذي الحجة سنة 583هـ/1187م .ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 37.

² - النعمي ، المصدر السابق، ج1، ص 456.

³ - نفسه، ص 458.

⁴ - النعمي ، المصدر السابق، ج1، ص460-461. ابن طولون الصالحي، تاريخ الصالحية، ص 216.

⁵ - محمد كرد علي، المرجع السابق ، ج6، ص 75.

إدريس الشافعي رضي الله عنه الأمير أسد الدين أكر في ست وثمانين وخمسائة، وتمت عمارتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين والدنيا...¹

9-المدرسة الجهاركية :

كما نجد قائدا آخر إسمه فخر الدين شركس (ت608هـ/1211م)، يقال له جهاركس² أحد أمراء الدولة الصلاحية، وقد كان نائبا للعادل على بانياس وتبنين وهونين، قد بنى المدرسة الجركسية ويقال لها الجهاركية بالصلاحية³، مشتركة بين الحنفية والشافعية، درس بها القاضي تقي الدين أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي للشافعية، والقاضي محب الدين محمد الشهير بابن القصيف للحنفية⁴.

10-المدرسة القايمازية :

إلى جانب هؤلاء أنشأ صارم الدين قايماز النجمي (ت596هـ/1199م)⁵، أحد القادة الكبار لدى صلاح الدين، مدرسة للحنفية بدمشق داخل بابي الفرج والنصر، عرفت بالقايمازية نسبة إليه⁶.

¹ - النعيمي ، المصدر السابق، ج1، ص124.

² - جهاركس بمعنى أربعة أنفس، وإليه تنسب قباب شركس بالسفح تجاه تربة خاتون، وهو الذي بنى القيسارية الكبرى بالقاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجدا معلقا وربعا لم ير في البلدان نظير له في الحسن والإتقان. توفي في رجب 608هـ/1211م. ينظر:الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج3، ص148. ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص117.

³ - محمد بن طولون الصالحي، تاريخ الصالحية، ص 209.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص117. النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص379، 380.

⁵ - هو الأمير صارم الدين قايماز النجمي ، متولي أعمال صلاح الدين في مخيمه و بيوته ، يعمل عمل أستاذ الدار، كان صلاح الدين إذا فتح بلدا سلمه إليه واستأمنه عليه ، حصل له من الأموال الكثير على اثر فتح آمد وموت العاضد صاحب مصر، كان كثير الصدقة و فعل الخيرات ، وكان يعلم الفقه على مذهب أبي الحنفية ، أكثر من بناء الربط وله هذه المدرسة. توفي 13 جمادى الأولى 596هـ /1199م. ينظر: أبو شامة ، الروضتين، ج4، ص464. ابن كثير المصدر السابق، ج7، ص 79. أما ابن الأثير فذكر أنه توفي في ربيع الأول 595هـ/1198م ، الباهر، ص193.

⁶ - النعيمي ، المصدر السابق، ج1، ص379، 380. محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص 94.

11- المدرسة الفاضلية :

ساهم القاضي الفاضل (ت596هـ/1199م) في بناء المدارس، فأنشأ في سنة 580هـ/1184م المدرسة الفاضلية بجوار داره في القاهرة ووقفها لتدريس المذهب الشافعي والمالكي، وجعل بها قاعة للإقراء ووقف بها ما يقارب مائة ألف كتاب¹.

12- المدرسة الإقبالية :

كما قام جمال الدولة إقبال (ت603هـ/1206م)، خادم السلطان صلاح الدين وعتيق ست الشام ابنة أيوب، ببناء المدرسة الإقبالية داخل بابي الفرج والفرايس شمال الجامع الأموي، حيث أن بانيها كان له داران فجعل أكبرهما مدرسة للشافعية والأخرى للحنفية، وأوقف عليهما فجعل لمدرسة الحنفية الثلث من الأوقاف ومدرسة الشافعية الثلثين².

رابعاً: دور المرأة في الحياة العلمية ومقاومة الفكر الشيعي:

لقد كان للمرأة نصيبها في تدعيم المسار العلمي للدولة بأن اهتمت هي الأخرى بتلقي العلوم والتدريس بل وحتى بإنشاء المدارس ووقف الأوقاف عليها، وقد أشار ابن جببر (ت614هـ/1217م) عند زيارته لدمشق إلى هذه المشاركة النسائية في العصر الأيوبي، فقال: "ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتتفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف"³.

عُرف عن بلاد الشام زمن الأيوبيين خاصة، أنها كانت مركزاً للنشاط التعليمي للمرأة، حيث كان هناك العديد منهن اللواتي اشتغلن في مجال التعليم والتعلم على الرغم من عدم

¹-المقريزي ، الخطط ، ج3، ص 444.

²- النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص118-119. ابن كثير، المصدر السابق ، ج7، ص102 ،ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق ، ج 7، ص 17. كرد علي ، المرجع السابق ، ص 75.محمد بدران ، المرجع السابق ، 152. الغامدي ، المرجع السابق ، ص 89.

³-ابن جببر، المصدر السابق ، ص 248.

ظهورهن بشكل مباشر في المدارس كمعلمات أو طالبات، إلا أن كثير منهن عملن في هذا الجانب بصورة غير مباشرة ، فكانت منهن شيخات أو سامعات أو راويات للحديث، وكُنَّ ينشئن المدارس الخاصة للصبيان ولدراسة الحديث والمذاهب الفقهية المختلفة، واشتهر البعض منهن بالتفوق في فن معين من فنون المعرفة، منهن شهدة الكاتبة التي كانت متخصصة في دراسة الحديث وعلومه، حتى عُدت من كبار رُواته وحفظته، وست الكتب نعمة بنت علي بن الطراح (524-604هـ) التي اهتمت بدراسة الحديث وتخصصت في كتاب الشمائل للترمذي¹.

ومن بين المدارس التي أنشأها النساء :

1-المدرسة العاشورية :

تقع بحارة زويلة من القاهرة، وكانت في الأصل دار اليهودي ابن جميع الطبيب كاتب الأمير بهاء الدين قراقوش (ت597هـ/1200م)، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي ، زوجة الأمير أيازكوج ، وجعلتها مدرسة وفقا على الحنفية².

2-المدرسة الصاحبة :

المدرسة التي أنشأتها ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب (ت643هـ/1245م)³ وهي المدرسة الصاحبة بُنيت للحنبلية بسفح جبل قاسيون من شرق الصالحية بدمشق، وكان

¹ - طارق فتحي سلطان، أحمد رضا أحمد ، مدارس الخاتونات والأميرات الأيوبيات في بلاد الشام في العصر الأيوبي(570-658هـ / 1161-1260م)، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد 7، العدد4، الموصل، 2008، ص199.

² - المقرئزي ، الخطط ، ج3 ، ص 450.

³ - هي الست ربيعة خاتون بنت أيوب زوجة الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين ، ثم لما مات تزوجت الملك مظفر الدين صاحب اربل، فأقامت عنده أزيد من أربعين سنة حتى مات ، ثم قدمت دمشق حتى توفيت في شعبان 643هـ/1245م، وقد جاوزت الثمانين من عمرها ،دفنت بمدرستها وكانت آخر من بقي من أولاد أيوب لصلبه.ابن كثير، المصدر السابق ، ج7، ص217-218.ابن طولون ، تاريخ الصالحية، ص 237.

أول من درس بها الشيخ ناصح الدين الحنبلي (ت634هـ/1236م)¹، ومن جملة ما أوقفت عليها قرية جبة عسال وبستان كان تحت المدرسة والطاحون بجوارها².

3-المدرسة الشامية البرّانية والشامية الجوّانية :

أنشأت ست الشام (ت616هـ/1219م)³، أخت الملك الناصر صلاح الدين، أم الملك الصالح إسماعيل، مدرستين للشافعية بدمشق، واحدة قبلي البيمارستان النوري وهي الشامية الجوّانية، والأخرى بظاهر دمشق بالغوطة، وهي الشامية البرّانية⁴، وأول من درس بها تقي الدين بن الصلاح، وكان درس بها من المشاهير ابن أبي عصرون وابن الزكي والفارقي والشريشي وابن الوكيل وابن قاضي شعبة وغيرهم⁵. وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافاً⁶، والتي تعرف أيضاً بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين الذي دفنته بها⁷.

¹ - النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص 62 و 217. ابن طولون، تاريخ الصالحية، ص236-237. كرد علي، المرجع السابق، ص 97.

² - و قد انتقد المؤرخون قلة وقف هذه المدرسة وأرجعوا ذلك لسوء تدبير الواقعة ربعة خاتون التي حرصت على أن يكون بناء المدرسة محكما فنجحت في ذلك إلا أنه لم يبقى معها إلا المال اليسير فاشتريت به وقفا يسيرا، على عكس أختها ست الشام(ت616هـ/1219م) صاحبة الشامية التي أحسنت التدبير بأن اشترت الوقف وكلما اجتمع لها منه بنت به المدرسة للحنفية أيضا .ينظر، ابن طولون، تاريخ الصالحية، ص245-246.

³ -قال عنها الذهبي " البارة المتصدقة أخت السلاطين"، ست الشام واقفة المدرستين البرانية والجوانية الخاتون الجليلة ست الشام بنت أيوب بن شاذي أخت الملوك و عمة أولادهم، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكا، منهم شقيقها توران شاه بن أيوب صاحب اليمن، وهي أم حسام الدين، تزوجها محمد بن شيركوه صاحب حمص، وكان كافور الحسامي خادما. وتعتبر ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج، توفيت يوم الجمعة 16 ذي القعدة 616هـ/1219. شمس الدين الذهبي، جامع أخبار النساء من سير أعلام النبلاء، مع تراجم الجزء المفقود من السير، تحقيق: أبي عبد الرحمن خالد بن حسين بن حسين بن عبد الرحمن، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 2004، ص458. انظر أيضا ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 7، ص 120. ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 137، 138.

⁴ - الدوادري، المصدر السابق، ج7، ص 204.

⁵ - محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 79.

⁶ - النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 208.

⁷ - الدوادري، المصدر السابق، ج7، ص 204.

أما الجوانية فكانت منزلها وحولته إلى مدرسة¹، ويعتبر قاضي القضاة زكي الدين أبو العباس الطاهر أحمد بن محمد بن علي القرشي الشافعي أول من درس بها²، ودرس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح، وسالم بن أبي الدر أمين الدين، وزين الدين الفارقي³ شيخ دار الحديث الأشرفية⁴، وكان من جملة ما أوقف عليها: عدة قرى منها جرمانا من بيت لهيا، وعدة أسهم من ضيعة تعرف بالتينة والضيعة المعروفة بمجلد القرية ونصف ضيعة تعرف بمجلد السويداء في نواحي دمشق⁵.

وقد اشترطت ست الشام على الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم، أن يكونوا من أهل الدين والخير والصلاح والعفاف، وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد، والسنة والجماعة⁶، وهنا نلمس أن ست الشام كانت تسعى من وراء إنشاء هذه المدرسة تدعيم مسار الدولة الأيوبية الرامي إلى القضاء على الفرق الضالة والمبتدعين في الدين، فجاءت جهودها مكملة لرجال الدولة.

كما اشترطت أن لا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا، من جملتهم المعيد بها والإمام، وذلك خارج عن المدرس والمؤذن والقيم، إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة، فللناظر أن يُقيم بقدر ما زاد ونمي⁷، وهذا حرص منها على أن يكون التكفل التام بالفقهاء والمتفقهة والمدرسة من جميع النواحي وحتى

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 137، 138.

² - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص227.

³ - محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 80.

⁴ - دار الحديث الأشرفية: بسفح جبل قاسيون بالصالحية بدمشق أنشأها الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب سنة 630هـ/1232م، وأول من درس بها شمس الدين بن أبي عمر الحنبلي (ت682هـ/1283م). ينظر: ابن طولون، تاريخ الصالحية، ص155-157.

⁵ - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص227.

⁶ - محمد بدران، المرجع السابق، ص 107.

⁷ - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص228. محمد بدران، المرجع السابق، ص 107.

يتفرغوا لطلب العلم والاستزادة في العلوم ولا يحدث اكتضاض من شأنه أن يصرفهم عن مبتغاهم.

4-المدرسة العذراوية:

كما شيدت عذراء بنت شاهنشاه¹ بن أيوب بن شادي بن مروان نور الدولة ابن نجم الدين أيوب، مدرسة للشافعية، عرفت بالمدرسة العذراوية بدمشق².

5-المدرسة القصاعية :

إلى جانب ذلك نجد المدرسة القصاعية، نسبة إلى حارة القصاعين، أنشأتها خطبلي خاتون بنت ككجا في سنة 593هـ/1196م، وإسمها فاطمة بنت الأمير كوكجا، واشترطت في مدرّسها أن يكون حنفيا³.

6- المدرسة العالمية :

أوقفها الشيخة الصالحة العالمية أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي⁴، تقع شرقي البلاط الناصري غربي سفح قاسيون تحت جامع الإفرم بدمشق. وكانت الشيخة فاضلة لها تصانيف، وهي التي أرشدت ربعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت الملك صلاح الدين إلى وقف المدرسة صاحبة بقاسيون على الحنابلة أيضا⁵.

¹ - توفيت في 10 محرم 593هـ/1196م ودفنت بمدرستها داخل باب النصر، ينظر: ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص72، ابن خلكان، المصدر السابق، ج2، ص453.

² - النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص284.

³ - نفسه، ص434.

⁴ - توفيت سنة 653هـ/1255م. ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص218.

⁵ - ابن طولون، تاريخ الصالحية، ص237. النعيمي، المصدر السابق، ج2، ص87.

7- المدرسة الفروخشاهية :

أوقفتها حظ الخير خاتون ابنة ابراهيم بن عبد الله، والددة عز الدين فروخشاه،¹ وسميت كذلك نسبة إليه، وهي زوجة شاهنشاه بن أيوب أخ صلاح الدين، وقد تم وقفها على الحنفية والشافعية معا سنة 578هـ/1182م².

وقد اقتصرنا على ذكر نماذج من إنجازات المرأة الأيوبية، وذلك ما يتماشى مع حيز الدراسة، وإلا فإن النساء الأيوبيات قد نشطن بشكل واسع في المجال العلمي تعليميا وتأليفا وتشبيدا، وقفوا إلى جنب الرجل في تلك المرحلة الحرجة من التاريخ الإسلامي، فقد بنت سيدات البيت الأيوبي خمس عشرة مدرسة بدمشق وهذا دليل على الدور الفعال الذي لعبته النسوة الأيوبيات في البناء والإعمار، ولم يقتصر بناؤهن للمدارس على دمشق فقط بل كان في أغلب مدن الشام، وكان لهن مطلق الحرية في بناء ما يشأن من المراكز التعليمية، وفي تحديد المذهب الذي يُدرس فيها³.

وعليه فإن كثرت المدارس زمن الدولة الأيوبية قدمت لكل مسلم سني فرصة التعليم والتكوين بغض النظر عن أصوله العرقية أو اللغوية، بحيث يمكن لابن فلاح من قرية نائية من صعيد مصر، أن ينال فرصة الذهاب إلى القاهرة أو بغداد أو أي مدرسة لينال تعليمًا يؤهله ليكون قاضيا أو إداريا، وكل هذا أدى إلى تقارب المسلمين معا ومسايرتهم

¹ - هو المنصور عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك و نائب دمشق لعمه صلاح الدين ، وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك أيضا بعد أبيه ، وكان السلطان صلاح الدين كثير الاعتماد عليه، حيث استنابه على دمشق لما عاد إلى مصر ، فقام بضبط أمورها و إصلاح أحوالها ، وكان شهما شجاعا بطلا عاقلا ذكيا فاضلا كريما ممدحا ، إلى جانب كونه عالما متفنا كثير الأدب ، و كان من أكبر أصحاب الشيخ تاج الدين أبي اليمن الكندي .توفي بدمشق في جمادى الأولى سنة 578هـ . ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 20.ابو شامة ، الروضتين ، ج3، ص 126-128. ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 453.

² - النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 431. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 20.

³ - طارق فتحي سلطان ، أحمد رضا أحمد، المقال السابق ، ص 199.

للمشكلات الفقهية والسياسية، وأسهم في الإجماع على مبادئ الإسلام الأساسية، فخلقت المدرسة بطريقة غير مباشرة مفهوم "العالم الإسلامي" نفسه¹.

وختاماً يمكننا القول أن للغرض السياسي أثر كبير في تسابق القادة والأمراء وحتى المرأة في بناء المدارس، فإلى جانب الوازع الديني الرامي إلى الصدقة والأجر والثواب كان مشروع الدولة الرامي إلى القضاء على الفكر والوجود الشيعي الباطني أثر كبير في تزايد وتضاعف عدد المؤسسات الدينية التعليمية في مصر وبلاد الشام زمن الأيوبيين.

خامساً: تقريب الصوفية ودوره في مقاومة الباطنية:

شجع سلاطين بني أيوب التصوف السني وسعوا جاهدين إلى تدعيمه، لتتبنى الطرق الصوفية المشروع الإصلاحي للدولة، فأوقفوا عليهم الأوقاف وقربوهم إليهم، حتى شبههم ابن جبير (ت614هـ/1217م) بالملوك: "وهذه الطائفة الصوفية هم ملوك هذه البلاد-يعنى مصر- لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان"².

ويعتبر عهد صلاح الدين الأيوبي فاتحة ازدهار للتصوف السني في مصر، حيث هياً لهم الأوضاع وشيد لهم العمانر وخاصة وسط القاهرة، ومن أمثله ذلك تحويله دار سعيد السعداء³ بالقاهرة إلى خانقاه للصوفية سنة 569هـ / 1173م، وهي أول خانقاه عملت بمصر⁴، كما قرر لهم وقفا ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، كما تضمن

¹ - عبد الحمن عزام ، المرجع السابق، ص 158-159.

² - ابن جبير، المصدر السابق ، ص 256.

³ - سعيد السعداء قنبر أو عنبر عتيق الخليفة المستنصر العبيدي، قتل في 07 شعبان 544هـ/1149م ورُمي برأسه من القصر ثم صلبت جثته بباب زويلة. ينظر: المقرئ، الخطط ، ج3، ص 570.

⁴ - القلقشندي، صبح الأعشى ، ج3، ص368.

إقامة المتصوفة بها أبداً، ولُقّب شيخ خانقاه سعيد السعداء "بشيخ الشيوخ"¹ ويعتبر بذلك أول من وضع تنظيمًا لرئاسة الصوفية.

وقد نتج عن اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالتصوف والصوفية أن توافد علماء التصوف إلى مصر بعد أن تحررت من سيطرة العبيديين الشيعة وعادت إلى حظيرة أهل السنة، ومن أولئك نجد أبا فتح الواسطي (ت580هـ / 1184م) الذي نقل الطريقة الرفاعية² إلى مصر، فانتشرت وكثر أتباعها في مصر .

وفي مصير المؤسسات التعليمية زمن الدولة الأيوبية طرح السؤال التالي :هل استكملت الجهود العلمية والمذهبية لصلاح الدين في مقاومة الفكر الشيعي ؟ وما كان مصير تلك المؤسسات التعليمية التي أنشأها بُغية مواجهة الفرق الشيعية الضالة والبدع؟

إلى حد ما نجحت المدارس الأيوبية في تكوين جيل تبني المقاومة السياسية والعسكرية والدينية ضد القوى الضاربة بالعالم الإسلامي سواء الشيعية أو الصليبية، ولكن هذه المدارس لم تتجح في إمداد الأمة الجديدة بما يحافظ على استمرار وحدتها ونمائها الحضاري في ميادين الحياة المختلفة، بل إن التخلف أصاب هذه المدارس نفسها وانتهى بها إلى ما عُرف بالطرق الصوفية وامتداداتها المتمثلة بجماعات الدراويش المختلفة التي اشتقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين كالطريقة القادرية، والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس بدل التربية والعلوم والأعمال³.

¹ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج2، ص 260. المقرئزي ، الخطط ، ج3، ص570.

² - نسبة إلى الشيخ أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس المعروف بابن الرفاعي ولد سنة 512هـ/1118م، بالبصرة، وهو من أصل عربي، شيخ الطائفة الأحمدية والرفاعية، توفي يوم الخميس 22 جمادى الأولى 578هـ/1182م. ينظر: ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 20-21.

³ - ماجد عرسان الكيلاني ، المرجع السابق ، ص 319-322.

والدليل على ذلك الانحراف الذي وقع فيه مريدوا الطرق الصوفية في مصر¹ وبلاد الشام بعد وفاة شيوخها الأوائل الذين ساروا على نهج الكتاب والسنة، فقد غالى بعض الأتباع والمريدون - وإن كان منهم الزهاد والعُباد والمُتقون - في تقديس شيوخهم، ونسبتهم إلى آل البيت أو الأشراف².

فهل كان لحدق الفرق الباطنية الشيعية على أهل السنة دور في تحريف وجهة جهود هذه المؤسسات أم أنه من عدم حرص من القائمين عليها ؟ .

إن فشل الباطنية في نشر تعاليمهم بين الناس ومحاولة إقامة دولة لهم بأي وسيلة ثم معانتهم من بطش الحكام بهم ... كل ذلك دفع بهم إلى البحث عن منافذ أخرى ناجعة في سبيل تحقيق هدفهم المنشود، فلم يجدوا في هذا السبيل أفضل من التصوف، لما رأوا من ميل الناس إلى أهله وثقتهم بهم، خصوصاً بعد عزوف الولاة والوجهاء عن التدين وركونهم إلى الدنيا، فانتحل الباطنية التصوف، واندسوا في صفوف الزهاد والعباد وتغلغلوا في صفوف أهل السنة. وهكذا استغلوا الفراغ الروحي الذي دب في أوساط المسلمين بسبب تسلط الحكام وانشغالهم بصراعاتهم الشخصية وتكالب الخطر الصليبي والمغولي عليهم... فأصبخوا بذلك فريسة سهلة بين مخالب الباطنية. الذين لا زالوا يعملون بنفس الشاكلة والطريقة فهل من حريص ومتقطن لهذا الخطر؟

¹ - مثل ما حدث لأتباع الطريقة الرفاعية في مصر فقد اشتهر عن بعض أتباع الرفاعي القيام بأفعال عجيبة كاللعب بالنعابين، وأكل الحيات وهي حية ، وركوب الأسود، والدخول في النيران المشتعلة دون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم وغيرها، فهذه لم تكن معروفة عند الشيخ الرفاعي، لكنها استحدثت بعد وفاته. ينظر: الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج3، ص75. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص20. وقد برأ ابن تيمية الشيخ الرفاعي من هذه الممارسات بقوله: "وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحد من الصالحين... ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره ، وإنما ابتدع بعد موت الشيخ بمدة طويلة ، ابتدعه طائفة انتسبوا إليه " ينظر: ابن تيمية ، الفتاوى ، كتاب التصوف ، ج11، ص244.

² - إحسان الهي ظهير ، المرجع السابق، ص229-298.

سادسا: إصلاح القضاء في مصر وبلاد الشام:

بعد إعلان الخطبة للخليفة العباسي المستضيء (566-575هـ/1170-1180م)، شرع صلاح الدين في التغيير السياسي والمذهبي، فحجر على العاضد العبيدي (555-567هـ/1160-1171م)، وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها، وقتل ابن عبد القوي آخر داعي دعاة للدولة العبيدية، وتركزت جهوده بالدرجة الأولى على محو آثار التشيع من مؤسسات الدولة، فظهرت الإنجازات العلمية لصلاح الدين جلية في مختلف الأصعدة، فإلى جانب اجتهاده في تشييد المدارس السنية نجده يبطل مجلس الدعوة من الجامع الأزهر وغيره من المؤسسات الشيعية، وكان من سنة الدولة العبيدية أن يقيموا لهم دعاة كالخطباء¹.

ولم يكن هذا الأمر سهلا وهينا في تلك المرحلة فقد خضعت مصر للحكم العبيدي الشيعي ما ينيف عن قرنين من الزمن²، لكن عزم صلاح الدين وبقينه بحتمية زوال هذا الأمر جعله يعمل جاهدا لإنهاء حالة التمزج المذهبي الشيعي في القضاء والعبادات وبقية المجالات الأخرى، حتى أننا نجده يشرع في إصلاحاته قبل نهاية الدولة العبيدية وفي حياة الخليفة الشيعي العاضد .

ومن جملة الإصلاحات التي أحدثها صلاح الدين الأيوبي في الدولة الإسلامية بغية تطهيرها من الفكر الشيعي أن أصلح القضاء³، فصرف قضاة مصر المتشيعين كلهم، وكان ذلك في 20 جمادى الثانية 566هـ/1170م⁴ ، وفوض القضاء

¹ - النويري ، المصدر السابق ، ج28 ، ص 241. المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج 3، ص 320.

² - أبو شامة ، الروضتين ، ج2 ص 211.

³ - كان القضاء في مصر زمن الدولة العبيدية على المذهب الشيعي الإسماعيلي ولم يعرف أي تطور أو إصلاح إلا إذا استثنيا ما قام به الوزير أمير الجيوش أبو علي أحمد بن الأفضل سنة 525هـ/1130م، الذي عين أربعة قضاة واحد للشافعية وواحد للمالكية وآخر للإسماعيلية ورابع للإمامية ، كل قاض يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه ، ولم يحدث هذا من قبل أبدا .ابن ميسر، المصدر السابق ، ص 115.

⁴ - مجير الدين العلمي ، المصدر السابق ، ج1، ص 454. ابن الأثير، الكامل، ج10 ، ص 32.

لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي (ت605هـ/1208م)¹ فلم يستتب عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب²، فاختلف المذهب الشيعي حتى فقد من مصر كلها³.

وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة 570هـ/1174م أبقي على قاضيها الشافعي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري (ت572هـ/1176م)⁴، ثم عين بعده ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري (ت599هـ/1202م)، ثم عزله وعين شرف الدين بن أبي عصرون على القضاء سنة (ت573هـ/1177م)⁵، وكان من خيرة العلماء الشافعية، ولما فتح صلاح الدين حلب سنة (ت578هـ/1182م) عين على القضاء القاضي محي الدين بن الزكي أبا المعالي محمد بن علي القرشي (ت598هـ/1201م)⁶.

¹ - هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس، الهذلي، الكردي الشافعي، ولد بالموصل سنة 516هـ/1122م، سمع من ابن عساكر الدمشقي، وروى عنه المنذري صاحب التكملة، كان من جلة العلماء وفضلائهم توفي في 05 رجب سنة 1208هـ/1208م، وهو أخو ضياء الدين عثمان بن عيسى أيضا من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الإمام الشافعي، توفي قبله في ذي القعدة سنة 1205هـ/1205م. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص 474، 476.

¹ - أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 180-181. البنداري، سنا البرق الشامي، ص 44، 45.

² - نفسه، ص 181. ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 32. ابن قاضي شعبة، الكواكب الدرية، ص 194. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج3، ص 319.

³ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 198.

⁴ - رغم الخلافات السابقة التي كانت بينهما في وقت كان فيه صلاح الدين شحنة في دمشق حيث كان الشهرزوري يعاكسه ويخالفه، فقد زاره صلاح الدين في بيته وأزال ما كان عالقا بينهما من خلاف وأقره على منصبه في القضاء. ينظر: سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص 130، أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 426. ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 3.

⁵ - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص 125-126. سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ص 131.

⁶ - قاضي دمشق محيي الدين، أبو المعالي، محمد ابن القاضي علي بن محمد بن يحيى بن الزكي القرشي الدمشقي الدمشقي الشافعي من بيت كبير، صاحب فنون وذكاء، وفقه وآداب وخطب ونظم. ولي القضاء والده زكي الدين وجده مجد الدين وجد أبيه الزكي وولي القضاء ولده زكي الدين الطاهر ومحيي الدين يحيى بن محمد، وكان صلاح الدين يعزه ويحترمه، ثم ولاه القضاء سنة 588هـ/1191م، وقد مدحه بقصيدة في سنة 579هـ/1183م منها ذلك: وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشرا بفتح القدس في رجب، فاتفق فتح القدس في رجب بعد أربع سنين. توفي في

وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا يولي عليه قاضيا شافعيًا، وآخر من عيّن من القضاة قبل وفاته هو القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ابن شداد الشافعي (ت632هـ/1234م)، عيّنه على مدينة القدس سنة 588هـ/1192م، وزيادة على ذلك جعل صلاح الدين القضاة والمُدرسين تابعين له، فعمل بذلك على تدعيم المذهب السني ودحض المذهب الشيعي، ولم يجرؤ أحد من أهل البلاد على إعلان تشيعه¹.

سابعا: تقريب العلماء وتدعيمهم لمقاومة الفكر الشيعي :

كانت السمة الغالبة على فترة الدراسة هي استجلاء وبيان أن أمراء وسلاطين الدول الثلاثة السابقة الذكر: السلاجقة والزنكيين والأيوبيين، قد قربوا العلماء وأعطوهم حرية خاصة في تصرفاتهم العلمية والمذهبية، فكان هؤلاء خير سند للأمة الإسلامية في ظروفها الحالكة، خاصة أمام تنامي الفكر الشيعي وانتشاره آنذاك، فعمل العلماء جاهدين للحد من ضرر المد الشيعي في العالم الإسلامي، ووقفوا جنبا إلى جنب مع الدولة في مخططاتها السياسية لاستكمال مشروع مقاومة الوجود الشيعي .

فسار الأيوبيون على خطى أسلافهم في استكمال المشروع الجهادي ضد الشيعة وتطهير العالم الإسلامي من براثنهم وممارساتهم المنحرفة، فقربوا العلماء والفقهاء واستشاروهم في الكثير من شؤونهم الدينية والسياسية، وكان صلاح الدين الأيوبي من أبرز سلاطين الأيوبيين الذين أخذوا من العلماء وقربوهم وفي ذلك يقول ابن شداد:

شعبان 598هـ/1201م.الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج21، ص358-360. الأصفهاني ، البرق الشامي، ج5، ص126.

¹ - محمد الرحيل غرايبيّة ، جهود صلاح الدين في إحياء المذهب السني في مصر والشام ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات الإسلامية، الأردن، 1986 ، ص 20-21.

" وكان- أي صلاح الدين- حسن العقيدة، كثير ذكر الله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء " ¹.

وقد عرف عن صلاح الدين الأيوبي نشاطه الدؤوب في مقاومة الوجود الشيعي على مختلف الأصعدة، وقد نال الصعيد العلمي منه النصيب الوافر، لما له من دور في تقليص الخطر الشيعي على الدولة والمجتمع جميعاً، فكان تدعيم وتقريب العلماء من بين المناهج التي اتبعها لترسيخ ذلك، وقد ذكر ابن شداد (ت632هـ/1234م) اهتمام صلاح الدين بهذا الجانب فقال: "وكان يكرم من يرد إليه من أرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده وينالهم من إحسانه" ².

كما كان ينفق على العلماء المال الجزيل حتى يتيسر لهم بناء المدارس وتنشيط الحركة الفكرية وكذلك قام بتكوين المجاهدين لرفع لواء الإسلام ضد العدو المزدوج من الشيعة والصليبيين، وقد ثبت عنه أنه في أكثر من مناسبة كان يخص العلماء بالأموال والغنائم، وأهم شاهد على ذلك بعد فتحه بيت المقدس فقد فرق ما ينيف على مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار على الأمراء والعلماء ³. وفي هذا دلالة على أن أمراءه العسكريين والعلماء كانوا في نفس المرتبة بحكم المهام المشتركة بينهما .

وقد عمل الأيوبيون منذ عهد صلاح الدين الأيوبي على مساندة التنظيم الديني الرامي إلى سيادة المذهب السني، فتولوا مهمة تعيين كبار القضاة الذين كانوا دائماً ما ينتمون إلى المذهب الشافعي، فضلاً عن كبار المشايخ والمعلمين في المدارس، بل إنهم استغلوا سلطاتهم في تجميع هيئات التدريس للمدارس الجديدة، ونجد أن أكثر من ثلثي القضاة والمعلمين قد وفدوا من خارج مصر، وكان أغلبهم من بلاد الشام ومن دمشق بالذات، كما جاءوا من الأندلس وبلاد المغرب

¹ - بهاء الدين بن شداد، المصدر السابق، ص 7.

² - بهاء الدين بن شداد، المصدر السابق، ص 31.

³ - نفسه، ص 82. وقد كان العلماء و الفقهاء في طليعة الوفد الذي ترأسه صلاح الدين على إثر فتح بيت المقدس، وهذا يدل على استعانتهم الكبيرة باستشارة العلماء في جميع تحركاته. ينظر: العليمي، المصدر السابق، ج1، ص474.

وبغداد وفارس، وقد استهدفت السياسة الأيوبية تجنيد أعداد من القادة الدينيين الذين جئ بهم من مراكز النشاط الديني في مختلف أرجاء العالم الإسلامي¹.

ومن المعروف أن الأيوبيين كانوا أكرادا بأصلهم ونسبهم ولكنهم في الواقع كانوا عربا بثقافتهم وتربيتهم ونشأتهم، فالمعروف عن صلاح الدين مثلا أن جوهر تعليمه كان القرآن الكريم والحديث النبوي، الأمر الذي وفر له معرفة ممتازة باللغة العربية، فعلى الرغم من كونه كردي المولد فإن تعليمه ودراسته كانت بالضرورة عربية في سن مبكرة²، وعلى نهجه نشأ الأيوبيون نشأة عربية إسلامية وامتزجوا بها ولهذا شُغفوا حبا باللغة العربية وآدابها وعلومها وقربوا إليهم الشعراء والعلماء والكتاب وشملوهم بعطفهم وكرمهم وهباتهم وخلعهم فاكتظت مجالسهم بأهل العلم والأدب³.

وقد دعمهم في مسارهم هذا نخبة من العلماء الذين برعوا في التدريس والتأليف وحتى أوقفوا الأوقاف وبنوا المدارس لترسيخ جهودهم الفكرية والعلمية، ومن أشهر هؤلاء العلماء نجد :

1- القاضي الفاضل (529-596هـ/1134-1199م)⁴ :

كان من العلماء المقربين لصلاح الدين الأيوبي، وتقدم عنده كثيرا⁵ حتى قلده الوزارة⁶، والذي يهمننا من دراسة مسيرة هذا العالم أنه كان كاتب إنشاء في الدولة العبيدية الشيعية¹،

¹ - ايرا لادبوس، السياسة الدينية في عهد الأيوبيين وتطور المذاهب الشرعية في القاهرة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970. ص 254.

² - ولم تقتصر دراسته للغة العربية على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فقد اهتم بالشعر وينسب إليه أنه كان يحفظ "ديوان الحماسة" لأبي تمام عن ظهر قلب، ويعتبر هذا الديوان بوجه عام واحدا من أجمل روائع الأدب العربي. ينظر: عبد الرحمن عزام، المرجع السابق، ص 62.

³ - أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 94.

⁴ - هو عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد ابن الفرج ابن أحمد القاضي محي الدين، وقيل مجير الدين أبو علي ابن القاضي الأشرف أبي الحسن اللخمي البيسانى العسقلاني المولد المصري المنشأ، المعروف بالقاضي الفاضل صاحب العبارة و الفصاحة والبلاغة ولد في جمادى الأولى 529هـ/1134م، وتوفي سنة 596هـ/1199م. ابن خلكان، المصدر السابق، ج 3، ص 158-161- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 6، ص 156. ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 80، النعمي، المصدر السابق، ج 1، ص 67.

⁵ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 6، ص 531. النعمي، المصدر السابق، ج 1، ص 68.

⁶ - ابن خلكان، المصدر السابق، ج 3، ص 158.

ويعود الفضل في توليه هذا المنصب إلى العادل بن الصالح بن رزيك²، الذي أمر والي الإسكندرية بتوليته ديوان الجيوش ومن هنا برز على الساحة السياسية وقد علق عمارة اليميني(ت569هـ/1173م) على الأمر بقوله: " فإنه - العادل بن الصالح بن رزيك - غرس منه للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء، أصلها ثابت وفرعها في السماء"³، وقد أخذ طموحه إلى صعود مستمر في مناصب متتالية إلى أن دخل القصر العبيدي، وتولى مهمة الإشراف على مراسلات الخليفة وساعده في ذلك موهبته الأدبية الفذة وقد سهل ذلك عليه مهمة الإتصال بنور الدين محمود(ت569هـ/1173م) ونوابه في مصر أسد الدين(ت564هـ/1168م) ومن بعده صلاح الدين⁴، فلما صار أسد الدين شريكه وزيرا في الديار المصرية جعله كاتباً ومشيراً، ثم استخلصه صلاح الدين الأيوبي لنفسه، فجعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، فتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلدان والحصون والمعقل⁵، فقال صلاح الدين في شأنه: " لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل " ⁶.

ولم يتوقف نشاط القاضي الفاضل بعد وفاة صلاح الدين بل حافظ على مكانته لدى سلاطين بني أيوب زمن العزيز ثم الأفضل⁷، فكان خير سند للأيوبيين في تدعيم المذهب السني في المشرق الإسلامي عامة ومصر خاصة.

¹ - وتوجد عدة نسخ للسجلات التي كتبها القاضي الفاضل للخليفة أو الوزير العبيدي من تعيين في مناصب وتكليف بمهمات، ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص 446، 449-451-460.

² - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص81.

³ - عمارة اليميني، المصدر السابق، ص54.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 80-81.

⁵ - النعمي، المصدر السابق، ج1، ص69، ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 80-

⁶ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص 157.

⁷ - ابن عماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص 532

فقد كان للقاضي الفاضل بالقاهرة مكتب للأيتام، وهو صاحب دار الحديث الفاضلية بالكلاسة، فقد كان هو أول المحدثين بها لغزارة علمه وتمكنه في علم الحديث¹، كما ساهم القاضي الفاضل في بناء المدارس، فأنشأ في سنة 580هـ/1184م المدرسة الفاضلية بجوار داره في القاهرة لتدريس مذهبي الشافعية والمالكية وجعل بها قاعة للإقراء وخصها بمكتبة ضخمة²، "فقد كان قد اقتنى من الكتب نحو من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح - أي لم ينله - أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ولا الكتاب"³.

2-العماد الأصفهاني (519-597هـ/1125-1200م):

هو محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله، المعروف بالعماد الكاتب الأصفهاني، ولد بأصفهان سنة 519هـ/1125م، درّس في بغداد بالمدارس النظامية على يد الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز، كما سمع الحديث⁴، ثم انتقل إلى الشام وهناك قدمه كمال الدين بن الشهرزوري (572هـ/1177م)، قاضي قضاة دمشق، للسلطان نور الدين محمود، الذي عينه في ديوان الإنشاء سنة (563هـ/1167م) وبقي فيه حتى نقله إلى وظيفة أخرى تتناسب مع نشاطه العلمي فولاه التدريس بالمدرسة العمادية سنة 567هـ/1171م⁵.

ويعتبر العماد الأصفهاني معاصرا للدولة النورية والصلاحية فبعد وفاة نور الدين محمود عمل كاتباً لدى صلاح الدين الأيوبي⁶، وكان مقرباً من القاضي

¹ - النعمي ، المصدر السابق ، ج1، ص69

² -المقرئزي، الخطط ، ج3، ص 444. سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين، ص 213.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ج7 ، ص 80.

⁴ - نفسه، ج7 ، ص 85. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 541.

⁵ - الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص 5 .

⁶ - أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص42.

الفاضل(ت596هـ/1199م) الذي أثنى عليه في الكثير من المناسبات، وله من المصنفات :خريدة القصر في شعراء العصر، الفتح القسي في الفتح القدسي، البرق الشامي... وغير ذلك من المصنفات خاصة في الأدب والشعر¹.

3- بهاء الدين ابن شداد (539-632هـ/1144-1234م) :

هو يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلّي، أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد المؤرخ ، من كبار القضاة ولد بالموصل، تفقه بالموصل ثم ببغداد، وتولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنوات، وعاد إلى الموصل فدرس بمدرسة كمال الشهرزوري وصنف بعض كتبه ،ثم حج سنة 583هـ/1187م² وزار الشام واتصل بصلاح الدين الأيوبي الذي قرّبه وأوكل إليه بعض الأعمال ، فولاه صلاح الدين قضاء العسكر ببيت المقدس والنظر على أوقافه سنة 583هـ/1187م³، واستصحبه معه في بعض غزواته، فدون وقائعه وأخبره، ولما توفي صلاح الدين سنة 589هـ/1192م توجه إلى حلب لجمع كلمة الإخوة، ثم انصرف إلى مصر لاستخلاف الملك العزيز، وعرض عليه الظاهر صاحب حلب الحكم فيها فأجاب فكانت ولايته قضاء حلب ووقوفها سنة 591هـ/1194م، واستمر كذلك إلى أن توفي فيها، له عدة مؤلفات منها: فضل الجهاد، ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ودلائل الأحكام، والموجز الباهر، وسيرة صلاح الدين ابن أيوب المعروف بالنوادير السلطانية والمحاسن اليوسفية⁴.

وإلى جانب مؤلفاته نجد بهاء الدين ابن شداد قد ساهم في الحياة السياسية والعلمية للدولة الأيوبية حتى بعد وفاة صلاح الدين، فقد لعب دورا كبيرا في التقريب بين الإخوة

¹- ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 541. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 86.

²- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص121. ابن عماد الحنبلي ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 276.

³- أبو شامة ، الروضتين ، ج4 ، ص7.

⁴- ابن خلكان، المصدر السابق ، ج7 ، ص 99-100. الزركلي، المرجع السابق ، ج8، ص230.

أولاد صلاح الدين، وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه¹، ومن الناحية العلمية فقد قام بإنشاء مدرسة وإلى جانبها داراً للحديث بحلب² وفي ذلك يقول ابن خلكان: "وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعُمرت في أيامه المدارس الكثيرة"³.

وقد استعان صلاح الدين بالعلماء في مختلف أجهزة الدولة، فإلى جانب كونهم مدرسين وقضاة، اتخذهم كسفراء له يمثلونه لدى الجهات الرسمية، بحكم حساسية المنصب والتخوف من الدسائس الشيعية، ومن ذلك أن صلاح الدين أرسل الفقيه عيسى الهكاري (ت587هـ/1190م) إلى الملك العادل نور الدين محمود وحمله رسالة يعتذر له فيها عن تركه لمحاصرة قلعة الكرك⁴، كما كان الخطيب شمس الدين أبو الوزير أبي المضاء (ت572هـ/1176م)⁵ خطيب الديار المصرية سفيراً بينه وبين الملوك والخلفاء⁶،

¹ - بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق، ص 4 من المقدمة.

² - عز الدين بن شداد ، المصدر السابق ، ص286. ابن الشحنة ، المصدر السابق ، ص123. ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج 2 ، ص121

³ - ابن خلكان، المصدر السابق، ج7، ص 89.

⁴ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 49.

⁵ - هو محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء الخطيب شمس الدين أبو عبد الله البعلبكي ثم المصري ، أصله من بعلبك ، ونشأ بمصر وقرأ الأدب وعاد إلى دمشق ، فسمع بها من ابن عساكر ورحل إلى بغداد وسمع بها وقرأ الفقه والأدب ثم عاد إلى مصر، واتصل فيها بالسلطان صلاح الدين، وهو أول من خطب بمصر لبني العباس، ثم نفذه صلاح الدين رسولا إلى بغداد وتوفي بدمشق ولم يبلغ الأربعين سنة 572هـ/1176م. ينظر، الصفدي ، المصدر السابق، ج 4 ، ص 389-390. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 7 ، ص 5 ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5، ص 338.

والخلفاء¹، ثم جعل مكانه في السفارة وأداء الرسائل ضياء الدين ابن قاضي القضاة الشهرزوري (ت599هـ/1202م) بمرسوم سلطاني، وكانت وظيفة مقررة².

ثامنا: التخلص من المنشآت العلمية العبيدية :

عمل صلاح الدين الأيوبي منذ الوهلة الأولى على إلغاء الدولة العبيدية سياسيا وعلميا ومذهبيا وذلك من خلال إعلان التبعية للخليفة العباسي أولا ، وإتلاف المنشآت العلمية المنسوبة للدولة العبيدية في مصر ثانيا .

والمعروف عن العبيديين أنهم سعوا بكل الوسائل إلى تدعيم فكرهم ومذهبهم بمؤسسات عُيّنت بذلك، ومن أهم تلك المنشآت نجد المساجد وخزائن الكتب، وكان جامع الأزهر القبلة الأولى للطلبة والأساتذة الشيعة، فجعلوا منه مؤسسة تعليمية تعنى بنشر مذهبهم منذ سنة 359هـ/969م، كما كانت القصور مكان علم كذلك من خلال عقد حلقات العلم بها، بحكم أن الخليفة هو من رواد الفكر الشيعي، وقد دعمت هذه القصور بخزائن كتب ضخمة حوت آلاف العناوين والمصنفات، وقد ذكر المقرئ ذلك بقوله: " عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة"³. وقد حوت هذه الخزائن شتى أصناف المصادر التي تخدم الفكر الشيعي: " وفيها من أصناف الكتب ما يزيد عن مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات، فمنها في الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة وكتب الحديث

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 5. ابن واصل ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 25.

² - أبو شامة، الروضتين، ج2، ص431. العلمي ، المصدر السابق، ج1، ص486. البنداري، سنا للبرق الشامي، ص130.

³ - المقرئ، الخطط، ج2، ص 163.

النبوي، والتواريخ وسير الملوك، والنجامة، والروحانيات، والكيمياء من كل صنف النسخة والعشرة¹.

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة لنفس الغرض، وكان ذلك يوم السبت 10 جمادى الثانية 395هـ / 1004م، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور، وسمح لجميع الناس بالولوج إليها والاستفادة من كتبها قراءة ونسخا، فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، كما أمر الحاكم بإجراء الأرزاق لمن رسم له الجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر².

كل هذه المنشآت العلمية تم التخلص منها بفضل الجهود السنية لصالح الدين الأيوبي، فتم تحويل النشاط العلمي للمعاهد والجوامع الشيعية إلى نشاط سني محض، بالإضافة إلى إتلافه كل الكتب التي حوت عليها خزائن القصور والجوامع بسبب اعتمادها الكبير على الكتب المذهبية الخاصة بالفكر الشيعي فيما تم توزيع وبيع الكتب التي عنيت بالعلوم الأخرى³.

وأكبر نموذج على ذلك عندما استولى صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد سنة 567هـ / 1171م، كان من جملة ما باعوه خزانة الكتب، وقد بيعت بأبخس الأثمان، بعد التخلص طبعا من الكتب التي تخدم الفكر الشيعي، وقد وصف المقرئ خزانة الكتب تلك أنها كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، حيث كانت تشتمل على ألف وستمئة ألف كتاب⁴، منها

¹ - ابن الطوير ، المصدر السابق، ص 127

² - المقرئ ، الخطط، ج2، ص 274، 275.

³ - ابن الطوير ، المصدر السابق ، ص 127.

⁴ - المقرئ، الخطط ، ج2، ص 165. أحمد عبد الرزاق أحمد ، المرجع السابق، ص26. فيما يحددها ابن واصل بمائة وعشرين ألف مجلدة ، المصدر السابق ، ج1، ص 203.

ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزنة أحد من الملوك، فحمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال وترك الباقي¹، حيث تمت الاستفادة من كتب العلوم الأخرى بعد أن ابتاع القاضي الفاضل ألوفا منها وأوقفها على مكتبة المدرسة الفاضلية التي أسسها في سنة 580هـ/1184م بالقاهرة، فجعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد².

أما فيما يخص الجامع الأزهر، فقد غُيب عن الساحة الدينية والفكرية، وتراجعت مكانته بشكل ملحوظ، وثُبط أي نشاط علمي أو فكري يصدر منه، كونه اعتبر منبرا من منابر الفكر الشيعي الباطني طيلة قرنين من الزمن، فبعد سيطرة صلاح الدين الأيوبي على زمام الأمور في مصر، قلد وظيفة القضاء لصدر الدين بن درباس (ت605هـ/1209م) فعمل بمقتضى مذهب، وهو امتناع إقامة خطبتين في بلد واحد كما هو المذهب الشافعي رضي الله عنه، "فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقرها بالجامع الحاكمي لكونه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من إقامة الخطبة فيه إلى أيام الظاهر بيبرس"³.

تاسعا: خلفاء صلاح الدين وجهودهم العلمية في مقاومة الوجود الشيعي :

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي تنازع الإخوة الأشقاء على ملك أبيهم فكان العادل بمصر والأفضل بدمشق إلى أن انتزعها منه أخوه العزيز سنة 592هـ/1195م، فعهد هذا الأخير إلى القاضي محي الدين بن الزكي أن يبني له مدرسة قرب المسجد الأموي، وأخذت اسمه فعُرفت بالمدرسة العزيزية⁴، كما شيد العادل أبو بكر بن أيوب مدرسة بخط

¹ - ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 203.

² - المقرئزي، الخطط، ج2، ص 165. أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص 146. ويذكر أحد المؤرخين أن قسما من هذه المكتبة محفوظ الآن في مكتبة ليدن بهولندا ينظر: عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص62.

³ - السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص 252. أحمد فكري، المرجع السابق، ص64.

⁴ - النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص290.

الساحل بمصر للشافعية، ودرس بها قاضي القضاة تقي الدين أبو علي الحسن بن شرف الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه جلال الدين أبي محمد عبد الله بن نجم بن شاش، فعرفت به وقيل لها مدرسة ابن شاش¹.

فبالرغم من الصراع السياسي إلا أن النشاط العلمي بقي قائماً وتوارثه أمراء الدولة الأيوبية أبا عن جد، فقد تعاقب خلفاء صلاح الدين على السير على منهجه في بناء المدارس التي اكتظت بها القاهرة ومصر وبعض المدن الأخرى²، وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة، فبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها سنة 600هـ/1203م حوالي ثلاث عشرة مدرسة، ثم تضاعف هذا العدد³.

والحق أن إنشاء المدارس لم يقتصر إبان العصر الأيوبي على صلاح الدين فقط، بل امتد إلى أمرائه وأفراد البيت الأيوبي وكبار موظفي الدولة، حتى بلغ مجموع ماتم تشييده منها خلال هذه الفترة ما يقارب أربع وعشرين مدرسة في الفسطاط والقاهرة بالإضافة إلى مدرستين في الفيوم، منها ست مدارس للمذهب الشافعي، وثلاث للمذهب الحنفي ومثلها للمذهب المالكي، وسبع لم تحدد المصادر التاريخية مذهب الدراسة بها، ومدرسة للمذهبيين الشافعي والمالكي في آن واحد، وثانية للمذهبيين الشافعي والحنفي وعلم القراءات، وثالثة للمذهب المالكي وعلم النحو، ورابعة للحديث وخامسة للمذاهب الأربعة، وهي المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب على جملة من القصر العبيدي الكبير الشرقي⁴.

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب للعلم في عنايتهم بخزائن الكتب، وأهمها الخزانة التي اهتم بها السلطان الكامل بالقلعة، وكانت في الأصل مكتبة القاضي الفاضل

¹ - المقرئ، الخط، ج3، ص 442.

² - نفسه ج3، ص 437.

³ - عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 73.

⁴ - أحمد عبد الرزاق أحمد، المرجع السابق، ص 30.

ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، حتى ضمها السلطان الكامل إلى أملاك الدولة ونقلها إلى القلعة سنة 626هـ/1228م ، لتصبح نواة لمكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد¹.

لكن إذا قارنا جهود صلاح الدين الأيوبي وجديته في دحض الفكر الشيعي مع جهود أبنائه نجد أن صلاح الدين كان أكثر حرصا في القضاء على الفكر الشيعي بحكم تعامله مع الوضع وإدراكه خطورة هذا الفكر إن هو لم يؤاد بشكل نهائي، فترجم ذلك الحرص في انجازات عسكرية وسياسية ودعمها علميا بالمدارس والعلماء، ونظرا لمجهوداته التي لا تكاد تُضاهى، قال عنه السبكي: "لما توفي السلطان صلاح الدين ، بارت سوق العلم والدين بوفاته"² وفي هذا دلالة كبيرة عن ضخم انجازاته العلمية .

وكإحصاء عام للمؤسسات التعليمية التي انتشرت في مصر وبلاد الشام منذ عهد نور الدين إلى نهاية الأيوبيين، فقد تم بناء مائة وعشر مؤسسات دينية، كان منها اثنان وتسعون مدرسة، وكان لهذا القدر الكبير من المؤسسات التعليمية أثر عميق على المستوى السياسي والاجتماعي ودور في مقاومة الفكر الشيعي الباطني في تلك الأقاليم³.

على أن مركز الثقل قد تحول في أواخر العصر الأيوبي في مجال إنشاء المدارس المستقلة لكل مذهب إلى تأسيس " دار الحديث "⁴ و"مدرسة الصالحية " ووضعها في

¹ - سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 140.

² - السبكي، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 180.

³ - محمد عزام ، المرجع السابق، ص 58.

⁴ - عرفت بالمدرسة الكاملية، وهي ثاني دار للحديث بعد دار الحديث النورية وأول دار حديث أنشئت في مصر الأيوبية، بناها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان، سنة 622هـ/1224م، أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، وجعل مشيختها لأبو الخطاب عمر بن دحية، ثم تولى التدريس بها أخوه أبو عمر وعثمان بن الحسن بن علي بن دحية، ثم الحافظ عبد العظيم المنذري ثم الرشيد العطار. ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة ، ج2، ص262. المقرئزي، الخطط، ج3، ص467-468. القلقشندي ، صبح الأعشى، ج3، ص367.

خدمة المذاهب الأربعة كافة¹ وكأنها محاولة من الأيوبيين للتخفيف من شدة التعصب المذهبي السائد في مصر خاصة.

كما أنه برز في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من العلماء من تبني استكمال مشروعه وحاول إرشاد السلاطين إلى الطريق الصحيح في اتباع أسلافهم والابتعاد عن الفرقة والصراع، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه أبوشامة(ت665هـ/1266م) صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، فقد تأثر أبو شامة بمسيرة هذين القائدين وترجم لإنجازاتها في موسوعته تلك، حيث يقول: "فعزمت على أفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين"² فعزم أن يكون الكتاب قدوة وعبرة في تسيير أمور الدول، ومن بين مؤلفاته التي لم تصلنا كتاب "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد"³ وهذا دليل أن خطر الشيعة لم يكن قد زال نهائياً من الساحة.

وتلخيصاً لما سبق ، وجدنا أن صلاح الدين كان شافعي المذهب متعصباً للأشعرية، شأنه في ذلك شأن نظام الملك الذي عمل على ترسيخ العقيدة الأشعرية وتلقينها، لكن صلاح الدين كان لديه نوع من التسامح المذهبي الذي سمح له بإنشاء مؤسسات تعليمية للمذاهب الأخرى كالمالكية والحنفية فأحدث بذلك توازناً بين المذاهب، ورسخ مبدأ أساسياً في الأمة الإسلامية مفاده أن العلم هو سياج الأمة وسلاحها .

¹ - المدرسة الصالحية بالقاهرة هي أول مدرسة للمذاهب الأربعة، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل شرع في بنائها سنة 639هـ/1241م، وفرغ منها سنة 641هـ/1243م، أول من درس بها من الحنابلة قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم ابن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي الصالح، ينظر: المقريزي، الخطط، ج3، ص465، السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص263. أيرا لابدوس، المرجع السابق، ص 254، 255.

² - أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص26.

³ - أبو شامة ، الروضتين ، ج2، ص222.

وبهذا نجد أن صلاح الدين بإنجازاته العلمية لمقاومة الوجود الشيعي، أضاف سجلا ذهبيا إلى تاريخه، إلى جانب سجله الحافل بالانتصارات العسكرية والسياسية على القوى الصليبية، فقد بعث المذهب السني من جديد في مصر وبلاد الشام والحجاز وحتى في بغداد التي كاد نفوذها أن ينهار في ظل سيطرة الشيعة على العالم الإسلامي في القرن 5هـ/11م ، ومن هذا السجل يمكننا أن نستخلص العِظات والعبر لمواجهة التحديات التي تواجه أمتنا الإسلامية، فنعمل على مقاومة الأخطار المتزايدة بتوحيد كلمتنا وجهودنا على مختلف المستويات والأصعدة .

الفصل الرابع : الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 447-600هـ/1055-1203م.

أولاً :الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي: 447-521هـ/1055-1126م.

I- الدور الاقتصادي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي

- 1-استرجاع معاقل الشيعة وزيادة موارد بيت المال.
- 2- الإقطاع العسكري زمن نظام الملك ودوره في مواجهة المد الشيعي.

II- الدور الاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي

- 1- نصره سلاطين السلاجقة للعامة من أهل السنة أثناء الفتن مع الشيعة.
 - 2- تهجير عدد كبير من رؤوس الشيعة .
 - 3- الانحلال الخلقي ودور السلاجقة في القضاء عليه.
 - 4- الحد من الاغتيالات التي مارسها الشيعة الباطنية .
- ثانياً: الدور الاقتصادي والاجتماعي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي: 521-569هـ/1126-1173م.

I-الدور الاقتصادي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي.

- 1-إلغاء نور الدين للضرائب غير الشرعية.
- 2-الحرص على زيادة موارد بيت مال المسلمين.
- 3-التوسع الخارجي للدولة النورية وأثره الاقتصادي.

II- الدور الاجتماعي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي.

- 1-الأوقاف زمن الدولة الزنكية ودورها الاجتماعي في محاربة الفكر الشيعي.
 - 2- حماية الحجاج .
 - 3- إبطال ممارسات الشيعة.
 - 4-محاربة البدع التي مارسها الشيعة.
- ثالثاً- الدور الاقتصادي والاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي: 569-600هـ/1173-1203م.

I-الدور الاقتصادي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي.

- 1-إلغاء صلاح الدين للمكوس .
- 2-رفع المكوس عن الحجاج .
- 3-الإصلاحات الاقتصادية زمن الدولة الأيوبية ودورها في مقاومة الشيعة .

4-فتح اليمن ودوره الاقتصادي في مقاومة الوجود الشيعة.

II- الدور الاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي

1-التعليم المجاني للفقراء لتجنب وقوعهم فرائس للباطنية.

2-إقرار الأمن والاستقرار في مصر بعد قطع الخطبة العبيدية.

3- الحرص على القضاء على نسل العبيديين.

4-الأوقاف ودورها الاجتماعي في مقاومة الوجود الشيعي .

الفصل الرابع : الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين

في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 447-600هـ/1055-1055

1203م.

مَثَّل السلاجقة والزنكيون والأيوبيون القوى الضاربة ضد الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي على مختلف المستويات: سياسيا وعسكريا وعلميا، وإلى جانب ذلك كان لهم دور اقتصادي واجتماعي في مقاومة هذا الخطر .

فقيم تمثل دورهم الاقتصادي والاجتماعي؟ وهل كانت هذه الجهود مكتملة للنواحي الأخرى؟ وإلى أي مدى نجحت هذه الجهود في استكمال المشروع الرامي إلى القضاء على الفكر والكيان الشيعي؟

أولا :الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي:447-521هـ/1055-1126م.

أ-الدور الاقتصادي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي :

1-استرجاع معاقل الشيعة وزيادة موارد بيت المال :

كان للدور السياسي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بقضائهم على الدولة البويهية أثر اقتصادي كبير عاد بالفائدة لصالح بيت مال المسلمين، ففي حديثنا عن تَسَلُّطِ البويهيين وجدنا أنهم خربوا المعالم الاقتصادية للدول، خاصة بسيطرتهم على الطرق التجارية وعثيهم فسادا بالقوافل المارة بها، بالإضافة إلى كل هذا فقد فعل قُطَاعُ الطرق من الديالمة ما يحلو لهم فقد كانوا يُحَصِّلُونَ الخراج من الزراع مرتين أو ثلاث في السنة

دون أن يجدوا من يعترض طريقهم أو يقلص من صلاحياتهم¹، لكن بوصول السلاجقة إلى السلطة وقضائهم على التواجد البويهي قد خففوا على العامة الأعباء الاقتصادية التي تحملوها من جراء سياسة أولئك الديالمة .

أما بالنسبة لفرقة الإسماعيلية الباطنية، التي تقاسمت أملاك الخلافة العباسية في مصر والشام وبلاد فارس، فقد شكلت العائق الاقتصادي الأهم بالنسبة لدولة السلاجقة، إذ استولى الحسن بن الصباح (ت518هـ/1124م) على قلعة ألموت سنة 483هـ/1090م " وهي من الحصانة والمناعة على غاية، لا ترقى الهمم إلى بلوغه،² وتُحيط بها بحيرة"³، وما فتئ يستقر بها حتى بادر بالاستيلاء على القلاع المجاورة⁴، فسيطر على ما يربو عن الخمسين قلعة جنوبي بحر قزوين⁴، وكانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، كما سيطرت على بعض الطرق التجارية المهمة، فالملاحظ أن القلاع الرئيسية في أراضي الإسماعيلية كانت تقع بالقرب من نهر شاهرود وفروعه، وكانت القلعة تُكوّن وحدة اقتصادية وعسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء، ولقد كان للوفرة والتنوع التي امتازت به المحاصيل الأثر الأكبر في تحقيق استقلالها وتكاملها الاقتصادي، وهذا لا يعني أن تلك القلاع كانت تعيش في معزل

¹ - نظام الملك ، المصدر السابق، ص 103.

² - المقرئزي ، المقفى الكبير ، ج3، ص 329.

³ - خواندمير ،المصدر السابق ، ص242.

⁴ - أهمها : أصبهان ، ألموت ، طيس قهستان ، خورخوسف ، وزورن ، وفاين ونون ، وكانت تلك القلاع في مجملها بخوزستان وفارس . ينظر ابن الأثير ، الكامل ، ج9 ، ص 39-40. كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة:بشير فرنسيس،كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ، 1936، ص 256.

عن بعضها البعض، بل كانت في مجملها تخضع لسيادة سياسية واحد معقلها قلعة
ألموت بزعامة الحسن بن الصباح(ت518هـ)¹.

وعليه فإن الشيعة الباطنية قد سيطروا على حصون وقلاع مهمة من الناحية العسكرية
والمالية، كقلعة ألموت سنة 483هـ/1090هـ، وقلعة أصبهان سنة 490هـ/1096م²،
وقلعة بانياس سنة 520هـ/1125م، وحصن مصياف سنة 535هـ/1140م³...³، وكانت
قلاعهم كالخناجر في قلب الدولة الإسلامية⁴، وشكلوا بذلك عائقا أمام السلاجقة في
الاستفادة من موارد تلك الأقاليم، فعمل هؤلاء جاهدين على استرجاعها للغرضين العسكري
والاقتصادي.

وقد امتدت مملكة الحسن بن الصباح بعد وفاته إلى حد شرقي أذربيجان وبحر
طبرستان وجرجان، ولهم بخراسان مدينة كبيرة⁵، وصارت لهم مئات القلاع، وجُبيت إليهم

¹ - الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص 111.

² - أصبهان كلمة فارسية مركبة من الأصب :معنى بلد ، وهان :معنى الفارس أي: بلاد الفرسان ، ياقوت الحموي ،
المصدر السابق، ج1، ص207. وقد بنى هذه القلعة السلطان ملكشاه ، وكان سبب بنائها انه خرج مرة للصيد مع رجل
من رسل الروم فهرب منه كلبه فاتبعه إلى رأس الجبل فوجده هناك فقال له لو كان هذا الجبل ببلادنا لاتخذنا عليه
قلعة، فابتناها ملكشاه وانفق عليها ألف دينار ومائتي ألف دينار، وقد كان الناس يتشائمون بهذه القلعة يقولون: "
كان دليلها كلبا والمشير بها كافرا والمتحصن بها زنديقا" حتى خلصهم منها السلطان محمد بن ملكشاه .ينظر: ابن كثير
، المصدر السابق ، ج6، ص 556.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج 9 ، ص 38-39.

⁴ - محمد حامد الناصر ، المرجع السابق ، ص 33.

⁵ - ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 102.

الضرائب وفُرضت الإتاوات، وقد استطار شرهم في هذه الأصقاع¹، "حتى كان للرئيس فيهم على كل ملك إقليم مال يُحمل إليه تقية من شرهم"².

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر جهود السلطان محمد بن ملكشاه (498-511هـ/1105-1118م) الذي حاصر قلاعا كثيرة من حصون الباطنية" فافتتح منها أماكن كثيرة ، وقتل منها خلقا كثيرا، وجمعا كبيرا، وجمعا غفيرا"³، وكان من جملتها قلعة أصفهان، التي سيطر عليها زعيم الباطنية أحمد بن عبد الملك بن العطاش سنة 490هـ/1096م⁴، الذي استفحل أمره بالقلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله، كما فرضوا على القرى التابعة لسلطان السلاجقة ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى، فتقلصت بذلك الموارد المالية وتعذر على السلطان الانتفاع بقراه والناس بأملاكهم، فرأى السلطان محمد بن ملكشاه ضرورة الخروج ووضع حد لهذه الممارسات، ففرض حصارا على القلعة دام أربعة أشهر من شعبان 500هـ/1106م إلى ذي القعدة من نفس السنة، انتهى بالقضاء على ابن العطاش واسترجاع هذا الحصن من أيدي الباطنية⁵.

¹ - السيد الأهل، المرجع السابق ، ص 82.

² - ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص 102.

³ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 556.

⁴ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج19، ص267.

⁵ - ابن الأثير ، الكامل ، ج9، ص 107-108.

2- الإقطاع¹ العسكري زمن نظام الملك ودوره في مقاومة الوجود الشيوعي :

كان نظام الملك أول من طبق نظام الإقطاع على الجند²، كسياسة اقتصادية يستطيع من خلالها توفير المال اللازم للأجناد دون الضغط على موارد الدولة وخزيرتها، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني: "وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد ، وصرفها إلى الأجناد، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرقها على الأجناد إقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا، فتوفرت دواعيهم على عمارتهما، وعادت في أقصر مدة إلى أحسن حالة من حليتها " ³ .

وقد حرص نظام الملك على حماية المالك من جور المقتطع، بأن حدد كيفية استغلال الإقطاعات بقوله : " ليعلم المستقطعون أن لا شأن لهم بالرعية سوى تحصيل الأموال المستحقة عليهم بالحسنى، على أن يكونوا بعد ذلك آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم

¹ - الإقطاع : نظام يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم ، يقضي بأن يملك الأولون الآخرين قطائع من الأرض على سبيل المنحة لهم ولأولادهم .شوقي ضيف وآخرون ، المعجم الوسيط ، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص745 مادة الإقطاع. وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره، ولا يصح فيما تعين فيه ماله وتميز مستحقه ، وهو نوعان إقطاع تملك وإقطاع استغلال .أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق:أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة ، الكويت، ط1 ، 1989، ص248.

² -السبكي، المصدر السابق ، ج4 ، ص 317.

³ - البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 220.ويكمن الاختلال هنا في تفكك جهود السلاجقة بين مواجهة الطامعين في العرش ومحاربة الفرق المناوئة للإسلام ومحاربة الصليبيين، وعدم استقرار العامة بسبب الأخطار المحيطة بهم، فأوجد نظام الملك الإقطاع بغية تغطية مصاريف الجند ومن ثم تثبيت أقدام الجنود في أقاليمهم التابعة لهم لمواجهة الأخطار المحدقة بالخلافة العباسية أولا ودولة السلاجقة ثانيا .

وأبنائهم وضياعهم وما يملكون... أما من لا يلتزم بهذا أو يتقيد به فينبغي الضرب على يده، ونزع إقطاعاته منه، ومجازاته ليكون عبرة للآخرين"¹.

وإن الجديد الذي أضفاه نظام الملك على الإقطاع كإجراء شرعي وتنموي، هو إدراكه أن الجنود المسجلين في ديوان الجيش لم يوزع عليهم إلا إقطاعات قليلة، والجيش السلجوقي بضخامة عدده، يلزمه إقطاعات كثيرة، ولذلك وزعت كثير من الإقطاعات في خراسان على قادة الجيش بسبب اتساع رقعة الدولة السلجوقية، ففي عهد ملكشاه (ت485هـ/1092م) "بلغ الجند الذين يلازمون ركاب السلطان ستة وأربعين فارساً، وزعت إقطاعاتهم على سائر بلاد المملكة ، حتى إذا نزلوا بأية ناحية منها كانت نفقاتهم وعلوف دوابهم معدة مهياً"²، "وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة ، فوجه نصفه على بلد من الروم، ونصفه على وجه في أقصى خراسان"³، ومن هنا نلاحظ حرص نظام الملك على أن لا يخصص الإقطاعات في منطقة واحدة حتى لا تظهر بوادر الانفصال والاستقلال بالأقاليم المقطعة وليضمن توفير مرتبات الجند أينما حل .

والغاية الثانية التي رمى إليها نظام الملك من وضعه لنظام الإقطاع هو إدراكه أن تركيبة الجيش كانت شديدة التنوع مختلفة العناصر، وأراد لها نظام الملك أن تستقر وتمارس عملاً تنموياً يربطها بالأرض، ويحقق هدفاً سياسياً يزيد من مواطنها، خاصة أن التركمان غرباء عن هذه البلاد، وهم قوم عُرفوا بالتجوال وعدم الاستقرار وبهذا يسهل على

¹ - نظام الملك ، المصدر السابق ، ص 70.

² - الراوندي، المصدر السابق ، ص 204-205

³ - البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 220.

الدولة السيطرة عليهم، وتقليل المنازعات بينهم، وهو ما يخفف الضغط على موارد الدولة وميزانيتها¹.

وهنا يكمن الدور الاقتصادي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي، فالمعروف أن عددا من المناطق التي كانت تابعة للسلاجقة كانت في مد وجزر بين التبعية المركزية والانفصال لصالح الحركات الباطنية المناوئة، خاصة بإقليم فارس، وجاء نظام الإقطاع لإحكام السيطرة على تلك الأقاليم المسترجعة، وقد دافع عنها المُقَطَّعون من الجند لأنها غدت أملاكا شخصية خاصة بعد أن توارثوها، ونحن نعلم أن القوات السلجوقية استردت حصون مهمة من الباطنية أهمها قلعة أصفهان وحصن بانياس، التي كانت تحيط بها أراضي تابعة لها، فحرم هذا الأمر الباطنية من استغلال أراضيهم فانعكس سلبا على تمويلهم وشل حركتهم ولو نسبيا .

لكن النظام الإقطاعي لدى السلاجقة أضحى الأساس الذي تقوم عليه الملكية، فكانوا يرون أن المملكة ضيعة للسلطان ويمتلكها نيابة عن قومه، يُقَطَّع أراضيها لأقاربه وأنصاره وجنوده وعبيده، وعدم المساس بالملكية الخاصة لتعلقه بخراج الأرض دون رقبتها، مع اقتران ذلك بالاستغلال والإساءة إلى الفلاح، والاستيلاء على ما بيده، إذ يعدون الإقطاع ملكا وراثيا، وكان الوزير بدوره يهتم لأن تزداد إيرادات الإقطاع ليزداد تبعا لذلك مخصصه، وبالرغم من نجاح نظام الإقطاع عند السلاجقة في البداية، إلا أنه أصبح بمرور الوقت مؤذنا بالتنافس والأطماع والتنازع والإفلاس².

¹ - محمد سعيد ناحي الغامدي ،الوزير السلجوقي نظام الملك وتحليل فكره ونظامه الاقتصادي ، مجلة مركز صالح

كامل للاقتصاد الإسلامي ، الأزهر ، العدد 17 ، القاهرة ، 2002 ، ص 23 ، 24.

² - محمد سعيد ناحي الغامدي ،المقال السابق ، ص 22، إرشيد يوسف ، المرجع السابق ، ص 236.

II- الدور الاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق الإسلامي:

1- نصرة سلاطين السلاجقة للعامة من أهل السنة أثناء الفتن مع الشيعة:

رأينا في الفصل التمهيدي كيف أن دولة بني بويه دعمت الشيعة المتواجدين في بغداد خاصة، وسمحت لهم بممارساتهم الدينية التي كانت سببا في إشعال نار الفتنة بينهم وبين السنة، وكانت هذه الخلافات عنيفة تصل إلى حد الحرق وسفك الدماء، خاصة وأن الأمراء البويهيين كانوا المحركين لهذه البدع والضلالات: منها مثلا كتابة عبارة السب واللعن لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أبواب المساجد، وكذلك السماح للشيعة بإعلان أعيادهم، ومشاركتهم لاحتفالاتهم التي تدخل في باب البدع والضلالة¹، وكل هذه الأمور كان البويهيون مدفوعين بها لأغراض تخدم مصالحهم واستمرارهم في الحكم ليس إلا، في حين كانت هذه السياسة تلحق ضررا بالغا بوحدة المجتمع وحياته، وذلك بحتمية الصراع المذهبي والطائفي الذي أنعكس أثره سلبا على الحياة الاجتماعية، بداية من سلسلة الصراعات والفتن²، ثم المواجهة بين أهل السنة والشيعة على امتداد سنوات الحكم البويهي الذي كان معترفا بطريقة أو بأخرى بالدولة العبيدية في مصر وهذا ما زاد الطينة بلة .

وقد كان ظهور السلاجقة على الساحة السياسية بمثابة دعم كبير لأهل السنة في بغداد وللخليفة العباسي الذي عجز سابقا عن منع الممارسات الشيعية فقد أزال السلاجقة

¹ - ابن الأثير ، الكامل ، ج7، ص279، المقرئزي ، الخطط، ج2، ص348. الهمذاني، المصدر السابق، ص 397.

² - نورة بنت صالح الظويهر ، المرجع السابق ، ص 284.

السنين سنة 447هـ/1055م دولة بني بويه الشيعية وتغير بذلك حال أهل السنة ببغداد، وترجّحت كفتهم على الشيعة الذين فقدوا دعم بني بويه .

والملاحظ أن العامة لقوا تأييدا من قبل السلطة في هذه المواجهات، فقد خَفَّت من وطئتها مقارنة بالسنوات التي سبقت السيطرة السلجوقية على العالم الإسلامي، فبتأييد السلطة لأهل السنة كانت المواجهة هي سيدة الموقف، وزاد نشاط العامة في مواجهة الشيعة، فنجد مثلا أن مادحي الشيعة كانوا يتغنون بمناقبهم ومحاسنهم في الأسواق، مما اضطر أهل السنة إلى مجاراتهم والحدو حذوهم وإنشاء طائفة تتغنى بفضائل أهل السنة وتشيد بمكارمهم وتمتدح أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وتسب الرافضة بغية إضعاف دعاية الشيعة¹.

ويمكننا أن نذكر نماذج مما وقع بين الفريقين من صدامات زمن السلاجقة ونتائج ذلك على الجانب الاجتماعي وكيف كان رد فعل السلطة على ذلك :

1- في سنة 448هـ/1056م، أمر رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن ابن مسلمة، الذي عرف بالتضييق على الشيعة بأن تنصب أعلام سود شعار العباسيين في الكرخ ذات الأغلبية الشيعية، فانزعج لذلك أهلها، دون إمكانية إلغاء الأمر²، وفي نفس السنة أزيلت عبارة حي على غير العمل وأُذن بالصلاة خير من النوم في صلاة الفجر، كما أُجبر الشيعة على حذف عبارات محمد وعلي خير البشر من المساجد، والملفت للنظر في تحركات أهل السنة أنهم

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم، ج 16 ، ص7. كمال الدين حلمي ، المرجع السابق ، ص220.

² - نفسه ، ج16 ، ص 6.

خرجوا من باب البصرة ينشدون الأشعار في مدح الصحابة¹، وهذا دلالة على تخلصهم من قبضة البويهيين الشيعة، الذين طالما شجعوا ممارسات أهل الكرخ، ف شعر أهل السنة بالأمان في كنف السلاجقة .

2- وفي عام 451هـ/1059م ثار أهل السنة وانطلقوا من باب البصرة إلى الكرخ وأحرقوا ونهبوا ومن ذلك حرقهم لمكتبة الشيعة التي أوقفها الوزير البويهي أرديش².

3- وكذلك ما حدث يوم عاشوراء 458هـ/1065م، حيث أغلق أهل الكرخ دكاكينهم وأخذت النساء تتوح على الحسين رضي الله عنه، وأظهروا بدعهم وممارساتهم كما جرت به عاداتهم المتقدمة، فأنكر العامة من أهل السنة ذلك، واستدعى الخليفة العباسي القائم بأمر الله أبا الغنائم نقيب الطالبين، وأنكر ذلك عليه، وقال له: " لا تفسح بعدها في شيء من البدع التي كانت تستعمل "³، فأعتذر بالنيابة عن أهل الكرخ وأزال ما فعلوا، " وخرج التوقيع بكفر من يسب الصحابة ويظهر البدع "⁴.

4- وفي عام 465هـ/1072م: قامت فتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق جانب كبير من الكرخ مقر الشيعة في بغداد، فتدخل متولي الكرخ وانتقم للشيعة وأخذ من أهل السنة أموالا كثيرة جزاء ما فعلوه بأهل الكرخ⁵،

¹ -ابن الجوزي، المنتظم ، ج16 ، ص 6-7، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 464.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص 478. ابن الأثير ، الكامل ، ج8 ، ص350.

³ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج16 ، ص94. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج5، ص79.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6 ، ص489.

⁵ - نفسه ، ج6 ، ص502.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى ضعف جانب الشيعة الذين لم يقدرُوا

على صد خصومهم حتى استدعى الأمر تدخل السلطة لإنصافهم والثأر لهم¹.

5- وفي عام 478هـ / 1085م: في شهر ذي الحجة: ثارت فتنة جديدة وأُحرق قسم

من الكرخ وشرط من باب البصرة، وقتل خلق كثير، وتدخل الشحنة² لإنهاء

الفتنة³.

6- وتجددت الأحداث بين السنة والشيعة من سنة 478هـ إلى سنة

482هـ / 1085-1089م، وراح ضحيتها الكثير من الأنفس والأموال⁴، ولم تكن

هناك ردة فعل واضحة من قبل السلطة، وذلك راجع لغلبة السنة على الشيعة في

هذه المواجهات.

7- وفي عام 486هـ / 1093م: ثارت الفتنة بين السنة والشيعة، وأنفذ الشحنة سعد

الدولة كوهرائين إلى الكرخ فنُهبت وأُحرقت⁵.

8- وفي عام 488هـ / 1094م: اصطلح عامة بغداد سُنّة وشيعة⁶.

وقد امتلأت مصادر التاريخ الإسلامي بسرد هذه الأحداث التي تدل في ظاهرها على

استمرار وقوع الفتن بين أهل السنة والشيعة إلا أننا نلمس الغلبة لأهل السنة بسبب نصره

¹ - خالد كبير علّال ، صفحات من تاريخ أهل السنة و الجماعة ، ص75.

² - الشَّحْنَة : جماعة يقيمها السلطان في بلد ما لضبطه . شوقي ضيف وآخرون، المرجع السابق، ص 474.

³ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج 16 ، ص 145. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 520. ابن الأثير ، الكامل،

ج 8، ص 441.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 520-527.

⁵ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج 17 ، ص 5. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 536.

⁶ - ابن الجوزي، المنتظم ، ج 17 ، ص 18. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 540.

السلطة القائمة لها، ونقصد هنا الخليفة العباسي الذي قويت مكانته وتمكن من ممارسة سلطته وصلاحياته في ظل وجود السلاجقة .

ومن جهة أخرى لم تكن مواجهة الممارسات الشيعية من مهام أو صلاحيات السلطة والعلماء فقط، بل كان للعامة نصيب منها وذلك بممارسات الشيعة في احتفالاتهم، فبينما كان الشيعة يحتفلون بعاشوراء، ويقيمون رسوم العزاء، ويجددون ذكرى فاجعة كربلاء، ويوجهون اللعنات إلى يزيد وأتباع يزيد بن معاوية رضي الله عنهم، كان أهل السنة من جهة أخرى يضيفون إلى مقتل الحسين مقتل عثمان رضي الله عنه وتوجيه اللعنات إلى قتلته¹.

2-تهجير عدد كبير من رؤوس الشيعة :

إن الضغوطات التي فرضها السلاجقة على الشيعة المتواجدين في بغداد وبلاد الشام على مختلف الأصعدة دفع بالكثير منهم إلى الهجرة والرحيل عن موطنه الأصلي، بحثاً عن موطن يمكن فيه ممارسة بدعه بحرية بعيداً عن أعين السلطة، فيما ركن إلى السرية من عجز منهم عن الانتقال، فتمكن السلاجقة بذلك ولو بشكل نسبي من إجلاء رؤوس الفتنة الشيعية من بغداد خاصة والعراق عامة، ومن الأمثلة على ذلك منع السلاجقة لعالم الشيعة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي(ت461هـ/1068م) من التدريس وضيقوا عليه، ونهبوا داره وأمواله، هذا الأمر الذي اضطره إلى الهجرة وإغلاق بيته ومدرسته²، ومن المتوقع أن هذا قد انجر عنه هجرة عائلات شيعية بأكملها رفقة عالمهم المزعوم .

¹ - كمال الدين حلمي ، المرجع السابق، ص 220، 221.

² - ابن الجوزي، المنتظم ، ج16 ، ص 16، البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص53. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص465. ابن الأثير ، الكامل ، ج 8، ص339.

وقد استمرت هجرة الشيعة من بغداد بعد أن تأكد لهم أمر سيطرة السلاجقة على زمام الأمور، فنجد أسرا كثيرة من أهل الكرخ الروافض قد انتقلوا من بغداد سنة 451هـ/1059م رفقة أهل البساسيري الذي لاح له في الأفق أمر هزيمته، فاشتراط على طغرلبيك نقل أهله من بغداد مقابل تسليم الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ/1031-1075م)¹.

3- الانحلال الخلقي ودور السلاجقة في القضاء عليه :

كان مذهب الشيعة الباطنية "ظاهره الرضا وباطنه الانحلال"²، فعُرف عنهم ممارساتهم غير الأخلاقية، وإباحتهم لما حرم الشرع، كالزنا وزواج المتعة وتمتع الرجال بامرأة واحد، وقد تعجب ابن النديم (438هـ/1046م) من المحرمات التي يبيحونها في دعوتهم لاتباعهم بقوله: "وقد قرأته - يعني البلاغ السابع - فرأيت فيه أمرا عظيما من إباحة المحظورات ، والوضع من الشرائع وأصحابها"³.

وكانت هذه الممارسات منتشرة في صفوف دعاة الشيعة وقادتهم، فلم يكتفوا بامرأة واحدة أو أربع كما حدد الشرع، بل تعدوه لأكثر من ذلك بكثير، ففي 420 هـ/1028م قام محمود بن سبكتكين بقتل طائفة من الباطنية والروافض من أهل الري، وصادر أموال رئيسهم رستم بن علي الديلمي التي بلغت ألف ألف دينار، وقد وجد في حيازته خمسين امرأة حرة و قد ولدن له ثلاثة وثلاثين ولدا، وكانوا يرون إباحة ذلك⁴.

¹ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 478.العاصمي ، المصدر السابق، ج3، ص 569.

² - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج16، ص468.

³ - ابن اسحاق النديم ، المصدر السابق ، ص 240.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 423.

أما البويهيون بالعراق فقد عاثوا فسادا وظلما في البلاد والعباد بممارساتهم الشنيعة ضد العامة، فقد أظهروا البدعة وجهرها بها، ونصبوا الكمائن بالطرق والمعابر، فكانوا كلما مرت امرأة أو غلام طرير وسيم، ينقضون عليهم ويأخذونهم عنوة ويرتكبون بهم الفاحشة، كما أنهم يلعنون الصحابة رضوان الله عليهم علانية، ويقذفون عائشة رضي الله عنها بالزنا التي بُرئت منه بنص القرآن الكريم، كما عُرف عن الديالمة باتخاذهم لأكثر من أربع زوجات ويُعتبر مجد الدولة البويهية (387-420هـ/997-1029م) من بين من كان له من الأزواج تسع دخل بهن شرعا، أما الرعية فإنهم يُظهرون مذهب الزنادقة والباطنية علانية في كل مكان بالمدن والأطراف، وينكرون الصلاة والصوم والحج والزكاة¹.

ويمكن أن يضاف إلى البلبلة الفكرية التي سببت الانحلال الاجتماعي، سبب آخر وهو أن الحركة الباطنية استغلت حالة الفقر التي كان يعيشها بعض أفراد المجتمع الإسلامي، فعملت على إشباع شهواتهم الجنسية والمالية وخاصة لذوي النفوس المريضة منهم، مما سهل الأمر على الحركة الباطنية أن تستغلهم أبشع استغلال، وهذا ما هو واضح لدى النزارية في قلعة ألموت وأتباعهم على وجه الخصوص²، فنجد ابن كثير يصف لنا في أحداث سنة 494هـ/1100م، كيف استغل الحسن بن الصباح وأتباعه العامة الجهال لخدمة مصالحهم: "...ثم صار - الحسن بن الصباح - إلى تلك النواحي ببلاد أصفهان فكان لا يدعوا إلا غبيا لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز والشونيز³ حتى يحترق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له شيئا من أخبار آل البيت، ويكذب

¹ - نظام الملك، المصدر السابق، ص103.

² - محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، دار عالم الكتب، الأردن، ط3، 2007، ص442-443.

³ - الشونيز: الحبة السوداء وهي المعروفة بحبة البركة. المعجم الوسيط، ص 501.

له من أقاويل الرافضة الضلال، أنهم ظلموا ومُنَعُوا حقهم، ثم يقول له إذا كانت الخوارج تقاتل مع بني أمية لعلي، فأنت أحق أن تقاتل في نصرة إمامك علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-، ولا يزال يسقيه من هذا وأمثاله حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أمه وأبيه، ويظهر له أشياء كثيرة من المخرقة والنيرنجات والحيل التي لا تروج إلا على الجهال، حتى النف عليه بشر كثير وجم غفير¹.

فقد أشاع دعاة الباطنية الاضطراب في ممالك العالم، "وخدعوا العوام بالخرافات المجوفة، والترهات المزخرفة، والعوام كالأنعام ليس لهم وزن بين أخيار الخواص في كل العصور ولا عيار لهم في محك اعتبار الكرام الأنام " حسب ابن النظام الحسيني².

وفي هذا الصدد يقول الغزالي عن الحركة الباطنية ودرجات حيلهم في استدراج العامة إلى دعوتهم³: " أن لا يدعو كل أحد إلى مسلك واحد، بل يبحث أولاً عن معتقده، وما إليه ميله في طبعه ومذهبه، فأما طبعه فإن رآه مائلاً إلى الزهد والتقشف والتقوى والتتطيف دعاه إلى الطاعة والانقياد واتباع الأمر من المطاع وزجره عن اتباع الشهوات، وندبه إلى وظائف العبادات، وتأدية الأمانات، من الصدق وحسن المعاملة والأخلاق الحسنة وخفض الجناح لذوي الحاجات، ولزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان طبعه مائلاً إلى المجون والخلاعة قرر في نفسه أن العبادة بله وأن الورع حماقة، وإنما الفطنة من اتباع الشهوة ونيل اللذة وقضاء الوطر من هذه الدنيا المنقضية التي لا

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 549-550.

² - ابن النظام الحسيني ،المصدر السابق، ص 83.

³ - للتوسع أكثر حول موضوع طرق ضم الاتباع واستدراج المستجيب لدى الباطنية يُنظر الصفحة 65-72 من الفصل التمهيدي للبحث .

سبيل إلى تلافي لذاتها عند انقضاء العمر"¹، فكانوا بعملهم هذا أشد المعاول تهديما لكيان الخلافة العباسية والمجتمع الإسلامي.

وقد سار باطنية الموت على نهج السابقين في تحليل المحرمات، فبعد وفاة الحسن بن الصباح أعلن ابنه الحسن (القاهر بقوة الله) قيام القيامة أمام أتباعه في قلعة الموت، وهذا يعني التحلل من اتباع تعاليم الدين وإسقاط الفرائض وإباحة الزنا، كما أمر بتغيير اتجاه القبلة فأصبحت إلى جهة الغرب، وأقيمت الاحتفالات في كل مناطق الدعوة النزارية في - سوريا وإيران - ابتهاجا بانتهاء عهد الالتزام بتعاليم الشريعة وفرائضها².

كل هذه الأمور وأكثر منها كان على السلاجقة مواجهتها وإزالتها من المجتمع الإسلامي، وتطهير أفكار العامة من البرائث والممارسات الشيعية الدنيئة التي غرسها هؤلاء في صفوف العامة من الناس.

ولا اعتقاد نظام الملك الجازم بأن نشر العلم، وتعليم الناس مبادئ الدين الصحيح سيجعلهم يفرقون بين الحق والباطل، والقوة لا تجدي وحدها، لأن الحجة لا تقنع إلا بالحجة، فأقام المدارس النظامية، لنشر العلم الشرعي، وتصحيح العقيدة ومناقشة مسائل الخلاف بأساليب المنطق، فبنى تلك المدارس في حواضر الأمصار وأمهات المدن لتحقيق تلك الغاية وأوكل مهمة التدريس فيها إلى علماء لهم مكانتهم العلمية المرموقة، فضلا عن مكانتهم الاجتماعية في مدنهم ليتمكنوا من التأثير على العامة، ويخرجوا رجالا وقد تسلحوا بالعلم والإيمان للتصدي لتلك الأفكار والمبادئ الهدامة³.

¹ - الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص 36-37.

² - محمد حامد الناصر ، المرجع السابق ، ص 34.

³ - محمد سعيد الغامدي ، المقال السابق ، ص 42.

فشرعت المدارس النظامية في عملية التدريس المجاني وتدعيم الفقراء من أجل التحصيل العلمي الذي يدفع عنهم أذى هؤلاء المنحرفين عن العقيدة الصحيحة، واهتمت أوقاف المدارس بتدريسهم ومأكلهم ومشربهم ومنامهم وملبسهم واستحمامهم، ومعالجتهم في بعض الأحيان¹، وقد أكد ذلك المؤرخ ابن جبير (ت614هـ/1217م) بقوله: "ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تنصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلص"².

وقد نجحت المدارس النظامية إلى حد بعيد في تكوين جيل من الشبان الواعين بخطورة تغلغل الباطنية في صفوف المجتمع الإسلامي، وفي ذلك يقول الأصفهاني: "وفي أيامه -أي نظام الملك- نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء، ليحضرهم في مجلسه ويحفظوا بتقريبه"³، كما أنه حرص على توظيف من تميز منهم وتبحر في العلم في مناطقهم حتى تعم الفائدة، وقد يضطر أحيانا إلى نقله إلى أقاليم خالية من العلم، "ليُحلي به عاطله، ويحيي به حقه ويميت باطله"⁴.

4- الحد من الاغتيالات التي مارسها الشيعة الباطنية:

شكلت فرقة الإسماعيلية الباطنية المعروفة بالحشاشين⁵ أخطر جماعة إرهابية عرفها

¹- عبد الكريم حتاملة ، المقال السابق، ص 132.

²- ابن جبير ، المصدر السابق ، ص 205.

³-البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص 219.

⁴- نفسه ، ص 219.

⁵-الحشاشون، طائفة إسماعيلية ، انشقت عن الإسماعيليين في مصر لتدعو لإمامة نزار بن المستنصر بالله العبيدي ومن جاء من نسله، أسسها الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة ألموت في فارس مركزا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته . وحشيش أو حشيشية ، اسم عربي لأحد منتجات القنب الهندي Cannabis INDICA واستخدم في الشرق الأدنى منذ أزمنة قديمة كعقار له آثار مخدرة ، وقد استخدم هذا العقار المسبب للهلوسة على نطاق واسع ، وكان أول من تلقب بالحشيشية هم النزارية . لانهم كانوا يتناولون الحشيش قبل ان ينطلقوا في عمليات الاغتيال، ولذا ارتبطت =

المشرق الإسلامي، فقد تعاونت مع الصليبيين¹، وفكتت بكثير من قادة المسلمين وعلمائهم، "واغتالوا الملوك والرؤساء"²، وفي هذا الصدد يقول أبو شامة عن قتل عبيد الله وذريته للعلماء-والحشيشية منهم-: "كان زنديقا خبيثا عدوا للإسلام... قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم... ونشأت ذريته على ذلك منوطين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرّوه"³.

وقد اعتصم الحشاشون بزعامة الحسن بن الصباح (ت1024/518م) بقلعة ألموت حوالي سنة 483هـ/1090م⁴، ومنذ ذلك الحين أخذ الحسن بن الصباح يبيث أتباعه للإغارة والاختيال فكانوا يبيعون سفك الدماء ويغيرون على الآمنين، فقد نظم الدعوة الباطنية إلى عدة مراتب وفق تنظيم دقيق، وكانت أهم مرتبة في هذا التنظيم هي مرتبة "الفاوية" أو "الفدائيين" وهم الذين يضحون بأنفسهم فداءً لرئيسهم، وطمعا في الخلود في

=كلمة حشاش في اللغات الأوروبية بكلمة "Assassain" أي القاتل سفك الدماء، ينظر: فراهيد دفترى، المرجع السابق، ص 141-142. جمال بدوي، المرجع السابق، ص 104.

¹- ثبت عن الباطنية تحالفهم في عديد المناسبات مع الصليبيين وخيانة أهل السنة وأكبر دليل على ذلك تسليمهم لحسن بانياس للصليبيين مخافة أن يسترجعه أهل السنة. ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 224. ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 95

وكان راشد الدين سنان قد أرسل عام 569هـ وفدا إلى ملك بيت المقدس يقترح عليه التعاون بين الطرفين ضد نور الدين محمود على أن تُرفع الجزية التي فرضها فرسان الداوية على الباطنية.

وقد أثبتت بعض المصادر أن الباطنية قاتلوا إلى جانب الصليبيين في معركة "أنب" ضد قوات نور الدين محمود، وكان قائد الحشاشين "علي بن وفاء" يرافق الفرنجة و يقاتل معهم. ينظر: حامد ناصر، المرجع السابق، ص 142، ابن الأثير الكامل، ج9، ص 29. ابن قلانسي، المصدر السابق، ص 305.

²- المقرئزي، المقفى الكبير، ج3، ص 330.

³- أبو الشامة، الروضتين، ج2، ص 215.

⁴- المقرئزي، المقفى الكبير، ج3، ص 329.

بالجبة، وأصبحوا الأداة التي استخدمها الباطنية للتخلص من أعدائهم¹، وهكذا أصبح الاغتيال هو الوسيلة المشروعة عند الباطنية لتنفيذ خططهم وأعمالهم، وقد أثار هذا العمل الرعب والخوف في نفوس أهالي فارس والعراق ويشير السيوطي (ت911هـ/1506م) إلى ذلك بقوله: "أنه كثر أمر الباطنية بالعراق وقتلهم للناس، واشتد الخطب بهم، حتى كان الأمراء يلبسون الدروع تحت ثيابهم"².

وقد حاول السلطان ملكشاه إبادتهم ولكنه لم يفلح لاستماتتهم في الدفاع ومناعة مراكزهم³، فالمعروف عن ملكشاه أنه زواج في مقاومته للباطنية بين المقاومة العسكرية والمهادنة والمراسلة، وقد وصلتنا من المصادر التاريخية نص لرسالة السلطان جلال الدين ملكشاه إلى الحسن بن الصباح مفادها أنه يدعو إلى التخلي عن عقيدة الباطنية والعودة إلى صفوف المسلمين في كنف أهل السنة يهدده وينهاه عن بعثه الفداوية إلى العلماء⁴.

فجاء رد الحسن بن الصباح بعد أن قرأ الكتاب في حضرة الرسول وقال لمن حوله من الشباب: "إني أريد أن أرسل منكم رسولا إلى مولاه، فاشربت وجوه الحاضرين منهم، ثم قال لشباب منهم، اقتل نفسك، فأخرج سكيناً فضرب به غلصمته، فسقط ميتاً، وقال لآخر منهم، ألق نفسك من هذا الموضع فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع، فقال للرسول: هذا الجواب "⁵. وقد أضاف ابن الجوزي في نص الرسالة "أخبر سيدك أن

¹ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 550، حامد زيان غانم زيان ، المرجع السابق ، ص 90.

² - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص372.

³ - محمد العروسي المطوي ، المرجع السابق، ص22.

⁴ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 550.

⁵ - ابن كثير ، المصدر السابق، ج6، ص 550.

عندي من هؤلاء عشرين ألفا هذا حد طاعتهم لي" ¹. ولهذا دلالة واضحة على عدم نية الحسن بن الصباح في الرضوخ إلى مطالب السلاجقة وثقته الكبيرة بأتباعه في مختلف الأقاليم.

لقد أحدثت الشيعة الباطنية انهيارا اجتماعيا لا مثيل له، يدل على خطورته الوضع الذي وصل إليه الناس في ذلك الوقت، حيث صار هؤلاء مصدرا للخوف والقلق بين جميع طبقات الناس، فصار الأخ لا يثق بأخيه، والأب يخاف من ابنه، والأمير لا يعرف المخلص من أتباعه وحراسه، كل هذه الأمور حدثت في وقت كان العالم الإسلامي بحاجة إلى التكتل لمواجهة الصليبيين، والأخطر من ذلك أن وطأة الشيعة اشتدت أكثر وأخذت في تصفية خيرة العلماء والقادة والأمراء، وأكبر عمل إجرامي قامت به الباطنية في حق الأمة الإسلامية، قتل الوزير نظام الملك الطوسي في رمضان 485هـ/1092م، وتعدوه في صفر 490هـ/1096م فقتلوا عبد الرحمن السميرمي وزير والده بركياروق، وفي رمضان 493هـ/1099م قتلوا شحنة أصفهان "سرزم"، وفي سنة 499/1105م، قتل الباطنية قاضي نيسابور أبو العلاء سعيد أبو محمد، كما قتلوا فخر الملك بن نظام الملك سنة 500هـ/1105م²، وقتلوا الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة 529هـ/1134م³، في

¹ - ابن الجوزي ، المنتظم ، ج 17 ، ص 64.

² -Sanaulah Mawlawi Fadil, opcit , p : 61-63.

³ -ابن طباطبا ، المصدر السابق ، ص 407-408. كما تعرض صلاح الدين لمحاولة اغتيال حال دونها الذرع الذي كان يرتديه، وتعرض العديد من علماء المسلمين للاغتيال من طرف الباطنية ، للتوسع أكثر ينظر الفصلين السابقين: الأول النشاط السياسي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيوعي والفصل الثالث في الدور السياسي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيوعي .

محاولة منها لإبعاد هؤلاء عن طريقها لإفساد المجتمع الإسلامي، فكان فقد أمثال هؤلاء في المجتمع عاملاً خطيراً في ارتباك المجتمع الإسلامي وتخلخله¹.

ولم تقتصر هذه الاغتيالات على القادة السياسيين فقط، وإنما تجاوزتهم إلى العامة، فكانوا يتحينون فرص الفتن والمشادة بين الشيعة والسنة في أي مناسبة وينهالون بالقتل على كل سني يصادفونه بغية تصفية عرقية ومذهبية .

ولم تسلم قوافل الحجاج من هذه الممارسات، مثلاً سنة 498هـ / 1104م، تجمع حجاج مما وراء النهر وخراسان والهند عند خوار² الري فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا السيف فيهم وقتلوه ونهبوا أموالهم ودوابهم³.

فقد أصبح الشيعة يشكلون خطراً على أهل السنة المجاورين لهم، فعظم بلاؤهم، وقطعوا الطريق وخربوا القرى، إلا أن نشاط السلاجقة ضد هؤلاء كان لهم بالمرصاد، إذ تقلص نفوذهم في بغداد مباشرة بعد القضاء على الدولة البويهية، فيما تضاعف نشاطهم في بلاد الشام على إثر استعادة السلاجقة أملاكهم في بلاد الشام وحصار العبيديين في مصر، ليبقى نشاط النزارية بقلعة ألموت فترة أطول مع حصار وتضييق كبير وقتل لزعمائهم وقادتهم، وأخذ حصونهم وقلاعهم ومعاقلمهم.

هذا غيض من فيض من أعمال تلك الفرق الضالة التي زادت من سوء الحالة الاجتماعية واضطرابها بالمشرق الإسلامي، وعلى الرغم جهود السلاجقة في الحد من نفوذ

¹ - محمد أحمد الخطيب ، المرجع السابق، ص 443.

² - خوار ، مدينة كبيرة من أعمال الري بينها و بين الري نحو عشرين فرسخا ، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج2، ص 394.

³ - ابن الأثير ، الكامل ، ج9، ص 84، يوسف إبراهيم الشيخ، المرجع السابق ، ص128-129.

وانتشار الشيعة الباطنية فقد استمر نشاطهم سنوات عديدة، وبقيت شوكتهم إلى أن قتلوا واحدا من عظماء التتر فحاصر هولاءكو خان المغولي سنة 654هـ/ 1256م قلعة ألموت مدة سبع سنين خوفا من غدرهم وفتكاتهم، وأمر بتجريدتها من آلاتها الحربية فأهلكهم الجوع وقتل من حاول الفرار منهم، وبعد سقوطها سرعان ما انهارت مقاومة قلاعهم الواحدة تلوى الأخرى فوضع بذلك حداً لشهرهم المستطير¹، وبقيت لهم حصون بالشام فقضى على من اجتمع منهم هناك الملك الظاهر بيبرس سنة 672هـ/ 1273م²، ولم يدع مع الإسماعيلية شيئا من الحصون،³ فشتت شملهم وأراح الناس منهم.

¹ -ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، 209. القزويني، المصدر السابق ، ص 302.لسترنج ، المرجع السابق ، ص256.

² -ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، 209. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 314.

³ -ابن كثير ، المصدر السابق ، ج7، ص 314.

ثانيا: الدور الاقتصادي والاجتماعي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق

الإسلامي: 521-569هـ/1126-1173م

1- الدور الاقتصادي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق الإسلامي:

1-إلغاء نور الدين للضرائب غير الشرعية:

نقصد بها المكوس والأعشار، وأصل المكس في اللغة الجباية، والمكس ضريبة كانت تؤخذ ممن يدخل البلد من التجار والحجاج¹، ويقال للعشار صاحب مكس، والمكس انتقاص الثمن في البيعة : قال الشاعر² :

أفي كل أسواق العراق إتاوة و في كل ما باع أمرؤ مكس درهم

ألا ينتهي عنا رجال و تتقى محارمنا لا يدرأ لدم بالدم

والعشر هو أخذ عشر أموال التجار، والعاشر هو قابض العشر، وقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل، فالعشر في الأصل يؤخذ من تجار أهل الزمة وأهل الحرب دون المسلمين³، وقد سماه بعضهم البخس لقوله تعالى: "وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ"⁴، وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ»⁵

¹ - شوقي أبو ضيف وآخرون، المرجع السابق، مادة :مكس، ص 881.

² - المقرئزي ، الخطط ، ج 2 ، ص 646-647.

³ - نفسه ، ص 647 - 651 ..

⁴ - سورة هود : الآية 85.

⁵ -أبو داود السجستاني، سنن أبي داود ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت، ج3، ص 132 . حديث حسن رقم: 2973.

وقد أنشد السيوطي (ت911هـ/1505م) في ذم المكس قائلاً¹:

أقتل أولى المكس ولا تكثرث إن حرموا ذاك أو حللوه

فإن خير الخلق أوصى بأن إذا لقيت معاشرا فاقتلوه

لم يتوان الشيعة الباطنية عن الكسب غير المشروع كلما سنحت لهم الفرصة بذلك، سواء عن طريق الهجوم على القوافل التجارية كقطاع طرق، أو فرض الضرائب والمكوس غير الشرعية على جميع من يمر بأراضيها حتى الحجاج، فقد كان أمير مكة محمد بن أبي هاشم يقاسم العبيديين الولاء، فكثيراً ما قتل الحجاج وأخذ أموالهم²، ومن خلال هذه الممارسات أضحى القائمون على أمور الدولة الشيعية أثرياء ثراءً يفوق التصور .

والظاهر أن العبيديون تمادوا في فرض الضرائب الغير شرعية-خاصة في أواخر أيامهم بسبب الضائقة الاقتصادية- والتي صارت تعرف بالمكس³، وضاعفوا قيمتها وعمّموها على كل التجار دون استثناء⁴، فأثقل هذا الأمر كاهل الناس في مصر وبلاد الشام وجميع التجار الوافدين إليهم من المشرق والمغرب خاصة المسلمين منهم⁵، فكان

¹ - جلال الدين السيوطي ، ذم المكس ، تحقيق :مجدي فتحي السيد، ط1، دار الصحابة للتراث، القاهرة ، 1991. ص 107.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج8 ، ص490.

³ - المقرئزي ، الخطط ، ج1، ص298.

⁴ - عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر العربي ، بيروت، 2004، ص 267.

⁵ - وقد فصل المقرئزي حصىلة رسوم تلك المكوس وأنواعها. ينظر : المقرئزي ، الخطط ، ج1، ص 298.

-وقد صدرت عدة قرارات عن الحاكم بأمر الله بإلغاء تلك المكوس بغية التخفيف عن الشعب، فكان يرفعها أحيانا ثم يعيدها حسب الظروف والمزاج، من ذلك إلغاء مكس بعض التجارات التي كانت تصل بحرا إلى مدينة القلزم سنة 387هـ، وفي سنة 398هـ أبطل المكوس التي تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز، وفي سنة 403هـ أبطلت مكوس الحسبة، وفي السنوات التي بعدها رفعت مكوس من جهات كثيرة، وهذا دليل على ابتداء الخلفاء العبيديين قبله وبعده=

من أكبر الإنجازات الاقتصادية التي طبقها نور الدين محمود أن ألغى تلك المكوس والضرائب غير الشرعية عن العامة¹، وكتب بذلك مناشير قُرئت على الناس في الأسواق، وقد بلغت تلك المناشير أكثر من ألف منشور²، جاء فيها: "اكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعت عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبت ما أثبتته الله عليكم"³، فلم يُبق من الضرائب سوى الجزية والخراج وكان ذلك سنة 569هـ/1173م⁴، وكان مقدار ما أطلقه مائة ألف وستة وخمسين ألف دينار في السنة⁵.

وقد أرجع بعض المؤرخين سبب إصدار نور الدين لهذا القرار بهذا الحزم هو تأويل رؤيا رآها تحذره من مغبة أكل مال الحرام⁶، وقد كان للوعاظ المحيطين به دور كبير في تشجيعه على اتخاذ هذه الخطوة، منها أن الواعظ أبا عثمان بن أبي محمد البحتري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها من لفظه، وهي قوله⁷:

=لهذه المكوس التي لا أصل لها لأن سياساتهم كانت مختلفة كل حسب هواه ومزاجه. المقريزي، اتعاض الحنفاء، ج2، ص6. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص157.

¹ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 18، ص 210. ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص660.

² - ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص 40.

³ - أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 67-68.

⁴ - ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص 40، فقد قسم المقريزي المداخل من الأموال إلى قسمين واحد سماه الخراجي وهو ما يجبي من محاصيل الأراضي، والثاني سماه الهلالي وعلق عليه بقوله: "والمال الهلالي عدة أبواب، كلها أحدثها ولاية السوء شيئاً بعد شيء". ينظر: المقريزي، الخطط، ج 1، ص296.

⁵ - أبو شامة، الروضتين، ج1، ص70. أو مائة و خمسون ألف دينار، ينظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص308.

⁶ - وكان قد استشار أسد الدين شيركوه في كثير من المناسبات و أظهر له النية في إلغاء المكوس والأعشار لكن شيركوه حذره من مغبة نقص موارد تمويل الجيش الذي يفتح به الأقاليم ويواجه بها العدو، ينظر: أبو شامة، الروضتين، ج 1، ص 67. ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص43-44.

⁷ - ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص41.

مثل وقوفك أيها المــــعذور يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رُحِت مسلماً فاحذر أن تدعى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمر وأنت من كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففاً وعليك كاسات المكوس تدور

كما أن نور الدين راسل الخليفة العباسي المستضيء (566-575هـ/1170-1180م) يُبلغه بما أقدم على فعله وبمقدار ما ألغى من المكوس والأعشار، وسأله أن يطلب من الوعاظ بأن يستحلوا التجار والمسلمين فيما كان قد وصله من أموالهم¹، وأكد قائلاً: "إنما صُرف في قتال أعدائكم من الكفرة"².

2-الحرص على زيادة موارد بيت مال المسلمين :

تكسبت رؤوس الأموال لدى القادة السياسيين والعسكريين فكان للتوزيع غير العادل للثروة دور كبير في انتشار المجاعات والأوبئة في العالم الاسلامي، خاصة في مصر والشام التي كانت تحت حكم العبيديين الشيعة، وقد أفرد المقريزي(ت845هـ/1441م) كتاباً خاصاً لدراسة أسباب حدوث هذه الأزمات الاقتصادية أسماه إغاثة الأمة بكشف الغمة، وضَّح فيه أن سبب هذه الأزمات المتتالية ليس نقص النيل أو فساد الغلات بقدر ما هو سوء تسيير وإقطاع الأراضي وتعاطي الرشوات لتولي المناصب في الدولة³.

¹ - أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 69.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ص 663.

³ - المقريزي ، إغاثة الأمة ، ص 43 - 45.

ولم ينفرد المقرئ بذكر هذه الظاهرة في العالم الإسلامي، وإنما هي ظاهرة تواتر الخبر بها عند جميع مؤرخي الفترة كابن الجوزي وابن كثير وابن تغري بردي وغيرهم .

وقد أولى الزنكيون المجال الاقتصادي عناية بالغة، وحرصوا كل الحرص على تنميته، لما له من دور في تهيئة الجيوش وتدعيمها من أجل استكمال مشروعهم الإصلاح الرامي إلى مقاومة الوجود الشيوعي من جهة والصليبيين من جهة ثانية، وأثبت ذلك مدى حرص الزنكيين على إدراج جميع واردات الفتوحات على الشيعة، خاصة العبيديين إلى بيت المال من أجل الفائدة العامة .

فقد تكدست الأموال والثروات في يد أرباب السلطة العبيدية، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن ميسر (ت677هـ/1278م) عن الثروة التي وجدت عند الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي بعد وفاته سنة 515هـ/1121م، فقد جلس الخليفة الأمر بأحكام الله (495-524هـ/1101-1130م) في قصره أربعين يوماً يكتب أملاكه " فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى"¹، وقد علق ابن قاضي شهبة (ت874هـ/1469م) على هذه الأرزاق بقوله : " وخلف من الأموال ما لم يسمع بمثله "². وكل هذه الثروة دخلت ضمن ممتلكات الدولة العبيدية التي سرعان ما سقطت على يد أسد الدين شيركوه وصالح الدين الأيوبي في عهد نور الدين محمود .

كما كشفت بعض المصادر عن الأموال المبذولة في المناسبات العبيدية، كعيد النحر وعيد المولد وأيام ركوب السلطان³ والتي تُبين مدى ثراء هذه الدولة وكثرة الأموال التي

¹ - ابن ميسر، المصدر السابق ، ص 79.

² - ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية ، ص 88.

³ - المقرئ ، الخطط ، ج2، ص 366، 347. ابن المأمون البطائحي، المصدر السابق ، ص 81-105.

سيطر عليها الخلفاء العبيديون وكيف تصرفوا فيها لصالح ملذاتهم بدل استغلالها في دعم القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي المهدد بهم من كل جانب، فذلك كان لزاماً على الزنكيين فتح مصر وضمها لأهل السنة حتى يسهل لهم استغلال مواردها المالية والبشرية في الجهاد .

ومثال آخر عن الثروة التي تكتلت لدى زعماء ورؤوس الشيعة، ما وجد في قصر الخليفة العاضد آخر الخلفاء العبيديين لما توفي سنة 567هـ/1171م، وأصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية، فقد استخرج من قصوره الكنوز من الذهب والفضة والجواهر الكريمة ما لا يحصى ويقدر¹، وهو ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جُمع على طول السنين وممر الدهور²، فقد ذكر المقرئزي (ت845هـ/1441م) جملة ما استخرج من قصر العاضد فقال: "كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر، فقليل أن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع، وعقود ثمينة، وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر"³. هذا وقد صُرفت أموال طائلة على الصليبيين عندما استتجد بهم شاور (ت564هـ/1168م) في حربه ضد ضرغام⁴ .

كل هذه الممتلكات عادت إلى بيت مال المسلمين في عهد الدولة الزنكية بعد أن نجحت الحملات المتكررة لفتح مصر والتي توجت بإعلان الدعوة للخليفة العباسي .

¹ - بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 86. مجير الدين العليمي ، المصدر السابق ، ج 1، ص 455. النويري، المصدر السابق ، ج 28 ، ص 242. القلقشندي ، المصدر السابق ، ج 3 ص 478.

² - ابن الأثير ، الباهر ، ص 157.

³ - المقرئزي ، الخطط ، ج 2، ص 367.

⁴ - أبو شامة ، الروضتين ، ج 2 ، ص 209.

لكن الظاهر أن استغلال هذه الموارد لم يكن إلا في زمن صلاح الدين، وذلك لسببين : الأول كون نور الدين لم يكتب له من العمر بعد إعلان سقوط الدولة العبيدية سوى سنتين انشغل فيهما بمواجهة الصليبيين، والثاني: مفاده أن بعض المصادر تذكر أن صلاح الدين على إثر سيطرته على قصور العبيديين اكتفى بأن أرسل هدايا رمزية لنور الدين لا تترجم ضخامة ما عُثر عليه من أموال، فتوجس نور الدين منه وأرسل الفقيه الموفق بن القيسراني سنة 568هـ/1172م ليقوم بجرد وإحصاء الممتلكات والمخلفات المالية للعبيديين¹.

3- التوسع الخارجي للدولة النورية وأثره الاقتصادي :

سيطرت الدولة الزنكية زمن نور الدين محمود على مصر سنة 564هـ/1168م، وقد امتازت مصر بموقعها الجغرافي، والذي كان يسيطر على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وقد كان يمر عبر مصر طريقان تجاريان مهمتان، الأول: بحري، يبدأ من غرب أوروبا من بروفانس بفرنسا، ثم يتجه إلى الفرما بمصر حيث ترسو السفن، ويحملون التجارة منها على الدواب إلى القلزم-البحر الأحمر-، ومنها تنتقل إلى السند والهند والصين، ويعود التجار محملين ببضائع الشرق من نفس الطريق، أما الطريق الثاني: فهو الطريق البري، الذي يمتد من أوروبا إلى الشرق، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ويجتاز المغرب الأقصى والأوسط والأدنى حتى يصل إلى مصر ومنها يتجه إلى بلاد الشام، ويمر بعدها إلى الرملة ودمشق والعراق والكوفة وبغداد والبصرة ثم إلى فارس مارا بالأهواز ثم إلى كرمان والهند والصين². وقد لعبت هذه الطرق

¹ - أبو شامة ، الروضتين ، ج2، ص237 و 279.

² - منى محمد بدر ، المرجع السابق ، ص 34 ، 35.

دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية داخليا وخارجيا، فتنوعت البضائع وكثر العرض والطلب ما أدى إلى ارتفاع الدخل العام .

أما بالنسبة للموانئ التابعة لمصر، زمن العبيديين فقد كانت ذات أهمية اقتصادية بالغة، وذلك لما يتحصل لبيت المال من جباية الضرائب على الموانئ التي ترسو بها السفن، والمارة عبر بحر القلزم- أي البحر الأحمر- إلى مختلف الجهات، وبسيطرت الزنكيين على مصر فقد سيطروا على أربعة موانئ أساسية تُجبي منها الضرائب السلطانية¹ بانتظام وهي :

1- عِيَذَابَ، وهو أكثر السواحل نشاطا، فمنه تصل البضائع الى قوصَ ومنها إلى فُنْدُق الكارم بالفسطاط .

2- الْقُصَيْرُ، وهو شمال عيذاب قريب من قوص، تخرج السفن منه إلى عيذاب ثم قوص، ومنها إلى فُنْدُق الكارم بالفسطاط، وكان أقل نشاطا من الأول .

3- الطُّورُ، ميناء داخلي، وهو بين عقبة أيلة² وبين بر الديار المصرية، وقد كان التجار يرغبون في ارتياده لقرب المراكب فيه من بر الحجاز، لكن لا يرتادونه إلا نهارا لكثرة الشعب فيه التي يخشى منها على المراكب .

¹ - المقصود بالضرائب السلطانية ، الضرائب التي تُدفع للدولة و تكون ضمن المال العام ، وهناك الضرائب الهلالية التي قد لا تكون لها علاقة بالدولة، إن كانت الإقطاعات غير تابعة للديوان فهي خاصة بالإقطاعات والملكيات الشخصية، فالمتحصل منها يكون لصاحب الملكية أو الإقطاع. ينظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص471.الباز العريني ، المرجع السابق ، ص 196.

² - أَيْلَة : مدينة على ساحل البحر الأحمر من جهة الشام ، وهي آخر الحجاز وأول الشام .سميت كذلك نسبة إلى أيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام .ينظر ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1، ص292.

4-السُّوَيْسُ، وهو قريب من مدينة القلزم بساحل الديار المصرية، وهو أقرب السواحل إلى القاهرة والفسطاط، لكن قلما ترتاده السفن التجارية بل تتوجه إلى ساحل طور¹.

أما توسعات الدولة النورية في بلاد الشام فقد كان له أثر في تنشيط التجارة بحكم سيطرتها على أهم الطرق البرية إذ أخضعت تجارة شمال الشام ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا إلى أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام، وأيضا القادمة من دمشق، فضلا عن تلك المتجهة إلى الامبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت أهم المراكز التجارية الشامية ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى بلاد المغرب ثم إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري وكانت نقطة إلتقاء تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة².

وعلى الرغم من غلبة التجارة على إقتصاد الدولة النورية، إلا أنه كان للزراعة والصناعة دور في اقتصادياتها، فقد سيطرت الدولة الزنكية على سلسلة من الأنهار والوديان المهمة في مصر وبلاد الشام كالنيل والفرات، فكان لهما دور كبير في تنشيط الزراعة والصناعة -خاصة العسكرية بتوفير المواد الأولية-، هذا ما أدى إلى تحقيق اكتفاء ذاتي، جعلها في غنى عن الدول المجاورة، خاصة في تلك المرحلة الحرجة حيث كانت الحروب والمعارك في أوجها .

¹ -القلقشندي ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 468-471.

² - محمد مؤنس أحمد عوض ، في الصراع الإسلامي الصليبي، ص 238

ومن خلال ما سبق يتبين أن سيطرة الدولة العبيدية على مصر لمدة قرنين من الزمن كان له أثر اقتصادي سلبي كبير على موارد الخلافة العباسية، والتي كانت بحاجة إلى الأموال لتجهيز الجيوش، إما لاستكمال الفتوحات أو ردع المتمردين أو استرجاع الممتلكات، لكن بعد الحملات المتوالية التي وجهها نور الدين محمود إلى مصر والتي نُوجت بإعادتها إلى حظيرة أهل السنة وأصبحت خاضعة للخليفة العباسي مباشرة، جعل من مصر مركزا تجاريا هاما، استفادت منه القوى السنية في مصر أولا وبلاد الشام والعراق ثانيا .

II- الدور الاجتماعي للزكيين في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي :

1-الأوقاف زمن الدولة الزكية ودورها الاجتماعي في محاربة الفكر الشيعي :

إن للأوقاف جانبا اجتماعيا مهما، فهو يتكفل بمرافق اجتماعية كثيرة متنوعة، كالمدارس والمساجد والمستشفيات ودور الأيتام وغير ذلك، وقد رأينا في دراستنا لأساليب الباطنية في استدراج الناس إليها كيف أنها ركزت على الطبقة الفقيرة منهم، مستغلة ضعفها وضروفها المتردية، ولأجل ذلك اهتم سلاطين الدولة الزكية وعلى رأسهم نور الدين محمود بهذه الفئة من الناس، فوفر لها ما يلزمها ليحفظها من الوقوع في شرك الفرق الضالة.

وقد عمل نور الدين محمود على وقف الأوقاف على البيمارستانات والجوامع والمدارس خدمة للفقراء والمساكين¹ ، ومن ذلك ما عمله بجامع دمشق حيث أضاف إلى

¹- أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص45.ابن الأثير ، الباهر ، ص 170-171.

أوقاف الجامع المعلومة الأوقاف التي لا يعرف واقفوها، ولا يعرف شروطهم فيها، وجعلها قلما واحداً، وسماه مال المصالح وجعله لذوى الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، كما حرص على ضرورة التعليم لجميع فئات المجتمع، فأوقف وقفاً على من يعلم الأيتام الخط والقرآن وجعل لهم نفقة وكسوة¹.

كما أنه ابتنى بمال افتدى به ملك صليبي نفسه² مارستاناً عظيماً بدمشق خصّه للفقراء والمساكين³، حيث يقول ابن كثير (ت774هـ/1372م): "وابتني نور الدين من ذلك المال البيمارستان الذي بُني بدمشق، وهو أحسن مما بني من البيمارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يُمنع منه الأغنياء"⁴، كما بني مكاتب الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلمهم الخيرات الوافرة، وبني أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، وقد

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص660.

² - وقد أورد ابن قاضي شهبة القصة ومفادها أنه وقع بيد نور الدين افرنجي من أكابر الملوك، ففدى نفسه بمال عظيم، وأستشار نور الدين أمراءه في ذلك، ففضلوا بقاءه في الأسر خوفاً من شره، لكن نور الدين أرسل إليه سرا يطلب منه الفدية، فأحضر ثلاثة مائة ألف دينار، ولم يكد الأسير يصل إلى مأمنه حتى مات. الكواكب الدرية، ص36. وفي رواية سبط ابن الجوزي لنهاية الحكاية: "فطلب الأمراء سهمهم من المال فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لأنكم نهيتم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسينيين، الفداء وموت اللعين و خلاص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستاناً"، المصدر السابق، ج1، ص311.

والمهم في هذه الرواية أن نور الدين محمود كان يستغل تلك الأموال في تشييد المراكز الصحية والمؤسسات التعليمية لصالح الفقراء فكان يضرب عصفورين بحجر واحد، إذلال المشركين من جهة وتدعيم المجتمع بمرافق ضرورية من جهة أخرى لمواجهة الأخطار الداخلية المحدقة بالمجتمع.

³ - أبوشامة، الروضتين، ج1، ص45.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق، ج6، ص662.

بلغت أوقافه ببلاد الشام ما يزيد على تسعة آلاف دينار سورية، وهذا عمل لم يسبقه إليه أحد¹.

فقد بلغت أوقافه من الكثرة ما جعل أبا شامة (ت665هـ/1266م) يقول: "ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد ل طال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد"².

والغاية من ذكرنا لأعمال نور الدين الخيرية هي أن نور الدين محمود كان يستغل تلك الأموال في تشييد المراكز الصحية والمؤسسات التعليمية لصالح الفقراء فكان يضرب عصفورين بحجر واحد، إذلال المشركين من جهة وتدعيم المجتمع بمرافق ضرورية من جهة أخرى لمواجهة الأخطار الداخلية المحدقة بالمجتمع المتمثلة في تغلغل الباطنية.

وتعتبر الحلقة الكثرية أكبر شاهد على أعماله الخيرية لصالح الأيتام والفقراء، فكانت تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلاسة، تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي بدمشق، أوقفها نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرؤون كل ليلة بعد العصر سورة الإخلاص ثلاث مرات ثم يهدون ثوابها للواقف، ولهم على ذلك مرتب يتناولونه من ديوان السبع الكبير الذي كان بالجامع³.

2- حماية الحجاج :

لم يسلم زائرو بيت الله الحرام من الهجمات الإسماعيلية الموحشة التي لطالما أسفرت عن مقتل عدد كبير من الحجاج ونهب أموالهم وأمتعتهم، كما وقع في سنة

¹ - ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص 39. ابن الأثير ، الباهر ، ص 172.

² - أبو شامة ، الروضتين ، ج 1 ، ص 52.

³ - عبد القادر بدران ، المرجع السابق ، ص 146.

552هـ/1157م، حيث خرج الإسماعيلية على حجاج خراسان، فقتلوا وسبوا واستباحوا
الركب وهلك الحجاج عن آخرهم¹، وقد يكون الدافع من وراء ذلك سياسيا وقد يكون
اقتصاديا، لتغطية مصاريفهم اليومية وتكوين جيوشهم لمواجهة المسلمين السنة، وهذا أمر
مُخز لمن يدعون الإسلام .

ونظرا لشخصية نور الدين محمود، وتحمسه الشديد للدين، فالظاهر أنه بذل جهودا
كبيرة لحماية حجاج بيت الله، فقد أوقف الأموال الجلييلة لحفظ سبل الحجاج في طريق
الحجاز²، بأن آمن السبل من اللصوص وقطاع الطرق، فبنى الأبراج والخانات في الطرق
فأمن الناس وحُفِظَت أموالهم³، "ورُتَّبَ الخفراء في الأماكن المخوفة"⁴.

3- إبطال ممارسات الشيعة :

لطالما ثارت الفتن بين السنة والشيعة في عدة أقاليم لما أظهره الشيعة من ممارسات
منحرفة ومنافية للدين الإسلامي، وكانت بغداد المسرح الأول لهذه الفتن منذ العهد البويهي
لكن خفت وطأتها مع سيطرة السلاجقة على مركز الخلافة، ومع تراجع دور السلاجقة
بسبب الصراعات الداخلية انكمش نفوذها وعاد الشيعة في بغداد لإظهار احتفالاتهم
الدينية المزعومة.

ففي سنة 561هـ / 1165م ثارت فتنة في بغداد بين الشيعة والسنة لأن الشيعة
أظهرت النياحة والبكاء على أهل البيت يوم عاشوراء، وأعلنوا بسب الصحابة، وبالغوا

¹ - ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية، ص154.

² - أبو شامة ، الروضتين ، ج1 ، ص 71.

³ - نفسه ، ج1 ، ص 46. ابن الأثير ، الباهر ، ص 171.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج6، ص 662.

حتى أنهم كانوا يضربون من رأوه مكحلا، فثارت فتنة شديدة¹، وكما أوردنا سابقا فإن الدولة الزنكية كان لها الدور الأول في القضاء على الكيان السياسي للشيعة والمتمثل في الدولة العبيدية في مصر وبذلك استطاعت حصر نشاطهم إن لم نقل تثبيطه في مختلف الأقاليم ومنها بغداد بحكم تبعيتهم للخليفة العباسي، فلم تقم للشيعة قائمة، وركنوا للسرية في احتفالاتهم وأعيادهم، متجنبين بذلك كل صدام وفتنة مع أهل السنة .

وكان دور نور الدين في بلاد الشام أكثر وضوحا، فأبطل الممارسات الشيعية في الآذان وسب الصحابة²، وأنكر ذلك إنكارا شديدا، وقد ساعده على ذلك الإمام برهان الدين أبو الحسن علي الحنفي وجماعة من أهل السنة، ولم يكتثر لبقايا طائفة الإسماعيلية والاثني عشرية في حلب والشام الذين عظم عليهم الأمر لكنهم سكتوا وأحجموا عن ردة الفعل خوفا من قوة وهيبة نور الدين³ .

وقد كان للسياسة التي انتهجها نور الدين محمود في تعامله مع الشيعة في حلب بعد أن سيطر على الأمور هناك، أن ساهمت في اعتناق الكثير من الأسر الشيعية للمذهب السني⁴، فيما اضطر آخرون إلى الهجرة نحو أقاليم مجاورة لممارسة بدعهم بحرية أكثر⁵.

4-محاربة البدع التي مارسها الشيعة:

عُرف عن نور الدين محمود حرصه الشديد على حفظ الدين من الشوائب والبدع ومحاربة الفرق الضالة، وقد كان صارما في معاقبة من يُظهر ما يخالف الحق ويؤدبه بما

¹ - ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص169.

² - ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص 660.

³ - ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص 130. ابن قلائسي ، المصدر السابق ، ص 301.

⁴ - كلود كاهن، المرجع السابق، ص 185

⁵ - Nikita Elisséeff, opcit, p :429.

يناسب بدعته¹، وكان يبالغ في ذلك ويقول: "نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل"².

وبحكم أن نور الدين محمود قرَّب العلماء إلى مجلسه، فإنه كثيرا ما كان يناقش أمور العامة مع هؤلاء، فإلى جانب الدور العلمي الذي لعبه العلماء في مقاومة الفكر الشيوعي، نجد لهم دورا اجتماعيا واضحا تمثل في عقد مجالس الوعظ- التي لا تقتصر على طلبة العلم فقط بل تضم عامة الناس- لنشر الوعي في صفوف العامة، الذين طالما كانوا المقصد الأول للحركات الباطنية، حيث وجدوا فيهم فريسة سهلة لاستمالتهم إلى صفوفهم، وذلك بعد عرضهم لاغرائات اقتصادية واجتماعية إباحية بالدرجة الأولى تتنافى والشرع الإسلامي، فلذلك نجد اهتمام نور الدين بعقد حلقات الوعظ متزايدا لحفظ العامة من خبائث وموبقات الباطنية، فأسند هذه المهمة لعلماء كبار تمتعوا بقوة التأثير ودقة الألفاظ، وأكبرهم قطب الدين النيسابوري(ت578هـ/1190م)، كما وفد إليه من بغداد ابن الشيخ النجيب الأكبر، وكلفه بعقد مجلس وعظ كل أسبوع، كما وفد إليه الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شورة من أصفهان، فنال منه التقدير والاحترام وعقد مجالس وعظ³.

¹ - أبو شامة ، الروضتين ، ج1، ص 49. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج6، ص660.

² - ابن الأثير ، الباهر ، ص173.

³ - البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص72.

ثالثا- الدور الاقتصادي والاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق الإسلامي : 569-600هـ/1173-1203م.

أ-الدور الاقتصادي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيوعي في المشرق الإسلامي :

1-إلغاء صلاح الدين للمكوس :

يعتبر المكس¹ من أهم الموارد المالية العامة زمن الدولة العبيدية، ومن الإصلاحات الاقتصادية التي أحدثها صلاح الدين الأيوبي بعد أن أحكم سيطرته على مصر أن ألغى معظم المكوس العبيدية مرة واحدة تقريبا وذلك سنة 561هـ/1165م، وهو لا يزال نائبا عن نور الدين محمود في مصر²، فقد وجد فيها ما يخرج عن الشرع ويثقل كاهل العامة، وكان عدد تلك المكوس الملغاة "اثنتين وسبعين مكسا عوضه الله عنها بما حازه من الغنائم وفتح من البلاد والأقاليم"³، فقد كانت جملة حصيلتها في السنة مائة ألف دينار⁴.

وفي سنة 567هـ/1171م، وهي السنة التي ألغى فيها صلاح الدين الأيوبي الخلافة العبيدية وأعلن الخطبة للخليفة العباسي، استكمل إصلاحاته الاقتصادية فأسقط بقية المكوس والضرائب⁵ عن أهل مصر ،

¹ - سبق تعريف المكس في الجزء الخاص بالدور الاقتصادي للدولة الزنكية في هذا البحث .

² -المقريزي ، الخطط ، ج1، ص 298. حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، 1964.ص50

³ - الفلقشندي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص470.

⁴ - المقريزي ، الخطط ، ج1، ص 298. النويري ، المصدر السابق ، ج 28، ص 242.

⁵ - من بين الضرائب التي فرضها الفاطميون خمس الإمام، ويعتبر الخمس من الضرائب الخاصة بالمذهب الشيوعي الإسماعيلي، حيث يقولون ان الزكاة يجيبها الأئمة لأنها فرض من الله عليهم بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، غير أنها محرمة عليه (صلى الله عليه وسلم) وعلى آل بيته، ولا يأخذون منها شيئا حتى لو كانوا من الفقراء أو المساكين،=

وَقُرئ المنشور بذلك يوم الجمعة 3 صفر من نفس السنة بعد الصلاة¹، وكان مقدار ما أسقطه في السنة مائتي ألف دينار، حسب ابن قاضي شهبة².

لم يقتصر إلغاء صلاح الدين للمكوس غير الشرعية على مصر فقط، بل تعداه إلى بلاد الشام التي انتقل إليها على إثر وفاة نور الدين محمود سنة 569هـ/1173م بغية توحيد الجبهة الإسلامية التي أخذت الأطماع الداخلية والخارجية تمزق أوصالها، فكان أن دخل دمشق سنة 570هـ/1174م، فأبطل كل المكوس التي جرى استحداثها بعد نور الدين محمود في دمشق³، كما أنه ألغى كل المكوس بعد فتحه حلب سنة 578هـ/1182م⁴.

=أي من تجب فيهم الزكاة، فعوضهم الله عنها بالخمس في قوله تعالى: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" (الأنفال : 41)، فادعوا أن خمس الرسول(صلى الله عليه وسلم) لما مات عاد إلى الأئمة من آل بيته، كما وجب على جميع المسلمين دفع الخمس إلى إمام زمانهم عن كل ما يملكه المرء، وليس المقصود هنا خمس الغنيمة بما يؤخذ من أيدي المشركين، بل كل كسب كسبه المرء فهو غنيمته ينظر: القاضي النعمان، المهمة في آداب اتباع الأئمة تحقيق: محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، مصر، 1948. ص 68، 69.

وإذا فرضنا أن معظم من اعتنق المذهب الشيعي في مصر كان لسبب الرغبة في اعتلاء المناصب فهذا يفرض عليه خمس الإمام، لكن بزوال الدولة العبيدية زالت هذه الضريبة مما كان أثر في عودة كثير من أهل السنة إلى مذهبهم الأصلي فتمكن صلاح الدين بذلك من القضاء على مشكلتين مشكلة التبعية المذهبية ومشكلة عناء دفع هذه الضريبة عن العامة.

¹ - ابن كثير، المصدر السابق، ج 6، ص 650.

² - ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص 215.

³ - أسمت غنيم، المرجع السابق، ص 26.

⁴ - الأصفهاني، البرق الشامي، ج 5، ص 111.

2-رفع المكوس عن الحجاج :

ومن أجل الأعمال التي قام بها صلاح الدين الأيوبي، هو إلغاؤه مكس الحجاج، فقد فرض العبيديون ضرائب غير شرعية على قوافل الحجاج أثقلت كاهلهم وعطلتهم عن أداء ركن من أركان الاسلام وهو الحج ، فقد كان يؤخذ منهم المال الكثير، إما يدفعها في البحر على طريق عيذاب، أو يدفعها بجدة¹، وقد قدرت تلك الضريبة بسبعة دنانير مصرية ونصف دينار²، ومن عجز عن أدائه حبس وربما فاته الوقوف بعرفة³.

ولما استقرت الدولة الأيوبية قام صلاح الدين في سنة 574هـ/1178م، بإسقاط تلك المكوس والضرائب عن الحجاج⁴، وكان سبب إبطالها أن الشيخ علوان بن عبد الله الأسدي المعروف بابن الأستاذ (ت578هـ/1182م) خرج إلى الحج فلما وصل إلى جدة طوّل بدفع الضريبة فأبى ذلك وقرر الرجوع ، فأرسلوه إلى صاحب مكة الشريف مكثّر بن عيسى -حكم مكة بين(571-597هـ)- الذي اعتذر منه وأخبره أنه ما أقدم على هذا الفعل إلا لضيق إقتصادي وبأن مدخول مكة لا يغطي مصاريف الدولة⁵، وبحكم قرابة العلماء من صلاح الدين واستقباله لهم في أي وقت، كتب له الشيخ علوان وذكر له سبب

¹ - محمد راغب الطباخ الحلبي ، المصدر السابق ، ج 4، ص 254.

² - ابن جبير، المصدر السابق، ص 30.المقريزي ، السلوك ، ج 1، ص 174.

³ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج 7، ص 8.

⁴ - ابن كثير، المصدر السابق ، ج 7، ص 7-8، المقريزي ، السلوك ، ج 1، ص 174..و قد ذكر الفاسي أنه ألغاهما سنة 572هـ/1176م . المصدر السابق ، ج 1، ص 189.

⁵ - وإلى جانب ذلك فقد تعرض الحجاج في كثير من الأحيان إلى الاستغلال و السلب و النهب من قبل قطاع الطرق، وقد ذكر ابن الأثير حادثة مفادها أن أمير مكة محمد بن أبي هاشم -التابع لسلطة العبيديين في مصر-، سير عسكريا إلى جموع الحجاج بعد أدائها الحج وهم في طريق العودة إلى الشام، فنهبوا كثيرا من أموالهم و جمالهم . وفي هذا دلالة على التعدي الدائم على الحجاج رغم دفعهم السنوي للضريبة المفروضة عليهم . ينظر: ابن الأثير ، الكامل، ج 8 ، ص 490.

إقدام صاحب مكة على ذلك ، وكأنه يتوسط له ¹ ، فعوض صلاح الدين أمير مكة بمال يقطعه بديار مصر² ، فكان له في كل سنة ثمانية آلاف إردب³ قمح تحمل إلى ساحل جدة ، وعين لذلك ضياعا بالديار المصرية واليمن، وقرر أيضا حمل غلات مثلها فتفرق في أهل الحرمين الشريفين والفقراء⁴.

وفي هذه الرواية جانب من الصحة وآخر من المغالطة ، فالوارد أن صلاح الدين لم يتفطن لهذا الأمر الذي أثقل كاهل الحجاج إلا عن طريق العالم ابن الأستاذ ، لكن الواضح أن أمير مكة لم يلجأ لهذا الأمر من محض إرادته وإنما حرّكته تبعيته للعبيديين، فطالما كان يخطب للخليفة العبيدي في مكة، ولم تكن الضائقة الاقتصادية سوى ذريعة تحجج بها خوفا من ردة فعل صلاح الدين خاصة بعد توليه السلطنة بدل نور الدين وصار له من القوة والتفرغ ما يسمح له بعزله ومحاسبته، وهو على دراية بقبح ما فعل في حق الحجاج، فقد توافد على مكة الآلاف من العلماء قبل هذه الفترة ، ولكن يقينه بانشغال صلاح الدين ونور الدين بالعبيديين والصليبيين جعلته يمضي في فعلته تلك والتي أقرها العبيديون من قبل .

¹ -محمد راغب الطباخ الحلبي ، المصدر السابق ، ج 4، ص 254.

² - الفاسي ، المصدر السابق ، ج 1، ص 189. ابن كثير ، المصدر السابق ، ج 7، ص 7-8.

³ - الإردب: مكيال يسع أربعة و عشرين صاعا أو ست وبيات - ويزن مائة و خمسين كيلو غرام - . شوقي ضيف وآخرون ، المرجع السابق، ص 13.

⁴ -ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 80. المقريزي ، السلوك ، ج 1، ص 174. النويري ، المصدر السابق، ج 28، ص 243.

وقد وصف ابن جبیر (ت 614هـ - 1217م) إلغاء صلاح الدين هذا المكس بقوله: "فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها... فعوض من ذلك أجمل عوض وسهل السبيل للحجاج"¹.

كما مدح السلطان صلاح الدين لرفعه المكس عن الحجاج بقصيدة مطلعها²:

رفعت مكارم مكس الحجاز بانعامك الشامل الغامر

وأمنت أكناف تلك البلاد فهان السبيل على العابر

وسمت أياديك فياضة على وارد وعلى صادر

فكم لك بالشرق من حامد وكم لك بالغرب من شاكر

3- الإصلاحات الاقتصادية زمن الدولة الأيوبية ودورها في مقاومة الشيعة :

عمل صلاح الدين جاهدا على تغيير الأوضاع في مصر منذ توليه الوزارة للعاقد العبيدي (555-567هـ / 1160-1171م)، فاهتم بجميع الجوانب السياسية والفكرية وحتى الاقتصادية، فمن الناحية السياسية حرص على ربط مصر بالخلافة العباسية السنية، ومن الناحية الفكرية عمل على القضاء على الفكر الشيعي بتشديد المؤسسات التعليمية، أما من الناحية الاقتصادية فقد كانت له عدة إصلاحات كان لها تأثير في تحسين الوضع الاقتصادي ونشر الرخاء في البلاد ، منها إلغاء المكوس المفروضة داخل مصر، وقبل

¹ - ابن جبیر ، المصدر السابق ، ص 31.

² - النويري ، المصدر السابق ، ج 28 ، ص 243

ذلك عمل صلاح الدين على تأمين الطرق التجارية والعسكرية الرابطة بين مصر وبلاد الشام أولاً ، وفتح الطريق نحو الحجاز ثانياً .

ففي سنة 566هـ/1170م خرج في حملة نحو الشام تمكن من خلالها من التوغل في الرملة وصولاً إلى عسقلان، كما أظهر قوته للعدو وحذره من مغبة إعادة الهجوم على دمياط¹، وفي نفس السنة وبعد ثلاثة أشهر اختار الخروج إلى الطريق الصحراوي المؤدي إلى مدينة أيلة (العقبة) وفتحها²، وكانت تسيطر على طريق مصر البري إلى الحجاز كمحطة للقوافل، فهي مفتاح الطريق إلى الحجاز والحج بالإضافة إلى التجارة³.

أما إصلاحاته الاقتصادية على المستوى الداخلي فقد قلل صلاح الدين من النظام الإقطاعي الذي ساد طريقة امتلاك الأراضي في العهد العبيدي، وحطم بذلك استقلال أمراء بالإقطاعات، وقوّى الحكومة المركزية، وكان لهذا أكبر الأثر في نشاط الحالة الاقتصادية⁴، فقد اتبع صلاح الدين تنظيمات مالية كان من شأنها زيادة دخل بيت المال، وذلك باسترجاع الأراضي والإقطاعات التي كانت تابعة للخليفة العبيدي وأتباعه، وإدراجها ضمن المال العام، وبذلك يصبح خراجها ضمن الخزينة العامة ، فقد كانت ظاهرة إقطاع الأراضي للوزراء والقادة العسكريين ظاهرة متفشية في العصر العبيدي، حتى بلغ الأمر بقيادة الدولة العبيدية أن ملكوا أراضي زراعية شاسعة وممتلكات واسعة كانت تابعة لهم ثم حبسوها على ذريتهم من بعدهم، وكمثال على ذلك نجد بساتين الجبوشي، وهي عبارة عن

¹ - بهاء الدين ابن شداد ، المصدر السابق ، ص 66.

² - أبو شامة، المصدر السابق ، ج2، ص182.

³ - صبحي عبد المنعم محمد، المرجع السابق ، ص143. مصطفى شاكر ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه ، ط1، دار القلم ، دمشق ، 1998. ص 106.

⁴ - محمود شلبي ، المرجع السابق ، ص 50.

بساتين وأراضي زراعية المنسوبة إلى صاحبها أمير الجيوش بدر الجمالي الذي جعلها حبسا على ذريته من بعده¹، فكان ذلك بمثابة توريث الثروة وتداولها بينهم دون دفع مستحقاتها المالية لبيت المال خاصة الخراج ، وكان ذلك من شأنه أن يسبب أزمات مالية متكررة إن استحوذ أهل النفوذ على الأراضي دون دفع ، لكن مستحقات تلك الأراضي من الخراج آلت إلى بيت المال الأيوبي، وبذلك فتح المجال أمام الأيوبيين لاستغلال هذه الأراضي استغلال يخدم الإسلام والمسلمين .

وهذا لا يعني أن صلاح الدين ألغى نظام الإقطاع تماما وإنما نظمته على شكل يخدم مشاريع الأمة الإسلامية، وسار على نهج سيده نور الدين الذي سار هو الآخر على خطى السلاجقة، فما لبثت الإقطاعات أن أصبحت وراثية وذلك تشجيعا لأصحابها في البقاء على الجندية ، فقد أقر أولاد الجندي المتوفي على إقطاع أبيهم ، فإن لم يكن له ولد جعل لبعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد ، وأصبح هذا الأمر مبدأ، وتحول الإقطاع الحربي إلى أملاك يرثها الولد عن الوالد لأنه يقاتل عليها²، وهذا الأمر لم يضر بخزينة الدولة كما كان عليه الحال زمن العبيديين، بل خفف على الدولة مشكلة توفير مرتبات الجنود ، وجعل الجيوش جاهزة للقتال في أي وقت.

¹ -وقد أفتى فقهاء السنة زمن الدولة الأيوبية ببطلان ذلك النوع من الحبس ، فصار مالها يحمل إلى بيت المال فينفق في مصالح المسلمين .ينظر : أسعد بن ميماتي ، قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1991، ص339. إلا أن ابن المأمون(ت588هـ/1191م) يذكر عن الحبس الجيوشي أن عقب أمير الجيوش انقرض ولم يبق منه سوى امرأة عجوز ، فأفتى فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس وصار من جملة الأموال السلطانية ، ينظر: المصدر السابق ، ص105.

² - سوزي حمود ، المرجع السابق ، ص 119.

وقد يقول البعض أن صلاح الدين بسيطرته على مصر أقطع معظم الأراضي على إخوته وأبناء عمومته¹، لكن هذا لا يتنافى والنظام الإقطاعي السائد فإن هؤلاء كانوا قادة جيوش لبوا النفير في أكثر من مناسبة خاصة أثناء محاولات إحياء الدولة العبيدية أو فتح اليمن أو مواجهة الصليبيين .

ومن الإصلاحات الاقتصادية التي طبقها صلاح الدين رفعه الخراج عن المزارعين لمدة سنتين من سنة 565هـ/1169م إلى 567هـ/1171م² ، وذلك لمّا لاحظ إرهاب الفلاحين من الأزمات الاقتصادية والمكوس التي فرضت عليهم زمن الدولة العبيدية، فابتعدوا بسبب ذلك عن خدمة الأرض، وقد أعطت هذه السياسة دفعا إقتصاديا قويا، إذ دفعت بالمزارعين إلى بذل الجهود لمضاعفة المنتج³، كما أثرت على التجارة الخارجية بأن تزايد الإنتاج المحلي وصُدّر الفائض .

وبالإضافة إلى ذلك أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة، التي كان العبيديون قد ألغوها، وذلك إيدانا منه بعودة مذهب أهل السنة، وجعلها البديل عن المكوس والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها وأقام لها ديوانا تسلمه متولي الزكاة رغم أن حصيلتها كانت زهيدة مقارنة مع ما كان يجبى من المكوس⁴ .

¹ - ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص18، أبو شامة ، الروضتين ، ج2، ص 130.

² - النويري ، المصدر السابق ، ج28، ص 242.

³ - وقد كان الوزير بدر الجمالي هو أول من اتبع هذه السياسة الاقتصادية زمن الغلاء المفرط في مصر، فرفع الخراج مدة ثلاث سنوات وجبى نصفه في السنة الرابعة ، ثم استوفى كامل الخراج بعد أن عمرت الأرض واستغنى المزارعون ، وصلحت أحوال الفلاحين .. ينظر :المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص 330. ابن حجر العسقلاني ، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1، 1989، ص94.

⁴ -مصطفى شاكر ، المرجع السابق ، ص 388. وقد فصل اسعد ميماتي(ت606هـ) الوزير الأيوبي في أصناف الزكاة ومستحقها حسب ما وضعه صلاح الدين الأيوبي ، ينظر : أسعد ميماتي ، المصدر السابق ، ص 308.

فبعد أن تأكد صلاح الدين من ضعف الدولة العبيدية ودنو أجلها شرع في إحداث إصلاحات اقتصادية وذلك قبل إعلانه الخطبة للخلافة العباسية، وقد كان لهذه الإصلاحات دور في تقويض النفوذ الشيعي وهيمنته الاقتصادية على مصر والمناطق المجاورة .

4-فتح اليمن ودوره الاقتصادي في مقاومة الوجود الشيعي:

لاحظنا كيف سعى صلاح الدين الأيوبي إلى ضم اليمن سنة 569هـ/1173م رغم اضطراب الأوضاع بسبب المؤامرات الداخلية لإعادة إحياء الدولة العبيدية، وإذا نظرنا إلى فتح اليمن فإنه لا يقل أهمية عن إخضاع مصر وبلاد الشام فيما بعد، فالوضع في اليمن كان من الحساسة ما يدعو إلى التدخل السريع، فقد كانت المصالح الكامنة وراء التدخل في اليمن أكثر تعقيدا، إذ كان هذا البلد ملجأ لبقايا من النحل المختلفة، وكانت السلطة فيه تمارس من قبل الصليحيين وآل زريع وبنو المهدي¹، الذين ظلوا إسماعيليين رغم ما حدث من انشقاقات في الدعوة الإسماعيلية²، وكانوا على استعداد لاستقبال اللاجئين العبيديين المهتمين بأخذ الثأر، إلى جانب وجود طائفة كبيرة من تجار الهند الذين اعتنقوا

¹ - للتوسع يُنظر الباب الأول الفصل الثالث: الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي من المذكرة.

² - حدث الانشقاق في صفوف الإسماعيلية على مرحلتين: الأولى بعد وفاة المستنصر سنة 487هـ/1093م . فظهرت النزارية بقيادة حسن الصباح في بلاد فارس والمستعلية في مصر، وحدث الانشقاق الثاني على إثر وفاة الأمر بأحكام الله سنة 524هـ/1129م .، الذي قُتل وولي عهده لا يتجاوز السنة فظهرت الطيبية نسبة إلى أبي القاسم الطيب ابن الأمر والحافظية نسبة إلى الحافظ لدين الله الذي كتم أمر ابن الأمر، وقد بقيت الإسماعيلية باليمن زمن الدولة الصليحية تابعة لمصر رغم الشقاق، ينظر: ابن ميسر ، المصدر السابق، 113. جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص 87-88. وقد سكتت المصادر المعاصرة للدولة العبيدية عن الحديث عن ابن الأمر ماعدا ابن الطوير الذي أشار إلى أن الأمر ترك زوجة حامل وتنبأ بإنجابها لولد ذكر يتولى شؤون الدولة من بعده .ابن طوير، المصدر السابق، ص27.

الدعوة الإسماعيلية بعد الاحتكاك التجاري الذي حدث بين الهند ومصر عن طريق اليمن زمن العبيديين¹، وهذا التعارض كان ليفتح جبهة أخرى للصراع كان الأيوبيون في غنى عنها لانشغالهم في بلاد الشام، كما إنها ستشكل خطرا اقتصاديا وهو تهديد العلاقات التجارية لمصر في المحيط الهندي، فقرر صلاح الدين فتح اليمن وكلف لذلك ابن أخيه تورانشاه، الذي خاطب جنده ومنعهم من نهب البلاد بقوله: "ما جئنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها"².

ومن المؤكد أن خصوصية اليمن حالت دون استمرار السيطرة الأيوبية المباشرة لمدة أطول، لكن تمت إعادة الوحدة الطائفية بين السلطة اليمنية ومصر وإعادة العلاقات التجارية، فبعد السيطرة على اليمن بسنوات، واستتباب الأمن بدأ وصول تجار الكارم³ إلى القاهرة، فاستفاد الأيوبيون من واردات التجارة في البحر الأحمر التي كانت خاضعة في وقت سابق للعبيديين⁴.

ومن أجل فهم اقتصاد الدولة العبيدية وخطورتها على العالم الإسلامي في تلك المرحلة، لا بد لنا من إلقاء نظرة على تطور ميناء عدن خاصة والتجارة البحرية بصفة عامة، وكيف شغلت الدولة العبيدية الأوضاع السياسية والاقتصادية لتغيير الخريطة التجارية .

¹ - جمال بدوي ، المرجع السابق، ص 113.

² - ابن الأثير ، الكامل ، ج10، ص 53.

³ - تجار كارم: هم تجار الإمبراطورية المصرية في عصر العبيديين ثم الأيوبيين والمماليك ، تمتعوا بقدرات مالية كبيرة جعلتهم في اعلى مراتب التجار الذين وفدوا إلى مصر من الصين والهند عن طريق اليمن وصولا إلى الإسكندرية والفسطاط، وقد كانوا تجارة الجملة والصفقات الضخمة وأهم متاجرهم هي التوابل وخامات العطور فضلا عن الجواهر، كما توافد تجار كارم على الشام والحجاز واليمن، واهتم تجار كارم بنظام الضرائب وكان لهم في مصر إدارة ضرائب خاصة كما اهتموا بتنظيم شؤونهم الضرائبية عامة خارج مصر .ينظر: صبحي لبيب ، سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمماليك ، المجلة التاريخية المصرية، العدد 28-29، مصر، 1982، ص136-139.

⁴ - كلود كاهن ، المرجع السابق، ص 187..42: Nikita Elisséeff, opcit,

ظلت الخلافة العباسية طيلة قرونها الأولى تسيطر على التجارة الشرقية عن طريق الخليج الفارسي انطلاقاً من موانئ البصرة وسيراف والأبلة¹، لكن ما وقع في قلب العراق، مركز الخلافة العباسية من قلة الاستقرار السياسي وعدم استتباب الأمن، وضعف الإدارة وانخفاض مداخيل الخلافة بحيث لم يعد الخليفة قادراً على تغطية مصاريفه ودفع مرتبات الجند، كل هذا دفع التجار إلى تجنب الخليج فاستفادت عدن من كل هذا عندما بدأ كبار التجار وأصحاب السفن يتحولون عن بغداد والبصرة ليركزوا نشاطهم في عدن، وبذلك ارتبطت أهم طرق الملاحة في مياه الجنوب بمصر ارتباطاً وثيقاً، من ساحل الصين إلى عدن ومن عدن إلى موانئ مصر في البحر الأحمر، وأهمها ميناء عيذاب الذي بناه العبيديون².

كما حاولت الدولة العبيدية ضرب طريق تجارة التوابل والحريز في الخليج العربي الذي يمثل الثروة والرواج الاقتصادي الخلافة العباسية وشجعت ذلك عن طريق تطوير ميناء عدن باليمن ليصبح أهم مراكز التجارة الشرقية في العصور الوسطى³، فحل بذلك محل ميناء القصير القديم وأصبح منافساً للبصرة والأبلة، ومن ناحية أخرى وطدوا

¹ - أيمن فؤاد السيد، العرب و طريق الهند حتى أواسط القرن السادس، مجلة المؤرخ المصري، العدد 8، 1992، القاهرة، ص 76.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص468، صبحي لبيب، المقال السابق، ص120.

³ - إلى جانب ميناء عدن سيطرت مصر زمن الفاطميين على موانئ تجارية أخرى أهمها : عيذاب، القصير، الطور، السويس، وقد سيطرت الدولة النورية على التجارة الآتية إلى هذه الموانئ بعد سقوط الخلافة العبيدية، فيما تأخرت السيطرة على ميناء عدن، مركز التجارة الكارمية، إلى عهد الدولة الأيوبية. ينظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص468-471.

علاقاتهم مع شرفاء مكة ووجهوا أنظارهم إلى اليمن القاعدة العبيدية الأولى¹، فساعدوا الصليحيين على إقامة دعوة سياسية لهم هناك²، كما أنهم اهتموا بنشر الدعوة الإسماعيلية في الهند لكسب التجارة والتجار، وسُمِّيَ الدعاة العبيديون الذين ذهبوا إلى الهند على هيئة تجار باسم " البوهر" نسبة إلى تجارتهم في التوابل أو البهار، لذلك أطلق فيما بعد على طائفة الشيعة الهنود اسم طائفة البهرة³.

إلى جانب كل ذلك نجد أن سيطرة العبيديين على هذه المراكز التجارية كان يشكل خطرا على العالم الإسلامي بحيث سمحت للتجار الصليبيين بالتحرك بكل حرية في المجال الخاضع لها⁴، مما جعل الحجاز عرضة للخطر في أي وقت .

كل هذه الأسباب مجتمعة دفعت بالأيوبيين إلى فتح اليمن وذلك من أجل تحقيق وحدة الجبهة الإسلامية للوقوف أمام الخطر الصليبي، والعمل على منع أي محاولة صليبية للاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة، ومنع تسرب الفكر الصليبي في الاتصال بالحبشة المسيحية؛ مما قد يؤدي إلى زيادة متاعب السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما حرص الأيوبيون على القضاء على أنصار العبيديين(بقايا بني زريع والصليحيين) وكذلك المتطرفون من بني مهدي حكام زبيد

¹ - وقد لا حظنا في الفصول السابقة كيف نجحت الدولة العبيدية في ضم الحجاز واليمن إلى ممتلكاتها بينما عجزت عن الحفاظ على بلاد الشام والراجح أن هذا عائد إلى تخطيطها البعيد المدى الرامي إلى نقل الدعوة الشيعة إلى آسيا عن طريق التجارة المارة بهذه الأقاليم والبحر الأحمر.

² - ابن مخرمة ، المصدر السابق ، ص 191-193. أيمن فؤاد السيد ، المقال السابق ، ص 78. حسين بن فيض الله الهمذاني ، حسن سليمان محمود ، المرجع السابق ، ص 221.

³ - البهرة هم إسماعيلية مستعلية ، يعترفون بالإمام " المستعلي " ، ومن بعده ابنه " الأمر " ، ثم " الطيب بن الأمر " ، ولذا يسمون بـ " الطيبية " ، وهم إسماعيلية الهند، واليمن، وحين سقطت الدولة الصليحية تركوا السياسة، وعملوا بالتجارة، فوصلوا إلى الهند ، واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا ، وعرفوا بـ " البهرة " ، والبهرة : لفظ هندي قديم، بمعنى " التاجر". ينظر: مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 247. سحر السيد عبد العزيز سالم، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ و الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، 2009. ص 142.

⁴ - صبحي لبيب ، المقال السابق ، ص 123.

والعمل على سيادة المذهب السني، بالإضافة إلى الاهتمام باليمن بسبب أهمية موقعها وكثرة خيراتها ومواردها الاقتصادية وسيطرتها على عدة موانئ كعدن والمخا وغلافقة، ولأجل القضاء على التجزئة السياسية الداخلية في اليمن حيث انقسمت إلى دويلات مستقلة متناحرة وعدائية فيما بينها، فتم القضاء على هذه الدويلات ووحدت البلاد سياسيا واقتصاديا وفكريا¹.

ونستنتج من كل ذلك أن العبيديين قصدوا بسيطرتهم على اليمن هدفا مزدوجا هو تقوية الدولة العبيدية عن طريق الدعم الاقتصادي ثم إضعاف الخلافة العباسية السنية، وقد نجحت في ذلك إلى حد ما، وطيلة فترة سيطرة السلاجقة والزنكيين على العالم الإسلامي لم يتمكنوا من إعادة بسط سيطرتهم على هذه الطرق التجارية المهمة، ولم يستعد العالم الإسلامي إمكانياته الاقتصادية إلا بسيطرة الأيوبيين، هؤلاء الذين ضربوا عصفورين بحجر واحد، قضوا على بؤرة التوتر في اليمن التي كان من شأنها أن تكون نقطة انطلاق لدعوة شيعية جديدة ، كما أنهم استعادوا سيطرتهم على موانئ تجارية مهمة في بحر القلزم وبالتالي إعادة تنشيط التجارة نحو الشرق وإخضاعها لسلطتهم.

II- الدور الاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي:

1-التعليم المجاني للفقراء لتجنب وقوعهم فرائس للباطنية:

لما استقرت الدولة العبيدية بمصر وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم شعرت الدولة العبيدية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية وذلك أنها لم تجد في مصر كما

¹ - علي غنام ، إنجازات الأيوبيين في تشجيع و حماية التجارة والتجار في ميناء عدن 569-631هـ/1173-

1228م، مجلة الخليج العربي ، المجلد 20، العدد 2، البصرة ، 1988.ص 27.

وجدت في قفار المغرب الساذجة مهذا خصبا لدعوتها¹، بل وجدت في مصر مجتمعا واعيا، حركته الأحداث السياسية والدينية والفكرية، ولم يكن اعتماد الدولة العبيدية في بث دعوتها على سلاح التشريع بقدر اعتمادها على الدعاية السرية المنظمة وهي خير وسيلة لغزو الأذهان المستتيرة وحشدتها لتأييد الدعوة المنشودة².

وكان من مكائد الشيعة الباطنية استغلال الظروف الاجتماعية المزرية وحالة الفقر التي يتخبط فيها العامة، والتي ترتب عنها عزوفهم عن التعليم والانشغال بأمور الدنيا وجلب الرزق، فاندسوا في صفوفهم واستدرجهم إلى دعوتهم بأساليبهم الماكرة³، وحرصا من صلاح الدين على أمور المسلمين كافة عمل على سد هذه الثغرة، فأمر ببناء المدارس، وألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل، وصرف لهم أجورا كافية لتعليم أبناء الفقراء والأيتام خاصة وشجع العامة على الانصراف إلى العلم والتعلم⁴، فقد قدمت

¹ - وهذا الأمر كان في مرحلة الدعوة السرية، حيث أن دعاة الإسماعيلية لم يبيحوا بمشروعهم الباطني وإنما اكتفوا برفع شعار فضل آل البيت وأحقيتهم بخلافة المسلمين، ونظرا لمحبة البربر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوا حولهم، وشكلت قبيلة كتامة الدعم الكبير لها، لكن الأمور تغيرت بعد إعلان قيام الدولة، وإظهار الخلفاء العبيديين المنكرات والبدع، فقد تظن البربر للخطر الذي يهدد عقيدتهم وتوحدت جهودهم لإلغاء الدولة ومذهبها من خلال ردة فعل أقل ما يمكن أن نقول عنها أنها كانت واعية ومنتشعبة بأصول الدين فحشدت الجهود وعقدت حلقات الدرس والتوعية بشكل سري، واجتهد العلماء في التأليف لتوضيح ضلالة مذهب العبيديين، ودخلوا في مناظرات شرسة ضد دعاة الإسماعيلية، كما أنهم التقوا حول ثورة أبي يزيد صاحب الحمار (316-336هـ) للإطاحة بالدولة العبيدية. عائشة تازي، المد الشيعي في بلاد المغرب ورد فعل البربر، مجلة عصور، العدد 7-8، وهران، 2012-2013، ص 120-125.

² - خضر أحمد عطا الله، المرجع السابق، ص 110، 111.

³ - ذكرها الغزالي في كتابه فضائح الباطنية وفضائل المستطهرية، المصدر السابق، ص 35 وما يليها.

⁴ - ابن جبير، المصدر السابق، ص 27.

المدارس الفرصة لأي مسلم سني مهما كان فقيرا أو مهما كانت أصوله العرقية أو خلفيته اللغوية ، ليتلقى تعليما عاليا، فكانت المدارس مفتوحة للجميع¹ .

كما أنشأ صلاح الدين البيمارستانات ودور الأيتام واهتم بها ، وشاركه أهله من الرجال والنساء وغير أهله من النواب والولاة في الاهتمام بها وإنشائها والإنفاق عليها².

2- إقرار الأمن والاستقرار في مصر بعد قطع الخطبة العبيدية:

تخوف صلاح الدين في البداية من ثورة أهل مصر إذا هو تجرأ على قطع الخطبة للخليفة العبيدي لكن الواقع أثبت عكس ذلك فبمجرد إعلان الخطبة للخليفة العباسي سنة 567هـ/1171م فرح الناس واستبشروا خيرا، فقد عانى المصريون من شدة وطأة الدولة العبيدية، وأرهقوا من الضرائب التي أثقلت كاهلهم، فجاءت ردة فعلهم من سقوط الدولة العبيدية فاترة، إن لم نقل أنها لم تتولد ردة فعلا أصلا³، قال ابن الأثير معلقا على إعلان الخطبة للخليفة العباسي بمصر إنه "لم ينتطح فيها عنزان"⁴، كما هرع أهل السنة إلى تتبع الإسماعيلية في مصر وأذلّوهم وأجلّوهم من ديارهم بعد أن اشتد بهم الأذى⁵، وفي هذا دلالة كبيرة على التضييق والتسلط الذي مّورس على أهل مصر بحكم أن أغلبهم من أهل السنة، وإن كانوا قد تظاهروا زمن العبيديين باعتناقهم للمذهب الإسماعيلي، وذلك طلبا للسلامة وتخلصا من التعذيب والتصفية من قبل العبيديين ورجال دولتهم، وتاريخ العبيديين

1- عبد الرحمان عزام ، المرجع السابق، ص 158.

2- السيد الأهل ، المرجع السابق، ص 98.

3- أما بخصوص محاولات إحياء الخلافة العبيدية التي قام بها مؤتمن الخلافة و ثورة الكنز ، ومحاولة عمارة اليمني فلم تكن الغاية منها الدفاع عن عقيدة ومذهب الدولة العبيدية بقدر ما كانت الغاية منها إعادة صلاحيات وامتيازات القائمين بتلك المحاولات بعد أن جردوا منها زمن صلاح الدين .

4- ابن الأثير ، الباهر ، ص 156.

5- أبو شامة ، الروضتين ، ج 2 ، ص 203.

مليء بممارساتهم ضد أهل السنة وضد كل من يتجرأ على مقاومة المذهب الإسماعيلي¹. وبالنسبة إلى اعتناق عامة مصر للمذهب الشيوعي، فإن البعض ادعى أن العبيديين نجحوا إلى حد ما في نشر المذهب الشيوعي، وأنهم وجدوا قابلية لدى أهل مصر في تبني المذهب أكثر مما كان عليه الأمر في بلاد المغرب، فالبربر كانوا أشد رفضاً ومقاومة للفكر الإسماعيلي²، وهذه الدعوى صحيحة إلى حد ما، لكن الاختلاف بين أهل مصر وأهل المغرب ليس في احتضان المصريين للمذهب الشيوعي وإنما هو في شدة المقاومة وطريقة المواجهة، وهذا ليس راجعاً إلى فتور أهل السنة أو ما شابه، وإنما الأمر عائد إلى تغيير العبيديين لسياستهم في نشر المذهب، فعلى عكس ما قامت به في بلاد المغرب من استعمال القوة والشدة لجأت في مصر إلى سياسة الترغيب والترهيب أكثر من الترهب والتتكيل³ في ضم الأتباع.

وهذا ما نجده واضحاً زمن المعز لدين الله، حيث بالغ الشيعة في احتفالاتهم وفي إظهار النياحة والبكاء في يوم عاشوراء، وتعدوا على العامة من أهل السنة وأجبروهم على الاحتفال معهم، فما كان من أهل السنة إلا أن اتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدير خم عند الشيعة ونكاية بهم، فاحتفلوا سنة 362هـ/972م، باليوم الذي دخل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجعلوه يوم

¹ - المقرئزي، الخطط، ج1، ص2.

² - للتوسع أكثر حول رد فعل البربر من سياسة العبيديين أنظر: عائشة تازي، المقال السابق، ص 108-130.

³ - هذا لا ينفي أنها لجأت في كثير من الأحيان إلى التتكيل بأهل السنة وتعذيبهم وتحريم الفتوى بمذهب الإمام مالك وتداول كتبه. للمزيد ينظر: عبد المجيد بدوي، المرجع السابق، ص 254.

26 ذي الحجة، وبالغوا في هذا اليوم في إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران، ورأى المعز ألا يمنع أهل السنة في مصر من إحياء هذا العيد حتى لا يثير غضبهم¹.

وفي مناسبة أخرى سنة 397هـ/1006م أقر الحاكم بأمر الله ضرورة عدم سب الصحابة علناً، وأصدر ذلك في سجل قُرئ على العامة سنة 400هـ/1009م، وأمر بضرب من سب الصحابة وتأديبه². وهذا ليس تركية ولا تبرئة لسياسة الحاكم وإنما فيه دلالة على تخوفه من الفتنة بين الطائفتين السنية والشيعية³، وتأكيداً منه على ضرورة اتباع السرية في الدعوة بقوله: "لا تكونوا سبابين، ولا عيايين... حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون"⁴.

أما سياسة الترغيب فتمثلت في الإغراء بالهبات والعطايا والمناصب وإلزام جميع الموظفين باعتناق مذهب الدولة⁵، فأصبح الحفاظ على المنصب والترقي في سلكه يتطلب

¹ - محمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق، ص 77.

² - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2 ، ص82. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج4، ص 223. عبد الملك العاصمي المصدر السابق، ص 556. لكن قرارات الحاكم كانت مرتبكة فتراجع عن هذا الأمر بمنشور آخر سنة 401هـ/1010م أعاد فيه مذهب الباطنية في الأذان والصلاة وسب الصحابة. ثم مالبت أن منع سب الصحابة سنة 403هـ/1012م وشهر بكل من خالف ذلك ، المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج2 ، ص86. 98.

³ - وقد ذكر المقرئزي أنه وصل للحاكم أن المغاربة يلعنونه، فالواضح هنا أن الحاكم حاول استرضائهم فتظاهر بتقريب أهل السنة والسماح لهم بتدريس مذهب الإمام مالك لسبب سياسي لا مذهبي. المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج2، ص119.

⁴ - إدريس القرشي ، المصدر السابق ، ص 293.

⁵ - حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ، ج3، ص 434.

التظاهر باعتناق عقيدتهم، وهذا يدل أن الرغبة في الحصول على مناصب في الدولة هو ما دفع بفريق منهم إلى اعتناق المذهب الشيوعي دون عقيدة وإيمان¹.

وقد لاحظنا أنه في كثير من الأحيان لجأت الدولة العبيدية إلى السرية لتجنب الصدامات، وبذلك فإن ردة فعل المصريين لم تكن دموية بل كانت علمية بالدرجة الأولى، ووجدوا ضالتهم أكثر في كنف سيطرة صلاح الدين الأيوبي على زمام الأمور، فرحبوا أيما ترحيب بإلغاء الدعوة الشيعية والتبعية للخلافة السنية .

ومن مظاهر إقرار الأمن بعد سقوط الدولة العبيدية، إلغاء الاحتفالات الرسمية للدولة العبيدية، الأمر الذي لم يلق أية رد فعل ملموسة من قبل فلول الشيعة وأتباع العبيديين في مصر، بل زاد صلاح الدين على ذلك بأن حوّر بعض الأعياد بما يتفق وتحول البلاد رسمياً من المذهب الشيوعي إلى المذهب السني، من ذلك مثلاً أن يوم عاشوراء كان يوم حزن عند العبيديين، تغلق فيه الأسواق، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسعون فيه على أنبائهم ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب².

ولم تشمل جهود صلاح الدين مصر فقط بل تعداها إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود، وقد ذكرنا في الجهود السياسية للأيوبيين الوضع الذي آلت إليه دمشق وحلب، في هذه المرحلة والتي يمكن أن نعتبرها انتقالية بين نور الدين وصلاح الدين وهي عهد الصالح إسماعيل، وفي ظل تلك الفوضى وجد فلول الشيعة ضالتهم وفرصتهم السانحة

¹ - عبد المجيد بدوي ، المرجع السابق ، ص 254. ونفس الأمر حدث لدى المغاربة الذين اعتنقوا المذهب الإسماعيلي بعد أن وقعوا تحت تأثير الإغراءات بالمناصب العليا والمال الكثير ، فرجال المذهب الشيوعي اعتمدوا في كسب ولاء الناس وفي اصطناع الرجال وفي الزحف على بقية المذاهب على العاطفة والمال والجاه. ينظر نماذج من أسماء من تشيعوا لهذه الأسباب . ينظر: موسى لقبال ، المرجع السابق، ص 151.

² - المقرئزي ، الخطط ، ج2، ص348. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيين و المماليك ، ص 155.

لإعادة ممارساتهم العقائدية إلى المساجد والأسواق بعد أن ألغاهما والده نور الدين محمود، لذا اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقي الجامع يصلون فيه على قاعدتهم القديمة وأن يجهروا بـ "حيى على خير العمل" في الآذان والتذكير في الأسواق، واشترطوا إعادة كثير من الأمور التي أبطلها والده نور الدين فأجابهم إلى ذلك¹، وبدخول صلاح الدين إلى دمشق ألغى كل تلك الممارسات المذهبية والشعائر الزائفة.

3- الحرص على القضاء على نسل العبيديين:

عمل صلاح الدين الأيوبي على القضاء على الكيان السياسي للدولة العبيدية، وأردفه بجهود علمية واقتصادية واجتماعية للقضاء على فلول العبيديين وفكرهم، وذلك لما شكلوه من خطر على الأمة والمجتمع الإسلامي، فقد كثر الرفض واستحکم أمرهم ووضعوا المكوس على الناس، وأفسدوا عقائدهم، بعد تمكن دعائهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم، كما أن استحکامهم بالأمور في بلاد الشام جعلها فريسة سهلة للصليبيين، لكن خطرهم زال بظهور صلاح الدين الأيوبي، فأزال هذه الدولة وعمل على محوها من الوجود، فبمجرد إعلان الخطبة للخليفة العباسي سنة 567هـ/1171م عزل أهل الخليفة العاضد وأولاده خارج القصر خاصة بعد أن ظهرت منهم بوادر الاستمرارية في السلطة، فبعد وفاة العاضد مباشرة جلس ابنه داود الذي لُقّب بـ "الحامد لله" على العرش²، واستدعى صلاح الدين لبيايه، فامتنع وكتب إليه "أنا نائب أبيك في الخلافة ولم يوص بأنتك وليّ عهده"³، وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في 6 شعبان 569هـ/1173م⁴، وجعلهم

¹ - محمد بن تقي الدين عمر شاهنشاه الأيوبي ، المصدر السابق ، ص45.

² - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص210.

³ - المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج3، ص347.

⁴ - نفسه ، ص347.

على انفراد ومنع أن تتصل بهم الأطراف الخارجية¹، وقرر لهم ما يكفيهم من المؤونة، وكلف الأمير بهاء الدين قراقوش بذلك، كما أنه فرق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم². ثم توفي داود بن العاضد في أيام الملك العادل، وصارت الدعوة بعده لابنه سليمان الذي كان في غاية الجهل والغباوة، ثم توفي هو الآخر في قلعة الجبل في شوال 645هـ / 1247م ولم يخلف ولدا ذكرا فانقطع نسل العبيديين³.

4-الأوقاف ودورها الاجتماعي في مقاومة الوجود الشيعي :

في دراستنا للدور العلمي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي في المشرق الإسلامي، وجدنا أن الدولة الأيوبية قد سخرت كل جهودها في بناء المدارس والمنشآت العلمية للقضاء على الفكر الشيعي وتطهيره من المجتمع الإسلامي، وقد دُعمت تلك المدارس بعلماء وفقهاء أكفاء تبنا مشروعها الأول، ولما كانت هذه المنشآت بحاجة إلى موارد مالية ثابتة، تضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها كان الوقف هو المصدر الأول لتمويلها، والذي اعتبر بمثابة الدخل الدائم الذي يُصرف على المعلمين والطلبة .

وقد مس هذا النشاط الاجتماعي الاقتصادي مختلف أنحاء الدولة الأيوبية، في مصر وبلاد الشام، ونذكر على سبيل المثال مدينة حلب التي عُرِفَتْ بكثرة أوقافها واتساعها، حتى سميت مدينة الوقف، فكان أكثر من ثلثي أراضيها يدخل في عداد الأراضي الوقفية، والتي تعتبر أكثر من نصف مجموع الأراضي الوقفية في بلاد الشام، وقد حققت الأوقاف استقرارا اقتصاديا واجتماعيا ساهم في ازدهارها وتطورها، فالوقف ثروة نامية لا تخضع

¹ - ابن الأثير ، الباهر ، ص 156.

² - أبو شامة ، الروضتين ، ج2، ص 210. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 321.

³ - ابن واصل ، المصدر السابق ، ج1، ص 210.

للبيع أو الهبة أو أي صورة من صور التنازل عنه، وهو يتحول إلى مال مشترك للجماعات يوفر لها الأمان والثقة، وهو أيضا يحقق حدا معقولا من المساعدة لمن يحتاجها على مستوى الأكل والصحة والتعليم، مما يشيع علاقات المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع، وقد تنوعت مقاصد الوقف وأهدافه وتعددت، فشملت الجوامع والمساجد والمدارس، والزوايا والأربطة والخانات، والبيمارستانات، إضافة إلى أعمال الخير الأخرى¹.

وهذا قد ساهم بشكل أو بآخر في تدعيم الجهود الاجتماعية في مقاومة الوجود الشيعي من حيث احتواء طبقات المجتمع المستفيدة من الأوقاف في المرافق الاجتماعية المذكورة، وعدم تركها للجهل والفقر والجوع وتصبح مستهدفة من قبل الفرق الشيعية الضالة.

انتهينا إلى أن كلا من السلاجقة والزنكيين والأيوبيين كانت لهم جهود في مقاومة الشيعة على مختلف الأصعدة بما فيها الناحية الاقتصادية والاجتماعية، والظاهر أن هذه الجهود كانت هي الأخرى متوارثة، فمن الناحية الاقتصادية نجحت كل الأطراف في استرجاع الأراضي والممتلكات المغتصبة من قبل الشيعة الباطنية فازدادت بذلك موارد بيت المال، كما أنهم ألغوا المكوس والضرائب غير الشرعية التي فرضتها الدولة العبيدية، إلى جانب ذلك فإنهم طبقوا نظام الإقطاع بنفس المنهج وذلك لنفس الغرض، لكن كل حسب الظروف المحيطة به.

¹ - محمد عبد الرزاق أسود، التعليم الشرعي وأوقافه بحلب في عهد الدولة الأيوبية، مجلة العاديات، سوريا، 2007/02/01، ص 108.

أما من الناحية الاجتماعية فكان دورهم واحداً، رمى في أساسه إلى إلغاء الاحتفالات والمناسبات الدينية للشيعة، والتكفل بالعامّة لحمايتها من الوقوع فريسة سهلة في يد دعاة الباطنية، فأوقفوا الأوقاف الجليّة لتغطية مصاريف التعليم والعلاج، كما أنهم أحيوا السنة وألغوا البدع التي مارسها الشيعة في بغداد ثم في بلاد الشام ومصر.

فحقق السلاجقة والزنكيون والأيوبيون بتوارثهم لمشروع مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق الإسلامي الأمن والاستقرار في الأقاليم التابعة لهم، ذلك الأمن الذي انعكس إيجاباً على جميع النواحي خاصة منها الاقتصادية والاجتماعية .

الختامة

حاولنا من خلال هذا البحث تتبع أدوار السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي، وتوقفنا عند جهود القادة السياسيين من سلاطين ووزراء وأمرأ و جهود العلماء والمفكرين في هذا المجال، الذين اتفقوا على خطورة الوضع من الناحية الأمنية والفكرية على الأمة الإسلامية فجاءت جهودهم مكملة لبعضها البعض، وخرجنا بعد تمام البحث بالنتائج التالية:

من خلال الفصل التمهيدي توصلنا إلى أن المذهب الشيعي الباطني قد ضرب بأطنابه في مشارق الأرض ومغاربها خلال القرن 4-5هـ/10/11م، بعد أن لقي دعماً سياسياً قوياً تمثل في الدولة العبيدية والدولة البويهية، فأخذ دعائهم يجوبون أرجاء العالم الإسلامي مجيئاً وذهاباً محققين الكثير من النجاح، وعليه ترسخ الفكر الباطني وتعززت أفكاره المتطرفة- قهراً- في أوساط المجتمع الإسلامي.

وعلى إثر ذلك ظهرت قوى السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين، ودخلوا مع الدولة العبيدية الشيعية في صراع سياسي وعسكري، حاولوا فيه التقليل من نفوذ الشيعة واستعادة أقاليم جديدة كانت تابعة في الأصل للخلافة العباسية، وقد حقق السلاجقة انتصارات جليلة على الشيعة واسترجعوا حلب وأجزاء واسعة من بلاد الشام، كما أعادوا الخطبة للخليفة العباسي بمكة والمدينة، وهم بذلك قد أعطوا دفعة جديدة للخلافة السنية، فترتب عن ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ المذهب السني، كما مهد السلاجقة السبل للزنكيين لضم دمشق ومصر وأعمالهما بعدما كانت تموج بتيارات فكرية متصارعة يأتي في مقدمتها الشيعة، فيما استكمل الأيوبيون مسيرة أسلافهم في إحكام سيطرتهم على مصر وضم اليمن واستعادة بيت المقدس الذي سقط بيد الصليبيين بسبب تخاذل العبيديين الشيعة .

وفي دراستنا للدور العلمي والمذهبي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي وجدنا أن دور الفقهاء والعلماء كان محوريا في هذه المرحلة وسارت هذه القوى وفق توجيهات ودعم أولئك الفقهاء الذين شحنوا القادة السياسيين بحماس ديني كان من شأنه تشجيع كل ما هو علمي ومذهبي في سبيل ترسيخ المذهب السني والقضاء على الفكر الشيعي الباطني .

كما كان للتكوين العلمي الذي نالته أبرز شخصيات مرحلة الدراسة - نظام الملك ، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي- دور فعال في جهاد الشيعة على مختلف الأصعدة والمستويات.

وقد استفاد الزنكيون والأيوبيون من قوة الدفع العلمية التي تلقوها من المدارس النظامية فنجحوا في استغلال خريجها خدمة لمشروعهم الرامي للقضاء على الوجود الشيعي، وتجنبوا سلبياتها القائمة أساسا على التعصب المذهبي.

كما أدرك السلاجقة والزنكيون والأيوبيون ضرورة توفير المناخ العلمي العقائدي والفكري لإيجاد كيان داخلي متماسك لمواجهة الفكر الشيعي الباطني، فشكلت جهودهم العلمية المتوارثة شبكة من التعليم والمعرفة يصعب اختراقها، فانتشرت المدارس من بغداد إلى الشام ومن الشام إلى مصر، استقطبت إليها عددا كبيرا من العلماء والطلبة ، كان من شأنهم توحيد الجهود لمواجهة أي خطر مدهم سياسيا كان أم فكريا .

ولا شك أن إزالة الغموض عن الجهود العلمية والمذهبية المبذولة في القرن الخامس والسادس الهجريين (الموافق للحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، من قبل السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين، وشرح تفاصيلها، سوف يُبين للمسلمين في الوقت الحاضر بعض معالم الطريق لتأصيل التعليم الإسلامي وضرورة العناية بالناحية العلمية، خاصة من خلال نظام التمويل-الأوقاف- وتسيير المؤسسات التعليمية، للنهوض بالحركة التعليمية وتحقيق

ازدهارها، لما لها من دور في توجيه الأفكار والمجهودات لحل المشكلات الإسلامية المعاصرة ومجابهة التحديات التي تواجهها.

أما على المستوى الاقتصادي والاجتماعي فقد كان السلاجقة والزنكيون والأيوبيون دور فعال في هذا المجال، فكان من الطبيعي أن تنعكس الجهود السياسية والعسكرية على الدور الاقتصادي من حيث الموارد المالية والطرق التجارية وحتى المحاصيل الزراعية بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية وتقلص نفوذ الشيعة في بلاد الشام ثم مصر، كما كان للدور العلمي المذهبي أثر بارز على الأوضاع الاجتماعية من حيث درء الفتن الطائفية والتكفل بالفقراء واليتامى وتخصيص الأوقاف للفئات المهمشة في المجتمع حتى لا تقع فريسة في يد الشيعة الباطنية.

وعليه يمكننا القول أنَّ الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي هو أثر للجهود السياسية والعسكرية والعلمية والمذهبية.

وفي خضم كل ذلك تعرضت جهود السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين إلى المتغيرات التي طرأت على العالم الإسلامي فقد شن الغرب الصليبي هجمات شرسة ترمي إلى السيطرة على المقدسات واستنزاف خيرات المشرق، إلى جانب ذلك تنامت القوى الباطنية بعد أن ظهرت الفرقة الإسماعيلية النزارية في ألموت ببلاد فارس، فكان لزاما على تلك القوى مواجهة كل هذه الأخطار مجتمعة في ظل خطر داخلي فكك أوصالها وشتت جهودها، وهو الصراع حول السلطنة.

كما استنتجنا أن الأمم لا تقوم على أفراد إن زال الفرد زال المشروع، بل الدول تُبنى على مشاريع متوارثة من قبل شخصيات متحمسة لتجسيد المشروع وتحقيق هدفه رغم الفارق الزمني، وكان لتوارث السلاجقة والزنكيين والأيوبيين لمشروع مقاومة الوجود الشيعي أثر بالغ على مستقبل المشرق الإسلامي آنذاك، فقد غرس السلاجقة بقيادة نظام الملك شجرة العلم ودحض البدع ومشروع جهاد الشيعة، وسقاها نور الدين بالإصرار والمثابرة والجهاد، وقطف ثمارها

صلاح الدين والأمة الإسلامية، وتُوجّ المشروع الأول بالنجاح بعد أن قُضي على الدولة العبيدية ككيان سياسي ومذهبي من العالم الإسلامي، فضعت بذلك الفروع الشيعية الأخرى في الشام والعراق وحتى بلاد فارس موطن الحشيشية .

فرغم الجهود السياسية والفكرية والمذهبية الواسعة التي بذلتها الدولة العبيدية في سبيل ترسيخ فكرها ومذهبها، إلا أن الأساس الذي بنت عليه عقيدتها كان يحمل في طياته بذور فنائها، ففَرَضُ المذهب بالقوة العسكرية والسياسية، وإتباع الإغراءات المالية من أجل الالتفاف حولها قد فتر في فترة من الفترات التي عرفت فيه الدولة ضعفا سياسيا وضائقة اقتصادية، فالتبعية هنا كانت قهرية مادية لا اعتقادية سمحت بتضاؤل نشاطها وصولا إلى نهاية وجودها .

لا يمكننا القول أنه بنهاية الدولة العبيدية في مصر وبلاد الشام قد زال الخطر الشيعي الباطني على الأمة الإسلامية، فعلى الرغم من ان نشاطهم السياسي قد تضاعف إلا أن خطرهم بقي متجددا لتأصل حقدهم على أهل السنة، فقديما تحالفوا مع الصليبيين في بلاد الشام، وتخاذلوا عن نصره الخليفة العباسي السني أمام الزحف المغولي على بغداد... وتحالفوا اليوم مع اليهود الصهاينة ضد أهل السنة، فما أشبه البارحة باليوم، وهكذا ظلت الشيعة الباطنية قديما وحديثا مصدرا خطيرا للانحلال السياسي والاجتماعي بأفكارها المسمومة ، وأعمالها الإرهابية ...

وإجمالا يمكننا القول بأن التطورات التي طرأت على المشرق الإسلامي في القرن 5-6هـ/11-12م من سيطرة السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين، كان لها الأثر البالغ في تغيير معالم الخريطة السياسية السائدة في القرن 4هـ/10م، والتي بدورها انعكست على الأوضاع العلمية والمذهبية وحتى الاقتصادية والاجتماعية، فتراجعت بذلك القوى الشيعية وانتعشت القوى السنية.

ويبقى موضوع مقاومة الوجود الشيعي من المواضيع التي تستحق الدراسة ، خاصة الفترة التي أعقبت القرن السادس الهجري ، فكيف ساهم الشيعة في سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في القرن 7هـ/13م؟ وهل ظهرت قوى على الساحة السياسية في القرن 7هـ/13م تبنت مقاومة الوجود الشيعي؟ وما كان مصير الباطنية في ألموت في تلك الفترة؟ وعلى يد من كان سقوط آخر معاقل الشيعة في المشرق الإسلامي؟

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

الملاحق

الملحق رقم 01: نص عتاب ملكشاه لنظام الملك لكثرة إنفاقه على العلم

والعلماء¹.

"... وكان الذي يخرج من بيوت أمواله-نظام الملك- في هذه الأبواب-الإنفاق على العلماء وطلبة العلم- ستمائة ألف دينار في كل سنة، فوشى به الوشاة إلى أبي الفتح [الملك]، وأوغروا صدره عليه، وقالوا: إن هذا المال المُخْرَج من بيوت الأموال يقيم به جيشا يَرْكُزُ رايته في سور قسطنطينية. فخامر ذلك قلب أبي الفتح الملك، فلما دخل عليه قال يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعها ولا يغني عنا . فبكي نظام الملك وقال : يا بني، أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينار، وأنت مشغل بلذاتك، منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تُعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان، وقوس لا ينتهي مدى مرماه ثلاثمائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمر والملاهي والمزمار والطنبور، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفًا بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وبدعائهم تبيتون، وبركاتهم تُمَطَّرُونَ وترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع، فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديدا ثم قال: شاباش يا أبت شاباش أكثر لي من هذا الجيش " .

¹ - الطرطوشي، المصدر السابق ، ص 514-515.

الملحق رقم 02: نص عتاب ملكشاه لنظام الملك بسبب تولية خريجي مدارس

وأقربائه في مناصب إدارية وسياسية ورد فعل نظام الملك¹.

"... فأرسل السلطان-ملكشاه- إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاساني وغيرهما من أرباب دولته، يقول له : إن كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم، وإن كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيرة ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا، وأطال القول وأرسل معهم الأمير يلبرد وكان من خواصه وثقاته وقال له: تعرفني ما يقول فربما كتم هؤلاء شيئاً، فحظروا عند نظام الملك وأوردوا عليه الرسالة فقال لهم: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنني شريك في الملك فاعلم فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبير ورأيي، أما يذكر حين قتل أبوه فقامت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان، وذكر جماعة من خرج عليه وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزماني، ولا يخالفني فلما قدت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة وأطاعه القاصي والداني أقبل يتجنى لي الذنوب ويسمع في السعائيات، قولوا له عني إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة، وإن اتفقا رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه، وأطال فيما هذا سبيله، ثم قال لهم: قولوا للسلطان عني مهما أردتم فقد أهمني ما لحقني من توبيخه وفت في عضدي، فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان وأن يقولوا له ما مضمونه: العبودية والتتصل، ومضوا إلى منازلهم وكان الليل قد انتصف ومضى يلبرد إلى السلطان فأعلمه ما جرى وبكر الجماعة إلى السلطان وهو ينتظرهم فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه فقال لهم السلطان، إنه لم يقل هذا وإنما قال كيت وكيت فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك وسابقتها، فوقع التدبير عليه حتى تم عليه من القتل ما تم ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً وانحلت الدولة ووقع السيف..."

¹ - ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص 478-479، نفس النص نجده عند : ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج5، ص 2495.

الملحق رقم 03 : كتاب حسن صباح إلى السلطان ملكشاه السلجوقي¹:

"...والآن اشرح شيئاً من أحوالي واعتقادي متمنيا أن يصغي السلطان إليّ و يعيرني فكره وألا يشاور في أمري من أركان دولته لا سيما ((نظام الملك)) لأن عدائي وخصومتي معهم غير خافية على السلطان، ثم بعد ذلك لا بد لي ولا مفر من اتباع رأي الملك المطاع الذي يحصل لديه كلامي ويتحققه من كتابي، وإذا خالفت أنا حسن ذلك الرأي السديد فإنني أعد نفسي خارجاً عن دين الإسلام، أمّا إذا اتبع السلطان في أمري هؤلاء الخصوم فإنه يجب عليّ حينذاك أن أحتاط لنفسي وأفكر في أمري لأن أمامي خصماً قوياً يجعل الباطل حقاً ويضع الحق محل الباطل، كما فعل كثيراً ولا سيما بالنسبة إليّ فلا يكن ذلك خفياً عن رأي السلطان وفكره، أما حال هذا العبد فإن أبي كان مسلماً على مذهب الإمام الشافعي المطلب، ولما بلغت الرابعة من عمري أرسلني أبي إلى المكتب لتحصيل العلوم ولم أبلغ الرابعة عشر حتى مهت في سائر أنواع العلوم ، خصوصاً علوم القرآن والحديث، ثم جاء دور الدين، فنظرت في كتب الشافعي فرأيت في فضل أولاد النبي صلى الله عليه وسلم، وآله وإمامتهم روايات كثيرة، فملت إلى جانبهم وأصبحت أفحص وأتجسس وأفتش عن إمام الوقت، ثم بلغ بي الحال بواسطة حكام العصر أن وقعت في أعمال الدين التي يستكبرها ويستعظمها الناس حتى نسيت تلك الفكرة وغفلة عن ذلك الجد والعمل الأولى وأصبح قلبي كله منصرفاً إلى الدنيا وخدمة المخلوق، أما عمل الآخرة فقد جعلته ورائي ظهرياً ولكن الله تعالى لم يرض لي بذلك فحرك عليّ خصمائي حتى أخرجوني منه بالقهر والاضطراب فهربت وسحت في البلدان والصحاري وقد لحقتني من ذلك أتعاب وزحمت كثيرة .

كما لم يخف على السلطان حالي مع نظام الملك، ولمّا أخرجني الله من تلك الهلكة علمت أن الإعراض عن الخالق والتوجه إلى المخلوق لا يثمر إلا كما أثمر لي، لذلك قمت بعزم الرجال إلى العمل الديني وطلب الآخرة وانتقلت من الري إلى بغداد وأقمت هناك مدة غير قصيرة حتى اطلعت على الأحوال والأوضاع وتفحصت من حال الخلفاء وزعماء الدين فرأيت

¹ - الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص 106-109.

أن هؤلاء العباسيين خارجون عن مراتب المروءة والفُتوة الإسلامية حتى أيقنت أن بناء الإسلام والديانة إن كان قائما على إمامة هؤلاء وخلافتهم فإن الكفر والزندقة أولى وأحسن من ذلك الدين، فغادر بغداد إلى مصر وفيها خليفة الحق المستنصر بالله ففتشت حاله وقست خلافته بخلافة العباسيين فرأيت أنه أحق فأقررت به ورفضت خلافة العباسيين، لذلك فقد أرسلوا بنو العباس إلى أمير الجيوش ثلاثة بغال ذهباً عدا سواها من الأموال والهدايا وأوعزوا إليه أن يرسل إليهم حسن الصباح أو يبعث إليهم برأسه، وحيث إن عناية المستنصر كانت تشملني يومذاك فقد نجوت من تلك الهلكة، ثم لما كان العباسيون قد حركوا أمير الجيوش وأغروه بالأموال ارتأى ترشيحي إلى الروم داعياً الإفرنج والكفار إلى دين الحق، ولما سمع الإمام بذلك جعلني في كنفه وتحت رعايته ثم بعد ذلك دفع إلي منشورا وأمرني بإرشاد الناس إلى طريق الحق بكل ما أوتيت من قوة ومعرفة، وأن أطلعهم على إمامة خلفاء مصر وحقيقتهم، فإذا نظر السلطان إلى سعادة ((أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ))¹، فلا بد له أن يعرض".

وجاء في الرسالة أنه قال: "بل إن هذا الدين الذي أنا عليه اليوم هو الذي كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وسيبقى هذا مذهب الحق حتى يوم القيامة، والآن فإن ديني هو دين الإسلام. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله. لم ألتفت إلى الدنيا ولا إلى أعمالها بل كل عمل أعمله وكل قول أقوله لم يكن إلا خالصا مخلصا لدين الحق، وإني لأعتقد أن أولاد النبي صلى الله عليه وسلم، أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم، فإن رضيت أنت (ملكشاه) أن تكون هذه المملكة العظيمة التي تحملت في قبضها واستملاكها هذه الزحمت والمشقات الكثيرة وبذلت نفوس هاتيك الجنود المجندة حتى ملكتها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ومن محاذاة القطب الشمالي إلى الهند - تصبح خارج من أيدى أولادك ويصبح أولادك مشردين في أنحاء المعمورة أينما وجدوا قُتلوا وصلُّبوا.

أقول: إذا رضيت بهذا فسترضى بالخلافة لهؤلاء، فكيف ببني العباس وهم أناس أذكر لك قليلا مما شاهده أنا بنفسي منهم فأقول: إنهم في كل دين وملة لا يرتضيهام كل أحد ولن

¹ - سورة النساء الآية: 59.

يرتضيهم وإذا حصل من لم يقف على حالهم فيعتقد بهم ويرى أحقية خلافتهم فإني قد وقفت على أعمالهم وأحوالهم كيف يسوغ لي أن أقبلهم وأعتقد بأحقيتهم ؟ فإذا كان السلطان بعد اطلاعه ووقوفه على هذا الحال لن ينهض إلى دفعهم ورفع شرهم عن رعوس المسلمين فإني لا أعلم كيف يجيب ربه يوم القيامة عندما يسأله عنهم ؟ وكيف ينجوا من جوابه؟ هذا هو ديني منذ كنت وما دمت حيا، لم أنكر ولا أنكر الخلفاء الراشدين الأربعة ولا العشرة المبشرة بل إن حبهم في قلبي كان ويكون وهو كائن، ولم أجد دينا جديدا لم أكن أتخذ قبلا ولم أظهر دينا ومذهبا لم يكن قبلي، وإن مذهبي هو مذهب الصحابة الذين كان لدى الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وسيكون إلى يوم القيامة، والآن نأتي إلى القول بأني وأتباعي قد عصينا بني العباس وطغينا عليهم: إن كل مسلم مطلع عارف بدينه وملته، كيف لا يشنع على قوم بدؤهم ونهايتهم كان وهو كائن وسيكون على التزوير والتدليس والفسق والفجور والفساد، وإن أحوالهم وأفعالهم وإن لم تكن مستورة ومختفية على العالم، غير أنني أجملها لتكون لي الحجة على حضرة السلطان، نذكر أولا أعمال أبي مسلم الخرساني، ذلك الرجل الذي سعى ذلك السعي الحثيث وتحمل تلك الزحمات العظيمة، ولم يبق من عقله وتدبيره وقوته حتى قصر يد ظلمة بني مروان عن إراقة الدماء و أخذ أموال الناس وأزال عن بيت النبوة الطاهرة ذلك اللعن¹، الذي كان أليق بهم من آل الرسول، ورفع الظلم عن الدنيا، ثم أقامها بالعدل والإنفاق، انظر إلى هذا الرجل المحسن كيف غدروا به حتى أراقوا دمه ظلما وقتلوا الألوفا من أولاد رسول الله الطاهرين في أطراف البلاد وأكنافها، وخلفوا الآخرين مشردين وفي الزوايا مختفين حتى خلع بعضهم ثوب السيادة حفظا لأرواحهم ومات الكثير منهم على ذلك الحال ولم يعرفوا .

ثم لم يبلغوا الخلافة ((أي بنو العباس)) حتى شغلوا بشرب المدام والزنى واللواط، وقد بلغ فسادهم إلى أن هارون الرشيد وهو أعلمهم وأفضلهم كان يحضر النساء مجلس شرابه ولم يمنع ندماءه من ذلك المجلس، حتى أن جعفر بن يحيى البرمكي الذي كان من المقيمين في مجلسه قد تصرف - أو قل زنى - باخت الرشيد ((العباسية)) وولدت منه ولدا أخفوه عن الرشيد إلى

¹ - هذه من الروايات التاريخية الموضوعة و الضعيفة ،و نلاحظ توظيف حسن الصباح لأكاذيب أسلافه لإضلال الناس ،و نرى حقارة أخلاق الباطنية في بهتان رموز الأمة و أركانها كهارون الرشيد و غيره و الدفاع عن المجرمين .

أن حج في السنين ورآه هناك فقتل جعفر، وكانت له أخت أصغر منها فائقة الحسن والجمال قد قربها إليه ذات يوم وزنى بها¹، ومن اللطائف المشهورة : أن الأمين ابن الرشيد لما ولي الخلافة بعد أبيه قرب هذه الجميلة إليه وهي عمته فزنى بها ظاناً أنها لم تنزل بكراً، ولما سألها عن ذلك، أجابت أي بكر في بغداد لم يفضها أبوك حتى يدع أخته بكراً²، وبالجمله فلوا أردنا تعداد أعمال هؤلاء لما وفي العمر بعددها، وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون وهؤلاء هم أركان المسلمين الذين بهم يكون قوام الملك والملة ونظام الدين والدولة، فلتعط النصف إذا طعنت بهم أنا أو طعن بهم غيري، إننا عصيناهم فهل هذا حق منا أم باطل ؟ وأما القول : بأننا أغرينا الجاهل، فإن من الواضح عند أرباب البصائر أن ليس من شيء أشرف من الروح وما من أحد يعاف نفسه ولا سيما رجل مثلي قليل البضاعة قليل الاستطاعة في إنجاز مثل هذا العمل " .

¹ - هذه من الأكاذيب التي دست في سيرة هارون الرشيد.

² - من الأكاذيب والأباطيل .

الملحق رقم 04: نص لرسالة رد فيها ثابت بن سنان الباطني على تهديدات نور الدين محمود¹.

"وكان بينه-نور الدين-وبين أبي الحسن سنان بن سلمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية، مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتابا يتهده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتا ورسالة، هما:

يَا ذَا الَّذِي بِقِرَاعِ السَّيْفِ هَدَدْنَا	لَا قَامَ مَصْرَعُ جَنْبِي حِينَ تَصْرَعُهُ
قَامَ الْحَمَامُ إِلَى الْبَازِي يَهْدُّهُ	وَاسْتَيْقَظْتُ لِأَسْوَدِ الْبَرِّ أَضْبُعُهُ
أَضْحَى يَسْدُ فَمِ الْأَفْعَى بِإِصْبَعِهِ	يَكْفِيهِ مَا قَدْ تَلَاقَى مِنْهُ إِصْبَعُهُ

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ما هَدَدْنَا به من قوله وعمله، فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تُعَدُّ في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون، فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين، أَوْ لِلْحَقِّ تَدَحُّضُونَ، وللباطل تتصرون؟ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وأما ما صدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أمانى كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم بين قوى وضعيف، ودنيء وشريف؟ وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ((ما أُوذِيَ نَبِيٍّ ما أُوذِيَ)) ولقد علمتم ما جرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال، والأمر ما زال، والله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون، ومغصوبون ولا غاصبون، وإذ جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، وما يتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت،

¹ - ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص 185-187.

((فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ))¹، وفي أمثال العامة السائرة : أو للبط تهددون بالشط؟ فهَيَّ لِلْبَلَايا جَلابابا،
وتدفع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك، لأفتتنهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حقه
بظُلفه ، والجادع مارنَ أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز...² .

¹-سورة الجمعة الآية: 6- 7

²- وقد ذكر ابن خلكان في نهاية الرسالة مانصه: "وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيه
في نسخة زيادة على هذا، وهي: فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، وأقرأ أول
النحل وآخر صاد، والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و الله أعلم" ينظر: ابن خلكان ،
المصدر السابق ، ج5، ص187.

الملحق رقم 05: جدول بأسماء مُدرّسي النظاميات من خلال كتاب البداية والنهاية لابن كثير ج 6 ومرتبين حسب تاريخ الوفاة.

اسم المدرس	صفته وتخصصه	تاريخ الوفاة	المدرسة	بعض مؤلفاته	الجزء والصفحة
أبو إسحاق الشيرازي	فقيه - مدرس -	396-476هـ / 1005م-1083م	بغداد	-المهذب في المذهب -التنبيه -النكت في الخلاف -اللمع في أصول الفقه.	518
أبو نصر بن صباغ	فقيه - مدرس -	400-477هـ / 1009م-1084م	بغداد	-الشامل في المذهب -العمدة في أصول الفقه	520
أبو سعد عبد الرحمن بن محمد المأمون المعري	فقيه مدرس -	426-478هـ / 1034م-1085م	بغداد	-الابانة - التتمة	521
أبو بكر الفوركي	واعظ	415-478هـ / 1024م-1085م	بغداد		521
أبو المعالي الجويني	فقيه -مدرس خطيب واعظ- متكلم	419-478هـ / 1027م-1085م	نيسابور	نهاية المطلب في دراية المذهب البرهان في أصول الفقه العقيدة النظامية	521.
أبو القاسم الدبوسي	فقيه- تولى التدريس و الجدل	ت 482 هـ / 1089م	/	/	528
أبو محمد	فقيه تولى	ت 500 هـ /	بغداد	/	558

			1006م	التدريس سنة 483هـ	الشيرازي الفارسي
561	له كتاب يرد فيه على ما انفرد به الإمام أحمد	نيسابور بغداد	450-504هـ/ 1058م-1110م	معيد مدرس و مفتي و مناظر	إلكيا الهراسي
562	إحياء علوم الدين فضائح الباطنية و فضائل المستظهرية	بغداد ثم نيسابور	450-505هـ/ 1058م-1111م	درس وناظر سنة 484هـ	أبو حامد الغزالي
563	حلية العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء	بغداد	427-507هـ/ 1035م-1113م	مدرس عزل سنة 506هـ	أبو بكر الشاشي
584	لباب الإحياء الذخيرة في علم البصيرة	بغداد	ت 520هـ/ 1125م	مدرس و واعظ	أبو الفتح الطوسي الغزالي
563	/	بغداد		مدرس سنة 506هـ	ابن الطبري
568	/	بغداد	467-510هـ* 1074م-1116م	واعظ	أبو بكر السمعاني
575	/	بغداد	ت 514هـ/ 1120م	جلس و تكلم في النظامية عن الحنابلة ووعظ	أبو نصر القشيري
584	/	بغداد	ت 520هـ/ 1125م	درس بالنظامية أقل من شهر	أحمد بن علي بن محمد الوكيل
577	تعليقة الخلاف	بغداد	ت 523هـ/ 1128م	درس	أسعد بن أبي نصر الميهني أبو الفتح
590.	/	بغداد	ت 525هـ/ 1130م	فقيه درس	ابن الفتى أبو علي
592.	الطريقة في الخلاف	بغداد	ت 527هـ/ 1132م	درس ما بين 507-513هـ	أسعد بن أبي نصر بن أبي

الفضل					
أبو سعد الخندي	فقيه درس ووعظ	ت 531 هـ / 1136م	بغداد	/	598
أبو منصور الرزاز	فقيه درس	ت 539 هـ / 1144م	نيسابور	/	606
أبو زكريا التبريزي	درس اللغة		بغداد	/	606
أبو منصور الحواليقي	درس اللغة	ت 540 هـ / 1145م	بغداد	/	606
أبو بكر الخندي	فقيه درس ووعظ	ت 552 هـ / 1157م	بغداد	/	622
أبو النجيب السهروردي	فقيه درس وافتي بالنظامية	ت 563 هـ / 1167م	بغداد أصبهان	/	638
المبارك بن المبارك الكرخي	فقيه مدرس	ت 585 هـ / 1189م	بغداد	/	ج 7 ص 42
أبو الخير القزويني	درس و وعظ	ت 590 هـ / 1193م	بغداد	/	ج 7 ص 66
أبي منصور سعيد بن محمد الرزاز				/	
أبو علي يحيى بن حراز الواسطي	مدرس و معيد	ت 606 هـ / 1209م	بغداد	كتاب التفسير اختصار تاريخ الخطيب و الذيل عليه لابن السمعاني	ج 7 ص 109

الملحق رقم 06: جزء من نص الكتاب الذي أرسله نور الدين محمود للخليفة العباسي المستضيء يبشره بعودة مصر إلى حضيرة أهل السنة¹.

"ولما وصل خبر ذلك² إلى نور الدين ندب بالبشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المظهر بن أبي عَصْرُون، وكتب معه نسخة بشارة تُقرأ بكل مدينة يمر بها، يقول فيها: "أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا مِنْهَاجَهُ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدولة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية، مصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد وإلى قُوص وأُسُون بأقصى الصَّعيد، وهذا شَرَفٌ لزماننا هذا وأهله، يُفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما بَرِحَت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعَزَائِمُنَا في إقامة الدَّعوة الهادية بها ماضية، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا ونجاز مواعيدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وَقَدَرْنَا عليها وقد عَجَزُوا عنها. وطالما مَرَّت عليها الحَقَب الخوالي وأبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوى المبطلين، مملوءة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضلال، مقفرة المَحَلِّ إلا من المحال، مفتقرة إلى نُصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعة يدها في إشكائها، متظلمة إليه ليكفَل بإعدادها على أعدائها، حتى أَذِنَ الله لِعُمَّتِهَا بالانفراج، وَلَعَلَّتْهَا بالعلاج، وَسَبَّبَ قِصْدَ الفرنجة لها وتَوَجَّهَهُم إليها طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الرُّوعة، فمَلَكْنَا الله تلك البلاد ومَكَّنَ لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمِّلُه في إزالة الإلحاد والرِّفْض، من إقامة الفَرَض، وتقدُّمنا إلى من استتبَّناه أن يستفتح باب السَّعادة، ويستجح مالنا من الإرادة ويقيم الدَّعوة الهادية العباسية هناك ويورد الأدياء ودعاة الإلحاد بها المهالك".

¹ - أبو شامة، الروضتين، ج2، ص203 - 204.

² - خبر قطع الخطبة للعاضد العبيدي بمصر وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله.

قائمة المصادر

والمراجع

-القرآن الكريم.

¹-أبو داود السجستاني، سنن أبي داود ، (تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد)، ج3، المكتبة
العصرية ، بيروت، دت.

أولاً- المصادر :

1. ابن أبو الوفا القرشي محي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن سالم
الحنفي(ت775هـ/1373م) ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، تحقيق : عبد الفتاح محمد
الحو، هجر للطباعة و النشر ، مصر ، ط2، 1993.
2. ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم الشيباني الجزري(ت630هـ/1232م)، الكامل
في التاريخ، تحقيق:محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987.
3. _____ ،التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق: عبد القادر أحمد
طليمات، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دت.
4. ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ/1200م) ، صفة الصفوة ،
ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، 1934.
5. _____ ،المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق:محمد عبد القادر
عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1992.
6. _____ ، مناقب بغداد، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار غريب
للطباعة و النشر ، القاهرة ، د ت ط.
7. _____ ، القرامطة، تحقيق:محمد الصباغ، منشورات المكتب الإسلامي ،
بيروت، ط3، 1970.
8. ابن الشحنة أبو الفضل محمد (ت890هـ/1484م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ،
تقديم: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، سوريا ، 1984.
9. ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان(ت542هـ/ 1147م)، الإشارة إلى من نال
الوزارة، تحقيق:عبد الله مخلص، بيت المقدس ، 1923.
10. ابن الطباخ محمد راغب بن محمود الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ،تحقيق: محمد
كمال ، منشورات دار القلم العربي ، حلب ، ط2، 1988.
11. ابن الطوير أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني(ت617هـ/1220م)، نزهة
المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، دار صادر بيروت، ط1، 1992.

12. ابن العبري أبو الفرج غريغوريوس ابن هارون بن توما الملطي (ت 685هـ/1286م) ، تاريخ مختصر الدول ، تصحيح : أنطوان صالحاني اليسوعي ، دار الرائد اللبناني ، ط2، لبنان، 1983.
13. ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت 660هـ/1262م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق : سهيل زكار ، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1997.
14. _____ ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق: سامي الدهان ، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، دت .
15. _____ ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر العربي، بيروت ، 1988.
16. ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق: عبد القادر الأرنبوط، محمود الأرنبوط، دار ابن كثير ،بيروت، ط1، 1989.
17. ابن القلانسي أبو يعلى حمزة ابن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت 555هـ/1072م)، ذيل تاريخ دمشق ، مكتبة المتنبي، القاهرة، دت.
18. ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق الوراق البغدادي (ت 438هـ/1047م)، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، دار المعارف للطباعة، تونس، 1994.
19. ابن النظام الحسيني محمد بن محمد بن عبد الله (ت 743هـ/1342م)، العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة وتحقيق: عبد النعيم محمد حسنين، حسن أمين، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1979.
20. ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت 779هـ/1377م)، رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، المطبعة الخيرية، ط1، 1904.
21. ابن بيبلي، أخبار سلاجقة الروم-مختصر سلجوق نامه-، ترجمة: محمد السعيد جمال الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 1993.
22. ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.
23. _____ ، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1997
24. ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ/1327م)، درر التعارض العقل والنقل،

- تحقيق: محمد رشاد سالم ، ط2، إدارة الثقافة والنشر لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،
السعودية ، 1991.
25. _____، **مجموع فتاوى ابن تيمية**، ترتيب: عبد الرحمن محمد بن قاسم ،
مكتبة المعارف، المغرب ، د ت .
26. ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد الكناي (ت 614هـ - 1217م)، **رحلة ابن جبير**، دار
صادر، بيروت، د ت .
27. ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت 852هـ / 1448م) ، **رفع الإصر عن
قضاة مصر** ، تحقيق: علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1، 1989.
28. ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي (ت 628هـ / 1231م)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**،
تحقيق: التهامي نقرة، وعبد الحليم عويس، دار الصحوة ، القاهرة، 1980،
29. ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت 367 هـ / 977 م)، **صورة الأرض** ، دار مكتبة الحياة ، بيروت،
1992.
30. ابن خلدون عبد الرحمن (ت 808هـ / 1406م)، **المقدمة** ، دار الفكر العربي ، بيروت،
2004.
31. _____، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به :أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية ،
الأردن ، د ت .
32. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين (ت 681هـ / 1282م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**،
تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، 1969 .
33. ابن دقماق صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني (ت 809هـ / 1407م)، **الانتصار
لواسطة عقد الأمصار**، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت ، د.ت .
34. ابن رجب زين الدين عبد الرحمان بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي
الدمشقي الحنبلي (ت 795هـ / 1392م) ، **الذيل على طبقات الحنابلة** ، تحقيق : عبد الرحمن بن
سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط1، 2005.
35. ابن سنان ثابت ، **تاريخ أخبار القرامطة** ، تحقيق : سهيل زكار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت،
1971.
36. ابن شداد بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت 632هـ / 1234م)، **النوادر
السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق : جمال الدين الشيال، الدار
المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط1، 1964.

37. ابن شداد عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر
أمرأء الشام والجزيرة ، تحقيق: يحيى زكريا عبادة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1991.
38. ابن طباطبا محمد بن علي بن محمد العلوي (ت709هـ/1309م)، الفخري في الآداب السلطانية
والدول الإسلامية، مطبعة مرسو، باريس ، 1894.
39. _____، الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر، بيروت، دت.
40. ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه الدمشقي الصالحي الحنفي
(ت953هـ/1546م)، إنباء الأمرأء بأنباء الوزراء ، (تحقيق: مهنا محمد مهنا)، ط1، دار البشائر
الإسلامية، بيروت، 1998.
41. _____، الأئمة الاثني عشر، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، دار
صادر، بيروت، 1958.
42. _____، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، (تحقيق : محمد أحمد
دهمان)، مجمع اللغة العربية ،دمشق، ط2، 1980.
43. ابن عذارى المراكشي (ت695هـ/1295م) ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،
تحقيق: ج س كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت، ط3، 1983.
44. ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت571هـ/1175م)، تاريخ دمشق
، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر، دار الفكر، بيروت، 1995 .
45. ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري المالكي (ت799هـ/1396م) ، الدباج
المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق : مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب
العلمية، بيروت، ط1، 1996.
46. ابن فضلان أحمد بن العباس بن راشد بن حماد (ت القرن 3هـ/9م)، رسالة ابن فضلان، تحقيق:
سامي الدهان، دمشق، 1959.
47. ابن قاضي شهبة أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين
الدمشقي (ت851هـ/1448م)، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان ، مطبعة
مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط1، 1979.
48. _____، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، دار
الكتاب الجديد ، بيروت ، ط1، 1971.
49. ابن كثير عماد الدين أبو الفدا إسماعيل القرشي الدمشقي (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية،
تحقيق: محمد محمد تامر وآخرون، دار البيان العربي، القاهرة، 2006.
50. ابن مخزومة أبي عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت947هـ/1540)، تاريخ ثغر عدن وتراجم
علمائها، اهتم به: علي حسن علي عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ، 1987 ط2.

- 79 ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ/1029م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت.
- 51 ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي(ت711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت .
- 52 ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب(ت677هـ/1278م)، المنتقى من أخبار مصر، انتقاء: المقرئزي، تحقيق : أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981.
- 53 ابن ميماتي أسعد (ت606هـ/1209م)، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 1991.
- 54 ابن هانئ أبي القاسم محمد بن سعدون الأندلسي(ت362هـ/972م) ، ديوان ابن هانئ الأندلسي، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت، 1980
- 55 ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت659هـ/1260م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق:جمال الدين الشيال ، القاهرة 1953.
- 56 ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق: محمد زينهم ، محمد عزب ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1988.
- 57 أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبى، القاهرة ،دت .
58. _____، التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، ط1 ، 1995 .
59. أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ،تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تعليق: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2002.
60. _____، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1997.
61. الثعالبي أبو منصور (ت429هـ/1038م)، تحفة الوزراء ، تحقيق : سعد أبو دية، ط1، دار البشير، عمان، 1994.
62. إدريس عماد الدين القرشي(ت872هـ/1467م)، كتاب عيون الأخبار، السبع الخامس وقسم من السبع السادس، بعنوان: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

63. الأربلي بهاء الدين أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت693هـ/1293م)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، تحقيق: السيد هاشم الرسولي، المطبعة العلمية، قم، 1960.
64. الأزدي جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين (ت613هـ/1216م)، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: عصام هزيمة وآخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1999.
65. الأصفهاني عماد الدين (ت597هـ/1201م)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس، مكتبة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005.
66. _____، البرق الشامي-سيرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، تحقيق: رمضان ششن، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، د ت .
67. _____، الفتح القسي في الفتح القدسي، أو حروب صلاح الدين، دار المنار، ط1، 2004.
68. البطاحي جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون (ت588هـ/1191م)، نصوص من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1983.
69. البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد الاسفرائيني التميمي (ت429هـ/1037م)، الفرق بين الفرق، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1997.
70. البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955.
- 80 بن أحمد العرشي حسين، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1939.
71. البنداري أبو الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني أبو إبراهيم (ت643هـ/1245م)، سنا البرق الشامي، - مختصر البرق الشامي في سيرة السلطان صلاح الدين للعماد الأصفهاني-، تحقيق: رمضان ششن، مركز الأبحاث التاريخية والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، 2004.
72. _____، تاريخ دولة آل سلجوق، قراءة وتقديم: يحيى مراد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
73. الجبرتي عبد الرحمن بن حسن برهان الدين (ت1240هـ/1825م)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997.

74. جعفر الصادق (ت 148هـ/765م) ، مناظرة الإمام جعفر الصادق ، تحقيق: علي بن عبد العزيز ، دار الوطن ، الرياض ، ط1، 1996
75. الجندي أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب السكسكي الكندي (ت732هـ/1331م)، السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق: محمد بن الأكوع الحوالي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء، ط1، 1993.
- 81 الحجاري عبد الله بن إبراهيم وآخرون، النجوم الزاهرة في حُلَى حُضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حُلَى المغرب ، تحقيق : حسين نصار، مطبعة دار الكتب ، مصر، 1970.
- 82 الحريري أحمد بن علي، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين، تحقيق: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح ، 1981.
- 83 الحسيني صدر الدين أبو الحسن علي بن أبو الفوارس ناصر بن علي (توفي بعد 622هـ/1224م)، زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، لاهور، 1933.
- 84 الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1228م) ، معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.
- 85 _____ ، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، 1977..
- 86 الحميري محمد بن عبد المنعم (ت900هـ/ 1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط2، 1984.
- 87 خسروا ناصر، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ط2، 1993.
- 88 الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ/1070م) ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق: محمد السعيد ابن بسيوني زغلول الأبياني، دار الكتب العلمية ، بيروت. ط1، دت.
- 89 خواندمير محمد بن خواندشاه (ت903هـ/1497م)، روضة الصفا في سيرة الملوك والأنبياء والخلفاء، ترجمة: أحمد عبد القادر الشاذلي ، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، 1988.
- 90 الداودي الحسيني، جمال الدين أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا بن عنبه الحيدري (ت828هـ/1424م)، عمدة الطالب في أنساب أبي طالب ، تحقيق : نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د ط ت .
- 91 الدواداري أبو بكر بن عبد الله بن أبيك (تاريخ الوفاة غير معروف)، كنز الدرر وجامع الغرر أو الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1972.

- 92 الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت784هـ/1374م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرق سوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1، 1982.
- 93 _____ ، العبر في خبر من عبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1985.
- 94 _____ ، جامع أخبار النساء من سير أعلام النبلاء ، مع تراجم الجزء المفقود من السير، جمع وتحقيق: أبي عبد الرحمن خالد بن حسين بن حسين بن عبد الرحمن، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 2004.
- 95 _____ ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، دت.
- 96 _____ ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، ط10، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1994.
- 97 الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (توفي بعد 603هـ/1206م)، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي، عبد النعيم محمد حسنين ، فؤاد عبد المعطي الصياد)، دار القلم، القاهرة، دت.
- 98 الزبيدي المرتضى (1205هـ/1790م)، ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين منجد، دار الكتاب الجديد ، بيروت، ط2، 1983.
- 99 سبط ابن الجوزي أبو المظفر يوسف بن فز أوعلي بن عبد الله (ت654هـ/1255م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: علي سويم ، مطبعة الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة، 1968.
- 100 السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت771هـ/1369م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، دت.
- 101 السخاوي أبي الحسن نور الدين علي بن أحمد ابن عمر بن خلف بن محمود ، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، مراجعة: محمود ربيع وحسن قاسم ، مطبعة العلوم والآداب القاهرة ، ط1، 1937.
- 102 السمعاني أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ/1166م)، الأنساب، تحقيق: محمد عوامة ، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، 1980.
- 103 السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005.

- 104 _____ ، **ذم المكس** ، تحقيق :مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، القاهرة، 1991.
- 105 _____ ، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1967 .
- 106 الشرقاوي عبد الله بن حجازي بن إبراهيم(ت1227هـ/1811م)، **تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلطين**، تحقيق : رحاب عبد الحميد القاري، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.
- 107 الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، **آداب البحث والمناظرة** ، تحقيق : سعود بن عبد العزيز العريفي، دار علم الفوائد ،مكة المكرمة ، ط1، 1426هـ .
- 108 الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت548هـ/1153م)، **الملل والنحل**، تحقيق:أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1992.
- 109 الشيرازي المؤيد في الدين(ت470هـ/1087م)، **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة**، تقديم :محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1949.
- 110 الشيرازي هبة الله (ت1098هـ/1686م)، **رسالة الدوحة ضمن كتاب : ثلاث رسائل إسماعيلية** ، تحقيق : عارف تامر، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط1، 1983.
- 111 الصابي أبو الحسين هلال بن المحسن ابن إبراهيم (ت448هـ/1056م) ، **تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، ويليه الجزء الثامن من كتاب التاريخ ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت، 1904.
- 112 الصرفي رزق الله منقريوس، **تاريخ دول الإسلام**، مطبعة الهلال، مصر، 1907.
- 113 الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: محمد بن محمود، إبراهيم بن سليمان، دار صادر، بيروت، ط3، 1991.
- 114 الطباخ الحلبي محمد راغب بن محمود بن هاشم ، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، ط1،المطبعة العلمية، حلب، 1925.
- 115 الطبري أبو جعفر ابن جرير(ت310هـ/922م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط3، دت.
- 116 الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، **سراج الملوك** ، تحقيق : محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة، ط1، 1994،

- 117 العاصمي عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (ت 1111هـ/1699م) ، سمط النجوم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998 ،
- 118 العلمي مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن محمد الحنبلي (ت 928هـ/1522م) ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تحقيق : عدنان يونس عبد المجيد أبو تيانة ، مكتبة دنديس ، الأردن ، ط1 ، 1999 .
- 119 عُمارة اليمني نجم الدين أبي محمد (ت 569هـ/1173م) ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، (مراجعة: هرتويغ درنبرغ) ، مطبعة مرسو ، باريس ، 1897 .
- 120 الغزالي أبو حامد محمد الطوسي النيسابوري (ت 505هـ/1111م) ، التبر المسبوك في نصائح الملوك ، (ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1988 .
- 121 _____ ، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، تحقيق : إيهاب كمال ، الحرية للنشر ، القاهرة ، 2006 .
- 122 الفاسي محمد بن أحمد بن علي تقي الدين أبو الطيب المكي الحسيني (ت 832هـ/1429م) ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط2 ، 1986 .
- 123 الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت 818هـ/1415م) ، القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط3 ، 1980 .
- 124 القاضي النعمان بن محمد المغربي (ت 363هـ/974م) ، افتتاح الدعوة ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، لبنان ، 2005 .
- 125 _____ ، افتتاح الدعوة ، (تحقيق: فرحات الدشراوي) ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1985 .
- 126 _____ ، المجالس والمسائرات ، تحقيق : حبيب الفقي و آخرون ، دار المنتظر ، بيروت ، دت .
- 127 _____ ، الهمة في آداب اتباع الأئمة ، تحقيق : محمد كامل حسين ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1948 .
- 128 _____ ، دعائم الإسلام ، تحقيق : آصف بن علي أصغر فيضي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 ،
- 129 القزويني حمد الله أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن نصر ، تاريخ كزيده ، تحقيق : أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله منير الطرازي ، دار المعارف ، مصر ، 1995 ،

- 130 القزويني زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، دت ،
- 131 القضاعي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي المصري الشافعي (ت454هـ/1061م)، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق:أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
- 132 القلقشندي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق ، عبد القادر زكار ، منشورات دار الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، 1983.
- 133 _____ ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914.
- 134 الكليني محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي(ت329هـ/940م) ، الكافي في أصول الروضة، (شرح: علي أكبر الغفاري)، مكتبة الإسلام، طهران، 1961.
- 135 الماودري أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ،تحقيق:أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة ، الكويت، ط1 ، 1989،
- 136 محمد بن تقي الدين عمر شاهنشاه الأيوبي (ت 617 هـ)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق:حسن حبشي، عالم الكتب ، القاهرة ، 1968.
- 137 المزي يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي(ت742هـ/1341م) ، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق:بشار عواد معروف ،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1994.
- 138 المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري(ت380هـ/990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991 ط3،.
- 139 مقديش محمود بن سعيد الملقب بأبي الشتاء الصفاقسي(ت1228هـ/1813م)، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق : علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1، 1988
- 140 المقرئزي تقي الدين علي بن أحمد (ت845هـ/1441م) ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق : محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- 141 _____ ، إغاثة الأمة بكشف الأمة ،(تحقيق : بدر الدين السباعي) ،دون دار النشر والبلد ، ط1، 1956.

- 142 _____ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997.
- 143 _____ ، المقفى الكبير ، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991.
- 144 _____ ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997،
- 145 _____ كتاب المقفى الكبير - تراجم مشرقية و مغربية من الفترة العبيدية-، اختيار وتحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1987.
- 146 الملك الأمجد الحسن بن الملك الناصر ، نسب الأيوبيين ، تحقيق :صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1978.
- 147 المنصوري ببيرس، مختار الأخبار الأيوبية، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993.
- 148 النرشخي أبي بكر محمد بن جعفر (ت348هـ/959م) ، تاريخ بخارى، ترجمة وتحقيق: أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف ،القاهرة ، ط3، 1965.
- 149 نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي(ت485هـ/1092م)، سير الملوك أو سياسية نامة ، ترجمة: يوسف بكار، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، 2012.
- 150 النعيمي عبد القادر بن محمد الدمشقي(ت 978هـ/1570م) ، الدارس في تاريخ المدارس ، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1، 1990
- 151 النوبختي أبو محمد الحسن بن موسى(توفي أواخر ق 3هـ/9م) ، فرق الشيعة ، تحقيق: عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط1، 1992،
- 152 النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي(733هـ/1332م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004،
- 153 الهمداني محمد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد أبو الحسن المقدسي(ت521هـ/1127م) ، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان ، بيروت، د ت،
- 154 الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى(ت914هـ/1509م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والمغرب، إشراف محمد حجي وآخرون ، وزارة الشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، المغرب الأقصى، 1981 .

155 اليماني أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي المعافري (ت نحو 470هـ/1077)، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط1، 2006.

156 اليماني تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله (ت 743هـ/1342م)، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985.

ثانياً - المراجع العربية:

157. أبو العلاء محمد جميل، الباطنية وموقف الإسلام منهم، دار المعارف، مصر، ط1، 1989

158. أحمد عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1991.

159. أحمد محمود حسن، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط5، دت.

160. إسماعيل محمود، الحركات السرية في الإسلام، سينا للنشر، القاهرة، ط5، 1997

161. أشثاني عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة، 1990.

162. اقدير محمد سالم، العقائد الفلسفية المشتركة بين الفرق الباطنية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006.

163. إلهي ظهير إحسان، الإسماعيلية تاريخ وعقائد، إدارة ترجمان السنة، باكستان، دت ط.

164. _____، دراسات في التصوف، دار الإمام المجدد، مصر، ط2، 2005.

165. الأمين محسن، موسوعة أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، دت ط.

166. الأهل عبد العزيز السيد، أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1964.

167. أيوب إبراهيم رزق الله، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، بيروت، ط1، 1989.

168. باشا عمر موسى، الأدب في بلاد الشام زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ط2، 1972.

169. بدران عبد القادر، منادمة الأطلال و مسامرة الخيال ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق ، 1959م .
170. بدوي جمال ، الفاطمية دولة التفاريح والتباريح، دار الشروق ، القاهرة، ط1، 2004.
171. بدوي عبد المجيد أبو الفتوح ، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ط2، 1988،
172. بناني أحمد بن محمد ، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط3، 2005.
173. ببيضون إبراهيم ، تاريخ بلاد الشام ، دار المنتخب العربي، بيروت ، 1995.
174. البيطار أمينة، سهيل زكار، تاريخ الدولة العربية بالشرق، من السلاجقة حتى سقوط بغداد ، مطبعة جامعة، دمشق، ط3، 1999.
175. تامر عارف ، الإمامة في الإسلام، ط1، دار الأضواء ، لبنان ، 1998.
176. _____، تاريخ الإسماعيلية ، الدولة النزارية ، رياض الريس للكتب والنشر ، قبرص، ط1، 1991.
177. حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3 ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14، 1996،
178. حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، 1964.
179. حسين حمودة عبد الحميد ، تاريخ المشرق الإسلامي منذ ظهور السلاجقة حتى الغزو المغولي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2012.
180. حلمي أحمد كمال الدين ، السلاجقة في التاريخ والحضارة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ط1، 1975.
181. الحميدة سالم محمد ، الحروب الصليبية ، عهد الجهاد المبكر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ط1، 1990.
182. الحويري محمود محمد، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1992.
183. _____، مصر في العصور الوسطى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1996.
184. الخطيب محمد أحمد ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، دار عالم الكتب، الأردن ، ط3، 2007.

185. خليفة حاجي ، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، تصحيح: محمد شرف الدين، رفعت بيلكه ، دار إحياء التراث العربي ،بيروت، 1941.
186. الخميني، كشف الأسرار، ترجمة :محمد البنداري، تعليق: سليم الهلالي، دار عمار، عمان، ط1، 1987.
187. الزركلي خير الدين ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط15 ، 2000 .
188. زكي عبد الرحمن، القاهرة تاريخها وآثارها، الدار المصرية للترجمة والتأليف، 1966.
189. زيد سعيد عبد الحكم ، الشيعة الإمامية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط1، 2007.
190. السامرائي حسام الدين ، المؤسسات الإدارية ، دار الفكر العربي ، بغداد، ط2، دت.
191. سرور محمد جمال الدين ، تاريخ الدولة الفاطمية ، دار الفكر العربي ، القاهرة، 1995.
192. سعادة صفية، من تاريخ بغداد الاجتماعي في الفترتين البويهية والسلجوقية، دار أمواج ، لبنان، ط 1 ، 1988.
193. السلومي سليمان عبد الله ، أصول الإسماعيلية ، دار الفضيلة ، السعودية ، ط1، 2001.
194. سوزي حمود ، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت ط1، 2010.
195. سيد علي الحريري ، الأخبار السنية في الحروب الصليبية ، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط3، 1985.
196. الشاعر محمد فتحي ، الأكراد في عهد عماد الدين زنكي ، دار المعارف ، بور سعيد ، 1990.
197. شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه ، دار القلم ، دمشق ، ط1، 1998.
198. الشامي أحمد ، صلاح الدين والصليبيون، تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية القاهرة، ط1، 1991.
199. الشكعة مصطفى ، إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط14، 2000.
200. شلبي أحمد ، تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت، 1954.
201. شلبي محمود ، حياة صلاح الدين ، دار الجبل بيروت، ط3، 1989.
202. الشهابي قتيبة ، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدولة الإسلامية ، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا، 1995،
203. الشيال جمال الدين ، تاريخ الدولة العباسية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993.
204. _____، مجمل تاريخ دمياط ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1، 2000.

205. _____، مجموعة الوثائق الفاطمية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002.
206. _____، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، مصر، ط2، دت.
207. _____، أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، دار المعالي، الأردن، ط1، 1998.
208. الصاوي أحمد السيد، مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، بيروت، ط1، 1988.
209. صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، دت.
210. الصلابي علي محمد، دولة السلاجقة، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2007.
211. _____، صلاح الدين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2008.
212. _____، الدولة الزنكية، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2007.
213. ضيف شوقي وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004.
214. الطائي سعاد هادي حسن إرحيم، القراخانيون-دراسة في أصولهم التاريخية وعلاقاتهم السياسية-، دار صفحات، دمشق، ط1، 2016.
215. طعيمة صابر، العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها، المكتبة الثقافية، بيروت، ط2، 1991.
216. طقوش محمد سهيل، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس، بيروت، ط2، 2008.
217. _____، تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، بيروت، ط5، 2005.
218. _____، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2010.
219. _____، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط3، 2009.
220. _____، تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، دار النفائس، بيروت، ط2، 2010.
221. _____، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2007.
222. عاشور سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1996.

223. _____، الحركة الصليبية ، ج1 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ط2
1971.
224. _____، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ،
بيروت ، 1972.
225. العبادي أحمد مختار، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية ، بيروت،
د.ت.
226. _____، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ،
1995.
227. عبد العزيز سالم سحر السيد ، بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية،
مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، 2009.
228. عبيد علي إمام، حقيقة الفكر الشيعي وعوامل انتشاره ، الدار الإسلامية للطباعة
والنشر، مصر، ط1، 2008.
229. العريني السيد الباز ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، الأيوبيون ، دار النهضة
العربية، بيروت، 1967.
230. عزام خالد ، موسوعة التاريخ الإسلامي العصر العباسي ، دار أسامة للنشر، عمان ،
2009.
231. عزام عبد الرحمن ، صلاح الدين الأيوبي وإعادة إحياء المذهب السني، (ترجمة: قاسم
عبد قاسم)، دار بلومزبري ، قطر، ط2، 2013.
232. العزام عيسى، الشدة العظمى وأثارها على الخلافة الفاطمية، مجلة أبحاث اليرموك،
الأردن، 2001.
233. عشري عثمان عبد الحميد ، الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب
الصليبية، المكتبة التاريخية ، القاهرة ، 1983.
234. عطا الله خضر أحمد ، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي ، دار الفكر
العربي، القاهرة، ط1، 1989.
235. علال خالد كبير ، التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، دار المحتسب، الجزائر،
2008.
236. _____، صفحات من تاريخ أهل السنة والجماعة في بغداد، مطبعة هومة،
الجزائر، د ط ت.
237. _____، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرن 5-6 هـ،
ط1، دار الإمام مالك ، الجزائر ، 2005.

238. عمران محمود سعيد ، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، السويس ، 2000.
239. عنان محمد عبد الله، الحاكم بأمر الله و أسرار الدولة الفاطمية ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1983.
240. عوض محمد مؤنس ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ط1، 2000.
241. عوض محمد مؤنس أحمد ، في الصراع الإسلامي الصليبي -السياسة الخارجية للدولة النورية- ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، القاهرة ، ط1، 1998.
242. العياش سامي ، الإسماعيليون في المرحلة القرمطية ، دار بن خلدون، لبنان، د ت.
243. عيسى أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1981م.
244. غالب مصطفى، الحركات الباطنية في الإسلام، دار الأندلس ، بيروت ، د ت ط.
245. غانم زيان حامد زيان ، الصراع السياسي العسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1989.
246. الغزي كامل بن حسين بن محمد البالي الحلبي (ت 1351هـ/1932م) ، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج2، المطبعة المارونية، حلب، 1342هـ/1923م .
247. الفقي عصام الدين عبد الرؤوف ، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط1، 1999.
248. فكري أحمد ، مساجد القاهرة و مدارسها ، ج1، دار المعارف، القاهرة ، 1965.
249. فوزي فاروق عمر، الخلافة العباسية، السقوط والانهيال، ج2، ، دار الشروق، الأردن، ط1998.
250. قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ، عين للدراسات والبحوث الإسلامية ، القاهرة ، 1995.
251. القحطاني سعيد بن مسفر بن مفرح، الشيخ عبد القادر الجيلاني وأراءه الاعتقادية والصوفية ، مكتبة الملك فهد ، الرياض، ط1، 1997.
252. قمبر محمود ، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، دار الثقافة ، قطر ، 1985.
253. كرد علي محمد ، خطط الشام ، ج1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط3، 1983.
254. الكيلاني عبد الرزاق ، الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، دار القلم ، بيروت، ط2، 1994.

255. الكيلاني ماجد عرسان ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين و هكذا عادت القدس، دار القلم للنشر و التوزيع، دبي، ط3، ، 2002.
256. لقبال موسى ، المغرب الإسلامي ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
257. ماجد عبد المنعم، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1994.
258. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982.
259. محمد بهجت منى محمد بدر، أثر الحضارة السلجوقية في دول الشرق العالم الإسلامي على الأيوبيين والمماليك بمصر، ج1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، ، 2002.
260. محمد حسنين عبد النعيم ، سلاجقة إيران والعراق، المكتبة التاريخية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1970.
261. محمد رزق عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مديولي، مصر، ط5، 2000.
262. محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ط1، 2001.
263. محمد عطا زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، دار الأمين، القاهرة، ط1، 1994.
264. محمد علي وفاء، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية ، 1990.
265. محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1، 1959.
266. محمود حسن أحمد والشريف أحمد إبراهيم ، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1966.
267. مرمول محمد الصالح ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983.
268. مغزاوي مصطفى، البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر ، 2011.
269. ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم ، الجهود الحربية المشتركة بين السنة والشيعة ضد الصليبيين ، قنا، مصر، د ت.

270. مؤنس حسين، نور الدين زنكي، فجر الحروب الصليبية ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط2، 1984.
271. نادر ألبير نصري، مدخل إلى الفرق الإسلامية السياسية والكلامية، دار المشرق، بيروت، ط3، 1989.
272. الناشي عبد الباسط ، موسوعة التشيع ، الدار التونسية للكتاب ، تونس ، ط2، 2012.
273. الناصر محمد حامد، الجهاد والتجديد في القرن السادس هجري، مكتبة الكوثر، الرياض، ط1، 1998.
274. النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
275. الهمداني حسين بن فيض الله، حسن سليمان محمود، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط3، 1986.
276. يوسف إرشيد ، سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين 435-570هـ ، المؤسسة الصحفية الأردنية للرأي ، عمان، 1988.

ثالثا - المراجع الإستشراقية:

277. أرمينيوس فامبري ، تاريخ بخارى ، (ترجمة: أحمد محمود الساداتي)، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ، 1872.
278. ايرا لابدوس ، السياسة الدينية في عهد الأيوبيين وتطور المذاهب الشرعية في القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة، 1970.
279. بارتلود، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996.
280. باركر أرنست ،الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني ، دار النهضة العربية ، لبنان، 1964.
281. بروكلمان كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة ، نبيه أمين فارس ، منير بعلبكي ، دار العلم لملايين ، بيروت ، ط2، 1979.
282. الجوزي بندلي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ،تحقيق :محمود إسماعيل، ط1، دار رؤية للنشر، القاهرة ، 2006.
283. دفترى فراهيد ، خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين ، ترجمة : سيف الدين القصير، دار المدى للثقافة و النشر، دمشق ، 1996.

284. زابروف ميخائيل ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، 1980.
285. السوري وليم ، الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، ج1، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991 .
286. غنيم أسمت، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1990.
287. كاهن كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة : أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995.
288. كليفرود .أ. بوزورث ، الأسرار الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : حسن علي اللبودي ، مراجع سليمان إبراهيم العسكري ، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط2، 1995،
289. كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، 1936.
290. منتر آدم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة :محمد عبد الهادي أبو زيدة، ج1 ، دار الكتاب العربي ،بيروت، ط4، 1967.

رابعا - المجلات والدوريات والمنشورات:

291. أسود محمد عبد الرزاق، التعليم الشرعي وأوقافه بحلب في عهد الدولة الأيوبية، مجلة العاديات، سوريا، 2007/02/01.
292. أمين حسين، الوظائف التدريسية والإدارية في المدرسة النظامية ببغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد 1، بغداد، 1970.
293. البياتي صدام جاسم محمد، الوزير نظام الملك وأثره في تقدم الحركة العلمية في المشرق الإسلامي، مجلة ديالي، العدد الثالث والخمسون ،العراق ، 2011.
294. تازي عائشة ، المد الشيعي في بلاد المغرب ورد فعل البربر ، مجلة عصور، العدد7-8 ، وهران ، 2012-2013.
295. الجندي محمد على، خزانة الكتب في حلب ، مجلة الفيصل ، العدد 212، السعودية ، 1994.
296. حبشي حسن ، السلاجقة عنصر قوة في الإسلام، مجلة الرسالة، السنة 14، العدد 636، القاهرة، 1946.
297. حتاملة عبد الكريم ، جهود نظام الملك في تأسيس المدرسة النظامية في بغداد والمدارس النظامية الأخرى، مجلة أبحاث اليرموك: سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 1، العراق ، 2003.

298. الزهراني محمد مسفر حسن ، السلاجقة من أين أتوا، مجلة الحرس الوطني، العدد 11، المملكة العربية السعودية، 1982.
299. سلطان طارق فتحي ، أحمد رضا أحمد، مدارس الخاتونات والأميرات الأيوبيات في بلاد الشام في العصر الأيوبي (570-658هـ / 1161-1260م) ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد 7، العدد 4، الموصل، 2008.
300. السندي عبد الرحمن ، نظام الملك ودوره في ازدهار الحضاري للدولة السلجوقية ، مجلة عالم الكتب، ج7، العدد 4، السعودية ، 1986.
301. السيد أيمن فؤاد ، العرب و طريق الهند حتى أواسط القرن السادس، مجلة المؤرخ المصري، العدد 8 ، القاهرة، 1992.
302. عبد الجبار عمر فلاح ، الوزير السلجوقي نظام الملك إصلاحاتها الإدارية و إسهاماته الفكرية ، مجلة الجامعة العراقية ، العدد 28 ، العراق ، د ت .
303. عبد العاطي عبد الغني محمد ، عوامل الصراع السياسي المذهبي الإقطاعي القبلي في اليمن قبل الثورة، مجلة الإكليل، العدد الثاني السنة الخامسة ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء، 1987.
304. العوفي محمد سالم بن شديد ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي ، مجلة عالم الكتب، المجلد الثالث، العدد 1، السعودية، 1982.
305. الغامدي محمد سعيد ناحي ، الوزير السلجوقي نظام الملك وتحليل فكره ونظامه الاقتصادي ، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي ، الأزهر، العدد 17 ، القاهرة ، 2002 .
306. غرابية محمد الرحيل ، جهود صلاح الدين في إحياء المذهب السني في مصر والشام ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات الإسلامية، الأردن، 1986.
307. غنام علي ، إنجازات الأيوبيين في تشجيع وحماية التجارة والتجار في ميناء عدن 569-631هـ/1173-1228م، مجلة الخليج العربي ، المجلد 20، العدد 2، البصرة ، 1988.
308. لبيب صبحي ، سياسة مصر التجارية في عصر الأيوبيين والمماليك ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد 28-29، مصر، 1982.
309. المهدي سهام محمد ، دينار نادر ضرب في زبد عام 447هـ/1055م، مجلة المؤرخ المصري ، العدد 2، القاهرة 1988.

310. هديل حسين عوض ، إسهامات الأتراك السلاجقة في حركة التأليف وإنشاء المكتبات في اليمن، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثاني للحضارة والثقافة السلجوقية تحت عنوان " العلم والفكر في العصر السلجوقي "، تركيا ، 2001 .

خامسا: الدراسات غير المطبوعة:

311. أحمد فلاح بن إسماعيل ، العلاقة بين التشيع والتصوف، رسالة دكتوراه في أصول الدين ، المملكة العربية السعودية، 1990.

312. إسماعيل عطا رفيده ، بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية 132-656هـ، أطروحة ماجستير في التاريخ ، جامعة الخرطوم ، 2009.

313. بن صالح الظويهر نورة بنت إبراهيم ، آثار النفوذ البويهري على الخلافة العباسية - 334-447هـ / 945-1055م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية التربية للبنات ببريد ، المملكة العربية السعودية ، 2001. ص422.

314. تازي عائشة ، حركة القرامطة وأثرها على الخلافة العباسية خلال القرن 3-4هـ / 9-10م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي ،المدرسة العليا للأساتذة ، الجزائر، 2009.

315. السالم أحمد عقل الساري، تمويل مدارس بغداد في العصر العباسي 132-656هـ / 750-1258م، مذكرة ماجستير في أصول التربية ، الأردن، 1993.

316. سلام أيمن شاهين ، المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي ،جامعة طنطا ، القاهرة، 1999.

317. الغامدي صالح محمد حمدان، المدارس النورية وأثرها في إشاعة المذهب السني في بلاد الشام ، مذكرة ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1416هـ / 1995م.

318. غانية بشير ، ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ضد الفاطميين ونتائجها على المغرب، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط ، المدرسة العليا للأساتذة الجزائر، 2007-2008،

319. مريزن عسيري مريزن سعيد ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، 1985.

320. نادية بنت عبد الصمد بن عبد الكريم، دور العلماء في الحياة العامة في العراق خلال العصر السلجوقي(447-590هـ/1055-1193م)، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة أم القرى، السعودية ، 2014.

خامسا - المراجع الأجنبية:

- 321- Coskun ALPTEKIN , **The reign of zangi (521-541/1127-1146A.D)** , Atatürk University- Press –ERZURUM-, 1978
- 322- Luis Gardet ,**Dieu et la Destinée de l'homme** , Libraire philosophique, Paris,1967.
- 323- Taef kamal EL-Azhari , **The Saljuqs of Syria During the Crusades 463-549 A.H/1070-1154A.D.**Foreword by C.E.Bosworth .klaus schwarz verlag.BERLIN. 1997 .
- 324- Sanaullah Mawlawi Fadil,**The decline of the Saljuqid Empire**, University of Calcutta,INDIA ,1938.
- 325–Nikita Elisséeff,**NUR AD-DIN un grand prince musulman de syrie au temps des croisades**,tome2, institut francais de Damas, Damas, 1967

الفهارس العامة:

- 1- فهرس الآيات القرآنية.
- 2- فهرس الأعلام.
- 3- فهرس الجماعات والشعوب والقبائل.
- 4- فهرس المواقع والأمكنة والبلدان.
- 5- فهرس الفرق و المذاهب والأديان.
- 6- فهرس المحتويات.

فهرس الآيات القرآنية :

الصفحة	نص الآية	الآية	السورة
69	﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾	07	سورة الحجرات
69	﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾	23	سورة الاحزاب
69	﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾	-91	سورة النحل
70	﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَالْيَٰ أَلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾	28	سورة آل عمران
70	﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ﴾	09	سورة الزمر
81	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾	14	سورة يونس
111	﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	26	سورة آل عمران
493	﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾	59	سورة النساء
497	﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾	7-6	سورة الجمعة

ابن المقدم 246-247-255-	لم نورد مصطلح السلاجقة والزنكيين والأيوبيين
ابن النجا الحنبلي 378-	والشيعة والمشرق الإسلامي في الفهارس لأنهم
ابن النديم 437-	مصطلحات الدراسة .
ابن النظام الحسيني 439-	
ابن الوكيل 401-	فهرس الأعلام:
ابن بطوطة 353-	-أ-
ابن تغري بردي 17- 44-115-196-451-	إبراهيم ينال 56-109-110-
ابن تيمية 62-354-369-	ابن أبي الطي 339-
ابن جبير 24- 260-297-309-319-	ابن الأثير 17-21-41- 95-109-121-
347-353-386-399-405-441-466-	131-150-154-157-160-171-208-
ابن جميع الطبيب 400-	215-225-226-230-256-370-476-
ابن حسان الطائي 123-	ابن البياضي 320-
ابن حماد 81-	ابن الجوزي 17- 148-149-150-151-
ابن خلدون 5-64-	154-293-443-451-
ابن خلكان 23-307-415-	ابن الخياط -202-
ابن زين التجار 383-385-	ابن الداية 231-246-
ابن سمعون 81-	ابن الزكي 401-
ابن شاش 419-	ابن الشيخ النجيب الأكبر 461-
ابن شداد (عز الدين) 23-352-354-370-	ابن الصباغ أبو نصر 289-301-303-
ابن شداد(بهاء الدين) 22- 219-226-	ابن الصلاح 402-
264-272-302-379-410-411-415-	ابن العجمي شرف الدين 310-315-316-
416-	ابن العجمي 364-
	ابن العديم 151-230-150-226-281-

أبو أحمد بن سكينه 392-	ابن طباطبا 96-
أبو إسحاق الإسفراييني 285-	ابن عباد 67-
أبو إسحاق ألبتكين 51-52-	ابن عبد السلام 396-
أبو إسحاق الشيرازي 283-288-289-301-	ابن عبد القوي 233-256-408-
303-304-331-332-	ابن عساكر 136-303-344-345-
أبو البركات الحسن 365-	ابن عقيل 149-301-311-
أبو البركات بن عبد الله الحارثي 352-	ابن عماد الحنبلي 208-
أبو الحجاج يوسف عبد العزيز اللخمي الميورقي 304-	ابن فضلان 93-
أبو الحسن إدريس بن حمزة بن علي الشامي 304-	ابن قاضي شهبة 21-311-337-340-
أبو الحسن الأربلي 64-	401-451-463-
أبو الحسن الأشعري 329-	ابن قرجلة 202-
أبو الحسن بن الخشاب 349-	ابن قطيطة الوزان 385-
أبو الحسن علي بن أبي الثريا 348-	ابن قلانسي 17-102-164-170-180-
أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني 329-	ابن كثير 17-40-41-42-43-84-86-
أبو الحنيفة النعمان (السنّي) 286-320-	104-120-171-212-248-304-333-
346-	339-352-389-395-438-451-457-
أبو الحنيفة النعمان (الشيعة) 73-75-	ابن مخرمة 242-
أبو الخطاب الأسدي 60-61-	ابن مسلمة 100-108-111-433-
أبو الخطاب بن البطر 301-311-317-	ابن منيع الخفاجي 115-
أبو الدرداء 348-356-	ابن ميسر 115-451-
	ابن هانئ الأندلسي 77-
	ابن واصل 22-209-226-354-

- أبو الطاهر محمد بن الحسين الأنصاري 395-
أبو بكر البيهقي 284-
أبو العلا صاعد بن يحيى 329-
أبو بكر الشاشي 315-321-331-332-
أبو العلاء سعيد أبو محمد 444-
أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) 5-67-81-
أبو الفتح أسعد بن أبي نصر الميهني 315-
83-84-86-302-433-477-
أبو الفتح عرف بابن العميد 352-
أبو بكر بن أبي المظفر السمعاني 321-
أبو بكر بن فورك 284-
أبو بكر محمد بن يحيى بن سهل
النيسابوري 322-
أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي 114-310-
أبو الفضائل اليماني 87-
أبو الفضل أحمد 365-
أبو الفضل بن الخشاب 246-
أبو جعفر الطوسي 76-77-278-436-
أبو جعفر القرطبي 352-
أبو جعفر المنصور 63-
أبو جعفر عمر بن أبي عبيد الله الدباس 292-
أبو حامد الغزالي 301-302-305-307-
308-310-311-312-328-331-332-
392-396-439-
أبو داود المصري 140-
أبو زكريا التبريزي 292-
أبو سعد المخرمي 321-
أبو سعد محمد بن منصور المستوفي 286-
320-
أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي 178-
أبو سعيد الصوفي 288-
أبو سعيد أيوب بن شاذي بن مروان 228-
أبو الطاهر محمد بن الحسين الأنصاري 395-
أبو العلا صاعد بن يحيى 329-
أبو العلاء سعيد أبو محمد 444-
أبو الفتح أسعد بن أبي نصر الميهني 315-
أبو الفتح عرف بابن العميد 352-
أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي 304-
أبو الفرج بن كليب 392-
أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي 114-310-
أبو الفضائل اليماني 87-
أبو الفضل أحمد 365-
أبو الفضل بن الخشاب 246-
أبو الفضل هبة الله بن أبي جرادة 373-
أبو القاسم البكري المغربي 296-
أبو القاسم المخزومي 378-
أبو القاسم بن فضلان 392-
أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري 317-
325-
أبو المظفر السمعاني 303-
أبو المعالي الجويني 301-307-310-351-
أبو النجيب بن محمد السهروردي 302-
أبو الهيجاء السمين 211-
أبو بكر البقلاني 86-332-

- أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون 301-
- أبو سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي 156-
- أبو شامة 20- 169-215-226-227-
- أبو منصور الجواليقي 298-
- أبو شجاع الزجاجي 256-
- أبو منصور سعيد بن الرزاز 304-414-
- أبو طاهر السلفي 188-378-
- أبو منصور شجاع بن علي 316-
- أبو طاهر بن عوف 378-381-
- أبو منصور عبد الرحمن بن هبة الله الشافعي 365-
- أبو طيب المتنبي 225-
- أبو نصر الكندري (عميد الملك)
- أبو عبد الله الجلاب 106-278-
- أبو نصر بن أبي القاسم القشيري 296-
- أبو عبد الله بن النعمان 37-
- أبو نصر سابور بن أردشير 75-
- أبو عثمان بن أبي محمد البحتري 449-
- أبو يزيد مخلد بن كيداد 31-
- أبو علي أحمد بن الأفضل 187-
- أبو يوسف يعقوب بن سليمان 143-291-
- أبو علي الجغائي 53--
- أبو يوسف يعقوب بن سليمان الخازن 329-
- أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي 106-
- أنتسز بن أوق الخوارزمي 135-136-168-
- أبو علي بن سوار 74-
- أحمد بن عبد الملك بن عطاش 153-154-
- أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني 179-180-
- 428-
- أبو عمر الكبير 355-356-
- أحمد مختار العبادي 42-
- أبو عمر محمد بن عبد الرحمن 120-
- أحمد معز الدولة بن بويه 38-39-40-42-
- أبو فتح الواسطي 406-
- 44-
- أبو محمد النسوي 84-
- أرتق بك السلجوقي 126-
- أبو محمد اليازوري 240-
- أرديش 434-

الأفضل بن بدر الجمالي 38-138-139-	أرسلان أرغ إياز بن ألب أرسلان 133-
140-152-182-186-313-451-	أرسلان خاتون بنت جغري بك داود 101-
الأفضل علي بن صلاح الدين 260-273-	102-
274-379-413-419-	أرسلان طاش 143-
ألب أرسلان 19-55-57-118-119-	أرنست باركر 25-
120-121-122-124-128-129-130-	الاسترابادي إسماعيل بن علي بن المثنى 285-
131-132-133-144-145-147-158-	إسحاق كومنين 129-
279-280-287-322-325-326-327-	أسد الدين أكر 397-398-
ألكسيوس كومينيوس 161-	أسد الدين شيركوه 193-194-195-196-
أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي 403-	197-198-199-200-201-202-204-
الأمجد الأيوبي 225-	205-206-208-214-225-226-227-
الآمر بأحكام الله (ال خليفة العبيدي) 158-	228-229-230-357-372-395-413-
186-314-380-451-	451-
الأمير العالم 212-	إسرائيل بن سلجوق 97-
الأمير قجق 157-	إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) 60-
أنوشتكين شيركير 154-155-	إسماعيل بن جعفر الصادق 59-60-61-
أنوشروان 175-	62-63-64-187-
أودو سانت أماند 219-	إسماعيل بن سبكتكين 54-
إياز بن ألب أرسلان 133-	الأشرف ابن العادل ابن أيوب 347-
أيازكوج 400-	الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل 420-
إيلغازي بن أرتق 180-182-	أشيفا زوجة أرناط 268-
أيلك خان التركي 97-	الأطروش 42-
ب-	الأفشين 123-

- بدر الجمالي 38-116-135-138-161-468-
بلدوين الرابع 265-
بلدوين لي بور 165-
بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن
أُرْتُق 315-343-
بدر الدين أبي المحاسن السنجاري 394-
بدران 348-
بركياروق بن ملكشاه 151-152-154-
158-160-170-174-444-
برنقش 183-
برهان الدين أبا الحسن البلخي 350-356-
360-460-
برهان الدين أبا العباس أحمد الأصولي 350-
برهان الدين مسعود الدمشقي 347-
برومانوس الرابع ديوجينيس 129-
البساسيري 11-106-107-108-109-
110-111-112-113-114-115-116-
117-121-165-310-437-
بعلبي بن موسى 155-
البغدادلي عبد القاهر 65-67-87-
بغراخان 57-
بلدوين الأول 165-
بلدوين الثاني 181-
بلدوين الخامس 265-
بلدوين الرابع 265-
البنداري 19-93-142-248-254-298-
بندلي الجوزي 64-65-
البهاء الدمشقي 386-
بهاء الدولة البويهلي 45-75-106-
بهاء الدين الحسن علي الشهرزوري 177-
بهاء الدين بن العقادة 346-
بهاء الدين عياك 347-
بهاء الدين قراقوش 210-400-481-
بهرام 180-181-337-
بهرز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض
الغياثي 320-
بوري برس اياز بن ألب أرسلان 133-
بوهيموند 162-
بويه 38-
بيغو بن سلجوق 96-
بيغو بن ميكائيل 97-119-
ت-
تاج الدولة تنش 134-135-136-152-
168-169-170-
تاج الدين أبو بكر الشحروري 358-
بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن
أُرْتُق 315-343-
بدر الدين أبي المحاسن السنجاري 394-
بدران 348-
بركياروق بن ملكشاه 151-152-154-
158-160-170-174-444-
برنقش 183-
برهان الدين أبا الحسن البلخي 350-356-
360-460-
برهان الدين أبا العباس أحمد الأصولي 350-
برهان الدين مسعود الدمشقي 347-
برومانوس الرابع ديوجينيس 129-
البساسيري 11-106-107-108-109-
110-111-112-113-114-115-116-
117-121-165-310-437-
بعلبي بن موسى 155-
البغدادلي عبد القاهر 65-67-87-
بغراخان 57-
بلدوين الأول 165-
بلدوين الثاني 181-
بلدوين الخامس 265-
بلدوين الرابع 265-
البنداري 19-93-142-248-254-298-
بندلي الجوزي 64-65-
البهاء الدمشقي 386-
بهاء الدولة البويهلي 45-75-106-
بهاء الدين الحسن علي الشهرزوري 177-
بهاء الدين بن العقادة 346-
بهاء الدين عياك 347-
بهاء الدين قراقوش 210-400-481-
بهرام 180-181-337-
بهرز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض
الغياثي 320-
بوري برس اياز بن ألب أرسلان 133-
بوهيموند 162-
بويه 38-
بيغو بن سلجوق 96-
بيغو بن ميكائيل 97-119-
ت-
تاج الدولة تنش 134-135-136-152-
168-169-170-
تاج الدين أبو بكر الشحروري 358-

- تاج الدين محمد الحواري 396-
تاج الملك (الوزير) 148-
تاج الملوك بوري بن طغتكين 172-179-
180-
التاشي الدقاقي 358-
تنش اياز بن ألب أرسلان 133-
تركان خاتون-زوجة ملكشاه- 92-148-
321-
تقي الدين أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف
السبكي 398-
تقي الدين بن الصلاح 401-
تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب 254-
392-393-394-395-
توران شاه بن نجم الدين أيوب (شمس الدولة)
210-211-234-242-243-258-471-
تيودورا الثالثة 128-
-ج-
جاولي سقاوة الأسدي 174-253-360-
جعفر الصادق 59-60-61-62-63-64-
65-69-70-
جعفر بن الفضل 33-
جعفر بن فلاح 34-
جعفري بك داود بن ميكائيل 54-98-101-
118-119-
جفري مقدم فرسان الداوية 199-
جلال الدولة أبا طاهر البويهى 106-
جلال الدولة بن عمار 139-
جمال الدولة إقبال 399-
جمال الدين أبو عمر عثمان بن الحاجب 388-
جمال الدين أبو يعقوب يوسف الزواوي 388-
جمال الدين بن عبد الهادي 356-
جناح الدولة صاحب حمص 164-166-
جوسلين دي كورتناي 251-
جوهر =مؤتمن الخلافة
جوهر الصقلي 32-33-
-ح-
الحافظ لدين الله (ال خليفة العبيدي) 73-186-
381-
الحاكم بأمر الله (ال خليفة العبيدي) 36-37-
73-126-380-417-478-
حامد بن محمود الحراني 353-
حامد زيان غانم زيان 25-
حسام الدين أبو الهيجاء 239-
حسام الدين بن ست الشام 401-
حسام الدين لؤلؤ 267-
حسان بن سعيد المنيعي 322-
534

الحسن بن الصباح 139-140-141-142-	الخوافي 302-
145-146-149-150-153-154-155-	-د-
156-163-279-305-328-426-427-	الداعي إسماعيل 184-
438-442-443-444-	الداعي الإدريسي 63-
الحسن بن زيد العلوي 41-	داود بن العاضد بالله 213-236-256-
الحسن بن علي (رضي الله عنه) 60-62-	480-481-
الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني 356-	داوود بن منكلان 253-
الحسين بن (على رضي الله عنه) 43-60-	دبيس بن علي بن مزيد 115-
62-80-387-434-	دقاق بن تتش 160-360--
الحسيني 148-	الدكر 135-
حطان بن كامل بن منقذ الكناني 243-244-	الدلوعي 395-396-
245-	الدواداري 92-
حظ الخير خاتون ابنة ابراهيم بن عبد الله 404-	-ذ-
حمد الله القزويني 49-92-	ذخيرة الدين ابن الخليفة القائم 102-
حميد الدين السمرقندي 359-	الذهبي 23-105-118-145-188-284-
حنة أم مريم عليها السلام 389-	-ر-
-خ-	راشد الدين سنان 218-219-235-250-
خاتون بنت معين الدين أنر 361-	252-256-257-
الخاتون زوجة طغرل بك 110-117-120-	الراشد بالله (ال خليفة العباسي) 196-
الخلجي الصوفي 83-	الراوندي 20-97-148-
خطبلسي خاتون بنت ككجا 403-	ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب 400-403-
خلف بن ملاعب 135-	رستم بن علي الديلمي 55-437-
خمارتكين الطغراني 115-	

- رضوان بن تاج الدولة تنش 152-160-
 رضوان بن ولخشي 381-
 الرضي 37-
 رضي الدين القزويني 297-
 رضي الدين 287-
 الركن البجلي 357-
 ركن الدولة بن بويه 39-
 رومانوس الرابع ديوجانس 123-130-
 ريتشارد قلب الأسد 256-257-272-
 ريحان الطواشي 396-
 ريموند الثالث 250-251-265-268-
 ريموند الثاني 257-
 ريموند بن بوهيموند الرابع 257-
 رينالد دي شاتيون- أرناط- 251-266-267-
 268-269-
 -ز-
 زراد 163-
 زكي الدين أبو العباس الطاهر أحمد بن محمد
 بن علي القرشي 402-
 زين الدين الزواوي 388-
 زين الدين الفارقي 402-
 زين الدين علي بن النجا 236-
 زين الدين علي كوجك بن بكتكين 173-183-
 زين العابدين 60-62-
 -س-
 سالم بن أبي الدر أمين الدين 402-
 سالم بن مالك بن بدران العقيلي 137-
 سالم محمد الحميدة 25-
 سامي النشار 63-
 سبط ابن الجوزي 19-
 السبكي 23- 149-284-303-382-
 ست الشام 401-402-
 ست القصور 189-
 ست الكتبة نعمة بنت علي بن الطراح 400-
 الست خاتون زوجة أو شمس الملوك (زوجة
 بوري بن طغتكين) 360-
 الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي 400-
 سرمرز 444-
 سعد الدولة كوهرائين 435-
 سعد الرازي 285-
 سعد الملك الآبي 153-
 سعيد السعداء 405-
 سعيد عبد الفتاح عاشور 25-
 سقمان بن أرتق 182-

- السكري 87- شاه ملك 56-
- سلجوق بن يقاق أو تقاق 4- 95-96-97- شاهنشاه بن أيوب 404-
- 118- شاور 190-191-193-194-195-196-
- سليمان الرازي 379- شرف الإسلام عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج 197-198-199-202-203-204-205-
- 208-210-230-452- سليمان السلومي 62-
- سليمان بن داود بن العاضد 481- شجاع الدولة صادر بن عبد الله 341-
- سليمان بن طغرليك 119- شرف الدين بن الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الحنبلي الشيرازي 355-
- سليمان بن قتلمش 132-168- شرف الدولة مودود 163-
- السمعاني 24-326- شرف الدين الأذرعي 357-
- سنجر بن ملكشاه 151-155-156-157- شرف الدين بزغش 200-204-
- 158- سهيل طقوش 25-
- السيد الحسيني 356- شرف الدين بن أبي عصرون 348-349-
- سيف الدين أيازكوج الأسدي 395- شرف الدين بن أبي عصرون 363-373-401-409-
- سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي 183- شرف الدين عبد المؤمن بن شورة 461-
- 184-231- الشريشي 401-
- سيف الدين غازي بن قطب الدين 219-246- الشريف الرضي 36-
- 251- سيف الدين غازي بن قطب الدين 219-246- الشريف زهرة بن علي بن محمد بن أبي إبراهيم الإسحافي الحسيني 343-
- سيف الدين يازكوج 253- الشريف هاشم بن غانم 243-
- السيوطي 385-443-448- شعيب بن أبي الحسن بن الحسين بن أحمد الأندلسي 352-
- سيلا أخت عموري الاول 265- شمس الدين أبو الوزير أبي المضاء 416-
- ش- شمس الدين أبو عبد الله محمد قاضي العسكر الأرموي 385-
- شادي جد صلاح الدين 226-227-

الصالح إسماعيل بن نور الدين 12-21-
 220-221-222-231-245-246-247-
 248-249-251-252-254-258-345-
 352-401-479-480-
 الصالح بن زريك 189-190-
 صالح محمد حمدان الغامدي 16-
 الصالح نجم الدين 394-420-
 صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه
 الجويني 386-
 صدر الدين الحسيني 20-93-
 صدر الدين بن درباس 409-418-
 صلاح الدين الأيوبي 4-12-14-15-16-
 17-21-23-24-26-111-193-198-
 200-201-204-205-206-207-208-
 209-210-212-213-214-215-216-
 217-219-221-222-224-225-226-
 228-229-230-231-232-233-234-
 235-236-237-239-240-242-243-
 244-245-246-247-248-249-250-
 251-252-253-254-255-256-257-
 258-259-260-261-262-263-
 264-265-266-268-269-270-271-
 272-273-274-275-302-352-361-
 374-375-377-378-379-380-382-
 383-384-385-386-387-388-389-
 390-391-393-395-396-397-398-

شمس الدين بن نجم الدين ابن خليل 396-
 شمس الدين جكرمش 174-
 شمس الدين عبد الكافي 358-
 شمس الدين محمد بن المقدم 220-
 شمس الدين محمد بن مُقدم 397-
 شمس الدين محمد بن موسى الجزولي 352-
 شمس الملوك بوري بن تاج الملوك 181-
 شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل 119-
 شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي
 عصرون 365-
 شهاب الدين الحارمي 215-255-
 شهاب الدين الطوسي 392-394-
 شهاب الدين بن منصور 356-
 شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحموي 392
 شهدة الكاتبة 400-
 الشهرستاني 59-61-87-
 الشيخ إسماعيل الخازن 221-
 الشيخ البانياسي 356-
 الشيخ المفيد 76-
 -ص-
 صارم الدين قايماز النجمي 398-

-126-121-119-118-117-116-115	-410-409-408-406-405-403-401
-310-285-278-158-133-128-127	-418-416-415-414-413-412-411
-437	-462-453-451-422-421-420-419
الطقيطي 85-	-469-468-467-466-465-464-463
الطواشي جمال الدولة ربحان 220-	-486-485-480-479-475-473-470
طومان النوري 359-	-488
الطيب بن الأمر بأحكام الله 186-	صلاح الدين العلاني 357-
-ظ-	صلاح الدين الياغسياني 177-
الظافر بالله العبيدي 381-189-	صنجيل 164-
الظاهر ببيرس 446-418-258-180-	-ض-
الظاهر غازي بن صلاح الدين 415-273-	ضرغام بن عامر 452-194-191-190-
الظاهر لاعزاز دين الله (ال خليفة العبيدي) 37-	ضياء الدين ابن الأثير 273-
-160-126-75	ضياء الدين القاسم بن تاج الدين
ظهير الدين جعفر ابن يحيى القرشي 395-	الشهرزوري 416-409-393-
ظهير الدين طغتكين 180-179-172-	-ط-
-181	الطاهر أبو المكارم حمزة بن زهرة الحسيني
-ع-	-249
العادل أبو بكر بن أيوب 247-239-226-	الطائع لله 44-
-419-398-374-273-267-256-254	طراج 92-
-481	الطُرُطُوشي أبو بكر 310-305-290-288-
العادل بن رزيك 412-190-189-	-381-380-315-314-313-312
العادل بن سَلار 381-189-188-187-	طغتكين بن أيوب (سيف الإسلام) 249-230-
	-248-245-244-253-250
	طغرلبك 4-56-75-98-99-100-101-
	-114-113-110-109-106-104-102

- العادل بن شاور 205-
عبد الملك بن عطاش 140-153-
العادل سيف الدين 353-
عبد النبي بن المهدي 241-242-243-
عارف تامر 59-
عبد النعيم محمد حسنين 95-
العاقد لدين الله 189-197-203-204-
عبيد الله المهدي (ال خليفة العبيدي) 30-31-
عبد الله 205-206-207-208-209-210-211-
36-65-442-
عثمان بن عفان رضي الله عنه 436-
عبد الله 212-213-229-230-231-232-245-
العدل أبو صالح بن العجمي 220-
عائشة رضي الله عنها 438-
عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب بن شادي 403-
عباس بن شادي 239-
عز الدين أبو عبد الله 358-
عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي 261-
عز الدين بن عماد الدين الكاتب 353-
عبد الرحمان عزام 16-
عز الدين جرديك 204-248-
عبد الرحمن السميومي 444-
عز الدين عثمان بن الزنجبيلي 243-244-
عبد السلام بن أبي عصرون 349-
345-245-359-
عبد الصمد الكاتب 233-
عز الدين مسعود بن البرسقي 175-
عبد القادر الجيلاني 368-369-
عز الدين مسعود، أخ سيف الدين غازي
عبد الكريم حتاملة 26-
عز الدين موسك 239-
عبد الله بن جعفر الصادق 62-
العز القرشي أبو الخطاب 357-
عبد الله بن علي العيوني 126-
العزير بالله (ال خليفة العبيدي) 44-73-
عبد الله بن محمد بن علي بن جعفر أبا
العزير عثمان ابن صلاح الدين 260-273-
إسماعيل الأنصاري الهروي 323-
عبد الله بن هبة الله 378-
عبد الماجد الإسكندراني 378-
عبد المجيد أبو الفتوح بدوي 16-281-
عضد الدولة البويهني 43-44-45-75-81-

- علاء الدين أبو بكر مسعود بن محمد الكاساني
-391
- علاء الدين الكاساني -359
- علوان بن عبد الله الأسدي (ابن الأستاذ) -464
-465
- علي أبو الفوارس -253
- علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) 5-34
-37 43-60-84-85-356-433-439
- علي بن أبي كالجار البويهى -107
- علي بن أحمد المري -225
- علي بن زكي الكاشاني -341
- علي بن سعيد الأسطخري -86
- علي بن سليمان بن أحمد أبو الحسن
الأندلسي -364
- علي بن سوار -75
- علي بن شاذان -145-144
- علي بن عيسى السكري -85
- علي بن محمد البنداري -102-92
- علي بن محمد الصليحي -240
- علي بن مزيد -82
- علي بن موسى -155
- عماد الدولة بن بويه -39
- عماد الدين أبو بكر النوقاني -371
- عماد الدين الأصفهاني 19-102-216
-226-257-260-266-304-352-353
-414-429-441
- عماد الدين بن أبي زهران الموصللي -390
- عماد الدين بن السكري -394
- عماد الدين بن فخر الدين القاري -397
- عماد الدين زنكي الثاني 262-263-264
عماد الدين زنكي 3-4-11-137-169
-171-173-174-175-176-177-178
-179-181-182-183-221-222-227
-228-229-337-338-339-365
- عمارة اليمني 233-234-237-238-243
-413
- عمر الملا -371
- عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) 5-67-83
-433
- عمر فلاح عبد الجبار -294
- عموري الأول 191-197-199-202-217
-218-219-235-237-265
- عميد الملك الكندري 100-110-114-119
عيسى الهكاري -416
- عيسى بن فليته -244
- غ-
- غرس الدين قليج -204

الغزالي 65-69-	القاهر بقوة الله 440-
الف- -	قاورد بن داود 134-
الفارقي 401-	القائم بأمر الله (ال خليفة العباسي) 85-98-
فاطمة الزهراء رضي الله عنها 111-	100-101-105-107-108-109-110-
فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي 359-	111-113-114-116-117-122-124-
الفائز بنصر الله 189-	128-131-240-434-437-
فائق 53-	القائم بأمر الله (ال خليفة العبيدي) 31-
فخر الدين ابن شمس الدين بن مقدم 397-	قتلمش 119-
فخر الدين القاري 397-	قجق 156-
فخر الدين بن عماد الدين ابن السكري 394-	قراجة الساقى 227-
فخر الدين شركس (جهاركس) 398-	القراخانلى بغراخان 56-
فخر الملك 82-	قرواش بن المقلد (صاحب الموصل) 36-
فخر الملك بن نظام الملك 444-	107-
فولك الأنجوي 181-	قريش بن يدران العقيلي 110-111-112-
ق- -	114-110-111-113-114-
القادر بالله (ال خليفة العباسي) 36-44-54-	القزويني 24-141-280-311-
86-	قسطنطين التاسع 127-128-
القاضي العويرس 378-	قسطنطين الثامن 126-
القاضي الفاضل 254-271-399-412-	قسطنطين العاشر دوكاس 129-
413-414-418-420-	قسيم الدولة آق سنقر البرسقي والى
القاضي القضاغي 128-	الموصل 175-
	قسيم الدولة آق سنقر (جد الأسرة الزنكية) 4-
	21-22-137-169-170-171-173-
	القصاص 81-

المأمون البطائحي 313-314-386-	قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع
مجاهد الدين أبو الفوارس 358-	الهدباني 395-
مجاهد الدين بهروز 226-228-	قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري 350-
مجد الدولة البويهى 54-438-	351-353-357-362-363-378-396-
مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهيل 351-	461-
مجد الدين محمد بن محمد الجبتي 387-	قطب الدين مودود 373-
محب الدين محمد (ابن القصيف) 398-	قلج أرسلان 161-
محمد الباقر 60-	قوارص النصراني 228-
محمد الرحيل غرابية 26-	قوام الدين الحنفي 356-
محمد العروسي المطوي 25-	ك-
محمد المنتظر 187-	الكامل بن العادل أبو بكر بن أيوب 420-
محمد النفس الزكية 41-	كربوغا 174-
محمد بن أبي القاسم البلخي 363-	ككز الدقائي 356-
محمد بن أبي هاشم 124-448-	الكمال أبو طالب السميرمي 156-
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق 63-	كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ 385-
محمد بن الحنفية 62-	كمال الدين بن الشهرزوري 220-221-364-
محمد بن أنر 157-	409-414-415-
محمد بن عبد الله بن تومرت 305-	كمشتكين سعد الدين 249-250-251-358-
محمد بن ملكشاه 151-152-153-154-	كنز الدولة 238-239-
155-158-160-174-329-428-	كونراد موننفيرات 256-257-
محمد بن منصور القشيري 303-321-	الكلأ أبو الحسن هراسي 302-304-305-
محمد بن يحيى 391-	م-
	ماجد عرسان الكيلاني 25-

المستعلي بالله (ال خليفة العبيدي) 38-138-	محمد سعيد ناحي الغامدي 26-
139-140-141-152-160-182-186-	محمود إسماعيل 65-
المستكفي بالله 40-	محمود الكاشغري 93-
المستجد بالله (ال خليفة العباسي) 197-	محمود بن سبكتكين 50-52-53-54-55-
المستنصر العباسي 321-	56-97-98-156-284-437-
المستنصر بالله (ال خليفة العبيدي) 38-57-73-	محمود بن محمد بن ملكشاه 155-158-
100-104-108-109-110-112-113-	174-175-176-326-
114-115-124-127-138-139-140-	محمود بن ملكشاه 151-
141-186-240-310-394-	محمود بن نصر بن صالح بن مرداس العقيلي
مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي 227-	122-123-124-
مسعود بن محمود الغزنوي 56-98-	محمود شلبي 253-
مسلم بن قريش العقيلي 135-	محي الدين بن الزكي 409-419-
مصطفى غالب 61-62-	المرتضي 37-
المصطفى لدين الله = نزار بن المستنصر	مرداويج بن زياد الديلمي 39-
مصعب بن الزبير 86-	المرزيان بن خسرو تاج الملك الوزير أبو
المطيع لله 40-212-	الغنائم 321-
مظفر بن محمد بن إسماعيل التبريزي 392	مروان بن محمد 230-
معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) 80-	مريزن سعيد مريزن العسيري 16-
معز الدولة البويهية 39-41-43-45-79-	المسترشد بالله (ال خليفة العباسي) 156-226-
80-104-	227-444-
المعز بن باديس 127-	المستضيء بأمر الله (ال خليفة العباسي) 209-
المعز لدين الله (ال خليفة العبيدي) 31-32-	211-212-216-230-232-246-251-
33-34-41-73-80-212-477-478-	365-374-408-450-
المعلی بن حيدرة 168-	المستظهر بالله 312-

152-157-158-159-167-168-169-	معين الدين أنر 359-
169-172-287-318-320-321-326-	معين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل 156-
327-328-329-430-443-	مقاتل بن عطية (شبل الدولة أبو الهيجاء)
منتخب الدين أبو المعالي محمد 358-	151-
المنصور بالله (ال خليفة العبيدي) 31-33-	المقتدر بالله (ال خليفة العباسي) 93-
منى محمد بدر 25-	المقتدي بالله (ال خليفة العباسي) 149-168-
منيرة بنت وثاب النميري 124-	295-
مهارش بن المجلى 113-	المقتفي لأمر الله (ال خليفة العباسي) 364-
مؤتمن الخلافة (جهر)- 209-210-238-	المقدسي 75-
مودود الغزنوي 57-163-	المقريري 22- 127-138-417-418-
مودود بن التونتكين 174-	450-451-452-
موسى (عليه السلام) 63-	مكثر بن عيسى 464-
موسى الكاظم 60-61-62-	ملك البلغار 92-
موسى بن سلجوق 97-	ملك الترك ييغو 95-
الموفق بن القيسراني 453-	الملك الرحيم البويهى 100-101-104-
مؤيد الملك بن نظام الملك 301-	105-107-
ميخائيل السابع 131-	الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب
ميكائيل بن سلجوق 97-98-118-	230-243-252-259-261-275-276-
-ن-	282-
ناصر الدين الحنبلي 401-	الملك المعظم 353-
ناصر الدولة بن حمدان 394-	الملك جاي 277-
ناصر الدين أخ ضرغام 194-	ملكشاه بن ألب أرسلان 4-19- 120-121-
	122-131-132-133-134-135-136-
	142-143-145-147-149-150-151-

-286-284-283-282-281-280-279
 -295-292-291-290-289-288-287
 -307-305-303-301-299-298-296
 -351-328-327-326-317-316-308
 -486-444-441-440-430-429-422
 -487
 النعيمي 352-359-395-
 النقفور (ملك الأرمن) 163-
 النوبختي 62-
 نوح الثاني بن نصر الساماني 52-53-
 نور الدين محمود 3-4-11-12-13-14-
 16-21-22-137-171-177-183-
 184-188-190-191-192-193-194-
 195-196-197-198-202-203-204-
 205-206-207-208-209-210-211-
 214-215-216-217-218-219-221-
 222-229-230-231-232-242-245-
 246-248-249-258-261-263-275-
 304-337-339-340-341-342-343-
 344-345-346-347-348-349-350-
 351-352-353-354-356-358-359-
 361-362-363-364-365-366-367-
 370-371-372-373-374-375-379-
 389-390-396-397-413-414-416-
 420-447-448-449-450-451-453-
 456-457-458-459-460-461-462-
 463-465-468-479-480-486-488-

-هـ-

ناصر الدين سبكتكين 51-52-53-
 ناصر الدين محمد بن شيركوه 253-
 ناصر خسرو 285-
 الناصر لدين الله (ال خليفة العباسي) 262-
 نجم الدين الخُبوشاني 385-390-
 نجم الدين أيوب 4-207-215-216-217-
 225-226-227-228-229-
 نجم الدين بن خليل 396-
 نجم الدين بن شرف الدين بن أبي عصريون
 349-
 نجم الدين محمد بن فخر الدين القاري 397-
 نزار بن المستنصر 38-138-139-140-
 141-186-
 نصر الدولة 136-
 نصر الدولة بن أفتكين 135-139-
 نصر المقدسي 395-
 نصر بن أحمد الساماني 137-
 نصر بن سبكتكين 284-
 نصرة الدين أمير أميران محمد بن زنكي 373-
 نصير الدين جقر 177--
 نظام الملك الطوسي 11-14-19-26-119-
 120-133-134-143-144-145-146-
 147-148-149-150-151-157-170-

- هارون (عليه السلام) 63-
يزيد بن معاوية 436-
هارون بن خان 123-
يعقوب بن كلس اليهودي 32-75-
هبة الله الشيرازي 108-112-
يوسف أبو النصر 25-
هبة الله بن كامل 233-
يوسف بن إسماعيل الشيباني 256-
هشام بن عبد الملك بن مروان 345-
يوسف بن أوق الخوارزمي 124-
هنري دوق شامبني 257-
هو معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ بن
حمويه 387-
هولاكو خان المغولي 446-
هيلانة أم قسطنطين 349-
هيو سيد قيسارية 199-
-و-
والترميسنيل 219-
ويليم الثاني 235-236-237-
ويليم السوري 25-161-251-
ويليم مونتقرات 265-
-ي-
اليازوري أبو الحسن 310-
ياغي سيان 163-
ياقوت الحموي 24-
يحيى بن عبد الله 41-

فهرس المواقع والأمكنة والبلدان

إقليم الكرج 39-

-أ-

إقليم الكرخ 2- 35-38-82-83-84-85-

110-112-433-434-435-437-

الموت 6-20- 139-141-142-143-

146-147-150-154-155-156-165-

191-219-258-279-305-328-329-

426-427-438-440-442-445-446-

487-

الأناضول 87-103-123-160-

الأنبار 36-107-

الأندلس 31-312-411-453-

أنطاكية 161-162-168-171-182-

184-196-270-338-

أنطرسوس 277-

آني 129-

الأهواز 39-107-110-453-

أوروبا 453-455-

إيران 93-134-137-440-

أيلة (العقبة) 267-268-454-467-

-ب-

الباب 184-

باب أبرز 321-

باب الأنج 321-

الأبلة 472-

الأحساء 126-

أذربيجان 427-

أرتاح 123-

الأردن 273-

أرمينية 5- 123-129-130-173-

الإسكندرية 33-139-201-202-235-

237-243-260-267-304-311-312-

313-314-315-380-381-382-384-

413-

أسوان 238-

آسيا الصغرى 122- 129-134-221-

455-

أصفهان 39-99-136-141-152-153-

154-158-286-287-311-316-414-

427-431-438-444-461-

أطفيح 199-

اعزاز 273-

إفريقية 34-

الأقصر 239-

إقليم الديلم 38- 39-98-

باب البريد 341-	البحرين 87-125-126-
باب البريد 353-	بحيرة خوارزم (أرال) 94-
باب البصرة 84-434-435-	بحيرة فان 130-
باب الجابية 347-	بخارى 97-98-
باب السلامة 347-	برزية 273-
باب الشعير 288-	برقة 190-
باب الطاق 82-	بروفانس 453-
باب الظاهرية 353-	بزاغة 176-184-
باب الفراديس 399-	بسا 106-
باب الفرج 353-398-399-	البصرة 63-75-107-115-175-286-
باب النصر 398-	287-312-453-472-
البابين 199-200-	بصرى 262-268-273-
بادغليس 57-	بعلبك 261-281-255-273-340-349-
بارين 214-	بغداد 2-3-4-6-10-11-15-16-17-
باشر 174-	19-26-29-34-35--37-40-41-
بحر ابسكون (بحر الخزر) 92-93-	42-43-44-45-54-56-58-75-79-
بحر الخزر (قزوين) 5-93-94-426-	80-81-82-83-84-85-87-91-95-
بحر الروم (البحر المتوسط) 6-132-	98-99-100-101-105-106-107-
بحر العرب 6	108-109-110-111-112-113-114-
بحر القلزم (البحر الأحمر) 6-267-453-	115-116-117-120-121-126-146-
454-472-474-	149-163-165-171-176-212-226-
بحر إيجة 132-	230-246-278-279-280-283-286-
	287-288-289-290-292-293-295-
	297-298-299-300-301-302-303-
	304-305-306-309-311-312-315-

بيت المقدس 12-14-23-122-124-126-	316-317-319-320-321-324-325-
160-162-168-171-180-182-184-	341-356-364-365-374-392-404-
188-191-194-198-199-214-217-	411-414-415-432-433-434-435-
221-235-258-261-264-269-270-	436-437-445-453-459-460-461-
273-274-290-311-337-338-339-	472-483-486-488-
351-389-390-410-411-415-	البقيع 64-
485-	بلاد الجبال 39-54-56-109-
بيت لاهيا 402-	بلاد الديلم 41-42-99-
بيروت 188-269-	بلاد الروم 126-
بيشاوړ 52—	بلاد القوقاز 132-
ت-	بلاد المغرب 2-3-10-22-29-30-31-
تبريز 118-	32-34-35-36-99-127-165-232-
تبنين 273-398-	246-382-411-448-475-477-
تركستان 94-	بلاد فارس 3-10-29-41-58-87-99-
تركيا 26-	103-104-106-140-165-173-179-
تعز 243-	219-227-275-411-426-431-443-
تكريت 227-228-	453-487-488-
تل باشر 273-	بلاد ما وراء النهر 4-10-51-53-56-57-
	58-91-94-95-97-132-133-134-
	137-263-293-
ج-	بلييس 194-195-199-203-
جبل المقطم 33-259-	بلخ 144-286-322-363-
جبل قاسيون 355-	بنغال 55-
جبل نفوسة 184-	بنين 269-
جبله 277-	

حصن الأكراد 164-	جبيل 269-
حصن الشويك 268-276-	جدة 465-464-267-
حصن العليقة 218-	جُرْجان 427-56-
حصن القدموس 218-	الجزيرة العربية 419-
حصن الكرك 268-	الجزيرة الفراتية = الجزيرة
حصن الكهف 218-	جزيرة الفيل 386-
حصن بانياس 184-181-180-179-	جزيرة ابن عمر 287-
431-427-398-337-273-246-196-	جزيرة بني نمير 164-
حصن جسر بنات يعقوب 273-	جزيرة جيراى 267-
حصن مصيف 427-255-218-180-	الجزيرة 23-21-46-176-174-123-
حطين 12- 274-270-269-265-264-	178-182-184-185-192-219-220-
حلب 4-23- 130-124-123-122-35-	246-273-
169-168-160-152-137-136-135-	جند 97-96-
214-184-183-180-178-176-170-	جيحون 132-94-53-
249-248-247-246-246-245-231-	الجيزة 33- 209-199-
262-261-258-254-252-251-250-	-ح-
340-339-316-315-309-273-263-	حارة برجوان 213-
352-351-350-349-343-342-	حارم 273-196-
365-364-361-360-359-354-356-	الحجاز 3-33-87-99-165-220-266-
384-375-372-371-370-366-	473-467-459-454-422-267-
481-479-463-460-415-409-391-	حديثة عانة 114-113-111-
485-	حاران 354-353-
الحلّة 82-	

دمشق 4-17-23 -34-115-135-136	حماة 135-170-184-214-248-252
-152-160-163-168-169-170-172	-255-263-340-342-349-354
-179-180-181-184-188-190-192	-364-371-375-392-395
-202-204-214-220-229-243-246	حمص 135-164-184-203-214
-247-248-251-262-263-266-268	-229-248-250-251-263-340-349
-273-274-274-304-311-312-313	-354-375
-340-341-342-344-345-346-347	حوران 46-170-184-262-268-373
-348-349-352-353-355-356	-
-357-358-359-360-361-364-365	الخابور 262-
-367-372-374-375-384-388-394	خراسان 29-51-52-53-54-56-57
-396-397-399-400-401-402-403	-58-96-98-100-119-124-144
-404-409-411-414-419-453-455	-157-167-258-287-290-303-304
-457-458-463-479-480-485	-319-322-361-364-427-430-459
دمياط 260-467	خلائط 130-
دوين 224-225	الخليج العربي 6-472-
ديار بكر 46-219-220-273-290	خوارزم 53-56-99-173-
-	خوزستان 39-227-287-
رام هرمز 75-	-
الرحبة 229-340	الداروم 273-
الرصافة 317-	دارية 347-
الرقعة 46-184-262-391-	دجلة 289-374-
الرملة 34-124-168-453-467-	درب الزعفراني 288-
الرها 46-123-130-170-171-174-	درب ساك 273-
-182-246	
الري 54-55-56-105-113-118-119-	
-130-133-140-153-437-444-	

-ز-

زبيد 242-243-244-473-

الزجاجة 256-

زويلة 400-

-س-

الساحل 281-

سامراء 227-

سجستان 54-

السَّحْنَة 147-

سروج 262-

السعودية 26-

سلمية 30-

سمرقند 94-97-290-304-

سنجار 262-

السند 6-54-242-453-

السودان 238-

سوريا 247-440-

سوق السراجين 285-

السويس 198-267-455-

سيحون 94-97-

-ش-

الشام 3-4-10-11-12-13-14-15-16-

17-21-22-23-24-25-26-33-34-

35-45-58-87-99-100-103-104-

115-121-122-123-124-128-131-

134-135-136-137-139-160-163-

164-167-168-171-174-176-178-

179-181-184-185-188-191-192-

193-194-196-198-200-202-205-

214-217-218-219-220-221-222-

224-225-227-230-231-232-233-

235-241-243-245-246-247-250-

252-255-256-258-259-261-262-

263-271-274-278-290-294-303-

304-309-311-316-336-337-339-

340-341-342-343-352-356-358-

360-361-366-367-370-371-374-

375-379-382-387-391-399-404-

405-408-411-414-415-418-419-

422-426-436-445-446-448-450-

453-455-456-458-460-463-467-

470-471-479-480-481-483-485-

486-487-488-

الشرقية 309-

شهرزاد 183-

الشوبك 198-215-

شيراز 39-41-75-

شيزر 184-214-

الطُّورُ 454-455-	-ص-
طوروس 5	الصالحية 397-398-400-
طوس 53-144-146-303-311-	صبرة 33-
-ع-	صرخد 273-
عدن 241-243-244-267-471-472-	الصعيد 200-237-238-256-
-473-474-	الصغد 46-
العراق 4-16-26-29-39-43-46-61-	صفد 271-
-99-103-104-107-108-110-112-	صفورية 268-269-
-114-115-116-120-123-159-163-	صقيلية 235-
-175-176-225-227-258-278-287-	صنعاء 241-242-
-290-294-310-320-374-436-453-	صور 256-257-
-455-456-472-488-	صيدا 188-269-270-
العريض 64-	صيراف 472-
عسقلان 124-188-203-269-467-	الصين 93-132-453-453-472-
العقبة 267-	-ط-
عكا 188-268-269-390-	طبرستان 39-56-286-287-427-
عمورية 123-	طبرية 34-268-269-
عيزاب 267-454-464-472-	طرابلس 171-184-188-196-219-250-
-غ-	257-265-268-270-
غزة 199-	طريثيت 157-
غزنة -51-52-53-57-98-144-	طنجة 453-
الغلافقة 474-	طود 239-
-ف-	

الفرات 34-122-129-206-263-455-	قلعة بعلبك 229-
الفرما 453-	قلعة جعبر 182-
فرنسا 453-	قلعة دركوه (شاهدز) 153-154-329-
الفسطاط 33-313-420-454-455-	قلعة ديرة 143-
فقط 256-	قلعة ديرة 144-155-
فلسطين 182-	قلعة صرخد 358-
الفيوم 385-420-	قلعة طبرك 105—
ق-	قلعة طبس 155-
القاهرة 33-74-111-112-116-126-	قلعة عزاز 253-254-
135-140-171-194-196-199-201-	قلعة كلام 155-
202-203-204-210-212-214-230-	قهستان 157-
233-243-251-258-259-260-267-	قوص 239-256-454-
271-383-384-386-387-395-399-	القوقاز 132-
400-404-405-413-418-419-	القيروان 30-33-
420-455-471-	قيسارية 129-199-269-
القدس = بيت المقدس	ك- -
القرافة 74-383-	كربلاء 43-435-
قزوين 99-141-155-	الكرك 198-214-217-234-266-268-
القسطنطينية 123-126-128-131-160-	416-390-273-
قصدار 52-	كرمان 99-103-134-453-
القُصَيِّر 454-	كش 53-
القفقاس 5	كشمير 55-
قلعة بصرى 358-	

-204-203-202-201-200-199-198	كفر طاب 184-
-214-212-210-208-207-206-205	الكوفة 36-61-115-287-453-
-224-222-221-220-219-218-217	-ل-
-240-239-235-232-231-230-229	
-256-255-252-247-246-245-243	اللائقية 170-
-271-268-267-263-260-259-258	
-313-311-310-309-294-274-273	لاهور 55-
-375-374-367-365-339-337-314	الروي 396-
-385-384 -383-382-381-378	
-406-405-394-393-392-391-387	-م-
-416-415-413-411-409-409-408	مجلد 269-
-453-452-448-445-426-422-419	المحيط الهندي 132-
-466-465-463-462-460-456-454	
-477-476-475-474-471-470-467	المخا 474-
-487-486-485-483-481-479	المدائن 36- 242-
مضيق جبل طارق 453-	المدينة 35- 64-220-266-267-485-
معرة النعمان 135-174-182-184-338-	مرو 119-133-286-303-321-322-
المغرب الأدنى 453-	351-
المغرب الأقصى 453-	المسجد الأقصى =بيت المقدس
المغرب الأوسط 453-	مشرعة الزوايا 288-
مكة 35- 100-104-124-220-244-	مصر 4-6-10-12-14-15-16-17-22-
-473-465-464-448-332-267-266	-36-35-34- 33-32-29-26-25-24
-485	-99-91-87-79-74-58-44-38-37
	-115-114-113-111-108-104-100
ملازكرد 11- 129-130-131-132-167-	-135-134-129-128-127-124-123
-264	-171-165-163-161-139-138-136
ملطية 130-	-190-188-187-186-185-184-178
	-197-196-195-194-193-192-191

منبج 123-170-176-184-214-273	نيسابور 53-119-133-146-280-284
-349-340	-310-307-303-290-287-286-285
المنصورية 33-	-444-351-326-322-321-316
الموصل 4-21-36-109-135-170-	نيقية 161-
-183-178-177-176-175-174-173	النيل 206-263-455-
-261-246-231-228-220-219-184	-ه-
-372-371-357-340-286-263-262	هراة 286-322-
-455 -415-375-373	همذان 56-99-109-110-134-156-
ميافرقين 46-164-263-	-285
-ن-	الهند 47-52-53-54-55-56-58-98-
نابلس 269-	-473-470-453-242
الناصره 269-	هونين 273-398-
النجف 75-	-و-
نسف 53-	واحة تيماء 266-
نصيبين 246-262-357-	واسط 82-115-175-
نهاوند 147-	-ي-
نهر الدجلة 227-228-	يافا 188-269-
نهر جيحون 290-	اليمن 13-15-21-26-58-87-99-
نهر خابور 183-	-238-234-232-226-220-165-133
نهر سيحون 5-	-245-244-243-242-241-240-239
النهروان 100-114-	-496-465-419-333-332-275-246
النوبة 184-245-267-	-485-474-473-471-470
نور بخارى 94-	ينبع 267-
نوقان 144-	

فهرس الجماعات والشعوب والقبائل

بنو شاور 236-

بنو عدي 67-

بنو كلاب 123-

بنو مرداس 130-

البويهيون 2-6-10-11-29-39-40-41-

42. 43-44-45-51-53-54-58-75-

79-81-99-100-101-104-105-

106-118-163-165-278-294-306-

425-426-432-433-438-445-459-

485-

البيزنطيين 11-46-122-123-126-

128-129-130-131-132-136-455-

-ت-

التتر 446-

تركمان 92-101-130-169-177-204-

430-

-خ-

الخانيون 94-96-

الخلافة الأموية 2-37-67-226-439-

الخلافة العباسية 2-4-6-10-16-19-22-

29-30-32-33-34-35-41-42-43-

44-46-48-49--57-67-74-99-

100-101-104-107-108-109-110-

111-116-117-118-119-121-125-

138-140-149-159-162-165-167-

-أ-

الأتراك 4-37-39-40-45-46-51-58-

83-84-98-102-104-106-107-

108-161-225-328-332-

الإخشيدون 32-33-34-46-

الأغالبة 30-

أفراسياب 91-

الأكراد 4-107-208-210-224-225-

226-227-412-

آل زريع 241-470-473-

آل ساسان 39-

آل سامان = السامانيون

-ب-

البيقع 62-63-

البنجاك 130-

بنو العباس = الخلافة العباسية

بنو المهدي 470-473-

بنو أمية = الخلافة الأموية

بنو بويه = البويهيون

بنو تيم 67-

بنو زريك 189-235-

-417-416-412-408-406-383-382
-453-452-451-450-448-445-432
-467-465-464-462-460-456-454
-474-473-472-471-470-469-468
-488-485-480-479-477-476-475

الدولة العيونية 126-

الدولة الغزنوية = الغزنويون

دوين 229-

الديلم 45-154-425-426-438-

-ر-

الراودية 228-

الروس 130-

الروم = البيزنطيين

-ز-

زناتة 31-

-س-

السامانيون 47-51-52-53-54.

السودانيون -208- 209-210-211-237-

-239

-ص-

الصابييون 3-6-8-12-17-22-86-

-160-159-158-135-132-130-121

-174-167-165-164-163-162-161

-184-182-181-180-179-178-176

-211-210-209-193-178-176-171
-278-262-247-242-239-222-214
-324-310-309-293-290-289-287
-433-426-364-340-339-336-332
-474-472-470-466-456-452-440
-485

-د-

الدولة الطاهرية 48-

الدولة البيزنطية = البيزنطيين

الدولة الحمدانية 46-162-163-

الدولة العبيدية 2-3-5-6-10-11-12-
-32-31-30-29-26-22-17-15-14
-33-34-35-36-44-54-57-58-65-
-73-74-77-79-81-99-106-107-
-109-110-111-112-114-115-116-
-117-121-122-124-125-126-127-
-128-129-130-131-132-134-135-
-136-137-138-139-140-160-161-
-162-163-164-165-167-168-171-
-178-181-182-183-184-185-186-
-187-189-191-192-195-196-199-
-200-201-209-210-211-213-214-
-222-224-231-233-234-238-239-
-240-241-242-244-252-259-260-
-262-264-270-274-278-281-294-
-305-309-310-313-314-315-332-
-336-337-338-339-340-365-
-367-368-375-377-378-380-

-ف-	-196-195-194-192-191-189-188
الفرس 38-40-91-104-161-	-203-202-201-200-199-198-197
-ق-	-215-214-210-208-206-205-204
قبائل السبايو 172-	-229-222-221-220-219-217-216
قبائل الغز 92-94-95-	-247-246-237-236-235-234-230
قبيلة القنق أو قينيق 92-	-259-258-257-255-251-250-249
قبيلة راشدة 74-	-267-266-265-264-263-262-261
القراخانيون 96-	-316-304-274-272-270-269-268
القرامطة 86-113-125-126-	-363 -340-339-338-337-336
-م-	-422-382-379-374 -365 -364
المروانيون 46-	-469-465-453-452-451-444-441
المسيحيون 270-	-488-487-485-481-480-473
المصريون=العبيديون	-473-470-332-240 الصليحيون
المغول 116-258-	-ط-
النميريون 45-	الطولونيون 46-
النورمان 130-235-	-ع-
-ه-	العبيديون=بنو عبيد=الدولة العبيدية
الهذيانبة 224-	العجم 91-
	العرب 92-123-225-226-
	العقيليون 46-
	العيارون 82-83-84-85-
	-غ-
	الغز 4-157-
	الغزنويون 4-10-29-51-55-56-56-
	138-58-57-
	الغوريين 58-

فهرس الفرق و المذاهب و الأديان

-أ-

الحنابلة 57-281-283-306-321-342-
353-354-355-356-362-372-383-
403-

الاثنا عشرية 2-5-43-60-61-76-77-
187-249-343-351-460-

الحنفية 281-298-303-320-321-
329-337-338-340-341-342-346-
347-350-354-355-357-358-359-
360-361-362-375-383-386-388-
391-392-395-396-397-398-399-
400-403-404-420-422-

الإسماعيلية 2-3-5-11-12-13-14-15-
17-19-20-22-54-55-59-60-61-
62-65-67-68-77-82-86-87-137-
138-139-140-142-145-146-150-
157-167-176-178-179-181-185-
186-187-191-192-195-239-249-
250-274-279-287-305-309-311-
312-319-327-343-351-371-372-
378-379-426-441-446-456-459-
460-461-470-473-475-476-477-
480-487-

-خ-

الخوارج 31-36-86-439-

-ز-

الزراشتية 327-

الزنادقة 282-438-

الزيدية 2-5-39-41-42-87-244-

الأشاعرة 281-282-283-296-351-
378-422-

-ش-

الشافعية 57-191-281-283-285-293-
294-298-302-303-304-306-315-
319-321-337-340-342-346-350-
351-353-354-355-357-357-362-
374-375-377-378-383-384-385-
388-389-393-395-396-397-
398-399-401-403-404-409-411-
413-418-419-420-422-

-ب-

الباطنية = النزارية

-ج-

الجهمية 86-282-

-ح-

الحشاشين = النزارية

-ك-

القيسانية 5-

-م-

المالكية 31-191-281-342-346-354-

362-372-378-380-381-382-

385-388-399-413-420-422-

المذهب الإسماعيلي = الرافضة = الإسماعيلية

المستعلية = الإسماعيلية

المسيحية 221-

المشبهة 282-

المعتزلة 85-282-

-ن-

النزارية 5-6-12 - 137-141-142-144-

145-146-147-148-151-152-153-

154-155-156-157-163-165-178-

179-180-181-185-191-192-217-

218-219-235-249-250-252-253-

254-255-256-256-257-258-261-

272-274-275-279-305-311-328-

329-333-337-338-339-340-341-

426-428-431-437-438-439-440-

441-442-443-444-445-448-456-

461-487-488-

النصارى 67-282-

-ي-

اليهود 282-

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
27-2	مقدمة
29	الفصل التمهيدي : الصراع السياسي والفكري بين السنة والشيعة للمشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م
30	أولا : الصراع السياسي بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م.
30	1- الدولة العبيدية (297-567هـ/910-1171م).
31	أ-المرحلة الأولى: العبيديون ببلاد المغرب: 297-362هـ/909-972م
32	ب-المرحلة الثانية : الدولة العبيدية في مصر: 362-567هـ/972-1171م
35	*مرحلة قوة الخلفاء من 362-487هـ/972-1093م
38	* مرحلة سيطرة الوزراء من 487-567هـ/1093-1171م
39	2- الدولة البويهية (334-447هـ/945-1055م).
47	3- الغزنويون (351-582 هـ / 962-1186م).
55	ثانيا : الصراع الفكري بين السنة والشيعة في المشرق الإسلامي مع مطلع القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م.
55	1- تعريف الإسماعيلية
61	2- مراتب الدعوة الإسماعيلية وتدرج المستجيب
62	أ- التفرس
64	ب- التأنيس
65	ج- التشكيك

65	د- التعليق
66	هـ- الربط
67	و- التذليل
69	ز)- التلبيس
69	ح- ط- الخلع والسلخ
70	3: الجهود الفكرية الشيعية والفتن المذهبية بين السنة والشيعية في المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس هجري 400-447هـ/1009-1055م
70	أ- الجهود الفكرية الشيعية
77	ب-الفتن المذهبية بين السنة والشيعية في المشرق الإسلامي في مطلع القرن الخامس هجري
91	الباب الأول : الدور السياسي والعسكري للسلاجقة والزركيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي: 447-600هـ/1055-1203م
91	الفصل الأول : الدور السياسي والعسكري للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي : 447-521هـ/1055-1126م
92	أولا : قيام دولة السلاجقة.
92	أ-أصل السلاجقة وتسميتهم.
96	ب-بداية ظهور السلاجقة على الساحة السياسية والعسكرية .
99	ج-دخول السلاجقة إلى بغداد
104	ثانيا: النشاط السياسي والعسكري للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي 447-521هـ/1055-1126م .

104	1 - القضاء على السيطرة البويهية الشيعية: (334هـ-447هـ/945م-1055م)
106	2- فتنة البساسيري الإسماعيلي ودور السلاجقة في القضاء عليها450-451هـ/1058-1059م.
118	3- دور الملك ألب أرسلان في مقاومة الوجود الشيعي.
121	4- الصراع بين السلاجقة والعبيديين.
122	أ- تحرك السلاجقة لاسترداد الشام وبيت المقدس من العبيديين.
125	ب- دور السلاجقة في القضاء على فلول القرامطة.
126	5- موقف السلاجقة من العلاقات العبيدية البيزنطية.
127	أ- استغلال السلاجقة للتوتر بين العبيديين والبيزنطيين لصالح الخلافة العباسية السنية .
129	ب -موقعة ملازكرد :463هـ/1070م، وأثرها في إحياء التحالف الشيعي - العبيدي -البيزنطي ضد أهل السنة.
132	6- السلطان ملكشاه بن أرسلان واستكمال المشروع الجهادي ضد الشيعة.
134	7- استرجاع ملكشاه الشام وطرده العبيديين.
137	8- ظهور الفرقة الإسماعيلية النزارية واشتداد المواجهة مع السلاجقة.
144	9- قتل الإسماعيلية للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي.
144	أ- التعريف بنظام الملك.
145	ب- موقف نظام الملك من الإسماعيلية، ومقتله .
151	10- الدور السياسي والعسكري لخلفاء ملكشاه في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي.
157	11- ضعف السلاجقة وتفككهم، وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعي.
169	12- الصراع السني الشيعي، وأثره في الامتداد الصليبي على العالم الإسلامي.

167	الفصل الثاني: الدور السياسي والعسكري للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي (521-569هـ / 1126-1173م):
167	أولا - أصول الأسرة الزنكية .
171	1-نشأة الدولة الزنكية .
178	2-عماد الدين زنكي ومشروع توحيد الجبهة الإسلامية.
182	3-وفاة عماد الدين زنكي .
183	ثانيا-دور نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في القضاء على الدولة العبيدية.
183	1-الدولة النورية وامتدادها الجغرافي .
185	2-أوضاع مصر في أواخر عهد الدولة العبيدية .
192	3-أسباب الحملات النورية على مصر.
193	4-الحملة النورية الأولى على مصر: 559هـ/1163م .
197	5-الحملة النورية الثانية على مصر ودوافعها 562هـ/1166م.
203	6-الحملة النورية الثالثة على مصر سنة 564هـ/1168م .
206	7-مقتل شاور وضم مصر إلى الشام .
206	8-تولي أسد الدين الوزارة للعاقد ووفاته .
210	9-إعلان الخطبة للخليفة العباسي ونهاية الدولة العبيدية .
213	10- الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين وأثره في مقاومة الوجود الشيعي .
217	11 -مؤامرة الحشيشية والصليبيين ضد نور الدين محمود .
219	12-وفاة نور الدين محمود ونهاية جهود الزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي .
224	الفصل الثالث: الدور السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 569-600هـ / 1173-1203م.
224	أولا: قيام الدولة الأيوبية .

224	1- صلاح الدين الأيوبي ،أصله نشأته وحياته .
229	2- بداية صلاح الدين في مصر .
233	ثانيا : النشاط السياسي والعسكري للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي 600-569هـ/1173-1203م .
233	1-القضاء على محاولات إحياء الدولة العبيدية .
239	2- فتح صلاح الدين لليمن والقضاء على بقايا الشيعة
245	3-خروج صلاح الدين إلى الشام لتوحيد الجبهة الإسلامية .
249	4- مؤامرة الحشيشية لاغتيال صلاح الدين.
252	5- هجوم صلاح الدين على معقل الحشيشية .
258	6-انتقال صلاح الدين إلى مصر وتحصين القاهرة
261	7- صلاح الدين وبناء الوحدة الإسلامية لاستكمال الجهاد ضد الشيعة والصليبيين.
263	7- صلاح الدين وتحرير المقدسات وسد الطريق أمام تحالف الصليبيين مع الشيعة الباطنية.
265	8-نصر حطين وزلزلة الصليبيين.
271	9-ظهور طائفة من الشيعة بمصر .
272	10-وفاة صلاح الدين وتفكك عضد الدولة الأيوبية وأثر ذلك في مقاومة الوجود الشيعي.
278	الباب الثاني: الدور العلمي المذهبي والاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي ،بالمشرق الإسلامي: 447هـ -600هـ /1055-1203م
278	الفصل الأول: الدور العلمي المذهبي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 447-521هـ/1055-1126م.
279	أولا- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الرافضي في القرن الخامس هجري.

279	1-أسباب بناء المدارس النظامية.
286	2-أهم المدارس النظامية.
289	3- التنظيم والتعليم في المدارس النظامية .
290	أ- شكل المدرسة.
291	ب-خزانة الكتب بالنظاميات.
293	ج- الالتحاق بالمدرسة .
293	د- المذهب المعتمد للتدريس بالنظاميات.
294	هـ- المواد المعتمدة للتدريس في النظاميات .
295	و- تعيين المدرسين بالنظاميات.
297	ز- طريقة التدريس بالنظاميات.
299	ح- منح الإجازة في النظاميات.
300	ط- أهم مُدرسي المدارس النظامية وخريجها
305	4- دور المدارس النظامية في مقاومة الفكر الشيوعي في القرن 5-6هـ/11-12م.
308	5- المد الحضاري للمدارس النظامية في العالم الإسلامي.
310	أ- الإمام أبو حامد الغزالي.
312	ب-أبو بكر الطرطوشي.
315	ج- شرف الدين ابن العجمي.
316	ثانيا- نظام الملك وإسهامه العلمي خارج المدارس النظامية في مقاومة الفكر الشيوعي.
319	ثالثا- مدارس أخرى في العصر السلجوقي عُيّنت بمقاومة الفكر الباطني.
322	رابعا- دور المساجد في مقاومة الفكر الشيوعي.
324	خامسا- التكامل السياسي الفكري بين السلطة السلجوقية والعلماء لمقاومة الوجود الشيوعي.
324	أ-عناية السلاطين السلاجقة بالعلم وتقريب العلماء لتدعيم المذهب السني .
328	ب- تدعيم السلاجقة للمناظرات العلمية بين العلماء السنة ودعاة الشيعة .

330	ج -تشجيع السلاجقة للعلماء على التأليف لضرب الفكر الشيعي .
332	سادسا-الإسهامات العلمية للسلاجقة في بلاد اليمن وأثرها في مقاومة الوجود الشيعي.
336	الفصل الثاني: الدور العلمي المذهبي للزكيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 521-569هـ/1126-1173م:
337	أولا- نور الدين محمود بن عماد الدين زكي وجهوده العلمية والمذهبية لمقاومة الفكر الشيعي
340	أ-بناء نور الدين للمدارس
344	أ-أهم المدارس زمن نور الدين محمود
344	1-دار الحديث النورية.
345	2- المدرسة النورية الكبرى .
347	3- المدرسة النورية الصغرى.
348	4-المدرسة العسرونية .
349	5- المدرسة الحلاوية .
350	6- المدرسة النفرية النورية .
351	7- المدرسة الكلاسة :
352	8- المدرسة الشعبية .
352	9- المدرسة العمادية .
353	10-المدرسة العادلية الكبرى بدمشق .
353	11-مدارس حرّان .
355	ثانيا :دور العلماء والقادة والمرأة في مقاومة الوجود الشيعي.
355	1-تشبيد العلماء للمدارس لمقاومة الفكر الشيعي.
355	أ-المدرسة الحنبلية الشريفة .
355	ب-المدرسة العمرية الشيخية .

356	ج-المدرسة المسمارية .
356	د-المدرسة البلخية.
357	2-تنافس القادة في بناء المدارس لمقاومة الفكر الشيوعي.
359	3-الإسهام العلمي للمرأة في مقاومة الفكر الباطني.
360	أ- المدرسة الخاتونية البرانية
360	ب - المدرسة الخاتونية الجوانية
361	ثالثا- جهود علمية أخرى لنور الدين في مقاومة الوجود الشيوعي .
361	1-تقريب نور الدين للعلماء لمقاومة الفكر الباطني
366	2-بناء خزائن الكتب وأثرها في مقاومة الفكر الباطني.
367	3-تشجيع التصوف السني ضد الفكر الشيوعي الباطني .
370	4- بناء المساجد والجوامع ودورها في مقاومة الفكر الشيوعي.
372	5- مرض نور الدين محمود وأثره على جهوده في مقاومة الشيعة.
377	الفصل الثالث :الدور العلمي المذهبي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيوعي بالمشرق الإسلامي : 569-600هـ/1173-1203م
377	أولا : ترسيم المذهب السني في الدولة .
379	ثانيا : بناء صلاح الدين للمدارس لمقاومة الفكر الشيوعي .
384	1- المدارس في مصر
384	أ- المدرسة الناصرية أو الشرفية
385	ب- المدرسة القمحية
386	ج-المدرسة الصلاحية أو الناصرية
387	د- المدرسة السيوفية
387	هـ: مدرسة المشهد الحسيني
388	2-المدارس في بلاد الشام
388	أ-الزاوية المالكية

389	ب-المدرسة الصلاحية
389	3- المدارس في بيت المقدس
389	-المدرسة الصلاحية أو الناصرية
393	ثالثا: بناء الأمراء والقادة للمدارس
393	1-المدرسة التقوية
395	2-المدرسة القطبية
395	3- المدرسة الأزكشية
395	4-المدرسة الغزالية
396	5-المدرسة الريحانية
397	6-المدرسة المقدمة الجوانية
397	7-المدرسة المقدمة البرانية
397	8-المدرسة الأكزية
398	9-المدرسة الجهاركسية
398	10-المدرسة القايمازية
399	11- المدرسة الفاضلية
399	12- المدرسة الإقبالية
399	رابعا: دور المرأة في الحياة العلمية ومقاومة الفكر الشيوعي
400	1-المدرسة العاشورية
400	2-المدرسة الصاحبة
401	3-المدرسة الشامية البرانية والشامية الجوانية
403	4-المدرسة العذراوية
403	5-المدرسة القصاعية
403	6- المدرسة العالمة
404	7- المدرسة الفروخشاهية
405	خامسا: تقريب الصوفية ودوره في مقاومة الباطنية

408	سادسا: إصلاح القضاء في مصر و الشام
410	سابعا-تقريب العلماء وتدعيمهم لمقاومة الفكر الشيعي
412	1-القاضي الفاضل (529-596هـ/1134-1199م)
414	2-العماد الأصفهاني (519-597هـ/1125-1200م)
415	3-بهاء الدين ابن شداد (539-632هـ/1144-1234م)
416	ثامنا: التخلص من المنشآت العلمية العبيدية
419	تاسعا : خلفاء صلاح الدين وجهودهم العلمية في مقاومة الوجود الشيعي
425	الفصل الرابع : الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة والزنكيين والأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الإسلامي 447-600هـ/1055-1203م.
425	أولا :الدور الاقتصادي والاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي: 447-521هـ/1055-1126م
425	I-الدور الاقتصادي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي.
425	1-استرجاع معاقل الشيعة وزيادة موارد بيت المال.
429	2- الإقطاع العسكري زمن نظام الملك ودوره في مواجهة المد الشيعي.
432	II- الدور الاجتماعي للسلاجقة في مقاومة الوجود الشيعي.
432	1- نصرة سلاطين السلاجقة للعامة من أهل السنة أثناء الفتن مع الشيعة.
436	2-تهجير عدد كبير من رؤوس الشيعة .
437	3-الانحلال الخلقي ودور السلاجقة في القضاء عليه.
441	4- الحد من الاغتيالات التي مارسها الشيعة الباطنية .
447	ثانيا: الدور الاقتصادي والاجتماعي للدولة الزنكية في مقاومة الوجود الشيعي بالمشرق الاسلامي : 521-569هـ/1126-1173م.
447	I-الدور الاقتصادي للزنكيين في مقاومة الوجود الشيعي.
447	1-إلغاء نور الدين للضرائب الغير شرعية.

450	2-الحرص على زيادة موارد بيت مال المسلمين.
453	3-التوسع الخارجي للدولة النورية وأثره الاقتصادي.
456	II- الدور الاجتماعي للزكّيين في في مقاومة الوجود الشيعي.
456	1-الأوقاف زمن الدولة الزنكية ودورها الاجتماعي في محاربة الفكر الشيعي.
458	2- حماية الحجاج .
459	3- إبطال ممارسات الشيعة
460	4-محاربة البدع التي مارسها الشيعة.
452	ثالثا - الدور الاقتصادي والاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي: 569-600هـ/1173-1203م.
462	I-الدور الاقتصادي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي.
462	1-إلغاء صلاح الدين للمكوس .
464	2-رفع المكوس عن الحجاج .
466	3-الإصلاحات الاقتصادية زمن الدولة الأيوبية ودورها في مقاومة الشيعة .
470	4-فتح اليمن ودوره الاقتصادي في مقاومة الوجود الشيعي.
474	II- الدور الاجتماعي للأيوبيين في مقاومة الوجود الشيعي.
474	1-التعليم المجاني للفقراء لتجنب وقوعهم فرائس للباطنية.
476	2-إقرار الأمن والاستقرار في مصر بعد قطع الخطبة العبيدية.
480	3-الحرص على القضاء على نسل العبيديين.
481	4-الأوقاف ودورها الاجتماعي في مقاومة الوجود الشيعي .
485	الخاتمة
490	الملاحق
502	المصادر والمراجع

526	الفهارس العامة
527	فهرس الآيات القرآنية
528	فهرس الأعلام
548	فهرس الجماعات والشعوب والقبائل
551	فهرس المواقع والأمكنة والبلدان
561	فهرس الفرق والمذاهب والأديان
562	فهرس المحتويات